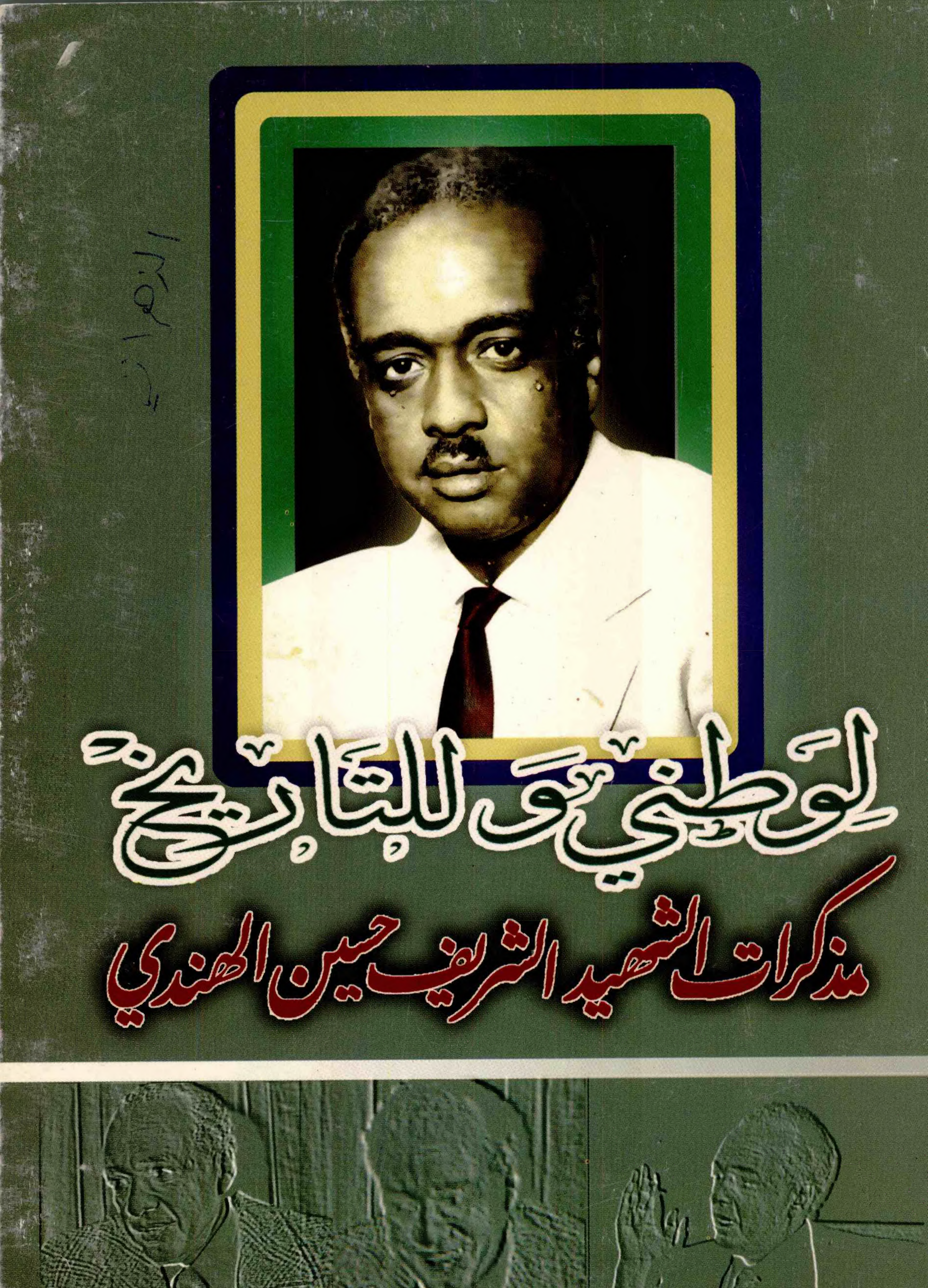


لوطني وللتاريخ

مذكرات الشهيد الشريف حسين الهندي

فهرست المكتبة الوطنية - السودان

962.44 محمد الأمين الشريف عمر الهندي

ش.ل

لوطني والتاريخ/ محمد الأمين الشريف عمر الهندي

الخرطوم

302 ص؛ 24 × 17 سم.

ردمك: ISBN 99942/801-0-7

١- السودان - تاريخ - العصر الحديث.

٢- الشريف حسين الهندي - السيرة الذاتية

أ- العنوان

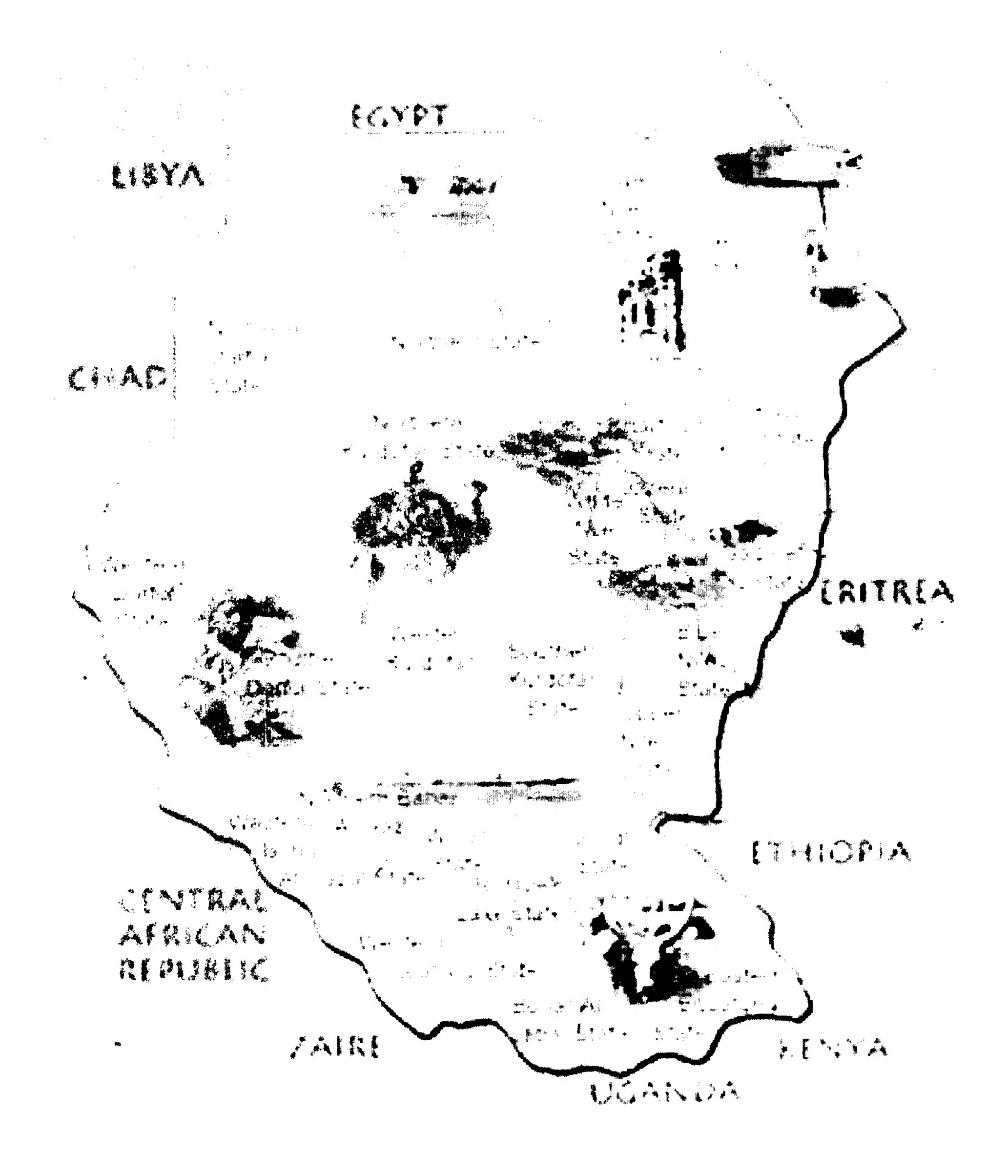
- رقم الإيداع: ٢٠٠٦/٢٤٦

- طبعت منه ٢٠٠٠ نسخة سنة ٢٠٠٦م (طبعة أولى)

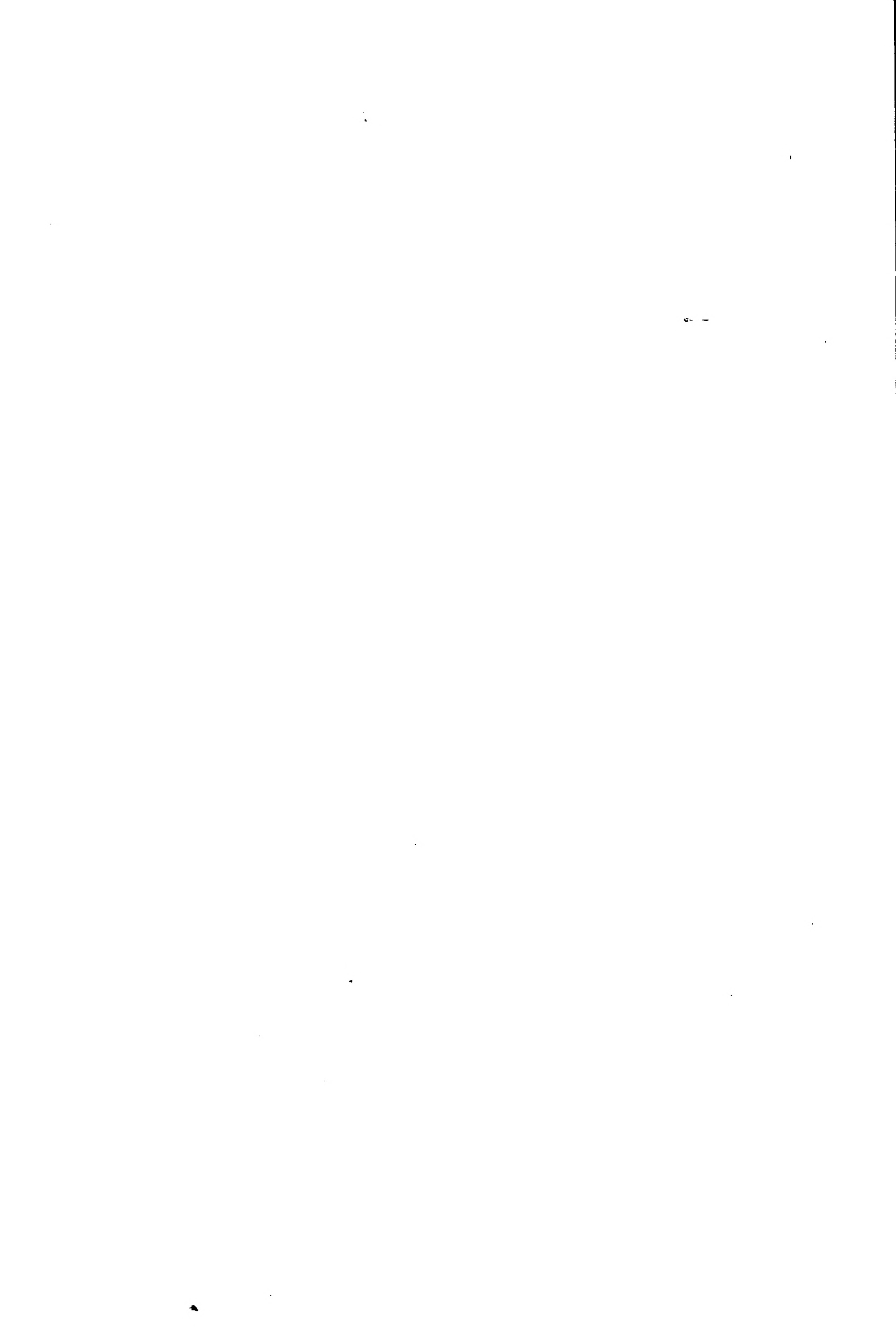
- التحرير والمراجعة اللغوية البروفسير ابراهيم القرشي

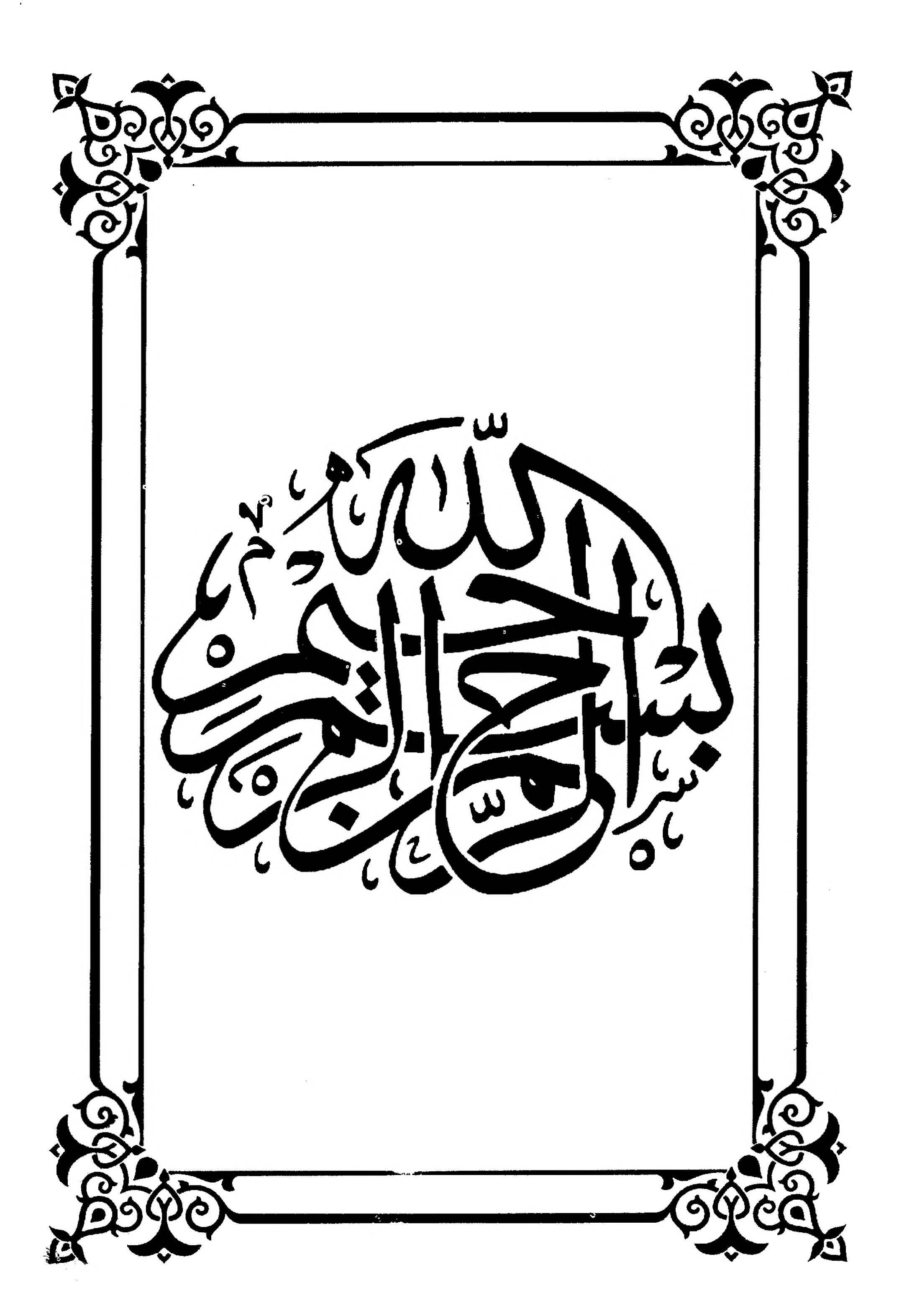
- لوحة الغلاف الفنان د. بدر الدين

- رقنه فيصل الجزولي



لوطني وللتاريخ




بسم الله الرحمن الرحيم

محتويات الكتاب

الإهداء

* إلى روح الوطني المناضل والمعارض الباسل الشريف حسين الهندي وقبل ذلك :

* إلى روح جده أبي الحيران قطب القرآن وخادم علومه الشريف محمد الأمين الهندي . .

* إلى روح والده الزعيم الديني والوطني العارف بالله الشريف يوسف محمدالأمين الهندي . .

* إلى روح أستاذه أبي الوطنيين الأحراروررافع علم الاستقلال الرئيس إسماعيل الأزهري . .

* إلى أرواح شركائه في النضال والكفاح الوطني المستميت الإمام الشهيد الهادي المهدي وكافة شهداء انتفاضة الجبهة الوطنية في ٢ يوليو ١٩٦٧م

*إلى كل محب للحرية والديموقراطية والعدالة الاجتماعية و كل متشرب بالوطنيةمحب للسودان وأهله

محمدالأمين الشريف عمر الهندي

نبذة من سيرة الشريف حسين الهندي

بتصرف واختصار من نشرة للكاتب الصحفي الأستاذ صديق البادي بعنوان : " الشريف حسين الهندي . . أسرار وخفايا "

نسبه ومولده:

هو الشريف الحسين بن الشريف يوسف (الهندي) بن الشريف محمد الأمين، بن الشريف يوسف ، بن الشريف أحمد ، بن الشريف زين العابدين ، بن الشريف حمد بن الشريف آدم ، بن الشريف محمد الشهير بالهندي . . والذي علق به لقب الهندي لأن مرضعته في مكة كانت هندية الأصل ، وهو أول من دخل السودان واستقر فيه من أسرته . . وهم جميعا أهل علم وتقوى وجد واجتهاد اشتغلوا بتعليم القرآن والحديث وعلومهما . وقد تنقلوا وانتشروا في أماكن كثيرة بالجزيرة وشمال الخرطوم وشرق السودان إلى منطقة أصوصة بالحبشة . وكما هو معروف فقد ارتبط اسم الشريف محمد الأمين الهندي – جد الشريف الحسين – بتحفيظ القرآن الكريم مجودا بالقراءات المشهورة وله في رسم القرآن وعلومه المختلفة منظومات ومصنفات ؛ وعنه قال **الشاعر/ عبدالله البنا . . عندما رثى الشريف يوسف الهندي :**

أبـوك سمير الله يتلو كتـابه ... وينشرنورالوحي في الغور والنجـد

ويملي فتتلوه القلوب خواشعا ... ويدعو فيرجى في الجماهير والحشد

ويقول الشاعر/ محمد المهدي المجذوب في حفل تأبين الشريف يوسف الهندي :

رد آباؤك الهداة إلـى القرآن ... نورا من البيان الرصين

أنت من معشر تخف المحاريب ... إليهم في رهبة وفتون

منهم ذلك الذي رتّل القـرآن ... في أفق خشية وسكون

هـام بالليل هاتفـا بالتراتيل ... هتاف النسيم بالنسرين

كلّمته السماء يستنزل التنزيل ... مـن سر نورها المكنون

رضي الله عنهم ورضوا عنـه ... وسرُّوا قلوب حورعين

وجدة الشريف الحسين لأبيه هي : السيدة/ شموم بت الأرباب أحمد ود الزين من منطقة السروراب شمال الخرطوم . ووالدة الشريف الحسين هي : التاية محمد أحمد خير ، وهي شقيقة الأستاذ/ أحمد محمد خير . الشهير بأحمد خير المحامي العلَم الوطني الشامخ ، وصاحب فكرة مؤتمر الخريجين؛ وكتاب « كفاح جيل » . اقتضى وضع والد الشريف الديني والاجتماعي أن يكون له عدد من الزوجات فكان للشريف نتيجة ذلك عدد كبير من الأخوان والأخوات منهم على قيد الحياة الآن ثلاثة هم خليفة سجادة الطريقة الهندية الشريف الصديق وأخوه الشريف الحسن والأخ الشقيق للشهيد وهو الشريف زين العابدين رئيس الحزب الاتحادي الديمقراطي (الأمانة العامة) ومن أخواته شقيقتهما السيدة آمنة حفظهم الله جميعا .

النشأة والدراسة:

ولد الشهيد الشريف حسين في عام ١٩٢٤ م ، ونشأ وترعرع بضاحية بري الشريف شرق الخرطوم، في بيت عادي من بيوت الطين ، يتكون من حجرتين جدرانهما سميكة ، ولا زالت الحجرة الواسعة التي نشأ فيها مع والدته وشقيقه وشقيقته قائمة ، مسقوفة بمِرِق وسقف بلدي عادي . وكل المساكن التي نشأ فيها أخوانه وأخواته وأمهاتهم بذات المستوى ؛ ولم يكن يميز الشريف يوسف عن غيره من الزعماء المرموقين إلا سراياه ، وهي ديوان ومضيفة وليست لسكنى أسرته .

عاش الشهيد كما يعيش العاديون من الناس بدون أي تمييز عليهم ؛ برغم أن والده كان من زعماء السودان الدينيين الثلاثة ؛ وكان ذا سعة ويسر . وقد ألحقه والده بالخلوة لحفظ القرآن الكريم . وكان ينام هو وإخوته في الخلوة مع شيخها ليتعودوا الاعتماد على ذواتهم منذ صغرهم ؛ وأتم حفظه للقرآن الكريم في سن باكرة .

ثم حضر خاله الأستاذ أحمد خير وكان وقت ذاك يعمل مترجما بالمديرية قبل أن يلتحق بمدرسة الحقوق وأخذه معه ليتم دراسته بمدينة ودمدني وألحقه بالصف الرابع بالمدرسة الأوليه بودمدنى ؛ ورغم أنه لم يدرس المواد التي درسها زملاؤه , طوى كل

المرحلة الأولية في عام واحد ؛ وامتحن للدخول للمرحلة الوسطى ؛ وقبل بمدرسة ودمدني الأميرية في عام ١٩٣٥ م .

وفي منتصف الصف الرابع بالمدرسة الوسطى ، وقبل أن يكتمل العام الدراسي ذهب الشريف الحسين ومعه صديقه وزميله في الفصل في ذلك الوقت السيد مأمون بحيري ، لتلقي دراستهما الثانوية بكلية فكتوريا بالاسكندرية بمصر ؛ وقد زاملهم في ذات الدفعة السادة / إسحق محمد الخليفة شريف ، وكمال عبدالله الفاضل المهدي وكمال البرير . . وسبقهم السيد/ الهاديّ المهدي . . وقد أقنع السيد عبدالرحمن المهدي ، الشريف يوسف الهندي بضرورة إرسال ابنه الحسين لكلية فكتوريا ، وطلب منه أن يسمح له بمعاملته كابنه السيد/ الهادي ، وقد سكن الشريف حسين مع السيد الهادي في حجرة واحدة ، ونمت بينهما صداقة حميمة وكانا يتعاملان كأنهما شقيقان . وكان السيد عبدالرحمن المهدي شديد الإعجاب بالشريف حسين لنبوغه وللصلة المتينة والعلاقة الوطيدة والآصرة القوية التي كانت تربطه بوالده . وفي أثناء الحرب العالمية الثانية أقفلت كلية فكتوريا أبوابها . . ونتيجة لذلك ، ألحق كل طلبتها من السودانيين بكلية غردون ، ليكملوا بها دراستهم الثانوية . . وقد ألحق الشريف بالصف الرابع " أ " الذي كان يضم المبرزين من الطلبة ؛ وقد حصل الشريف على نتائج ممتازة أثناء دراسته . ومن زملاء الشريف بكلية غردون الذين درسوا معه في صف واحد ، السادة / أحمد زين العابدين ، ورحمة الله عبدالله ، ومحمد خوجلي ، ودكتور/ عبدالمنعم وصفي ، ودكتور/ حمدنا الله الأمين ، والمهندس / إبراهيم محمد إبراهيم ، وغيرهم .

ومن أبرز الأساتذه السودانين الذين درّسوا بالكلية ، الأستاذ إسماعيل الأزهري معلم الرياضيات ، والأستاذ مكي شبيكه معلم التاريخ ، والشيخ عبدالله البنا معلم اللغة العربية - الذي كان معجبا بالشريف الحسين - لتصدره لزملائه في المواد الأدبية ؛ وكان شيخ البنا يقرأ داخل الفصل وأمام الطلبة ، مواضيع الإنشاء التي كان يكتبها

الشريف .

وقد توفي والده الشريف يوسف الهندي يوم ٢٥/ ١٢/ ١٩٤٢ م ؛ وبعد أربعين يوما من وفاته ، أقام الخريجون ليلة لتأبينه ، وفاءً له لأنه أهدى لهم مبنى نادي الخريجين بأم درمان ، وتحدث في ليلة التأبين نخبة من قادة الخريجين ، وألقى أربعة شعراء هم : عبدالله البنا وعبدالله عبدالرحمن والشيخ مجذوب جلال الدين وابنه محمد المهدي المجذوب ، أربع قصائد . . وفي نهاية الحفل ارتجل الشريف الحسين كلمة بليغة ، اهتزت لها أرجاء المكان ؛ وأقر الخريجون إعادة ذات الحفل في اليوم التالي ، وإقامته بدار الشريف يوسف الهندي ببري . . ومنذ الصباح الباكر بدأت الاستعدادات لإقامة هذا الحفل ، واستقبال الجموع الغفيرة التي حضرته ؛ وكان الشريف الحسين كعادته يحفر ويعمل بيديه في تركيب الخيام ؛ وكان أيضا يعمل مع من يعدون الطعام . وبدأ الحفل وأخذ الخطباء يلقون خطبهم وسط الحشود الضخمة ؛ والشريف الحسين في شغل شاغل عن كل ذلك . . وعندما أعلن مقدم الحفل اسمه ، ليأتي لإلقاء خطبة بالإنابة عن أخيه الخليفة الشريف عبدالرحمن وعن أسرته وإخوانه غسل يديه واتجه بسرعة نحو المنصة ، وارتجل خطبة ظلت حديث الناس لزمن طويل وأدرك كبار الخريجين منذ ذاك الوقت وقبل قيام الأحزاب ، بأن هذا الشاب غير عادي وسيكون له شأن عظيم .

صفاته وأخلاقه:

عرف الشريف منذ طفولته الباكرة بالتفوق وحدة الذكاء وسرعة الحفظ وكان دائب الحركة جم النشاط يحب العمل ويكره الخمول وكان في طفولته مرحا فكهها يحب مصارعة أقرانه واشتهر بينهم بالجرأة والشجاعة والإقدام والمغامرة وركوب المصاعب

و كان الشريف يتمتع بذاكرة قوية ، واعتاد أن يحفظ أسماء الناس بسرعة شديدة ويتذكر كل من يلتقي به ، مهما كانت فترة لقائه به قصيرة . وقد ساعده ذلك فيما بعد على معرفة لجان الحزب وجماهيره ؛ وقد كسر الحواجز تماما بينه وبين الجماهير

ولذلك فقد قفز للمقدمة بسرعة ؛ وتقدم على كافة زملائه ، الذين سبقوه في الانضمام للحزب منذ تأسيسه .

ومنذ أيام دراسته في الخلوة ، كان إنسانا اجتماعيا محبوبا نشطا ؛ يعمل بيديه مع الذين يعدون الطعام ، ويساهم في نقله بعد إعداده على علاتقه . ومنذ طفولته أحب المساكين وعاش معهم واختلط بهم ؛ وكان يتفانى في خدمتهم . وعرف بالكرم المبالغ فيه والإيثار وكراهية الأثرة والأنانية ؛ ولا غرو إذ كان يعتبر كل ما يكتسبه هو حق مشاع لغيره ؛ ويدع الآخرين يشاركونه ويقاسمونه في كل شيئ حتى في ملابسه وذكر زملاء طفولته ببري ، وبعض زملاء دراسته بودمدني وفكتوريا ، أن قلبه لا يعرف الحقد ؛ ولكنه لا يقبل أي استفزاز . . وإذا استغضب فإنه يثور ثورة عارمة . وعرف منذ طفولته بالفصاحة والإبانة وطلاقة اللسان وقوة البيان .

وكان الشريف إنسانا متعدد المواهب ، و بحرا واسعا من أي جانب أتيته ، ولكن الجوانب التي تستحق أن يتعمق فيها الدارسون ، هي الجوانب الإنسانية . فقد ولج العمل العام من هذا الجانب ، وكان في حياته الخاصة متواضعا ونصيرا للمستضعفين ولصيقا بالبؤساء ، وعطوفا على المساكين الذين أحبهم وأحبوه ، وكان رقيقا في تعامله معهم ، ينفق عليهم إنفاق من لا يخشى الفقر .

ويقول اللصيقون به ، إنه في حياته الخاصة إنسان ودود ، دمث الأخلاق ، يألف ويؤلف . وهو صوفي بطبعه ، لم يستمتع في حياته بطعام أو نوم، وكان يأكل قليلا ويكتفي أحيانا ، بوجبة واحدة في اليوم أو اليومين .

وكان الشريف كريما متلافا يفيض بالمروءة والإيثار وحب الخير للآخرين . . وقد ساهم في علاج المرضى ، وقضاء حاجة كل من يقصده ، واهتم بطلاب العلم اهتماما فائقا ، وقد تلقى الكثيرون منهم دراساتهم الجامعية وفوق الجامعية على حسابه الخاص ، وكان ينفق كل ما يحصل عليه من أموال طائلة في وقت وجيز ، على المرضى وذوي الحاجات والمحتاجين والطلبة . . منهم من عاش في أرقى فنادق لندن

التي أتوها من السودان معارضيْن ، ومنهم من كان يقيم في أفخر الشقق ، يعيشون في مستوى محترم، على حساب الشريف . ويقيم آخرون في مثلها بعواصم أوربية وعربية أخرى ، وينفق عليهم الشريف أيضا .

وأضحى في مصر قبلة لكثير من السودانيين وغير السودانيين ، ممن يقصدونه طالبين مساعدته . . فكان يأخذ باليمين - مما يكسبه من تجارته في الجِمال وغيرها من أنواع التجارة الأخرى . . وينفق على غيره - ويوزع بيسراه حتى مرت به ظروف لم يكن يملك فيها شيئا ، ولكنه سرعان ما يحصل على أموال طائلة . . وكان يعتقد أن أسهل شيئ في الدنيا ، هو الحصول على المال ، وكان يحصل عليه بسهولة لكنه ينفقه بسرعة . ولاغرو فمن أقواله المأثورة . . نحن لسنا مخازن للمال ولكنا محطات

وحين كانت كلية فيكتوريا تطلب من كل طالب بها ، أن يكتب اسم شخص سوداني مقيم بمصر كضامن له يمكن الرجوع إليه ، إذا حدث للطالب أي شيئ يتطلب الاتصال بأسرته في السودان ، أو أخذ قرار بشأنه . . وهو أشبه بولي الأمر الشرفي كان الشريف الحسين ضامنا وولي أمر شرفيا لكثير من الطلاب السودانيين يومها هناك . .

وكان الشريف قبل أن تزحمه مشاغل السياسة يحب المدائح النبوية ويجالس المادحين ويسهر معهم وهم يرددون قصائد والده في مدح المصطفى (ص)؛ ويقرأون موالده ومؤلفاته المختلفة وكان أنشط الذاكرين في حلق الذكر بل ألف بعض القصائد في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم تقول مطالع بعضها :

كم بنادي في كل نادي ووادي لي المصطفى

وقوله :

بروق الخيف ضياك بعيد على المشتاق صباح العيد

وكان شاعرا مجيدا ولكنه مقل وكان خطيبا ذرب اللسان ومتحدثا لبقا يجذب السامع ويؤثر في المتلقي .

حبه للعمل الميداني وبغضه للبروتوكولات:

كان الشريف يؤمن بالعمل الميداني الذي يقتضي الالتصاق المباشر بالجماهير ولا يحب أن يتقيد بالبروتوكولات ، ولا القيود ولا المواتر ، لأنه اعتاد الانفلات من النظام ، ويريد أن يذهب حيث يشاء ، وينام حيث يريد ، سواء أكان ذلك على ظهر ترعة ، أو على نجيلة ؛ ويريد أن يختلط بالجماهير ، بلا قيود أو سدود . . وكان لا يحب الانغلاق في الغرف ، وقضاء الوقت في التنظير . . وهو يؤمن بأنه يمكن أن يجد أنجع الحلول لأكثر القضايا تعقيداً عند أصدقائه ، من ذوي المهن البسيطة ، الذين كان يلتقي بهم . لذلك كان يعيش وسط الجماهير ، وكان منزله مليئاً بالذين يلجأون إليه لحل مشاكلهم ، وإيجاد الحلول لها . وكان يسكن عازبا في منزله المكتظ دوماً بالزوار وطالبي الحاجات . . صباح مساء . وقد كان بعض الباعة المتجولين ينتهزون هذه السانحة لبيع حاجاتهم عند أبوابه .

وكان الشريف يبيت أحياناً في استراحة الجزيرة بالخرطوم (٢)، أويسهر وينام في منزل أحد أصدقائه ، أو يذهب لود مدني أوغيرها ، أو يكون في إحدى زياراته الميدانية للجزيرة ؛ ويظل زائروه في انتظاره . وكان يحضر أحياناً في ساعة متأخرة من الليل ، أوفي ساعات الصباح الأولى ويجدهم نائمين ، وربما يجد أحد الزائرين قد نام على سريره ، فلا يزعجه بإيقاظه . . بل يدعه يواصل نومه ، وينام هو بالقرب منه على الأرض ، وعندما يصحو النائم يجد الشريف نائماً على الأرض قربه!

واعتاد أن يقسم قصاصات على زائريه ، الذين كانوا يدخلون عليه واحداً إثر الآخر ويبثونه شكواهم ، أويقدمون له طلباتهم وحاجاتهم . فكان يكتب لهم توصيات على هذه القصاصات للجهات المختصة ، أو يقدم لهم مساعدات مالية ، أو أي حلول أخرى . . ولذلك كان كثير الغياب من مكتبه بالوزارة في الصباح ، ويندر أن يكون موجوداً بالوزارة ، وقد يستغرب من يجده وسط تلك الحشود ، كيف يدير أخطر وزارة في الحكومة (وهي المالية والاقتصاد)! ولكنه في أغلب الأوقات كان يذهب

لمكتبه - لتصريف أعماله في هدأة الليل . . . وفي أثناء اليوم ، كان يكثر من استعمال التليفون ؛ فكان على صلة وثيقة بمكتبه ، وبكبار موظفي وزارته ، التي كان يعرف فيها كل كبيرة وصغيرة ، بصورة أدهشتهم . وكان يحفظ الأرقام بطريقة مذهلة ويتذكر حتى التفاصيل الدقيقة جداً .

وفي جلسة تاريخية شهيرة من جلسات الجمعية التأسيسية ، ألقى رئيس الوزراء خطابا هاجم فيه الشريف الحسين ، وتحدث عن كثرة غيابه ، وردّعليه الشريف رداً لاذعا شهيرا ، ودافع عن نفسه باستماتة ، وأوضح أنه كان يتجول برجليه وبعربات الكارو ، وسط المواطنين لحل مشاكلهم ، بينما ظل رئيس الوزراء يقوم بجولات حزبية ، يستغل فيها الطائرات .

نشاطه الاقتصادي:

كان الشريف حسين صاحب طموح واسع وخيال خصب مجنح يتبعه تنفيذ وعمل وجد وإرادة وتصميم . أراد أن يختصر المسافات ويطوي الحقب ؛ ففكر في تكوين شركة لما وراء البحار شاركه فيها السيدان إبراهيم المقبول وعبد الرحمن أبو حسبو شقيق صديقه عبد الماجد أبو حسبو . لكن ما لبث الشريف أن انسحب من الشركة وتفرغ لفترة للعمل الزراعي الذي بدأه في مزرعته الواسعة بحلة كوكو وماتزال هناك حتى اليوم . كما باشر الزراعة بمنطقة سوبا شرق ثم أقام مشروعا زراعيا بمنطقة أم أرضة بالنيل الأبيض وله مشروع بمنطقة التمانيات شمال الخرطوم بالقرب من قرية الكباشي ؛ وزاول الزراعة المطرية الآليه حيث شارك السادة: عبد الرحمن أبوحسبو ومحمد إدريس أبولكيلك في إقامة مشاريع زراعية بالقضارف بل امتد نشاطه الزراعي إلى مصر التي اشترى فيها أرضا واسعة بمنطقة أمبابة تحولت إلى أراضي سكنية فيما بعد وفي فترة متأخرة وبعد قيام ثورة مايو و بسبب معارضة الشريف للسلطة القائمة فرض الرئيس أنور السادات حراسة على أراضي الشريف وماتزال معلقة .

وأقام بمصر ردحا من الزمان في هجرات متقطعة . . وفي منتصف الأربعينات كان يقيم بفندق الكونتننتال وقد تزامن وجوده مع وجود وفد السودان برئاسة الزعيم إسماعيل الأزهري فساهم الشريف مساهمة فاعلة في نفقات الوفد . ثم في أواخر الخمسينات آثر الشريف أن يعود إلى مصر ويقضي فترة الحكم العسكري فيها متفاديا الاصطدام بالعساكر والحرج مع خاله أحمد خير المحامي الذى كان منه بمنزلة أبيه والذي اختارته حكومة عبود وزيرا لخارجيتها .

وعمل الشريف في تلك الفترة بتجارة الجمال وغيرها . . وبإيعاز من الرئيس عبد الناصر وباتفاق مع الحكومة المصرية عمل الشريف على إنقاذ ثروات دولة الكنغو وخصوصا الذهب خشية أن تسيطر عليها الدول الغربية فاشترى طائرتين من فرنسا على أن يستكمل قيمتهما فيما بعد بضمانات كافية قدمها للشركة واستطاع استجلاب كميات كبيرة من الذهب كان يسلمها لثلاثة أشخاص محددين من قبل الرئيس عبد الناصر وسدد من نصيبه قيمة الطائرتين . . عمل بعد ذلك في تصدير السلاح إلى حكومة لوممبا بتأييد ومساندة من جمال عبدالناصر والنظام المصري .

العمل السياسي :

انضم معظم زملاء الشريف إلى الأحزاب الاتحادية التي اندمجت في الحزب الوطني الاتحادي عام ١٩٥٣م وكان عدم انضمام الشريف لهذه الأحزاب مثار تساؤل مع أن زملاءه يدركون تعاطفه مع الحركة الاتحاديه وكان في رده على تساؤلهم يتذرع بأسباب لم تكن تقنعهم غير أن بعض المقربين كانوا يعرفون أن من رأي الشريف أن الطائفية ينبغي أن تبتعد عن العمل السياسي الحزبي وعلى قادتها ألا يتدثروا بالقداسة إذا أرادوا أن يخوضوا مع الآخرين غمار السياسة ولذلك رفع الشريف منذ وقت باكر شعار (لاقداسة مع السياسة) وهو الشعار الذي التقطه فيما بعد الأستاذ يحي الفضلي وفور انفصال طائفة الختمية وتكوينها لحزب الشعب الديمقراطي بادر الشريف حسين بالانضمام للحزب الوطني الديمقراطي وقد كتب الشريف مقالا عن الطائفية في

جريدة العلم بعنوان (لاقداسة مع السياسة) جاء فيه : (نحن نحترم رجال الدين ما التزموا جانب الدين واعتصموا بدينهم وربهم ابتغاء مرضاة الله ولكنا لا نهادن الكهنوت السياسي والرهبنة وعندما نتعرض لزعيم ديني . . أصبح زعيما سياسيا . . فإننا لا نتعرض لمسائله الخاصة فهي ملكه — إننا لا نتحدث عن طعامه وشرابه وعواطفه على الرغم من أننا نعلم عنها الكثير — وإنما نتحدث عن مدى صلته بالمجتمع الذي يعيش فيه ومدى تأثيره السياسي على طائفة من المواطنين بغض النظر عن الأسلوب الذي يتبعه لأنه سياسي على كل حال) .

وكون آل الهندي حزبا سموه الحزب الوطني كان يرعاه الخليفة الشريف عبد الرحمن وتقلد رئاسته دكتور عبدالقادر مشعال وتولى سكرتاريته قريبه الأستاذ يحي محمد عبدالقادر وقد أعلن حسين الهندي على الملأ أنه يحترم أخاه الشريف عبد الرحمن ويقدره حق قدره؛ ولكنه يتحفظ على قيام مثل هذا الحزب لأنه بصورته هذ لن يحصل على أي أصوات تذكر ولن يظفر بأي دائرة من الدوائر الثلاث أو الأربع التي قرروا أن يخوضوا فيها الانتخابات وأثبتت الأيام صدق حديثه . . وقدم الشريف الحسين تصورا واقعيا عمليا للدور السياسي الذي ينبغي أن يؤدوه في الساحة السياسية عبر حزب مفتوح لكافة المواطنين وليس عبر حزب طائفي صغير منغلق على نفسه يمتد وجوده في مناطق محدودة من القطر . . وبحلول موعد الانتخابات تعرض الشريف لحرج شديد حيث أعلن ترشيحه في دائرة الحوش وهي مركز ثقل الحزب الناشئ الذي يرعاه أخوه الخليفة الشريف عبد الرحمن الذي سمى مرشحه وهو السيد عثمان جاد الله جمعة؛ ووقع الناخبون في بلبلة . . ورجع الشريف عبد الرحمن إلى بري وقد صعب عليه أن يسحب مرشحه أو يطلب من أخيه التنازل . مضت الانتخابات في طريقها وفاز الشريف حسين فوزا ساحقا رغم العقبات التي وضعت في طريقه ولكنه ظل يردد في تلك الأيام أن اختلاف الرأي لا يفسد للود قضية . . . وحافظ على علاقة جيدة مع السيد عثمان جاد الله وكان يقدره لكبر سنه وصلته الأسرية والروحية

القديمة ببيت الشريف وظلت علاقته به متميزة وقد رشحه حين كان وزيرا للمالية لعضوية مجلس أدارة مشروع الجزيرة وظل يزوره بقرية الرميتاب إلى أن توفاه الله .

أما علاقته بشقيقه الشريف عبد الرحمن الهندي فإنها لم تتأثر قط بهذه البلبلة التي مضت كسحابة صيف لأن الشريف حسين كان يبادل إخوانه وخلفاء الطريقة الهندية ودا واحتراما يشهد به كل من عرفه وكان يقابلهم وهو منحني الرأس ويخاطبهم في ود ورقة وأدب جم . .

والجدير بالذكر أن الحزب الوطني الوليد انضم بعد تلك الانتخابات إلى الحزب الوطني الاتحادي بمجهود من السيد محمد أحمد المرضي الذي كان زميل دراسة لراعي الحزب الشريف عبد الرحمن الهندي .

وبعد إعلان دمج الحزب الوطني في الوطني الاتحادي سجل الزعيم إسماعيل الأزهري رئيس الوزراء ورئيس الحزب الوطني الاتحادي على رأس وفد من الحزب والحكومة زيارة إلى قرية العقدة والتقى بآل الهندي في معقلهم ووسط مريديهم في لقاء جماهيري حاشد وارتجل الزعيم خطابا مجد فيه آل الهندي وتحدث عن الشريف محمد الأمين ووصف الشريف يوسف بأنه (المجاهد الأول) وأثار ذلك الخطاب ضجة في الأوساط الطائفية .

بعد تلك الزيارة أعلن الشريف حسين انضمامه رسميا للحزب الوطني الاتحادي وأخذ يعمل بحماس في مختلف الجهات فكان يكتب في جريدة (أنباء السودان) التي يترأس تحريرها الأستاذ يحي عبد القادر وفي جريدة (النداء) التي كان يرأسها زميله عبد الماجد أبوحسبو . . وكان من أميز المحررين بجريدة (العلم) ؛ كما كان يزاول الكتابة في مجلة (الطريق) التي كان يصدرها الأستاذ أحمد زين العابدين . وكان صاحب قلم شجاع لا يرائي ولا يداهن وكان الناس يتابعون بشغف سلسلة مقالاته مثل : «خواطر نائب» و «دولة الإقطاع » و «عودة الهارب » وغيرها .

وفي عام ١٩٥٨م ترشح الشريف في دائرة الحوش عن الحزب الوطني الاتحادي

وكان في الوقت نفسه مشرفا على الانتخابات في دارفور وقد فاز في دائرته فوزا كاسحا .

وبجانب عضويته في البرلمان واصل الشريف عمله الصحفي وقد كلفته كتلة المعارضة الرد على خطاب الميزانية في ٣/ ٦/ ١٩٥٨م . . فألقى خطابا ضافيا أشاد به السيد محمد أحمد المحجوب وزير الخارجية آنذاك ووجد استحسانا كبيرا وسط قطاعات المجتمع .

عند انقلاب عبود في ١٧ نوفمبر١٩٥٨م أعلن الاتحاديون بقيادة إسماعيل الأزهري معارضتهم لهذا النظام وتشكلت خلية لمناهضته تكونت من الشريف حسين وعمر محمد عبد الله ومحمد جبارة العوض وأحمد زين العابدين وعبدالماجد أبوحسبو وحسن عبد القادر وعبد المنعم حسب الله . . وكانو يلتقون بمنزل الزعيم الأزهري وقد طلب منهم التريث حتى يثبت للناس سوء الحكم العسكري ثم تبدأ المناهضة . . فقرر الشريف الهجرة إلى مصر وعمل هناك بالتجارة وصار قبلة الكثير من السودانيين وغيرهم في مصر . وقضى فترة في لبنان التقى فيها بكثير من اللاجئين السياسيين .

وانطوت فترة الحكم العسكري وعاد الشريف إلى السودان وعمل بجد واجتهاد في صفوف الحزب الوطني الاتحادي — واختير وزيرا للري والقوة الكهربائية المائية في حكومة المحجوب الأولى؛ ثم وزيرا للمالية في نفس الحكومة حين خلا المنصب باستقالة السيد إبراهيم المفتي لظروفه الصحية . . وفي عام ١٩٦٦م عيّن الشريف وزيرا للحكومات المحلية في حكومة السيد الصادق المهدي . ثم عاد وزيرا للمالية والاقتصاد في حكومة المحجوب الثانية .

بعض إنجازاته :

منذ عام ١٩٦٧م كان الشريف — كما يقول البادي — هو حاكم السودان الفعلي لأنه كان يسير وزارة المالية بطريقة مكنته من جمع كل الخيوط بين يديه ليحركها كيف

يشاء ومتى شاء . فدار الجميع في فلكه واحتار حتى كبار الموظفين في كيفية تسييره للوزارة وبراعته في حل المعضلات وفك الاختناقات حتى قال روبرت ماكنمارا (وزير الدفاع الأمريكي إبان حرب فيتنام) في مذكراته عن فترة رئاسته للبنك الدولي : خلال عملي لمدة ثمانية أعوام في البنك الدولي لم يستوقفني ويدهشني محافظ من محافظي البنك (بحكم مناصبهم كوزراء للمالية) مثلما استوقفني وأدهشني شريف السودان في نقده لسياسة البنك الدولي . .

وكان اهتمام الشريف بالزراعة لا يعادله اهتمامه بأي شيء آخر لذلك كان وهو وزير المالية يتفقد بنفسه مشاريع الإصلاح الزراعي بالنيل الأزرق وسنار؛ ثم يصدر القرارات وينفذها فورا. ووجه جل اهتمامه إلى مشروع الجزيرة الذي كان يراه مركز الثقل في اقتصاديات البلاد وهو الذي استقدم لجنة (مستر رست) من البنك الدولي لتعمير وتحديث مشروع الجزيرة وامتداد المناقل . . والذي يدل على بعد نظر الشريف أن المشروعات الطموحة التي طرحها حين كان مشرفا سياسيا على انتخابات ١٩٦٨م هي المشروعات التي شرع في الإعداد لتنفيذها . . وأكملت من بعده وهي التي نجني ثمارها إلى اليوم ومنها : كبري حنتوب — مشروع الرهد الزراعي — مصنع سكر كنانة — مصنع سكر عسلاية — طريق مدني سنار الدمازين- كبري سنجة

أما في مجال الإصلاح الإداري فمن أهم الأعمال التي ارتبطت باسم الشريف؛ تنفيذه لمشروع محاربة العطالة أوبند الإدارة العمومية المعروف ببند الهندي والذي يقضي باستيعاب كل من أكمل المدرسة الوسطى فما فوقها موظفا في الحكومة هادفا بذلك إلى توجيه طاقات الشباب إلى البناء وتوظيفها حتى لا تستغل وتتحول إلى طاقات هدامة . وحين عين وزيرا للحكم المحلي كان من أهم إنجازاته تنفيذ الخطة الإسكانية لامتداد البراري والصحافة .

أما في المحيط العربي فقد كان من إنجازاته المحسوبة مشاركته الفعالة وجهوده

المضنية في إنجاح مؤتمر القمة العربية المشهور بمؤتمر لاءات الخرطوم عام ١٩٦٧م . . وقد غطاه بنفسه في سبع حلقات من الفصل الثاني في مذكراته وبتفاصيل دقيقة سيطلع عليها القارئ الكريم . .

مناصرته حركات التحرر:

كان الشريف على صلة شخصية بكثير من الملوك والرؤساء والأمراء والأثرياء وكان على صلة وطيدة بكثير من حركات التحرر الوطني ويساعد بعضهم في الحصول على السلاح وكان يشرف على معسكرات المقاتلين السودانيين المقامة بليبيا وإثيوبيا ضد نظام نميري العسكري .

وكان من المناصرين بشدة لحركات المقاومة من أجل التحرر في العالم عموما وفي إفريقيا على وجه الخصوص ؛ فقد كلفه عبد الناصر القيام بمحاولة لخطف الرئيس الكنغولي باتريس لوممبا وكادت محاولته أن تصل إلى غايتها لولا أن خصوم لوممبا اقتادوه قبل وصول الشريف إلى مكان مجهول وقتلوه . ولما وقف العالم الغربي ضد قازنقا خليفة لوممبا كان الشريف وعبد الناصر يمدانه بالسلاح ؛ وفي بيروت كان الشريف يلتقي بأعداد كبيرة من اللاجئين السياسيين ويدعم كل حركات التحرر التي ينتمون لها ؛ ومن أهم الحركات التي دعمها الثورة الجزائرية التي أمدها بالسلاح والعتاد . .

خروجه من السودان :

باختصار شديد للتفاصيل الدقيقة وصل الشريف حسين إلى استراحة الجزيرة بالخرطوم (٢) فجر يوم ٢٥ مايو ١٩٦٩ بعد انصرافه من منزل مدير البنك الزراعي بالنيابة السيد مصطفى عوض الله شقيق السيد بابكر عوض الله وفي الوقت ذاته كان الشاب عباس محمد أحمد في طريقه من أمدرمان إلى منزله بالمقرن فشاهد دبابات تتجه نحو الإذاعة وحركة عسكرية غير عادية فاتجه فورا إلى استراحة المزارعين ونقل ما شاهده للشريف الذي كان يتوقع الانقلاب في أي لحظة كما حكى في مذكراته . .

وهنا بدأت رحلة شاقة محفوفة بالمخاطر في حياة الشريف الذي كان في صدر قائمة المطلوبين لانقلاب مايو . خرج الشريف بلا تردد مع (عباس) الذي لم يره من قبل واتجها نحو أمدرمان ثم القيادة العامة ومنها إلى مدني وبعد مشاورات مع المخلصين من رجاله في منزل أحمد دهب استقر رأيهم على بقائه لبعض الوقت في منزل عبدالله سكتاب بجزيرة الفيل ثم ينتقل إلى مزرعة عباس كنين بأم سنط جنوب ود مدني .

وعلى الرغم من عيون المايويين المبثوثة في كل مكان طلب الشريف ان يستدعى له الشاعر إسماعيل حسن من مشروع كساب ووصل في زمن قياسي فحمله رسالتين إحداهما للسيد محمد عثمان الميرغني والأخرى للسيد الرشيد الطاهر بكر . وطلب منهما تحديد موعد يقابلهما فيه الشريف ؛ واتجه الشريف في تلك الظروف إلى الخرطوم يصحبه المرحوم الأمين علي جراد بعربته اللاندروفر وتمكن من مقابلة السيد محمد عثمان الميرغني الذي نصحه بتسليم نفسه ورد الشريف بأنه سيقاوم وزار أهله وأجرى اتصالا مع السيد الصادق المهدي واتفق معه أن يلتقيا في الجزيرة أبا .

رجع الشريف إلى الجزيرة المروية وأرسل مندوبا لتبليغ رسالة إلى الإمام الهادي بالجزيرة أبا وتحرك إلى قرية ودالنور ومنها إلى قرية العقدة بالقرب من الحاج عبدالله ومنها إلى حلة حامد بلول بالقرب من العقدة مرة يسير على الأقدام ومرة بالعربات .

ومن هناك أعد الشريف وصحبه العدة للذهاب إلى الجزيرة أبا ؛ وتحركوا . . تتعطل بهم العربات حينا وتتوحل حينا وينقطع بنزينها حينا آخر ؛ والإذاعة تلهج بمطاردة الشريف والمطالبة بتسليمه لقاء مكافأة سخية . وبعد رحلة شاقة وصل الشريف وصحبه إلى الجزيرة أبا ؛ وقد تزامن وصولهم مع وصول السيد الصادق المهدي . وقد دخل الشريف إلى الجزيرة أبا يحمل أربعة وعشرين جنيها دفع منها جنيهين ثمن بنزين العربة التي أقلتهم . ووجد من السيد الإمام الهادي المهدي عناية على [illegible] العربة .

وفي الجزيرة أبا حمّل الشريف الفكي مصطفى ود طه رسائل عديدة إلى عدد من الاتحاديين ؛ فخرج متنكرا ونفذ المهمة والتقى بعدد من الاتحاديين في الجزيرة والخرطوم

كانت الجزيرة أبا تضم جموعا من الإخوان المسلمين ؛ منهم الشيخ محمد صادق الكاروري والشهيد محمد صالح عمر والاستاذ مهدي إبراهيم وعز الدين الشيخ وآخرون .

فكر الشريف في الذهاب إلى الحبشة ؛ وجهزت له عربة الإمام الهادي اللاندروفر وخرجوا بصحبة دليل من أهل المنطقة عن طريق الدالي والمزموم . . وبعد ثماني عشرة ساعة أسقط في أيديهم حين ظهر لهم أن الدليل لا يعرف الطريق إلى الحبشة . . وبعد تفكير طويل عادوا قافلين إلى الجزيرة أبا . ثم أعادوا المحاولة في طريق وعرة محفوفة بالخطر وسط الغابات والوحل وتعطلت عربتهم على مشارف الكرمك . واصل الشريف والخليفة مصطفى ورجل يدعى ود حمدان سيرهم على الأقدام وأصيب الشريف بحمى شديدة ؛ ورغم ذلك واصلوا مشوارهم إلى أن وصلوا إلى نقطة البوليس الحبشية في (دول) وهناك طلبوا من ودحمدان الرجوع وتطمين رفيقيه علي رجب وعلي العبيد على وصولهما . استوقف البوليس الحبشي الشريف ومرافقه ؛ وأبرز لهم الشريف جواز سفره واتصل الضابط المسئول بأديس أبابا ؛ ورحب الإمبراطور بقدوم الشريف ليد جليلة سابقة كانت لوالده الشريف يوسف على هيلاسلاسي إذ أواه أيام حرب الطليان في داره في ضاحية بري وأكرمه غاية الإكرام . وفي الحبشة بدأت قصة النضال والمعسكرات وكانت الحبشة أولى النقاط التي انطلقت منها المعارضة الخارجية ثم تنقلت بينها و بين السعودية وليبيا ولندن .

وفاته:

قضى الشريف أخريات أيام حياته في العبادة وتلاوة القرآن وقراءة موالد والده في سيرة الرسول (ص) . . وقبل رحيله قضى شهرين في المدينة المنورة يعبد الله تعالى ويمدح رسوله الكريم ويتلو القرآن . وتوفي بعد فترة قصيرة في أثينا في يوم ٩ يناير ١٩٨٢م . . وكان قد تزوج في أخريات العهد الحزبي الثاني من كريمة الخليفة أحمد عبدالوهاب من قرية قنب جنوب ود مدني . . ولم يخلف أبناء ولكنه خلف في الدنيا صيتا وصوتا داويا . . رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

رسالة إلى الشهيد



الشريف زين العابدين الهندي

بقلم شقيقه: الشريف زين العابدين الهندي: رئيس الحزب الاتحادي الديموقراطي (الأمانة العامة)

كان الحديث معك . . يخرج دائما من دائرة المحل والمكان ؛ كنت تخترق دوائر الزمان بقلب يضم العالم العربي، صورة وهيولى، وأنت تحمل أثقال الواقع، بكل أوزانه ومعطياته وقيوده؛ وتُحلِّق ... متخطِّيا لكل الصعاب، ونُشْدَهُ نحن من حولك وأنت تُذلِّل كثيرا من المستحيلات، وتُحيل معظم الأمنيات إلى حقائق .

مَن ذا الذي كان يرقب هذه المعجزة . . وهي تتفجر من ينابيع النبيين ؟ ومن ذا الذي يحيا بها الآن . . ويحمل أمانتها بين كتفيه ، ويمضي بها نحو الخلود ؟ ومَن ذا الذي يرتاد الآن . . هذه المشارف السامقة . . وهو يبتسم حتى الموت ، ويخاطب الناس من خلف البرازخ . . صارخا في البرية ـ كالعهد به حيّا ـ وممسكا بتلابيب المستحيل ؟ مَن ذا الذي يخوض الآن . . عتمات الظلام ، شاخصا إلى الشعلة التي لا تنطفئ . . ولا تموت ؛ حتى لو اختفى هذا الأديم البشري ؟ مَن ذا الذي كان جزءا من هذا الحب الإلهي . . الذي لا يغيض ولا ينضب ولا يجف ، لتذروه الرياح ويمضي إلى العدم ؟ مَن ذا الذي عاصر هذه السيرة ، وشق طريقه عبر هذه المسيرة ، وحمل

أثقال العذاب على طريق الآلام ؟

هاهي الأعوام تستدير كاستدارة الزمان ، ومازال النداء يتيما . . تتجاوب أصداؤه عبر الفِجاج ، وما كان له أن يكون يتيما . . وما ينبغي له !! كأني بعينيك تغفو في محاجرها . . يقظى ؛ وترقب في إغماضها جمعنا ، بسعة الصدر الذي لا يضيق . . أو تحسب أنَّا نعيش الضياع ؟ كيف وهذا التراث تعلوه أكاليل الشهادة ؟ أو تحسب أنَّنا في حيرة من أمرنا ؟ كيف . . وشرف الموقف يضيق به متسع الفضاء ؟ لقد كنا بك مثلما أنت الآن بنا : نكن ، أولا نكون !! أراك تُسْبغ ثوب إشفاقك العطوف كعادتك . . إن هذه الدموع تنتدر قسرا . . دعها مرة . . تسيل ، إنها تغسل الآلام لا تشفق .

صحيح . . هوت السارية واضطرب السكان ، والنوء يعصف بالرياح وبالرعود وبالمطر ، ولكن الجرذان وحدها تغادر الآن . . وذلك فضل من الله كبير ؛ فإن السفن ترتفع فوق الأمواج . لازلنا نرى الشاطئ في عينيك قريب ، ربما أنت ترى أنَّا جاهدون في رفع الشراع ... فغدا تشرق الشمس ثانية ، ويسكن الريح رُخاء . اطمئن . . **لقد تعلمنا منك ... وما أكثر ما تعلمنا منك . تعلمنا منك :**

التوازن الصعب : إنها لن تنحرف شرقا ، ولن تنحرف غربا . . إن الوطن الذي تحلم به ، يترامى بين ذلك الخليج وذلك المحيط ؛ وإن الحرية التي تريدها لقومك هي ذات الحرية التي تريدها لوطنك الكبير . . وقوميتك الكبرى ؛ تلك التي دافعت عنها حتى الموت . فلم تكن عبدا ، مثلما أنك ... لم تُرِد أن تكون سيدا لمستعبدين ، أنَّى كان هذا الاستعباد . . حتى لو كان لطبقة ، وحتى لو كان لحزب ؛ وحتى لو كان لفرد . وإن **الديموقراطية** التي أردتها ، هي تلك التي يعيش فيها الإنسان . . حر الفكر ، وحر المعتقد ، وحر الرأي ، وحر القول والعمل . وإن **الاشتراكية** التي نشدتها ، هي عدالة الطمأنينة المشروعة ، التي لا تجعل للطموح قيدا ، ولا تتخذ للطمع استغلالا ، ولا يعرف فيها الفرد طعم الحاجة المر ، ولا يتأذى فيها بتخمة الشبع من عرق الآخَرين ، ويمتد فيها النظر عبر أجيالها المقبلة ، بغير التضحية . . بجيل أو بعض جيل . . مثلما

علّمتنا . . أن الجادة، ألاّ يطمسِ اليمين أعين الحقيقة الحضارية وألاّ يبعثر اليسار معالم التراث، ويدفن المنابع القومية .

كما **علّمتنا** أن القيادة هي نكران للذات . . وفناء في المجموع، وعيش بالحس الوطني، وضرب للمثل الأعلى . . رائع السَّمْت والخلق والتكوين ؛ وأنها حب أساسي للناس . . (كل الناس) ، وإيثار للناس . . (كلِ الناس) ، ورعاية وعناية يستظل بها حتى الأعداء ، ويجدون فيها العفو والصفح والتسامح والغفران .

وعلّمتنا . . أن الناس يتعلمون من أخطائهم ؛ وأن الخطأ وليد التجربة ؛ وأن الحركات كلها . . تجارب ؛ وأنها عُرضة للخطأ . . مثلما أنها عُرضة للصواب . وكان عندك للمخطئ درس ووعي ونقاش ، مثلما للمحسن تفويض وتأهيل وتوكيل .

وعلّمتنا . . أن كل الكبار آباؤك، وكل الأتراب إخوانك، وكل الصغار أبناؤك، من غير أن يفرق بينك وبينهم . . دين، ولا لون ، ولا لغة، ولا حزب ولا معتقد .

وعلّمتنا . . كيف يكون الرجل أمَّة وحده ، ويكون قوماً ويكون وطناً ويكون إنسانية برُمَّتِها .

وعلّمتنا . . كيف يكون الوفاء وأنت تخاطب الأزهري من لُجُج آلامك ومحيطات متاعبك ، التي لم تبلغ قدميك يوما ... تمارس له عهود الوفاء وتطمئنه على إكمال المسيرة ، وتؤكد له السير قُدما ـ بلا كلل ولا ملل ـ بالمجموعة كلها (بين ساعديْك وعلى صدرك) حُنواً وحرصاً ، ومودة وصبراً ، واحتمالاً وتحمُّلاً .

وعلّمتنا . . كيف يفنى الإنسان في قضية، حتى تحيا بحياته . . وتتنفس بأنفاسه لا يخاصم إلاّ فيها ، ولا يصالح إلاّ فيها ، ولا يفكرّ إلاّ بها ، ولا يحيا إلاّ لها ؛ وكيف يكون من أجلها روحاً لا يدركها التعب ، وطاقة لا ينالها النفاد وجسما لا يَهُدُّه الجوع ، وأعينا ساهرة لا يطرقها النوم . . ولا يغشاها النعاس كما يغشى الناس .

وعلّمتنا . . أن الخوف والدَّعة والراحة ، والرفاهية والاسترخاء ، هى أعداء ألدَّاء للنضال والكفاح .

وأعلمتنا بالبيان . . أنك مع المقاوم المعتقَل في سجنه، ومع المقاتل في مصرعه ومع المهاجر في مهجره؛ وأنك تتوشح بدماء الشهداء من قبلك ، وتحمل مسؤولية من معك ، ومن ليس معك !!

وعلّمتنا . . أنك لا تحالف لتنتكس، ولا تعاهد لتنكُث ، ولا تبايع لتنقُض ولا تصادق لتغدر ، ولا تزامل لتُماري. تنصّلَت مِن حولك "الجبهة" فصرت صمودا، وقعد مِن حولك القاعدون فذهبت وربُّك تقاتلان، ولم يضركُما شيء. . وأرخيت سوابل السِّتر على كل شيء .

نَمْ الآن يا أبا هاشم . . هانئا قرير العين: فكل الذين شرعوا معك شرعة الجهاد الحق، يجتمعون ويتجمَّعون، ويبتدرون ويتبادرون ، وأنت ملء قلوبهم وصدورهم وعزائمهم ؛ وما اعتركت شهور الأعوام إلاّ بدفن الموتى، ولَمِّ الجرحى والصفوف ، وشحذ الهِمم وإعداد العُدة والعدد .

لقد تثاقلت خطوات التاسع من يناير ١٩٨٢م ، وهو يجرُّ نفسه نحو المغيب مؤذنا بانتهاء مرحلة طويلة عميقة ومتسعة الأبعاد ؛ هي من أروع وأحدث ما خطَّته صنوف النضال ، على صفحات التاريخ المعاصر ، فنًّا متميزا جديدا عامرا وغنيا . . من أفانين النضال والتربية الوطنية . .تنقّلتَ بين الممارسات النضالية الشعبية المسلحة (حيث اختلطت دماء الشهداء مُروية شوارع الخرطوم ، في أروع مظهر من مظاهر الوحدة الوطنية) إلى الممارسات السياسية العربية والأفريقية مع الدول الصديقة وحركات التحرير المساعدة ، وشخصياتها القيادية الحميمة ، التي أدركت أصالة العمق الوطني ، والتوجُّه القومي النقي . . في القيادة السودانية وما تعتمل به أعماقها من ثروات نضالية ، تجعلها من أبرز ركائز النضال القومي . . في الساحة العربية .

نَمْ أبا هاشم راضيا مطمئنا . . ومرضيا عنك بإذن الله تعالى؛ فما لمثل ما بدأت انقضاء، إلاّ النصر أو القبر ... ولا توسُّط بينهما . . لكل الذين وقفوا معك وسمعوا ووعوا ، وتعلّموا وأمّلوا وانتظروا ؛ وهم قطرك كله، وبلادك كلها ووطنك العربي كله ، وقارَّتك الأفريقية جمعاء . هذا الوجود المقدس . . الذي يضمه قلبك الرحب

الكبير ، الذي لم يزل ينبض ، ونسمع نحن وجيبه ونحس خفقه ، ونتجاوب مع صداه . . وهو يمتلئ بأركانه وأرجائه ، بكل الذين عرفوك شعلة عربية أفريقية (ناصر، لومومبا ، جيزينغا ، نكروما ، سيكوتوري ، بن بيللا ، فيصل ، صدام ، القذافي ، أبوعمار ، جوكوني) ، كان هذا رهطك . . يوم يعطِّر التاريخ صفحاته بذكراك ؛ وكانت هذه أبعاد الرؤية لديك في أرجائها الواسعة . . وأبهائها الرحبة .

نَمْ أبا هاشم . . فلم يزل هذا هو الهدف، وهذا هو الدستور ، وهذا هو الحداء ؛ وهاهنا مصارع الشهداء ، وانتصارات المناضلين . إننا بسبيل إلقاء بعض الجثث إلى اليم، فقد ماتت من الرعب ؛ وها هي العاصفة تهدأ ، والسارية ترتفع ويوشك الليل أن ينقضي ، ويوشك القيد أن ينكسر . هو ذا أبو الشهداء ... الزعيم الخالد : إسماعيل الأزهري، وبصحبته الشهيد الثائر : محمد صالح عمر والإمام البطل : الهادي المهدي . . يُقْبلون ، رموزا خالدة للوحدة الوطنية السودانية .

وإلى اللقاء . . . أبا هاشم .

مقدمة

توثيقاً للتراث وإثراءً للتاريخ

...

بقلم ابن أخ الشهيد: الهندي الشريف عمر الهندي (أبو الحيران)

إذا كان لكل مقام مقال ولكل زمان رجال.. فهنا.. كلمة.. عن ملحمة زعيم سياسي إنساني وهب عمره وماله ونفسه (فى خدمة البلاد والعباد حتى الشهادة) لوطنه وقومه رافعاً رايات الحرية والديموقراطية والعدالة الاجتماعية فى السودان الحبيب



أبو الحيران

يجد القارئ في طيات هذا الكتاب، مقتطفات من تراث الشريف الحسين الهندي (تضم بعضاً من مذكراته وخطبه ومقالاته وأحاديثه الصحفية)؛ وتكاد تقتصر - في معظمها - على الفترة التي قاد فيها النضال لإعادة بناء نظام ديمقراطي جديد في السودان.. وهي من أغزر الفترات وأكثرها استحقاقاً للدراسة والمتابعة؛ من أجل توثيق التراث وإثراء تاريخ السودان ... تحقيقاً وتدويناً. لذا ارتأينا إصدارها فى كتاب يشكل مرجعاً دائماً؛ لابد منه لكل ملتزم بصيانة الحياة السياسية السودانية.. نظيفة وطاهرة.. بوجهيها الوطني والقومي.

ومن ثم.. فهذا الكتاب لا يمثل ترجمة لحياة فقيد الوطن (الشهيد / الشريف الحسين الهندي) ولا سرداً لمسيرة كفاحه ونضاله أو جهاده.. ولا تفصيلاً لمواقفه

ـصلبة الصادقة والأمينة . . مع الله والنفس والوطن؛ في ظروف ضاعت فيها كثير من المبادئ إن لم نقل معظم القيم ... لكنما هذا التمهيد عجالة قد لا ترقى لمقام الشهيد الحسين في قومه . . أياً كانوا وأينما أقاموا . ولا تعبِّر عن الخسارة الجسيمة التي مُني بها وطنه وحزبه وأهله؛ بفقده في أصعب الأوقات والملمات؛ وعند منحنى التاريخ السوداني في مطلع العقد الثامن من القرن الماضي برغم أن ـيه على الله ـطر الله تراه وجعل الجنة مثواه . .

بل هي عجالة فقط لإحياء ذكرى لا تموت، وحقائق التاريخ من المستحيل وأدها ـطمرها ونسيانها، وكيف تنسى الرموز من أهرامات البشر؛ خاصة عند ذكر قامات ومقامات شوامخ الرجال . . ذوي الجليل من الأعمال؛ أهل السمو في القيم والمبادئ؛ وأصحاب الخلود في مواقف الكفاح والنضال؛ من أجل الحرية والديموقراطية والعدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان في الأمن والرخاء والرفاهية والتنمية والعيش الكريم.

لقد كان الشريف الحسين مدرسة وطنية، قائمة بذاتها؛ تتلمذ عليها المئات بل الآلاف من الشباب السودانيين . . خاصة الاتحاديين: مدرسة في النبل وفي الزهد مدرسة في الكرم وفي الصدق ـ مع الله والنفس والناس ـ مدرسة في الوفاء والشجاعة والرجولة، بل مدرسة نموذجية في السياسة النزيهة المستقيمة؛ ومدرسة في صلابة المواقف الوطنية الديموقراطية الشعبية، وفي مسؤولية الفكر الحر (الوطني، العربي ـ القومي، والإنساني)؛ الواسع المساحات والمسافات والأبعاد؛ والضارب في أعماق جذور السودان: حضارة وثقافة ومعرفة عريضة . . بدهاليز السياسة؛ وبروابط المجتمع الإنساني؛ وبفلسفة الاقتصاد . . وبمسيرة الحياة البشرية والتاريخ . . وقبل ـ وذاك بقيَم ومُثل وخُلق وتعاليم ومبادئ الدين الحنيف التي تربى عليها الشريف ـ الوطني القومي القرآني والصوفي العريق.

ـرغم أن كاتب هذه المقدمة ابن أخ الشريف؛ وواحد من جحفل تلاميذه، إلا أنه ـون شك ـ عاجز عن إيفائه حقه . . حقه المستحق في سرد كافة مزاياه الشخصية

الجمة، والفريدة النوع والمثال . . فمهما صور منها أو عكَس قلمه من صفاتها السودانية الخاصة ، أو الإنسانية العامة . . الأصيلة والمعروفة ـ ودون مباهاة أو مفاخرة ـ مهما كان الكاتب محقاً وصادقاً أو أميناً في ذلك . . لن يوفيه حقه . .

فقد يخطر على بال البعض (من ناشئة الأجيال اللاحقة . . ممن لا يعرفون الفقيد أو لم يسمعوا به ولم يقرءوا عنه) . . قد يخطر ببالهم أن هناك شيئاً من الإطناب والمديح أو المبالغة بسبب القرابة منه ، ورغم فخر الكاتب واعتزازه بها ، غير أ[illegible] الاعتزاز والفخر به، كقائد وزعيم . . يفوق ذلك بكثير .

فقد كان أستاذاً لجيلنا ولمن بعدنا من أجيال، تعلموا منه الكثير النافع من المبادئ والقيم ـ في تناول العمل العام ـ سواء في السياسة أو الوزارات بالخدمة المدنية العامة ومن حميد الخصال في الإحسان للناس ـ وحسبه حديث المصطفى جده (ص) " إن لله عباداً اختصهم لقضاء حوائج الناس حببهم في الخير وحبب الخير إليهم . إنهم الآمنون يوم القيامة من عذاب النار" بقضاء الحوائج بما في ذلك وأولها : حاجة الإنسان وحقه في الحياة الحرة الكريمة الآمنة العادلة ؛ والتي عاش الشريف الحسين ومات من أجلها . . وقد ملأ أسماع الدنيا نبأ رحيله المفاجئ؛ من خلال صحفها وإذاعاتها ووكالات أنبائها . . لا سيما وقد صلى على جثمانه الطاهر ألوف مؤلفة من الناس، في ثلاث قارات من الكون : في أوربا (بأثينا ـ اليونان) . . وفي أفريقيا (بطرابلس ـ ليبيا) وفي آسيا (ببغداد ـ العراق) ؛ قبل أن يستقر جثمانه الطاهر مع والده وخلفائه في ضريحهم ببري الشريف بالخرطوم . . رحمهم الله رحمة واسعة، وعطر ثراهم وجعل الجنة مثواهم جميعاً . . أنه سميع مجيب .

لقد كانت للشريف حسين قدرة عجيبة في حفاظ الود بينه وبين الناس ؛ [illegible] كانوا يخالفونه الرأي والمبادئ السياسية ؛ ولم نعرف له عدواً كارهاً، (اللهم إلاّ إن كان حاكماً ظالماً سفاحاً ... عتُلاً [illegible] ذلك زنيم) . . وكثيرا ما كان الشريف يُشعر من يخالطهم [illegible] كل واحد منهم أثير عنده ؛ لا فرق بين أمير أو حقير ولا بين صغير وكبير، و[illegible] غفير، ولا بين وزير أو خفير . أما إذا تحدث . . بصوت رفيع

صغت إليه الآذان؛ وهفت القلوب، وتسمرت العيون . لم يكره أحدا من الناس قط . . ولم يحقد على أحد؛ كان مهاباً في غير تكلف، وبسيطاً عطوفاً من غير تأفف . . بساطة الحياة السودانية الأصيلة . . سكناً ومعاشاً . . أخذا وعطاء . . عملاً وتعاملاً مع الناس ، كل الناس . . "سمحا إذا باع سمحا إذا اشترى؛ سمحا إذا قضى . . سمحا إذا اقتضى" ، أسوة بجده ... سيد الخلق النبي المصطفى (ص) . . . حتى مات شهيداً في الهجرة والمنافي مجاهداً ومقاتلاً لنظام مايو الخراب واليباب الذى بدأ شيوعياً أحمر وانتهى دجلاً على شعوذة أضاعت كافة مكاسب البلاد قبل كارثة حكم النميرى الطاغية حساً ومعنى . .

لقد دالت دول الظلم والفساد والخراب هذه وانتهت إلى مزابل التاريخ بفضل جهادك سيدى الحسين وكفاحك الذى توج بانتفاضة رجب / أبريل ١٩٨٥م فنم هنيئاً سيدى الشريف الشهيد حسين الهندى في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر .

والسلام عليك سيدي الشريف حسين الشهيد
يوم ولدت
ويوم رحلت
ويوم تبعث حيا .

ابن أخيك : الهندي الشريف عمر الهندي (أبو الحيران)

تمهيد :

الديموقراطية الثائرة
قراءة في حياة الشريف حسين الهندي ونضاله

بقلم : د . يوسف الشويري أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة (إكستر) بانجلترا ورئيس تحرير مجلة الدستور اللندنية الأسبوعية

د. الشويري

لابد من القول . . إن الفكر السياسي السوداني ، لا يزال يعاني من تجاهل واسع النطاق ، وكأنه لا يستحق - حتى ولو إشارة عابرة - في كل الدراسات التي كتبت حول تطور الفكر العربي عامة، سواء في اللغة العربية أو اللغات الأجنبية . وكان يعتقد الكثيرون من محللين سياسيين ومنظرين وأكاديميين ، أن عهد الديموقراطية العربية قد ولى بدون رجعة . وبدأ الحديث عن الملامح التقدمية للأنظمة العسكرية، التي ستمهد الطريق أمام مرحلة أخرى ، أبعد تطورا وأشد شمولية ، فتزول معها كل الأحزاب السياسية العقائدية وصراع الأفكار . غير أنه بعد نكسة ١٩٦٧م ، ثم اندلاع حرب ١٩٧٣م ، وانحرافها عبر سياسة السادات نحو أهداف سلبية ، أخذت تنضج في الأقطار العربية المختلفة تطلعات جديدة وبدأت عملية مراجعة الحسابات وإعادة النظر ، في شتى مجالات حياتنا السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية .

ولا شك أن البترول العربي، خاصة بعد رفع أسعاره في ١٩٧٣م ، كان قد ساهم في خلق وقائع جديدة ؛ وأدى إلى بروز فئات اجتماعية وقيادات وهيئات مهنية وإدارية وفنية ؛ ورسّخ نوعا من التقاليد والأعراف . . تكاد تكون متماثلة في الدول العربية النفطية وسواها . ونشأ عن توافر رؤوس الأموال المحلية في العالم العربي توجه نحو إيجاد الخطط ، وإيلاء التنمية الداخلية أهمية متزايدة .

ومع أن هذا التوجه لم يتحول في معظم الأحيان إلى خطط ناجحة ومتكاملة غير أنه أعطى دفعا مباشرا للتطلعات والتوقعات الشعبية ، وانتظار حياة أفضل وتحقيق بعض الحرية التي تعكس ـ ولو الحد الأدنى من حقوق المواطن الطبيعية .

ولا يمكننا أن نشير هنا . . إلى كل التطورات التي ستساعد في المستقبل حركة المطالب الديموقراطية ، وإكسابها المعاني التي تستحقها . ولكن يمكن القول أن ما يجرى في السودان الآن ، يرتسم كتجربة شبه نموذجية لابد من دراستها ومتابعتها تعبيراً عما ستتمخض عنه في المستقبل أوضاع عربية أخرى ؛ ودليلاً على إمكانية نجاح التجربة أو تعثرها . وهذا هو مكمن الخطأ في النظر إلى السودان . . وكأنه وضع شاذ وحالة فريدة من نوعها . ولا نذيع سرا إذا قلنا إنه بلد يعاني من أزمات اقتصادية شبه مستعصية ، ماليا وزراعيا وصناعيا وإداريا . ولذلك فهو نموذج متطرف ، أو الأكثر تطرفا . وكان لابد له ، وبمنطق استقراء الأحداث الماضية والتاريخ الحديث ، أن يغرق في ثورة دموية أو حرب أهلية ، ولفترة طويلة . . حيث يختفي الحل الديموقراطي البرلماني ، بتعدد أحزابه ودستوره وانتخاباته العامة .

أما الذي حدث . . فهو عكس ما توقعه أكثر من مراقب ؛ وفي واقع الأمر عاش السودان حرباً أهلية شبه متواصلة ، منذ انقلاب مايو ١٩٦٩م ؛ إذ أن النظام العسكري تعرض لمقاومة دائمة ودؤوبة ، من أطراف داخلية متعددة . ورغم حله للأحزاب السياسية ، ومصادرته للحريات ، وإقامته دولة بوليسية ، وسن القوانين الاعتباطية لتبرير اعتقال كل من يشك في ولائه ، فإن العمل المعارض والمضاد ، لم يتوقف لحظة واحدة . فمن ضرب جزيرة (أبا) في ١٩٧٠م ، والتي احتشدت فيها قوات الأنصار ، إلى انقلاب هاشم العطا ، بعد عام واحد .

ثم تعدد وتكرار محاولات الانقلابات سنة بعد سنة ؛ علاوة على المظاهرات والإضرابات ، والتي توجتها انتفاضة يوليو ١٩٧٦م ، بقيادة جناحي الجبهة الوطنية المكونة من حزبي الأمة والاتحادي الديموقراطي ؛ إضافة إلى مشاركة بعض الأخوان . . حلقات في سلسلة تمتد حتى عشية سقوط رأس النظام وانتهاء عهده .

ورغم إخفاق انتفاضة يوليو ١٩٧٦م ، والتصفيات التي تعرض لها بعض الذين شاركوا فيها ، أو إصدارالأحكام الغيابية على الذين ظلوا خارج السودان ـ مثل الشريف حسين الهندي والصادق المهدي ـ فإن العد العكسي للنظام بدأ منذ ذلك التاريخ . وأخذت تتكشف هزالة القاعدة التي يستند إليها جعفر نميري ، خاصة بعد تصاعد الأزمة الاقتصادية ، وإصابة البلاد بالشلل شبه التام ، وفي كل مرافقها الحيوية .

وكان النميري يدرك أن المعارضة في الداخل والخارج ، ستستمر وتزداد كثافة وتحظى بتعاطف عربي ودولي . ولذلك بادر إلى المصالحة الوطنية في ١٩٧٧م وهو يعوّل على الاكتفاء بتقديم بعض التنازلات غير الأساسية ، مقابل حصوله على صمت المعارضة أو احتوائها داخل أجهزة حكمه . وكانت المعارضة آنذاك تتمثل أساسا في الجبهة الوطنية ، بقيادة كل من الشريف حسين الهندي والصادق المهدي وحسن الترابي ، وعاد هذان الأخيران بعد المصالحة إلى السودان ، ودخلا بشكل أو آخر في أجهزة النظام القائمة آنذاك ، في حين رفض الشريف حسين الهندي العودة قبل التزام النميري ببنود كل الاتفاق وتطبيقها عمليا . لا . . بل إن موقفه كان نابعا من نظرة بعيدة المدى ، قائمة على تعميق عزلة نظام النميري وعزله أكثر فأكثر . . إذ أن الشريف أضحى ـ بعد تخلي رفاق الأمس عنه ـ رمز المعارضة الجديد ، وقطب القوى الوطنية والديموقراطية السودانية . وكان يدرك أن المفاوضات مع النظام لن تؤدي إلى انفراج الأزمة السياسية ، بل إلى إطالة أمد الحكم العسكري .

وفي أكتوبر ١٩٧٧ م . . عاد السيد الصادق المهدي إلى الخرطوم ، بعد أن تمَّت المصالحة بينه وبين الرئيس النميري . غير أن عودة المهدي . . لم تضع حداً لمجمل الخلافات التي كانت عالقة بين النظام السوداني وأقطاب المعارضة . فالشريف حسين رفض العودة آنذاك ، رغم أن النميري بعث إليه بطائرة خاصة لتُقلَّه إلى الخرطوم . كما أرسل الرئيس السوداني إلى الشريف رسالة ، طالبا عودته إلى السودان من أجل " تنقية الأجواء السياسية " ، ومباشرة " تدعيم الوحدة الوطنية " . وقد حـ

الرسالة في طائرة خاصة رجل الأعمال السوداني فتح الرحمن البشير، الذي لعب دور الوسيط في المصالحة، ورجل آخر مقرَّب من النميري . ومع ذلك استمر الشريف في رفض العودة ضمن الظروف التي كانت قائمة وأشار فتح الرحمن البشير بوضوح، إلى : " أن هناك جهات في لندن، عملت على تخريب المصالحة، ولكن تمكَّنَّا أخيرا من تنقية الأجواء " . وهو كان يعني دور الشريف الهندي داخل المعارضة السودانية، عبر رفضه العودة . وأرسل الشريف ردا خطيا على الرسالة التي تسلمها من النميري، شكره فيها على دعوته إلى الحضور، مضيفاً أن حضوره متعذر لظروف صحية، وذكَّره بالسجناء والمعتقلين السياسيين الذين أعلن عن إطلاق سراحهم، مبيِّنا له أنه : " أصبح في كل مدينة وقرية - بل ومنزل - سجين " .

وفشلت المصالحة، ودخل السودان في طور جديد من الصراع الداخلي ؛ إلى أن سقط النظام وسط إفلاس شامل، وانتشار الفساد والمحسوبية، وانهيار كل مقومات المجتمع المادية والمعنوية .

وفي أقل من عام، عادت البلاد إلى وضع شبيه - في جوانب متعددة منه - بفترة ما قبل ١٩٦٩م، وكأن الأنظمة العسكرية الفاسدة، تظل بأجهزتها فئة معزولة نخبوية النظرية والممارسة ؛ تجمِّد وتضبط تناقضات المجتمع إلى حين، ولكنها لا تحدث تغييرا جذريا في قلب العلاقات الاجتماعية، فتبقى هذه الأخيرة في حالة شبه جامدة إلى أن تتحرك مرة ثانية بعد ذهاب الفئة النخبوية . ولذلك أطلق السودانيون على حركتهم التي أسقطت النميري وطاقمه . . اسم : " انتفاضة " ولم يسبغوا عليها لقب " الثورة " ، إذ باتوا يدركون أن الثورة لا تزال تنتظر من يحققها، وهي ليست مؤسسات سياسية دستورية – رغم أهميتها البالغة . ولكن هذه الأخيرة تشكل المقدمة والتمهيد لإجراء تغييرات شاملة، في صميم المجتمع وثقافته واقتصاده . فلم تفشل الديموقراطية في السودان في السابق ؛ لأنها لم تجد من يؤمن بها فقط، بل لأن المجتمع الذي احتضنها، عانى من تخلف اقتصادي وشبه جمود اجتماعي، وانشطار سياسي لا يرتدي طابعا حزبيا بحتا . وعندما يتم إحياء بعض تراث الشريف حسين

الهندي ، فإنما يتم انطلاقا من محاولة لفت الانتباه إلى الأمور التالية :

١ - أن للنضال السياسي ، أسسه وأعرافه وتقاليده التي لا يجوز التخلي عنها مطلقا وإلا تحول هذا النضال إلى عمل فوقي نفعي ذي صفة عابرة . ولا يؤتي النضال ثماره إلا إذا حافظ على منطلقاته المبدئية ، التي تظل تتسم بليونة التعامل مع التطورات والطوارئ والمفاجآت .

٢ - أن الحرية قضية جوهرية ثابتة المعالم ؛ تأخذ سبل تحقيقها أساليب متنوعة ، وفق الظروف المحيطة بالذين يعملون من أجلها . وإذا انتهك نظام ما . . حريات المواطنين وسلبهم حقوقهم الطبيعية ، فإن الدفاع عن هذه الحريات والحقوق ، لا بد أن يرتفع إلى مستوى جديد ، تمتزج فيه كل أشكال المقاومة السلبية والإيجابية بما فيها المقاومة المسلحة ، وكحق شرعي في وجه قوة طاغية لا تفقه سوى لغة واحدة .

٣ - لا ينشأ نظام عسكري كنظام نميري ، ويستمر وسط الفراغ وبدون أسباب موضوعية ، تتيح أمامه مجال البروز والتشبث بالسلطة ، ولذلك فإن إعادة القديم إلى قِدمه ، بعد إسقاط الحكم العسكري مسألة مستحيلة ، وتحمل في أحشائها مشروع انقلاب عسكري جديد ، وربما ما هو أخطر وأدهى .

٤ - من هنا لم تعد الديموقراطية شكلا دستوريا مجردا من أي مضمون اجتماعي أو التزام عملي بالتنمية والنهوض بالاقتصاد . . كمسؤولية منوطة بالدولة الجديدة .

٥ - تعني الديموقراطية - استطرادا - بناء الإنسان الجديد المتحرر من قيود التبعية والخضوع في معيشته وحياته ، لتأثيرات عشائرية أو طائفية أو عائلية .

ولذلك فإن لمذكرات الشريف الهندي ، التي كتبها بخط يده ، حول الفترة الأولى من النظام العسكري ، علاقة مباشرة بتسليط الأضواء على الظروف التي أدت إلى حدوث الانقلاب ؛ وإبراز كيفية التصدي له ، ثم الارتقاء بالعمل السياسي إلى آفاق جديدة ، لا تنتهي بمجرد نجاح التصدي وإحراز الانتصار .

وفي الحلقتين الأولى والثانية من المذكرات ، إشارات مضيئة تكشف الوضع

السياسي والنفسي ، لقادة الأحزاب الحاكمة عشية الانقلاب . وهي لا تسرد تفاصيل الصراعات بين هذا الجناح أو ذاك ، ولا تتطرق إلى أحداث عامة ، بل تقدم صورا داخلية متحركة ، لما كان يجري . . وكأنه قدر محتوم .

ويبدأ الشريف مذكراته متحدثا عن مسؤولياته كوزير للمالية ، وعلاقاته بالمواطنين مبيّناً الأسس التي قامت عليها هذه العلاقات . وتشعر . . وأنت تقرأها ، أنه كان - كوزير مالية - يتحمل أعباء ، وينوء كاهله بمهمات ، لا يستطيع تنكّبها فريق مالي بكامل طاقمه وأجهزته . ويركز بأسلوبه الخاص ، على حسنات العلاقات الاجتماعية ، والتي كانت سائدة في السودان . . وسيئاتها . ولا شك أن ما يصفه عن تجربته الخاصة ، حالة نادرة في قلب تلك العلاقات النادرة .

يقول : " وحتى الشرطة عجزت عن حراسة منزلي ، فتركته مفتوحا يلجه كل من لا يجد له مأوى في الهزيع الأخير من الليل . ولا غرابة . . فقد كان (أي هو) وزيراً متخلفا في بلد متخلف ، يعتقد أهله أن وزيرهم لا ينام ولا يأكل الطعام .

ووسط جموع الناس وتهافتهم وإلحاحهم ، في حل مشكلاتهم الشخصية والعائلية والمعيشية ، ورفعها مباشرة إلى الوزير ، كان الإعداد يجري للانقلاب العسكري وتقترب ساعة الصفر ، والشريف حسين . . يكاد أن يكون وحده ملمّاً بما يحدث ومعارضا له في آن معا . إذ كان آخرون من قادة الأحزاب والزعامات ، على اطلاع مباشر - أو غير مباشر - بما يدور ، وبعضهم تواطأ قبل الانقلاب أو بعده بقليل ، ولم يحرك الباقون ساكنا . وعبثا حاول الوزير المرهَق تحذير المسئولين وتنبيههم وحثهم على اتخاذ القرارات اللازمة ، للحيلولة دون ما كان يبيِّته العسكريون من " الضباط الأحرار " ، وكشفته المحاكمات التي جرت ، لبعض هؤلاء العسكريين من أقطاب مايو . . كما كان دور الشريف حسين حاسما وفعالا في مقاومة النظام ، ومبادرته إلى التحرك ضده منذ عامه الأول .

وفي لحظة من اللحظات ، وقبل وقوع الانقلاب في فجر ٢٥ مايو ١٩٦٩م يسترسل الشريف في حوار بينه وبين نفسه ، وهو يحاول تلمس الأسباب القريبة

والبعيدة التي تنذر ببداية أحداث كبيرة ، ويصف بشفافية نادرة . . الصراعات النفسية والأحساسيس المتضاربة ، والتوتر المشحون بآلاف علامات الاستفهام وذلك قبل اتخاذ القرار الحاسم .

وما أن سمع تلاوة البيان الانقلابي عبر الإذاعة ، حتى اضمحل ضرب الأخماس بالأسداس ، واستقر رأيه على موقف واحد ، لا سبيل أمامه للمساومة أو التردد ، أو طرح المزيد من الأسئلة . . يقول : " وسَرَت في جسدي قوة غلابة انحسر معها الوَهَم ، والضعف الذي كان يلازمني . . وقررت وحدي - إذ لم يكن بجانبي زميل أو صديق - أن أقاوم هذا الخطر حتى ولو بأظافري وأسناني " .

وبدأت مقاومة الخطر ؛ واستمرت اثني عشر عاما ، في الفيافي والصحاري ومخيمات التدريب والمهجر ؛ والتنقل المتواصل في عواصم العالم والسهر الدائم والإعداد المستمر ، وتنظيم القوى وحشدها ، وتعرية النظام العسكري ، بكل الوسائل السياسية والإعلامية والدبلوماسية ، والتصدي له عبر قوافل الشهداء والالتزام بمبادئ الديموقراطية ، واستقطاب العناصر الخيرة من كل أبناء الشعب السوداني .

ولم يكن قرار الشريف في المبادرة إلى المقاومة ، داخل السودان أو خارجه وبالتحالف مع كل من يبدي استعدادا للسير معه ، حتى ولو إلى منتصف الطريق . . نابعا من خواء ؛ لا يستند إلى خلفية محددة . جاء هذا القرار أمرا طبيعيا مرتبطا بتجربته الشخصية الطويلة ، وقدرته على بلورة موقف واضح ، يتجاوب تجاوبا عفويا مع الإنسان السوداني العادي ومطالبه الوطنية والقومية .

" ظل الشريف حسين يدير عجلة التاريخ في السودان منذ ٢٥ مايو ١٩٦٩ م إلى ٩ يناير ١٩٨٢م ، وبها أدار معارك خالدة في سجل الكفاح البطولي للشعب السوداني . وليس هناك متَّسَع من الحيز للكتابة عن كل معاركه - التي لا زالت مستمرة - إذ إن ذلك لا يسعه مجلَّد - وسأكتفي بالكتابة عن معاركه الخمس الأوائل التي بدأت مع بداية مايو ، إلى أن طرحت محاولة المصالحة الأولى على مائدة الملك فيصل عام

١٩٧٢ م .

لقد كان إيمان الشريف حسين الهندي ، بالمؤسسة الديموقراطية إيمانا مطلقا ليس فيه مزايدة أو مساومة أو جدل أو نقاش . كان يؤمن أن الديموقراطية ، هي النهج الوحيد الصالح لتحقيق حكم صالح ومجتمع عادل ؛ يسود فيه حكم العدالة وسيادة القانون . لقد كان حماسه وانتصاره لها ، إحدى العلامات المميزة في سيرة حياته ، منذ أن نشأ ، إلى أن استشهد صريعا في ساحة معاركها .

قبل انقلاب مايو ١٩٦٩م ، كان الشريف حسين أحد ركائز الديموقراطية في السودان ، إن لم يكن أقوى ركائزها . كان بالنسبة للحزب الاتحادي الديموقراطي ورئيسه الزعيم الخالد السيد إسماعيل الأزهري ، في موقع اليد والقلب واللسان . وسيذكر التاريخ ، (أنه منذ انتصار الشعب السوداني في ثورة أكتوبر ١٩٦٤ م ، ضد الحكم العسكري الأول ، وإلى حين اغتيال الديموقراطية مرة أخرى فجر ٢٥ مايو ١٩٦٩م) ، أن الشريف حسين كان ألمع الشخصيات السياسية السودانية على مسرح الحياة العامة . . وقتها كان عضوا بالمكتب السياسي للحزب ، ووزيرا للمالية .

باسم الحزب وباسم الرئيس ، خاض معارك الحزب الديموقراطية ضد خصومه وكان يد الحزب الباطشة ، ولسانه الأقوى . وكان اتصاله بالناس مذهلا ، وسهَّل له في ذلك . . خلق عظيم كان يتحلى به ، وصبر لا يجاريه إلا صبر أيوب (عليه السلام) في زمانه ، وإيثار على النفس كان من شيم الأنبياء .

في سبيل الناس ، كان يبذل نفسه ولحمه ودمه ، وأما المال ومتاع الدنيا فلا تسل !! كتب عن نفسه مرة : " ولم أثن على الله وأحمده ، بقدر ما فعلت أيامها على عادة وهبني إياها ؛ هي صلة عميقة ومودة أصيلة بالفقراء ، من أفراد الشعب العاديين - صلة لا تعرف الفوارق ، لا فوارق السن ولا المكانة ولا الطبقة . ومن نِعم الله علي التي أعتز بها وأحرص عليها ، أنني لا أعرف الفوارق ولا الطبقة ولا الفواصل . . ولا أعترف بها . وأنني أيضا لا أؤمن بالملكية الخاصة ، ولا أحترمها ، فلم ولن أؤمن في حياتي أنني أملك شيئا ما - وما أكثر ما ملكت ، بل ظللت دائما أؤمن بأن المال

هو حق مشاع لجميع الناس . وطبَّقت هذا المبدأ على نفسي وإلى الآن . . حتى القمصان والملابس الداخلية لا أعتقد أنها حقي وكلمة (حقي) هذه . . ليست في قاموس كلماتي " .

كان خطيبا ذرب اللسان وفصيحا لا يلْحن، وفوق ذلك . . يعرف ماذا يقول وأين يقول وكيف . كل هذه الصفات ، جعلته ركيزة الحزب الأقوى في معاركه الانتخابية لم يضن على الحزب بشيء ؛ نذر نفسه له في عافية ومرض ، في ضيق وفرج وفي غنى وفقر . قطع عشرات الآلاف من الأميال ، متنقلا على ظهر عربات النقل والدواب والطائرات . كان صوت الحزب القوي الجهور - بل كان أعلا أصواته ولا غرو - فهو الذي قال :

" إن حزبنا هو الوطن مُصغرّا . . والوطن هو حزبنا مكبَّرا " .

تم التخطيط لمايو . . وسرت همسات اللؤم بين القاهرة وموسكو ، وبعض حانات الميسر في الخرطوم ، حيث كان يتسكع النميري وأصحابه من عصابة مايو

كان للشريف حسين حس مرهَف ، ولقد كان هذا الحس أحد أسراره التي عاش بها إلى أن استشهد . لم يكن (وهو الوزير والزعيم) له حاجب ولا خفير . ولم يكن (وهو المعارض الشرس المستهدف من قبل أجهزة متعددة وأنظمة عديدة) له حرس ولا أمن . كان يعتمد على حسه الأمني الغريزي ، وكان جِهازا لوحده وبحسه هذا أدرك قبل الانقلاب ، أن هناك مؤامرة تحاك في الظلام ضد شعبه وتلمس بعض خيوطها . وسيذكر له التاريخ أنه اتصل بالفريق الخوَّاض - القائد العام للقوات المسلحة وقتها - وحذَّرَه ، واتصل ببعض صحبه من الوزراء ، بل ذهب إلى أكثر من ذلك ، عندما وضعها على أجندة اجتماع الهيئة البرلمانية للحزب . ثم اتصل بالسيد/ محمد أحمد محجوب رئيس الوزراء وقتها ، وأذكر أن المحجوب رد عليه بأنهم : " لن يستطيعوا أن يقلبوا حذائي هذا " !

وحدث الانقلاب في حوالي الساعة الثالثة من صباح ٢٥ مايو ١٩٦٩ ، وبدأت معارك الشريف حسين مع النظام ، في الساعة الرابعة من نفس الصباح المشؤوم . قام الانقلاب وكان أحد أهدافه الأولى ، اعتقال الشريف قبل إذاعة البيان ، ولم يكن ذلك اعتباطا بل كانت له مسببات :

أولها : أنهم كانوا يعرفون شراسته وعناده ومقاومته ، وماله من سند جماهيري وشعبي ، وما حباه الله به : من ذكاء وحصافة وقوة في النفس وعزيمة وأدركوا منذ اللحظة الأولى ، أن فيه يكمن الخطر عليهم .

ثانيها : وبما لاحظوه على الشريف من توجه اشتراكي غريزي ، وعداء للطبقية وانتصار للفقراء والبؤساء ، ظنوا أنه قد يكون رصيدا لهم يتعاون معهم بالتهديد والترغيب كما فعلوا مع موسى المبارك والرشيد الطاهر . . ومن سلك دربهما .

وعندما كانت الإذاعة تردد ترهة : " الشريف الهارب " ، كانوا يوصون إليه من يعطيه الأمان ، ظنا منهم أن الترغيب والوعود قد تؤثر عليه ، ولكن هيهات . . هيهات !

في نفس الوقت الذي تحركت فيه سَرِيَّة لاحتلال القيادة العليا ، أرسلت سَرِيَّة أخرى لاعتقال الشريف في منزله الساعة الثالثة صباحا . لم يكن بمنزله ، لأنه لم يكن هناك سرير خال ينام عليه ، ولأن منزله كان في حالة احتلال دائمة ، بواسطة مجموعات كبيرة من أهل القرى والبسطاء والفقراء ، ولعلني أستشهد بقوله مرة :

" لقد كنت وزيرا بلا سلطة الوزير ، ولا هيبة الوزير ، أو راحة الوزير ، أو مسكن الوزير ، أو أكل الوزير ، أو ملبس الوزير . كنت أكثر الناس إجهادا ، وأقلهم تغذية وأتعسهم يوما . وكنت مطارَداً طول اليوم بمئات المواطنين : في المكتب والمنزل وحتى الطريق ! حتى اضطررت لمواصلة العمل الوزاري ، بعد العاشرة مساء وحتى الفجر وكم مرة سقطْتُ ! وفي إحدى المرات فحصني الطبيب ، ثم فحصني بدقة أكثر ، ثم ابتسم وقال بكثير من التهكُّم : " إنه سوء تغذية ، إنه جائع " ...

" ولعلني أول وزير في تاريخ الحكم والحكّام ، كان مرضه أنه جائع ، ويومها

اعتقلني الرئيس أزهري في القصر الجمهوري ، وأمر بمواصلة تغذيتي . . وكان على المستفسرين المشفقين بلهجته الحانية : " إن الشريف ليس مريضا ، إنه جائع . . ثم يردف ذلك بضحكته التي تبعث السرور وتشيعه .

كان الطبيب هو عز الدين علي عامر ، ولهذا لم يجد الانقلابيون الشريف بمنزله . وجندت الحكومة كل أجهزتها وإعلامها وقواتها للقبض على " الشريف الهارب " لأنها أدركت منذ الوهلة الأولى ، أنه إن لم تقبض على الشريف فلن يكون للنظام استقرار أو طمأنينة ، وفي ذلك صدق حدسها وصح حسها وسيذكر التاريخ كيف ـ وبعد أربعة عشر عاما ـ حينما رجع الشريف للبلاد نعشا ومغمض العينين للأبد كيف استنفرت السلطة كل أمنها وجبروتها وقواتها المسلحة ، وكيف وضع سلاح الطيران على أهبة الاستعداد ، وكيف حوصر المطار بعشرات المدرعات ، حتى إن النميري خاطب بعض رجال أمنه : " لقد كان هذا فعلكم والشريف أتانا ميتا ، فماذا كنتم تفعلون لو عاد حيا ؟ " .

أدركت السلطة أنه لابد من القبض على الشريف ، وأدرك الشريف أنه لابد من المعركة ضد السلطة ، إذا كان للشعب أن يستعيد عزته وكرامته وحريته وديموقراطيته . جندت السلطة كل جيشها وشرطتها وأمنها وخبرات حلفائها المحليين والعالميين ، من أجل القبض على رجل واحد ، أعزل لا حول له ولا قوة . . وزعت صور الشريف على كل نقاط الشرطة والحدود ، وكان الراديو والتلفزيون يقطعان برامجهما مرات متعددة طوال اليوم ، طالبين من الجمهور تسليم الشريف حيا أو ميتا ، بل وضع ثمن لرأسه مكافأة يسيل لها اللعاب ولكن هيهات !!

ولقد بدأ الشريف معركته الأولى مع النظام ، وأوته منازل البسطاء والفقراء وظل يتنقل من الخرطوم إلى الجزيرة ، ومن الجزيرة إلى الخرطوم ، داعيا للمواجهة في البداية ، ثم عدّل التكتيك لتكوين مقاومة ذات نَفَس طويل ، عندما أدرك أن هذا النظام جاء ممتطيا بساطا أحمر ، له جناحان : أحدهما في موسكو والآخر في القاهرة فالمواجهة لن تكون سهلة والعدو أكبر مما كان متوقعا .

وهنا لابد أن نذكر ، إشهادا للحق والتاريخ ، بأن صورة المعركة ضد النظام التي بدأها الشريف في الساعة الأولى من صباح يوم ٢٥ مايو ، لن تكتمل دون التعرض بالذكر لرجل آخر ، آمن مثلما آمن الشريف ، بأن ما يحدث في السودان ليس له علاقة بأهل السودان ، ولا شعب السودان ولا قيم السودان . رجل آمن منذ الوهلة الأولى ، بأن النضال ضد النظام واجب وطني وديني وأخلاقي ، ذلك هو الإمام الهادي المهدي عطر الله ذكراه .

ولقد كانت بين الشريف والإمام مودة تعود لأيام الصِّغَر ، لم يفسدها اختلاف الانتماءات السياسية ، ولم تعكِّرها كل معارك الشرف في ساحة الديموقراطية وقت أن كان السودان حرا مستقلا ، وكانت هذه العلاقة إحدى الأسس المتينة التي قامت عليها المعارضة الشعبية السودانية لنظام مايو .

كان الإمام الهادي وقتها بالجزيرة أبا ، وكانت (أبا) وقتها ، البقعة الوحيدة في السودان التي لم تنجِّسها مايو بفجورها ؛ وكانت انعكاسا مصغَّرا لسودان الأمس وسودان الغد الحر الآمن ؛ وكان حول الإمام آلاف من أنصاره الغر الميامين الصامدين المخلصين المؤمنين بوطنهم وخلاصه : من رجس مايو ، وفساد مايو وانحطاط مايو .

سمع الإمام بتحرك الشريف كما كان يتوقع ، فأرسل له لتوحيد الخطة وحشد الطاقات وتجميعها . وقبل أن يتحرك الشريف للجزيرة أبا ، بعث المرحوم الشهيد بابكر عباس ، للرئيس الأزهري بسجن كوبر ، يبلِّغه بما حدث ويستشيره فيما سيحدث . . . ويطلب منه التفويض . وكان رد الرئيس الشهيد حاسما وقاطعا بأن :

" لا مهادنة ولا استسلام . . اجمعوا الصف ووحدوا الجهد ، وكونوا جميعا على الطاغية " .

كان ذلك في يونيو ١٩٦٩ ، عندما توجه الشريف حسين متحديا كل الحواجز الأمنية ، متجاوزا روائح التسلط والقهر . . نحو (أبا) . كانت الجزيرة تموج بأنصارها البواسل ، يجسدون عزة السودان ، وكل ما يمثل أهل السودان من نبل وكرم وشهامة . استقبلته الجزيرة (أبا) بالودِّ والترحاب ، واستضافه إمامها في بِشر وبشاشة .

وكانت الأيام التي قضاها الشريف حسين في (أبا) ، من أخلد الأيام المنحوتة على ذاكرته .

اجتمع فور وصوله مع الإمام الهادي ، والشيخ/ الكاروري ، والشهيد/ محمد صالح عمر ، وأُعلن ميلاد الجبهة الوطنية في اليوم الأول لوصول الشريف . ولم يكن الظن وقتها ، أن ثمن دماء الشهيد محمد صالح عمر ، ورفقته من شباب الأخوان المسلمين والأنصار ، سيقبَض مالاً من بنوك نميري ؛ ولم يدرُ بخلد الشريف وقتها ولا بخلد الإمام الغائب ، أنه سيأتي يوم تكون فيه الجبهة الوطنية مطية ؛ يركبها حسن الترابي إلى سلطة الغبن والخراب . . ولم يدر بخلدهما أن الجبهة الوطنية ستصير دابة الصادق ، إلى خزائن النميري ومناصب النميري .

بتكوين الجبهة الوطنية بدأت المعركة الثانية للشريف مع النظام . اتُّفِق منذ اللحظات الأولى، على أن النميري ليس عبود ، وأن مايو ليست نوفمبر ، إذ أن عبود - وإن كان يرأس طغمة عسكرية دكتاتورية - إلا أنه وطغمته كانوا في الأساس سودانيين بالمنشأ والسلوك . أما النميري فقد جاء مرتديا ثوبا أحمر قاتم الحُمرة يبشر بلينين والثورة الحمراء ، وقطع في ذلك شوطا بعيدا ، حتى أن خطته الاقتصادية الأولى - وقت أن كان بابكر النور وزير التخطيط - وُضعت بواسطة خبراء روس ، وجهازه الأمني تكون بواسطة خبراء من ألمانيا الديموقراطية . وفي الأسابيع الأولى ، أوفد المئات من المجندين من شذاذ الآفاق لألمانيا الشرقية لتلقي التدريب في البطش والإرهاب . وسيذكر السودانيون أنه في يوم ما من يونيو ١٩٦٩ ، تصادف عيد مولد الرسول (صلى الله عليه وسلم)، مع ذكرى ميلاد لينين، فاحتفل نميري بميلاد لينين وألغى احتفالات المولد النبوي الشريف لأسباب أمنية . ولقد تخلل احتفالات لينين هتاف الشيوعيين وأبواقهم : " أن رأس الشريف مطلب وطني " . .

إزاء كل ذلك . . اتفق الشريف والإمام منذ الوهلة الأولى ، على أن الدخول في مواجهة مسلحة مع النظام ، أمر يقتضيه الواجب الوطني والشرعي والديني وجرى مسح وحصر للسلاح الموجود . . وكان بسيطا لدرجة لا يصدقها العقل . كانت

الجزيرة قوية بعزم رجالها ، وصبر رجالها ، وشجاعة رجالها ؛ ولكن كان ينقصهم المال والسلاح . والسلاح والمال ، أضحيا في الزمن المعاصر مستلزمات أساسية لأي نضال مهما كانت أشكاله . وهنا كان دور الشريف طليعيا وقياديا وفعالا .

واجه الشريف الواقع بموضوعية ، وعرف أن القدر قد كتب عليه . . أن يهاجر ليأتي بالسلاح والذخيرة والمال ؛ وعرف أن القدر كتب عليه أن يهاجر لتنطلق طيور الحرية مغرِّدة على أغصان السودان ؛ عليه أن يهاجر لتعود القِيَم والأخلاق والمثل . . وهاجر .

سلك درب الغابة وطريق الوحل ، في خريف أغسطس ١٩٦٩م، وبينه وبين الحدود الأثيوبية مئات الأميال ، كلها ملأى بالمترصدين والمتحرشين من كلاب النظام، يمتشقون السلاح والحديد من أجل القبض عليه حيا أو ميتا . خرج في معيَّةِ نفر قليل لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة ؛ زادهم الإيمان بالله . . وبأن الحياة أجل مكتوب ومحسوب . خرجوا في ظلام دامس يستضيئون بنور الحياة ويكتوون بنارها في تعب ممِض ووحشة قاتلة ؛ إلى أن وصلوا الكُرمُك ـ على حدود السودان الشرقية وفي الكرمك سمع من المذياع باستشهاد الرئيس إسماعيل الأزهري بالسجن . وكان وقع الخبر كوقع الصاعقة عليه . .

وقال الشريف في إحدى خطبه في وقت لاحق : " استشهد الرئيس الأزهري بالزنزانة في حكم النميري ، في الوقت . . وفي العمر . . الذي كان يجب أن تقام له التماثيل ، كما أقيمت للذين حققوا استقلال بلادهم . ذهب الشهيد الأزهري من الزنزانة إلى القبر ، واحتوى القبر عندها آمال أمة كاملة في المنطقة العربية ، وتاريخ أمة كاملة : هو تاريخ الكفاح الوطني للشعب السوداني .

واستفاق الشريف بعد ساعات من صدمة الخبر ، ليجد حمَّى الملاريا تسري في أوصاله . ولكن كان لابد من مواصلة السفر قبل مطلع الفجر ، وكانت بينهم وبين الحدود بضعة عشر من الكيلومترات لا تقطعها السيارة ، ولا بدَّ من قطعها مشيا على الأقدام . وتحامل الشريف على جسمه ، وفي القلب فاجعة ، وفي الجسم علِّة . .

وقطع طريق الوحل والوعر ، مشيا على أقدامه ساعات طويلة إلى الحدود الأثيوبية .

كان الإمبراطور هيلاسيلاسي ، يحفظ وداً وامتناناً للشريف يوسف الهندي - والد الشريف حسين - أيام آواه . . وقت أن طرده الطليان ؛ وظل يحفظ هذا الفضل لأسرة الشريف الهندي طيلة حياته . . كما كان الإمبراطور يحفظ الفضل لكل الشعب السوداني الذي آزره ونصره . وكان الإمبراطور يعرف أن السيد الرئيس الأزهري والإمام الهادي ، هما الزعماء الحقيقيّون لهذا الشعب . . ولذلك بعث الشريف من نقطة الحدود برسائل ثلاث للإمبراطور : واحدة من الرئيس الأزهري ، وثانية من الإمام الهادي ، وثالثة باسمه شخصيا .

وأصدر الامبراطور تعليماته أن يتحرك الشريف إلى أصوصة ، حيث بعث له طائرة هناك أقلّته إلى أديس أبابا - "عاصمة الهضاب الشّم" - كما كان يحلو للشريف أن يسميها . وأكرمه الإمبراطور ، ليكرم في شخصه أهل السودان وشعب السودان وشرح الشريف الموقف ومتطلباته .

كان الشريف يدرك بمعرفته الاقتصادية الدولية ، موقف إثيوبيا المالي ، ولم يرد أن يحرج الإمبراطور بما يثقل كاهل خزينته ، ويضع عبئا جديدا على الشعب الإثيوبي . فطلب منه الساحة الجغرافية وبعض التسهيلات الأمنية واللوجستكية ، ووافق الإمبراطور .

ثم تحرك الشريف من هناك بعد أسبوعين في سبتمبر ١٩٦٩م ، إلى المملكة العربية السعودية ، حيث كان الملك فيصل طلب أن يراه . استضافه الفيصل استضافة الملوك والأمراء ، ووضع تحت تصرفه إمكانات كبيرة ، من أجل تكوين معارضة قوية وفعالة . ولقد ظل الشريف ، ولسنوات طويلة يذكر بالفضل (الذي لا يعرفه لأهل الفضل إلا ذوو الفضل) يذكر للملك فيصل ، موقفه الجريء والشجاع من المعارضة السودانية وكيف أن قلبه كان معها ، وكيف رعاها بالمؤازرة والمال والنصح والإرشاد .

رجع الشريف من السعودية لإثيوبيا ، لتبدأ مرحلة ثالثة من معاركه ضد النظام في السودان ، رجع ليكوّن أول المعسكرات في غابات أثيوبيا ، ومن هناك كان يرسل

السلاح والذخيرة بشكل منتظم ، للإمام وأنصاره في الجزيرة (أبا) ، التي كانت تستعد لعرسها ، وسط تدابير الأمن السوداني والرصد الجوي . ولقد تجلت في ذلك مقدرة الشريف الهائلة في اللوجستيك والتخطيط ، وظهر ذلك جليا من حداثة السلاح وكميته التي وجدت في الجزيرة (أبا) .

في أوائل مارس ١٩٧٠م ، وصلت معلومات للنظام ، تشير إلى أن تدريبات عسكرية ضخمة تجري في الجزيرة (أبا) ؛ على أسلحة حديثة وكثيرة ومتعددة .

لم يكن تخطيط الشريف ولا الإمام ، أن تبدأ معركة الجزيرة في الوقت الذي بدأت فيه ، وإنما كانوا ينتظرون مزيدا من السلاح والتدريب والرجال ، وكانوا يخططون لذلك . إلا أن المخابرات المصرية أصرت على النميري بتدمير الجزيرة ومن فيها وجاء أنور السادات خصيصا إلى الخرطوم من أجل ذلك الغرض ومعه سِرب كامل من طائرات الميغ ٢١ ، وجاء سِرب آخر من دولة أخرى يقوده قيادي كبير .

وتضافرت كل هذه الدول ، وكل هذه الأسراب ، وكل هذه القوى ، ضد بضعة آلاف من الرجال في بقعة صغيرة من الأرض ، تحيط بها المياه من كل جهة ، في أسوأ عدوان عرفته أفريقيا والمنطقة ، عدوان ثلاثي قذفت فيه الطائرات النساء والأطفال بقاذفات اللهب ، وقُتل الآلاف وشُرِّدوا ، وغاب إمامها الطاهر البطل ، إلى حيث لا يعرف مصيره أحد . استشهد الآلاف فداء لهذا الوطن . .

وكتب الشريف عن معركة الجزيرة (أبا) : " كانت إحدى ملاحم الصمود والشجاعة التي قلَّ أن يسجل التاريخ مثلها ، والذي أريد أن أسجله هنا ، أنه يوم فُتحت الجزيرة(أبا) ، لم تسقط هي ، بل سقط كل السودان . . بتاريخه وإرثه وتراثه وخُلقه وقيمه . إن معركة الجزيرة(أبا) الحربية ، وغزوها بكل أنواع الأسلحة الحديثة والدول التي تحالفت عليها ، وشهداءها الذين قابلوا الرصاص وصدورهم مفتوحة للموت ؛ والذين دفنوا أحياء وهم يحملون القرآن ، في قلوبهم وفي أيديهم وفي ألسنتهم ، ستظل ذكراهم خالدة في ذاكرتي ، وفي تاريخ الرجولة وأخلاق العروبة ليس لها مثيل " .

ولم يكن دور الحزب الاتحادي الديموقراطي ثانويا ، بل كان طليعيا وقياديا يتشرف بها كصفحة ناصعة من تاريخ كفاحه البطولي . وهكذا . . صارت معركة الجزيرة (أبا) ، هي معركته الرابعة مع النظام . غاب الإمام الهادي ، وترك أنصاره أمانة ووصية في عنق الشريف الحسين . . وكانت وصية قالها الإمام على مجمع كبير من الناس ، وهو يودِّع الشريف إلى مهجره ، إذ قال لأنصاره " : إن ألمَّ بي شيء فالحقوا به ، فإني موصيِّه عليكم " .

وكانت وصية غالية عند الشريف عليه رحمة الله ، وصية حملها في حدقات عيونه ولم يرمش له جفن ، حملها في حنايا ضلوعه ولم يهتج عليه نَفَس . كان أمينا عليهم وفيّاً لهم ، قويا بهم ، وخاض بهم ومعهم معارك أخرى شرسة ضد النظام ، قد يطول الحديث لذكرها الآن . وتنفيذا لوصية الإمام ، ظلت جحافل الأنصار تتوالى على الشريف في غابات أثيوبيا ، حيث عكف على إنشاء معسكرات الإقامة والتدريب ؛ ولحقت به أيضا صفوة من كرام المناضلين من الشباب ، كان فيهم شباب الاتحاديين ، وصفوة مخلصة من الأخوان المسلمين .

وفي الوقت نفسه . . اتخذ من جدة مقرا مدنيا لقيادة المعارضة السودانية حيث وفَّرت لهم الحكومة السعودية ، كل أسباب الطمأنينة والإقامة . وكانت المعارضة بقيادته تضم الاتحاديين وحزب الأمة والإخوان والمستقلين ، وكان دور الملك فيصل ، في ذلك . . أسياسيا وتاريخيا وخالدا ، في سجلات النضال السوداني .

كوّن الشريف مكتبا سياسيا للجبهة الوطنية بجدة ، وكوّن قيادة عسكرية بأثيوبيا وفتح قنوات إعلامية في بيروت ؛ ليدخل وتدخل معه كل الحركة الوطنية السودانية بداية المعركة الخامسة مع النظام . وكان ذلك في منتصف عام ١٩٧٠م ، ولم ينقضِ العام بعد . . على انقلاب مايو .

كرَّس الشريف جهدا كبيرا لنقل المقاتلين والمتطوعين ، في سرِّية كاملة من جميع أنحاء السودان ، عبر الحدود إلى أثيوبيا . وأنشأ معسكرات متكاملة ، اهتم فيها كثيرا بشؤونهم الاجتماعية : من كساء وغذاء وعلاج . . وكان التدريب يجري على قدم

وساق ، على كل أنواع الأسلحة ؛ استعدادا لجولة أخرى مع أعداء الشعب والوطن قد يكتب الله له فيها الخلاص .

وظل المكتب السياسي للجبهة نشطا وفعالا ، وكانت قيادات الحزب الاتحادي وقيادات العمل الوطني ، تتوافد من السودان إلى جدة ، تحت غطاء "العمرة" تارة والعمل تارة أخرى . وكان التشاور مستمرا بين الداخل والخارج ، في رسم الصورة المتكاملة للمقاومة الشعبية ؛ وكان الحج مؤتمرا كبيرا يضم قيادات الحزب في كل السودان ؛ وكان الشريف يحرص كثيرا على لقائهم فردا فردا .

في هذه الأثناء ، وبالتحديد في يوليو ٧١ ، حدث انقلاب الشيوعيين على نميري . ولا نريد أن نتعرض بالتفصيل لما جرى وقتها ، ولكن لا بد أن نذكر ، أنه ـ وبالرغم من العداء السياسي ـ كان حزن الشريف على عبد الخالق والشفيع وقرنق كبيرا وعظيما وكان حزنه أكبر وأعظم على الانهيار الكامل لنظام العدالة في السودان . . الانهيار الذي تجلّى في طبيعة محاكمات يوليو ١٩٧١م . ولم يشمَت الشريف (وحُقَّ له أن يشمَت) ؛ ولكن رأى في الأفق ملامح وجه جديد لعدو جديد . . وهو : نميري لعبة الرأسمالية . واستعد بنفس الحزم والعزم للمواجهة وإن اختلف العدو ، فالهدف واحد . وهو : السودان الحر الديموقراطي المستقل .

في هذه الأثناء ـ وبالتحديد في مطلع ١٩٧٢م ـ بدأت فلول النظام تتوالى على الشريف في السعودية ، وسيطة من أجل المصالحة الوطنية ، ومن أجل المصلحة العامة . ثم أتى وفد يضم : مأمون عوض أبو زيد وموسى المبارك وعمر الحاج موسى وكان مع الشريف ، عمر نور الدائم ود. عثمان خالد ، ودار نقاش استمر أياما عديدة وضع أثناءها تصور كامل ، لإعادة وجه حياة العزة والكرامة لشعبنا ، وأبدى الوفد رغبة نميري أن يعود الشريف للسودان ، ليكون مسؤولا عن الجهاز الاقتصادي ؛ وأن ترجع الجبهة لتشارك في بناء سودان حر .

ووضع الشريف وصحبه شروطا واضحة كالشمس ، لعودة مثل هذه ، وقبلها الوفد وأبرقها للنميري ؛ الذي أبرق موافقا ثم اشترط الشريف أن يأتي نميري لجدة

ليتم الاتفاق أمام الملك فيصل ، ويكون بذلك شاهدا عليه . وأتى نميري واجتمع به الشريف للمرة الأولى في حياته ، في حضور جلالة الملك فيصل وأبدى كلا الطرفين حُسن النية . . ثم تركهما الملك فيصل ليناقشا وحدهما ويبلغاه بما اتُّفِق عليه .

ووافق نميري على إعادة العمل بالدستور ، وعلى كفالة الحريات العامة واستقلال القضاء ؛ ووافق على حق الشعب في أن ينتخب من يمثله في نزاهة وحرية ، كما وافق على إلغاء التأميمات والمصادرات .

وأذكر أن الشريف حكى لي أن نميري قال له : " إلغاء قرار التأميم والمصادرة سهل ، ولكن من أين لي المال الذي أسدد به حق الناس ؟ " . . . حينها استأذنه الشريف وذهب للقاء الملك فيصل ، واستصدر منه شيكاً بمبلغ ١٢٠ مليون دولار هي قيمة التعويضات . . وسلمه لنميري ؛ ولم يعرف الشريف إلى أن توفاه الله ما حدث لذلك الشيك !

اتفق الشريف ونميري على كل شيء ، وكان الشريف على استشارة دائمة مع رفاقه وتم إبلاغ الملك فيصل الذي بارك الاتفاق ، والتزم النميري بإذاعته بمجرد وصوله الخرطوم .

ولقد روى لي الشريف كيف أنه أرسل من يشتري مذياعاً كبيراً - أي جهاز راديو - ووضعوه في مكان عال ، وكان من الموجودين د. عثمان خالد ود. عمر نور الدائم وأداروا المؤشر على إذاعة أم درمان ، وجاء صوت النميري يكيل القدح والذم والسِّباب للشريف ، ولمن مع الشريف ، ولم يخيِّب نميري ظنهم في التنكر للعهد ونقض الوعد . وانصرف الشريف لمعركته السادسة مع النظام ذهب ليجهز ليوليو ٧٦ م ، تجهيز العروس في ليلة زفافها ، ولقد أسماها - رحمه الله - عروس الثورات . . .

ولد الشريف حسين الهندي العام ١٩٢٤ م في بيت وطني عريق الجذور يتصل بدوحة الإمام / على بن أبي طالب (كرَّم الله وجهه) والسيدة فاطمة الزهراء (رضي الله عنها) . وترعرع وسط أجواء عائلية مشبعة بالإيمان الديني ، ومغرمة بحب العلم والثقافة ، وتسري في حناياها نزعة خفية تشدها شداً إلى جماهير الناس العاديين

خاصةً أولئك الذين جَنَت عليهم الحياة ، وضاقت في وجوههم أبواب الرزق . وكان والده الشريف يوسف الهندي من القادة البارزين ، الذين ساهموا في بث ثقافة سودانية متميزة ، وفي بناء الحركة الوطنية السودانية إبان فترة نشوئها في أواخر الثلاثينيات . يحدثنا الشريف حسين عن والده قائلاً :

" وكنت أقضي أيام العطلة وأنا أقرأ له الكتب طوال اليوم ، في مكتبته العربية - الإسلامية الضخمة ، إذ كانت عيناه قد ضعفت ، وعاش بجسده بيننا في سرير خشبي لا كساء له ، وروحه تهيم وتعيش في الدعوة الإسلامية ؛ وهو يردد : " أنا شيِّدها " ، ويجمع أدبها ووثائق معاركها ، حتى رأى قبساً من نور في دعوة (مؤتمر الخريجين(؛ فأهداهم ألف جنيه (١٠٠٠ ج سوداني . . وهو مبلغ ضخم جداً يومها)، علاوة على منزله الذي ولدت فيه دعوة المؤتمر و "يوم السودان" و"يوم التعليم" ، والمذكرات التاريخية التي رفعها المؤتمرون إلى السكرتير الإداري ، وحزب الأشقاء ، ونادي الخريجين . . الذي كان ولا يزال " شيخ الأندية " .

غير أن والده تُوفِّي مع بداية الأربعينات ، (في الأسبوع الأخير من عام ١٩٤٢) وقبل أن تتبلور الأحزاب وتطرح البرامج الواضحة، ويبدأ العمل على نطاق وطني وشعبي شامل . ولذلك شب الشريف حسين ، وهو يعايش صباح مساء ، المخاض الأول للحركة الوطنية ، وانتقالها إلى مرحلة الصراع ضد الاستعمار البريطاني . . وفي حين أن حزب الأمة كان ينادي في الأربعينات بالتعاون مع الوجود الإنجليزي في السودان ، انبرى حزب الأشقاء ليدعو إلى توحيد النضال، مع القوى الوطنية المصرية انطلاقا من الكفاح المشترك ووحدة وادي النيل، والتحرر من السيطرة الخارجية . ونشأت إلى جانب (الأشقاء) منظمات سودانية اتحادية أخرى تتبنى شعارات مماثلة ولم تلبث جميعها أن توحدت ، تحت مظلة الحزب الوطني الاتحادي في عام ١٩٥٣م برئاسة إسماعيل الأزهري . وهكذا استوعب الشريف حسين منذ ذلك الحين . . معاني الماضي البعيد والقريب، وأدرك أنه مقبل على تحمل مسؤوليات جسام، وفقاً لما مر به وسمعه ورآه .

وقبل أن يلتحق بكلية فيكتوريا في الاسكندرية ، كان قد حفظ القرآن تلاوة وتجويدا . ويروي لنا في مذكراته : " وكان واجبي أن أقعد على ركبتيّ وأرتّله كل فجر ، ولم أكن قد تجاوزت التاسعة وقتها . وكان والدي أتعس الناس عندما ذهبت للتعليم المدني ، ولكنه فعل ذلك مرضاة لخالي الذي كان يعزهـ ، وللإمام عبدالرحمن المهدي ، وكان يعزه ويحترمه " .

ذهب برفقة الإمام الهادي إلى الإسكندرية ، ليجلسا سويا على مقاعد الدراسة وحيث نشأت بينهما منذ ذلك الحين علاقة حميمة مفعمة بالصداقة والثقة المتبادلة وإلى أن كانت أحداث الجزيرة (أبا) في ١٩٧٠م ، فشاركا معا في تلك المعركة غير المتكافئة .

ويقول خال الشريف الذي ورد ذكره ، وهو الأستاذ : أحمد خير المحامي ـ أحد مؤسسي الحركة الوطنية السودانية ، وصاحب كتاب : (كفاح جيل) ؛ وهو الآن(عند كتابة هذه المذكرات) تجاوز المائة من عمره ـ أن الشريف حسين انضم إليه في منزله في واد مدني عام ١٩٣١م ، وهو في سن السابعة من عمره . وكان خاله آنذاك في الثلاثينيات من العمر ، متزوجا ويعمل موظفا في الحكومة ، وهو الذي أقنع والد الشريف بالسماح له بتولي تربية ابنه وتعليمه . وهكذا قضى عاما بكامله يتلقى العلوم الدينية وغيرها في المنزل ، بإشراف المدرس إبراهيم عبد الله كليب ، الذي كان يزور الشريف بعد تفرغه من عمله في مدرسة الكتاب .

وما أن انقضى ذلك العام ، حتى بدأ الشريف تعليمه الابتدائي في مدرسة " البندر " في ود مدني ، حيث تلقى كبقية التلاميذ مواد الحساب واللغة العربية والدين والتاريخ والجغرافية . وكانت هذه المدرسة لا تبعد أكثر من عشرين خطوة عن منزل خاله ، والذي واظب على تكليف مدرسه كليب ليزوره كل مساء ويتابع معه دراسة القرآن . وقضى التلميذ اليافع سنة في بيت خالته ، بعد أن صدر قرار بنقل خاله إلى كسلا ، وكانت تسكن في حي قريب ، فلقي عناية فائقة ذلك العام .

ويروي خاله عن تلك الفترة أنه في أحد الأيام ، وبينما هو في غرفة نومه التي كان

بابها المفتوح يؤدي إلى غرفة الضيوف : " سمعت حسين وهو يتبادل الحديث مع زميله في الدراسة ، دفع الله مصطفى ، وكان هذا الأخير ، والذي أصبح فيما بعد عميدا في الجيش ، يلح على حسين ليعطيه جوابا واضحا حول مشكلة ما . وهنا أجابه الشريف قائلا ، وهو آنذاك في السنة الأولى الابتدائية : "من العبث أن تسألني عن حل هذه المشكلة . لأن هذه المسألة تقوم على أربعة أركان ، وهي : كذا وكذا . . وكذا وكذا " . . ويتابع الأستاذ أحمد خير قائلا : " ومنذ تلك اللحظة ، شعرت أنني أمام ولد ، عقله أوسع من عقل تلميذ عادي . ووثقت أنه قادر أن يتولى أمر نفسه بنفسه ، وليس في حاجة إلى توجيه ومراقبة " .

وبعد ذلك قضى الشريف مدة أربع سنوات في كلية فيكتوريا ، وعاد إلى السودان ليزداد احتكاكا بالعناصر الوطنية ، يحركه دافع الاطلاع على كل شيء ومعرفة ما يدور من نقاشات وإعداد خطط ، وبث آراء جديدة . وكثيراً ما كان خاله يجلس معه الساعات الطوال ، وهو آنذاك في قلب الحركة الوطنية ، ويروي له تفاصيل التطورات ، ويخوض وإياه في مسائل نظرية متعددة : حول مفاهيم تقرير المصير والديموقراطية والاشتراكية والاستعمار .

ولم يقتصر نشاطه على العمل السياسي ، وبذل الجهد للمساهمة في الكفاح الوطني ، والمشاركة في الليالي السياسية ، وغيرها من أشكال التعبئة ؛ إذ أن وفاة والده ألقت على عاتقه أعباء جديدة ، وجعلته يشعر بالمسؤولية الكبرى ، وضرورة الاعتماد على الذات لشق طريقه في الحياة . من هنا بادر إلى إقامة عدد من المشاريع الزراعية ، وتعاون مع بعض العائلات الشامية المستقرة في السودان . والجدير بالذكر ، أنه لم يمارس التجارة في ذلك الحين ، أو في أي وقت لاحق إلا عبر الآخرين وبدون مكتب أو مكان ثابت .

وما أن برز حزب الأشقاء ، ولمع اسم إسماعيل الأزهري كقائد له ، حتى كان الشريف يزداد اقترابا من مؤسسة سياسية ، أخذت على عاتقها التصدي للوجود البريطاني مباشرة . وشرع منذ ذلك الحين يعمل ضمن التيارات الاتحادية التي تدعو

إلى تنسيق الجهود مع مصر . وكان يحيى الفضلي يتولى في الخمسينات سكرتارية الحزب الوطني الاتحادي ، وهو سياسي لامع وشاعر وأديب ، علاوة على كونه صاحب قدرات تنظيمية وإدارية واسعة . ونمت بينه وبين الشريف حسين صداقة خاصة ، يشد أزرها أو يمثل نقطة توازنها ، الرئيس إسماعيل الأزهري نفسه .

وشيئا فشيئا برزت مواهب الشريف الخطابية ، وأخذ يحبِّر المقالات السياسية والنظرية ، وينشرها في (جريدة العلم) التابعة للحزب الوطني الاتحادي . ودخل البرلمان ، ولمع اسمه كأكثر السودانيين اطلاعا على الوضع الاقتصادي ، وأدقهم متابعة ورصدا للتطورات المالية والتجارية . . في العالم العربي وأفريقيا والغرب . وكثيرا ما كانت خطبه تحتشد بالأرقام المفصلة ، والتي كانت ذاكرته العجيبة . . تختزنها وتستعيدها بدون تلعثم أو تردد . وغالبا ما كان زملاؤه يصابون بالدهشة وعلامات الاستغراب (أو عدم التصديق) ترتسم على وجوههم . وبما أن معظمهم لم يكن يولي هذه المسائل ، أكثر من اهتمام ذي صفة عابرة وعامة أخذ البعض منهم يلقي الشكوك حول صحة هذه الأرقام ، وخاصة عندما كانت تُتلى عليهم وكأنها أبيات من الشعر ؛ لكن الذين كلَّفوا أنفسهم عناء المراجعة والتدقيق ، عادوا يؤكدون دقة الأرقام بفواصلها وأصفارها .

ولو اقتصر الأمر على هذه المواهب والمزايا ، لكان الشريف حسين مجرد سياسي بارع يتقن اللعبة البرلمانية التقليدية ، يواظب على عمله ويؤدي مهمته بكل أمانة ووفقا لتقاليد معروفة . غير أنه أدرك أن السودان بلد متخلف يحتاج إلى جهود متواصلة لكي يحقق سيادته الفعلية ، واستكمال استقلاله عبر توفير حياة لائقة لأبنائه .

من هنا . . ووسط الصراعات الحزبية ، والتنافس على المناصب ، وبروز تيارات جديدة في العالم العربي ، وازدياد حدة التوتر بين القوتين الأعظم ، أخذت اتجاهات الشريف السياسية ، وأفكاره الاجتماعية والاقتصادية . . تزداد عمقا والتصاقا بالواقع . فلا عجب إذا بدأ ـ في النصف الثاني من الستينات ـ يشق خطًّا مستقلا ضمن إطار الحزب الوطني الاتحادي ، ويحرص على اكتساب الوجوه الشابة الجديدة ، وتغذية

منظمات الحزب بأعضاء الجيل الذي أخذ ينادي بالتطوير ، وبلورة المفاهيم ومواكبة العصر وحركات التحرر في العالم .

كان يرى أن التجربة الديموقرطية التي أعقبت سقوط نظام عبود في العام ١٩٦٥م تخللتها الفوضى ، وسادتها أساليب تكاد تنحرف بها عن مسارها واتسمت بعدم الاستقرار ووضوح البرامج والرؤية ، الأمر الذي أتاح لقوى أخرى النفاذ عبر هذه الأجواء واختراقها للوصول إلى السلطة ، وذلك باسم تحقيق تغيير شامل وإلغاء صراعات القوى الحزبية .

ولذلك دعا إلى التمسك بالحريات الديموقراطية ، في ظل توجه وطني قومي صرف ، والخروج من حلبة الخلافات ذات الطابع الفردي أو الطائفي بين قيادات معينة ، وطرح آراء الجيل الجديدة في عملية تواصل مع كل الأجيال ، وإيلاء أهمية أساسية لمشكلات المزارعين والعمال ومطالبهم .

وكان يقتضي هذا التوجه ، إحداث الانتقال من الدولة الليبرالية البحتة والتي يتجاور فيها القديم التقليدي مع الجديد العصري ، إلى دولة أرقى ، ثابتة الأركان تعرف كيف تزاوج بين الديموقراطية الفعلية ، ووضع البرامج السليمة ، وبين إطلاق المبادرات والحريات الفردية ، وتخطط وفق أسلوب علمي للنهوض بالقطاع العام وتشجع القطاعين : المشترك والخاص .

أما مذكراته حول " مؤتمر الخرطوم " ـ وهي مذكرات لا تغطي كل مساهماته ونشاطاته في المؤتمر ـ فتقدم ملامح صورة لانطباع واضح حول توجهاته القومية التي ستبرز فيما بعد ، على نحو أشد سطوعا . . إثر توليه قيادة المعارضة السودانية .

وإذا ما استعدنا وصفه للوضع السوداني عشية الانقلاب العسكري ، وقارناه بوصفه للوضع العربي عشية حرب ١٩٦٧م ، نجد أنفسنا أمام رؤية متكاملة تحيط بجوانب القضايا وتربط فيما بينها ، وتشير إلى تداخلها رغم ما يبدو ظاهريا ، من وجود مبعثر لقضايا لا رابط بينها . فهنا وهناك ترتسم لوحة عامة تتوالى تفاصيلها بدقة عجيبة ، فلا يراها بشتى خطوطها وألوانها ، إلا من شارك في رسمها ، ثم أبتعد

عنها قليلا ليلقي عليها نظرة كلية .

هنا وهناك . . صراحة جريئة لا تستنكف عن وضع النقاط على الحروف وإبراز مسؤولية كل طرف سياسي - أو غير سياسي - عما حدث من نكبات ونكسات .

اسمعه يتحدث عن الجو السياسي السائد ، قبل انقلاب النميري وزملائه الضباط :

اتفاق جناحي حزب الأمة . . أي الصادق والإمام الهادي . .

- " أن يكون الصادق رئيسا للوزراء . .

- استقالة رئيس الوزراء . . المحجوب

- محاولة الاتحادي الديموقراطي في الانفراد بالحكم . .

- سفر الإمام الهادي إلى الجزيرة أبا . .

- رفضنا قرار مجلس الأمن ٢٤٢ . .

- تمسكنا بقرارات مؤتمر الخرطوم

- العلاقات المقطوعة مع أمريكا وألمانيا . . وقبلها مع بريطانيا

- القضية الدستورية في حل الجمعية التأسيسية ، وتدخل بعض الضباط في ذلك

- قضية حل الحزب الشيوعي وموقف بعض القضاة منها

- تطلع الجميع للحكم المقبل ومعركة رئاسة الجمهورية ، وإهمال الأغلبية للحكم الحالي وأمنه وأدائه

- التسيب وعدم المبالاة في بعض الوزارات ، وإلقاء العبء كله على قلة تقل عن أصابع اليد الواحدة . "

وبعد أن لمحتَ جانبا أساسيا من الصورة السودانية ، بكل سلبياتها التي تشكل أرضا خصبة للمغامرين وهواة الانقلابات والبيانات العسكرية ، لننتقل معا إلى لوحة الوضع في أواخر مايو ١٩٦٧م : " كان الجو العربي مكفهرا ومتدهورا وكانت وحدة الصف مهترئة وممزقة ، وأجهزة الإعلام العربي - المقروءة والمسموعة والمنظورة - تعترك يوميا ، وسياساته . . نحو أي نظام عربي آخر وكان العدو الإسرائيلي ينظر وينتظر في شماتة وفرح . والجماهير العربية تتدنى روحها المعنوية . . والعالم من

حولها ، عدوا كان أو صديقا أو محايدا ، يعرف سلفا نتيجة أية مواجهة بين العرب وإسرائيل " . .

إلى أن يقول : " كانت الجيوش العربية تفتقد التسليح والتدريب والقيادة والوحدة كان الحرص على بقاء أي نظام ، أكبر من الحرص على النصر في قضية العرب المركزية ، ومعركتهم القومية والمصيرية . " وهكذا يستمر في تشخيص الوضع العربي ، إلى أن يركز على أهمية إطلاق حرية الجماهير العربية ، وجعل الإنسان العربي يشعر أن المعركة تخصه شخصيا ، وليست اشتباكا بعيدا عنه يجري على حدود بلاده .

وفي التاسع من يناير ١٩٨٢م ، توفي في أثينا الشريف حسين الهندي ، زعيم المعارضة السودانية ورئيس الحزب الاتحادي الديموقراطي ، وذلك إثر وصوله من المملكة العربية السعودية ، للإشراف على مؤتمر الطلبة الاتحاديين الذين توافدوا إلى اليونان ، من وطنهم وكل أنحاء المهجر . وأتت وفاته . . في فترة كان الشعب السوداني يواصل انتفاضاته ومظاهراته ضد نظام المشير جعفر نميري ويطالب بإسقاطه وإبداله .

وبعد ثلاثة أعوام من رحيل زعيم المعارضة السودانية ، اجتاحت السودان ثورة شعبية عارمة أطاحت بحكم نميري ، ووقف الجيش إلى جانب مطالب الجماهير ثم أمسك مقاليد الأمور لفترة انتقالية ، يمهد فيها الطريق ، ويهيء الأجواء ويضع الأسس لعودة الديموقراطية وإقامة حكم برلماني ينبثق عن الإرادة الشعبية ، عبر أحزابها الرئيسية ونقاباتها وهيئاتها المهنية والسياسية .

وكثيرون رأوا في هذه الثورة تكرارا شبه أمين لثورة أكتوبر ١٩٦٤م ، التي أودت بنظام عبود ، وأعادت مرة ثانية الحياة الديمقراطية إلى البلاد بعد مضي ست سنوات . غير أن هذا الرأي لا يذكر ، أنه بعد مرور [illegible] ، أي في مايو ١٩٦٩م قام الجيش بانقلاب جديد [illegible] والاستمرار في السلطة حتى ١٩٨٥م [illegible] طويلة جدا في [illegible] السياسة السودانية والأفريقية . [illegible] النظام البرلماني كان متوقعا ، نتيجة

الخلافات الحادة التي استعرت بين قادة الأحزاب الرئيسية ، وانقسام الزعماء بين مؤيد لدستور إسلامي ، وآخر يحبذ دولة شبه علمانية ، بتعدد كل التيارات والاتجاهات العقائدية ، بما فيها الحزب الشيوعي السوداني . يضاف إلى صراعات قادة الأحزاب ارتفاع حدة أزمة الجنوب ووصولها إلى طريق مسدود ، وإضافة إلى ذلك وضع اقتصادي يتراوح بين الجمود ، وبين عدم قدرته على استيعاب الكفاءات الشابة والقوى الاجتماعية الجديدة .

وهكذا فإن هذه الأسباب دفعت إلى الواجهة ، قيادات عسكرية جديدة مليئة بالأمل ، مفعمة بالطموح . . تطرح برنامجا اشتراكيا شاملا ، لإخراج السودان من أزمته وإنعاش اقتصاده وحياته . غير أن الخلاف لم يلبث أن نشب بين القيادات العسكرية وانفرط عقد حلفاء الأمس ، وما أن أرسى السادات قواعد نظامه الجديد القائم على الانفتاح الاقتصادي، وعقد الصفقات المنفردة مع إسرائيل ، حتى كان النميري من أول الذين باركوا هذه الخطوات ، وأعلنوا العزم على اقتفائها حتى النهاية .

وعادت مجددا مشكلة الجنوب السوداني تزداد حدة ؛ ثم تدهور الوضع الاقتصادي من سيء إلى أسوأ حتى وصل حد المجاعة ؛ وازدادت هجرة السودانيين إلى الخارج ، وتصاعد القمع الداخلي وتكميم الأفواه ، وتطبيق " الشريعة الإسلامية " تطبيقا مشوَّها مبتورا لا علاقة له بالدين أو أي عُرْف مدني . وظهرت للمرة الأولى في السودان طبقة المليونيرات ، وهي طبقة طفيلية غير منتجة . . تعيش على العمولات والسمسرة ، وتقتات من فتات موائد رئيس الدولة ، وتعتاش من عمليات التزوير والتهريب وسرقة أموال الشعب والمساعدات التي تتلقاها أجهزة الدولة من الحكومات العربية والمؤسسات الدولية .

وما أن انفجرت فضيحة تهريب الفلاشا إلى إسرائيل ، وتورط أجهزة النظام في الإعداد لها ، وتسهيل ترحيل يهود إثيوبيا ، حتى كانت الأمور في غاية التوتر ومثلت هذه الفضيحة الشرارة الأولى ، للحريق الذي اندلع والتهم حكم النميري ومعظم ما

يمثله .

فإضافة إلى كل الأسباب الداخلية المتراكمة ، أضيف سبب قومي رئيسي رجح كفة الصراع ، وأظهر مدى أهمية هذا العامل وفاعليته الحية في قلب الساحة السودانية . وهذا العامل القومي ليس غريبا عن السودان ، فهو بلد : " اللاءات الشهيرة " - لمؤتمر الخرطوم في ١٩٦٧م ؛ وذلك بعد هزيمة يونيو . والغريب في الأمر أن رئيس الوزراء السوداني الراحل محمد أحمد محجوب ، يروي في كتابه (الديموقراطية - في الميزان) ، أن سبب الانقلاب العسكري الذي أتى بالنميري إلى السلطة ، له علاقة مباشرة بقرار ٢٤٢ مجلس الأمن الذي رفضت حكومة السودان قبل الانقلاب القبول به . ويمضي قائلا : " إن العقيد جعفر النميري وزملاءه حين جاءوا إلى الحكم - في العهد العسكري الثاني - أعلن نظامهم قبول قرار مجلس الأمن كجزء من إجراءاته الثورية " . وهو الرأي نفسه الذي كان يردده الشريف حسين الهندي خاصة في مذكراته التي نشرها عن مؤتمر الخرطوم .

ومن هذه الزاوية يتبين لنا ، أن عناصر إنجاح أية تجربة سياسية جديدة في السودان تنطوي على مقومات متضافرة شبه ثابتة ، يؤدي الإخلال ببعضها أو بمجموعتها إلى انهيار البناء ككل ، ويطرح ضرورة إعادة تشييده مرة ثانية . . لا يلغي هذا القول أسبابا أخرى تشكل الروافد التي تصب في المجرى الرئيسي وتعمل على تغذية طينه أو مياهه الصافية . ولذلك . . لا بد من التشديد على النقاط التالية :

١ - أن الديموقراطية في السودان ، مسألة أساسية لا يرضى السودانيون عنها بديلا وذلك نظرا للتنوع الجغرافي والاجتماعي والطائفي والإثني (العرقي) وللتقاليد السياسية الحزبية النابعة من هذه الظروف ، والتي تغذيها تجربة تاريخية فريدة من نوعها ؛ تضرب جذورها في الثقافة الصوفية وأنماط التربية العائلية ؛ والاتصال بالحضارة الغربية والعربية ، وأساليب تكريس سيطرة جهة معينة ، أو فئة طائفية على حساب الأطراف الأخرى . كما أن غرق السياسيين في ألاعيب جانبية لإحراز نفوذ أوسع ، أو خلق مؤسسات ذات صيغة قمعية فردية ، يؤدي إلى فتح

ثغرة واسعة تنفذ منها قوى محلية داخل الجيش أو خارجه، وتتجه هذه القوى نحو الابتعاد عن الماضي القريب، وتطرح بدائل كثيرة للنظام الديموقراطي .

٢ - أن الديموقراطية في السودان ذات الوجهين : الإيجابي والسلبي ، لا تنتعش وتنهض على أسس سليمة في ظل غياب نمو اقتصادي شامل . إن النظام اللبرالي السياسي البحت ، أصبح مجرد وعاء كبير لا بد من تغذيته بمضمون واضح ، وإلا فقد مبرر وجوده ، وأضحى الوعاء الفارغ الذي طالما نجحت في تهشيمه الدبابات والعربات المصفحة .

من هنا . . فإن إيجاد حل سليم للمشكلة الزراعية في السودان، وتشغيل الأيدي العاملة وتوزيع الثروة توزيعا عادلا ، وخلق قطاع صناعي يلبي حاجات البلد الضرورية، ويتناغم تناغما تاما مع القطاع الزراعي، من الأمور الحيوية التي لا يمكن تجاهلها . كما أن تطوير الأجهزة الإدارية والفنية ، وعقلنتها ووضعها في خدمة عملية التنمية الشاملة ، مسائل هامة لا غنى عنها

٣ - يترافق مع النمو الاقتصادي وترشيد الإدارة ، إيجاد حل لمشكلة الجنوب وذلك عبر خلق المؤسسات الجديدة التي تلبي تطلعات الجنوبيين ، وتسهر على صهرهم ضمن البوتقة الوطنية ، انصهارا طوعيا نابعا من التقاليد السودانية المحلية .

إن الجنوب السوداني ، هو محك نجاح التجربة السودانية ككل . لأنه عبر هذه المنطقة الخصيبة والغنية ، ذات الأعراف القبلية والدينية الخاصة ، ستظل القوى الخارجية تجد موطئ قدم داخلياً لها ، وتبني قاعدة ثابتة لبث التفرقة العنصرية والقومية والدينية ، وعرقلة بناء الوحدة الوطنية السليمة . لا !! بل إن استمرار الديموقراطية نفسها ، سيبقى موضع تساؤل كبير ، ما لم ينجح السودانيون في الاتفاق على الحد الأدنى ، وعقد اتفاق جديد حول مشكلة الجنوب ، وينطبق الأمر نفسه على نجاح الخطة الاقتصادية .

أما القضية القومية المركزية عبر محورها الفلسطيني والمسائل العربية الأخرى فهي البعد الثابت في أفق التحرك السوداني . وأي تجاوز لهذا البعد الثابت ، أو محاولة

القفز فوقه ، سيجدان رِدة فعل سريعة داخل الساحة السودانية ، تنذر بأسوأ العواقب للذين مسوا القضية القومية . وتبشر بانبثاق فجر وطني جديد في قلب المجتمع السوداني . غير أن لهذه القضية تشعباتها الكثيرة . . وهي تطرح أولا ، أهمية إقامة علاقات طبيعية مع العالم العربي ، ذات أساس عام يأخذ في عين الاعتبار ، أهمية رصد التطورات الخارجية في مصر وفلسطين مثلا وانعكاسها المباشر في المرآة السودانية الشفافة .

ومن هنا . . فإن الاستقرار في الداخل ، أي في الوضع السياسي والاقتصادي والحزبي والجنوبي ، هو استقرار قائم على مدى اندماجه بالبعد القومي ، وإيلاء الأهمية لما يدور في دنيا العروبة ككل .

كما أن هذه الثوابت ، تنطلق أيضا من أعماق أخرى ، لها صلة وثيقة بمفهوم الهوية السودانية الوطنية ، ذات الطابع الخاص الذي تتعانق فيه المعاني : العربية والأفريقية والإسلامية والصوفية والثقافية العصرية ، عناقا كاملا حتى تكاد لا تلمح فيه . . إلا صورة واحدة ، هي : صورة الوطن السوداني وشعبه بتاريخه المتنوع . وهذه هي الثوابت عينها ، التي تمثلها الشهيد/ الشريف حسين الهندي . . ووعاها ، وتمازجت في شخصيته وسلوكه ونضاله الحزبي والوطني والقومي . ولذلك انبثقت قيادته للمعارضة السودانية ، وثورة الشعب السوداني ضد نظام النميري انبثاقا طبيعيا عفويا لا أثر فيه للتهافت على المناصب ، أو الارتماء في أحضان قوى خارجية ، أو السقوط تحت أنواء اليأس والاستسلام للقدر والأوهام

وفي حين انهارت عزيمة بعض رفاق طريقه (في غمرة الصراع والنضال)، ظل الشريف حسين صامدا في موقفه، مطالبا بضرورة تحقيق التغيير الشامل .

وهكذا . . بعد أن تخلى عنه حسن الترابي والصادق المهدي ، عاد ينكبّ على بناء المعارضة ، بناء أكثر شمولا وجذرية ، وحقق عبر قيادته الصامدة ، وحدة الشعب السوداني بكل قواه وطاقاته وهيئاته الحية ، وهو لا يرضى بديلا عن إعادة حقوق الشعب الكاملة .

وأذكر فيما أذكر . . (وقد تعرفت عليه والتقيت به أكثر من مرة) . . كنت أسأله عن آخر التطورات في السودان ، ويناقشني حول الحرب الأهلية في لبنان ، أنني حضرت مهرجانا شعبيا أقامته أحزاب المعارضة السودانية في لندن ، في صيف ١٩٧٨م وتحدث الخطباء عن الصراع العالمي حول أفريقيا والسودان ؛ وقيام التنظيم الجبهوي كإطار يناضل عبره السودانيون لإسقاط النميري ؛ وكيفية فرض حزب واحد على البلاد ؛ وحالة التدهور الاقتصادي والخلقي ، وسقوط السودان في مستنقع التأثيرات الخارجية ، التي تريد جذبه إلى محور القاهرة وغيرها من العواصم العربية ، وضرورة رفض المصالحة مع الديكتاتورية .

ثم جاء دور الشريف حسين الهندي وكان آخر الخطباء ، فبدأ كلامه قائلا : " أوافق . . أن هناك أخطارا كبيرة وصراعا حادا في المنطقة ؛ وإذا كنا بوابة لإفريقيا فلا بد أن هذا الصراع سيصيب بلادنا . وأوافق على ضرورة اجتماعنا واتخاذنا من الوسائل السياسية ما يدرأ عن بلادنا هذه الأخطار . وأوافق على وجود جبهة وطنية سواء أكانت هناك مصالحة أم لا ، لأن جماهير الشعب ، يجب أن تنتظم في جبهة لتدافع عن كرامتها وحريتها " .

عند هذا الحد . . كان الشريف حسين يؤكد ، على التقائه مع أكثر من حزب سوداني معارض ، ويحاول جاهدا لإظهار الأرضية المشتركة التي تجمع بين أطراف المعارضة ، وهو بالتالي لم يأت بجديد على صعيد العمل السياسي ، غير أنه لم يلبث أن تابع قائلا : " يبدو أن الطريق إلى الديموقراطية ، قد ضاع في منعرجات أخرى ولم يتكلم عنه أحد ، وسأضطر اضطرارا للكلام عنه " .

وهو عبر هذه الكلمات المقتضبة ، أراد أن يُبرِز جوهر الخلاف الرئيسي بين المعارضة والشعب السوداني ، وبين نظام النميري ؛ إذ أنه لم يكن يرى في الديموقراطية مجرد شكلها الليبرالي ، بل هي وفق رأيه ، أبعد وأعمق وأشمل من الاقتراع وإبداء الرأي ، والسماح للأحزاب المختلفة بالعمل السياسي .

وهكذا . . استطرد قائلا : " لقد سار الإنسان في طريقه ، وفي تعامله مع السلطة

ومعالجته لها ، مسارا حثيثا ـ من القبيلة إلى عهد الاستيطان الزراعي والإقطاعيات والممالك ، إلى أن هجر الزراع مناطقهم وتكونت الثورة الصناعية ، وتحول الصراع بين القوى المنتجة والرأسمالية . وطوال هذه الفترة أخذت السلطة أشكالا متعددة : كانت السلطة أولا : كنسية ، ثم إقطاعية ، ثم رأسمالية ، وأخيرا مزيجا من كل هذا . والسلطة الآن في بلادنا هي سلطة فردية

إن الإنسان الذي بلا حقوق ولا حرية ، ومفروض عليه السجن والاعتقال والخوف وزوار الليل ، هذا الإنسان لا يمكن أن يحمي بلاده ، ولا يكوِّن جبهة نضالية لأنه فاقد في المرتبة الأولى ، للحرية وللكيان الإنساني الذاتي . إن دكتاتورية الفرد والحزب والطبقة ، كلها مرفوضة من أي مواطن عادي . . إن سبب كل الهزائم العربية هو أن الإنسان العربي مسلوب الإرادة ومستعبد . "

وبعد هذه المقدمة النظرية ، انتقل إلى تحديد موقف واضح لا لَبْس فيه ، حول الماضي والحاضر والمستقبل ؛ فقال : " نحن لم يلتصق اسمنا يوما واحدا بدكتاتورية الطبقة أو الطائفة أو الحزب ؛ نحن طلاب الحرية منذ معاركها الأولى ضد الاستعمار وطوال الحكم العسكري الأول ، وهذا الحكم العسكري القائم الآن . نحن لم نكن إطلاقا ضد الديموقراطية . . نحن اتحاديون ديموقراطيون ليبراليون ، نحن نمثل السواد الأعظم من السودانيين ؛ ومبادئنا وطنية وليست مستورَدة ، وهي مستقاة من أصالة الشعب السوداني . "

وعندما أشبع هذا الموضوع من كل جوانبه ، وأظهر الديموقراطية كفلسفة شاملة لنضال الوجود البشري ، بكل معانيه ومقوِّماته : الاقتصادية والسياسية والنفسية والوطنية ، انتقل إلى طرح برنامج شامل لإنقاذ السودان .

وعندما جمعتني المصادفة بالشريف حسين الهندي في ١٩٧٧م ، كانت المعارضة السودانية تعاني من حصار إعلامي عربي شبه كامل ؛ وكانت الصحافة العربية لا تأتي إلا على ذكر النميري أو السيد الصادق المهدي . واحتكر هذان الشخصان اهتمام القارئ العربي ، حتى تضاءلت أمامهما كل الشخصيات الأخرى . . هذا ما عدا

بعض المقالات عن الحزب الشيوعي السوداني ، خاصة زعيمه عبد الخالق محجوب الذي علقه المشير جعفر نميري على حبال المشنقة في ١٩٧١م .

ولقد وجدتني منذ مغادرتي أرض لبنان ، واستقراري (المؤقت) في لندن . . مدفوعا بحماس خفي للاطلاع أكثر فأكثر على الوضع السوداني . ولم أكن أدري في ذلك الوقت سبب هذا الاندفاع ، وما الذي جعلني أولي اهتماما متزايدا للتطورات السياسية والاقتصادية في بلد كالسودان ، وهو أكثر البلدان العربية فقرا ، وأقلها انخراطا في تيار السياسة العربية العام ، وأشدها تبعية للقوى الخارجية ، خاصة بعد عام ١٩٧٣م . .

ولكنني ما لبثت أن أدركت أن انتمائي إلى بلد كلبنان ، عاش تجربة ديموقراطية برلمانية وحزبية ، رغم تناقضاته الطائفية والصراعات الدائرة حول هويّته القومية هو الذي قادني إلى اعتناق قضية بلد عربي آخر . . مر بتجربة مماثلة . ففي السودان كما في لبنان ، أحزاب سياسية تقليدية ترتكز إلى الطائفية كقاعدة جماهيرية ، وقيادات دينية تمارس العمل السياسي أبا عن جد ، إضافة إلى أحزاب حديثة ، ووجود تيارات وعقائد ومذاهب آيديولوجية متنوعة .

وكانت الديموقراطية في لبنان قد انهارت إبان انفجار الحرب الأهلية والحروب العربية والأجنبية فوق تلك الأرض ، التي شهدت ولادة المدارس العلمانية والعربية . . القومية والليبرالية . أما في السودان . . فإن النميري كان يسير بنظامه نحو الدكتاتورية والإرهاب والفساد والرشوة ، ويعمل جاهدا على إنهاء كل الأحزاب التقليدية والحديثة .

ولم تكن الحرب في لبنان ، ينقصها من يشرح أسبابها أو ينقل أخبارها ؛ فهي حديث الساعة في كل مكان ؛ لكن الساحة السودانية ظلت قارة شبه مجهولة للقارئ العربي والغربي . وازداد الأمر سوءا بعد المصالحة الوطنية ، التي عقدها الصادق المهدي مع النميري في يوليو ١٩٧٦م .

وظن الكثيرون في ذلك الحين ، أن الخلاف بين المعارضة والنظام قد انتهى وسيعود

كل إلى بيته ويلقي سلاحه ، ويفوض أمره لشهامة وحكمة رأس الدولة السودانية وعفا الله عما مضى ، ولا غالب ولا مغلوب " .

وعاد الصادق المهدي فعلا إلى الخرطوم ؛ وأعلن عن حل (الجبهة الوطنية) التي كان يقودها مع حسن الترابي والشريف حسين الهندي ، غير أن النميري لم يلتزم بأي بند من بنود المصالحة . .

ترافق لقائي بالشريف حسين الهندي ، مع بداية بروز الانشقاق في صفوف الجبهة الوطنية ، ودخول المعارضة السودانية مرحلة جديدة من إعادة تقويم سياساتها وخططها ، والانتقال نحو مواقع جديدة ، تنتزع عبرها زمام المبادرة من النظام والأطراف التي صالحته . ولم يكد يمضي عام حتى كان الشريف حسين قد أعاد تنظيم صفوفه الداخلية ؛ ومتّن صلاته بالمقاتلين من قوات الأنصار الموجودين في الخارج وأخذ على عاتقه بناء معارضة شعبية شاملة تنتظم قوى وهيئات عديدة . وكان الإعلام إحدى الركائز الأساسية التي أولاها كل عنايته .

عندما أعلن الصادق المهدي تجميد عضوية الشريف الهندي في (الجبهة الوطنية) في أوائل ١٩٧٨م ، قال الشريف في مقابلة صحفية : " إن الجبهة الوطنية مازالت قائمة والشعب السوداني هو الذي يفرض وجودها ، وهي كجهاز ما زالت تعمل وتجتمع أنت لا تطرد شخصا من عقيدة معارضة للنظام ؛ ورئيس الجبهة هو مجرد رئيس جلسة ، وله صوت واحد " . .

منذ تلك اللحظة برز المؤسس الفعلي زعيما وقائدا لكل الشعب السوداني وما مرت بضعة أشهر حتى كان صوت المعارضة السودانية الجديد ، يصل إلى كل الأقطار العربية ، وتتناقل آراء الشريف وأحاديثه وبياناته الصحفية ، وكالات الأنباء العالمية . وكانت شخصيته الفذة محط إعجاب الجميع ، بتواضعه واطلاعه الواسع ، وثقافته ووطنيته وقوميته ؛ والتف السودانيون حول قائد المعارضة وكأنهم رجل واحد . ولا أخالني مبالغا ، إذا قلت إنه الزعيم السوداني الوحيد الذي لقي الإجماع والتأييد وسط كل القوى الشعبية والحزبية ؛ وتحول إلى رمز لنضال الجماهير ، وآمال وآلام

كل الذين ضاقوا ذرعا بنظام فردي فاسد ؛ وهذا القول ينطبق على شمال السودان وجنوبه .

كان واعيا بشفافية متناهية ، طاقات الشعب السوداني وقدراته على المقاومة والتغيير ؛ ويعرف معرفة أكيدة (مبنية على الوقائع والأرقام والمعلومات الخاصة ومتابعته اليومية لمعاناة الناس العاديين) ، أن الثورة قد تندلع في أية لحظة ، وعلى نحو عفوي يفاجئ الأحزاب والقوى التقليدية والقيادات السياسية .

وعندما بدا في العام ١٩٧٩م ، أن السودان ينعم بفترة من الهدوء النسبي وتوهم البعض أن النميري نجح أخيرا في تثبيت أركان نظامه ، وتجاوز أزماته المستعصية ، تنبأ الشريف حسين قائلا : " إن هذا الهدوء الظاهري ، يخفي تحته نشاطا كبيرا ومستمرا في كل الاتجاهات ، والمناخ السياسي في السودان وصل إلى حد المد الثوري والتدهور ـ اقتصاديا ومعيشيا وإداريا ـ بلغ ذروته ، وأزمات الجوع والاختناقات التموينية والوقود وغيرها ، وصلت إلى درجات لا يمكن وصفها . وحالة المعاناة والبؤس والشقاء لجماهير شعب السودان ، في المدن والقرى ومختلف مناطقه وصلت إلى مرحلة من التدني ، لم تصل إليها في أي بلد آخر في العالم . والنشاط المعارض منتظم حتى الأجهزة التنفيذية في الدولة . وبمنطق الاستقراء وحتمية التغيير ، لا يمكن أن يستمر وضع كهذا . وما يراه الكثيرون ويعتقدون أنه هدوء ، ما هو إلا الهدوء الذي يسبق العاصفة ، وهي آتية لا ريب فيها " .

ولعل كلامه عن دور الجيش في حركة التغيير ، التي كان يتوقعها ويعمل لها هو الذي يعطينا صورة أوضح عن رؤيته السياسية الواقعية ، والتصاقه بالتطورات التي كانت تتمخض عنها كل المؤسسات والقوى ؛ فبعد أن أكد على استحالة وقوف أي جندي ، أو صف ضابط أو ضابط ، بجانب النظام والدفاع عنه حتى بمجرد الكلام استطرد قائلا : " يعلم الجيش السوداني أنه مطالب بثلاثة أمور لا رابع لها :

١ - إنقاذ البلد من الهاوية التي يتردى فيها والانهيار الكامل الذي يسحقه .

٢ - الاشتراك مع الجماهير الكادحة في السودان في صنع التغيير .

١ – أن يقف ـ وهذا أضعف الإيمان ـ موقف الحياد بين الشعب والسلطة ، وهو يعرف أن الشعب جائع ومقهور ويفتقر إلى الخبز والحرية ، وأن السلطة تتمادى في غيها وهي تخدم طبقة قليلة فاسدة خلقتها هي ؛ هي الطبقة الوحيدة التي تستطيع الآن أن تعيش في السودان " .

وكان الشريف حسين الهندي أول من سلط الأضواء ، على الدور التخريبي الذي يقوم به ، " رجل الأعمال " عدنان الخاشقجي في السودان ؛ وأذكر أنني طلبت منه أن نكتب مقالة للنشر ، حول فضائح رجل الأعمال المذكور ؛ فقال لي : " لماذا لا نكتبها الآن ؟ " وكنا نجلس في شقة لا يقطنها عادة ، ولا توجد فيها أوراقه أو مراجع يستند إليها . وما لبث أن أخذ يعدد لي الفضائح واحدة تلو الأخرى ، مستعينا بذاكرته فقط لا غير . وقد استعاد في لحظات خاطفة ، أسماء الأشخاص ، وأنواع الفضائح التي تورطوا فيها ، وأرقام المبالغ التي حصلوا عليها كعمولات ، أو حولوها إلى حساباتهم الخاصة ، والعواصم العالمية التي يتعاملون معها ، والشركات المعنية بكل ذلك .

أشار أكثر من سوداني ، إلى الأبعاد الجديدة التي أدخلها الشريف حسين الهندي في صلب عقيدة المعارضة السودانية ؛ وبقيادة الحزب الاتحادي الديموقراطي الذي كان رئيسا له . فهو أكد على البعد العربي ، وأضفى على عقيدة الاتحاديين عمقا عربيا قوميا ، مشددا على ارتباط السودان بحركة الوحدة العربية ككل ، وانتمائه الأصيل إلى الحضارة العربية والإسلامية منذ معاركها الأولى . . ونظر إلى فلسطين المحتلة كقضية مركزية ، في جهود العرب ونضالاتهم وصراعهم ضد الاحتلال والاستعمار . هذا مع عدم اهماله لمطالب جنوب السودان وخصوصية وضعه ؛ وأبرز أهمية تحقيق العدالة الاجتماعية ، مشددا على التطبيق الكامل لملكية الشعب لكل مقدراته الأساسية ، والتوزيع العادل للثروة الوطنية ، وبناء الاشتراكية العملية المستمدة من واقع السودان ومنطلقاته الحضارية والتاريخية ، ودعا من جهة أخرى إلى انتزاع حقوق الشعب ، بالعصيان المدني الذي تسنده قوى حزبية مسلحة ، تسهر على عدم

التفريط بالمكتسبات، التي تنتزعها الجماهير في سياق انتفاضتها . .

إن أسلوب الكفاح المسلح، جديد على الساحة السياسية السودانية في القرن العشرين . وهو لم يتخذه كأسلوب ثوري ، إلا بعد أن بذل كل جهوده لحل قضية الديموقراطية في السودان ، حلا سلميا لا تشوبه أية شائبة ؛ فاصطدم بتعنت النميري وحلفائه في العالم العربي وخارجه .

وهذه المبادئ الجديدة ، انتقلت بالعمل السياسي السوداني من مرحلة الليبرالية البحتة أو الحزبية الطائفية الضيقة ، إلى رحاب الديموقراطية بأرقى معانيها . إذ أن ما قام به في الواقع ، هو إعادة الاعتبار إلى الديموقراطية كطاقة ثورية لا تنضب تنطوي تحتها بقية المطالب والأهداف . وهذا هو الأساس الصلب الذي أتاح له تشييد أركان البناء المتكامل . . .

لذلك تبقَى للشريف حسين الهندي نضارته الدائمة ؛ ويلوح اخضرار براعم فكره عند كل منعطف ومنعرج في حياة السودان السياسية ، هي نضارة بدأت تتفتق في حقوق عربية هنا وهناك ، وتشيع جوا جديدا تزهو فيه الكرامة الإنسانية ، وحق الإنسان في التمتع بحريته قولا وعملا .

وبعد أن كانت الديموقراطية ، بندا هامشيا في برنامج المعارضين والمناضلين والإصلاحيين ، صارت الآن مطلبا قوميا رئيسيا ، ونداءً أصيلا لتحقيق الانعتاق والخروج من السكينة والاستسلام ، إلى ربوع الحرية بمؤسساتها وقوانينها وشرعيتها وحيثياتها .

وما صنعه الشعب السوداني في إبريل ١٩٨٥م ، هو ثمرة من ثمار نضال الشريف حسين الهندي ، وبداية صائبة نحو تحقيق كل المبادئ والأهداف التي أوقف حياته عليها واستشهد في سبيلها .

ومن هنا . . فإن الوضع الراهن في السودان ، لم يعد يسمح بالمغامرات العسكرية وأصبحت المنافذ مغلقة أمام أصحاب النزعات الفردية ، ومحاولات التسلط واحتكار أدوات الحكم . وإذا ما حاول أي طرف من الأطراف تجاوز الحدود والضوابط ، التي

أعلن عنها كل من المجلس العسكري ومجلس الوزراء ، والتزما وفقا لها ، بإجراء انتخابات عامة ، وأعادا الحياة الدستورية إلى البلاد ، فإن النتيجة الحتمية ستكون أحد أمرين :

* إما اندلاع ثورة شعبية ذات طابع مسلح ، يسوده العنف وتنتشر فيه أعمال الفوضى والدمار ، وذلك قبل استقرار الوضع مجددا . . .

* أو نشوب حرب أهلية ذات سمات طائفية وعنصرية واضحة ، لن تقل في اتساعها وشمول نيرانها وحرائقها ، عما جرى ويجري في لبنان .

وفي الأول من أبريل ، توجه السودانيون إلى صناديق الاقتراع ، ليدلوا بأصواتهم في انتخابات حرة ، اشتركت فيها كل الأحزاب الجديدة والقديمة ولأول مرة منذ سبعة عشر عاما . وهي انتخابات استمرت حتى اليوم الثاني عشر من الشهر نفسه وتدل النتائج أن حزب الأمة القومي - بقيادة السيد/ الصادق المهدي - نال حصة الأسد من هذه المقاعد ، ولكنه لم يحصل على أغلبية مطلقة تمكنه من تشكيل وزارة جديدة بمفرده . وقد احتل الحزب الاتحادي المرتبة الثانية وحصلت الجبهة القومية الإسلامية ، التي يقودها حسن الترابي مستشار النميري السابق ، على نحو ٥٠ مقعدا . وجرت الانتخابات في ٢٣٦ دائرة جغرافية بعد استبعاد٣٧ دائرة في الأقاليم الجنوبية ، نظرا للوضع الأمني المتدهور .

واختارت الجمعية التأسيسية الصادق المهدي رئيسا للوزراء . . ليس لأن حزبه نال أعلى نسبة من المقاعد فحسب ، بل لأنه أيضا من أبرز السياسيين السودانيين في الوقت الراهن ، وثمة شبه إجماع على تسليمه مقاليد الأمور ، ليشرف على عملية إنقاذ البلاد ، بمساندة حكومة ذات طابع وطني عام ، تضم الكتل السياسية الشمالية والجنوبية .

وقد خاض المعركة الانتخابية حوالي ١٤٠٠ مرشح ومرشحة . . يمثلون ٢٨ حزبا واتجاها سياسيا [illegible] مستقلا ، وهو عدد ضخم لم يعرفه السودان من قبل إذ أن الاتجاهات التي جرت في الستينات ، اقتصرت على عشرة أحزاب في حدها الأقصى

وقد بلغت نسبة التسجيل في الدوائر الجغرافية ٧٣ ٪ من جملة الذين يحق لهم التصويت ؛ وعددهم يقارب ستة ملايين . ويشكل العنصر النسائي حوالي ٥١٪ من مجموع الناخبين ، في حين أن ١١ إمراة ، ترشحن في دوائر الخريجين والدوائر الجغرافية وجميعهن من الأحزاب ؛ وكان من المتوقع أن تفوز مرشحة الحزب الشيوعي - فاطمة أحمد إبراهيم - بمقعدها ، وهي سبق لها أن دخلت البرلمان .

ويبلغ عدد الخريجين حوالي ٧٠ ألف ناخب ؛ منهم ١٦ ألفاً عاملون في الخارج ويبلغ عددهم في العاصمة القومية وحدها (الخرطوم - أم درمان - الخرطوم بحري) حوالي ٣٤ ألفاً ؛ ويوجد بين الخريجين عدد لا بأس به من المستقلين ؛ كما أن هؤلاء يشكلون ظاهرة تلفت الانتباه في الدوائر الجغرافية أيضا ، إذ بلغ عدد مرشحيهم أكثر من ٧٥ مرشحا ، طرحوا أنفسهم كقوة حيادية تطمح إلى تجاوز الأحزاب والصراعات السياسية .

ودلت النتائج المتوافرة ، أن الخريطة السودانية السياسية ، حافظت على طابعها المألوف ، وتعرضت لبعض التغيرات في آن معا ، فقد احتفظ حزب الأمة بقاعدته الأساسية في غرب السودان ، وأثبت الحزب الاتحادي الديموقراطي وجوده التاريخي في شرق البلاد . . غير أن مقاعد العاصمة ، والتي كان يتوقع الاتحاديون أن ينالوا أغلبيتها ، فقد طرأت عليها تغييرات جذرية ، إذ أنهم حصلوا على عشرة مقاعد فقط من أصل ٣١ مقعدا ؛ في حين أحرزت جبهة الترابي ١٢ مقعدا ، مع أن الترابي نفسه سقط في إحدى دوائر العاصمة ، نتيجة تكتل كل الأحزاب السياسية ضده .

وتعيد نتائج هذه الانتخابات إلى الأذهان نتائج أخرى ، وذلك بعد إسقاط حكم عبود العسكري في ١٩٦٥م . . ففي تلك الانتخابات ، أحرز حزب الأمة عددا من المقاعد يفوق مقاعد الاتحاديين ، والذين كانوا في ذلك الحين ما يزالون تحت مظلة الوطني الاتحادي ، بزعامة إسماعيل الأزهري ، وذلك قبل دمج هذا الحزب مع حزب الشعب الديموقراطي ، (بزعامة السيد/ علي الميرغني) في ١٩٦٧م . . ومنذ ذلك الوقت أضحى هناك راعٍ للحزب ، يمثل رأس طائفة الختمية من آل الميرغني ورئيسا

سياسيا ، وهو الآن الحزب الاتحادي الديموقراطي .

وكان حزب الأمة في ١٩٦٥م ، يعاني من انقسام داخل صفوفه ؛ بعضهم يعزو هذا الانقسام إلى الطموح الشخصي للصادق المهدي ؛ وآخرون يعيدون السبب الحقيقي ، إلى تبرم شباب الأنصار والمثقفين من السياسة الدينية التقليدية لزعمائهم . وأيا كان السبب ، فإن الصادق المهدي نجح في عزل رئيس الوزراء آنذاك ـ محمد أحمد محجوب ـ والذي كان يدعمه عم الصادق : الإمام الهادي المهدي .

وفي ٢٧ يوليو١٩٦٦ ، أصبح الصادق رئيسا للوزراء ؛ وذلك بدعم واضح من رئيس الوطني الاتحادي : إسماعيل الأزهري ؛ غير أنه استمر في منصبه أقل من عام (مايو١٩٦٧) . وذلك بعد أن تخلى عن تأييده الأزهري ، وأقام تحالفا مع جناح الإمام الهادي؛ وعاد محجوب إلى رئاسة الوزارة . وخلال هذه الفترة نجح الأزهري في رأب الصدع مع الختمية ، ووحد الحزب الجديد وراء زعامته في حين استمر الصراع مستعرا داخل الأنصار وحزب الأمة .

وفي فبراير ١٩٦٨ ، حل مجلس السيادة البرلمان ؛ ودعا إلى انتخابات جديدة في إبريل من العام نفسه . وفي هذه الانتخابات الجديدة فاز الاتحاديون ب ١٠١ مقعد ونال جناح الصادق ٣٤ مقعدا . وأتت حكومة ائتلافية برئاسة محجوب ، لم تلبث الخلافات أن دبت في صفوفها . واحتفظ الأزهري برئاسة مجلس السيادة ؛ وفي ذلك العام توفي السيد علي الميرغني ، وكان قد توفي قبله في ١٩٥٩ م السيد عبد الرحمن المهدي ، وفي غيابهما . . فقدت الساحة السودانية قطبين رئيسيين ، يؤمِّنان التوازن التقليدي للقوى الحزبية والطائفية .

ثم حدث انقلاب من سموا أنفسهم "الضباط الأحرار" ، بقيادة جعفر نميري في مايو ١٩٦٩م ، ودخلت البلاد مرحلة الحكم العسكري . ولعله من المفيد عند هذه النقطة ، الإشارة إلى العوامل والأسباب التي برر بها الضباط انقلابهم؛ ونحن هنا نستند إلى أقوال بعض هؤلاء ، في المحاكمات التي جرت في السودان لأقطاب مايو بعد انتفاضة ١٩٨٦ . فقد أورد كل من : أبي القاسم محمد إبراهيم ، وخالد حسن

عباس ، ومأمون عوض أبو زيد . . عددا من الأسباب التي لابد من أخذها في عين الاعتبار ؛ رغم أن هؤلاء حاولوا المبالغة بطبيعة الأمر ، وذلك دفاعا عن أنفسهم ونفي تهمة اغتصاب السلطة الشرعية عنهم .

١ - الخرق الذي تعرض له الدستور بطرد بعض النواب ، ثم حل الجمعية التأسيسية .

٢ - الخلل في الوضع المالي ، متمثلا في العجز التجاري وتدهور ميزان المدفوعات وتزايد الاعتماد على القروض ، مما أدى إلى تأثر الخدمات العامة وتوقف بعض المشروعات ، وانتشار البطالة وتصاعد الإضرابات والتوقف عن العمل ثم هبوط الإنتاج إلى حده الأدنى .

٣- تدفق الأسلحة على الأحزاب ، وفساد السلطة السياسية والنواب .

٤- تدفق الأموال من السفارات العربية والأجنبية على الأحزاب والطوائف ولجوء الأحزاب إلى شراء الأسلحة بكميات كبيرة وتكديسها في أمكنة معينة .

٥- إنفجار الوضع في جنوب السودان .

٦- إهمال الأحزاب للقوات المسلحة بعد انتفاضة ١٩٦٤ ؛ فكان هناك نقص في السلاح والذخائر والمؤن ، وتأخر في صرف المرتبات . والعسكريون الذين ذهبوا إلى الجنوب ، عانوا من انتشار الأوبئة والأمراض وعدم توافر الذخيرة ، وفقدان وسائل العلاج أو الطاقم الطبي .

ويقول هؤلاء الضباط ، إنهم قرروا القيام بثورة وليس بانقلاب ؛ وليس صحيحاً أنهم وجدوا معارضة من الأحزاب التقليدية والزعامات الدينية ، بل إن معظمهم بارك الانقلاب ؛ وأرسل برقيات التهنئة ، وقام بالزيارة وإبداء التأييد أكثر من مرة .

هذه مقتطفات من آراء الذين برروا انقضاضهم على السلطة ، وحيثيات دوافعهم ولا يخفى أن الوضع الحالي يعج بمئات الأسباب المماثلة والجديدة غير أن الانقلاب العسكري أضحى مسألة صعبة لا مجال لمناقشتها هنا . ولنعد إلى اكتشاف بعض خلفيات الانتخابات الحالية ، ومؤشرات تقدم قوى وتراجع قوى أخرى .

كان الاتحاديون يتوقعون الفوز بأغلبية المقاعد حتى عشية إعلان النتائج ، لا ! بل

إن أحد زعمائهم قال إن حزبه سيحرز ١٥٠ مقعداً أو أكثر . أما الآن . . فنحن نعلم أنهم لم يحصلوا حتى على نصف هذا العدد . فما هو تفسير هذا التطور المفاجئ بالنسبة إلى بعض المتفائلين ؟ لابد من الإشارة قبل كل شيء ، إلى أن الحزب الاتحادي الديموقراطي ، ليس حزباً بالمعنى العادي للأحزاب المنظَّمة ؛ فهو أقرب ما يكون إلى مجموعة من الأجنحة والقوى والتيارات ؛ يجمع بينها حد أدنى من الآراء والمواقف وتلتقي جميعها عند نقطة الاتفاق ، على قيادة تاريخية أثبتت جدارتها في المعترك . . مثَّل هذه القيادة : إسماعيل الأزهري ، ثم السيد علي الميرغني ـ لرعايته المعنوية والأدبية وتوجيهه السياسي العام .

وبعد ١٩٦٩ ، أخذ يبرز دور الشريف حسين الهندي ، حيث استطاع إثبات وجوده كقائد للحزب من طراز جديد . غير أن وفاته قبل الانتفاضة ، حرمت الاتحاديين من قيادة سياسية مجربة ومعترف بها ، وتحظى بشرعية تلقائية انبثقت عبر ظروف النضال في الداخل والخارج .

وما أن تُوفِّي الشريف حسين الهندي ، حتى ظهرت تناقضات الأجنحة والقوى داخل صفوف الاتحاديين ، ولم تكن هناك شخصية تاريخية ، تستطيع رأب الصدع وخلق وحدة داخلية ثابتة . وهكذا انشق عن الحزب عدد من القياديين البارزين مثل : على محمود حسنين والحاج مضوي وطيفور الشايب وعادوا إلى الصيغة القديمة : للوطني الاتحادي ؛ رافضين الانضواء تحت رعاية السيد/ محمد عثمان الميرغني . .

أدى هذا الانشقاق إلى إضعاف خط الشباب داخل الاتحادي الديموقراطي الأمر الذي قاد إلى تكبيل حركة الشريف زين العابدين الهندي ، الذي أتى كأمين عام للحزب . . وفي ظل غياب مؤتمر عام لإقرار برنامج سياسي واضح وانتخاب قيادة تحظى بالشرعية دخل الاتحاديون الديموقراطيون ميدان الانتخابات قبل إعداد العدة الكافية ، والبروز إلى الوجود كتنظيم فعال ، يتحرك وفق خطة متناسقة ومنطلقة من مؤسسات وهيئات ولجان ، تتراتب هرمياً وتخضع لنظام حزبي معروف .

ومن هنا ظهرت الدوائر المفتوحة ؛ حيث خاض أكثر من اتحادي المعركة في دائرة

واحدة، فتبعثرت الأصوات ، وحدثت البلبلة وتضاربت المواقف . يضاف إلى كل ذلك، أن الشارع السوداني صار يتداول قبل الشروع بالانتخابات تفاصيل اتفاق تم بين السيد الميرغني والصادق المهدي ، حيث تترك وفقاً له ، رئاسة مجلس السيادة للاتحادي الديموقراطي ، ورئاسة الوزراء للصادق . وبما أن رئيس الوزراء هو السلطة التنفيذية الفعلية ، فإن شيوع هذا الاتفاق عزز موقف حزب الأمة، وجعل رئيسه يتصرف كرجل دولة، ويتعامل مع بقية الأطراف المحلية انطلاقاً من هذا الواقع ! وأضعفت هذه المحصلة موقف الحزب الاتحادي الديموقراطي ، وجعلته يبدو وكأنه يسلِّم بنتيجة الانتخابات قبل إذاعتها رسمياً .

أما حزب الأمة القومي الذي يتزعمه الصادق ، فقد طرأت عليه تغييرات كثيرة أخرجته من دائرته التقليدية ، ووضعته في مصاف الأحزاب الحديثة ذات البرنامج العصري ، القادر على التجاوب مع متطلبات الجيل الجديد ، والقوى الاجتماعية التي نمت إبان حكم النميري . . وطرح هذا الحزب خطا واضحا على أكثر من صعيد . فقد اتخذ موقفاً حاسماً من التشريعات العشوائية التي أدخلها النميري تحت مظلة الإسلام . فدعا إلى إزالتها واعتبارها قوانين تتنافي مع روح العصر والديموقراطية ومقاييس التقدم والحداثة . وعرض من جهة أخرى برنامجاً شاملاً : للنهوض بالاقتصاد والإدارة والزراعة والقطاع التربوي والمواصلات ؛ مشدداً على ضرورة إجراء تغييرات جذرية في جميع هياكل الدولة ومؤسساتها . وبخلاف الحزب الاتحادي الديموقراطي ، وقف موقفاً صارماً من جماعة الترابي وأعلن مقاطعته لها وعدم التعاون معها ، سواء أثناء الانتخابات أو بعدها . وقد ساهم هذا الموقف في جذب قوى عديدة له ، كانت في السابق تميل لتأييد الأحزاب العقائدية الحديثة .

ومن الملاحظ : أن الجبهة القومية الإسلامية أحرزت تقدماً أساسياً ، في الدوائر التي كانت تعتبر اتحادية ديموقراطية ، أكثر منها أنصارية أو تابعة لحزب الأمة ، خاصة في قلب العاصمة السودانية . وهذا يعني أن تمثيل الفئات المدنية : من التجار والمهنيين والعمال ، لم يعد حكراً على الاتحاديين ؛ بل أضحى الترابي منافساً فعلياً ضمن هذه

التجمعات ، كما أن النساء صوتن بأعداد كبيرة للجبهة الإسلامية ، وهذه ظاهرة تستحق الدراسة وسبر أغوارها وأبعادها الفعلية .

أما الأحزاب العقائدية غير التقليدية ، مثل حزب البعث العربي الاشتراكي والناصريين ، والحزب الشيوعي . . وغيرها ، فإنها لا تزال تحاول اختراق التكتلات التقليدية في المجتمع السوداني ، وأمامها أكثر من فرصة لإثبات وجودها وخلق قواعد شعبية ثابتة . وستشكل السنوات القادمة ، المحك الحقيقي لمدى نجاح حزب الأمة وحلفائه ، في حل المشكلات السودانية شبه المستعصية .

لقد خاض السودان تجربة ديموقراطية ، تشكل نموذجاً ومثالاً لما ستتكشف عنه أوضاع عربية أخرى ؛ وهي تجربة شابتها بعض السلبيات والممارسات التي يمكن وضعها في خانة الفساد ، ومخلفات الأنظمة التي ورثتها بعض الدول العربية عن الاستعمار الغربي عشية الاستقلال . غير أنها تظل معلماً بارزاً ينبئ عن وعي سياسي عميق الجذور ، وأصالة وطنية تريد بناء دولة حديثة ، وانخراط متعاظم في تيار العروبة والقضايا العربية الكبرى .

ولعل في استعادة حياة الشريف حسين الهندي ومبادئه ، ما يلهم السودانيين لتركيز الأنظار على الأخطار المحدقة ومعالجتها ، انطلاقاً من إيمانهم بالديموقراطية كعقيدة ونبراس ودليل عمل يومي .

ويجد القارئ - في طيات هذا الكتاب - مقتطفات من تراث الشريف حسين الهندي ، تضم بعضاً من مذكراته وخطبه ومقالاته وأحاديثه الصحفية . وتكاد تقتصر في معظمها ، على الفترة التي قاد خلالها النضال ، لإعادة بناء نظام ديموقراطي جديد في السودان . وهي من أغزر الفترات وأكثرها استحقاقاً للدراسة ، والمتابعة الدقيقة لشتى مراحلها . ولذلك ارتأت مجموعة من الأخوة الوطنيين السودانيين ، إصدارها في كتاب يشكل مرجعاً دائماً لا بد منه ، لكل الذين التزموا بصيانة الحياة السياسية السودانية بوجهيها الوطني والقومي .

الباب الأول

الفصل الأول

الهارب

الفصل الاول

الهارب

لم يكن صباح الرابع والعشرين من مايو مختلفا عن غيره ؛ كان البيت مكتظا بالنائمين وبالداخلين إليه قبل هاتف الفجر . . ودوَّى أذان الصلاة فيه وسوَّى الناس صفوفهم ، ولست مبالغا إذا قلت إن المصلِّين فيه ، كانوا أكثر عددا من المصلِّين في الجامع الكبير ؛ وتحاملت على نفسي لأنهض، فلم أكن قد حضرت إلا قبل ساعتين ولم أجد إلا سريرا بلا مرتبة ، كوَّمت نفسي عليه . وعلى أي حال . . فقد كنت أسعد حالا من الذين افترشوا البلاط والنجيلة والكراسي ؛ وكنت قد تعودت على هذا المنظر ، فلم يعد يزعجني في شيء ؛ وحتى الشرطة عجزت عن حراسة منزلي فتركَته مفتوحا ، يلجه كل من لم يجد له مأوى في الهزيع الأخير من الليل . ولا غرابة فقد كنت وزيرا متخلفا في بلد متخلف ؛ يعتقد أهله أن وزيرهم : " لا ينام ولا يأكل الطعام ؛ وأن من حقهم عليه أن يحولوا بينه وبين كل ذلك ، وأن يقابلوه فرادى ومثنى . . أنَّى شاءوا ؛ و الويل له إذا عبس وتولى ، أو توارى واعتذر . .

وبنفس ملابسي التي أمضيت بها النهار ، وتكوَّمت بها على سرير الحديد . . نهضت ؛ ورأسي يدور إجهادا ، وجسدي لا يكاد يحملني ؛ ولن يصدقني أحد طبعا إذا قلت أنني لم أتناول غدائي ولا طعام عشائي ؛ وبقيت في مكتبي بوزارة المالية حتى الثالثة صباحا ؛ وليس هناك إفطار في منزلي لأتناوله ؛ وإن كان موجودا فلا سبيل إليه . وهرعت على عجل للعربة ، فقد كنت على موعد في الحقل في شمال الجزيرة ولو تأخرت دقائق لكان خروجي من منزلي في مرتبة المستحيلات ، ولبقيت كالعادة كل يوم ، إلى أن أقابل مئتي شخص أو يزيدون . . وأسمع وأتجاوب وأستجيب مع مجموعاتهم كلها .

وانطلق السائق ، وهو ينظر إلي في إشفاق ورثاء ، يمزجهما أسى وحزن وحسرة فبقدر ما عمل مع العديد من الوزراء ، لم ير وزيرا مكدودا منكودا مطارَدا مثلي ولم ير " نُزُلاً " مثل منزلي ، وكان يردد ذلك دائما ، وهو يمُطُّ شفتيه ، ويصفِّق بيد على

الأخرى في عجب وضيق . .

وردَّت لي نسائم الفجر بعضا من فكري ، فسرحت أفكر في أحداث اليوم السابق والعربة تسرع صوب الجزيرة الخضراء ، تذكرت اجتماع الهيئة البرلمانية للحزب وهي تبحث في مستقبل الحكم ؛ واسترجعت كلامي لهم ـ كلامي الذي أزعج أحلام البعض ، واعتبره الآخرون حديثا انصرافيا ـ وقصدت به إخافتهم وإيقاظهم من أحلام اليقظة في لذة الانفراد بالحكم : " إنكم تتكلمون عن الانفراد بالحكم ، وأنا أحذركم من ضياع الديموقراطية . . فإني أعلم أن ... " . وسردتُ ما كان لديَّ من معلومات تفصيلية . وردَّ علي زميلي الموكل بالحفاظ على أمن الديموقراطية وحكمها ؛ في ثقة يشوبها الاستعلاء والغرور : " فليطمئن السيد وزير المالية ، فنحن نعلم ونراقب " وسمعت لحظتها همسة أراد صاحبها أن تسمع : " إنه يريد أن يخيفنا "

وجلست وقد بلَّغت ؛ وكنت في نفس النهار قد ذهبت إلى السيد رئيس الوزراء ووزير الدفاع ، وأخبرته : أن المناورات بالذخيرة الحيَّة في (خور عمر) بالدبابات . . أمر ممنوع ، منذ محاولة انقلاب (كبيدة) في عهد عبد الله خليل وأن زيارة "بُلك" المظلات بأسلحتهم للمناورة بالدبابات ، بدعوى أنهم مدعوون لليلة سمر هناك ، ما هي إلا لتكملة الانقلاب بإضافة المظليين من المشاة للدبابات . وذكرت له مصدر أخباري – وهو أحد سفراء السودان الآن – وكان عضوا في جماعة . . " الضباط الأحرار " ؛ وعن اجتماعهم الذي رفضوا فيه الانقلاب بأغلبية ساحقة ، وعن إصرار قِلَّة منهم عليه . وأن هذه القلة هي التي خرجت بالدبابات للمناورة ، وبالمظلات . . بأسلحتها للزيادة .

وبنفس الثقة التي يصرِّف بها رئيس الوزراء كثيرا من الأمور ، صرف مخاوفي على أنها هواجس ؛ ثم رجعت إليه بعد ساعات معي العميد حسن فحل ، وكنا قد التقينا ووثقنا أن معلوماتنا متطابقة ؛ فهرعنا إليه . هذه المرة جاملنا رئيس الوزراء فاتصل بآخر من يعلم : قائده العام ؛ فاستمهله ثم رد عليه بأن : "ما تقوله أضغاث أحلام " . . وأشار السيد رئيس الوزراء إلى حذائه قائلا لنا : " أنهم لا يستطيعون قلب حذائي

هذا " ؛ وحدَّقنا فيه . . ثم في الحذاء وانصرفنا

وبعد شهور علِمنا أن الذي سأله القائد العام ، قبل أن يرد على رئيس الوزراء كان الرائد مأمون عوض أبو زيد ، المسؤول الرابع في الاستخبارات العسكرية . وكان كل المسؤولين قبله في إجازة ؛ وكان هو أكبر الرؤوس التي خططت للانقلاب والمسؤول الوحيد الباقي في الاستخبارات العسكرية ، بعد سفر كل رؤسائه في إجازاتهم . .

وفكرت في أن أطلب من السائق الرجوع ؛ ولكن ما الذي سأفعله ؟ خصوصا وقد رجعت نفس المساء لمنزل السيد رئيس الوزراء ، وأخبرته بما وصلني : " أن العقيد جعفر نميري بالخرطوم منذ أيام " ؛ وأنه في إجازة محلية ترك بعدها عمله في " جبيت " ، وأمضى أياما في " القضارف " ، برئاسة القيادة الشرقية . . ثم أياما " بشندي " ، برئاسة القيادة الشمالية . . وأنه منذ حضوره إلى الخرطوم فهو دائم التردد على القيادات العسكرية : كحامية الخرطوم ، وسلاح المدرعات ، وسلاح المهندسين وغيرها ؛ وأن هناك اجتماعات تعقد في منزله ، يحضرها فاروق حمد الله الرائد بالمعاش ؛ وصديقه كمال رمضان المحامي المعروف الاتجاه .

وسردت كثيرا من التفاصيل ؛ فترك حديثي الممِل ، ومال إلى داؤود عبد اللطيف وحديثه الشيِّق المليء بالنكات ، المنغَّم بعالي الضحكات . فانصرفت للمرة الثالثة ذلك اليوم ، وسردت معلوماتي للهيئة البرلمانية واللجنة التنفيذية وسط مئتين من الأعضاء . فلم يكن حظي مع وزير الأمن ، بأكثر من حظي مع رئيس الوزراء ووزير الدفاع . وكانت مخاوفي قد زادت ، عندما طلبت الخارجية سفر حوالي ثلاثين ضابطا ، في إحدى مراحل مفاوضاتنا لصفقة الأسلحة الروسية ، وكان العدد مريبا وكبيرا ، فرفضت بحجة شح الموارد المالية . ولم ينقضِ يوم حتى أخطرتنا الخارجية بأن كل العدد سيسافر ويستضاف ، على حساب وزارة الدفاع السوفيتية ؛ وكان فيهم

الشريف يتوسط مجموعة من بينهم الأمير : نقد الله - حسن عوض الله - ونصرالدين السيد وآخرون



أكثر من عشرة قواد أسلحة ، وكان الذين بدأوا المفاوضات وأكملوها ، موظف من المالية ، مع ضابط واحد فقط من الدفاع ؛ وسافر كل هؤلاء بموافقة وزارة الدفاع والخارجية ، قبل يوم واحد من الانقلاب ، أو على وجه التحديد ، عشية يوم الانقلاب ، وقبله بثلاث ساعات فقط . . .

إذا أضيف لذلك الجو السياسي السائد وقتها ؛ اتفاق جناحي حزب الأمة - الاتفاق أن يكون السيد الصادق المهدي رئيسا للوزراء . . وإلى الأبد . واستقالة رئيس الوزراء ؛ ومحاولة الحزب الاتحادي الديموقراطي في الانفراد بالحكم وسفر السيد الإمام الهادي المهدي إلى الجزيرة (أبا) ؛ ورفضنا قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ وزيارة حسن صبري الخولي ، لإقناعنا بالعدول عن رفضنا . . وإصرارنا على الرفض ، كان على أساس عدم المساس بالقضية الفلسطينية وتمسكنا بقرارات مؤتمر القمة العربية بالخرطوم ؛ والعلاقات المقطوعة مع أمريكا و ألمانيا ، وقبلها مع بريطانيا ؛ والقضية الدستورية في حل الجمعية التأسيسية وتدخل بعض الضباط في ذلك؛ وقضية حل الحزب الشيوعي ، وموقف بعض القضاة منها؛ وتطلّع الجميع للحكم المقبل ومعركة رئاسة الجمهورية ، وإهمال الأغلبية للحكم الحالي وأمنه وأدائه ؛ ومرض رئيس الوزراء الخطير ، ونصيحة الأطباء له ، وإشفاقنا عليه . . رغم شجاعته ومحاولته الاستمرار ، ومقالات أحمد سليمان عن وجوب تدخل الجيش في السياسة والسكوت . . بل الرضاء عليها من البعض ؛ والتسيب وعدم المبالاة في أغلبية الوزارات ، وإلقاء العبء كله على قِلَّة تقلُّ عن أصابع اليد الواحدة . كل هذا . . إرهاصات ونُذر؛ إذا أضيف إليها النشاط الظاهر والمستتر ، في عدد من السفارات المعروفة . كان الجو كله ينذر ببداية أحداث كبيرة وكانت هناك قوى في الداخل والخارج تخطط لها؛ وكانت هناك أموال تصرف؛ وكان هناك نشاط ملحوظ في بعض الدوائر العسكرية ؛ وكانت الصحافة - بتوجيه من البعض - تستعمل كل حرياتها لزيادة التوتر ، واستفحال الانفجار . .

مع هذا فلم أرجع ، وقد يكون لرجوعي إذا فعلت ، أثر على الأحداث ، رغم أني

كنت وحدي أهتم وأتابع وأعمل ؛ وفَعلَت فيَّ ظروف الإعياء المتواصل وتداعي الموقف السياسي ، والانفعالات النفسية . . فعلها . ماذا لو تم انقلاب قام به ضباط وطنيون بقيادة وطنية ؟ قد يكون قادرا على التغيير الذي كنا نسعى إليه ، ونطلبه ولا نستطيعه . . أليس هو قطاعا من قطاعات الشعب السوداني ؟ وماذا لو أدى دوره ؟ وأنا شخصيا . . ألم أصل حالة الانهيار ؟ وأسقط مغشيا علي ثلاث مرات . . وظللت أعمل اثنتين وعشرين ساعة ؟ مع هذا فلم أستطع إلا تغييرا ضئيلا ؟ وما هي مقدرتي على الاستمرار في التصفيق بيد واحدة ؛ أوالأذان في مالطة ؟

وقبل أسابيع استدعِيت للقصر ، وقابلت الدكتور وصفي ؛ وكان الرئيس متعبا في قلبه ، وقال لي د. وصفي إنه قال - قبل أن تعتوره إغماءة بسيطة :

" استدع الشريف وحده وأخبره " .

وجلست بجانبه وقلبي تعصره مخالب من حديد ؛ والدنيا كلها قد اسودَّت في قلبي وناظِرَيَّ ؛ وتذكرت قوله لاثنين من زملائي أمامي عاتبا :

" لا تستغربوا إذا سقطت بينكم " . .

ومن يومها حاولت أن أضم الزحف الكبير ، الذي يتجه إلى الأزهري كل صباح ، إلى الزحف الذي يتجه نحوي ، وكلا الزحفين يبتدئان . . من الغفير والجنايني والزيات ، إلى أستاذ الجامعة ، وحسب الطريقة السودانية ، وحسب التقاليد السائدة ، فعليك أن تستقبل الكل بكل الاحترام مهما طال الوقت وبكل الانتباه ، ثم تجاوب وتستجيب . وعليك بعد ذلك أن تعمل للدولة ، وعلى حساب نومك وأكلك ، وكل ما يتبع ذلك . . ولا عذر! فلقد كنت أرتدي ملابس الخروج كل يوم في الحمام ؛ ومع هذا يمتلئ حتى الحمام بالناس !

إلى متى سيستمر ذلك ؟ وماذا لو جاء إلى السلطة ، قطاع من الجيش نظيف ووطني ومتجانس ؟ ألن يكون ذلك قادرا على أداء التغيير وإحداثه ؟ إذاً لماذا الرجوع وأعترِف أني ضعفت . . . على الأقل إذا حدث ، فأستطيع أن آكل ، وأنا الآن يتفضل علي بعض الأصدقاء بالأكل ؛ وأستطيع أن أنام ، وأنا الآن لا أطمع فيه

وأستطيع أن أرتاح ، وقد تراكمت على السنين وأنا أجري بلا نهاية ؛ ما الذي سأفقده لقد دخلت هذا الحكم غنيا فافتقرت ، وصحيحا فمرضت ، وقارئا فانقطعت عن القراءة ! وصرفت نفسي بصعوبة عن هذا التفكير الشخصي الأناني



كلمات محجوب في احتفال وحدة حزب الأمة ظلت تدوي في أُذنَيَّ: " خير لكم أن تتفقوا ضدنا من أن تختلفوا علينا " . . وترى ما الذي يقصد ؟ أهي مجرد محسِّنات لفظية ، هو مولع بها ومبدع فيها ؟ أم هي تحمل معاني ومحاذير أكثر من ذلك ؟ وقطع عليَّ سبل التفكير . . توقف العربة ، ووقوفها أمام أول حواشة في أول مكتب من مكاتب شمال غرب الجزيرة وترجَّلت . .

واستمرت عمليات اللقيط طوال اليوم ، إلى أن جاوزنا قرية (طابت) ، وكان عبء الإصلاح الزراعي ألقِيَ على عاتقي في يوليو ؛ وكان المحصول يبشِّر بنتائج باهرة ؛ وأرضه مليئة بالحشائش ولم يجنه بعضهم . .

بعد التاسعة مساء ، كنت على موعد مع الأخ سيد احمد عبد الهادي ووجدت معه أمير الصاوي وحسين حمو ، أكبر مسؤولي الأمن ، وكانت مواعيد طوافي على الفرق والتكنات قد فاتت ، ولبثت مرهقا لا أستطيع لها سبيلا ؛ وألغيت مواعيد الأخ

سيد احمد مع السيد محمد عثمان ليلها . . حول مشاكل تأليف الوزارة .

وحوالي الحادية عشرة استأذنت ؛ وقرب منزل السيد الصادق انتابتني سِنة من النوم مردها الإرهاق البدني والفكري والعصبي ، وخرجت العربة من الطريق ، وكادت تقتحم منزل السيد الصادق . وهنا استيقظت وعدلت مسارها ، وأدركت . . أنني بحالتي هذه ، لن أدرك منزلي سالما ؛ فاتجهت إلى استراحة الجزيرة على بعد أمتار وكنت أتخذ منها بديلا لمحاولة العمل . وقابلني عم رجب بوجهه البشوش الشجاع وفي عينيه عتابه المكبوت لي ؛ وفي فمه نصائحه المتكررة، بمحاولة الاحتفاظ بما بقِيَ من صحتي . ودخلت بكامل ملابسي واستلقيت على سرير في الفرندا؛ وكان هذا لتمضي ساعتان من النوم وسببا لعدم اعتقالي ذلك اليوم .

لم تمض ساعة أو بعض الساعة ، وأنا مستغرق في إغفاءة قلقة ، هي أقرب إلى الإغماء منها إلى النوم الهادئ العميق حتى استيقظت على صوت ضربات عالية على باب الغرفة المغلق . وكنت متعودا على طرقات آخر الليل ، وزيارات طارق الليل الذي يتصيد الأوقات ، ليحكي مشاكله في هدوء ، ويحاول أن يجد لها حلولا . والأوقات هذه معروفة ، عند الذين يعرفون ساعات الانقضاض ، على سياسي من المسؤولين أمثالي ؛ عند الفجر أو الظهر-عند الغداء أو القيلولة-أو الهزيع الأخير من الليل . . وهنا يخلو لهم الجو بدون الزحمة .

وسألت الطارق في صوت ضعيف منهك: " من هذا؟ " ، وأجاب في انفعال يشوبه قلق وتوجّس ، أثار انتباهي : " أنا! وأرجو أن تقابلني لأمر هام " واسترسلت وأنا أحاول مغالبة الوهن والإنهاك : " ألا يستطيع هذا الأمر أن ينتظر للصباح " قلتها في رجاء وتوسّل . وردَّ في صراحة وإصرار : " لا يمكن أن ينتظر دقيقة واحدة ؛ هو أمر خطير لا يتعلق بشخصي " .

وتثاقلت وفتحت الباب ؛ وكان الطارق شخصا مخلصا وفيًّا ، قليل التردد عديم المطالب ؛ ولم ينتظر بل انفجر : " هناك حركة غريبة في الشوارع ؛ الجيش نزل . . كنت في منزل عرس بالمقرن ، وفي طريقي تابعت سيارات من الجيش تملأ الطرقات "

ولم أكن محتاجا لكثير من الشرح والتفصيل . . وأدركت الأمر في لحظة فقد كنت أتوقعه . واتجهت إلى سروالي والقميص ؛ ولم تمض دقيقة حتى تبعته إلى الخارج وأنا أحمل مفتاح عربتي الصغيرة ؛ وفي صمت دخلت العربة . فأوقفني وطلب مني الدخول لعربته ؛ واتجهنا إلى منزل السيد رئيس الوزراء على بعد دقائق ؛ ووصلناه وجنود المظلات ينزلون من سياراتهم ويفتشون رجل البوليس . . ويقتلونه . وطلبت من صديقي مواصلة السير إلى القيادة العامة . . فوجدت أنها قد احتلَّت ؛ وأمامها ثلاث مدرعات .

ثم انطلقنا عبر كوبري النيل الأزرق إلى الخرطوم بحري ، صوب سلاح الإشارة وأُوقِفنا في الكوبري . وذهبنا صوب معسكر الشجرة ، ووجدنا أن المدرعات والانقلابيين قد سبقونا ، ولم يبق إلا سلاح المهندسين . وكان الجنود قد قاموا بحراسة الكوبري ؛ وقابلتنا السيارات وهى راجعة . أدركت بعد هذه الزيارات السريعة ، أن المرحلة الأولى من الانقلاب قد تمت ، فقررت أن أختفي بعض الوقت ، حتى أحدد التحرك المقبل .

كنت أعلم أن الانقلاب إذا تجاوز المرحلة الأولى ، وتمتع بعنصر المباغتة ، فإنه سيبقى ويوطد أقدامه ؛ وكان هذا هو الذي حدث ؛ وبقيَ أن أفكر في طريقة مقاومته في وقت آخر لاحق ؛ وذهبت إلى مخبأ مأمون لا يخطر على بال أحد لكي أستطيع التفكير . لكن . . إذا كنت قد تمكنت من دخول أي قيادة واستنفرتها ، كان يمكن أن نقاوم الانقلاب وربما نقضي عليه ؛ ولكن الصديق رغم اهتمامه ، كان قد وصل إليَّ متأخرا ؛ ليس أكثر من ساعة واحدة فقط ولكنها كانت ساعة فاصلة .

حاولت من المخبأ، العثور على سيارة ، تنقلني إلى شندي أو القضارف وكانت هذه آخر فرصي لمقاومته ، قبل أن يستجمع أنفاسه ؛ ولكنها الساعة الواحدة ، ولم يبق بعد ذلك إلا مواجهته ، وأصبح الصبح . . فإذا الدبابات تحيط بكل الأمكنة وخرجت مستترا .

كان الجنود قِلَّة وجدداً، يظهر عليهم الاستهتار ؛ وكان عددهم ليس كبيرا يجلسون

على الأرض بجانب مدرعاتهم . وكان من الممكن لأي قوة تملك خمسين مدربا بأسلحتهم ، أن تقضي عليهم ؛ وكان من الواضح أنهم لا يدرون خطورة ما أقدموا عليه ؛ وكان ممكنا أن ينقضوا عليه نفسه ؛ إذ أنهم كانوا محنَّطين وكسالى وفاقدي الحماس ؛ وليس لديهم قناعة بما يضحون من أجله . وكنت مدركا أن مثل هذه الأنظمة إذا وطدت أقدامها ، وكلما طال بها الزمن ، صنعت لها ركائز ، وانضم إليها آخرون ورسخت أقدامها ؛ ولم يكن ممكنا جمع خمسين شخصا مسلحين آنذاك وكانوا كافين لهزيمتهم .

فبقيت في دار صديقي - كهربائي الطيران - أضرب أخماسا بأسداس ؛ وساعات تمر كلها مكرَّسة لحماية الانقلاب ؛ وتلا نميري بيانه من الإذاعة ، وتساءلت مع نفسي : " لِمَ لا نعطيهم الفرصة ليجرِّبوا ؟ فقد يكونون أقدر على مواجهة الموقف؟ " ...

إن بيانه لم يثر في نفسي شيئا جديدا ، ولم يزد في حماسي لإحباط الانقلاب ... بيان عادي لم أعتقد أنه موعَز به من جهة ، أو أنه مستورَد ؛ ربما مجرد شهوة الحكم لكل من يحمل السلاح والناس عُزَّل . . أوكل من يسبق بائع اللبن والناس نيام .

إذا كان ذلك قطاعا وطنيا ، أراد أن يجرِّب حظه وعضلاته ، فليكن . فهذا . . أصبح عمل الجيوش في العالم الثالث ، تشغل بها فراغها المستمر ؛ فهي لا يمكن أن تحبس نشاطها داخل الثكنات ، إلى أن تقوم الحرب ؛ ومتى تقوم ؟ لا يمكن لمن درِّب على القتال - وأعطِيَ السلاح - أن يحترم مدنيين مثلنا ، لا يستطيعون استعمال السكين ويظل يحرسهم وهم وزراء وحكام ، بفضل سلاحه . . منطق معوَج ! لماذا يحرس مدنياً مثلي ، وهو الذي يحمل السلاح ؟ فيكون هو حارسا وأكون أنا حاكما ووزيرا !

لقد فطن الأمريكان لهذا منذ مدة . . وكانت سياستهم أن الجيوش في البلدان المتخلفة ، أقوى تنظيما وأكثر ضبطا وربطا ، من المؤسسات السياسية الهشة الحديثة زيادة على أنها مشبعة بالأيديولوجية الغربية بحكم تدريبها . إذاً فهي أولى بالحكم وأقدر على تنفيذ السياسات والمخططات الغربية ؛ وإرغام الناس عليها بحد السلاح وأن البلدان المتخلفة لا تستحق الديموقراطية . ولذا . . فإن الجيوش يجب أن تخلف

الاستعمار، الذي سارع بالرحيل - حسب تفكيرهم - سابقا لأوانه. فالديموقراطية لأوروبا، وليس لأفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية أو السودان. وهكذا . . ومنذ عهد حسني الزعيم، كانوا وراء حمى الانقلابات التي سادت العالم الثالث؛ وكانوا هم الكتّاب لكل بيان . . لهم الديموقراطية والرفاهية، ولنا القهر والفقر.

ولقد دخلنا قبل ذلك في الحلقة، وكنا نعتقد أننا قد أخذنا كفايتنا منها، وأن شعبنا قد برهن، أنه لا يمكن أن يكون كبقية الدّمى التي تحَرّك من غرفة بعيدة في البنتاجون؛ ولكن قد نكون . . قد انتكسنا، أو ضعفنا، أو خرجنا عن الطاعة فحق علينا العقاب فليكن ضابط من الجيش الوطني - قطاع من قطاعات الشعب السوداني - أراد أو أريد له أن يجرِّب . . فليكن؛ فقد يستطيع التغيير، وقد تخيَّل له نفسه أشياء، فليجرِّب فشعبنا جبار؛ وحزبنا ليس مثل كل بقية الأحزاب الليبرالية، التي تهاوت في المنطقة العربية والأفريقية واللاتينية؛ فالديمقراطية في دمائنا، ولن تزول . . إلى أن نسكب آخر قطرة من هذه الدماء.

كان هذا هو شعوري عند تلاوة البيان الأول لنميري، وأقنعت نفسي ألاَّ داعيَ للقلق، فقد كنت متوقعا ذلك متوجِّسا منه، فلم أفاجأ كثيرا ولم أهتز، وجاء البيان الثاني من بابكر عوض الله - رئيس الوزراء، وحفظت كلماته . . كلمة كلمة وتمعنت في وزارته من ١٠ وزراء : أي ثلاثة أرباع المجلس شيوعيون - أغلبهم أعضاء في اللجنة المركزية؛ ومنهم متعاطفون ورفقاء درب، وواحد أو اثنين، من الضعفاء الواقفين على السياج، المستطعِمين في كل مائدة؛ الراقصين على أي نغم.

وهنا اختلفت نظرتي . . لا يمكن أن نرضى بهذا؛ ليس هذا هو الجيش السوداني حفنة منه أرادت بسلاح الشعب وبقوة الجيش وعنفه، أن تحكم أقلية على كل الناس وأن تفرض آيديولوجية بقوة السلاح، عجزت أن تفرض نفسها بالقبول والرضى والمنطق، وأرادت أن تحتمي وراء قوة الجيش . . وتسميها ثورة؛ وبطشة . . وتسميه عنفا ثوريا. تحارب كل وجهات النظر وتفرض واحدا منها؛ هي أقلية الأقليات وتعتنقها كآيديولوجية؛ وترغم الناس - كل الناس - على اعتناقها بقوة البندقية، تحِل

كل الأحزاب السياسية ، وتفرض واحدا منها تحت ستار الثورة وبحماية القوات المسلحة .

وتذكرت فقرة في خطاب رئيس الوزراء ، هي قبول قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ وتذكرت رفضنا له ، وزيارة حسن صبري الخولي لإقناعنا ورفضنا الإقناع وتمسكنا بعدم المساس بالقضية الفلسطينية . . إذاً ليست هذه هي القوات المسلحة الوطنية وليست هذه انتفاضتها .

إن أصابع الخارج واضحة وملموسة ؛ هو انقلاب مستورد يحمي نظرية مستوردة ويخدم أغراضا مستوردة ، ويفرض آيديولوجية مستوردة ، ويحكم أقلية أممية ويتسربل بشعارات مستوردة . . إذاً فالذي ذهب ، ليس هو الحكم أو النظام ولا حتى الديموقراطية ، بل هو الذاتية السودانية ، والكيان والهوية الوطنية ، والاستقلال نفسه والذي أتى ليس هو الجيش، وإرادة التغيير والحكم المستقر ؛ بل هو مِسخ مستورد مفروض بقوة السلاح ، يحمي الأفكار الخارجية ، وشعارات أجنبية ، ووجودا دخيلا وآيديولوجية مفروضة ؛ تسندها أسنَّة الرماح .

لقد أصبح وأصبحنا . . مستعمَرين ، وكنا أحرارا ، وصرنا عبيدا . . وكنا أسيادا طلقاء . فارقنا الاستقلال . . وعانقنا استعمارا جديدا ، بوجه حديث، هو أنكى وأقسى من الاستعمار الذي طردناه .

وسَرَت في جسدي قوى غلابة، انحسر معها الوهم والضعف الذي كان يلازمني ؛ وتلاشت حالة اللامبالاة . . وحلت محلها قوة جبارة، ملأت جسدي وروحي وعقلي ؛ وغمرني إحساس بالتحدي، سَرَى كالإعصار في حواسي وملأ كل جوارحي ؛ تضاءلت بجانبه العواطف الحزبية ، وسمت المشاعر الوطنية . والولاء الحزبي . . هو طريق المواطنة في بلد مستقل ، ليخدم أهله اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا . وبما أنه لم يعد هناك وطن مستقل ، فلا محل للولاء الحزبي إذ أنه إذا كان صادقا ، يترك فراغه لتملأه الروح الوطنية ، لتكافح لإعادة الوطن السليب المستعمَر حتى تكون أرضه خصبة للعقائد الحزبية .

وقررت وحدي - إذ لم يكن بجانبي زميل أو صديق - أن أقاوم هذا الخطر بكل قواي حتى ولو بأظافري وأسناني ، وأن أحتفظ بولائي الحزبي نظيفا ، ولكن بعيدا لأكافح - مع من يستطيع - لاستعادة الحرية والاستقلال لوطننا . وكانت هذه هي قناعتي وأسبقيَّتي الأولى ، وكان منطلقها هو : أن الولاء الحزبي ، هو استمرار للولاء الوطني وتعميق وإثراء له؛ وإذا تداعى الوطن . . فهو الأولى والأسبق والأحق بالكفاح من أجله ، وعندها قررت أن أحتفظ بحريَّتي كاملة حتى أستعمل كل ثانية منها لرد هذا الخطر الداهم ، الذي يهدد كياننا وذاتيتنا .

وكان الحفاظ على الحرية من أجل الخلاص الوطني ، عملية صعبة امتلأت بالتحدي والمغامرات ، والتعب والعرق والدم والدموع ، استمرت وأنا داخل السودان . . ستة أشهر ، ولا تزال مليئة بالمعارك والخوف والقلق والثبات والصمود . والسودانيون لا يؤمنون بالتمتع بالحرية من أجل الكفاح ، بل يفضلون أن يقدم الإنسان نفسه للسجن ، وطاقاته للحبس ، دليلا على الشجاعة والفداء . ورفضت هذا المنطق ! إذ كيف أقدم نفسي كالحَمَل ، لكي أسجَن مع طاقاتي ، وأحرم نفسي وبلدي من مساهمتي في تحريرها ، وأقدم يديَّ خائفا ومختارا للحبس ؟

على المعلوم التقليدي، إن هذا هو . . أرقى مراتب الشجاعة والفداء ؛ وتقاليد القبول بالسجن من سلطة غير شرعية ، وتسليم المناضل نفسه لها لكي تسجنه وتشل إمكانياته ، كان . . حتى ذلك الوقت ، دليل الشجاعة . . وتجسيد الثبات . وخرقت هذا التقليد وانتهكته ، واستعملت الأسلوب الحديث علي وعلى السودان . . وهو : أن احتفاظي بحريِّتي ، هو بداية المعركة لاستعادة حرية الآخرين ؛ وفي ذلك تهون كل التضحيات .

وتحملت النكات والصور الكاريكاتيرية، وهمس الناس ولمزهم، والأغاني والدوبيت؛ وحتى نكاية الصحف والناس . . وأصبح لقبي (الشريف الهارب) فما أجمله وألذه من نداء .

استمرت اللعبة بيني وبين الحكومة ، بكل قوات جيشها وشرطتها وسجونها وأمنها

وكل خبرات حلفائها المحليين والعالميين . وكانت حديث مختلف طبقات الشعب السوداني ومتابعته ، وعجزت الحكومة مع كل هذه الإمكانات في أن تضع يدها على رجل واحد لا حول له ولا قوة . وفي الوهلة الأولى جندت الحكومة كل طاقاتها كأنما تقول إن (الشريف الهارب) إذا لم يقبض عليه ، فلن يكون للنظام استقرار ولا راحة فلم تنم ولم تتركني أنام .

وكان هذا هو الشيء الوحيد ، الذي صدق فيه حدسها وصح استنتاجها ولمدة تسع سنوات ، فلو كانت قد ألقت يدها علي ، لاستراحت في كثير من الذي حدث ولعلها تحاول الآن ولكن بوسائل أخرى . وكلنا يعرف الآخر ، وكلنا يقظ وفطن . ويساورني مرات كثيرة ، الشك فيما أقوله ، فيما غير هزيمة السلطة ، في معركة حرِّيَّتي الشخصية ، فقد كانت الرؤية المستقبلية كلها ، ركاما من الظلمات بعضها فوق بعض ، ولم يكن هناك وقت لتخطيط واضح ، في كيفية مصارعة النظام وإسقاطه وفي بعض المرات ، كنت أسائل نفسي . . ولماذا ؟

وبالنسبة إليّ شخصيا ، ألم أكن مطاردا مثل هذه المطاردة طوال أربع وعشرين ساعة ؟ لقد كنت وزيرا ، فهل كانت لي سلطة الوزير ، وهيبة الوزير ، وراحة الوزير وأكل الوزير ، ومسكن الوزير ، وملبس الوزير ؟ ألم أكن أكثر الناس إجهادا وأقلهم تغذية ، وأتعسهم نوما ؟ وألم أكن مطاردا بمثل هذا العدد من المواطنين ، في المنزل والمكتب وحتى الطريق ؟ حتى اضطررت لمواصلة العمل الوزاري ، بعد العاشرة مساء وحتى تباشير الفجر؟ وكم مرة سقطت ؟ ويومها فحصني الطبيب . . ثم فحص بدقة أكثر ، ثم ابتسم وقال- ورنة صوته يغالبها التهكّم المكبوت : " إنه سوء تغذية ؛ إنه جائع " . .

ولعلي أول وزير في تاريخ الحكم والحكام ، كان مرضه أنه جائع . ويومها " اعتقلني " الرئيس الأزهري في القصر الجمهوري ، وأمر بمواصلة تغذيتي ، وكان يرد على المستفسرين المشفقين بلهجته الواقعية الحانية : " إن الشريف ليس مريضا . . إنه جائع " ، ثم يردف ذلك بضحكته التي تبعث السرور وتشيعه على الحضور .

وفي مساء يوم ما، حضر إليَّ (م) ، وكان أحد ملازمي الإمام الهادي المقربين موضع السر ومحل الثقة ؛ وهمس في أذني : " يقول لك الإمام ، إذا بللت رأسك للحلاقة ، فاحْلِقه عندي في الجزيرة (أبا) .

كانت صلتي بالإمام الهادي قوية وثابتة ، لم يؤثر عليها مرور عشرات السنين ولا عبور العديد من المشاكل ؛ ولا اختلاف الانتماءات السياسية . وكان تقديري لصفاته الخلقية ، ولدينه ووطنيته واستقامته وأمانته ووفائه ، وليدة التجربة المستمرة والمعايشة الدائمة ، منذ أن كنا أطفالا ، وكان يكبرني ببضع سنوات . . ولم تكن وليدة الاسم ولا اللقب ولا الأسرة ؛ بل هي ثمرة التجربة الطويلة المتواصلة والاختبار اليومي في صِغار الأمور وفي كِبارها . . خلق بيننا ثقة متبادلة ومحبة متواصلة .

وكنت أعرف أنه المتدين ليس بالوراثة ، والأمين ليس بالأسرَة ، والوفيَّ بغير اللقب ، والشجاع لا بالولادة ، بل بالمعدن والأصل والطبع والخلق . وكنت أعيش مشاكله وآلامه ، وآماله ومثله وقيمه كما لم يعشها ؛ ولم يعرفها أقرب الناس إليه من أفراد أسرته . وأستطيع أن أؤكد بالأمس واليوم وغداً ، أنه منذ الإمام المهدي وإلى اليوم ، لم تلتحم جماهير الأنصار بشخص ، أيقظ فيها نفس الشحنة الدينية التي صنعت (المهدية) ، ولم يعاشر الأنصار من يقاربه تدينا والتحاما بهم ، واقترابا بمشاعرهم مثله ؛ وليس بذلك غرابة . . فقد كان تدينه الفطري ، واستقامته الغريزية وامتزاجه بالبسطاء الطيبين – رهبان الليل وفرسان النهار – المتهجدين آن السحر والمتواجدين لدى "راتب الفجر" ، التاركين متاع الدنيا ، وملذاتها وصغائرها وراءهم ، والمستقبلين رضاء الله ؛ الساهرين في سبيل مرضاته ، الخبيرين بلذته والمستبشرين برضائه ؛ والباذلين النفس والنفيس في نصرة دينه . كان هؤلاء هم أحب البشر إليه ، مما جعله مثلا لفرسان عصور الإسلام الزاهرة ، وبقية السلف الصالح الذي انقرض منذ عهود غابرة .

وكنت مستودَعا لأدق أسراره ، وشريكا أصيلا وفياً له في مساره ؛ ولذلك . . فلم استغرب رسالته ، بل أسرعت لتلبيتها لأقف بجانبه ؛ وحتى لأموت دونه أو معه

وبلادنا تمتَحَن في دينها وكرامتها واستقلالها ؛ فأنا أعرف مشاعره وتصرفاته ومواجهته لمثل هذه الامتحانات القومية المصيرية . .

وسرَحت بعيدا بفكري ، والسيارة تلتهم الطريق المليء بالحواجز والحراسات سرَحت بعيدا سنينا طويلة ؛ ومر أمامي شريط التاريخ يطوي السنين القهقرى تذكرت الإمام المهدي وهجرته في (قدير) ...

وتذكرت جدي الشريف محمد الأمين الهندي ، وهو يعلم أبناء المسلمين القرآن في الرهد ، وقد شارف سنّه المائة عام ؛ وتذكرت وضعه الاجتماعي يومها ، إذ كان والدي يذكّرني بذلك كلما رآني مزهواً بردائي الأفرنجي ، وأنا قادم في العطلة من كلية فيكتوريا بالإسكندرية ، قائلا :

" من أنت؟ ومن الذي تعتقد أنك وارثه . . جاها أو مالا ؟ ألا تعلم أن جدك كان يغالط من مغه ، أهذا قرش أو(تعريفة) طوال اليوم؟ وهو لا يعلم الفرق بينهما أتعتقد أنك حفيد الأغنياء، أو وارثا لأهل طريقة صوفية؟ ماأنتم إلا حفدة فقراء . . كل مجدهم هو تعليم القرآن، وإشعال ناره" . . . في(مرنات) ـ بجوار شلال السبلوقة ، إلى (نوارة) بالدندر وإلى الرهد . . . " وكل مالديكم . . ولدى الله والناس، هو تعليم القرآن" ! ثم يصمت وعلى وجهه الصبوح الأشيب، يتلون الأسى بالغضب ويردف : " كل مخلوق يولد على الفطرة وأبواه يهودانه أوينصرانه " . وكنت قبل أن أذهب لكلية فيكتوريا، قد حفظت القرآن تلاوة وتجويدا .

وكان واجبي أن أقعد على ركبتيّ وأرتّله له كل فجر؛ ولم أكن قد تجاوزت التاسعة وقتها ؛ وكان والدي أتعس الناس عندما ذهبت للتعليم المدني ، ولكنه فعل ذلك مرضاة لخالي الذي كان يعزّه ، وللإمام عبد الرحمن المهدي ، وهو يقول تأسيا بقول الرسول ﷺ فليفعلوا ما أرادوا ، فإنهم أهل بدر " ! .

وذهبت مع ابنه الإمام الهادي ، وتولّى (عطر الله ثراه ، وجعل قبره روضة من رياض الجنة) رعايتي والانفاق على تعليمي ، وكنت أحد أبنائه ، أحضر اجتماعات الأسرة ، وكان يضع يده على رأسي ...

ويقول : " الله يبارك لك في ذكائك يا حسين " . .
وكنت صريحا معه على صِغَر سنِّي ،
فكنت أسأله : " هل هناك ذكاء مبارك ، وآخر غير مبارك؟ " ، وكان يطرق ...
ويقول : " نعم " !

وهكذا أمضيت طفولتي وصدر شبابي ، قريبا منه . . أكثر من أغلب أبنائه وكاد يزوِّجني لولا حدوث مشاكل ، أسرية وشللية من بعض الأقارب ؛ هي التي أخَّرَت زواجي ثلاثين سنة ، وأنا على قَسَم . . ألا أتزوج مدى الحياة . وترتَّب على ذلك مشاكل عاطفية ، لا تزال آثارها محل المعاناة ، ولا داعي لسرد تفاصيلها ، ولنرجع إلى التاريخ القديم .

وحمل جدي جرابه وجسده لا يكاد يحمله ، وبقي مع الإمام المهدي شهورا في الهجرة ؛ وعندما حان وقت الهجوم على (الأبيض) ، تزود ببضع كسرات من العيش المحروق ، وتقدم مع الإمام المهدي ، وحاول الإمام المهدي أن يثنيه ويرجعه ، ولكنه - ورجلاه لا تحملانه - كان يقابل ذلك بالرفض والإصرار عليه حتى قال له الإمام المهدي : " أنا لا أستطيع أن أتركك ، ولكن سرعتنا هذه تعطل زحف الجيش ، وقد يستفيد منها الأعداء أرجوك أن ترجع وأجرك هو أجر المجاهد ، وأن تسأل لنا الله النصر فبيدك اسم الله الأعظم ، وسر السلاح " . . وهنا فقط ، رجع جدي والحسرة والألم يقطعان نياط قلبه ؛ ولم تمض أيام حتى لبى نداء ربه .

وتذكرت عمي الشريف علي ، مهاجما لسنار حتى فتحت - وهي آخر قلعة من قلاع الاستعمار - واستشهد هناك ، وقبره لا يزال في قرية (الشريف) . . بجوار (الخزان) وجاء دور أبي وكان في الخامسة عشرة ؛ وقاد جيشا للرباط في (المتمة) - على الحدود الشرقية للسودان - وظل يقاتل سنينا حتى استولى (كتشنر) على أم درمان . ثم رجع وهو يقاتل (الشفتة) وقاطعي الطريق ؛ حتى استقر في شرق النيل وغربه : في قرية (الربوة) . ثم استمر في الدعوة وتجميع الناس حتى اعتقل في قرية (ودالعباس) وحمل بالباخرة إلى سجن (كوبر) ، حيث بقي عدة سنوات . ثم فرضت عليه الإقامة

الجبرية بعدها في الخرطوم ، ثم في (بُرِّي) من ضواحي الخرطوم ، غرب النيل ـ وظل فيها متفرغا للدعوة ، ولم يُسمح له بالرجوع إلى موطنه حتى مات .



في الوسط والد الشهيد : الشريف يوسف الهندي ومجموعة من أبنائه

وكتبت شلة من علماء ذلك الزمن ، عريضة وقَّعوا عليها . . مطالبين بإعدامه على أساس أنه يحضِّر لإحياء " الفتنة " ولم يوقع على العريضة إلا (الشيخ ود البدوي) من أربعين عالما . وكان (سلاطين) وقتها ، مفتشا عاما ونائبا عن (ونجت) ـ الحاكم العام الذي كان غائبا ـ وجرت بينه وبين والدي المقابلة الطريفة الآتية عندما أحضِر والدي له . . وهو مكبل بالأغلال :

" أتريد أن تصير مهديا يا ود الهندي ، ولم تكن إلا أميرا صغير السن والمقام ؟ " . وردَّ والدي عليه : " إن الله على كل شيء قدير يا شويطين ! فلقد كنت مؤذنا لنا وأصبحت الآن مفتشا عاما وكنت مسلما فكفرت بأنعم الله ! وسيذيقك الله لباس الجوع والخوف " .

وكان (سلاطين) ـ الذي هرب ودبر حملة استرجاع السودان ورجع معها ـ على وشك تنفيذ حكم الإعدام ؛ وجاء (ونجت) فخشي من آثاره . . فبدله إلى السجن . وظل والدي وصلاته بالإنجليز تحيطها الشكوك ومظاهر العداء . وقطع أسلاك التليفون ـ التي كانت تربطه بهم . وظل يجمع الصافنات من الجياد ، وسيوف المعارك الشهيرة ، ويكتب تاريخ السودان . ولم يدعَ إلا مرة واحدة لحفل (التشريفة) ، الذي كان يقام في المساء ، وحان ـ وقتها ـ ميعاد صلاة المغرب فخرج من منضدة الحفل وأذَّن لصلاة المغرب ، وانفرط عقد المدعوين أثناء تلاوة الحاكم العام خطابه ، وأمهم للصلاة . ومن يومها شطب من كشف المدعوين للتشريفة .

وكنت أقضي أيام العطلة ، وأنا أقرأ له الكتب طوال اليوم . . في مكتبته (العربية الإسلامية) الضخمة ، إذ كانت عيناه قد ضعفتا . وأكتب له ما يُملي عليَّ من التاريخ إذ كانت أصبعاه قد تقرَّحتا ، حتى كان يربطهما بالشاش وعاش بجسده بيننا ، في سرير خشبي لا كساء له ؛ وروحه تهيم وتعيش في الدعوة الإسلامية وفي دولتها وهو يردد أناشيدها ، ويجمع أدبها وروائع معاركها ، حتى رأى قبسا من نور في دعوة مؤتمر الخريجين ؛ فأهداهم منزله الذي أصبح نادياً لهم ، وولدت فيه دعوة المؤتمر ويوم السودان ، ويوم التعليم والمذكرة التاريخية التي رفعها المؤتمرون للسكرتير الإداري ، وحزب الأشقاء . . . ونادي الخريجين الذي كان ولا يزال : (شيخ الأندية) .

لابد أني سرحت طويلا ولكن للحق وللتاريخ ، فقد كنت سارحا طوال رحلتي للدرجة التي لم أعرِ فيها انتباها طويلا ، لتبادل متعدد لإطلاق النار بين زملائي وبين بعض حراس الحواجز . لقد شدَّني التاريخ حتى أصمَّ أذنَيَّ عن سماع أزيز الرصاص وحتى أزال مني مظاهر الخوف من الخطر وشعرت أن رحلتي هذه . . فيها تشابه كبير لماضي تاريخ بلادنا ؛ تمر بنفس الظروف التي كانت تمر بها قبل اندلاع الثورة المهدية حكم الاستعمار الثنائي أو المثلث ، ما كنت أتصوره وأجزم بحدوثه : من جوع ومن قهر اقتصادي [illegible] بوليسي ، ما كنت أعلمه : من تدهور أخلاقي لا محالة



الشريف الحسين في حضرة أخيه الخليفة الشريف الصديق الهندى خليفة السجادة الهندية

حادث - مثل زواج الرجل بالرجل في (الأبيض) - ما كنت أحس به : من ضرورة تجمع كل القوى للدفاع عن مقدسات وطننا وكياناته وعن حقوق الإنسان فيه ، ما أشبه من أن تصبح هكذا على مر العصور ؛ إرثا لكل السودانيين وليس عقارا لأسرة ، ولا ضياعا لطائفة . وما كان أكبرها وأعظمها لو ظلت كذلك ! ولو لم يشوهها المعتدون لقيادتها ، فيجعلون منها معسكرات للمليشيات ، ترجع ثمنا للمساومة ، وتبقى سلاحا للتمديد انتظارا لمساومة قادمة أخرى .

ما أعمق الجرح الذي يوغر صدورنا ، والذي لن يندمل أبدا . . ونحن نرى اليوم البيانات الكاذبة توزع ، مدعية زورا وبهتانا أننا نشتم الأنصار ونحقِّرهم ! نحن الذين نعرف روابط الكفاح ، في التاريخ القديم والحديث ، نحن وقود الثورة الأولى والثانية نحن الذين ربط بيننا الإمام المهدي ، وهو يقود ثورة قومية ووطنية ضد الاستعمار ثم

ربط بيننا أخيرا إمام آخر . . هو صورة وأصل من الإمام الأول ، في دفاعه عن الدين والوطن ، ثم هو أخيرا لا آخرا ، يعرف أقدار الرجال ، ويمنعه دينه ، وتعصمه وطنيته ، من الارتماء في أحضان الاستعمار ، قديما كان أو جديدا ؛ ثم هو يجمع ولا يفرق ، ويقرب ولا يبعد ويوطد ولا يبدد . ثم هو واضح وضوح الشمس ماض مضاء السيف ، يمنعه خلقه ودينه من اتباع أسلوب الهمس في الغرف المغلقة والحسابات النقدية للربح والخسارة ، والجري وراء الطموح المجنون للسلطة ، في أمور تخص وطنه ـ كل وطنه ومواطنيه ، جميع مواطنيه . ولا يقبل لنفسه ولا تاريخه أن يضع شخصه وأطماعه وطموحاته في كفة ، وفي الكفة الأخرى مستقبل وطنه ومقوماته واستقلاله وكرامة مواطنيه .

هل يمكن أن توكل لرجل مثل هذا ، مقدسات الخلاص الوطني صلحا أم حربا أو تترك له مقدرات شعب ، ومستقبله وأجياله الحالية والمقبلة ، حتى يقيسها على نفسه مثلما يقيس أي شخص ملابسه وأحذيته ؟ وهل الرجال الذين صنعوا الثورات من أسلافه ، كانوا بهذا الخلق ؟ وهل كانوا سينجحون في هذه الثورات وفي قيادة الرجال ؟ لو كانت منطلقاتهم شخصية وأنانية ومصلحية وحسابية ؟

وجذبني أحد الزملاء من ورائي ، واسترجعني من غياهب التاريخ ومجاليه : الزاهية الرائعة . . مرة واحدة . . قفزا فوق الحقب ؛ إلى واقع الحاضر بكل مجابهاته وتحدياته . وكنا في مدخل الجزيرة (أبا) ، واستوقفنا الحاجز الأول . ليس هناك فرق بين الحواجز ، ولكن الأولى كانت تموج بالرداء العسكري وتفوح منها روائح التسلط والقهر ، وعلى وجوه رجالها معالم الاحتقار للناس ، ونوازع تخويفهم وإذلالهم . أما هذا الحاجز فوراءه رجال على وجوههم صرامة الحق وسماحة الدين ، ورداؤهم مدني .

وتوالت الحواجز وتجاوزناها ؛ ودخلنا منازل الضيافة . . وكانت تموج بكل مطارد بلا جريرة ، مطلوب بلا جريمة ، هارب بدينه ووطنيته إلى البقعة الوحيدة في السودان التي كان فيها المواطن السوداني يتمتع بحريته ، ويطوف على الجميع وهو آمن . .

يحملون الأكل والشرب والأمن والحماية .

لو لم يكن للجزيرة (أبا) دور في التاريخ ، غير أنها كانت مأوى لكل مواطن شريف ، لا جريرة له إلا أنه ليس من المجرمين ، ولا من مرتادي السجون ، ومع ذلك فهو لا يحس بالأمن إلا إذا دخل الجزيرة(أبا) ، وقابله أهلها مرحبين : " أدخلوها بسلام آمين " ، ومن دخل الجزيرة (أبا) ، فهو آمن . . لكفاها هذا الدور في التاريخ - التاريخ الذي أظلت فيه أحرار الرجال وأعراضهم وعقائدهم وأحاطتهم بحماية من دماء أبنائها من الأنصار .

ونار الضيافة لا تنطفئ فيها ليل نهار ، ويقوم بالخدمة فيها على كل من احتمى آلاف الرجال والنساء ؛ ويخرج من منازلها عشرات الآلاف من أواني الأكل والشرب ملأى ، وتفرش فيها آلاف الأسِرَّة ؛ وتجد فيها وحدها - دون كل أرض السودان - بشاشة السودانيين وأخلاق السودانيين ؛ ودينهم وكرمهم وإيثارهم على أنفسهم ، ولو كانت بهم خصاصة .

سوف يسجل التاريخ أنه لقرابة عام كامل ، كانت الجزيرة (أبا) هي السودان . . كما نعرفه ونحبه وننتمي إليه ؛ وبقي كل السودان غريبا عنا . . الأحرار فيه هم السجناء ، والمجرمون فيه هم الطلقاء ، ليس فيه مكان لأبنائه المخلصين البررة وأصبح البقاء فيه احتواء جغرافياً ، وليس انتماء وجدانياً وعاطفياً . وبقيت الجزيرة (أبا) . . إمامها البطل . . أنصارها المخلصون البواسل . . نساؤها أطفالها ، شيبها ، شبابها هم كل السودان ، وكل ما يمثل أهل السودان ، من نبل وكرم وشهامة وحماية .

بقيت هكذا . . ولجأ إليها واحتمى بها كل مقهور ، فلم يسئ إليه أحد ، ولم يعبس في وجهه أحد ، ولم يبت فيها أحد على الطوى ؛ ولم تمتد إليه يد السلطة الغاشمة المستبدة . بقيت هكذا حتى تجمعت ضدها كل قوى الشر والعدوان ودافع أهلها عنها بدماء الأبطال . وأساطير شجاعتها مشاعل للتاريخ ، كافحت العدوان في البحر والجو والبر ؛ ومن قوى تفوقها عدداً أضعافا مضاعفة ، ومن عدة دول لا دولة واحدة .

وسأكتب في مذكراتي ، عن معركة (الجزيرة أبا) ، ويومها سيتضح لكل من يعلم أنها إحدى ملاحم الصمود والشجاعة التي قَلَّ أن يسجل التاريخ مثلها . والذي أريد أن أسجله هنا . . أنه يوم فتحت الجزيرة (أبا) ، لم تسقط هي ؛ بل سقط كل السودان . . بتاريخه ودينه وخلقه وقيمه ؛ فلقد ظلت هي السودان مكبراً ومصغراً صامدة عاماً كاملاً ، في داخلها السودان كله : المؤمن الوطني المسلم ، وفي خارجها جسم غريب لا ينتمي للسودان ، ولا لأهله ، ولا لكل ما يمثلون من أخلاقيات بشيء .

توقفت في الخارج مدة من الزمن ، أتأمل في اللاجئين من النظام ، من مختلف الاتجاهات ، وأتأمل في الحركة الدائبة لخدمتهم . وفي هذه اللحظة وصل السيد الإمام الهادي ، إلى الجانب في دار الضيافة ، الذي كنت أجلس فيه . تقدم إلي كعادته يطأ الثرى متمهلا ، والبِشر والبشاشة ينضحان من وجهه الذي يتألق بنور من الهدى والتقوى ، والابتسامة المخلصة الوضاءة الوقورة تسابق يده الممدودة في مودة لمعانقتي .

كان هادئا وعاديا على غير ما يقتضي الموقف ، وكنت أتوقع ذلك منه ، فلقد شاهدته وشاركته ، في مواقف عديدة عصيبة وشائكة ، مثل هذه من قبل ، ولكن كان هناك شيء جديد في عينيه ، فيهما عمق وإصرار أكثر مما كانا يمتلئان به ، في مواقف مشابهة مستعصية . . وأدركت لتوِّي مدى اهتمامه بالموقف وقياسه له ولم ينتظر . فكما قيل ، فليس هناك أمور تشرح أو تحلل . . كنت قد شرحت له الموقف في الخرطوم ، ومحاولاتي لمنع الانقلاب . كان مهتما ويساعد مجهوداتي لثقته المطلقة فيَّ ، وكنت قد حددَّت له هوية الانقلاب قبل أن يحدث ، ولذلك فلم يضع وقتا في الحديث والتفت إلى قائلا :

" إنني لا أعتبر نفسي مسلما ، إذا عشتُ وارتضيتُ حكما ملحدا ؛ وكذلك لن أعايش حكما غير ديموقراطي ، ولن أقبل حكما عسكريا " .

وكان واضحا أن اهتمامه بالناحية الدينية أكبر ، ولم يكن هذا جديدا علىَّ وليس

غريبا عليه ، ولم نتناقش طويلا ، إذ كانت وجهات نظرنا متطابقة، ونظر إلى يسأل سؤال من يعرف الجواب، وقد حدده سلفا : " ليس هذا مثل حكم عبود ؛ وسنضطر للدخول في مواجهة مسلحة " . قلتها والألم يعصر قلبي وقال :

" لقد توقعت هذا الرد وليس لي رأي غيره ؛ ونحن ملزَمون شرعا ومضطرون وطنيا " . .

والتفت إلي وقد زاد ذلك البريق في عينيه اشتعالا :

" إن هذا موقف يحتاج لأمور لن يستطيع غيرك القيام بها وأنا لا أقصد طلبا في كلامي هذا ، فأنا واثق أن هذه قناعتك " .

ثم تكلمنا عن وجوب وجود تنظيم جبهوي لمواجهة الموقف ، واتفقنا على ذلك وأضاف : " إن هذه عادة قد استنها الأئمة في أزمات قومية ، ولذلك فأنا موافق على ذلك " .

وكان بالجزيرة أبا وقتها الأخ الكاروري ، ولم أكن قد قابلته ،وفي نفس اليوم وبعد ثلاث ساعات من وصولي للجزيرة (أبا) ، أعلن ميلاد (الجبهة الوطنية) من أحزاب : الأمة ، الاتحادي ، الأخوان ؛ ووقعها السيد الإمام والأخ الكاروري وشخصي . . وهؤلاء هم المؤسسون.

ولقد سمعنا أخيرا عن محاولات لحلها من غير المؤسسين ، وكان أول بند في اتفاقها هو : إزالة النظام الحاضر بكل السبل والوسائل . ولم يكن يدور بخلدنا يومها أن إحدى هذه الوسائل ، يكون مقاعد الاتحاد الاشتراكي ، في اللجنة المركزية والمكتب السياسي، أو التعيين في مجلس الشعب، أو حتى رئاسة الوزارة ، أو الاتحاد الاشتراكي ، أو أية وزارة .

ورفض الإمام أن أعود لدار الضيافة بالخارج ، ثم أخلى منزل زوجته الكبرى وكان يتوسط منازل زوجتيه الأخريين ، وقال الأنصار : أن ضيفا ما - حتى من أشقائه - لم ينزل هنا . كنت أسكن داخل منازل العائلة ، وكان لا يتناول وجبة إلا معي وكنت أستيقظ مع ترتيل الراتب من الفكي عبد الله ، ثم يؤم الناس هو لصلاة الصبح وليس

في الجزيرة أبا نشاط ، غير الصلاة وتلاوة القرآن والراتب ودروس (النصيحة) ؛ ولم أر بلدا يرتل فيها اسم الله كل ثانية مثلها، ولم أر رجالا كرّسوا أنفسهم للعبادة مثل سكانها ولم أر مدينة ليس فيها محل للرذيلة غيرها . والأمن فيها مستتب ، وليس فيها أي حادث سرقة ، مع عدم وجود أي مركز شرطة ، أو حتى أي أثر لخفير فيها .

كان الدين والخلق والقرآن والصلاة، هي القانون والحارس ضد الرذيلة والعاصم من السرقة . ولو عاش أفلاطون ، لرأى بعينيه المجتمع الفاضل الذي عناه . . ولم يجد من يؤسسه على الهدى والتقوى والطهارة ، ويحكمه بلا قانون ولا بوليس ، بل أخلاقيات القرآن والسنة .

وقال الإمام في صلاة الجمعة ، لمائة ألف من أنصاره حضروها : " لو جئتم كلكم لحمايتي، فإن الله يرعاني . . أما ضيفي " -وأشار للمنزل الذي أقطنه وهو منزل زوجته الأولى ، ووالدة نجله الأكبر، وكان الجميع يعلمون أنني أعيش فيه - " فإنني لن أسمح لأحد بحمايته . . بل سأحميه بنفسي" ، وأخرج ذراعه ولوح بها ، ولم تكن هذه إحدى عاداته ،وأكرمني أكرمه الله .

وكان ينام حول منزلي كل ليلة مئتان من أنصاره ، وكان إذا اضطرته الظروف - وهي نادرة - ألاّ يشاركني الطعام ، يصر على رؤية الطعام ، قبل أن يقدَّم إلي ويضيف إليه أصنافا ويحذف أصنافا أخرى ، ثم يأمر بألاّ يمسه أحد بعد فراغي منه إلا بعد حضوره ، فكان يكشفه ويتفقده ثم يناقشني في أكلي ذلك اليوم ، وفي الألوان التي أرغب فيها والتي لا أرغب . وكان يمضيّ كل يومه معي ، ويعقد اجتماعاته في منزلتي ولا يفارقني إلا لدى النوم . وخصص نصف من يخدمونه لملازمتي وخدمتي بصفة دائمة ؛ ولم أكرَم طوال حياتي ، ولم يهتم أحد بتفاصيل حياتي مثلما فعل . وكان يفعل ذلك كله بنفس راضية وإقبال رَضِي وكانت المشكلة الكبرى بالنسبة لي هي الدخان (السجائر) . فليس هناك في الجزيرة من يدخنه ، وليس هناك من يبيعه . وجمع رهطا من كبار الأنصار وقال لهم : " ليس في الجزيرة من يبيع الدخان أو يستعمله ؟ إن الشريف يدخن وأنا موافق على ذلك " .

وكان هذا أول تصريح من نوعه يصدر في الجزيرة ، منذ ميلادها وإلى أن غادرتها . ولم يكن له من شغل آخر غير التشاور معي ، وغير الاهتمام بالضيوف الذين بلغوا عشرات الآلاف . . ومنهم اللاجئون من البطش ، والهاربون من الظلم . . فكان يطوف بنفسه على محال صنع الطعام ، ويتفقد من يأكل ومن لا يأكل . ولم يحدث في تاريخ اللجوء في العالم ، أن عومل لاجئون مثلما عوملوا في الجزيرة (أبا) ولقد أكبرت الأخ الكاروري عندما استمعت إليه في المذياع ، يقول في الاستجواب للسلطة : " لقد جئنا نحتمي عنده من البطش فآوانا . . وكان رجلا عظيما وشجاعا " . وأكبَرت الكاروري ، وكنت أكبره وتحجَّرت في عيوني دموع كالجبال . . لم ترد أن تجف ، ولم يرد لها أن تنهمر .

ومع هذا . . فقد كان هناك الخفافيش الذين ظهروا هذه الأيام - ومنهم من تجرأ وجاء يحتج على وجودي في الجزيرة - فانتهرهم وطردهم . وهناك المحامي الصديق المشهور الذي أرسل خطابا لأحد أصدقائه في الجزيرة ، وختمه بقوله : " أُبلِّغ سلامي لكل من في الجزيرة . . ماعدا الشريف " . ووقع الخطاب في يد الإمام فأطلعني عليه وهو ينفجر غضبا ، ثم مزقه إربا ووضع قدمه على نفاياه .

إن معركة الجزيرة (أبا) الحربية ، وغزوها بكل أنواع الأسلحة الحديثة والدول التي تحالفت عليها ، وشهداءها الذين قابلوا الرصاص بالسلاح الأبيض وصدورهم مفتوحة للموت ، والذين دفنوا أحياء وهم يحملون القرآن في قلوبهم ، وفي أيديهم وفي ألسنتهم . . . لها باب خاص في مذكراتي هذه . أما أيامي التي عشتها فيها قبل الغزو ، فهي أيام خوالد في تاريخي ، وفي تاريخ الرجولة وأخلاق العروبة ، ليس لها مثيل .



الزعيم الشهيد المناضل الشريف حسين يوسف الهندي
أخذت الصورة له في العراق

الفصل الثاني

مؤتمر الخرطوم

١٩٦٧م

الفصل الثاني

مؤتمر الخرطوم ١٩٦٧م

الحلقة الأولى: حرب يونيو ١٩٦٧م

في أواخر مايو وما قبله ، كان الجو العربي مكفهراً ومتدهورا ، وكانت وحدة الصف العربي مهترئة وممزقة ، وأجهزة الإعلام العربي - المقروءة والمسموعة والمنظورة - تعترك يوميا في ضراوة وشراسة ، والحرب الظاهرة والخفية معلنة ومحاولات الغزو والاغتيال ، شيمة كل نظام عربي وسياساته نحو أي نظام عربي آخر . وكان العدو الإسرائيلي ينظر في شماتة وفرح ، آمنا مستقرا ومطمئنا ، يبني قوته الضاربة في ثقة وجسارة - إعدادا وتدريبا وتسليحا - والجماهير العربية تتدنى روحها المعنوية ، ويلفها مناخ من الأسى واليأس والقنوط واللامبالاة ، والعالم من حولها - عدوا كان أو صديقا - عرضة للشعارات الهوائية التي يطلقها المسؤولون عن " مائة مليون عربي " والتي كان أقلها " قذف مليون أو مليوني إسرائيلي في عرض البحر " ، ويقف مع " المساكين المشردين القليلي العدد الذين سيلتهمهم الجبار الظالم الكثير العدد " .

وكان هذا محتوى وفلسفة الإعلام العربي غير الموجه واللا علمي ، والمليء بالتهديدات الجوفاء ، وشعر عنتر بن شداد الحماسي . وكانت الجيوش العربية تفتقد التسليح والتدريب والقيادة والوحدة ، كلما بلغ ضابط أو طيار المرتبة التي كان سيمارسها لنصرة القضية العربية ، أدخل في غياهب السجون ، أو أحيل لإدارة شركة تجارية ، أو اضطر للهرب خوفا من أن يستعمل مهارته القتالية ، في قصف أي قصر ملكي أو جمهوري أو أميري . : أو في تغيير النظام .

كان الحرص على بقاء أي نظام ، أكبر من الحرص على النصر في قضية العرب المركزية ، ومعركتهم القومية والمصيرية ؛ وكان القتال هو : معارك الشعارات الجوفاء تطير في الهواء وتتقاتل في الأثير ؛ وتذوب فيه هباء وزبَدا . وكان المال العربي ينثر على أجهزة الأمن للأنظمة ، تركض وراء أجهزة الأمن العربية الأخرى ، ويبعثر على

شراء المرتزقة ومحترفي الاغتيال .

وكانت الجامعة العربية جسدا بلا روح ، والقيادة العربية الموحدة اسما بغير مسمى والوحدة العربية شعارا بلا محتوى ؛ وكان كل حاكم عربي ينظر إلى نظيره ، ويعامله كخائن وعبد للاستعمار الشرقي أو الغربي وعميل لإسرائيل . كان مجرد الاتصال بينهم مستحيلا ، دعك من التنسيق واللقاء . كان كل نظام مغلقا ومنغلقا في داخله في توجس ، وكانت كل الأنظمة منكفئة على نفسها تنتظر الضربة توجه لها من الأخ والجار وذي القربى ؛ والنقاش البيزنطي يملأ الأفق . . أهي وحدة الصف تأتي أوّلا أم وحدة الهدف ؟ أهي البيضة أم الدجاجة ؟ والعدو على الأسوار . . . بل داخلها .

أما الجماهير العربية ، فقد كانت مقهورة ومسجونة في كل قطر من أقطارها لا تسمع إلا ما يصبّ في آذانها ، ولا تقرأ إلا ما يكتَب لها ، ولا تنظر إلاّ ما يعرَض عليها . تقيم في منازلها ، وتلجِم ألسنتها ، وتخاف حتى من أقرب الناس لها حتى الأب والشقيق والأم . . قد يكون جاسوسا !! كانت حالات التسيّب والتفكك في المجتمع لا توصف ، والحذر والخوف ، والتمييع لحركة الجماهير لا نظير لها . لم يكن الإنسان العربي جزءا من معركته . . لماذا نقاتل ؟ هل لكي نبقى في هذه الحالة ؟

نحن لم نهزم ولن نهزم ؛ لأننا أصلا ، لم نكن شركاء في المعركة ولا مشاركين فيها لقد حرِمنا من كل صفة ميز الله بها الإنسان على الحيوان ، إن من نعم الله الكبرى الفكر والوجدان والحرية ، وقد حرمنا منها كلها . لم يبق لنا إلا الفم لكي نطعم به لا لكي نتكلم به ، إلا المعدة وقد نملؤها حينا ، وتظل فارغة أغلب الأحيان . . ومع هذا لا نشكو ، فالشكوى خيانة والخيانة إعدام .

كنا نحن السودانيين نعلم كل ذلك ، ونراقبه ، وكنا نحافظ على علاقة بلادنا بالجميع . مع فقرنا وتخلف بلادنا ومشاكلها المتعددة ، فبلادنا ليست قطرا بل هي قارة ، ومع هذا فلم نتردد في قول الحق ، والجهر بالشورى والنصح لأي نظام . لم نكن منحازين . . وبقينا وحدنا ؛ ونحن الأقل منعة والأقل حضارة والأقل ثورة جزيرة وسط هذا الخضم المتلاطم من الخلافات والمعارك ؛ والواحة المنفردة في

صحراء العدم واليأس هذه . .

وكنا نعض على استقلالنا ورأينا وانتمائنا وقوميتنا بالنواجذ ، ونرفع صوتنا أمام الجميع ، بضرورة الوحدة والحرية والإعداد لمواجهة العدو . وكنا نعرف أنها آتية لا ريب فيها ، وهزيمتنا فيها واردة لا شك فيها ، إذا استمر الحال على ما هو عليه ؛ وكنا نقاوم أية محاولة بالإغراء أو التهديد ، لكي ننحاز أو نصبح بوقا لأحد . وقد " تجوع الحرَّة ـ وكنا نجوع ـ ولكنها لا تبيع ثديها " .

من خلال هذا الظلام الدامس الداكن ، طارت إشاعات خافتة وسرية ، بأن قطرا عربيا من أقطار المواجهة قد يهاجم إسرائيل ، ولم يعرف مصدرها . . هل هي حقيقة أم خدعة من صنع العدو ؟ وأخذت الإشاعة أبعادا كثيرة ، ودخلت في خضم الصراعات والمنافسات والسباقات العربية . وكان البعض يعتقد ـ وذلك لافتقار المعلومات عن العدو وانشغال أجهزة الأمن العربية بغير هذه المعلومات ـ أن إسرائيل ضعيفة ، وأن أية ضربة توجه لها ستنهي وجودها .

لذلك سرعان ما انتشرت هذه الإشاعة ، حتى أصبح تفكير الكثيرين في المنطقة أن المبادرة بالهجوم يجب أن تكون لهم ، وأن النصر المؤكد ، حسب وجهة نظرهم يجب أن يكون لهم ، وبعد النصر ثماره . . من تفوق وشرف وسعادة . وتنبهنا لخطورة هذا الاتجاه . . وقلنا : إنَّ جَرَّ العرب لمعركة لا يحددون زمانها ومكانها ـ وهم على مثل هذه الحالة من التمزق والتشرذم ، وفقدان الإعداد العسكري والاقتصادي والنفسي ـ هو كارثة . . لها آثارها التي قد تكون قاضية وأنه بعد هدوء ـ طبيعي أو مصنوع في ساحات القتال ـ دام قرابة العشر سنوات استرد فيها العدو أنفاسه وزاد قدراته ، ولم يتقبل كل هذا بالمثل ، فالأجدى أن نجري تقويما علميا لإمكاناتنا ، ومقارنة حقيقية لقدرات العدو ، ونحقق وحدة وتمازج مبادئنا ، خصوصا بعد أن فشلت مؤتمرات القمة قبل ١٩٦٧م في تنفيذ ذلك .

وقمنا بعدة جولات في مناطق الثِّقَل في المنطقة ، وأكدنا أن إشاعات الهجوم من أي نظام عربي ، قد تكون تغطية أو مقدمة لعمل يريد العدو تبريره . ولم يمض على

رجوعنا للسودان أسابيع ، حتى اشتعل الموقف في الشرق الأوسط إذ أعلن الرئيس جمال عبد الناصر أمره ، بسحب قوات الطوارئ الدولية وأسرعت هيئة الأمم في عجلة مريبة ، بالاستجابة لهذا الأمر ، ثم أمر القوات الآلية بالتقدم عبر سيناء نحو (غزة) ، وسط الصحراء المكشوفة ، التي تبلغ مئات الأميال وأقفل خليج العقبة .

تدارسنا الموقف . . ولم يخالجنا الشك لحظة واحدة، أنها الحرب ،وهرعنا إلى القاهرة في اليوم الأول من يونيو . كانت علاقتنا بالرئيس جمال عبد الناصر قوية وإعجابنا بشخصيته وجسارته وعروبته أقوى ، وكان لقاؤنا معه وتشاورنا متواصلا وكنا نتردد على القاهرة باستمرار . وكانت صراحته معنا وثقته فينا كبيرة . . وكنا نتدارس الموقف العربي كأسرة واحدة ، لا كدولتين منفصلتين وكان الرئيس ناصر هو قطب الرَّحى في المنطقة العربية ؛ ومصر - كما هي الآن كشعب - مركز الثقل الحضاري والسكاني والعسكري للعرب . وذهبنا إلى الرئيس عبد الناصر في الإسكندرية وانتظرنا حتى أنهى ندوة كان يقيمها في جامعة الإسكندرية ، ووافانا فور انتهاء الندوة وبدأنا اجتماعا دام حتى الساعات الأولى من الفجر .

* قلنا : إن سحب قوات الطوارئ ، وتقدم الآليات والمشاة في سيناء بمثل هذه الأعداد الكبيرة ، وقفل خليج العقبة لا نتيجة لها إلا الحرب ، فهل نحن مستعدون ؟

* قال : إنه يعتقد أن إسرائيل لن تجرؤ على القتال؛ ومعلوماته . . أن استعدادها غير مكتمل، وحتى إذا أقدمت فسوف تهزَم .

* قلنا : إننا مع ثقتنا في معلوماته ، فنحن واثقون أن إسرائيل ستهاجم ، وأنها قد وجدت تبريرا عالميا لذلك ، ونحن نعتقد أنها قوية ، وأن أي معلومات غير ذلك في رأينا غير مكتملة . .

* قال : إنه واثق من معلوماته؛ كما أنه واثق من قدرة القوات المصرية على النصر . . تجادلنا في هذا الأمر طويلا ، وطويلا جدا ، ولكن الرئيس جمال عبد الناصر كان مصراً على موقفه، واثقا من معلوماته .

* وأخيرا قلنا : إننا مع تأكدنا من تحليلنا ومن معلوماتنا ، ومع ثقتنا في شجاعة

القوات المصرية ، إلا أننا نرى أن الأمر خطير ، وأنه يحتاج لمراجعة أعمق ، ولكنا نعتقد أنه بحكم موقعه أعلم ؛ وما دام يعتقد ذلك ، فنحن نرى أن هذه المعركة قومية وساحتها هي الأرض العربية كلها ، وأن الأمر يقتضي تعاونا وتنسيقا مع كل العرب وتضافر كل الجهود واستعمال كل القدرات العربية : العسكرية والاقتصادية . ولذلك فلابد من لقاء عربي شامل ، سيكون له وزنه وحتى أثره النفسي على العدو وعلى العالم .

* قال الرئيس عبد الناصر : أنه موافق على هذا المنطق ، والتفت إلينا مستطردا في أسى : " أنتم تعلمون الموقف العربي . . وما هي الضمانات إذا طرَحت أسراري في مثل هذا المناخ ؟ وما هي قناعاتي إذا أخطر أحد منهم القوى التي تقف وراء العدو . . أو حتى العدو نفسه ؟ إن الموقف سيكون أسوأ من الذي يصورونه الآن " !

* قلنا له : إنه مهما تكن المنازعات التي تسود العالم العربي الآن ، فإننا نستبعد أن يفعل عربي هذا . ابتسم ناصر ابتسامته العريضة المعروفة وأردف :

إنكم أشقاؤنا السودانيون تعتقدون أن كل عربي مثلكم . . مثل نقائكم وطهارتكم والتزامكم القومي ، ومثل سجيَّتكم وقلوبكم . إنني أتمنى أن يكونوا كذلك ، ولو كنت واثقا من ذلك ، لجمعتهم الآن وأنتم حضور ، ولكن لن أقامر بأمر كهذا " . . واستغرق النقاش وقتا أطول ، وتمسك بموقفه .

* قلنا : إننا واثقون من شجاعته وتوجهه وإيمانه ، ولكننا نخشى النتائج ونرى أن تكون المشاركة والمسؤولية قومية تحسبا لأي خطأ ـ مهما كان طفيفا ـ في المعلومات والتقديرات ، ومع هذا فنحن أيضا مع تمسكنا بتحليلنا واقتراحاتنا ، لا نملك إلا أن نترك هذا الأمر لإعادة التفكير ، ووعد بذلك . .

* وأخيرا قلنا : أننا واثقون من نشوب الحرب ونريد أن نشترك ، وهو يعلم قدراتنا الضئيلة ، ولكننا نعتمد على شجاعة الجندي السوداني ، ولا نرضى أن يفوتنا شرف الاشتراك الفعلي ، فلقد امتزجت دماؤنا بدماء أشقائنا في مصر ، عبر مراحل كثيرة في التاريخ ، ووحدت بيننا رابطة الدم المسفوك في سبيل الحرية . فإن كان هناك قتال فلن

يرضى شعبنا أن نكون بعيدين عنه ، وإن كانت الأخرى ، فإن الجنود السودانيين سيكونون في مصر في بلادهم ، وبين إخوانهم وداخل ديارهم ؛ وكل الذي نطلبه هو طائرات لنقل الجنود وسلاحهم لأننا لا نملكها .

* فقال (وعلى وجهه علامات الرضا والغبطة) : إنه لا يريد أن يشكرنا على ذلك فالإنسان لا يشكر نفسه ، ولكنه في الوقت الحاضر لا يرى حاجة لنقل جنود أو أسلحة ، وإذن . . نحن نترك له الأمر ، ولن نستطيع الرجوع إلا إذا حدد لنا دورنا في مسألة شرحنا له رأينا فيها .

* نظر بعيدا ثم قال : " إن ثقتي فيكم مطلقة ، وأنا واثق أنكم تتكلمون بقلوبكم وأنا أقدر المرارة التي تشعرون بها ، إن لم تشاركونا بدمائكم ، وأنا أحس نفس المرارة ولكن السودان عمق استراتيجي وغذائي لهذه المعركة (إن حدثت) ، وفي الوقت الحاضر أنا أريد أن أستفيد من العمق الغذائي . إن الاتفاقية بيننا تحدد السلع الغذائية التي تصدر لمصر ، وأرى أن تفتح هذه السلع بلا تحديد ، فكلها مطلوبة الآن ومطلوبة أكثر إذا اندلعت الحرب " .

* قلنا : اعتبر الاتفاقية لاغية ، وأن تصدير أي سلعة من السودان ، مفتوح بلا حدود ومن الآن . فشد على أيدينا بقوته وحرارته وبشاشته المعهودة ، وتركناه وأذان جامع (المعمورة) يردد " الله أكبر " ، ويطارد آخر فلول الظلام ، ويستقبل أول تباشير الصباح .

ومع ثقتنا المطلقة فيه ، فلم نكن نريد أن نودعه . . أردنا أن نبقى معه ، وتركناه وفي عيوننا دموع كالحجارة لا تنحبس ولا تنهمر . وفي حلوقنا غصة ، وفي قلوبنا جروح لم تندمل وللآن .

لم نتبادل كلمة ما . . مع بعضنا ، طوال الساعات التي انطلقت فيها الطائرة تشق آفاق الفضاء . . نحو الخرطوم ، وودعنا القاهرة وبودنا أن لو ودعنا صفو الحياة ولم نودعها ، ولم يطل بقاؤنا في الخرطوم .

وفي صباح الخامس من يونيه ، ونحن داخل الجمعية التأسيسية في منتصف معركة

مريرة لاختيار عضو مجلس السيادة ، وكنا نؤيد مرشح الإمام الهادي المغفور له السيد داؤود الخليفة عبد الله التعايشي ، ضد مرشح الصادق المهدي المغفور له الشنقيطي وكانت معركة حامية انتصر فيها السيد داؤود الخليفة . . رحمه الله .

وفي هذه اللحظة اتصلت بنا القاهرة . . وعلمنا أن سلاح الجو الإسرائيلي كان يهاجمها منذ الصباح ، وأذعنا الخبر . . وهرعت جماهير الشعب السوداني إلى الجمعية بعشرات الآلاف ، وفي لحظات ، اختلط هتافها الداوي الدامي ، بصوت المحجوب وهو يعلن اشتراكنا في الحرب .

ولم نكن نعرف تماما حجم الهجوم ، ولا أبعاده وآثاره ، وكانت سبل الاتصال مختلة وواهية ، وذهبنا لمجلس السيادة لشرح الأمر للرئيس الشهيد إسماعيل الأزهري ، ثم لرئاسة مجلس الوزراء التي اكتظت بمئات الآلاف الهادرة ، التي تطالب بالتطوع والسفر والقتال ، واتصلنا بالقاهرة نطالب بطائرات النقل وطائرات مقاتلة لحمايتها ، وجاءنا الرد أن ليس هناك طائرات . وعطلنا كل القطارات في السودان ، وفي الثانية عشرة تماما غادر الجيش السوداني الخرطوم في سلسلة من القطارات . وكنا نريد الطائرات لاختصار الزمن ؛ واتقاء هجوم الطائرات الإسرائيلية على القطارات المكشوفة . ولكن لم يكن باليد حيلة وكان مجلس الوزراء في حالة اجتماع مستمر .

وبدراسة موقفنا تبين عجزنا الشديد في السلاح . لم يكن في الخرطوم إلا مدفعان فقط مضادان للطائرات وضعناهما في المطار . وكان كل الجنود ، ومعهم الأسلحة المتوافرة ، وهي قديمة ، قد سافروا أو في انتظار السفر في المحطة . وفي تمام الساعة الواحدة أخطرتنا القاهرة ، أن عددا من الطائرات في طريقها لنا للحفظ ، واستلمنها في المطار ، ولم أدرك يومها أنها الطائرات الوحيدة التي بقيت في سلاح الجو المصري .

وهبط الطيارون في (قاعدة ناصر) وهم بملابس النوم . . وفي مجلس الدفاع قال لواء معروف بانتمائه المشبوه ، محتجا : " لقد غزا بلادنا الطيران المصري " . . كانت

الشماتة تلوح في وجهه الأغبر . وكانت أعصابي متفجرة ، فقلت له : " أليس فيك ذرة من عروبة ، ولا قطرة من إسلام ، ولا حبة من وطنية ؟ " . . فذهِل وصمت وغطى وجهه بيديه .

وعندما كنا مجتمعين ، أخطرتنا القاهرة أن عددا من قطع سلاح البحرية المصري في طريقها لبورتسودان . ومن ضمنها غواصات ومدمرات ورادارات وزوارق طوربيد .

وصرخ وزير الصحة آنذاك ، وهو معروف بملقه وجبنه وانتمائه المشبوه صرخ ووجهه مثل الرئة المتدرنة : " إنه ميناؤنا الوحيد ، وسيقصفه ويقفله الإسرائيليون ويقتلون أهله " . . وصرخت فيه : " ليت الإسرائيليين يقصفوننا في هذه القاعة ويقتلوننا جميعا ، فباطن الأرض خير من ظاهرها " ، وامتقع وصمت ، وهو يهذي وهو لا يزال يهذي حتى هذه الساعة ، ويحسب كل صيحة عليه ؛ وهو يريد أن يكذب أهله ، فيما يسمى بمجلس الشعب ، يدبج قصائد المديح لسيده النميري . وطالب رئيسه بعدها بعقد جلسة سرية للجمعية التأسيسية ؛ قال فيها عن نكسة العرب ما لم يقله مالك في الخمر ، ولا غولدا مائير في العرب . وهو الآن يتغنى ويتاجر ويفاخر بالوقوف ضد(كامب ديفيد) ، وفي قلبه وكلماته تحقير لا يردده عربي عن شعب مصر . فيا لسخرية القدر ، ويا لقيم البشر .

وفي الرابعة من اليوم نفسه ، اتصل بنا هاتفيا الرئيس جمال عبد الناصر وقال إن الطائرات الأمريكية والإنجليزية ، تشترك في الهجوم على المطارات المصرية ، مع الطائرات الإسرئيلية ، وطلب منا أن نتأكد من ذلك ، من الملك حسين . وبعد محاولات عدة ، عن طريق أجهزة اتصالنا المختلفة ، اتصلنا بالملك حسين ، الذي أخطرنا بأنه حسب المعلومات الواردة له ، فإن هذا صحيح .

وشرح السيد رئيس الوزراء الموقف للمجلس ، واتفقنا على أن الموقف الوطني والقومي ، يقتضي أن نقطع جميع العلاقات مع أمريكا وبريطانيا . والتفت إليَّ السيد رئيس الوزراء قائلا : " مع إصرارنا على هذا القرار ، فإن الواجب يقتضي أن أسألك

بوصفك وزيرا للمالية، ما هو أثر هذا علينا ؟ " . . أجبته وعلى الفور: " من الناحية المالية ، فإن أثره كبير . . فنحن بلد متخلف النمو ؛ ونعتمد على المساعدات والقروض والمعونات الخارجية ، ولكننا قطعنا العلاقات مع ألمانيا ، فقطعت عنا معونات بمئات الملايين ، ولدينا الآن معونات وقروض من أمريكا وإنجلترا أضعاف هذا ؛ وقطعا سنتأثر . . ولكن هذا الموقف لا ينظر إليه من الزاوية المالية ـ مع ضخامتها ـ ولا بد أن نواجهه ونقطع العلاقات مهما كانت النتائج " !

واستدعى السيد رئيس الوزراء سفراء أمريكا وانجلترا ، وأنكروا أي اشتراك لطائراتهم في القتال ، وأخطرهم السيد رئيس الوزراء بقطع العلاقات ، ووجوب رحيلهم في اليوم نفسه ، مع كل موظفي سفاراتهم ورعاياهم ، وغادروا الخرطوم فورا .

وصدر أمر آخر بإغلاق المكتبة الأمريكية ، ولعمال بورتسودان بعدم التعامل مع السفن الأمريكية والإنجليزية ، ولعمال المطارات أيضا بالنسبة للطائرات الأمريكية والإنجليزية ، وقرار آخر بسحب كل أرصدتنا من المصارف الأمريكية والإنجليزية وبإغلاق سفاراتنا في واشنطن ولندن ، واستدعاء سفرائنا . واتخذنا قرارا بشراء الأسلحة من روسيا ، ولأول مرة . واستدعيت السفير الروسي، وكان معي الأخ خليفة عباس (وكيل الخارجية آنذاك) ، وأخطرته وقدمت له قائمة مبدئية ، ووافق على المبدأ . . على أن يأخذ الموافقة النهائية من حكومته ؛ وكانت هذه هي الصفقة التي عاش عليها الجيش السوداني للآن ، دون إضافة أي قطعة سلاح عليها من روسيا أو غيرها .

وكان الأخ/ عبد الماجد أبو حسبو ، وزير الإعلام وقتها متحمسا ومنفعلا وظلت إذاعته ساهرة طوال الأربع والعشرين ساعة ، وكان يذيع بنفسه الأخبار والتعليقات ويذكي الحماس في القلوب ويشعل النار في الأفئدة . وكم كانت تعاسته ومرارته عندما سمع بقرار وقف إطلاق النار ساعة إذاعته ، مع أننا سمعناه مباشرة من مجلس الأمن ، ومن مندوب مصر نفسه . لم يكن أحد منا يدرك مقدار الهزيمة ولا عمقها

وأبعادها ؛ كل الذي اعتقدناه أن الإسرائيليين قد استفادوا من عنصر المباغتة والمفاجأة . وتبين لنا بعد ذلك أن سلاح الجو المصري قد قضي عليه تماما . وأن المطارات العلنية والسرية قد هوجمت كلها . . . والطائرات كلها قد حُطِّمت فجرا .

وكانت معلومات الإسرائيليين دقيقة وتفصيلية ، حتى (الدُّمَى) من الطائرات كانت تترك ، وتضرب الطائرات الحقيقية . واتضح أخيرا أن كل مطار وكل طائرة كانت معروفة لديهم .

وفي مساء اليوم الذي سبق الهجوم ، اتصل السفير الروسي بجمال عبد الناصر وأخطره بأن الإسرائيليين لن يهاجموا . وبذلك توقفت الدوريات الجوية التي كانت تحلق في سماء مصر ، والتي كانت تكلف كثيرا . وألغيت حالة الاستعداد ، وحل محلها الاسترخاء ، للدرجة التي أقام فيها قائد سلاح الطيران ، حفلا لقران ابنته اشترك فيه كل السلاح ، واستمر حتى لحظة الهجوم الذي قضى على طائرات لم يكن بجانبها طيارون . . . كانوا إما في الحفل ، أو مجهدين من السهر الطويل . لم يبق إلا الطائرات القليلة ، وأغلبها طائرات نقل . . التي أتت للخرطوم من أسوان .

وفي اليوم نفسه وقبل الهجوم ، أقلع عبد الحكيم عامر معه رئيس وزراء العراق - آنذاك طاهر يحيى - لتفقد الميدان . وكان جميع القادة العسكريين في انتظارهم . وكانت أماكن قيادتهم شاغرة ، ولم تستطع طائرة عبد الحكيم أن تهبط في مطار ما فقد كانت كل المطارات مشتعلة . ولم يستطع القائد أن يتصل بقيادته ، فقد هبط إسرائيليون بملابس الجيش المصري ، يتكلمون العربية . وأفسدوا كل وسائل الاتصال والمخابرة ، بدعوى إصلاحها ، وحدثت ربكة في الأوامر لفراغ القادة وصدرت أوامر بالاستسلام والتسليم وعدم المقاومة . وتسلم الإسرائيليون بلا قتال ، ما يقرب من ألف دبابة جديدة . وأصبح المشاة بلا غطاء جوي ولا مؤن وتمكن بعضهم من الوصول في حالة يرثى لها ، وتوقف الإسرائيليون أنفسهم عن أسر الجنود ، وشق الجنرال شارون طريقه للقنال ؛ فوصل إليها فيما لا يزيد عن ٢٤ ساعة ، دون أن يواجه بأي مقاومة تذكر . وعندما سمعت ذلك ، تذكرت محاضرة الجنرال

مونتجمري في أكاديمية مصر لكبار العسكريين ، وكان قد حضر لإحياء ذكرى (معركة العلمين) . . تذكرت نقاطه الثلاث التي حددها وهي :

١ - أن المعركة بينكم وبين الإسرائيليين ، هي معركة جوية في المقام الأول والأوحد .

٢ - أن الطائرات الإسرائيلية لن تهاجمكم عبر الصحراء ؛ في سيناء . . بل ستأتي عبر البحر الأبيض المتوسط .

٣- أن طيرانها لن يكون عاليا ، بل سيكون منخفضا يكاد يوازي سطح البحر . ونفذ الإسرائيليون محاضرة مونتجمري ، وكأن أحدا لم يسمعها ، وإن كان قد سمعها فلم يعها ولم يهتم بها .

قيل أن المشير عبد الحكيم عامر كان يرى ، أنه إذا تقدمت الآليات نحو سيناء فيجب أن تبادر مصر بالهجوم . وقيل أن الملابسات والمعلومات السياسية ، لم توافق على وجهة نظره العسكرية ، وليس هناك جزم أكيد بصحة هذه المعلومات . ولكن عندما هبطت طائرة المشير في مطار الماظة العسكري ، كان مهتاجا . . ويبدو أنه قد تبيَّن الموقف ؛ وانتابته حالة من الغضب والانفعال . فأسرع إلى الإذاعة ، وكان يريد أن يذيع بيانا للشعب العربي ، واعترضه الأخ/ محمد فائق ، وزير الإعلام حينذاك . وحدثت مشادة ، واقتيد عبد الحكيم إلى منزله في الجيزة ، حيث بقي فيه إلى أن لقي ربه .

لم تكن المعلومات الحقيقية عما حدث للجيش المصري قد توافرت ، لا في مصر ولا في السودان . وكان المشاة المصريون لم يصلوا إلى المدن ؛ ونهاية سلاح الطيران المصري لم تعلم . ولذلك صدر قرار بسفري إلى القاهرة ، وهناك . . وقبل أن أعلم كامل الحقيقة ، انطلق صوت عبد الناصر شجاعا رابط الجأش صادقا ، وأخطر الشعب المصري والأمة العربية بكل الذي حدث، وتحمَّل في شجاعة تاريخية المسؤولية . . وتنازل عن السلطة . ورشح زكريا محيي الدين وقامت القيامة وتدفق كل سكان القاهرة إلى الشوارع .

وقيل بعدها إن كل هذا . . كان بتخطيط وتنفيذ علي صبري وأجهزته، ومراكز

القوى التابعة له في الاتحاد الاشتراكي . ولكن الذي شاهدته في القاهرة ، لم يكن تدبيرا من جهاز ، بل كان انفعالا صادقا وجماعيا من الشعب ، والكتل البشرية التي سدَّت المنافذ يومها . . لم يكن أحد ما يستطيع تدبيرها وتسييرها والمشاعر التي سادت الناس ، لم يكن بوسع أحد أن يطلقها ؛ ولا زلت مقتنعا أن الشعب المصري لو أنه لم يعلم بكامل الحقيقة وقتها ، لم يرضَ بأن يفقد المعركة والقائد . وكان لسان حاله يقول : إن المعارك مستمرة ، وقد نخسر واحدة ونكسب أخرى . . ولكن فقدان المعركة والقائد أمر لا يقبل .

كان الدخول إلى منزل عبد الناصر مستحيلاً . . فقد كانت الكتل البشرية تسد الطرق والمنافذ في القاهرة ؛ ولكن . . وبمعونة الأخ/ سامي شرف ، استطعت أن أدخل ، وجلست بجانبه بعد أن شددت على يده ، وشد على يدي . . بنفس القوة التي شد بها عليها قبل أيام في الإسكندرية . وتجلدت عندما رأيت على وجهه نفس الشجاعة والهدوء والثبات ، وكان عزائي وأملي أن الشعب المصري لم يهزم ، وأن عبد الناصر لم يهزم ، ولقد رأيت ذلك بنفسي . . والتفتَ إلي وعلى وجهه نفس الابتسامة الودودة ، وقال : " لقد وصل إخواننا السودانيون وهم في مقدمة الصفوف ، آسف لم تكن هناك طائرات لنقلكم ؛ لقد صدقت معلوماتكم " .

قلت : " إن الذي صدق هو حسُّنا ؛ إن معلوماتنا قاصرة " ؛ والتفت إلى الأخ علي صبري والأخ/ سعد زائد ، وقال : " ستتكلم في هذا الأمر كثيرا " . وقلت في عصبية وبلا ديبلوماسية : " لقد كرهت الكلام ؛ دعونا نعمل ، فلا زال هناك وقت للعمل " . ورد ناصر : " صحيح . . " وتداولت مع الرئيس عبد الناصر ، ثم قفلت راجعا إلى الخرطوم .

وكان الملك حسين قد حضر إلى القاهرة ، يقود طائرته بنفسه ، قبل الخامس من حزيران بيوم واحد ، وبعد قطيعة وحملات إعلامية دامت زمنا . وفي ساعات . . عاد الصفاء ، ورجع الملك حسين ومعه الشهيد عبد المنعم رياض . وقاتل جيشه وقاتل هو . . ببسالة نادرة . ولكن الجيش الأردني أصيب بضربة قاضية ؛ ولم تستطع

طائرات (الهنتر) العتيقة ، أن تقاتل طائرات (الميراج) وسقطت الضفة الغربية كلها وسقطت معها (القدس) . واحتل الجيش الإسرائيلي مرتفعات الجولان والقنيطرة وهكذا أخذت الهزيمة عمقها العربي والإسلامي ، وجلل السواد المنطقة العربية كلها وتقيَّحَ الجرح في نفس كل عربي . وكان من إيجابيات الهزيمة ـ إن كان للهزيمة إيجابيات ـ أن أيقظت روح النضال والصمود ، في قلب كل مواطن عربي ، وزالت من النفوس كثير من السخائم ، وتطهرت من الرجس والدنس .

وترأس السيد محمد أحمد محجوب رئيس الوزراء ، وفد السودان لمؤتمر وزراء الخارجية بالكويت ، حيث رأى إخواننا أن يكون رئيسا له . ومع مشغولياتي المتعددة والحالة المالية التي تعانيها بلادنا ، أصر أن أذهب معه لأرأس وفد السودان ، حيث كان هو رئيسا للمؤتمر ، وتقدم وفد السودان لمؤتمر وزراء الخارجية بالاقتراحات الآتية :

١ – قطع العلاقات مع أمريكا وإنجلترا . . سياسيا واقتصاديا وثقافيا .

٢ – سحب جميع الأرصدة العربية ، العامة والخاصة ، من أمريكا وإنجلترا .

٣ – إيقاف ضخ النفط .

٤ – إنشاء صندوق النقد العربي ، وإعلان الدينار عملة عربية مستقلة وعالمية .

٥ – إعلان الوطن العربي كله ساحة للقتال .

٦ – إحياء القيادة العربية العسكرية الموحدة ، وتسليح وتدريب الجيوش والجماهير العربية .

٧ – إنشاء صندوق التنمية العربي .

ومع دفاعنا المستميت عن هذه المقترحات ، فلم نستطع الحصول على إجماع بشأنها ، وسافرنا لمتابعة الأمر في هيئة الأمم ، حيث ستبحث القضية العربية ، وفي طائرة واحدة كويتية سافرت كل الوفود العربية .

وفي اسطنبول ، شهدنا أولى ردود فعل (النكسة) على العالم الخارجي ، وفي دولة إسلامية كنا ننتظر مؤازرتها ، أوقفت طائرتنا ، وأحاط بها الجند المدجَّجون بالسلاح

ولم يعط لنا الإذن بالوقود والإقلاع ، إلا بعد مشاورات دامت ساعات ، قضيناها داخل الطائرة ، وهي تكاد تلتهب من الحرارة .

وفي باريس . . امتنع عمال المطار ، عن خدمة طائرتنا أو إنزال أمتعتنا وكانت الكراهية والشماتة ، تنبعث من كل الوجوه . وحملنا أمتعتنا بأنفسنا وغادرنا صبيحة اليوم التالي لنيويورك ، حيث شهدنا العجب العجاب . واستقبلتنا الهتافات : " أقتل عربيا بدولار " ، وكانت هذه حملة تبرع لإسرائيل .

(. وأحاط بنا رجال الأمن إحاطة السوار بالمعصم ، في المطار وفي الطريق وفي فندق (والدورف أستوريا) الذي أقمنا فيه جميعا .

كانت هذه مشاعر هذا الجزء من العالم ، لأمة فقدت أرضها ، وشرد أهلها وقتل أبناؤها . والتفت إلي المحجوب ـ الشاعر المحب للشعر ـ وهو يترنم بهدوء . . وكان معنا الصديق الدكتور/ عبد المنعم الرفاعي وزير خارجية الأردن آنذاك :

أمرتهم أمري بمنعرج اللِّوى فلم يستبينوا النصح إلا ضحى الغد

وسكَت . . . فجاوبته :

وهل أنا إلاَّ من غَزِية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

وشاركنا ملحمة عكاظ هذه ، الشاعر الملهم الرفاعي فقال :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدَّم . . ومن لا يظلم الناس يظْلَم

ومن لم يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

وقلت في نفسي :

" هل حقيقة أننا أمة من الشعراء ومن يتبعهم فقط ! " .

وإلى الحلقة الثانية ، حيث نتحدث . . . عن مباذل المهازل في هيئة الأمم المتحدة ومسرح العرائس فيها ، وعن تفوقها على عصبة الأمم ، وحيث لا رأي ولا حق ولا عدل ولا أمم ، ولا يحزنون .

الحلقة الثانية
صدور القرار (٢٤٢) .. ومؤتمر المواجهة

ابتدأت الجمعية العامة للأمم المتحدة ، في بحث القضية العربية . . في جو عاصف ومتأزم . . مليء بالتوتر والتكتلات والمؤامرات ولقاءات الكواليس والسفارات . وبدأ وزراء الخارجية اجتماعاتهم المستمرة برئاسة المحجوب ، وهو متمرس في النشاط السياسي ، ممتلئ بالإخلاص المطلق ، والإيمان العميق بالقضية العربية . . ومحل احترام وتقدير الأوساط السياسية في العالم ، خاصة في العالم العربي . . ومنذ اللحظة الأولى بدأ اختلاف وجهات النظر يطفو على سطح الاجتماعات . . التي كانت تعقد في البعثات العربية ، وأغلبها في بعثة الكويت . ولم تكن خلافات أنظمة ، فلقد ذوبت الصدمة هذه الخلافات . . وكانت هذه الصدمة أكبر منها - ولكنها كانت خلافات بين (الصقور) و(الحمائم) وبين المحافظين والأحرار - إذا صح التعبير - وبين "المتعقلين" و"المتطرفين" أمثالنا ؛ وللحق . . فلم تكن تعليقات المتعقلين تنطوي على اتجاه تصفوي أو انهزامي ، ولكنهم كانوا يرون أن تعالج القضية بالوسائل الديبلوماسية وسياسات التوازن .

كان الأخ/ المنجي سليم على رأس هؤلاء ، وهو دبلوماسي عريق ، يرى أن التطرف لا يخدم القضية ، وأن علينا أن نتحلى بالواقعية ، ونقبل الواقع ونطوعه لمصلحتنا بالصبر والنفس الطويل . وللتاريخ . . لم أكن أشك في عروبة الرجل ولكن أعصابي المتوترة نتيجة الصدام والمجابهة ، كانت تأبى أسلوب الديبلوماسية الهادئة في قضية أمة مقهورة ، عليها أن تقاتل وفي كل الميادين ، وبكل الشراسة والضراوة لاسترداد حقوقها . . ولذلك كان الصدام بيني وبينه سمة تسود كل الاجتماعات ، وكنت أهمس للمحجوب خارج الاجتماعات : " إنه ليس المنجي سليم، بل . . المهلك سقيم " .

وأشعر الآن بمرارة هذا الكلام ، ولم أجد وسيلة للاعتذار عنه إلا عند كتابة هذه

المذكرات ؛ رحمه الله . . فقد كان رجلا واسع الاطلاع غزير التجربة ؛ يخدم قضيته بالطريقة التي يؤمن بنجاحها .

وكان المناخ في أمريكا معاديا ؛ والرأي العام معبأ ضد العرب ، بطريقة لا يمكن وصفها ، وكانت مختلف وسائل الإعلام ضدنا ، حتى الشارع . . ورجال الأمن ينامون معنا في أماكننا . وكنا نلزم أماكننا طوال الوقت . . وكنت أذهب بصفة مستمرة لقضاء بعض الأعمال في البنك الدولي وصندوق النقد ؛ وكان الأخ/ بشير محمد سعيد عضوا في الوفد ، واتصل بي وقال إن السفير الأمريكي السابق بالخرطوم يريد مقابلتي ؛ ولم أر ضررا في ذلك . وفي ميعاد حدد مسبقا ، حضر السفير لمنزل القائم بالأعمال في واشنطن . وحضر المقابلة الأخ/ خليفة عباس وكيل الخارجية وعضو الوفد ، كما حضرها القائم بالأعمال . كنت هادئ الأعصاب ، ولكني لاحظت - منذ الوهلة الأولى - أن الرجل كان مهتاجا وعصبيا ومتفجرا ؛ وبدأ حديثه قائلا :

" كيف تجرأون على قطع العلاقات مع دولة عظمى تستطيع أن تلتهمكم في أقل من ثانية ؟ الأفضل لكم أن تعرفوا حجمكم . إن واجبكم إعادة العلاقات فورا ، إذا أردتم استقرارا أو بقاءً في الحكم ! "

ولاحظت أسلوب التهديد ، ولهجة التعالي والتحدي . . والإرهاب . وتمالكت نفسي وقلت :

" لا يمكن أن نعيد العلاقات ، وإذا كانت إسبابنا ليست كافية قبل حضورنا هنا ، فإن الذي رأيناه وسمعناه من شعبكم وحكومتكم وصحافتكم وإعلامكم ، يجعل من المستحيل على أي عربي (له ذرة من كرامة) ، أن يحافظ على أي علاقات معكم دعك من أن يعيدها ؛ وقضيتنا في مثل هذا الوضع " .

قال :

" إنكم سترون ما الذي سيجره عليكم هذا الموقف ، ويومئذ فلن يبكي أحد عليكم "

وعند ذلك انبعث كل الحقد الذي كنت اختزنه ، وقررت أن أؤدب الرجل بيدي

وأؤدب في شخصه المتعجرف سياسات أهله وغطرستهم، ومواقفهم إزاء قضايا الشعوب، فوقفت وقلت له :

" إنك لا تزيد عن أن تكون قاطع طريق ، في أمة من رعاة البقر . إن المستقبل سيعلمكم أن هذا الوجه الأميركي القبيح ، سيجعلكم لعنة العالم . . وإذا كنتم تؤمنون بالقوة العارية وبالتهديد ، فسترون أنها مردودة عليكم . أنكم تقفون دائما مع القضايا الخاطئة ، ومع الظالمين . . وتغترون بقوتكم وقوتهم ؛ ولكن قوى الشعوب أقوى منكم ومنهم . ما الذي ستفعله ؟ أخرج مسدسك كما يفعل رعاة البقر أمثالك واضرب . إن هذا كل الذي تعلمونه وتعملونه " .

وفتحت له الباب وانتظرت بجانبه . . فلم ينبس ببنت شفة ؛ وخرج وهو يتلفت خلفه .

وبدأ الإخوان خليفة عباس ومصباح المكي يهدئان من روعي . وأخبرني الأخ بشير محمد سعيد أخيرا ، أن الرجل لم يكن ديبلوماسيا بالمهنة ، ولكنه كان سياسيا اختير للسودان . ومثل هؤلاء يفقدون مناصبهم إذا قطعت العلاقات مع البلدان التي يعملون فيها كسفراء. وقال لي إن الرجل كان يدافع عن منصبه ، واعتقد أن هذا أفضل أسلوب . وذكَرَت المعارضة في بلادنا هذا اللقاء بالكثير من الكذب والتضليل . ولكن الأخ بشير محمد سعيد رد عليها بالحقائق . وكذلك فعل الأخ خليفة عباس وكيل الخارجية ، والذي حضر كل الاجتماع هو والأخ مصباح . . القائم بالأعمال وقتها .

كان موقفنا في عرض قضيتنا في الأمم المتحدة واضحا وجليا ، ومتمشيا مع مواثيق الهيئة . ولم يكن هناك أمور متشابهات ومداخلات . . هناك دول احتلت أراضيها وهذا يخالف المواثيق الدولية كلها ، ولابد أن تنسحب الدولة المعتدية من هذه الأراضي . ولم يكن هناك ما هو أبسط أو أوضح من هذا . كنا نسعى لقرار الانسحاب الفوري ، وهذا حقنا . . حق واضح وأبلج ؛ وليس فيه لبس أو حوله غموض. وأوضحنا رأينا هذا . . في الخطاب الرئيسي لرئيس الوزراء؛ نيابة عن

العالم العربي ؛ وفي كل خطب وزراء الخارجية العرب ؛ وقد اشتركنا في صياغة خطاب السيد رئيس الوزراء ، وكان معبرًا ومؤثرًا وصادقا ، بحيث استقبلته كل الوفود استقبالا حماسيا انسحب بعده وفد إسرائيل .

ولكن كانت هناك قوى ضخمة ورهيبة وخفية ، ولها قدراتها ووسائلها وأتباعها ومرتزقتها ، وهي تعمل بغير حياء ولا خجل ، وبخرق واضح للميثاق . . بأن تضمّن القرار اعترافا بوجود إسرائيل ، وبقائها واستقلالها وحمايتها وشرعيتها ، واحترام حدودها وإيقاف حالة الحرب معها ، ومنع أي مقاومة لوجودها غير الشرعي ولا القانوني ، وحتى التجارة معها . . وتبادل العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية معها . كانوا يريدون اعترافا من العرب بذلك ، مقابل وعد بالجلاء . . لا يمكن لأحد ضمان تنفيذ إسرائيل له .

كانت هذه المعادلة تعني ، وبكل بساطة ، نهاية القضية الفلسطينية وإلى الأبد : جلاء غير مصحوب بالتنفيذ عن أراض عربية ، واعتراف بشرعية إسرائيل ووجودها وضياع لقضية الشعب الفلسطيني . . معادلة ومساومة لا يمكن أن يقبلها أي عربي ولا علاقة لها بميثاق الأمم المتحدة .

ولذلك وقفنا بصلابة عند موقفنا : الجلاء عن الأراضي العربية كلها ، جلاء غير مشروط ، ومصحوب بالتنفيذ العاجل ، وإزالة كل آثار العدوان . . هذه هي القضية . أما موضوع إسرائيل فلا وجود له هنا . ثلاث دول أعضاء انتُهكت حرمة استقلالها واحتُلت أراضيها ، وهي أعضاء في المنظمة ، ووفق ميثاق المنظمة ، يجب أن يجلو المعتدي عن أراضيها . وكان هذا المنطق ناصعا ، وفي غير حاجة لشرح أو إقناع أو توجيه ، فهو حق أبلج ليس فيه لجاج أو نقاش .

وبدأت مشروعات المساومة والحلول الوسطى ، بإيحاء وإيعاز وسند من القوى الكبرى ، وتقدمت دول أمريكا اللاتينية بمشروعها ، وكان يقضي بالانسحاب الفوري عن الأراضي العربية المحتلة . والنقطة الثانية . . كانت تحتوي على موضوع إسرائيل بطريقة إيحائية وليست واضحة تماما . وعرض المشروع للتصويت ، ووقفنا ضده

وبالأحرى ضد الفقرة الثانية منه . . ووقف ضده الذين كانوا يريدون استغلال النكسة لإكساب الوجود الإسرائيلي الشرعية الدولية ، وسقط المشروع . وللحق والتاريخ كان مشروع الدول اللاتينية أفضل لنا ألف مرة من القرار (٢٤٢) . ومع هذا فقد رفضناه ، وكنا نريد الجلاء عن الأراضي التي احتلت لدول مستقلة ، ولا ذكر إطلاقا لإسرائيل مهما كان مائعا .

ونشطت المؤامرات والمناورات ، وشعرنا باهتزاز مواقف الكثيرين من الذين يقفون معنا ، وشعرنا بضغوط الدول الكبرى ، وبأنه ليس هناك ميثاق ـ وإذا وجد ـ فليس هناك من يقف بجانبه أو يدافع عنه . وبدأ موقفنا يضعف أكثر مما كان ، تحت ضربات القوى الكبرى . وعلا صوت (المتعقلين) بيننا . واهتزت مواقف الآخرين الذين يؤيدوننا . وطال بقاؤنا في نيويورك أكثر من شهر . وفي وسط هذا المناخ المليء بالضعف والانهيار داخل الجمعية ، وبالرأي العام الأميركي ووسائطه المشوشة . . انهار الكثيرون .

وفي مثل هذه الحالة النفسية . . التي صنعها دهاقنة الاستعمار وخبراء قهر الشعوب ، تقدم الإنجليز بمشروع أعده وصاغه الأمريكان ، هو القرار ٢٤٢ . . كان يطلب الانسحاب عن (أراض) عربية احتُلت وليس (الأراضي) التي احتُلت . والفرق واضح : فإن (أل) ـ وكانت مكتوبة بالإنجليزية ـ تعني كل الأراضي ، أما (أراض) كما وردت . . فقد تكون فرسخا أو هكتارا أو حتى شبرا . وكان الشق الآخر منه أكثر بشاعة وشناعة . . فإنه يقرر شرعية الوجود الإسرائيلي ، واحترام استقلاله وحدوده الآمنة ، وإيقاف حالة الحرب معه . . وبالتالي معاملته كوجود شرعي ، يتبادل معه العرب العلاقات الديبلوماسية والاقتصادية والسياسية والسياحية وحرية عبور سفنه ورعاياه . وبالتالي . . أن يقبل العرب به كما يقبلون وجود مصر أو سوريا أو السعودية ، مثلا . وكان الشق الثالث من القرار يتجاهل القضية الفلسطينية كلها ، وشرعيتها الأزلية . . وحقها الطبيعي ، وحتى وجود شعبها . ويصفه أنه مجرد " لاجئين " ، يعاملون بالطريقة التي يعامل بها أي لاجئين . ولم يكن هناك أي محا

إنساني أو سياسي أو عربي أو قومي أو حتى إقليمي ، لقبول مثل هذا القرار . . لقد حرمنا كل شيء - حتى (الأراضي) التي احتلت ، سميت (أراض) لكي يترك للعدو أن يختار ، ما الذي سيجلو عنه . وما الذي سيحتله ، محققا فيه أمله من النيل للفرات .

وفي المرحلة الثانية أضفي على إسرائيل ، صفة الشرعية القانونية العالمية ، وضمن اعتراف العرب بها وعلاقاتهم معها ، وضمن حدودها ، وبذلك كرِّس الاعتداء وجعِلَ شرعيا وقانونيا عالميا . . بموافقة أهله العرب أنفسهم . وفي المرحلة الثالثة إفراغ قضية الشعب الفلسطيني من أي محتوى : وطني أو قومي أو عربي أو سياسي . . أو حتى أنساني . وإضافتها كقضية لاجئين ؛ مثل الآف قضايا اللاجئين التي يعج بها العالم ، والتي تعالجها وكالة الغوث .... .

أيّ إنسان . . أيّ آدمي . . يرضى بهذا ؟ دعك من عربي تجري في عروقه ، ولو قطرة من الدم العربي ، وتسري في شرايينه . . ولو ذرة من الانتماء الإنساني والإسلامي والبشري . كان هذا يعني ذهاب حضارة بأكملها ، وقومية بأسرها ، وأمة بكل رجالها ونسائها وأطفالها . . ولا يزال الحلال فيه بيِّناً والحرام فيه بيِّناً ، ولم تكن بينهما أية متشابهات .

ودار الصراع حول المشروع في اجتماع وزراء الخارجية العرب، وبدا واضحا أن الضغوط والإيحاءات والإملاءات ، قد فعلت سحرها حتى بيننا نحن العرب . كان هناك من ينصحوننا بقبوله على أساس الواقعية وسياسة المراحل ، وشيء خير من لا شيء ، وهذا حال الدنيا . وإن ما أخذ منا بالقوة ، لا يمكن استرداده إلا بالخنوع والخضوع لمثل هذه القرارات ، فهذه إرادة العالم والقوى الأكبر والأعظم .

اشتدت حدة النقاش وتبودلت فيه الألفاظ القاسية . قلنا إن هذا باطل . . وأننا لا يمكن أن يُهزَم حقنا - مهما كان ضعفنا - بباطل الآخرين ؛ وأن هذه قضية أمة وحضارة وقومية ؛ وأن هذه القضايا لا تحل بالحلول الوسطى والمساومات والخوف ؛ بل إنها تحل بالمواقف المبدئية ، والتمسك بالأهداف مهما صعب تحقيقها ، وطالت مسيرتها . نحن لا يمكن - وبطوعنا واختيارنا - أن نحقق شرعية ما لا شرعية له ؛ ولا يمكن أن

نتنازل عن قضية أمتنا الحضارية والقومية بمحض اختيارنا ، ولمجرد أن الأعداء أقوى منا ، وأن صيحاتهم تدوي حولنا . فلنسجل موقف الرفض المبدئي ـ ولنرى بعد ذلك كيف نحول الرفض إلى صمود ، وكيف نرتفع بالصمود إلى انتصار . . وليس ذلك على الله ، ولا على الشعب العربي . . بعزيز . والتاريخ مليء بحالات الانكسار لشعوب أصيلة ؛ رفضت أن تعلن حقها باطلا ، مهما كان ضعفها ؛ وسارت في ركبها البطولي نحو أهدافها الخيِّرة ؛ فبلغتها حتى بعد أجيال وأجيال .

قيل لنا في لهجة التحقير : ما هي قوتكم أنتم الذاتية ؟ وما هي هذه المزايدة التي تريدون أن تورطوا بها الآخرين . . وأنتم خلو من أي قوة ؟ قلنا : إننا أقوياء بحقنا وليس بقوتنا ، وإن حقنا سيخلق من ضعفنا قوة ، وهذه قضية أجيال . . وهي ليست مرتبطة بقوة حالية أو ضعف آني ، أنها مرتبطة بكونها حقا أم باطلا . إن الحق لا يصير باطلا . إذا لم تسانده القوة ؛ وأن الباطل لا يصير حقا . . إذا آزرته كل قوى العالم .

ما الذي سنفقده إذا وقفنا ضد هذا القرار ؛ ونحن الفاقدون لكل شيء : الأرض والعِرض وشعب بأكمله مشرَّد . . يلد ويترعرع ويموت في خيام اللاجئين ؟ لماذا نسجل قبول هذا . . أمام العالم أجمع ؟ ليس هناك كلمة واحدة في هذا القرار يمكن أن يوافق عليها أي عربي . وليس فيه أي مكسب . . بل خسارة وعار وبيع لقضية قومية ، وضياع لكل الأجيال القادمة من أمتنا ، وحرمانها حتى من حقها الشرعي في الحياة والنضال والبقاء .

وانكفأ الصراع داخلنا . . تحركه الأصابع الدفينة المتمرسة ، في تلعيب مسارح العرائس . واختلفنا ـ ومن وقتها ـ وللآن . وجرى التصويت على القرار ٢٤٢ فوقفنا ضده ؛ ووقف معه كثير من الوفود العربية .

وسقطت التصنيفات القديمة ؛ فوقف ضده . . حتى الذين كانوا يوصمون وقتها بالرجعية ، والوقوف مع الاستعمار . ولم نتبيَّن قوة أصابع مسرح العرائس الناعمة إلاَّ عندما دوَّى صوت السيد/ بابكر عوض الله يوافق ، وفي أول بيان ، على القرار ٢٤٢ عند إعلانه انقلاب ٢٥ مايو الأسود . ويومها أدركنا ـ فوق إدراكنا ـ أنه ليست

هناك أمم، وهي ليست متحدة . . وليس هناك حق عالمي ولا سِلم عالمي ، ولا عدل عالمي . وأن على كل مقهور مظلوم ، أن يقاتل حتى يتغير واقعه ؛ ويبتعد عن الاعتماد على منطق المواثيق ومبادئ الحق والعدالة في العالم . . وأحاجيها وأساطيرها . فقد عشناها ولمسناها . . واكتوينا بشرها ونارها .

وللحقيقة وللتاريخ . . فقد كانت مشروعات القرارات التي سبقت القرار ٢٤٢ أحسن منه وأقوى . هذا إذا كان الأمر . . أمر ديبلوماسية ومقارنة بين الحلول الوسطى ومضاهاة بين خيارات المساومة . ولكن القضايا المصيرية - قضايا الشعوب - وقضايا الحضارة - وقضايا القومية - وحتى قضايا الإنسانية - ليست معرضا للمساومات والتفضيل بين الطرق المختلفة : للاستسلام والهزيمة وبيع قضايا الأمم .

هكذا كان موقفنا العسكري غداة النكسة ، وهكذا كان موقفنا في المسرح الدولي يوم إقرار القرار ٢٤٢ . . فما الذي بقي؟ إنه كفاح الشعب العربي الطويل الدؤوب اليومي ، المليء بالدم والدموع ، إنها مسيرته المليئة بالتضحيات والبطولات ، المفعَمة بدماء الشهداء ؛ المطرَّزة بقبور الشهداء ، والمعطَّرة بفوح الدماء . .

فلنر كيف تضيع الأمة العربية هنا . انفض السامر في نيويورك بعد شهرين من الضنى والسهر - وفي القلوب ما فيها . ووصلتنا برقية عاجلة . . تطلب من وفد السودان الحضور العاجل لمؤتمر دول المواجهة الذي يعقد في القاهرة ، ولكي نشرح موقف القضية في المحافل الدولية . وكان السودان وقتها ، من دول المواجهة ، مع مصر والعراق والجزائر والأردن . وكان الرئيس الشهيد إسماعيل الأزهري قد سبقنا للقاهرة . فهرعنا إلى هناك بعد أن أعددنا تقريرنا وعلى رأسنا المحجوب ، وفي قلبه كل الألم . . وفي عيونه الحسرة ، وبين جنباته عزم وتصميم . وفي قصر البعثة - قصر (الطاهرة) بمصر الجديدة - كان ينتظر الرؤساء . وكان يقبع (مالك) المندوب السوفيتي يحمل بين إبطيه المشروع الروسي للصلح . وهناك كان يرابط عبد الناصر . . بين جوانحه الأسى ، وفي قسماته الإصرار . وكان هناك بو مدين ومعه المليون شهيد على وجهه صرامة المجاهد، الذي لم تترك الملاحم له ابتسامة تلمع . . أو سِنّاً

تضحك . وكان هناك الملك حسين . . وهو لا يزال ينفض عن كسائه ، غبار معركة قاسية ضارية ، خاضها بكل الإخلاص والجسارة، وخسر فيها كل شيء . وكان هناك الأزهري مليئا بالإيمان . . واثقا بالعروبة ، متسلحا بالإسلام ، لا تنفذ الأحداث مهما كانت جساما - إلى هدوئه وقوة أعصابه .

لم يكن في تقريرنا أي لبس . . بأنه لا جدوى ولا مستقبل للقضية في هيئة الأمم المتحدة أو مجلس الأمن . وأنه ليس هناك حلفاء أو أصدقاء للقضية العربية ، إلا العرب أنفسهم ، وأيَّ اعتماد على أيِّ قرار يصدر من هذه الجهات ، لن يكون في مصلحة العرب - وحتى إذا كان - فسيظل قرارا ورقيًا . . لا أمل إطلاقا في تنفيذه في الميدان . وحتى لو كان للعرب أصدقاء ، ولو كان للحق والعدل أصدقاء ، فإنهم بطريقة أو أخرى . . يخضعون أو يتأثرون ، أو يتبعون لوسائل القوى الكبرى التي تسير العالم - ليس بحق الفيتو الظالم فقط - بل بكل ثقلها . . ووزنها وتأثيرها على الدول الأعضاء . وأنه ليس هناك حق أو عدل مجردان ؛ بل هناك تلوين وتنويع وتصميم وتطويع للحق والعدل ، حتى يخضعَ لمصالح الدول الكبرى . . وتوزيع مناطق النفوذ بينها . وأن هيئة الأمم . . ليست إلا ساحة جدالية ونقاشية ، يتبارى فيها الخطباء ، وتطلق فيها الشعارات . وإذا قدر لنا أن نفرض قضيتنا هناك ، فليس هناك نتائج ملموسة أو أهداف محققة ، أو عدل يفرض أو ظلم يرفض . . إنما هي مجرد استعراض كلامي وإعلامي وذرائعي ، نشترك فيه كما يشترك الطلبة في جمعية أدبية . . أو الشعراء في أيِّ (عكاظ) .

إن هناك من يقاتل معنا بالنوايا ، ومن يعارك معنا بالقلوب ، ومن يناضل معنا باللسان . . وعلينا أن نكتفي بأضعف الإيمان هذا . إن كل هؤلاء يتعاطفون معنا ويعطفون علينا ، ويعلمون أننا على حق . ولكن كل هؤلاء يقولون لنا بعيونهم - لا بألسنتهم - أن الحقوق تؤخذ ولا تعطى ، وما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة . إن كل هؤلاء يكادون يصرخون أمامنا : إن حقكم لا يمكن أن ينتصر هنا في قاعة المحاضرات الكبيرة هذه ، ولا بالخطب البليغة المؤثرة هذه ، بل هو يكسب هناك في نفس الميادين

التي ضاع فيها ، في ساحات القتال وعبر النضال . . الدامي والدامع والطويل والمرير مرورا على أجساد الثكلى والجرحى واليتامى والأرامل . . وأن ثمنه هو الأرواح والدماء تسفك بلا حساب ، والنضال يحصد الرقاب تتلوها الرقاب .

إن العالم يحترم القوة ويخضع لها ، ويتظاهر بالعطف على العدل ، ولا يقاتل أو يقتل من أجله . . فهو لا يحترم الاستجداء ولكنه يخضع للاستيلاء والاستعلاء وإن لم يكن يعلن جهرا خضوعه للقوة ، فهو يخافها ويهابها ويتجنبها - إن لم يكن يحترمها . فالحق يؤخذ امتدادا من فوهة المدفع ، ولا يعطى بلاغة من فوهة المذياع .

لم تكن هذه الحقائق المجردة العارية جديدة علينا ، ولكننا عايشناها وجربناها فزادت مناعتنا ضدها ، وكانت مسؤوليتنا كبيرة . فإن الذين يجتمعون في القاهرة يريدون أن يعلموا ما الذي ستساندهم به المحافل الدولية ؟ وإلى أي مدى يعتمدون عليها في استرداد حقوقهم ؟ وكان جوابنا واضحا : لا شيء ! وكان في تقريرنا أجزاء خاصة بموقف القوى الكبرى ، واتجاهاتها ، خاصة أمريكا وروسيا ، وما هو موقف كل من : منظومة الدول الاشتراكية ، والدول الإسلامية والدول الأفريقية ، وما هو موقف العالم الثالث . . وموقف دول عدم الانحياز . وكان تقريرنا واضحا ومفصلا ودقيقا . وكان أوضح وأشد تفصيلا في موقف الدول العربية نفسها ، يحمل كل مرارة الحقيقة ومذاقها العلقم . وفي ختام التقرير . . كانت توصياتنا واقتراحاتنا واضحة وصريحة ، لا تحمل إلا تفسيرا واحدا . . لا تعقيد فيه ولا ألغاز .

وكنا على استعداد للدفاع عن تقريرنا بكل الحزم والمكاشفة ؛ وأن نقف بجانب توصياتنا بكل العزم والمجابهة ، ونرد بشجاعة على كل تساؤل أو استفسار أو غموض . وكنا نعرف أقدار الرجال الذين سنواجههم . . ونعلم أيضا خطورة القرار الذي سيتخذونه بعد مداولاتهم ونقاشهم ؛ وأنه على نتيجة هذا القرار يتوقف ويحدد مصير الأمة العربية .

كان اجتماع دول المواجهة مغلقا - يحضره رئيس كل وفد واثنين من زملائه فقط - وفي هذا الاجتماع المحدود ، المطلق السرية ، دار نقاش مثير وساخن . واصطرعت

أفكار . . وتضاربت آراء . وحددت مواقف . . واتخذت قرارات ، أشفعَت بالتنفيذ العاجل : ابتداء من رحلة موسكو الشهيرة - إلى المظلة الجوية ؛ ولا أعتقد أن كثيرا منها قد تسرب خارج القاعة حتى الآن . . فإلى هناك .

الحلقة الثالثة
مواجهة الأصدقاء..ومجابهة الأعداء

لم يصدر القرار ٢٤٢ في دورة الانعقاد هذه ، ولكننا حضرنا وعملنا باستعداد له وكان موقفنا إزاءه واضحاً . وكنا نعلم بالإعداد له ، وحتى بصياغته قبل أن نغادر نيويورك . فالقرارات التي عرضت ، كانت قرارات المنظومة الاشتراكية ، ومشروع قرار دول عدم الانحياز ـ ولم يكتب له مناخ أو عرض . .
كان (تيتو) يحاول في كل العواصم العالمية . . خلق مناخ له ـ ومشروع قرار الدول اللاتينية . وكنا نعلم أن مشاريع القرارات ستمضي . . حتى تصل المشروع الإنجليزي ـ الأمريكي . . ولذلك كنا على علم بالموقف كله في هئية الأمم المتحدة ، وفي مجلس الأمن .

وقد صدر القرار ٢٤٢ بعد انعقاد مؤتمر القمة في الخرطوم . من هنا كان رفضنا له واجباً قومياً وعربياً ، خصوصاً بعد قرارات مؤتمر القمة . وقد حاول تغيير رأينا أولئك الذين نقف معهم ، والذين يعز علينا أن نختلف معهم في أي قرار ، وحضر الأخ حسن صبري الخولي في محاولة لإقناعنا بقرار ٢٤٢ . ولم يكن هناك من سبيل ، فقد كان اقتناعنا واضحاً وملتزماً بالموقف القومي ، وبقرارات مؤتمر الخرطوم . . واختلفنا عند ذلك .

لم يكن الأمر يخص بلادنا أو نظامنا ، بل إن الأمر قومي والتزام عربي ، حدث في بلادنا . . والتزام منا . وكنا نتمزق من مجرد تصور الخلاف ، ولكنها قضية قومية ومصيرية ، والتزامنا جلي وواضح . ولذلك تمسّكنا بالرفض . . رغم شعورنا بخطورة الخلاف ، وبعواقبه وانعكاساته وردود فعله ، التي كان من بينها المغامرة بنظامنا .

لم نكن نجهل ذلك إطلاقاً . لكن كان الالتزام بالموقف القومي . . أكبر منا ومن نظامنا ، وحتى مستقبل الديموقراطية في بلادنا . وعندما ذهبنا إلى القاهرة لحضور

(مؤتمر دول المواجهة) ، كنا نعلم أن الاتحاد السوفيتي يريد أيَّ قرار من هيئة الأمم ودَ يعمل له ، ويخشى الهزيمة السياسية بعد الهزيمة العسكرية . كان يوافق - كما هي سياسته دائماً - على بقاء إسرائيل ، وعلى أمنها وحدودها . وكان يخشى أيضاً أن تنفض الهيئة في دورة انعقادها هذه بلا قرار . وكان منطقه : اقبلوا ببقاء إسرائيل حتى تتمكنوا من إعادة إستعدادكم العسكري ، وكان يقدِّر له مدة سنتين أو أكثر . وكان منطقه أن الأرض لا تهم ، إنما المهم هو الأنظمة التقدمية . ويضرب الأمثال بتخلي لينين عن (أوكرانيا) كلها ، وكان (غروميكو) في نيويورك يسعى لكل ذلك ويستعجله ويضغط من أجله ، و(مالك) في القاهرة يعمل من أجل الهدف نفسه .

ولم يكن هناك من سبيل . . فالاتحاد السوفيتي يخشى من عدم المرونة مع الاستعمار ، ويحذر من عواقبها . وقد تكون هذه خطة ، وقد يكون هذا منطقاً ، وقد يكونَ " تكتيكاً " أو مرونة مرحلية . ولكنه كان من الناحيتين المبدئية والقومية ، غير مقبول ؛ وكنا نعلم ذلك ونصر عليه . . . كان (بودقورني) قد حضر إلى القاهرة على رأس وفد سياسي وعسكري في ١٣/ ٦/ ١٩٦٧ م ، ودار نقاش بينه وبين عبد الناصر كانت الهزيمة لا تزال خضراء ، ولذلك لم يستطع (بودقورني) أن يعرض كل ما في سلَّته من اقتراحات ، وكان عبد الناصر يرى أن مصر - والعالم العربي - يجب أن يتركا سياسة عدم الانحياز السلبية ، وينحازا كلياً للمعسكر الشرقي ، حتى يكون من دول حلف وارسو . وبذلك يواجه أبجديات وقوة الإمبريالية العالمية .

والغريب أن (بودقورني) كان هو المتردِّد . . والذي يخشى عواقب هذه السياسة ويعتقد أنها قد تأتي بحرب عالمية أو مواجهة نووية . ولذلك كان ينصح بالتمهل فيها وإعادة النظر في كل عواقبها . . وحتى استشارة (تيتو) صديقه اللدود فيها . كان حذر السوفيت وخشيتهم أكثر مما كنا نتوقع ، وربما كان لهم عذرهم . فقد كانت الهزيمة ساحقة وشاملة . . وكانوا يريدون الحل السياسي ، إما حقيقة . . وإما لكسب الزمن وكانت لهم أسبابهم : فربما لم يتوقعوا هزيمة عسكرية في مثل هذا الحجم ، وكانوا يخشون هزيمة سياسية أكبر منها . وكانوا يعتقدون أن الإسرائيليين قد يهاجمون وهم

على بعد لا يزيد عن مائة كيلومتر . . من كل من القاهرة ودمشق وعمّان . ولذلك كانوا ينصحون بالمرونة وبالحل السياسي ، ويخافون أن تنفض دورة انعقاد الأمم المتحدة بلا قرار - أيّ قرار سياسي - حتى لو كان فيه تنازل ؛ وإلاّ فقد تصبح كل الاحتمالات للمجهول ، ومن بينها المواجهة العالمية ولم يكونوا يريدونها .

وفي هذا المناخ . . انعقد مؤتمر دول المواجهة ، كانت سوريا هناك ، وكان الرئيس الأتاسي يمثلها ، وفي أول اجتماع شرحنا الموقف في المحافل الدولية . . ومجلس الأمن . وبدا واضحاً أنه لا يخدم القضية . وكان الاقتناع بذلك جلياً . وتكلم ناصر بصدق ووضوح وصراحة ، وكان همه الأول كما قال لنا :

" أرجو أن تساعدوا أن يحل مالك عنا " . . وكلف المحجوب وشخصي الضعيف بذلك . وذهبنا لزيارة مالك في قصر الطاهرة، وتكلم - صورة متكاملة من غروميكو : " لابد من موافقتكم على قرار سياسي قبل انتهاء فترة الانعقاد . "

ولكننا تمكنا من شرح موقفنا له ، وهو موقف القادة المجتمعين . ربما لم يقتنع - وأظنه لم يقتنع - ولكنه على أي حال ، وحسب تعبير ناصر ، سافر " وحلّ " منا ومنه . وعدنا للاجتماع . قال ناصر إنه ليس بين القاهرة والعدو غير مائة كيلومتر ، وربما بضعة أسلحة صغيرة وقال إن مالك يعرض الصلح ، ولم أسمع الكلمة إلا وانفجرت وقلت له :

" كيف يتم الصلح هذا ؟ إن أي أحد منا لا يستطيع أن يواجه به أسرته ، حتى زوجته وأبناءه . دعك من أن يواجه به شعبه ، والأمة كلها " !

نظر إليّ ناصر في ألم وهدوء . . وقال بالحرف الواحد ، وأنا هنا أردّد نفس الكلمات فقد علقت بذهني ؛ ولا تزال ترنّ في أذنيّ :

" إنك على حق . . إن ابني خالد الصغير يسألني كلما أدخل المنزل ، إلى متى سيبقى الإسرائيليون في ديارنا ؟ ولا أستطيع له جوابا ، وفي بعض الأوقات . . يخيَّل إلى أن أذهب وأقود القليل من الجنود ، بالقليل من الأسلحة ، وأحارب حتى أموت وصمت . . وصمتنا جميعا ؛ احتراما لحزن الرجل العظيم وانفعاله . . الذي قل

ما يظهره . وشعرت أن حديثي لم يكن ديبلوماسيا ، ولكن كيف تسعفني الديبلوماسية في مثل هذا الموقف .

وبعد مداولات اشترك فيها الجميع ، تقرر : أن الأسبقية الأولى ، هي إعطاء السلاح لمصر وسوريا . وأننا لابد أن نتبيَّن موقف الاتحاد السوفيتي هنا ، فقد كان هو المصدر الأول والوحيد . وأردف ناصر : " إن القاهرة مكشوفة ، ولابد من غطاء جوي ، وليس هناك طيارون ولا طائرات . لقد أرسل الروس بضع طائرات قليلة ومستعملة . وهناك طيار واحد فقط لكل ٣ طائرات ؛ ولذلك لابد من المظلة الجوية لكي تحرس القاهرة بطياراتها وطياريها . وقد شرحت هذا لبودقورني عند زيارته ولكنني لم أجد ردا واضحا . كان يخشى - فيما أعتقد - وجود الطيارين الروس هنا ويخشى تدخلا من الأمريكان عند ذلك ، ولكنه لم يصرح . . ولابد أن نعرف موقفهم في هذا " .

اتفق الجميع . . أنه لابد من معرفة موقف الروس، من إمدادات وتعويضات السلاح، ومن المظلة الجوية، وبدون هذا . . فلا يمكن للمؤتمر أن يحدد سياسة، أو يقرر مسارا . واقترِح السفر إلى موسكو ومناقشتهم ؛ ومعرفة نتائج ذلك قبل انفضاض المؤتمر . ودار نقاش طويل . اتفق بعد الاجتماع . . على ضرورة سفر رئيسين لموسكو ، وأن يظل الاجتماع منعقدا حتى رجوعهم ومعرفة نتائج الرحلة . وتم الإجماع على سفر الرئيسين : بو مدين و عبد الرحمن عارف ، وأن يصحبهم بعض الوزراء .

وهنا حدثت نادرة بددت جو الجدية الذي يسود الاجتماع . قال الرئيس عارف بعذوبته المعروفة :

" ولكني لم أحضر معي جواز سفري "

وقلت بنفس الجفاف وعدم الديبلوماسية :

" ومن الذي يسأل رئيس دولة عن جواز سفره ؟ وأي مسؤول جوازات سيعترضه وضحك الجميع .

حدث اتصال عاجل بموسكو ، وجهزت طائرة الرئيس بو مدين ، وغادرت من قاعدة جوية إلى قاعدة عسكرية في موسكو ، أو الأصح بالقرب منها . كانت رحلة طويلة وشاقة ومضنية ، وكان الجو داخل الطائرة يسوده الصمت والانقباض ، وكنت سمَّرت نظري على بو مدين ، ولا أذكر أنه حوَّل عينه من أمامه ، لم يلتفت ولم يتحرك . . ولم تظهر على وجهه خلجة تدل على شيء . . طوال الخمس ساعات . كنت أتصور في سلوكه كل الموقف العربي : مأساته ، هزيمته ، حزنه ، وإصراره على الثبات والمقاومة ، والنضال .

استمرت المفاوضات أربع عشرة ساعة . . على مرحلتين ، وتميزت بالصراحة والمواجهة ؛ وتخللتها الألفاظ القاسية ، وفورات الغضب والانفعال ، وبدا أن هناك خلافا أساسيا في التخطيط لمواجهة الموقف ، والسياسات التي يجب أن تتَّبَع . وكان الخلاف جليا ، والتكتيك مختلفا ، وربما الإستراتيجية نفسها .

كان بريجنيف يرأس الجانب الروسي ومعه كوسجين وآخرون ، من بينهم المسئول عن الشئون العربية في مجلس السوفيت الأعلى . قالوا إنهم إلى الآن . . وبعد النكسة ، قد أرسلوا ما يقارب نصف المليون طن من الأسلحة ، تحملها حوالي خمسمائة طائرة و١٥ سفينة ، وقيمتها ٢٥٠مليون دولار . . وهم على استعداد لإرسال المزيد وفق تقديرات خبرائهم وقالوا إنهم في الماضي ، كانوا يرسلون كل ما يطلب عبد الحكيم عامر دون سؤال ، ولكنهم الآن . . اكتشفوا النقص الفاحش في التدريب ، وفي عدد الطيارين ؛ ، أن نسبة المجندين في إسرائيل حوالي ١٥ ٪ وأنها في الجيش المصري والسوري لا تتجاوز ٢ . . وربما أقل ؛ وأن عدد ساعات الطيران للطيار الحربي ، لا تزيد عن . . مما يجب أن تكون عليه ؛ وأن ساعات طاقم الدبابات لا تزيد عن ساعتين إلى ست ساعات ، وأن حوالي أربعة آلاف قطعة سلاح ، قد تركت وتسلمها العدو ، وأن عدد القتلى في جبهة واحدة لا يتجاوز العشرين قتيلا وفي الجبهة الأخرى لا يتعدى المئتين . . بل يقل . وأن سلاحهم قد ترك لخصومهم وأنه يستعرض الآن لدى خبراء (حلف الناتو) ؛ وأن الإسرائيليين يثنون على نوعية

سلاحهم . . إمعانا في أغاظتهم .

وقالوا إن الإسرائيليين يستطيعون الآن ، احتلال القاهرة ودمشق وعمَّان ، في أقل من ساعتين . . وربما دون قتال يذكر ؛ وأن العرب يحتاجون ـ على الأقل ـ إلى عامين من التدريب المستمر والجاد ، حتى يستطيعوا مجرد الدفاع ، ولا أكثر من هذا . . للهجوم . وأنهم يحتاجون الآن لمدارس التدريب أكثر من حاجتهم للسلاح ، وليسوا مستعدين لتقديم سلاح ... " للتخزين " . ومن المستحيل عليهم الموافقة على المظلة الجوية وإرسال الطيارين ، فهذا الإجراء سيشجع أمريكا على التدخل ، وهي الآن تنتظر أي ذريعة لذلك . ولكنهم مستعدون لبحث مسائل زيادة الطائرات . . وزيادة خبراء الصيانة والتدريب . ويعتقدون أنه لا بد من حل سياسي ، ولا بد من قرار قبل انفضاض دورة الأمم المتحدة الحالية ، وأن غروميكو على الهاتف باستمرار . . ينبِّه لضيق الوقت ، ويؤكد على ضرورة الموافقة على قرار ، ولا يؤمنون بجدوى النضال المسلح الآن . ولا يرون ضيرا أو حرجاً من الموافقة على الاعتراف بإسرائيل . وكرروا (مَثَل لينين وأوكرانيا) ، وأكدوا أن المهم الآن هو : الحفاظ على الأنظمة التقدمية في المنطقة ، ومحاربة الرجعية والمحافظة على الوحدة العربية ، وأن التسامح في مسألة الأرض ضرورة ، والمرونة مع الاستعمار واجبة ، حتى يكسب العرب الوقت الذي يستطيعون فيه استعادة فعاليتهم القتالية .

تكلموا عن مؤتمر بودابست ، وأن هذا هو رأي كل دول المنظومة الاشتراكية ، وأن كل هذه الدول مستعدة للمساهمة في التسليح . . تكلموا عن أضرار التطرف ، وبدا واضحا أنهم يقصدون في المرتبة الأولى بو مدين ، وكان هذا جزءا من بيان بودابست .

قالوا إن بعض زعماء العرب يصغون لمشورات الصين الخرافية ، مثل الحرب الشعبية حتى لو احتلت العواصم والمدن الكبرى ، وعن ضرورة استمرار القتال . وقالوا إن هذه مزايدة . . وضرب من الجنون . وركزوا على ضرورة " الحل السلمي وضرورة " الموافقة على قرار من هيئة الأمم " ، بما فيه الاعتراف بوجود إسرائيل . وأن

هذه نصيحة من أصدقاء " يريدون انتصار العرب " . . وأنهم يريدون أن يعرفوا هل حضر الرؤساء من قبل إخوانهم المجتمعين في القاهرة للتشاور ، أم لإبلاغهم بقرار سبق واتخذ ؟

أجاب بو مدين . . وفي عيونه شرر وفي حلقه غصة ، وقال إن الاعتراف بإسرائيل مستحيل ، وسيؤدي إلى سقوط نفس الأنظمة التقدمية التي يحرصون على بقائها والموافقة على قرار مثل هذا . . يعني انتهاء القضية العربية وضياع فلسطين . وهي أمور لا يمكن الموافقة عليها مهما كان الثمن ، وقال : إنه لو كان قد سمع بمقررات بودابست والبيان . . لما حضر ، وأن استمرار النضال المسلح ضرورة ؛ وإلا كرست الهزيمة وأصبحت واقعا ، وتدنت الروح المعنوية لدى كل العرب . وقال إن الإخوة في كل من مصر وسوريا ، يحتاجون للمزيد من الأسلحة المتطورة والحديثة خصوصا الطائرات المقاتلة والقاذفة، وإني واثق أن مستوى التدريب سيرتفع لدى كل الجيوش العربية . . وإن الحكم على شجاعة العرب وروحهم القتالية، لا يمكن الجزم بهما في نكسة تمت . . نتيجة مفاجأة للقوة الضاربة العربية ، وإهمال بعض القادة العسكريين .

وقال إن الروس أنفسهم . . قد أصيبوا بهزائم مريعة في مطلع هجوم هتلر عليهم ولكنهم استعادوا زمام المبادرة ولم يستسلموا . وناضلوا ودفعوا ثمنا غاليا وانتصروا أخيرا . . رغم النكسات والهزائم الأولى ، وأن ما حدث في الخامس من يونيو تكرر كثيرا في التاريخ ، فهو ليس بدعا ، وسيكون المؤسف . . هو الرضا به والخضوع والاستسلام . وقال أنه يقدر موقف الاتحاد السوفيتي والدول الاشتراكية ويشكر نيابة عن إخوانه . . المعونات التي قدمت والتي ستقدم ، وأنهم أتوا للتشاور وأن إخوانهم ينتظرون نتيجة مشاوراتهم لاتخاذ قرار ، وهذا وحده يدل على قوة الروابط التي تشدهم بالاتحاد السوفيتي ، وبقية الدول الاشتراكية . وأضاف : " إن الحرب الشعبية واستمرار النضال المسلح ، هما الطريق السليم لكل الشعوب التي اغتصبت أراضيها وسلبت حقوقها ، وليس اقتراح الصين وحدها . وأكد . . أن عدم الاهتمام بفقدان

الأرض ، والاعتراف بإسرائيل ، والحل السلمي ، والمحافظة على الأنظمة التقدمية ومحاربة الرجعية ، والوحدة العربية . . كلها اقتراحات متناقضة وغامضة " . وتكلم الرئيس عارف وأثنى على كل هذا ، مؤكدا الصداقة والتضامن بين الأمة العربية والاتحاد السوفيتي . . وبقية الدول الاشتراكية .

تناوب الكلام في كلتا الجلستين بريجنيف وكوسيجين ، الذي كان يتدخل كلما احتدم النقاش ، وعلت الأصوات وتعددت الخلافات ، وانتهت الاجتماعات ، ولم تكن هناك قرارات . . ولم يحدث اتفاق . كل ما في الأمر ، أن كل طرف قد أيقن تماما من وجهة نظر الطرف الآخر . وفي نفس الجو الخانق المتوتر - بل ربما أكثر - سارعت الطائرة بالإقلاع راجعة إلى القاهرة . وكان كل الرؤساء هناك . . ماعدا الرئيس الأتاسي الذي غادر مخلفا وراءه السيد عبد الكريم الجندي ، ولخص بو مدين وعارف نتائج الرحلة في الآتي :

١ - إن الاتحاد السوفيتي ومنظومة الدول الاشتراكية ، يصرون على ضرورة الموافقة على قرار ، يصدر من الجمعية العمومية ومجلس الأمن عاجلا . . وقبل انقضاء الدورة .

٢ - أنهم يرون أن الاعتراف بإسرائيل لا ضير منه ، وأنه لا يشكِّل خطرا . . وكذلك يصرون على وجوب الموافقة على الحل السلمي .

٣ - أنهم يخشون أن تهاجِم إسرائيل ، ويرون أنها ستنتصر ، وأنه ليس للعرب أيّ قوة دفاعية تقف دونها . . في كل الميادين .

٤ - أنهم مستعدون للاستمرار في إرسال الأسلحة ، ولكنهم يشكّون في قدرة الجيوش العربية على التدريب الكافي والمتكافئ؛ وبالتالي . . فإن الأسلحة التي سترسل . . . "ستخزن" ، وهم ليسوا مستعدين لذلك . وربما " تسلم " . . وهم لن يرضوا بذلك .

٥ - أنه إذا حدث مجهود حقيقي ، في بعث وإحياء القدرات الضرورية للجيوش العربية ، فإن هذا - وعلى الأقل - سيستغرق " سنتين " . . لإقامة دفاع حقيقي

ولابد من كسب هذا الوقت بالحلول السلمية والسياسية ، حتى إذا أدى هذا لفقدان بعض الأرض ، والقبول بوجود إسرائيل .

٦ - أن مظلة جوية قوامها الطيارون الروس . . مستحيلة ؛ فهي دعوة واضحة للأمريكان للتدخل ؛ ويمكن زيادة الخبراء وإرسال بعض الطائرات .

٧ - أن النضال المسلح في الظروف الحاضرة ليس له مقومات ؛ وانتهاجه خطر . . ولا يخدم غرضنا .

٨ - أن المحافظة على الأنظمة التقدمية ، تأتي في المكان الأول . . قبل الأرض والاعتراف بإسرائيل .

٩ - أن المرونة مع الاستعمار - في الظروف الحالية - سياسة واجبة ، لأن الظروف متاحة للاستعمار للتدخل ، وهو يتحين الذرائع لكي يسيطر على المنطقة كلها ويفرض نفوذه عليها ، وهذا يشكل خطرا أكبر على السلام العالمي ، ويعجل بنشوب حرب نووية ، وهو احتمال مصيري للإنسانية كلها . . وليس واردا الآن .

١٠ - أن الاتحاد السوفيتي ومنظومة الدول الاشتراكية ، سيستمرون في مساندة العرب ، سياسيا وعسكريا واقتصاديا ، ولكنهم يتساءلون . . . ما هو دور العرب أنفسهم في دعم قضيتهم ؟

الحلقة الرابعة
إقناع الملك فيصل وعبد الناصر.. لحضور المؤتمر

كان النقاش طويلا ومستفيضا حول الموقف بأكمله ؛ وكانت كل الحقائق أمام الجميع :

* الموقف العسكري . . وكل أبعاده وأرقامه وتوقعاته المريرة ؛ وأهمها : أن إسرائيل تقف بكل قوتها وشراسة حلفائها . . خلف الأسوار ؛ ويكاد يسمَع همس جنودها في القاهرة ودمشق وعمَّان ؛ وسيكون استيلاؤها على هذه العواصم مجرد نزهة ؛ قد لا تستغرق إلا ساعة أو ساعتين .

٢ - الموقف الاقتصادي المتأزم لدى كل دول المواجهة .

٣ - الموقف الداخلي وأثر الهزيمة ، بعد أن اتضحت أبعادها وأحجامها الحقيقية وتعرَّت بشعة وقبيحة ، يكاد ثقلها يحطم نفسية كل مواطن عربي .

٤ - موقف الدول الصديقة وعلى رأسها الاتحاد السوفيتي .

٥ - الموقف في المحافل الدولية . . بكل انكساراته وانهياراته ومشروعات قراراته .

٦ - موقف الاستعمار العالمي وسعيه الدؤوب المستمر لتقنين الهزيمة ، والاستفادة القصوى منها لحل القضية كليا . . ووأدها نهائيا .

٧ - حالة التمزق والتشرذم التي تسود الساحة العربية .

كان مجرد بصيص الأمل - وقبس النور - ووضوح الرؤية ، في دوامة الألم والظلام هذه - سرابا تحجبه جبال من الظلام الدامس ، لا يكاد ينبلج أو ينجلي منه أي صبح ولا يلوح أي ضوء ولا تبدو - حتى في الأفق البعيد - تباشير فجر . ولكن هنا ، ومع كل هذا . . برزت معايير ومقاييس وأحجام الرجال ، الذين يتعالون فوق مثل هذه المواقف ، ويصنعون التاريخ . كنت أنظر إليهم ، ألمي يكاد ينفطر منه قلبي . . ويخرس لساني . كل أثقال الرزايا قد ألقيت على كواهلهم ، وأمة بأكملها قد ألقت حال همومها ومستقبلها ومصيرها عليهم ، وما أثقله من حمل . وبالمواجهة

والمكاشفة والمصارحة ، وبكل رباط وارتباط الأسرة الواحدة ، وبكل الإيجابية والواقعية ، وأحاسيس المصير الموحد ، ووحدة السجناء في خندق واحد ، صدرت القرارات التالية :

١ - أن الحل السياسي - وهو الاعتراف بإسرائيل - أمر مستحيل ، حتى لو زالت كل الأنظمة ، تقدمية كانت أو رجعية ، ودونه فناء المائة مليون عربي ، والقتال لآخر قطرة دم .
٢ - لابد من العمل السريع اليومي لاستكمال التسليح والتدريب ، واستعادة القدرة القتالية لكل جيوش الأمة العربية ، ووجوب أسبقية دول المواجهة الحدودية .
٣ - أن الوطن العربي كله ساحة قتال واحدة ، تديرها وتخطط لها - تدريبا وتسليحا وإستراتيجية - قيادة واحدة موحدة .
٤ - إذا هاجمت إسرائيل ، فلابد من قتالها في كل قرية ، وكل منزل ، وكل باب وكل نافذة ، بالجيش والشعب ، وبالرجال والنساء والأطفال ، لآخر عمق قتالي في كل أقطار العالم العربي .
٥ - لابد من دعم صمود دول المواجهة ، بكل إمكانيات الدول العربية المختلفة اقتصاديا وعسكريا وسياسيا ، لوقف نزيف الهزيمة ومضاعفاتها .
٦ - لابد من استعمال سلاح النفط العربي ، بكل الوسائل والطرق مهما كانت النتائج
٧ - لابد من وحدة الصف العربي ؛ وترك كل التصنيفات والنظريات والخلفيات والإيديولوجيات ، وإزالة كل الرواسب ، وترشيد أجهزة الإعلام وتوجيهها نحو العدو بطريقة علمية ورائدة ، وسيادة المودة والصفاء والتضامن والوحدة بين كل العرب : شعوبا وأنظمة ، ولابد من تجديد وتحديث وإحياء وتثوير الجامعة العربية
٨- إذا كان الحل السياسي مستحيلا ، فإن العمل السياسي واجب ، ولذلك فلابد من تحديد كل هذه القرارات في أعلى مستوى . . وفي مؤتمر قمة عربية يعقد في الخرطوم . وكلف المجتمعون السودان لكي يعمل ويمهد لعقد هذا المؤتمر ؛ ويقنع الجميع بقبوله وحضوره ونجاحه .

لا أريد أن أدعي أن هذه القرارات كانت من اقتراحات أو إملاء أو إيحاء وفد السودان . ولكن مساهمتنا فيها ، بحرارة إيماننا وحدها ، وبكل صدق انتمائنا وبشجاعة وحرارة شعبنا تلاحقنا وتملأ نفوسنا ، وبكل صراحتنا ومودتنا وحيادنا مع الجميع ، كان لها أكبر الأثر . وليس هذا إطراء أو إغراء ، أو كسبا . . فالعربي لا يتكسب ولا يتبجح بأداء واجبه نحو أمته ، ولكنه تاريخ ـ والتاريخ أمانة وهو ليس ملكا لأحد .

وبعدها التفت بو مدين ـ وأعتقد أنه قد ارتاح نفسيا ، وأن ثورته (الجياشة داخله) قد استقرت نوعا ما ، مع أنني لم أر سنه ولا ابتسامته ـ التفت إلى ناصر ...

قائلا : " إذا كنت لا تنوي أن تحاكم القادة العسكريين المسؤولين أولا وأخيرا عن كل هذا ، فأرجو أن تسمح لي أن أحملهم في طائرتي وأحاكمهم في الجزائر " ...

ورد ناصر باسما : " اطمئن . . . سأحاكمهم وأرجو أن تثق في كلمتي " .

كان عبد الناصر قد أصبح كثير الصمت ، قليل الكلام ، يستمع أكثر من أن يتكلم ويستشير أكثر من أن يقرر ، وكان مهتما بالموقف داخل مصر ؛ فتعددت اجتماعاته مع مختلف قيادات العمل الميداني والعسكري والسياسي . وأخذ على عاتقه مسؤولية بناء الجيش المصري . وأخذ ينتقد التصرفات ، ويحاسب المسؤولين ، ويوجه اللوم إلى مختلف أنواع الأداء . وكان رأيه أن يطلق الحريات الديموقراطية ، وحرية الصحافة ، والمجتمع المفتوح . . إلى الحد الذي يسمح فيه بحرية الرأي السياسي وقيام المنابر السياسية ، وحتى الأحزاب . ولكن زملاءه عارضوه في هذا ـ فرضخ لرأيهم مع اقتناعه بفكرته .

وقال لنا عبد الناصر : " إذا كنتم تعتقدون أنني كنت حاكما مطلقا مفردا، فأنتم مخطئون ؛ فلقد كانت هنا حكومتان ، ومراكز قوى . وكانت قيادة الجيش وما يتبعها من أجهزة أمن واستخبارات ، أقوى مني . كانت دولة بأكملها داخل الدولة وأقوى من الدولة " . .

لم تكن هذه المعلومات جديدة علينا ، ولكن كانت هذه أول مرة يقولها لنا بمثل هذا

الوضوح . رأينا أن نرجع إلى السودان لأيام ، قبل أن نبدأ طوافنا على الدول العربية فقد كان رئيس الوزراء ووزير المالية متغيبين لفترة تزيد عن الشهرين ، في بلد متخلف وأموره تحتاج للمعالجة اليومية .

وكنا نعرف صعوبة عقد المؤتمر ، وندرك المشاكل الكبرى التي تحول دون ذلك . وبدأنا في حصرها أولا ؛ وكانت أولى أبجديات أي مؤتمر قمة ناجح ، هي حضور ناصر وفيصل له . . إذا لم يحضراه . . فلن يكون هناك مؤتمر . وكذلك الحال . . إذا حضر أحدهما وتخلف الآخر . كان عبد الناصر لا يريد حضور مؤتمر قمة وهو في مثل هذه الحالة . لم يتعود قبل ذلك أن يحضر مؤتمر قمة وهو مهزوم ؛ وهو رجل شديد الكبرياء ، كانت كل مؤتمرات القمة السابقة التي حضرها ، وهو في أوج عظمته وانتصاراته . وبعد حديث قصير معه ، أدركنا أنه شخصيا يفضل أن يحضر زكريا محيي الدين ، وذلك لعدم رغبته في السفر ؛ وتفضيله البقاء لمراقبة مشاكل الأمن الداخلي .

كان الكلام وقتها عن انقلاب عسكري واردا ، وكان منزل عبد الحكيم عامر يموج بالمئات من الضباط . وقد صارحنا بذلك . .

فقلنا له : " ولو أننا ندرك أنك أعلم بهذه الناحية ، إلا أننا نستبعد حدوث انقلاب ومن أي جهة كانت " . .

وشرحنا له تحليلنا للموقف في هذه الناحية . والتفت نحونا يقول : " سيشمتوا فينا ويتكلموا ولن أسكت ، وعند ذلك سيفشل المؤتمر " .

قلنا : " من الذي سيشمت فيك ويتكلم " ؟

قال : " فيصل " !

قلنا : " إننا نستبعد ذلك ! فالمهزوم ليس أنت شخصيا - إنها كل الأمة العربية - فمن الذي سيشمت في نفسه " ؟

وقلنا : " إننا نعرف فيصل جيدا ؛ ونحن واثقون أنه سيكون خلاف ما تتصوره تماما ، ونحن نضمن ذلك ونتعهد به " .

وأنهينا الأمر عند هذا الحد، وتركنا حضوره بين الشك واليقين؛ ولكننا أردفنا : " وأي مؤتمر سيقوم ، بكل الذي تريدونه منه، ولا تحضره أنت ! إذ سيكون كل الذي قررناه في مؤتمر المواجهة حبرا على ورق " . وفارقناه ونحن على ثقة تامة بحضوره، بعد أن أوردنا حججا كثيرة لتبرير حضوره . . .

وكان قد سألنا : " هل أنتم واثقون من جماهير السودان ؟ إنها أكثر الجماهير وعيا والتزاما وتأثرا بالقضية القومية ، وهذه أول مرة أقابل فيها جماهير عربية بعد النكسة " .

قلنا : " إن مقابلتها ستكون مضرب المثل، ونحن أدرى بشعبنا ، وهو ذو حس سياسي وطني وقومي ، فسيكون حيالك غير الذي تخشاه . . بل سيكون عكسه . وسترى بنفسك ، إنك ربما الآن تلوم القدر الذي يجعل أول جماهير عربية ستقابلها في الخرطوم ـ ولكننا واثقون أنك ستحمد الله على أن أول جماهير ستقابلها هي جماهير الخرطوم . . إنها رافضة للهزيمة ، وسيكون موقفها هو : الالتزام بمثل هذا الموقف ، وهذا الذي سيجعلها تخرج جميعا لاستقبالك . فهي تعرف دورها القيادي ومسؤولياتها في هذه المرحلة . وستقوم به ، وسترى ذلك بنفسك " .

إذا كنا قد اخترنا أيَّ عاصمة عربية أخرى ، فقد تكون هناك مخاوف ، أما جماهير السودان فإنها تعرف دورها في هذه المرحلة ، وستؤديه بكل الإصرار وكل الحس والوعي السياسي ، والالتزام والجراءة . . ولذلك فستعبر عن رفضها للهزيمة في حرارة استقبالك . وهي تعرف أهمية ذلك في العالم وفي المنطقة ـ وعندك شخصيا . إن حظنا كبير لأن جماهير السودان، هي أول جماهير عربية ستقابلها بعد الذي حدث في ٥ يونيو ، وسيترك استقبالها أثره في العالم ، وفي المنطقة وعندك شخصيا " .

قال : " هل ستعملون على ذلك ؟ "

قلنا : " نحن واثقون منه ولن نعمل له إطلاقا ؛ فنحن على ثقة منه ـ ثقتنا بأنفسنا ـ فاتركنا نجرب أنفسنا . . سنعمل كل شيء لإنجاح هذا المؤتمر . إلا توعية واستنهاض شعبنا في السودان فهذا دوره ، وهو سيوفر لنا هذا الجهد ، ويتكفل بالمناخ الذي يمهد

للمؤتمر كل سبل النجاح ، ويظهر للعالم أجمع . . نموذجا من قدرة الأمة العربية على تحمل النكسة ، بل وتحويلها إلى صمود " .

وتأكدنا أن عبد الناصر سيحضر المؤتمر ؛ وتحركنا إلى جدة . وفي الطائف التقينا بالملك فيصل . كان غاضبا ومهتاجا يكبح جماح ثورته بهدوئه الطبيعي ، وطول باله وديبلوماسيته وعراقة عمله في السياسة الدولية ، التي تمتد إلى الوراء عشرات السنين وتحمله للعديد من الأزمات والانتكاسات . وكانت (القدس) في ذروة غضبه وقمة حزنه ، ومن بينها الهزيمة وآثارها .

شرحنا له ما دار في هيئة الأمم المتحدة ، وفي مؤتمر دول المواجهة ـ الذي لم يحضره ـ باستفاضة وبكل التفاصيل ، وكان عليما بأكثرها . واشترك معنا في التحليل واستنباط الحلول . . ولم نأخذ وقتا في إقناعه بوجوب انعقاد مؤتمر القمة وضرورة حضوره له . كان حاضرا ومحضرا نفسه لا للمؤتمر وحضوره ، بل لكل ما يزيل آثار العدوان ، ويبدد إنعكاسات الهزيمة ويدعم مناخ الصمود . كانت مشاعره العربية أقوى من كل الرواسب ، وكان تأثره بالموقف أكبر من أي شيء آخر ، وبدا كأنما نسي كل ما كان يدور في المنطقة العربية قبل الخامس من يونيو . . بدا مستعدا للتعاون وإلى أبعد الحدود ، كأنما كل شيء قد تغير بعد ٥ يونيو ؛ وكأنما ٥ يونيو هي البداية . . وكل ما قبلها فراغ وخواء .

وساورنا شعور بالاطمئنان والإعجاب ، وفجأة علا صوته في ثورة هادئة :

" إن الروس يجب أن يدانوا في المؤتمر . إنهم سبب كل هذا ـ وقد أخبرتكم ألف مرة ، أن الصهيونية والشيوعية توأمان ترعرعا في بيت واحد ، وينهجان سلوكا واحدا ، ويهدفان لغاية واحدة ، فلابد أن نحدد موقفنا منهما ، وفي وقت واحد وبقدر واحد " .

انتابنا الفزع ، وكنا نتوقع ذلك . . وكان ردنا واضحا ومنطقيا . مهما كان موقف الروس ، فإن هذه المعركة ليست معركتهم ـ إنها معركتنا نحن العرب ـ ومصيرنا ومصير أجيالنا ، فلا يمكن أن نحمّل عبئها تاريخيا (ولا واقعيا) لأحد ، فلن يصدقنا

الجميع . لقد قدم الروس كل ما طلب منهم من أسلحة ومعدات . . في الماضي ولكنهم لن يشتركوا بجيشهم في القتال . ولا يمكن أن يحترمنا العالم ، إذا علقنا نتائج وأسباب هزيمتنا على مشاجبهم . إن البداية الصحيحة هي أن نتحمل وحدنا كل نتائج الهزيمة ، ونعزز الصمود . وستكون هذه بداية صحيحة وأمينة ، يحترمها الرأي العام العالمي .

ثم إننا نحتاج الآن ـ وبسرعة وباستمرار ـ للسلاح . . فمن الذي سيقدمه لنا؟ وإن لم يكن لنا سلاح . . فما هو مصيرنا؟ قال :

" ألا يمكن أن نعدد وننوع مصادر السلاح ؟ وسنستعمل كل إمكانياتنا للحصول عليه ! .

قلنا :

" إن عامل الوقت لا يسمح بذلك ـ ثم أن الذين يملكون السلاح ، لن يقدموه لنا لمجرد الحصول على المال ، إنهم أحرص على أمن إسرائيل من الروس . وهذه حقيقة ولابد أن نعترف بها ، وإلا كنا كمن يغطي وجهه وعينيه بيديه لكيلا يرى . ومن يرفض مصدرا مضمونا ، يشحن السلاح الآن ، ويفكر بمصادر مجهولة ـ على الأقل إن لم نقل إنها رافضة ومتآمرة ! لن يغفر لنا أحد ، إذا اعتمدنا عليها . . ونحن والعالم كله على علم " .

أطرق ووضع يديه في لحيته ـ كعادته ـ عندما يستغرق في التفكير ، وقبل أن يتخذ قرارا خطيرا ، وكنا على أعصابنا . . فقد كنا نعلم أن هذه ساعة نجاح المخطط وانعقاد المؤتمر ونجاحه أو فشله . وتراجعنا القهقرى إلى ما كنا عليه غداة الخامس من يونيو . وبعد نصف ساعة من الترقب والتوتر وغليان الأعصاب . . إلتفت إلينا قائلا :

" إنكم على حق ، ولكن مرحليا فقط ، وليس أمامنا الآن إلا السكوت ، وقد اضطرنا الزمن والأحداث بقبول مالا نقتنع به . وقد يكون قبولك للشر مرحليا أفضل من قبولك لما هو أكثر منه شرا . إننا لسنا في موقف انتقاء الخيارات ، وهذه إرادة الله ـ فعلى بركته " . . رقصت قلوبنا من الفرح ، وبدا ذلك واضحا علينا . ثم تناقشنا في

البترول ، واحتمالات استعماله كسلاح في المعركة . .

فقال :

" إنكم تعلمون أننا نعتمد على البترول في كل شيء ، حتى في أبسط ضروريات الحياة اليومية ، وهو شريان الحياة نفسها بالنسبة لنا ، ولكن . . " وأردف باسما :

" قبل سنين كنا نستعمل الجمال ، ونأكل التمر . . فسنفعل هذا " . وتوقفنا ولم نرد . . وتكلمنا قليلا في اليمنين ـ الشمالي والجنوبي ـ

فقال :

" إنكم تعلمون موقفنا في اليمن الشمالي بأكمله ، لا يهمنا . . إذا أصبحت اليمن جمهورية أو ملكية أو إمامة . كل الذي يهمنا هو جلاء الجيش المصري ، وليصنع اليمنيون بعد ذلك في بلادهم ما يشاؤون " .

تأكدنا بعد ذلك أن المؤتمر سينعقد ، وأن قطبَي الرَّحى سيحضرانه . . وكانت هذه هي الركيزة الأساسية والمركزية في أمره ، فانطلقنا إلى زيارات متعددة في مختلف أرجاء الوطن العربي ، وإلى تحضيرات واجتماعات أساسية في موضوع اليمن . . مثل اجتماعات بيروت الشهيرة . وفي وقت ما . . كان مجلس وزراء اليمن كله : برئيسه وقائد جيشه ، محدد الإقامة في القاهرة . فعملنا على إطلاق سراحهم وإرجاعهم لبلادهم . أما في اليمن الجنوبي ، فقد كان الصراع على أشده بين الجبهة القومية والجبهة الوطنية ، وبين السلاطين الذين شحنهم الإنجليز في سفينة واحدة هم وعائلاتهم وأتباعهم إلى جدة ، حيث كونوا فيها مدينة كاملة .

كان الذين حضروا مؤتمر دول المواجهة ، هم أصحاب القرار ؛ ولذلك فلم تكن هناك مشكلة بينهم ، وكان الملك حسين مؤمنا بانعقاد المؤتمر . . عاملا له ، ساعيا لإنجاحه . أما في دمشق فقد كان الأمر مختلفا ؛ وكان لنا لقاء معهم في دمشق طويلا وشاقا ومتشابكا ، اشترك فيه السادة/ الأتاسي وزعَيِّن وماخوس . وبعد هذه الجولات المتعددة والمضنية، انعقد مؤتمر وزراء الخارجية الأول في الخرطوم . فإلى هذين . . أي : للأحداث والمحاضر .

قد لا أهتم كثيرا بالزمنيات والأشخاص ، وكل هذا له أهميته وله رجاله ، وهو جزء هام لايتجزأ من مسيرة التاريخ في تلك الأيام الحرجة . أنا مجرد مواطن عربي كتِب عليه ـ بحكم موقعه وقدَرِه ـ أن يكون حاضرا ومشاهدا، وأنا هنا أسجِّل أحاسيس هذا المواطن ومعاناته ومعايشته للأحداث . وهو أمر يكمِّل سرد التاريخ وتسجيل المحاضر .

وأنا هنا أنقل ما سمعت وما شاهدت وأعلِّق ـ لا من موقع المؤرخ أو المسجل الدبلوماسي ـ ولكن أترجم خلجات المواطن العربي العادي ؛ وأحاسيس الشارع العربي في ذلك الوقت (وما أصدقها من خلجات وأحاسيس)! وما أبعدها عن الدبلوماسية والسياسة والانحياز والتعصب! وما أشد غربتها (روحا وجسدا) عندما تسمع وتشاهد كل هذا . . وانعكاساته وردود أفعاله ، وبُعده عن قضيتها الأم . وما أشد ألمها وحيرتها وانفصامها عنه !

وما أشد حاجتنا لأي مواطن عربي يسجِّل أحاسيسه منذ حرب ١٩٤٨م ، حول قذارة " فاروق " . . أمير المؤمنين ! وأسلحته الفاسدة . . وهدنته الأولى والثانية ـ التي مزقت وطننا ، وقطعت أجزاءه ، وخلقت فيه هذا النتوء الغريب . . الذي استمر ينمو ويتضخم يوما بعد الآخر . وما أكثر حاجتنا لمثل هذا المواطن العربي العادي الآن ينقل أحاسيس وآلام مائة مليون عربي . فما أشبه اليوم بالأمس . . ما أشبه كل أيامنا بأمسيِّاتنا . . منذ أن حلَّت بنا النَّكسة واحتوتنا الهزيمة .

قد يكون موجودا هناك هذه الأيام ، رئيس أو مواطن عادي أو كلاهما ، في جسد واحد وروح واحدة وإحساس واحد . . فدعونا ندعو ونأمل وننتظر .

الحلقة الخامسة
اتفاقية إنهاء حرب اليمن

كان الطواف على الدول العربية طويلا وشموليا ؛ فلم نترك قطرا عربيا واحدا لم نذهب إليه . ورغم تعدد الرحلات واستمرارها ومشقة السفر فقد كان ناجحا . . إذ وافقت كل الدول العربية على حضور مؤتمر القمة في الخرطوم . وبعد انعقاد مؤتمر دول المواجهة في القاهرة ، وموافقة عبد الناصر وفيصل على حضور المؤتمر ، كان الطريق ممهدا لعقده ، وكان المناخ مهيئاً ومناسبا . وفي دمشق . . كانت هناك تحفظات واعتراضات على جدوى مؤتمرات القمة ، وعلى مبدأ حضورها . كان للقيادة ـ وقتها ـ رأى مغاير في مؤتمرات القمة التي تجمع دولاً ورؤساء وملوكا لا تجمعهم وحدة الهدف ؛ وتختلف أساسا في الاتجاهات والخلفيات والتركيب والأهداف .

ودار نقاش طويل بيننا وبين الإخوان : الأتاسي وزعين وماخوس . . استغرق يومين ؛ وكنا قد وصلنا بطريق البَر من بيروت ، واتفقنا بعد ساعات طِوال على حل وسط : أن يحضروا مؤتمر وزراء الخارجية في الخرطوم أولاً ، ثم يستمر النقاش حول حضور مؤتمر القمة . وحضر الأخ / ماخوس مؤتمرَي وزراء الخارجية في الخرطوم . . الأول والثاني ، وبقي في الخرطوم إلى عشية اليوم السابق لانعقاد مؤتمر القمة ، ثم أصرَّ على عدم حضور سوريا بأي مستوى في التمثيل ، رغم النقاش الأخوي الطويل الذي دار لإقناعه ، والذي شارك فيه الأخ/ عبد العزيز بو تفليقة ـ وزير خارجية الجزائر ـ وفي وقت متأخر من نفس المساء . وكان حضور الرؤساء والملوك مقررا صباح اليوم التالي .

همس في أذني ماخوس بحرج موقفه ، وبآخر التوجيهات التي تلقاها من دمشق . وكان عليه أن يغادر الخرطوم قبل صباح اليوم التالي . . وبأي طريقة ، وقبل حضور الرؤساء . ولم يكن أمامنا إلا بضع ساعات قلائل . ولم تكن هناك طائرات مباشرة أو حتى غير مباشرة . وبعد منتصف الليل ، سافر في رحلة خاصة بطائرة الخطوط

السودانية . وليس صحيحا أنه كان هناك في الخرطوم ، صبيحة اليوم الأول لانعقاد المؤتمر . وتبع هذا أن سورية لم تشترك .

وعندما اجتمع وزراء المالية والاقتصاد أثناء انعقاد مؤتمر القمة ، وكنت أترأس الاجتماع ، دافعت عن ضرورة دعم سورية . . في تقدير الدعم وفي توزيعه وجوبهت بمعارضة شديدة . وكان هذا هو السبب في أن سورية . . لم تدعَم في مؤتمر القمة في الخرطوم . كنت أرى أن سورية هي الغائب الحاضر ، وأنها اشتركت في كل مضاعفات النكسة وآثارها ، وأن دعم عددها هو واجب قومي ، وأنها اشتركت في مؤتمرَي وزراء الخارجية . . اللَّذَين مهَّدَا الطريق لمؤتمر القمة ، ووضعا ورقة أعماله وأن غيابها عن حضور مؤتمر القمة ، يجب ألاَّ تكون له انعكاسات أو ردود أفعال . وأنها قدَّمت كل تضحيات المجابهة . وتحمَّلت كل أعبائها . . وحضرت مؤتمر المواجهة في القاهرة ، ومؤتمرات وزراء الخارجية في الخرطوم ، وأن كل من حضر مؤتمر القمة ـ خصوصا وفد السودان ـ يمثِّلها .

ولكن الأغلبية لم تشاركني وجهة النظر هذه . ولذلك . . اقتصر دعم الصمود على مصر والأردن ، رغم أن سورية حضرت مؤتمر بغداد لوزراء المالية والاقتصاد والنفط ، وأسهمت في قراراته بوقف ضخ النفط نهائيا . . ولأجل غير مسمًّى ، كما سيأتي ذكره في هذه الأحاديث .

ولم تكن هناك مشكلة أخرى أمام نجاح المؤتمر إلا موضوع اليمن ، وكان شائكا ومعقدا ومتفجرا . كان عبد الناصر قد سارع بإرسال القوات المصرية إلى اليمن عقب اندلاع الثورة مباشرة ، رغم أنه كان يدخل مع نظام (الإمامة) السابق في اتحاد فيدرالي ، ورغم شكوك الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ بأن علاقاته بالأمير البدر كانت قوية ، وأن ثمة تفاهما ما . . بينهما .

ولم يكن هناك إجماع في مصر على إرسال القوات . وكان الإخوة/ عبد اللطيف البغدادي وكمال الدين حسين وحسن إبراهيم ـ من أعضاء مجلس قيادة الثورة السابق ـ يعترضون ، وكان الأخ/ زكريا محيي الدين متحفظا كعادته . ولكن عبد الناصر

فاجأهم قبل اكتمال المشورة ، بان القوات المصرية في عرض البحر ، وأنها ستصل اليمن بعد ساعات . وأدى هذا إلى خلاف واستقالات لا تزال آثارها باقية للآن .

وكان منطق عبد الناصر هو : وجوب الوقوف مع ثورات التغيير في المنطقة وضرورة مناصرة انتفاضات الشعوب ، من أجل تحررها وتناقضها مع حكامها ، مهما كان الثمن ، ومهما بلغت التضحية . وأن اليمن . . وفي حالة " التخلف السعيد " الذي كانت تعايشه ، لابد من مناصرة الوطنيين والتقدميين فيها . . إذا قاموا بواجبهم في إشعال الثورة ، وفي بداية التغيير السياسي والاجتماعي والاقتصادي والقومي .

وكان يفكر في شيء آخر . . هو : أنه لا بد من وجود قوى التحرر في البحر الأحمر ، وفي المضائق التي تؤدي إلى المحيط الهندي ، وبجوار السعودية والخليج . . ولا بد من مواجهة الاستعمار هناك ، حيث تؤلمه وتخيفه وتقلقه المواجهة . ولذلك بادر بإرسال القوات كواجب قومي قبل استكمال المشورة . وكان يرى أن هذا منعطف تاريخي لا سبيل فيه للتردد . وقد كلفه هذا . . احتجاز قوات كانت لازمة أثناء نكسة يونيو ، واستنزاف قدرات مالية وعسكرية وبشرية لا حدود ولا حصر لها ولا قبل لمصر بها . ولكنه صبر عليها كما صبر على أعباء الثورة في لبنان .

ولم تكن مسيرة التدخل في اليمن كلها مضيئة ومشرقة ومبدئية ، كما أرادها عبد الناصر ، وكما تحمَّل فيها خطورة وصعوبة وأخطار القرار . كانت مثل أي قرار فوقي سليم من ناحية المبدأ ، يجانبه التوفيق عند التطبيق . ولعدم وجود الكادر السياسي المؤهل ، ولتخلف القاعدة وحتى القياديين عن القيادة ، وعدم شمول رؤيتهم واتساعها ، وضيق خيالها وركاكة تطبيقها الميداني ، مُثل تطبيق الاشتراكية من أعلى والوحدة من فوق ـ مثل الذي حدث في تجربة الوحدة مع سورية وفي تطبيق القرارات الاشتراكية ـ حدثت أمثال هذه المضاعفات كلها . . في اليمن .

وأخيرا أصبح الجيش المصري الذي أتى لمساعدة ثورة ومساندة شعب ، ومن أجل التحرر والقومية ، ولإزالة التناقض بين الشعب وحاكمه ، ومن أجل توسيع قاعدة المد الثوري والانتفاضة الشعبية ، ولإزالة التخلّف وحكم الفرد ، والإقطاع والقرون

الوسطى ، أصبح يعاني من مشاكل . . أقلها هو : استيراد مياه الشرب نفسها من مصر . وزادت نفقاته ، وتعددت ضحاياه وتضحياته . ووقف ضده حتى الذين أتى لمساندتهم ، وأصبحت الحالة مرتبكة ومكلفة . . وتحولت من حملة إنقاذ لشعب بأكمله ، إلى مواجهة من أجل الحياة والبقاء والشرف والكرامة .

لم يواجه عبد الناصر بالمَلَكيِّين فقط ، بل ووجه من الجمهور والثوار أنفسهم فأصبح هناك جمهوريون مع مصر ، وجمهوريون ضدها . . وتعددت تحركات القبائل : مرة هنا ومرة هناك ، وكان المَلَكيّون لهم من يقف معهم ومن يساندهم . وكانت السعودية تخشى وجود الجيش المصري قريبا منها ، وفي حدودها المتاخمة . . أكثر من خشيتها من نوعية النظام في اليمن : جمهوريا كان أم ملكيا . . أو أيّاً كان . وأصبح الجيش المصري لا يواجه بخصم واحد مرئي في المعركة . . هو : الثورة أو أعداؤها ؟ التمرّد أو التخلّف ؟ القومية أو الإقليمية ؟ الثورية أم التبعية ؟ . . . بل أصبح يقاتل من أجل بقائه ، وما أكثر ضحاياه وقتها ، وما أشد آلام عبد الناصر في ذلك ! ولم يكن يعتقد أن تدخَلّه سيؤدي لمثل هذه النتائج . وكان عزاؤه . . أن الثورة أيّاً كانت اتجاهاتها قد انتصرت ، وأن عهد التخلف قد انتهى . . وإلى غير رجعة والتاريخ لن يعود القهقرى . وقد تكون هذه نتائج واضحة وإنجازات ملموسة ولكنها لم تكن هي كل المقصود من استراتيجية التدخّل ، وإرسال القوات وتحَمّل كل هذه الأعباء .

وكنا نراقب هذا الموقف ونعلمه ونعيشه . . كنا نعلم أن قرارات وإنجازات وانتصارات عظيمة مثل الوحدة مع سوريا ، والقرارات الاشتراكية ، ومساندة الثورة اليمنية ، كلها قد ارتطمت بما توقعناه من فشل في التطبيق ، وتخَلّف القياديين وعدم وجود الكادر ، وعنجهية العسكريين ، وقصور خيالهم وفكرهم القومي ، وعدم ارتفاعهم إلى المستوى الفكري والقومي والثوري . . كنا نقول لأنفسنا وله : إن مثل هذه الاتجاهات لا يمكن أن تطبق كأوامر تصدر من أعلى ، وأنه لابد من خلق قاعدة لها ركيزة فكرية وثورية ، ولا بد من إيجاد الكادر المؤهل العارف لواجبات التغيير

والمؤهل للقيام بها . وكنا نضرب له المثل بما حدث في تطبيق القرارات الاشتراكية في مصر نفسها ، وفي فشل النظريّين والبيروقراطيّين ، وانتهازية المثقفين ، واشتراكهم كلهم في عدم إنجاحها . ولذلك فعندما تَدَخَّلنا فعلياً في مشكلة اليمن ، كنا نتابعها ونضع أصابعنا على نبضها .

كان عبد الناصر يريد إجلاء القوات المصرية عن اليمن ، لأنه محتاج لها ، ولأن الضرورة بعد النكسة تقتضي تقليص أعبائها وتكاليفها ، ولأنها قد أوجدت روحاً من العداء لم يكن من ضمن واجباتها ، ولأنه كانت أغلبية من اليمنيِّين تنظر إليها كقوات معتدية ، وأن وجودها للسيطرة والانتفاع وليس للإنقاذ . وكل هذه كانت بعيدة عن نوايا عبد الناصر وأفكاره . ولأن عدد ضحاياها استمر يتضخم ويرتفع يوماً بعد الآخر وتكاليفها أصبحت لا تطاق .

وكان فيصل يرى أن في رحيلها طمأنينة ، وفي بقائها خطر . . آت أو مرتقب ولم يكن يهتم بعد رحيلها بأي وضع يرتئيه اليمنيّون ، جمهورية أو ملكية أو إمامية . ولذلك كان الحل في متناول اليد . . وبعد رحلة عبد الناصر لجدة . وكنا هناك . . ولم يتم اتفاق كامل ، ولذلك عملنا كل الذي نعلمه من حقائق ومواقف . وبعد الرحلة . . عملنا على وضع مشروع الصّلح موضع التنفيذ ؛ واستفدنا من كل التجارب التي سبقتنا ، ومن أننا كنا موضع العلم والثقة والحياد لدى الفريقين . وكنا نعلم اتجاهات ونوايا وأفكار كل جهة .

وفي اجتماعات بيروت كان الأخ محجوب ـ وكنت معه ومعنا الأخ مصطفي مدني السفير وقتها في بيروت ـ في تفاوض مع الفريقين، وأشرفنا على النهاية. وفي جلسة هامة اعترض المحجوب ـ الراسخ في اللغة ـ على حديث العَمري ، وهل اللفظة الصحيحة هي (تقويم) أو (تقييم) . . ودار نقاش ، انسحب بعده الوفد اليمني والتفتُ إلى الأخ/ مصطفى بعد الجلسة، وقلت له : " وما دخل سيبويه هنا ، في بيروت . . وفي مشكلة اليمن ؟ " . . وضحكنا .

أدتنا هذه الاجتماعات إلى (مؤتمر حرَض) [مدينة سعودية جنوب شرق الرياض

على بعد ٢٦٨ كلم .] وكان مؤتمراً لجميع القبائل . . يحضره ممثلون للجمهوريين الموالين لمصر ، والجمهوريون المعادون لها ، والملكيون ويحضره ممثلون للسعوديين ومصر ، وكان ممثل السعودية هو : الأخ رشاد فرعون . . ويحضره قادة الجيش .

وسافرنا إلى صنعاء ، وكنت مع السيد رئيس الوزراء محجوب ، وقادنا المسؤولون لفندق يسمى : (فندق سيف بن ذي يزن) . . فارتسمت ابتسامة عريضة على وجه السيد رئيس الوزراء . . الخبير بالبروتوكول والفنادق وأسمائها ؛ والتفت إلى اليمين ورأى لافتة كتب عليها : " يرجى من النزلاء الكرام تسليم أسلحتهم لإدارة الفندق " وزادت ابتسامته اتساعاً ـ وعندها أدركت أنني سأكون وحدي في صخائم (مؤتمر حرض) ، هذا . . إذا كان أول القصيدة من صنعاء هكذا . وقبل أن يسافر السيد رئيس الوزراء مبكّراً صباح اليوم التالي ، كنا في (خيمتنا) في الفندق نتلهى بكتاب الأخ محمد عبد القادر حمزة . . عن (اليمن السعيدة) وعن زيارته لها ، وعن شوال الأرز الذي حمله لها تكريماً . . . وعندما سأل عن الذين حملوه قيل له : إن آخرهم وزير التجارة ، وثانيهما وزير التموين ، وثالثهما وزير المواصلات ، وفي الصباح رجع السيد رئيس الوزراء إلى جدة .

وسافرت (لحرض) وبقيت في الخيمة ٢٢ يوماً . وكان مؤتمراً ناجحاً استطعنا بعده أن نضع قواعد محددة للمصالحة . . ولانسحاب القوات المصرية ، وللمستقبل السياسي بعد ذلك ، وعن المشاكل الحساسة قبل موضوع (أسرة حميد الدين) والاستفتاء حول المصير السياسي والمستقبل . وكانت كل هذه أمور رأينا أن نتركها لليمنيين لكي يقضوا فيها بما شاؤوا . وإلى الآن لم يخب ظننا ولم يكن حدسنا مخطئا

وكانت المشكلة الأساسية هي القوات المصرية . وحتى ذلك الوقت . . كانت أغلبية اليمنيين من الجمهوريين أوالملكيين ، يتفقون على ضرورة جلائها . وكان ناصر يرى أيضاً ـ بعد المداولات والمشاورات والمكاشفات الكثيرة ـ ضرورة جلائها . .

أولاً : لحاجته لها

وثانياً : لتوفير تكلفتها الباهظة ، وتحويلها لمعركة المصير والصمود

وثالثاً: خوفاً من تدهور العلاقات مع الشعب اليمني ، لمستويات أكثر تدنياً وأعمق تداعياً .

وكان فيصل يرى أن الحل الأساسي - والضمان الأصلي - هو في جلائها • وكذلك كان الموقف . . بعد المشاورات المستمرة المضنية والكثيرة في القاهرة والرياض ، وبعد الزيارات المتكررة لليمن ومؤتمرات بيروت وحرض وغيرها ، والاجتماعات المتوالية مع الإخوة في اليمن من مختلف الاتجاهات والخلفيات ، أصبح ممكناً الوصول لاتفاق أعددناه بعناية فائقة ، وعرضناه على الإخوة/ ناصر وفيصل والسلال . . قبل اجتماع القمة في الخرطوم . وأصبح ممكناً وضعه في صيغته النهائية التي تمت في الخرطوم ؛ وفي أثناء انعقاد مؤتمر القمة وفي منزل المحجوب ؛ وبتوقيع ناصر وفيصل وحضورهما ؛ وشهادة الأزهري والمحجوب ؛ وكتابتي للاتفاق شخصياً، بالآلة الكاتبة . . مما سيأتي ذكره أثناء استعراضنا لأحداث مؤتمر القمة في الخرطوم .

بعد الطواف الشامل على كل أقطار المنطقة العربية ، وبعد موافقة ناصر وفيصل على عقد المؤتمر وحضوره ، وبعد انعقاد مؤتمر دول المواجهة في القاهرة ، وبعد وضع هيكل الاتفاق في اليمن ، عقب المشاورات والاجتماعات المتكررة مع كل الأطراف والطواف والتجوال المستمر والمتكرر ، على كل عواصم المنطقة العربية والاجتماعات الدائبة برؤسائها ووزراء خارجيتها . . وبعد التردد شبه الأسبوعي على الرياض والقاهرة والاجتماعات المستمرة مع فيصل وناصر ، كنا في موقف ثابت نستطيع أن ندعو فيه لاجتماع وزراء الخارجية العرب في الخرطوم . وكنا متأكدين أنهم سيحضرون بأكملهم ، وأن نطاق المشاكل قد انحسر ، وأنه قد ضاق إلى مستوى . . يمكن تجاوزه والتغلب عليه ؛ وأن مناخاً مناسباً ، قد خلق لهذا المؤتمر ، وقد يؤدي لإنجاحه ، ومن ثم الدعوة عن طريقه لاجتماع القمة . ولذلك سارعنا بالدعوة لمؤتمر لوزراء الخارجية العرب يعقد في الخرطوم .

كانت إمكانات بلادنا وطاقتها لمثل هذه المؤتمرات قاصرة ، ولم تكن في مستوى القاهرة أو الرباط مثلاً ؛ ولكننا كنا نعتقد أن هذه ... اجتماعات (حرب ومِحنة) وأنها

قد تجتمع في مخيم . . وأن المناخ السياسي والشعبي هو الأولى والأسبق . . وأن واحات الدعة والرفاهية ليست لها الأسبقية . . وأن التقشف والبساطة من مقتضيات الموقف . . وأن إمكاناتنا المتواضعة ـ مضافاً إليها حرارة شعبنا ـ هي رأسمالنا ؛ وأنه ليس هناك من يعتقد أنه سيجد في الخرطوم قصور القاهرة والرباط والرياض . . ولا تقاليد بلاطاتها ، ولا بروتوكولات اجتماعاتها . . وأنه ليس لدينا ما نقدمه أو ندعيه غير إمكاناتنا المعروفة المتاحة ، ولا داعي لبناء مدن للاجتماعات أو فيلات . ولبس هناك سبيل لادعاء أمثالنا للرفاهية ، وصنعها وتقديمها والاهتمام بها ، فلسنا بلداً سياحياً ولا عريقاً في تقاليد القصور والملوك والضيافات .

وكنا نعتقد أن العرب يستحقون أن يجتمعوا في الغابة ، وفي عرائش (القصب) وفي الصحراء ، وفي صخائم البدو . . لكي يتنفسوا جو الهزيمة ، ولكي يعايشوا واقع المرارة . . وهذا هو الذي سيجدونه في الخرطوم ، وإن لم يكونوا على استعداد لاحتماله ، فهم لن يكونوا على استعداد للنهوض من واقع الهزيمة . . لمشارف النصر وأننا ليس لدينا ما نقدمه غير حيادنا وشجاعتنا ومبادرتنا . .

وكنا نَرد على كل من يقول :

" كيف ستعقدون مثل هذا المؤتمر؟ أين قصوركم وفنادقكم وقاعات اجتماعاتكم وسياراتكم؟ " .

كنا نَرد بالمثل السوداني :

" عيب الزاد ولا عيب سيده " .

إننا سنقدم ما لدينا فهو كاف . . لكل من يريد أن يسترد شرف أمته وكرامتها . فإن الحاجة ليست الآن للقصور ولا للفنادق . فقد سبق وتمت فيها اجتماعات . وعقدت مؤتمرات ، وسمعت صياغات . . أما مؤتمر الخرطوم فهو مؤتمر حرب ، ومؤتمر هزيمة ونكسة ، ومؤتمر صمود . . وهو ليس استعراضاً لمسرات السياحة .

وكتب يومها سفير عربي للملك فيصل يقول : " ليس هناك في فنادق الخرطوم غرفة تستطيع أن تمد فيها رجليك ، وأرجو أن تقبل ضيافتي في السفارة " . ورد على

الملك فيصل " : ألاَ يمكن أن ننصب خيمة خارج الفندق ؟ " . وأطلعنا ضاحكاً على هذا قبل حضوره • ومع ذلك فقد استطعنا بجهد - أشرَفت عليه بنفسي - أن نخرج مؤتمراً ناجحاً (حتى في مستوى الضيافة والإقامة والأداء) ، يساوي - إن لم يفق - أمثاله من المؤتمرات التي عقدت في عواصم عريقة في العالم العربي .

كنا نعرف أن أي عجز أو قصور في مستوياتنا ، سيملؤه شعبنا . . بحرارته وحماسه وكرمه ، وحسن استقباله وأصالته وعروبته ؛ وهو الذي حدث . . وما يتحدث عنه العالم ، وما أشادت به كل أجهزة الإعلام العالمية . كان شعب السودان بديلاً ... بديلا للقصور والفنادق والسيارات ، وكل الملامح المظهرية والنماذج القشورية . فقد شمخ يومها عملاقاً تغطي شجاعته وبطولته كل القصور ؛ وتتعالى فوق كل عجز ، وكل مظاهر السياحة والبذخ .

وسطعت الخرطوم - الجميلة . . البسيطة . . والأصيلة - فوق كل عاصمة - وسَيطَرَ شعبها على كل المواقف ، وامتلك أحاسيس الملوك والرؤساء والوفود . . بل وكل العالم . فلم يعد أحد ينظر إلى غرفة ، أو يفكر في وليمة ، أو يتأمل في فندق ؛ أو حتى يحس بأي قصور - إن كان هناك قصور . ولم تكن هناك أي إجراءات أمن . كان الشعب السوداني هو أمن الموقف ، احتفى بكل الرؤساء . . وكل الوفود وكل الأجانب ؛ في ديموقراطية ومودة وإلفة نادرة ، وسَيطَرَ على كل الشوارع . . فأصبح هو المأوى والفندق والقصر والمضيف والأكل والشرب ، وعاش وعايش الجميع في مثل هذا المستوى ، حتى انتهت كل المؤتمرات . فلم يذكر أحد مظهر فندق ، أو منظر قصر ، أو أثاث غرفة . وأصبح التناقض الرئيسي هو : المؤتمرات التي لا يرى فيها الرؤساء رجل الشارع ، بل الجندي المدجج بالسلاح ، والغرفة الموشحة بالأثاث والعزلة عن المجتمع وعن الشعب ، وقوائم الطعام الطويلة المتخمة .

رأى الرؤساء الشعب العربي في السودان ، ورأوا فيه كل الشعب العربي . . وأصدروا قراراتهم وهو بينهم . ولم يروا أنفسهم ولا منافساتهم ولا تناقضاتهم ولا أبهة قصورهم وفنادقهم ، بل شاهدوا ثقتهم ، وعايشوا مصيرهم ، وشاركوا

شعبهم .

كنا نعتقد أن مؤتمر وزراء الخارجية سيمر في هدوء ، ولكنه فاجأنا بكثير من القنابل الزمنية التي يزدحم بها العالم العربي . وكانت أول قنبلة من الوفد السعودي ، إذ انسحب . . عندما جلس مع وفد منظمة التحرير الفلسطينية . وكان مكوناً من الإخوة/ الشقيري وشفيق الحوت والطريقي . وكان الطريقي خبيرا في شؤون النفط وكان قبلها وزيراً للنفط السعودي وهاجر ؛ وما أن رآه المرحوم الأخ عمر السقاف حتى امتقع وانسحب . وعانينا كثيراً قبل أن نقنع الإخوة بانسحاب الطريقي . وعاد السقاف للمؤتمر ، لينسحب وزير خارجية المغرب ، بدعوى أن وفداً من المحامين العرب ، سيسافر للرباط للدفاع عن المعتقلين السياسيين . واستطعنا التغلب على هذا الموقف . ثم واجهنا كثيراً من القنابل الزمنية والمتفجرات الوقتية ، حتى وصلنا لقرارات مؤتمر وزراء الخارجية الأول ، وكانت إيجابية وهادفة .

فإلى هذا المؤتمر . . وإلى مؤتمر وزراء المالية والاقتصاد والنفط العرب . . في بغداد وإلى قرار وقف ضخ النفط نهائياً . . وإلى أجل غير مسمى . . الذي صدر في بغداد وإلى تسجيل التاريخ في هذه المؤتمرات ، التي سبقت مؤتمر القمة العربي في الخرطوم وإلى أنفسنا . . . حتى لا ننتكس ، ولكي نتيقظ ، ولكي لا تمر اثنتا عشرة سنة من عمر أمتنا - من ٦٧ إلى ٧٩ - بلا مؤشر ولا موعظة ، ونحن نعيش هذه الأيام في مؤتمرات . . تعقبها مؤتمرات .

الحلقة السادسة
اقترحنا العملة العربية الموحدة

كانت حدة الصراع بين الأنظمة العربية قد خفَّت إلى درجة التلاشي . وانعكس هذا الموقف على المؤتمر ، وكان جميع وزراء الخارجية يعيشون أياما من الصفو والسمو ويحاولون بكل السبل - ومن ضمنها تناسي أحقاد الماضي وضغائنه ومشاكله - أن يصنعوا من المؤتمر عملا ناجحا ورائدا . . يكون حجر الزاوية في طريق الصمود . وقد انتفى صراع العمالقة في الوطن العربي ، وحل محله كثير من الانسجام والوفاق .

كان الهدف . . هو : الدعوة لعقد لمؤتمر قمة عربي بعد المؤتمر مباشرة . ومع هذا المناخ ، اعتقدنا أن الوصول إلى هذا الهدف يسير وليس بعسير ؛ ومع هذا . . فقد استمر المؤتمر ثلاثة أيام ، افتتحه الرئيس الشهيد إسماعيل الأزهري ، وترأسه المحجوب . . وكنت مندوب السودان فيه .

كان الجميع يتهيبون الدعوة لانعقاد المؤتمر ؛ لارفضا ، بل تحسبا للفشل وآثاره . وكان الأخ إبراهيم ماخوس يرفض فكرة عقد مؤتمر قمة من حيث المبدأ ؛ والأخ عبد العزيز بو تفليقة (مع اقتناعه الكامل بضرورة عقد المؤتمر) ، يجامل الأخ إبراهيم ماخوس - رئيس وفد سوريا - كثيرا . . ويسانده في كثير من المواقف ، وكان تكتلهما يثير قوى اليمين ، ويسوق لكثير من النقاش الحاد حينا ، والجاف في كثير من الأحيان . وكان الشقيري ببلاغته الخطابية ، يريد أن يضع كل النقط فوق الحروف ، حتى قبل مؤتمر القمة .

وكان الصراع يدور حول جدول الأعمال ؛ وكان كل وفد يريد أن يضع الصياغة التي يريدها لجدول أعمال مؤتمر القمة • واختلفت الصياغات من أقصى اليمين ، إلى أقصى اليسار . . من مرتفعات التطرف ، إلى أمان الاعتدال . وكنا نقول إن هذه قرارات وليست جدول الأعمال ، وأن القرارات تصدر من الملوك والرؤساء ، ويجب

أن نترك لهم القرار في هذا . وكانت صيغتنا بسيطة جدا حتى لا يحتدم الحوار . . وما وراء ـ وما بعد ـ الحوار المحتدم الملتهب ، كان (بحث الموقف العربي الراهن) .

وكانت بقية الصياغات تتراوح بين إزالة آثار العدوان ، واللاَّ سلم واللاَّ صلح واللاَّ مفاوضات ، واللا مِساس بالقضية الفلسطينية ، واستمرار النضال المسلح ، والحرب الشعبية ، وقذف الإسرائيليين إلى قاع البحر الأبيض المتوسط ، أو لجة البحر الأحمر أيهما أبقى وأعمق وأسحق !

وكان الإخوان/ عمر السقاف ومحمود رياض ، وزيرا خارجية السعودية ومصر يتمسكان بأهداب الصبر والصمت . وكنا نخشى ونترقب ونتتبع . . أي كلمة تخرج من صمتهما ، فقد كنا نعرف أن فيها يكمن مصير مؤتمر القمة . وتكررت نفس الملاسنة اللغوية بين ماخوس وبو تفليقة من جهة ، وبين المحجوب من جهة أخرى . ودافع المحجوب عن الصرف والنحو بصرامة ، وترك الأخوان قاعة المؤتمر غاضبين وقلت للمحجوب :

" إننا يجب ألاَّ نتمسك بأصول اللغة العربية ، أكثر من تمسكنا بنجاح المؤتمر " . .

ورد علي :

" إنني لا أقوى على تحمل ضياع اللغة العربية بعد ضياع الأرض العربية " !

وأسرعت إلى فندق السودان أهدِّئ من روع الصديقين ، وأعتذر . . حتى عادا إلى قاعة الاجتماعات . ومضى يومان من عمر المؤتمر ولم يبق إلاَّ يوم واحد ؛ وكنا نوالي الاجتماعات صباحاً ومساء ، ونوالي معها النقاش والاختلاف حول جدول الأعمال . . وكأن هذا لم يكن كافياً ؛ فقد كنا نقتل الساعات الطوال ، حول رحلة المحامين العرب للمغرب ، وحول تمثيل الطريقي في وفد منظمة التحرير ، وحول شبح قضية اليمن . . الذي كان يحلق في جو المؤتمر . وكنا نسرع لإطفاء هذه الحرائق المؤقتة ، ونضع أيدينا في قلوبنا خوفاً من اشتعال الحريق الأكبر ـ يوقده العمالقة ـ وليس لدينا أدوات إطفاء الحرائق الكبرى لكي نتغلب عليه ، وأنظارنا وقلوبنا واجفة تتمعن في قسمات وفدَي السعودية ومصر .

ونكاد نطير من الذعر لأي همسة ، حتى لو كانت سعالاً يصدر من الأخوين محمود رياض وعمر السقاف . ومضى الوقت ومضت أعصابنا تتمزق معه ، ولم نستطع الوصول إلى صيغة لجدول أعمال مؤتمر القمة . ولم يكن مستطاعاً أن نلجأ إلى التصويت ، مع أن الأغلبية كانت مع انعقاد المؤتمر ، وستكون مع صيغتنا البسيطة فقد كنا نريد الإجماع . . وفي مثل هذه المؤتمرات لا تجدي الأغلبية ، ولا يقبل الاقتناع والتحفظ والرفض . . وفي مثل هذا الركود . . وفي خضم معركة الأعصاب وخوفاً من انفضاض المؤتمر بلا اتفاق . . وما يتبع ويلحق ذلك من مؤشرات وانعكاسات رأينا أن نستعمل آخر طلقة في حزامنا ـ وكانت المجازفة بهذه الطلقة الأخيرة مغامرة كبرى ـ رأينا أن نرجع إلى اقتراحنا في مؤتمر وزراء الخارجية في الكويت . . بإيقاف ضخ النفط نهائياً ولأجل غير مسمى .

وارتفعت حرارة الاجتماع ، وارتفع معها خفقان القلوب . . ولم تكن طلقة أخيرة فقط ، بل كانت رمية من غير رام ؛ وقلنا إن سلاح النفط . . هو أحد أسلحة العرب الماضية والمهلكة والمؤثرة ، ولا مناص من وجوب استعماله . وكنا نعني ذلك . . ونعرف أيضاً ، أن الخلاف أو الوفاق بشأنه ، لابد أن يسرع باجتماع مؤتمر القمة ، إذ لا يستطيع أي مستوى دون ذلك ، أن يقضي فيه بقرار حاسم . . طال الزمن أو قصر

وتشابكت الإرادات وتدافعت ، وتقدمت وتقهقرت ، وأسرعت وأحجمت وأجمع وزراء الخارجية على أن بحث هذا المقترح ليس في اختصاصهم ، ولا بد من أن يبحثه أصحاب الاختصاص . . وهم : وزراء المال والاقتصاد والنفط . . العرب . فهم وحدهم القادرون على بحث هذا الاقتراح ، وعلى قبوله أو رفضه ، أو تقديم أي توصية بشأنه .

تفجَر البترول ـ المتفجر دائماً ـ وأصاب لهبه الجميع ، ولم يكن أحد ما . . قادراً على إطفاء الحريق أو تركه مشتعلاً . وتقدمنا باقتراح لعقد مؤتمر لوزراء المال والاقتصاد والنفط العرب ، يبحث اقتراح وقف ضخ النفط وغيره . . من المقترحات التي تقدمنا بها في الكويت ، ولم تر الاتفاق ولم تشهد النور ، مثل تكوين صندوق

النقد العربي ، ومصرف الاستثمار العربي ، والوحدة الاقتصادية العربية ، والسوق العربية المشتركة . . والعملة الموحدة العربية . ووافق الجميع على هذا الاقتراح . . وتنفس الكثيرون الصعداء . . وشعر الآخرون براحة لا تعدلها راحة . ورأى الجميع مخرجاً لا يدانيه مخرج .

ثم اقترحنا أن يعقد بعد هذا الاجتماع مؤتمر لوزراء الخارجية ، يبحث قرارات أو توصيات وزراء المال والاقتصاد والنفط العرب . وكنا نعلم أنه لا مندوحة من قبول هذا الاقتراح ، وأنه ليس هناك حل بعده إلاّ عقد مؤتمر القمة . فمسائل البترول لا يمكن حسمها إلا على مستوى القمة ، ولا ينتظر حلّها إلاّ من العمالقة ، وستهون عندها كل مشاكل جداول الأعمال وصياغاتها ، فهي وحدها جدول أعمال ، وهي وحدها صيغة . . وعندئذ ستدرس صيغة " بحث الموقف العربي الراهن " . . إذ أنها ليست أرضاً محتلة فقط ، ولا قضية مركزية أو قومية فحسب ، بل هي النفط ، وما هو ماء ! ولكنه وريد الحياة وشريانها .

واستضاف الوفد العراقي ، مؤتمر وزراء المال والاقتصاد والنفط العربي في بغداد . وحدد هذا المؤتمر . . أجلا سريعاً لانعقاد ذاك المؤتمر ، وقرر أن يعقد بعده مباشرة مؤتمر ثان لوزراء الخارجية يدعو له السودان ، وانفضّ الاجتماع . وكنا نرى مؤتمر القمة رأي العين ، ونلمسه بالأيدي ، ونشمّه بالأنوف ، فقد أصبح حقيقة واقعة لا مفر منها . ووضع الأخوان/ عمر السقاف ومحمود رياض أيديهما على كتفي وهما يبتسمان . . ابتسامات أوضح وأجلى من كل كلام . ولم تكن الابتسامات حكراً عليهما وحدهما ، فقد كانت الابتسامات تشعّ من كل جوانب القاعة . . ونحن نتركها بعد انفضاض الجلسة .

وشددنا الرحال إلى بغداد ، واستقبلتنا عاصمة التاريخ والرشيد ، وجماهيرها تموج وهديرها يصم الآذان . وفي كل شبر منها . . لافتة تدعو لوقف ضخ النفط . ووسط هذه المتظاهرة الحافلة بكل المعاني في الشعب العربي في العراق ، عقدت أول جلسة لمؤتمر وزراء المال والاقتصاد والنفط العرب .

زاد عدد الحضور في مؤتمر بغداد الاقتصادي ، إذ اشتركت فيه كل من أبو ظبي وقطر والبحرين . ولم يكن لها أن تجتمع في مؤتمر وزراء الخارجية في الخرطوم ، إذ لم تكن قد نالت استقلالها بعد ، وحسب ميثاق جامعة الدول العربية لا يتسنى لها الاشتراك في مؤتمر وزراء الخارجية . لم تكن لدينا معلومات كافية عن النفط ، ولا أنسى نادرة الأخ السفير جمال محمد أحمد يومها . . إذ التفتَ إليَّ . . قائلاً :

" ربما الذي سيفيدك من وقف ضخ النفط أو تدفقه ، فأنت لا تملك قطرة واحدة منه ، ربما أشد جرأتك . . وهل يعرف الشوق إلا من يكابده ! " . .

والتفتُّ إليه في جسارة وخيلاء . . وقلت :

" إن الخرطوم مليئة بطلمبات البترول ، وهي تضخ النفط لكل السيارات بما فيها سيارتي " . وضحك ، ودلفنا إلى قاعة الاجتماعات .

وبعد أن افتتح الأخ عبد الرحمن عارف الاجتماع بخطاب طويل ، أردفه الأخ رئيس وفد العراق ـ ورئيس المؤتمر ـ بخطاب آخر ، استقبلتنا مفاجأة كبرى . . إذ تقدم رئيس الوفد باقتراح لوقف ضخ النفط لثلاثة أشهر . فاعترضنا وقلنا : إن اقتراحنا هو : وقف ضخ النفط نهائياً . . ولأجل غير مسمى . وكنت أبتلع جسارتي . . بل ما هو أشد من الجسارة ـ ربما الوقاحة نفسها ـ وأنا أعترض على تحديد المدة بثلاثة أشهر . . وصدى نادرة الأخ جمال محمد أحمد لا يزال يرنّ في أذنيَّ . وارتفعت حمى الاجتماع ، وساده جو متعكر منقبض ، فتح المجال لنقاش ساخن وهائج وهادر .

وأدركت ـ وأنا مستغرق في دوامة تبادل الحوار ـ أنه ليست لدينا معلومات محددة وعلمية نستطيع أن نجادل بها . فمثل هذه الأمور لا تبحث ولا تناقش بمجرد الحماس والانفعال ، ولذلك طلبنا رفع الجلسة إلى صبيحة اليوم التالي . وأمضى وفدنا كل عصريته ومسائه وإلى صبيحة اليوم التالي ، وهو سجين اجتماعاته . . يكمّل منهمكاً بالطواف على الزملاء في الوفود الأخرى ، خاصة أصحاب الباع الطويل في علم النفط . . وحساباته وأرقامه وإحصائياته . ولم يكن مستطاعاً أن نستوعب كل علم النفط وعلمه في يوم واحد . ولكنا كنا نركز على شيء واحد : كم هو إنتاج النفط

العربي في ثلاثة أشهر ؟ وكم هي مبيعاته ؟ وما مقدار استهلاكه في الأسواق التي يـ فيها؟ وما هو مدى الفراغ الذي سيتركه وقف ضخه في هذه الفترة الزمنية ؟ وما هي بدائله ؟ وما هي آثاره وفعالية إيقاف ضخه في الأشهر الثلاثة ؟ . . . وللتاريخ . . فقد جمعنا كل هذه المعلومات من منتجي النفط أنفسهم ، المتضررين من إيقاف ضخه والمستفيدين من استمرار ضخه .

وتابع الأخ بشير عثمان اسحاق ـ الوكيل المساعد لوزارة الاقتصاد بالسودان ـ جمع هذه المعلومات . . وتبويبها ووضعها في إطارها الرقمي والعلمي . وتابعت معه حفظها واستيعابها وهضمها وفهمها . وكانت مهمة شاقة وعسيرة ومضنية . وما أصبح الصباح ، إلا وأقنعت نفسي بأنني أصبحت عالماً في إنتاج النفط واستهلاكه خبيراً بما تنتجه آبار النفط العربية وما تستهلكه أوروبا وأمريكا منها ، والبدائل التي تستطيع أن تملأ بها الفراغ ، الأقطار المنتجة الأخرى . وامتلأت دهشة من حصيلة المعلومات التي حصلنا عليها . . فلقد كانت العملية بسيطة ، لا معقَّدة ولا مركَّبة ولا مستعصية .

لم يتجاوز حديثي ربع الساعة ، فقد قلت للاجتماع : إن كلاً من أمريكا وأوروبا تحتفظ دائماً بمخزون أربعة أشهر . وإن كميات كبيرة من النفط العربي ، قد بيعت قبل الاجتماع ، فهي إما في موانئ الاستيراد أو في عرض البحر ، وإن روسيا قد باعت كميات كبيرة من النفط ، وإن وقف ضخ النفط وتحديد مدة محدودة له ـ هي ثلاثة أشهر ـ لن يحدث أثراً ما ، إذ أن المخزون وحده كاف لكي يغطي هذه المرحلة الزمنية دعك من بحيرة النفط التي تعوم فيها الموانئ والبحار . . وأنه إذا كانت المدة ثلاثة أشهر . . وهي معلَنة ، فإن القرار سيحدث ضرراً ، ولن يخلق أثراً . . وسيكون له أثر عكسي ، إذ لن تكون هنالك ضائقة أو أزمة . . وأن أضرار القرار ستكون على المنطقة العربية ، ولن يحس به أحد . فإذا كان لا بد من تحديد المدة بثلاثة أشهر وإعلانها ، فالأحكم والأنسب . . ألاَّ يصدر أي قرار ، وأن ينفض الاجتماع بعد أن يبحث المقترحات الاقتصادية الأخرى . وجلست . . وأيَّدني بكثير من المعلومات

والأسانيد الأخ قائد أحمد ، والأخ حسن عباس زكي وزيرا الاقتصاد : الجزائري والمصري .. وقتها .

كانت حرارة الشعب العربي في العراق ، تملأ جو القاعة وتعطر أرجاءها . . فلم يستطع مقدم الاقتراح أن يدافع عنه بكثير أو قليل . . واستغرق أمراء البترول وشيوخه في تفكير عميق . وكان الأمير مساعد بن عبد العزيز رئيس الوفد السعودي ، يركز أنظاره علي (وبجانبه الشيخ أحمد زكي يماني ، والشيخ هشام ناظر) . . وعلى وفد السعودية، كانت وفود : الكويت وقطر وأبو ظبي والبحرين وليبيا - في عهد الملكية - تركز أنظارها . وتبارت وفود دول المواجهة التي احتلت أراضيها ، ومعهم الذين لا يملكون (مثلنا) قطرة من نفط ، في تأييد ودعم ومساندة اقتراحنا .

وبدا لي أن شيئاً من المكايدة ونوعاً من الحسد . . كان يشوب ويخالط كلامنا وأعترف أن أعراض الخجل قد اعترتني ، وبدا أن هناك مباراة بين الذين يملكون . . والذين لا يملكون ، والذين يكوّن البترول ، كل الحياة في بلادهم ، والذين لا يهمهم توقف البترول أو تدفقه ، فهم لن يخسروا شيئاً ؛ وتبيّنت وقتها . . أننا نضغط - وكثيرا جدا - على رجولة وشهامة وإيثار وعروبة وتضحية آخرين . . . وكأنما نقول لهم :

" إنكم لا تبدلون ثراءكم وراحتكم . . بعروبتكم وقوميتكم وأمتكم " .

وكان خيارا صعبا . . اعتقدت وقتها ، أنه ليس من المروءة ، استعماله أو الضغط عليه ، أو مواجهة الآخرين به . ولم أكن أعلم وقتها ، أن هذا . . كان هو مفتاح الموقف ؛ وأن نفس هذه المشاعر ، كانت تدور في رؤوس أصحاب البترول ، وأنها حرّكت فيهم جميعهم . . كوامن الرجولة والفداء ، ولم يختلف في هذا اليمينيّون والمتحررون . . وأصحاب الشمال أو أصحاب اليمين - إذا صحت التسميات والتصنيفات . ولكن القرار النهائي لم يكن سهلا بمثل ما تصوّرت ، فهو قرار كبير لا تصنعه العواطف والمكارم وحدها . ولم يكن يملكه الذين يجلسون معنا في القاعة وحدهم .

كان لابد لهم من الرجوع لعواصمهم ورئاساتهم . وطال الاجتماع واستمرَّ حتى الهزيع الأخير من الليل . . واستفاض النقاش وتشعب ، وحتى بعد هذا الهزيع من الليل ، استمر التشاور الثنائي والثلاثي والرباعي في غرف فندق بغداد ، وبين وفود الدول المنتجة ، وكان لي حظ كبير في حضور أغلبية هذه الاجتماعات . وفي حديث طويل . . استمر حتى تباشير الفجر ، مع الأمير مساعد بن عبد العزيز رئيس وفد السعودية . وانهالت الاتصالات الهاتفية والبرقية ، على مختلف العواصم . . ولم أكن بعيدا عنها .

نقِلَ الموقف في الاجتماعات برمته . . من الوفود لعواصمها ؛ ولم أكن طرفا في هذا ، ولكن . . اخترقت الحواجز وأرسلت ـ ما أعتقد وما أرجو ـ للرياض ، وكانت مجرد مشاعر من عربي وصديق متحمس ليس إلاَّ .

خرج القرار من أيدينا كلنا . . وذهب بعيدا ، ولم يكن أمامنا بعد ذلك إلاَّ أن ننتظر ونأمل ونتمنى . كانت الدول التي تملك النفط وتنتجه وتسوِّقه هي : السعودية والعراق والكويت وليبيا والجزائر وأبو ظبي وقطر والبحرين . وكانت تكوِّن نصف المجتمعين من الناحية العددية ، وكل الاجتماع من الناحية النفطية ، وهي صاحبة القرار الذي يتوقف عليه مصير الاجتماع ، بل مصير مؤتمر القمة نفسه . . وكل ما نترقبه ونرجوه ونطلبه منه .

كان العالم كله يتجه بأنظاره إلى بغداد ، فعلى القرار الذي سيصدر منها ، يتوقف مستقبل وحاضر الاقتصاد العالمي ؛ وتسيير مصالحه ، ودوران اقتصاده ، وإنتاجية دوله ، ودخول شعوبه ورفاهيتها ، وحتى أمانها . . من الفقر والبرد والجوع والمرض .

وإذا كان الحماس والانفعال ، قد خيَّلا إلينا أنه قرار سهل ، فلم يكن الأمر كذلك إذ أنه كان قرارا خطيرا له عواقبه وردود أفعاله . وحتى بعد أن جاء الرد من كل عواصم إنتاج النفط ، فلم يكن الاتفاق عليه سهلا . . إذ دارت حوله رحى معركة طاحنة ، ظاهرة ومستترة .

وفي السابعة صباحا ذهبت إلى غرفتي ، وتركت أوراقي . . المليئة بكل الأسرار والمداولات والمشاورات والمستندات ، في حوزة إسحاق ـ الوكيل المساعد لوزارة الاقتصاد . وقفلت راجعا إلى بهو الفندق حاملا أوراقي . وأخذتني غفوة قصيرة . وكان بجانبي أخوان من الصحفيين . . سال لعابهما وراء الحقيبة ، فاغتنما فرصة إغفاءتي ، ولاذا بالمغنم الكبير كما أعتقدا . وكم كانت حسرتهما ! عندما وجداها أفرغ من فؤاد أم موسى نفسها ـ والأخوان الآن . . من كبار رؤساء تحرير الصحف وأصحاب دور النشر ـ عفا الله عنهما .

الحلقة السابعة
قرار وقف ضخ النفط

قد يبدو لبعض القراء، أن قرار وقف ضخ النفط ، قرار سهل . . يمثل بساطة وقلة الكلمات التي يحتويها . وإذا قيست القرارات بقلة وبساطة الكلمات، فقد يبدو أيضا قرار إعلان الحرب ، سهلا ويسيرا وبسيطا . وفي واقع الأمر . . فإن قرار وقف ضخ النفط ، لا يقل أثرا ولا خطورة ولا أبعادا عن قرار إعلان الحرب ، وهو في الواقع أخطر وأعمق أثرا وفعالية . . فقد تعلن الحرب في دولة على أخرى . . أو من مجموعة دول ؛ ولكن وقف ضخ النفط ، هو إعلان حرب كونية ولا أقل من ذلك هو اختراق لكل نسيج الاقتصاد العالمي وما يمثله ذلك من: إنتاج ، واستهلاك وتجارة دولية - بأطرافها المتعددة والمتشابكة - ونقل ، ومواصلات ، واتصالات ودخول وخدمات ، وتقدم وحضارة . . وعلم .

والحرب أساسا تنشب لأسباب اقتصادية . . والسياسة ليست إلا وجها ومظهرا وساترا للاقتصاد . والواقع أن الاقتصاد هو جوهرها وأساسها . . وبدون النفط العربي فلا يمكن للحضارة العالمية - الغربية على الوجه الأخص - أن تستمر وتبقى . . دعك من أن تنمو وتتقدم . ولا يمكن لعاقل أن يقدِّر أن سدنة هذه الحضارة وورثتها يمكن أن يقبعوا مكتوفي الأيدي ، وهم يشاهدون حضارتهم ، بل كل مقومات ومكونات حياتهم . . تنهار أمامهم . فهم لابد أن يحاربوا ويموتوا دون ذلك . وقد سبق أن اشتبكوا في حرب عالمية لأسباب تقل عن هذا . . وبكثير! وبكل المعلومات والإحصائيات المتاحة ، لا يمكن للعالم أن يسير، إذا انقطع عنه النفط العربي .

كانت هذه حقيقة لا تقبل الجدل ، وقت انعقاد مؤتمر بغداد ، وظلت إلى الآن حقيقة أكبر وأوضح ؛ فكلما زاد سعر النفط دولارا ، قامت الدنيا كلها ولم تقعد فما بالك إذا توقف . . ونهائيا ؟ كانت كل الاحتمالات مفتوحة وماثلة . . عقب إعلان هذا القرار وتنفيذه جماعيا - بما فيها احتلال كل المنطقة العربية (سواء كانت منتجة

للنفط ، أو معبراً له أو حزاما لأمنه) ـ ولم يكن الاحتلال صعبا على القوى الكبرى ـ لا وقتها ولا الآن ـ وهي التي تملك القواعد البرية والبحرية والجوية . . وهي التي تسيطر على إسرائيل . . وهي أقوى قاعدة لها في المنطقة ؛ بل ربما أرخص قاعدة من ناحية التكلفة المادية والبشرية .

ولابد أن نلاحظ الفرق الشاسع . . بين الاستنزاف الذي واجهته أمريكا للاحتفاظ بقواعدها في الشرق الأقصى (مثلا فيتنام) ، وبين الذي تكلّفته في الحفاظ على قاعدتها إسرائيل في الشرق الأوسط . وعلينا ألاّ نستغرب . . كلما دفعت أمريكا بضعة بلايين لإسرائيل ، بل علينا أن نقارنها بمئات البلايين التي تكلّفتها في مناطق أخرى ، للمحافظة على نفوذها . . . ولم تستطع !

هذا . . بالإضافة إلى الاهتزاز الداخلي ، والغليان الشعبي ، وحالات الانكفاء والعزلة والإذلال العصبي الذي عانته . وعلينا أن نتذكر حرب ٥٦ عندما أمم ناصر قناة السويس ، وهي لا تعدو أن تكون ممرا للنفط ، من ضمن الممرات الكثيرة في العالم .

لم يكن أحد بيننا . . يجهل أو يستهين بصعوبة القرار ، وخطورة عواقبه ، وقتها كانت إسرائيل على بعد فراسخ من أكبر عواصم العرب ، وكانت قواعد أمريكا وإنجلترا (البرية والجوية والبحرية والأرضية) ، تجثم على المنطقة العربية من المحيط إلى الخليج ، ولم يكن الأمر بالنسبة لهم ، إلاّ مجرد نزهة أرضية أو بحرية أو جوية ولم يكن يقف أمامهم إلاّ بضعة جنود ، وبقايا من حطام أسلحة وعتاد . والصورة هذه . . كانت واضحة وجلية ، سواء للعواصم التي طارت إليها التوصيات ومشروعات القرارات ، أو للوفود . . التي كانت تجتمع في بغداد .

وفي هذه الفترة ـ وبصورة لم تكن تطفو كثيرا على السطح ـ كان يدور نشاط ديبلوماسي محموم ومكثف ، في كل عواصم العالم الكبرى ؛ حتى في موسكو التي لم تكن ستتأثر مباشرة بالقرار ، فلديها الاكتفاء الذاتي من النفط ، ولكنها . . وإن كانت تلجأ أحيانا لسياسة حافة الهاوية ، إلاّ أنها كانت لا تحبِّذ ـ إن لم تخشَ ـ احتمالات المواجهة بين الدول الكبرى في حالة صدور القرار . وهي . . وإن كانت

تسعى لإثبات وتأكيد عجز الاقتصاد الرأسمالي ، وتبني نظرية ثورتها العالمية على ذلك ، إلا أن ضرورة التوازن الدولي والحسابات العالمية ، كانت تدفعها لتوقيت المواجهة ، وتخطيطها . . واختيار زمانها ومكانها . ولم تكن تسرّ كثيرا إذا جرَّت لمثل هذه المواجهة بالضغوط ، وبفعل الآخرين وبسياساتهم . فهي تعلم أن الغرب سيدافع عن وجوده واقتصاده ، بكل الشراسة والضراوة والمقدرة التي يملكها . . إذا اضطر لذلك .

كان سعر برميل النفط ـ وقتها ـ لا يتجاوز الدولار وبضعة سنتيمات . وكان الأفضل للغرب بكل مؤسساته ـ بما فيها شركات استخراج النفط وتكريره وترحيله وتسويقه ـ أن ترفع سعره أضعافا مضاعفة . . بدلاً عن وقفه . وقد حدثت مساومات في هذا الاتجاه . وكانت أرباح احتكارات البترول (وشركاته المتعددة الجنسية ، ذات النفوذ الاقتصادي والسياسي الديناصوري) ، هي أقل نتائج وقف الضخ . . وأبسطها بالمقارنة مع تراكمات ومضاعفات الآثار الأخرى ؛ ومع هذا . . فقد كان مندوبو هذه الشركات ، وعيونها ووكلاؤها ـ العلنيّون والسرِّيّون ـ هم أكثر المجموعات نشاطا واتصالات .

وبصرف النظر عن الآثار العالمية لهذا القرار ، فإن الآثار المحلية في كل قطر عربي كانت ساحقة وشاملة . لم يكن ليتحرك ساكن ، أو يضيء بيت ، أو يبترد أو يتدفأ أحد ؛ أو تسير مركبة ، أو يتيسر نقد (داخلي أو خارجي) للحكومات أو الأفراد . . بلا نفط .

لم يكن هناك غيره . . . في كل الأقطار المنتجة : لا زراعة ولا صناعة ولا تجارة . . ولا استثمار ولا تعليم ولا خدمات ، كان هو العمود الفقري ، وإذا توقف . . أصيب كل شيء بالشلل ، والسكتة القلبية الصاعقة الكاملة . وكانت كل الدول المنتجة وقتها مَدِينة وبمبالغ ضخمة لشركات النفط . وكان اعتمادها الوحيد . . في أدائها وإدارتها وأمنها ومعيشتها ، على ما تتسلمه من عائدات النفط ، ومن نفس الشركات الدائنة . إن هذا الشرح البسيط هو جماع الموقف ؛ وقد يكون معروفا للجميع . . أو للكثيرين

وقد أوردته هنا للذكرى . . فقد تنفع المؤمنين .

ولمعرفة الواقع المعيشي الآن ، فهو ثابت لم يتغير منه أي جزء حتى لو كان طفيفا ولكي لا ننسى أثر النفط على أمتنا ، وعلى قضيتها . . وعلى العالم ؛ ولكي نعلم أن السياسة النفطية - استخراجا وتسويقا وتوقفاً ومقاطعة ، وارتفاعا للسعر أو تخفيضا له - هي عصب أساسي : يحيي ويميت ، ويعز ويذل ، ويمنح الحكم ويمنعه ، ويخلق الانقلابات والثورات والتغييرات . ولها كل الأثر - ولا أثر غيرها - في كل سياساتنا وفي مصير قضيتنا القومية والحضارية . وإذا قيل في التاريخ - وعند حدوث أي ملابسات سياسية - " فتّش عن المرأة " ! فنحن نقول هنا . . " فتّش عن النفط ، وأنت لابد واجده ، وراء كل شيء " .

إن أمتنا العربية تملك الأغلبية الساحقة من مستخرَج النفط ، وحتى مخزونه . . في باطن أرضها ، وفي قاع بحارها ومحيطاتها وخلجانها . ولديها كل المعابر والممرات المائية والأرضية . وبالتالي : فقد كان الأحرى والأولى . . أن تملك عصب السياسة الدولية ، ومعايش ومصائر الشعوب . ومع هذا . . فإن أرضها محتلة وأهلها مشردون ، وقضيتها ضائعة يلعب بها من لا يستطيعون مجرد الحياة والتنفس بدونها . فلماذا ؟ ويا للغرابة . . ويا للضياع !

تواترت الردود ومن كل العواصم . . وبعد المشاورات بينها ؛ وكنت أنتظرها ولكن - وللأمانة - كنت أتكئ وأعتمد على رد واحد ، هو الذي أرسلت إليه توصيتي (العربية والشخصية والصديقة) . وجاء من الطائف . . ولم يخيّب لي ظنّاً أو حَدساً وجاء معه ضوء أخضر ، كنت أعرف سلفا . . أن أغلبية المنتجين سيعتزون به ويطابقونه .

ودخلنا القاعة . . ومع أني كنت أعتقد أن الاجتماع سيكون قصيرا ، وستعقبه الموافقة على اقتراحنا ، إلا أن النقاش مع هذا . . تشعّب وصعد وهبط ، وحرّ وبرد وطال .

لم اشترك في النقاش طويلا ، فقد كنت أعرف فحوى الرّدود التي وصلت وكنت

مطمئنا للنتيجة ، وخشيت من كثرة النقاش وحِدَّته . فقد كان الإخوان المتحمسون للاقتراح ، لا يزالون يدافعون عنه بمثابرة . . ويعتقدون أن الآخرين - المنتجين - لا يوافقون عليه . وكانت نغمات المصلحة القطرية . . وفي مقابلها المصلحة القومية ومصلحة المنتجين . . وفي مقابلها مصلحة القضية ؛ وألفاظ التضحية والإيثار . . والغنى والفقر ، والذين يملكون ويريدون المحافظة على ثرائهم . . والذين ضحّوا بالنَّفس ، والذين لا يريدون حتى التضحية بالنَّفيس . كانت هذه التعبيرات تثير حساسية وتنكأ جراحا ، وتخلق أجواءً وتولد أزمات لا ضرورة لها ، إن لم يكن منها ضرر .

قال الأخ زهير . . ولا داعي لباقي الاسم ، أو التمويه : " لقد قاتلنا ومتنا ؛ وأنتم لا تريدون حتى التضحية بالوقود" . وتكهرب جو القاعة وسادها توتر عنيف . وطاف في مخيِّلتي الموقف بأكمله . وجاءت صورة الخامس من يونيو ، تحطِّم أعصابي وأنفاسي وعظامي . . مثلما فعلت بي في نفس يومها القاتل ، وعلى الرغم مني ، فَقَدت هدوئي وأعصابي وانفجرت : " لقد توقعنا أن يكون الموتى بالملايين لا بالعشرات والمئات ، وأن تطول الحرب أعواما ، لا يوما واحدا ، نحن لم نهزَم ؛ لأن أحدا ما لم ينتظرنا ، حتى يومين ، لكي نحضر ونقاتل معه ، ولذلك فنحن لم نهزم ونعتبر أن الأمة العربية لم تهزَم " . واسترسلت في كلام مؤلم وحزين (وربما جارح) ونظرت إلى يميني ، فوجدت الأخ/ جمال محمد أحمد . . يبكي في حرارة وألم .

وساد القاعة صمت رهيب . . وطويل ؛ قطعه الأخ المنتصر - مندوب المغرب - الذي وقف يصيح بأعلى صوت ، وهو يكاد يتشنَّج من الألم : " نعم لم نهزم . . نعم لم نهزم " . وكررها مرات متعددة . . وأردفها بخطاب قصير ومليء ، من نفس لون وطعم ومذاق كلامي . ونجحت الصدمة الكهربائية والعاطفية والحماسية ، في تبديد جو القاعة من توتّر وتشنّج . . ومحاور ومنابر ومعسكرات واتجاهات ، مما كان سيودِي بها . . وبالمؤتمر ، وبالمقترحات والقرارات . وقطع صمتها الرهيب الجاثم حديث الأمير مساعد بن عبد العزيز رئيس وفد السعودية ... بقول في هدوء :

" إن المملكة السعودية توافق على اقتراح وفد السودان ، بوقف ضخ النفط نهائيا ولأجل غير مسمى " .

ولم يزد . . . وتبعه رؤساء كل الوفود المنتجة للنفط ، يوافقون على القرار . ونظرت حولي إلى زملائي المتحمسين والمتقدمين ، وقرأت ما يشبه الحَيرَة والاستغراب والفرح في وجوههم ، وأقبل بعضهم على بعض يتعانقون ، وانفض الاجتماع . وفي صف طويل . . تسوده الثقة وتربطه الوحدة ، خرجنا بالثياب البيضاء ، وفوق الرؤوس العقالات المذهبة والسوداء ، والملابس الأفرنجية المبهدلة والأنيقة . . ولا فرق ! خرجنا لكي نستقبل جماهير العراق ، وهي تحاصر القاعة منذ أيام ، وتسقيها من عروبتها ، وترويها من حماسها وأصالتها . . خرجنا نزف القرار . . . . . .

وقامت القيامة !

كلَّفني جميع زملائي . . بأن أشكر العراق على أصالة شعبه ، وعلى كرم ضيافته وفي احتفال بسيط وقصير ، تكلمت نفس المساء ، وانفض السامر إلى لقاء . وطيِّر الخبر إلى مختلف عواصم العالم نفس الساعة ، وهرَجت أجهزة الإعلام ومرَجت وتعددت التعليقات ولم تتضح السياسات ، وكان كل شيء متوقعا وفي أي لحظة . ومع هذا . . فقد ساد العالم صمت القبور ؛ ربما كان الهدوء الذي يسبق العاصفة أو مؤتمر القمة - أيهما أسرع - وسنرى . . وربما نعلم .

وصلتني برقيتان عاجلتان مباشرة بعد انتهاء المؤتمر ، وكان علي أن أكون في الرياض والقاهرة في الوقت نفسه . . ومع الإخوة أعضاء الوفدين . وبعد تفكير قصير ، رأيت أن أذهب للقاهرة ، وشرحت للأمير مساعد . . لماذا القاهرة أوَّلاً وتفهَّم وجهة نظري ، وأخبرته بأني سأحضر للمملكة من القاهرة مباشرة . . وقبل الخرطوم . وحملت حقيبة ملابسي ، وتركت حقيبة أوراقي المسلوبة . ومن مطار القاهرة ، توجَّهت مباشرة إلى منزل الرئيس جمال عبد الناصر . . بالمنشية .

استقبلني الرئيس جمال عبد الناصر في مودة وبشاشة ، ولكني . . وقد تعودت على قراءة ملامح وجهه ، لاحظت أن في وجهه شيئا من الانقباض ، ولم أعرف

لذلك سببا إلاّ عندما بدأنا في الكلام :

" إن قرار مؤتمر بغداد انتصار كبير ؛ وقرار وقف ضخ النفط لا يقل - إن لم يزد - على الانتصار في المعركة الحربية . . وأنا أتوقع آثارا حاسمة له " .

نظر إلي في ألم ...

وقال :

" وما الذي سينفعنا به هذا القرار ، إنّ ما لم يستطع الإسرائيليون تحقيقه عن طريق الحرب ، سيحققونه عن طريق الاقتصاد . ليس هناك قمح ، ليس هناك دقيق ، ليس هناك سكر ، ليس هناك زيت . . ولا وقود . وقائمة السلع - خصوصا الاستهلاكية المفقودة كليا والناقصة - لا نهاية لها . هناك مجاعة موشكة ، وقد أوشك الحصار الاقتصادي أن يصل إلى غايته المحتمة ، هل يمكن أن تبيع لنا هذا القرار ؟ هل هناك من يشتريه " ؟

وأجبت على الفور وفي مرارة لم أستطع أن أخفيها :

" لقد تصورت أن هذا هو القرار الذي يتطلبه الموقف ، وهو بلا أدنى شك قرار رادع وحاسم . . ولكن - وعلى أي حال - وأنت خير من يعرف كل جوانب الموقف ويحدد ما هو المطلوب واللازم للمعركة والصمود . . هو طبعا ليس قرارا بائرا . . إن هناك كثيرون يتحلب ريقهم لمشتراه " .

وأردفت ضاحكا :

" لست من زبائنه ، إذ لا نملك قدراته ومتطلباته . . ولكن إذا رأيت أنت استبداله (بما هو أدعى للصمود) ، وأكثر وأسرع إيجابية لمتطلبات المعركة ، فأنت أقدر على تقرير ذلك ، فأنت الواضع يديك على الجمر . . وأعرَف بالأسبقيات . لا أزال أعتقد أنه قرار حاسم ، وأرى ضرورة السير فيه إلى النهاية ، وأؤكد : أن له آثاره الضخمة . . ولكن أقدِّر الموقف حسبما تراه ، فأنت تعيشه وتتأثر به مباشرة . . ونحن لا نملك إلا التعاون فيما يدعم الصمود ، ويؤكد استمرارية النضال وانتصاره الحتمي . . ونوافق على تقديرك ، مع إيماننا بقرار وقف الضخ . وإذا كان الموقف

يقتضي استبداله - أو حتى بيعه - فليكن ، وباسم الله " .

قال : " وما الذي سيحققه . . عشرون مليون دولار مثلا ؟ " .

لم أفكر كثيرا بل جاوبته بسرعة :

" عشرة أضعاف هذا على أقل تقدير . هذا . . إذا كان لابد من السرعة (وإذا كان الموقف يقتضي السرعة) ، أما إذا تمهلنا . . فسيصل إلى عشرة أضعاف تقديري . . وعلى الأقل أيضا " .

قال :

" لا أكاد أصدق ذلك ، ولكن . . حتى ولو كان على أساس تقديري لا تقديرك فالموقف يقتضي كل السرعة . ليس هناك وقت . . ما هي الطريقة العملية " ؟

قلت بعد دقائق من التفكير :

في المرتبة الأولى : رحلة سريعة للسعودية ، وثانيا : وسألته - إنت طبعا ستحضر مؤتمر القمة ؟ " .

قال : " لم أجزم بعد ، لا أزال مترددا " .

قلت :

ليس هناك مجال للتردد . . كان الحضور واجبا قبل مؤتمر بغداد . وبعد القرار أصبح أشدَّ وجوبا . وبعد رأيك الحالي (في استبدال القرار) ، فليس هناك مناص من حضورك " .

قال :

" لمـــاذا ... " ؟

قلت :

" إن خير من يقترح استبدال القرار ، هو أنت شخصيا ، ولا أحد سواك . . لابد أن تقف شخصيا ، وتقول : " إن البترول سلاح إيجابي ، وليس سلاحا سلبيا ويجب أن يستمر ضخه ويستعمل من أجل الصمود . لا أحد غيرك يستطيع طرح هذا الاقتراح . لقد تعبنا كثيرا في إصدار قرار وقف الضخ . . وكان له دَوِي ، خاصة لدى

الأمة العربية كلها . ولا يعقل أنَّ نفس أصحاب البترول الذين وافقوا على وقف ضخه ـ ولابد أن توافقني أن في هذا . . كل التضحية والشجاعة ـ لا يعقل أن يقترحوا هم أنفسهم ، إعادة ضخه وفسخ قرارهم . ونحن الذين اقترحنا الوقف ودافعنا عنه لا نستطيع لحَسَه بهذه الصورة وهذه السرعة . أنت وحدك قادرأن تقترح . . استبدال القرار . وستقدِّرالأمة موقفك ، إذ أنها تثق فيك ، وتريد معاونتك . . وتحترم رأيك ولابد أن يثنِّي على اقتراحك هذا ، الأخ بومدين . . ويؤيده الآخرون . فليس في هذا صعوبة ، إذ أن توَجُّه الجميع : هو التعاون ـ وإلى أبعد مدى ، وهدفهم هو المعركة والصمود .

إن البترول نار . . وما أسرع اشتعالها واشتعاله . ويمكن ـ إذا طلب أي أحد آخر استبدال القرار ـ أن تشتعل النارفي آبار النفط ، أو في أنابيبه أو مستوذعاته ، أو في مصانع تكريره أو شاحناته أو موانئه . وإذا اقترحت أنت . . فليس هناك أدنى شك من حدوث هذا . وأصحاب النفط هؤلاء عرب . . لهم انتماء وكبرياء ، وقد دارت حولهم كثيرمن الشائعات والأحاديث ، حتى في مؤتمر بغداد نفسه . وكان القرارتحديا . . فلن يقبلوا فسخه . هذا القرار اتّخِذَ لدعم الصمود ، وأنت وحدك قادر على تحديد الكيفية التي يتم بها هذا الدعم ، هو دعم لك ، وأنت أعرف من الآخرين بأيٍّ أسلوب ، وأيِّ طريقة يستخدم . . لكي يكون نافعا ؛ وأقدر على تَحَمّل مسؤولية ذلك ، أمام الأمة العربية وأمام التاريخ " .

انفرجت أساريره وضحك . . وقال :

" آسف . . إذ أنني اضطررتك لهذه الخطبة النارية ، لابد أنك اعتقدت أنك لا تزال في المؤتمر . . وأنني كل الأعضاء ، إنني لا أحتاج لكل هذه الخطبة لكي أقتنع . . سأحضر المؤتمر ، وسأتقدم باقتراح استبدال القرار ، شخصيا ، هل أنت واثق من نتائج رحلتك ؟ " .

قلت :

" نعم ! " ... (في وضوح واختصار) .

" ومع هذا . . فسأحضر إليك من السعودية قبل أن أسافر للخرطوم ، وأبلّغك بالنتيجة النهائية " .

قال : " ومتى ستسافر للسعودية ؟ " .

قلت : " بأول طائرة " .

ودخل الأخ/ سامي شرف . . ووجد لي طائرة ومقعدا بعد ساعة . ومن المنشية ـ من منزله ـ رجعت توًّا للمطار ، وحقيبتي لاتزال في مؤخرة السيارة ، ولم أرَ وجه قاهرة المعز الضاحك الصبوح . . العتيق المضياف .

ومع انصرام الليل . . ومروره بساعات حياته الأخيرة ، استقبلني في مطارجدة الأمير مساعد بن عبدالعزيز والأخ عمر السقاف . وفي بهو فندق قصر جدة ، تبادلنا حديثا قصيرا . ثم ذهبت لغرفتي ، ومع كل التعب والسهروالسفر . . لم ترَ عيناي مناما .

يذهب الملك فيصل عادة لمكتبه في العاشرة صباحا ، ولا يبرحه إلا بعد منتصف الليل ؛ لم يكن في حياته ـ رحمه الله ونضّرقبره ـ إلا العمل الشاق الطويل المتواصل . واعتقدت أنني سأذهب إليه بعد العاشرة في مكتبه ؛ ولكن الأخ عمرالسقاف انتزعني من غرفتي في حالة مشوّشة ، وذهب بي إلى منزل الملك فيصل في الثامنة صباحا .

استقبلني عند باب الصالون . . كعادته ؛ وبمثل ترحابه المعروف ...

قال وهو يبتسم : " لقد وصلتني رسالتك وقرأتها في إمعان ؛ أرجوأن تكون قد ارتحت بالاً وضميرا بعدالقرار " .

قلت : " إنه قرار ؛ وكنت أعتقد أنه كان مناسبا من جميع الوجوه . وللتاريخ . . فلولا موقفك ، لم يكن ليتحقّق " !

قال : " أستغفر الله . . إن ما نقوم به هو لوجه الله ، وفي سبيل الإسلام والعروبة ، وليس لنا فيه غاية أو غرض " .

قلت : " إنني أعرف أنك لا تحب الثناء ، وأنت تعرف أنني لا أحب قوله ؛ ولكنه تسجيل واجب لموقف . . ليس في الإمكان تجاهله أو نكرانه " .

وخرج من الموضوع بسرعة . . وأردف :

" أخبرَني بعضهم أنك ستسرّ كثيرا ، إذا توقفت كل الحياة في المملكة . . بعد وقوف النفط ! فقلت لهم : إنني أعرف أكثر من ذلك " .

قلت : " وأنا طبعا أعرف هؤلاء البعض ، مَن الذي يرضى أن تتوقف الحياة في، بيت الله ، ومدينة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ويرتاح بالاً ؟ إن المواقف هي التي تعمر البيوت وتريح الأفئدة . . والله يعلم " .

لم أعرف ... كيف أتطرق إلي التغيير الذي حدث في القاهرة . . في البارحة فقط؟ ولم تمض عليه سوى بضع ساعات ، وكنت أنوِي التردد - على خلاف طريقتي معه ولكني وجدت الفرصة سانحة منذ البداية . .

فأكملت : " أرجوأن يفرح هذا البعض - إن كان في قلوبهم مجال لفرح - إذا علموا أن القرار قد اتخذ . . وكان عظيما ، ودخل التاريخ . وأن النفط لن يتوقف ولن تخرَب بيوت . . وبذلك نكون قد نلنا الحسنيَين " .

قال - وهو يلوِّح بيده عندما يتعجب : " كيف؟ " ...

قلت : " لقد استأذنت منك أن أذهب من بغداد للقاهرة قبل حضوري ، ولابد أن تعجب أنّ مكوثي في القاهرة لم يتجاوزساعات قلائل . لقد أخبرني عبدالناصر : أن هناك حصارا اقتصاديا مطبّقا على مصر ، وأنه سيكون من الأفضل استبدال قرار وقف ضخ النفط . . بقرارضخه ، واستعمال عائده لدعم الصمود . . لأن الإسرائيليين قد يصلون بتصعيد الموقف الاقتصادي ، لِمَالم يصلوا إليه بالموقف العسكري . وأن هناك شحا في المواد التموينية . . ينذر بخطر كبير ، وليس هناك نقد أجنبي ، لمقابلة الاحتياجات والمتطلبات العاجلة والآجلة . وأن ذلك قد يعرِّض الجبهة الداخلية لاهتراء وتمزق ، لايمكن مواجهته، خصوصا وأن الهزيمة لا تزال خضراء؛ والرأي العام لا يزال منقبضا، ومتوترا . . وقد تستغَل كل هذه العوامل " .

سكَتَ وتطلّعت إلى وجهه (ومن الصعب قراءة وجه الملك فيصل ، فهوقادر- بحكم هدوئه النفسي - على حجب أية خلجة تُقرأ) . .

وتساءل : " وما هو رأيك ؟ " .

قلت : " إننا جميعا نهدف لدعم صمود الأمة العربية ، وهذا . . يتم بدعم دول المواجهة، وعلى رأسها مصر ، وكان قرار وقف ضخ النفط - رغم خطورته وقسوته - هو من أجل الصمود ، فإذا رأى عبدالناصر وهو أعلم منا بأسبقيات وضرورات المعركة ، أنَّ الإيقاف يجب أن يستبدَلَ باستمرار الضخ ، واستعمال عائداته من أجل الصمود ، فعلينا - بل وواجبنا - أن نستمع إليه ونوافقه . فهو لابد . . كما نعلم (وتعلم الأمة العربية والعالم) أدرى بالموقف . ونكون قد حققنا شجاعة اتخاذ القرار ومرونة تغييره . . حسب متطلبات الموقف ، وضروريات الصمود . وتكون أنت وإخوانك المنتجون . . قد أديتم الواجب القومي . ويكون التغيير حسب مقتضيات المعركة . . كما يحددها أهلها المواجهون . لقد وافقت على هذا المنطق ، وتطلب إصدار هذا القرار شجاعة لا حدود لها ، وسمواً في المنطق القومي ، وتضحية كبيرة وإيثاراً . ولابد . . أن التاريخ سيسجِّل ، ويحمد لكم موقفكم الأساسي والرئيسي فيه . ونعتبر أن القرار من أجل المصلحة العربية العليا . . يتطلب نفس التجرد " .

قال : " وكيف سيتم ذلك ؟ ومن الذي سيقترحه ؟ " .

قلت : " لقد اتفقت مع الرئيس جمال عبد الناصر ، على أن يتقدَّم هو شخصياً باقتراح استبدال قرار وقف ضخ النفط ، بضرورة استمرار ضخه . . على أساس أن النفط سلاح إيجابي ، ويجب أن يضَخ لدعم الصمود . وذلك في مؤتمر القمة في الخرطوم ؛ وعندما تعرَض على المؤتمر . . مقررات مؤتمر بغداد ، وقد وافق على ذلك " .

صَمَتَ . . ونظرت إلى وجهه ملياً ؛ ولم استطع قراءته أيضاً ، ولكن . . اعتقدت أنَّ عليه سيماء الرِّضَى والراحة . . والله أعلم !

قال ... بعد إطراقة : " خير . . على بركة الله " . . . ولم يزد . ولم تكن هناك خطب قصيرة أو طويلة ؛ وعجبت لأمر ضخم مثل هذا ، ينتهي في نصف ساعة .

اتفقت مع الملك فيصل أن يظلّ الأمر سراً ، حتى يثار في مؤتمر القمة ، ويتخذ فيه

قرار . وذلك تحسّباً لأي مضادات ومضاعفات . وضحكت من نفسي وفي نفسي - وأنا في الطائرة وفي طريقي للقاهرة . .

قائلا : " هل نجحت في بيع القرار الذي كافحت من أجله طويلاً وثقيلاً . . وبعد مالايزيد عن يومين على صدوره ، على مسمع ومشهد من العالم كله! وكيف رضيت بهذا؟ والقراربالنسبة لي جزء مني ، أحسّ باقتطاعه وتداعيه في جسدي

وهو أيضاً بالنسبة لي وللآخرين ، عقيدة وإيمان ومبدأ . وكان عزائي . . أني تصرَّفت في كلتا الحالتين ، بوحي من قناعتي وإيماني : بأنني أحترم القضية التي أؤمن بها ؛ وتصرَّفت بسرعة وشجاعة ، بلا رواسب أو عقَد ، فيما اعتقدت : أنه يحقق المصلحة العربية العليا ، ويراعي المراحل التي يختارها .

كان اجتماعي بعبد الناصر سريعاً ، بعد وصولي مباشرةً من المطار ، ولم يستغرق إلاّ أربعين دقيقة ، أخطرته فيها بما تمَّ . وكنت مسرعاً للخرطوم . . من أجل اجتماع وزراء الخارجية ، وسيعقبه مؤتمر القمة ، وأنا مكلف بجميع تفاصيل الإعداد لهما .

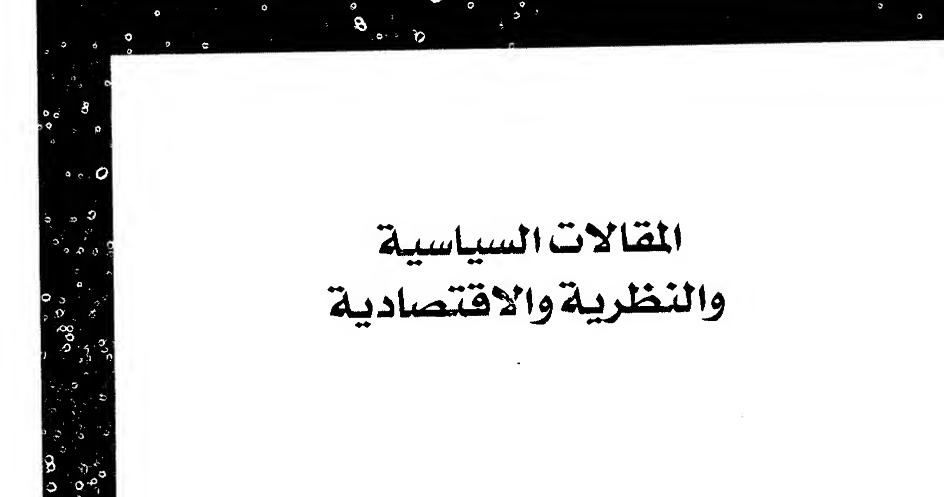
ومن منزل عبد الناصر ، للطائرة الأثيوبية . . التي تغادر القاهرة بعد منتصف الليل ، وتصل الخرطوم مع تباشير الفجر . ولي مع هذه الطائرة . . قصة طريفة . فلقد استعملتها مرات متعددة - بين القاهرة والخرطوم - ومع هذا . . وبعد انقلاب نميري ، استعملت الطائرة نفسها ، معتقداً أنها ذاهبة رأساً لأديس أبابا ؛ ناسياً أنها عادة تنزل في الخرطوم ، وفاجأتني بنزولها في الخرطوم مع الصباح ، فلم أزد على تغطية وجهي مدَّعياً النوم ، وظللت أسارق الخرطوم النظر فَينة بعد أخرى ، حتى أقلعت الطائرة ، حاملة معها "هارباً" . . مطلوب لتنفيذ حكم الإعدام فيه . حملت أسرار استبدال القرار ، إلى أن ارتحت منها . . بعد انعقاد مؤتمر القمة . وبعد أن أصبحَت ملكاً للعالم .

فإلى مؤتمر وزراء الخارجية ، وإلى مؤتمر القمة ، وإلى أسراره واجتماعاته ومحاضره ، ومداولاته وقراراته ، تسجل تاريخاً ... أهمله التاريخ .

٥



الباب الثاني



المقالات السياسية
والنظرية والاقتصادية

نحن في الميدان

وحدنا . . لانيأس ولا نخاف ؛ ولا نأسى على من فاتنا . وفي نفس الوقت . . فنحن لن نشمَت ، ولن نسبَّ ولن نشتم . ولن نستثمر ضعف الآخرين وتحولهم ، من ذرى الكفاح الوطني ، إلى درك الاستسلام والخضوع ؛ فنحن الحفظة على عشرة ووحدة القوى المناضلة ، التي دامت تسع سنوات ، والتي لا يرضى لنا خلقنا ولا خلقيَّات الزمالة ، أن نحولّها إلى تنابز وتراشق ، ومعارك انصرافية . ففي هذا . . نحن نخاف الله والشعب والتاريخ ، ونحرص على أصالة وسمعة النضال الوطني . . وزمالة كفاح ؛ هي جزء من تاريخ السودان ، يجب أن تبقى ناصعة مضيئة . . ولسنا نحن من يحثو عليها القذى ، بل نحن من يرد على هامتها القار . . الذي سلبت والشوائب التي تنكال .



نحن نؤمن بحرية الرأي والقرار ؛ فمن اعتقد أن النضال الوطني قد انتهى ، وأن الأهداف التي استشهد من أجلها الأبطال وسجنت في سبيلها الآلاف وعذّب وشرّد وحورب من أجلها من لا يحصَون عددا ، قد حققت فبيننا وبينه . . مجريات الأحوال وهي شهود عدل مواثل ، محسوسة . ولا تحتاج إلى بيان وتبيين أومنطق . . اللّهم إلاَ إذا احتاجت الشمس إلى من يدلّ عليها .

وإذا اعترى بعض الناس الفتر والوَهَن ، وطال أمامهم الدرب ، ورضوا لوطنهم وأنفسهم ، ولمعاناة عقد من الزمان . . مما هو معروض ومعروف مقول ، فهذا شأنهم . . وليس هذا بدعا في تاريخ نضال الشعوب . فلكلّ قدراته ومقدّراته ، وصبره وجَلَده وصموده . وهي صفات لا يغذّى بها الناس صناعيا . . كالأدوية المقوية ، بل هي خصائص تكوينية لها مقاييسها ولها نهاياتها .

نحن لم نرفض مبدأ المصالحة ، ولا نزال . . وسنظل ؛ فلسنا إرهابيين ، بل نحن مناضلو حرية وتحرر وانعتاق . وما كان أحب إلى نفوسنا . . أن تصل المصالحة إلى نتائج أساسية يعرفها الناس ، وتعالج مشاكل . . هي من صميم حقوق الإنسان الأولية الأساسية : التحرر من القهر والخوف . . بالأمن والقانون . . الحرية في الرأي والنقد والمشاركة الديموقراطية في المسألة العامة (وهي ليست ملكا ولا إرثا ولا وقفا على فرد) . . محاربة الرشوة والفساد ، وكل ما ينخر في أخلاقيات شعبنا وأسس تكوينه ويحطّمها . . سوء الأداء ، وعدم تحديد السلطات والصلاحيات . . وحكم الفرد وتأليهه ، والرجوع بالحكم إلى عهود ما قبل التاريخ . . الاعتقال والتعذيب والتخويف ، وزيارات طارق الليل . . ومناخ التجسس والرعب وعدم الاطمئنان . . التجويع المتعمد للأغلبية الساحقة المسحوقة ، والثراء والإثراء المتعمد للقلة العاجزة الطفيلية الفاجرة . . الانهيار والتدهور الاقتصادي - واللامبالاة ، واللامسؤولية واللارقابة - الذي سيأكل أجيالا قادمة وحاضرة من شعبنا ، ويطيح بكل مقدراتنا الاقتصادية والأخلاقية والمعيشية والمستقبلية . . الانحياز الأعمى في السياسة الخارجية ، والارتماء الكلي في أحضان القوى الخارجية . . وفقدان الاستقلال الاقتصادي والسياسي والخلقي والثقافي .

نحن لن نرضى بهذا . . حتى لو بقي في الميدان طفل واحد منا ، يصرخ بمفرده

صراخ الأطفال . ولن ترغمنا قوة على الخضوع والركوع والاستسلام . وسنظل في الميدان نكافح كل ذلك . . بمختلف الوسائل : الشعبية والشرعية والمشروعة . لن نخاف من أحد . . كائنا من كان . ولن يرغمنا أحد - إغراءً أو تهديداً أو وعيداً أو سباباً - على الهروب من واقع بلادنا ؛ ونحن نعرفه .

ومن قناعات كفاحنا - ونحن نعلمها - أن شجاعتنا لن تخوننا ؛ فهي معين لن ينضب ونبع لن يجف ، وزاد لن ينتهي . فليكن ذلك معلوما للسلطة داخل النظام وللذين صالحوها بلا أسس ولا شروط ، ولا أدنى تحقيق لأهداف النضال الوطني . وليكن معلوما لمن صالحوا السلطة - وهذا حقهم ولا أظنه واجبهم - فإذا تركوا أماكنهم شاغرة فستملأ بكل من امتلأ قلبه بحب بلاده ، والكفاح من أجلها ، والموت في سبيلها . وهو لا يخافهم - وإن كان الخوف ديدنه - فما أقسى التسع سنوات ! وكم هي مليئة بالخوف والموت والتهديد والضنى والمعاناة . ومع هذا . . فنحن اليوم أقوى وأشجع مما كنا يوم ٢٥ مايو ١٩٦٩م .

ولن تخيفنا قوة خارجية . . فلقد تعودنا أن نقف بجانب قضيتنا الوطنية ، مهما تكالبت علينا القوى . ونحن طلاب حق (قوميون وطنيون) لم نكن - ولن نكون - عملاء لأحد . وتاريخ كفاحنا حافل بمَنْ تركنا . . عندما ابتعد بوجدانه وفكره عن قضية شعبنا ، وأصبح يخْضعُها للحسابات والمساومات !

هذه القضية ليست عُرضَةً . . ولامعروضة للحسابات والمساومات ، فهي قضية شعب مقهور . . جائع وضائع . لن يتخلى عنه أبناؤه إلاَّ إذا استرد حقوقه : الأزلية والشرعية والإنسانية والديموقراطية والقومية . . كاملة ، وكلها ، وغير منقوصة . وهي ليست منحة ، بل هي حق ، ووراءها مطالبون وشهداء . . ولذا لن تضيع

نحن لا يمكن أن نصالح مصالحة فوقية ، في اجتماعات وحدانية ومغلقة ، تدعو كلها للريَّب . ثم نخرج مقتنعين . . بأن كفاح التسع سنوات (كله) خطأ وتهور وبله . وليس هناك أجدى من الانخراط والرضى . .

لن نرضى هذا لأنفسنا ولا لشعبنا ، ولا لتاريخ النضال الوطني لشعب أصيل شجاع صامد . . ولن يرضى لنا النظام نفسه ، ولا شعبنا ولا ضمائرنا ولا تاريخنا . . أن نكون مدَّاحين يُحثى على وجوههم التراب ، فنوافق على اللاَّ أسس واللاَّ شروط . وإذا فعلنا ذلك . . فلماذا تضحية ومعاناة التسع سنوات ؟ ولِمَنْ يشكو الشهداء من كل جانب ؟ ولماذا لم نرض بهذا منذ البداية ؟

ليس لنا أي قضية شخصية ضد الأخ/ نميري ؛ ولا ضد أحد من زملائه ، ولا نضمر عداءً شخصيا أو حقدا انفعاليا . . وليس لنا مصلحة ذاتية ، فأيُّ مصلحة في التشرُّد والمطاردة وتسع سنوات اللاَّ بلد واللاَّ أهل ! أهذه مصلحة ؟ وأيُّ زعامة هذه التي تراودنا فوق أشلاء الشهداء ؟ وصيحات المعذبين ، وآلام المسجونين ، وعدم الاستقرار في بلادنا ؟ أيُّ مصلحة وأيُّ زعامة تساوي هذا ؟

لو أنصف الناس . . لعلموا - ليس الآن بل منذ البداية وقبل مايو - أنه ليس لنا مصلحة ذاتية ، ولا أسرية ولا طائفية ، ولا قبلية ولامالية ؛ ولسنا طلاب حكم ، أو زعامة بالوراثة أو بالولادة ، أوبالطموح القاتل . . الذي لا حدود له! والسودانيون - إن أنصفوا وقالوا الحق مع أنفسهم - يعرفون ذلك .

نحن الآن لم نفوِّض إلاَّ على الحوار ، وعلى أساس خمسة عشر شرطا ؛ كلها تتعلق بالمجتمع والكيان ، والحقوق الإنسانية . . والحرية . وليس فيها مطلب واحد . . فردي أو أسري أوحزبي أوطائفي . ونحن لانزال على استعداد لبحثها وإقناع الآخرين بها . . وإن كان فيها أيَّ تطلع أو طموح فردي ، أومحاولة احتواء أوتسلق أورغبة في سلطة - كائنة ما كانت - فليرمنا النظام . . والذين انخرطوا معه أخيرا ، بكل الحجارة التي في أكمامهم . . وإلى أن يتم هذا . . فنحن لاننوي شرا ولانفعله فنحن وطنيون صادقون للتراب وللشعب . ولا نُبْطِنُ أشياء ونُظْهِرُ غيرها ، ولانتهاوى أيضا أونتخاذل في حقوق هي ليست ملكنا ، حتى نعطيها . . هي حق كل السودانيين .

ماهو ذنبُنا . . إذا لم نستطع أن نفرِّط في حقوق الملايين ؟

ماهو عيبُنا . . إذا قلنا إن هذا غير مقبول ، ولايصلح أمرا ؟

هل يريدوننا . . أن نتظاهربالولاء والقبول ، ونُبْطِنُ تآمراً واحتواءً ؟

أين هي كلمة الحق ؟ هل عَدِمَتْ من يقولها ومن يسمعها ؟

ليست هذه هي المرة الأولى . . التي نقف فيها وحدنا ، في أمرمقدَّس يهُمّ هذا البلد وهذا شرف لا نرفضه . . بل نقبله والرِّضى والشجاعة والإيمان يملأ نفوسنا ، ونحن على حق ، ولن تخيفنا قوة - أيّاً كان تكوينها : النظام ؟ أصدقاؤه الجدد ؟ أسياده في الخارج سواء كانوا قدامى أوجدداً ؟ نحن مع السلم والصلح . . ليس لأشخاصنا بل لشعبنا . . ومشاكله في الحرية والرخاء والتقدم والتحرر ، والحقوق الإنسانية لكل فرد

فيه . ولن نرضى دون هذا بجبال الأرض وصحرائها . . ذهبا أو سلاحا . وسنظل كذلك . . وستظل يدنا ممدودة وقلوبنا مفتوحة ، بلارياء ولا خوف ولا تملق ولا مدح تفاوض . ونرضى ونتعاون ونبني على أساس حقوق شعبنا الأزلية ، في حريته وديموقراطيته ، وسيادة حكم القانون فيه ، وسلامة خلقه وكيانه ومقدراته وتنميته ورخائه ، ولن نرضى بدون هذا . . بديلا .

نحن نكافح من أجل وطن . . يأمن فيه الناس على أنفسهم ، ويتمتعون بحقوقهم وحريتهم ، يراقبون حكامهم ويبنون بلادهم ، ويوزعون عائدهم على الملايين . ليس وطنا مسلوبا حريته ، مقهورة إرادته ، يحكمه التجسس والتعسس ، لا يأمن الإنسان فيه على نفسه ولاولده ، ولايومه . . ولاغده . يعشش فيه الفساد وسوء الأداء وينكب - في داره غير مطمئن على حاضره ولا مستقبله . وهذا وطن لن نرضى بحاله هذا . . وهو يستصرخنا ويستنجدنا وينادينا ، ولن نردَّ نداءه ونداء الأوطان لا يرد إن الاستقلال الذي احتفل به . . أصبح فارغا أجوف بلا محتوى ، لأنه فَقَدَ كل مقوماته الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، وفقد مواطنه الذي دمرته ممارسات البطش ومطاردة الأمن . فليكن هذا معلوما . . وأجهل الناس هوالذي يحقِّر كفاح الشعوب ، ويستهين بروح التضحية في الرجال ، ويعتقد أنه قادرعلى تخويفهم وإخضاعهم . إنه خاطيء ومخطيء ومغرق في الخطيئة . . بحكم الدين والتاريخ . إذا كان للنظام ما يقدمه ويفاوض عليه ، على هدى هذه المطالب الشعبية . . فليتقدَّم ولن يلومه أحد ، ويجب ألايخيفه أحد . فليحتفظ الإخوان الذين تركوا أماكنهم شاغرة ، بأصالة الزمالة ، وليحترموا مرحلتها الماضية ، ولايضطرونا للكلام فيومئذ لن تسكتنا قوة ، فما أكثر مانعلم ، وماأكثر مانكتم !

وليبق كلُّ بطلٍ مكانه ، وإذا قيل لهم : " أنَّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم " ، فهم ليسوا وحدهم . . معهم الحق والعدل والتاريخ والمستقبل ، وبجانبهم كل الشعوب التي تناضل من أجل كيانها وحرياتها ، وهم منتصرون . ومهما طال الزمن أوقصر أوتصاعد البطش أو تنازل . . سنظل نُسائل أنفسنا : " هل نحن على حق ؟ وليس لدينا أدنى شك في الإجابة . وسنسير . . وسنبقى وحدنا في الميدان ؛ ولن يخزينا الله ولن يخذلنا الشعب .

(لندن ١٩٧٨م)

الموقف الاقتصادي والمعيشي في السودان

يسودُ الخرطومَ وجومٌ هو أبعدُ من الهدوء ، وأقربُ للتَّحفُّز - ووجوم الخرطوم عادة لا يستمر طويلا - وسيبدده دويٌّ شديد يتنبأ به كل العارفين لبواطن الأمور (الواضعين أيديهم على بعض الحوادث) . فهناك ما يجري على السطح ، وهناك ما يجري تحت الأرض . والخرطوم حبلى وفي شهورها الأخيرة . . تعاني حالات المخاض ! أولد مولودها ، أم بنت ؟ أوأنها ستُجهِض جَنينها ؟ لاأحد يدري بالضبط ! وكل واحد يدري . . أنَّ أيَّ شيء قد يحدث . . وفي أيّ لحظة . فلحظات وجوم الخرطوم معروفة لأهلها - من مسار الماضي وتجاربه - هي نذير الإعصار المدمِّر الذي يتجَمَّع في صمت . . يحتشد في هدوء ، ويتحدث في صمت ، ثم يفاجئ كالبرق . وسأحاول أن أتحدث في اختصار ، عما يجري فوق أرض الخرطوم ؛ أما الذي يجري في باطنها فاللّهُ وحده ، به أعلم !

تتضاعف حالة البؤس . . ويقع عبؤها العمودي على الطبقات الساحقة المسحوقة وتتجاوزهؤلاء . . فتلفُّ الطبقات المتوسطة وفوق المتوسطة . والسلع معدومة وأسعارها - إن وجدت - فاحشة ، تتضاعف خمس وعشر مرات . وثم بعد ذلك ... سوق غير السوق السوداء : كل السلع . . المحلية والمستوردة ، ليست في متناول اليد أوالجيب ! وكلها مخبأة لا تظهرإلاّ بعشرة أضعاف ثمنها ، ومعاصرالدماء . ورجال السلطة ومحسوبوها . . هم وحدهم القادرون على امتلاكها وبيعها . إيجارات المنازل ، تناطح السماء - غرفة الطين الأخضر في أقاصي الخرطوم، بثلاثين جنيها . . ولا توجد ! الخبز مشكلة ! السكر ! الزيت ! الملابس ! الوقود ! اللحم ! كل ماهو مطلوب للحياة العادية (والأقل من العادية) . . أسعاره تتزايد كل يوم ، ويختفي كل يوم . وصاحب الدخل المحدود ، لايمكن أن يعيش - وعلى الكفاف - بأقل من ثمانين جنيها . . ودخله لا يرتفع لعشرين ! والسرقة والرشوة بكل صورها وألوانها ، (ومن أكبر كبير ، لأصغرصغير) ، هي الوسيلة الوحيدة لموازنة الدخل . العطالى . . لاحصر

لهم ، والأجانب أكثر من الوطنيين . . وحتى الماء والقوت ، أصبحا في حكم الكماليات التي لا تنال . . والمدينة عادت لها الملاريا بعد غياب ثلاثين سنة ، وذبابها عشرة أضعاف سكانها! وقاذوراتها يحملها سكانها! ومناظر الرذيلة أصبحت طابعها المميز .

يبني الموظف (أوالضابط) منزلاً براتب من خمسين جنيها . . ويؤجِّره بألف جنيه (شهريًّا) ، ويحصل على المال ، من أذونات الأسمنت والحديد والخشب . والنساء يحملن الأذونات ويبعنها بعشرات الألوف ! ووزارة الشباب ، ودارالاتحاد الاشتراكي معارض للأزياء ! والنماذج البشرية فيها . . " من كل فاكهة زوجان " . وأثرياء مايو . . أصبحوا أكثر من أثرياء الحرب ، وإبراهيم روثمان نقيب في الأمن العام ! ولكل شيء ثمن . . ولكل صنف مشتري (حتى الخُلُق والقِيَم والحياء) ! وأجيال من الحيارى والسكارى والساقطين ، يتقززالإنسان من مجرد النظرإليهم . . . هم الحُكَّام الحقيقيُّون . .

الحكومة أفلست ولم تشهر إفلاسها . . لاتدفع القروض ولاالفوائد ! تشتري ما تستهلكه بالدَّيْن ، وبالربَّا الفاحش المُركَّب ! ومع هذا . . فهي لاتدفع . . وتمد يدها للشحاذة والدَّيْن ، ولا تجد من يقبَل حتى مجرد الحديث معها ! وقد تعب منها ملوك البترول وأمراؤه ، فتوقَّفوا وطردوا وزراءها واحتقروهم ، وردوهم على أعقابهم . وتضامن معهم صندوق النقد ، وأمرهم بإصلاح منزلهم ، وتخفيض مصروفاتهم . . وزيادة إيراداتهم . ومع هذا . . فدار الصداقة الصينية كلَّفت (٣٧) مليونا ، ومعرض الخرطوم الدولي (٣٠) مليونا ، وقصرالرؤساء . . (٣٠) مليونا ، ونادي الضباط ودارالشباب . . ولاآخر للقائمة ! ويا " لنكروما ' ! فقد ذهب لما هوأقل من عُشْر هذا

والموسم الزراعي فاشل . فالذرة . . إنتاجها في التراب ، وكذلك القطن والسمسم والفول والصمغ ! كله في أقل مستوياته . وتهريبه يجري بواسطة السلطات وفي وضح النهار . والإنتاجية عموما نزلت إلى الحضيض ! والمصانع متوقفة . . فليس هناك مواد خام ولا قطع غيار! وحتى . . لاالقاطين للقطن! ومكاتب الحكومة

مزدحمة، وليس فيها عمل لـ ١٠٪ من الموجودين بها؛ وقد هجرتها: كل الكفاءآت والأدمغة والعقول والخبرة! وأصبح يعشش فيها: الجهل وسوء الأداء، وعدم التجربة أوالخبرة.. واللاّ مسؤولية. والميزان الخارجي في عجز- والداخلي مخلول- ولا يُرْجَى لهما صلاح! والديون المستَحَقّة بليون دولار! وجملة الديون بلايين. ونسبة النُّموْ تحت الصفر، وكذلك نسبة العائد القومي! ومشاريع التنمية.. أسماء وأحجار مثل شواهد القبور، ورشوتها وعمولتها أكثر من قيمتها الحقيقية! ولم يكتمل ولم ينتج.. ولاواحد منها! وغرفة (الجراند أوتيل) كلَّفت تسعين ألف جنيه! وتسهيلات المصارف (بلا ضمانات) لأفراد محظوظين.. أضعاف أضعاف إيداعات الجمهور. (وعربات الماجروس) للجيش، كلَّف الواحد منها (٩٣) ألف مارك.. بينما اشترته مصر بأربعين ألف (وبعد سنة منا).. ويبلغ الفرق عشرات بل مئات الملايين! ويُسْأل عن ذلك.. عدنان خاشقجي وبهاءالدين ومن يلحق خلفهما.. ومن الذي يستطيع مساءلة هؤلاء!

وأصبحت السعودية لاتُقرِض.. إلا إذا تسلَّم السماسرة نصفا (أوأكثر) من قرضها، وحذت حذوها الكويت وغيرها. وأجهزة الإشارة والمخابرة.. عمولتها أكثر من ثمنها! والسمسار يتجول بعربة (رولزرويس).. في شوارع لندن! وكل ضابط في المعاش.. وصهر لرئيس أو وزير، تراكمت حساباته في بنوك الخارج! وعمولة طائرات الهليوكوبتر أكبرمن قيمتها الحقيقية، وأربعة منها.. نصف عُمُر لاتصلح إلاّ للاختباء عند حدوث الغزو المنتظر! وتسليح القوات المسلَّحة، أصبح للثراء وتقسيم الملايين! وكذلك مشاريع التنمية.. بنَّاؤُوها لصوص الداخل والخارج.

والمصانع تباع بأضعاف ثمنها، والسُكر بأعلى خمسين دولارا، على سعره الرسمي في بورصة لندن! وكذلك الدقيق والشاي والبن، وكل ما يؤكل ويلبس ويصنع! وشارع سنار-الدمازين، محجوز لعثمان أحمد عثمان بالسعر الذي يريده وبصات الجزيرة (البرِّى) حكر لأسرة الهاشماب الحاكمة! وأصبح كل لصوص العالم

وسماسرته ، والمافيا العالمية . . . تتاجر في أكل السودان ، وشرابه ولباسه وسلاحه وتنميته .

وعروض تؤخذ بلا مشورة المالية ، ولا تدخل المالية فيها . . بل تعلم بها عند سدادها ! وعقود توقَّع في القصر الجمهوري ، لاتعلم بها الوزارات ذات الاختصاص إلاَّ عند بداية العمل فيها ! وحكومات داخل حكومة ! وسلطات في بطن سلطة ! والخوف يعْقد الألسنة ! وكلمة الحق أحد كالسيف . . فلاتَجد مَنْ يقولها ولامَنْ يستمع لها ! وأصبح شعار الجميع " : اغتنِ سعد . . فقد أثرى سعيد " ! ومَنْ لم يغتنِ اليوم ، فلن يغتني . . إلى أبد الآبدين !

واستيراد السيارات وقطع الغيار وإطارات السيارات . . بدون عملة ، وسعرها للمستعمل ، أكثر من ٣٠٠٪ من سعرها العالمي ! وبلدية الخرطوم - وهي لاتملك مليما - تستورد آلات للطرق تصلح لرصف طرق السودان بأكملها . . وفيها آلات لاتُستعَمل إلاّ لطرق مطار فرانسيسكو ، وتحمل بالطائرات . . كأنها بنادق في ساعة حرب ! وتشْتَرى دون علم صانعيها أو وكيلها . . بل من اليد الرابعة ، وعن طريق بنوك الدرجة الرابعة . ولا يستطيع رجل أن يفتح فمه ، حتى بالمدح أو التشجيع !

والخرطوم أصبحت مستنقعا ، وشوارعها حفرا ، يمرح فيها الذباب والناموس وعادت لها الملاريا والحمى الصفراء والسوداء . . وربما التايفود وغيره ! وأوساخها لا تُنَظَّف ، فأصبحت عاصمة العفَن والقذارة . . تباهي بذلك عواصم العالم .

والقوات المسلحة تنظر مشدوهة ! وتتناقل الفضائح التي تسري سريان النار ، وهي مسؤولة عن حمايتها وليست مسؤولة عنها ! بل هي حامية الفساد . . وهي ليست فاسدة ! وحارسة الرشوة وهي ليست مرتشية ! ومسؤولة عن إزهاق أرواحنا ودمنا وهي حارستها ! وتناقضها النفسي ، وإذلالها العصبي ، وقوتها المكبوتة ، وسلاحها يحمي الفساد والمحسوبية والانحلال : ورجالها يدافعون عن المرتَزقة واللصوص والقوادين ! وأهلوهم يموتون غمّاً وهمّاً وحسرة وجوعا ! وحالهم يُبكي كل عصي للدمع . واحسرتاه عليهم !

وفي أثناء كل هذا . . . (مصالحة) مشبوهة ؛ تجري في غرف مغلقة ، بين رجلين لا يعرف أحد ما الذي سيفعلانه بنا ! بعد كل هذا . . والظلام الدامس والهمس الدامي والتآمر المخطط ، تفوح رائحته . . وتتبيَّن ملامحه؛ وشعبنا يصرخ . . . هل من مغيث ؟

(لندن ١٩٧٨م)

في السودان ثورة تجتاح قطراً بكامله

منذ حوالي شهرين ، تنبأنا . . أن الأزمة الثورية التي اجتاحت السودان أخيرا ، قد بلغت حد النضوج الثوري ، وأن حالة الانتفاضة المستمرة التي تسود القطر بأكمله . . ستنفجر . وبرهنت أحداث الأسبوعين السابقين ، عن صدق ما توقعناه . فلقد خرج الرجال والنساء وطلبة المدارس ، كما خرجت الجماهيرمن مناطق التجمع في العمل والسكن ، وواجهت السُّلطة بشجاعة وضراوة . وكل الذي يتمُّ الآن . . هو نتيجة حتمية لحكم فردي ، يسوده الجوع والفساد والانحلال ، وانعدام الإدارة ، وزيادة السوق السوداء وفقدان السلع ، وانتشار المجاعات ، وعدم وجود أيٍّ ضرورة من ضرورات الحياة . . حتى الماء !

لقد عاشت الملايين من جماهير الشعب السوداني ، في حالة من الخوف والقهر لم يعرفها شعب قبل ذلك . وكان الناس يظنون أن الشعب السوداني قد استكان أوجَبُن . وكانوا يعتقدون أن إمهاله إهمال، وأن تعقُّله خوف . . ولكن هذا الشعب المتمرس في الانتفاضات ـ ذات التاريخ المجيد في البطولات ـ والصانع أبدا للثورات . . تتلوها الثورات ، كان يصبر ويصابر ، وكان يتَّقي الفتنة ، حتى بلغ السَّيل الزُّبى ، فلم يعد هناك مجال للصبر .

أضرب السودانيون الآن حتى عن الزراعة . . لأول مرة ، إذ لم تتوقف الزراعة (تماما وكليا) إلا هذا الموسم ! وقد هجر الأرض كل من يزرعها ؛ وتشرَّد السودانيون يملأون عواصم دول النفط ، يكنسون أراضي المطارات ،ويجمعون القاذورات . . حتى ليُخَيَّلُ لك أن المغتربين منهم أكثر من الباقين . والذين في الداخل يقضون يوم العمل ، منتظمين في صفوف الخبز والسكر والوقود . ولم تعد هناك سلعة . . إلا ولها صف طويل ، تتلوه صفوف أخرى . وأصبح السوداني لا يخرج من صف إلا لينتظم في صف آخر . . والمدارس مغلقة . ولقد ضاع جيل بأكمله في العام السابق

ويضيع الآن جيل بأكمله .

وأصبحت الأزمة في كل بيت . . تتجه منذ مطلع الفجر ، ولاتنتهي حتى مغيب الشمس ! وأصبحت الحياة اليومية في كل أسرة معركة ضارية ، لاتعادلها حتى معارك الحرب . ولذلك . . انتفض الناس وخرج الشعب تلتحم بمناكبه الشوارع . وأصبحت شراذمه اليوم جحافل ، وصار همسه دويًا ، وأمسك مرة أخرى بعجلة التاريخ .

فالنظام يترنَّح الآن من الضربات التي توجه إليه من كل مكان . . وهو يعاني الحشرجة الأخيرة . وأصبح نميري يتكلم عن سُلطته وينعتها هو نفسه . . بنعوت لم يستطع أبلغ المعارضين أن ينعتها بها ! وهو يعتقد : أنه بذلك . . ينجو بجلده عندما يقدم القرابين ، لكي تتلهى الناس بها ، وينسى أنه هو السبب الأساسي في المأساة التي عاشتها جماهير الشعب السوداني . . عشر سنوات .

ونقول اليوم لنميري : إنه لامفرَّ من أمرالله . . وأن الشعب سيجابهه حتى ولو كان في بروج مشيدة ومحصنة . فالثورة الآن ستستمر - بشكلها الحالي أو بأشكال أخرى - تقتضيها ضرورة المعركة . ونحن على ثقة كاملة . . من أن القوات المسلحة السودانية ، هي جزء لا يتجزأ من شعبنا ، تعاني ما يعانيه ، ولا يمكن أن توجِّه عليهم سلاح الشعب - شعب الجياع والعطاشى والعاطلين - الذين ينتظمون الآن في التظاهرات ، يعبِّرون عن إحساسهم ، ومايصيبهم من جوع وموت وخوف .

نحن نتوقع . . أن تقوم القوات المسلحة بحراسة الشعب ، وهي تعرف آلامه وتعيش مأساته . فهي سودانية الأصل والمنشأ ، ووطنية الشعور . والذين تزدحم بهم الشوارع الآن . . هم أبناؤهم وإخوانهم وزوجاتهم ، وهم في محنة إنسانية يعلمها العالم أجمع . فالذي يوجِّه النار لأخيه وزوجته وابنه - وهويعلم أنهم على حق وأنهم لم ينتفضوا في الشارع إلاَّ عندما بلغ الأمر الحد الذي لا يُطاق - الذي يوجِّه النار لمثل هؤلاء . . هو جندي مرتزق مستورد ! لا يمكن أن يكون جزءا من القوات السودانية المسلحة ، أو غيرها . . من القوات النظامية .

ونحن نحذِّر كل من يحاول أن يضرب بالنار أو غيرها . إننا هذه المرة . . لن نديرله الخد الآخر ، لكي يحلو لـه الضرب . فنحن ملزَمون تاريخيا ووطنيا (وحتى إنسانيا) بأن ندافع عن العُزَّل - من النساء والأطفال - بكل ما نملك . . وماأكثر وأفظع مانملك ونرجو ألاَّ نضطَّرلهذا . ونرجو أن يعلَم (من لايريد أن يعلَم أويتعلم) أن القتل . . لن يُقابَل إلاَّ بالقتل ، والنار لن تواجَه . . إلاَّ بالنار ! والبادئ المستمر - منذ عشر سنوات - هو الأظلم .

إذا كانت ثمة نصيحة نسديها لسُلطة مايو ، ورأسها جعفر نميري ، هي : أنَّه من الخير له (أمام نفسه وضميره والشعب والتاريخ ، وأمام الله) ، من الأفضل له ، أن يتنحَّى . . فلقد كفى ما حدث على يده في هذا البلد الخيِّر ، من خراب وتدمير لمقدراته وأخلاقياته . أما أن يقدِّم للناس عرائس للبحر – أمثال نائبه الأول : أبو القاسم محمد إبراهيم ، ووزيرة شؤونه الاجتماعية فاطمة عبدالمحمود ، فخيرله هو . . أن يتلهَّى بها .

إن الناس على علم كامل . . أنه هو المسؤول الأول والوحيد ، عن كل الذي حدث . إن أية محاولات منه الآن لإلقاء اللوم على الآخرين ، إنما هي محاولات مضحكة ويائسة . . وهو الذي يتغنى دائما بالشجاعة ، نقول له الآن : تحمل مسؤولياتك بشجاعة وابتعد . أما إذا حاول ترقيع حُكمه المنهار ، من شاكلة الذين أتوا من قبل ، أو من رصفائه القدامى أو الجدد ، فليعلَم أن الثورة زاحفة نحوه ونحوهم . وإذا حاول إيقاف زحف الشعب . . بالدم والنار والتخويف أوالتضليل ، فإن الثورة السودانية لن تقف عاجزة عن حماية نفسها ومواطنيها . . من نساء وأطفال ورجال . وعند ذلك . . فليتحمَّل هو المسؤولية أمام التاريخ ! فسوف تُبَدَّل الأرض بغير الأرض ، وتُبَدَّل السماء بغير السماء ! وليس لديَّ ما أقوله - له ولجماعته - من سُلطة مايو غير : (ياأيها النمل . . ادخلوا جحوركم) . ١٤ أغسطس ١٩٧٩م

مؤسسة الرشوة والسمسرة في السودان

" من لا يغتني في مايو ، فلن يغتني أبدا " . . هذاهو الشعار الذي يرفعه المحيطون بالرئيس النميري في الخرطوم هذه الأيام ، ويعتبرونه مهمة أساسية لايترددون عن الجهر والتفاخر بها علانية . وقد ترسخ هذا الشعار . . وأخذ أبعاده الفعلية الواسعة بعد دخول رجل الأعمال السعودي (عدنان الخاشقجي) إلى السودان ، وتحوله إلى الممول الأساسي لرأس الدولة . . والأجهزة التابعة له . ولم يكن الخاشقجي ـ قبل عامين ـ ذا أهمية تُذْكَر في السوق المالية والاقتصادية السودانية . . إذ أن شخصا آخر يدعى : خليل عثمان كان صاحب الحظوة الأساسية ، والسمسار الرئيسي للدولة وذلك عبر شركة (لونرو) البريطانية . وتحولت (لونرو) إلى : "وكيل الحكومة السودانية ـ" في العالم ، وبدأت أسعار الواردات بالارتفاع ، مع تزايد نشاطها . . حتى ساد التذمر في الأوساط الشعبية والرسمية . وتولّت الشركة المذكورة . . إدارة مشروع كنانة للسُكَّر ، الذي تساهم فيه كل من : الكويت والسعودية وصندوق التنمية العربية ، إضافة إلى الحكومة السودانية . وخلال أشهر إرتفعت تكاليف المشروع من ١٥٠ مليون دولار ، إلى ٧٠٠ مليون دولار . وتولّت مسألة حفر التُّرع والمجاري شركة (مَاكَلْبَاين) البريطانية . . وهي شركة مبانٍ ولا علاقة لها بالزراعة أو الري !

أما الأجانب الذي عُيِّنوا في المشروع ، فقد بلغ عددهم خمسة الآف شخص . . وبمرتبات لم يسبق لها مثيل . . حتى في دول النفط الخليجية . وكان كل ما يأكلونه (ويشربونه!) ، يُنْقَل في طائرات خاصة من الخارج . وعندما شعرت الكويت بارتفاع التكلفة الخيالية ، أصرَّت على إنهاء عقد (لونرو) لإدارة المشروع ، وإبدالها بإدارة جديدة . . مع أن أصحاب الشأن في الكويت ، يملكون حصة لا بأس بها في الشركة المذكورة . وأُلْغِيَ العَقْد ، وعمدت الكويت إلى زيادة مساهمتها في المشروع .

ويقدِّر الخبراء الاقتصاديون . . أن الإنفاق العَبَثِي والسرقة والرشوة ، لا تقل عن

٢٠٠ مليون دولار . وبعد هذه العملية غير الموفقة ، فقد خليل عثمان الحظوة . وتم طرده ، وأُحْضِر عدنان الخاشقجي . ومهَّد الخاشقجي لمجيئه ، بترتيب قرض للنميري يبلغ ٢٠٠ مليون دولار . . مع مطلع ١٩٧٦م . واشترك في القرض ٣٠ مصرفا دوليا على أساس أنه سيخصَّص للتنمية ، ولكن بفوائد باهظة . ولم يُستعَمل منه للتنمية أكثرمن ٣٠٪ والباقي أُنْفِق على أموراستهلاكية . وهكذا . . . وجد الخاشقجي وسيلة للاستيلاء على مشاريع سودانية متعددة : في قطاع النسيج ، والكيماويات ، والبناء وغيرها .

غير أن هذا الجانب من نشاط الخاشقجي في السودان ، ليس هو مثار التساؤل والاحتجاج . . إذ أنه يُعتبر مسألة عادية تتم في أكثر من دولة . ولكن هناك الجانب الآخر من هذا النشاط ، والذي يرتدي أهمية خاصة ، ويحمل مدلولات عديدة . ومانعنيه . . يتعلق بمؤسسة لا تعترف الدولة السودانية بوجودها رسميا ، وتتمتع باستقلال كلي ، وترتبط مباشرة بالرئيس النميري . . هذه المؤسسة يطلق عليها في الأوساط السودانية اسم : " جهاز الرئاسة الخاص " . الذي تدخله مبالغ طائلة من دول الخليج ـ خاصة السعودية وإيران – ودول غربية . . أهمها ألمانيا الغربية . وقد أقيم هذا الجهاز ، بحجة الحاجة الماسة لحماية أمن الرئيس ؛ ونتيجة تعرضه للخطرالدائم ومحاولات الاغتيال ؛ ومن أجل (تقوية!) الجيش ومَدِّه بما يلزمه ـ من المعدات العسكرية الضرورية ـ لقمع (الفتن والاضطرابات الداخلية) التي تعتبر عملية شبه يومية ، في داخل الأراضي السودانية الشاسعة . . ذات الحدود المفتوحة .

وإذا كان رأس الدولة . . هو المشرف الأساسي على عمل هذا الجهاز ، فإن لولَب حركتة وإدارته التنفيذية المباشرة ، فهو الدكتور/ بهاءالدين إدريس ، الذي يتولى عملية التنسيق مع أجهزة المخابرات العالمية مثل (السي . آي . آيه) و(السافاك) الإيرانية . والمنصب الرسمي الذي يحتله بهاءالدين ، هو وزير شؤون رئاسة الجمهورية . وكان في البداية " وزير الشئون الخاصة " في الرئاسة ، وذلك بعد طرده من جامعة الخرطوم التي كان يعمل فيها مدرساً ، نتيجة فضيحة أخلاقية نسائية . وعندما عين

لتولّي (الشؤون الخاصة) ، أصبح مدار التنكيت والهزل ، والغمز واللمز . . . في العاصمة .

وميزانية " الجهاز الخاص " لا علاقة لها بميزانية أجهزة الأمن الأخرى ، مثل الأمن القومي . . الذي يتولّى إدارته اللواء/ عمر الطيب ، وتدخله عشرات الملايين سنويا وبالعملة الصعبة . . نقدا . وهذا ما يفسِّر رحلات بهاءالدين المتعددة إلى الخليج والسعودية . ولكن الدكتور بهاءالدين إدريس - وإن كان (أقوى) شخصية بعد النميري - هو في نهاية المطاف ، وسيط عدنان الخاشقجي . . حيث يتقاسم معه العمولات ويحولها إلى حساب خاص في الخارج ، يقال إنه باسم النميري شخصيا ! وما يساهم فيه الخاشقجي لدعم الجهاز ، يعتبر من ضمن الهِبَة ، والقروض الطويلة الأمد ، التي تُقدَّم " لتقوية الجيش السوداني " ، وعبر أساليب الدعم غير المنظور ، والذي لاتسري عليه مراقبة أجهزة المالية في الدولة .

ومن الصفقات التي تدور على الألسن في أوساط العاصمة السودانية ، صفقة الأقمار الصناعية الخمسة ، التي تمَّت عن طريق الخاشقجي ، وتولى قطف ثمارها بهاءالدين ، وأنشئت هذه الأقمار عبر شركة أميركية . . بدون عطاء أو تنافس أو مناقصة . ويقدِّر الخبراء : أن أسعار الشركة الأمريكية ، ٠ - بنسبة - أسعار شركات أخرى : أمريكية ويابانية وإيطالية وبريطانية . وقد بلغت عمولة الصفقة ، نصف كلِفة الأقمار ، وأُدخلت في حساب " الجهاز الخاص " . وكان أن احتج المهندسون السودانيون ، على لا معقولية الأسعار ، فأتاهم الجواب : " هذه أموال خليجية والأمراء يريدون الاستفادة منها . . فنحن مالنا " ! والتقدير الحقيقي لما كلّفته هذه الصفقة هو : ٤٠٠ مليون دولار ، أُنفق منها ١٥٠ مليونا . . أو أقل .

ومن الصفقات الأخرى . . صفقة سيارات (المجروس) الألمانية الصنع ، وبلغ عدد السيارات المشتراة بموجبها ، ستة آلاف ، تزوَّدت بها بعض قطاعات الجيش ، على نفقة السعودية . . وبضِعف ثمنها . ويقول الذين تابعوا إتمام الصفقة ، إن الشركة نفسها خجلت من تحديد سعر . . كهذا ! ووصل الأمر إلى حد . . أن الوكيل

السوداني الرسمي (للمجروس) ، جاء يحتج على عقد صفقة من وراء ظهره ، فقيل له " : لا علاقة لك ! عدنان هو الذي يدفع " .

وقد كلفت السيارة الواحدة ٩٣ ألف مارك ألماني ، في حين أن الحكومة المصرية اشترت خلال الفترة ذاتها ، (١٠٠٠) سيارة في عطاء علني ، وبـ ٤٠ ألف مارك للسيارة الواحدة . وبطبيعة الحال . . . ذهبت الفروقات - بين السعر الحقيقي والمعلَن - إلى حسابات خاصة في الخارج . وحدث الشيء نفسه بالنسبة إلى توقيع عقد طائرات الهليكوبتر ، قاذفات الصواريخ المضادة للدبابات ، وتدعى (بوما) ، وهي تصنعها شركة ألمانية (مشريس ميدت) . وإلى الآن وصلت ١٢ طائرة منها إلى السودان . كما أن المنازل الجاهزة والمخازن للجيش السوداني ، اشتُريت بثلاثة أضعاف أسعارها . . ودون منافسة أوعطاء . . وعن طريق الخاشقجي . وأدوات الاتصال السلكي واللاسلكي - للجيش أيضا - لم يُترك فيها مجال لمنافسة ، وأُعطيت بالسعر الذي حدده عدنان ، ومن الشركة التي حددها .

ثم هناك مشروع بناء ميناء سواكن المطل على البحر الأحمر (وذلك لكي يكون قاعدة جديدة للدفاع . . على غرار قواعد حلف الأطلسي) ، واتفق أن يمنح لشركة " إستربالك " الألمانية ، وكانت تقديرات "الجهاز الخاص" ، أن تكاليفه لا تقل عن مليون دولار ، أما تقدير الخبراء ، فيقل عن نصف المبلغ المذكور .

ومن صفقات بهاء الدين إدريس والخاشقجي ، ماأصبح يسمى ب : " قصر الرؤساء " وقد قيل إنه سيُبنى لاستضافة مؤتمر القمة الأفريقي ، الذي عُقد في أوائل الصيف . . غير أن المؤتمر عُقد وأصدر قراراته ، وتفرق المؤتمرون ولم يتم بناؤه بعد ! وقد أخذت شركة كورية جنوبية على عاتقها عملية البناء . . رغم اعتراض المهندسين السودانيين . . لأن العملية بأكملها ، أُجريت دون مناقصة أومقارنة أسعار وبمبالغ تزيد (عما يكلف فعليا ، وبفوائد ضعف الفائدة العادية . والحق يقال . . أن العمل لايزال قائما على قدم وساق ، مع أن وزير الأشغال السوداني السابق رفض توقيع العقد ، لكن بهاء الدين وقعه بتوكيل مباشر من النميري .

ومن ضمن مشاريع تبادل الخبرات والرشوة هذه ، معرض الخرطوم التجاري وقد كلَّف ما يربو على (٣٠) مليون دولار ، وكان معرضا فاشلا لم تُعرض فيه منتجات سودانية داخلية أو خارجية . . ويتساءل الناس عن سبب إنشائه أساسا وأصبح الآن مشروعا دائما . . يدرُّ الأرباح للقيِّمين عليه .

ومن الأشخاص الذين ذاع صيتهم مؤخرا ـ في عالم التنمية السودانية ـ المستر قارو فانيان (الأرمني) . . صديق الرئيس النميري ، وهو الآن يملك في باريس إصطبلات خيل وعددا من الفيلات لاستقبال المسؤولين السودانيين في زياراتهم الخاصة ! وقد أُعطيت له صفقة شراء (١٠٠٠) سيارة بيجو (٥٠٤) و(٦٠٤) . . وزُّعت على الضباط ، و" مفاتيح " الاتحاد الاشتراكي . وقدتحول هذا الاتحاد الاشتراكي ، إلى لُغز من الألغاز التي يصعب التعامل معها ، أو إيجاد مبرر لبقائها . . رغم مهاجمة النميري ـ شخصيا ـ لأجهزته ، واتهامها بالفشل والتعفن والفساد .

وقبل كل شيء . . . يعرف الجميع أن الاتحاد الاشتراكي لا ميزانية محددة له وغير خاضع لأي إشراف مالي . وعندما كثُر الهمس حول سلوك أعضائه القيِّمين على إدارته وتسيير أعماله ، بادر (المراجع العام) إلى اتخاذ الخطوة الجريئة ، والمطالبة بتدقيق حساباته . وكان أن طُرد المراجع ـ مع معاونيه ـ أكثر من عشر مرات ، ولم يتمكن من مقابلة أيِّ مسؤول . وأخيرا . . وبعد أن علا الهمس ، نحصر التحقيق في بعض صغار الموظفين ليكونوا أكباش الفداء . وقد ثبت من التحقيق . . أنه خلال مأتم عمر الحاج موسى ، مساعد الأمين العام ، دُفع (١٨٤) ألف جنيه . . ثمنا لألواح الثلج ويقول الذين حضروا المأتم ، أنه لم يكن هناك عدد يتطلب هذا الثلج ، وكان الطقس باردا للغاية ! ووفقا لمعلومات المتتبعين لنشاطات الاتحاد الاشتراكي ، فإن ملايين الدولارات ، تنفق سنويا على مشتريات وهمية ، ولكنها دخلت جيوب حفنة من المنتفعين .

وتتحدث الخرطوم عن رئيس لجنة التحقيق في الاتحاد الاشتراكي ، وهو نائب الأمين العام ، والذي ما أن أصبح رئيسا للَّجنة . . حتى وردت آلاف الخطابات إلى

مكتب النميري ، تطالبه بالذهاب ومعاينة منزل رئيس التحقيق ، في حي الرياض الفخم . وذهب النميري بالفعل ، وسأل نائب الأمين العام : " هل هذا هو منزلك ؟ وكم كلّفك ؟ " وكان الجواب : (٣٦) ألف جنيه . ويقدرالخبراء أن كلفته لا تقل عن (٣٠٠) ألف جنيه . . والمرتب الذي يتقاضاه صاحبه ، لايمكنه أن يدَّخر منه ، ما يكفي لبناء نافذة فيه !

ومن الأسماء الأخرى التي أصبحت مدار أحاديث العاصمة السودانية ، المليونير عبداللطيف أبورجيلة ، صديق الخاشقجي والنميري معا . وأبورجيلة هذا كان صاحب مؤسسة النقل المصرية التي أممها عبدالناصر ، فانتقل إلى السودان وأقام مؤسسة أخرى ، وقام مع بهاء الدين إدريس بشراء سيارات (المرسيدس) من البرازيل لرخص سعرها ، وضخامة عمولتها . ولكنه . . إثر محاولة الانقلاب التي جرت في يوليو ١٩٧٦م ، أحس بالهلع مرة ثانية ، فطلب الخروج من مؤسسة النقل وحمل معه (رأس مال متواضعا) كما يقول أصدقاؤه ، واستقر في ميلانو - إيطاليا . وهوالآن يشتغل سمساراً للشركات العالمية ، ومساعد لعدنان الخاشقجي . . الذي يمنحه بعض الصفقات الصغيرة ، من حين لآخر . ولكن أهميته تكمن في . . أنه يستقبل الرئيس النميري في رحلات (الترويح عن النفس) ، ويُنزله في يخته الخاص . . الذي يجوب أرجاء البحر المتوسط ، وهو يعجُّ بكل مالذ وطاب . وكلما أحس الرئيس السوداني بضيق مفاجيء ، أو سوداوية غير عادية ، لم يعد ينسحب إلى قريته كما كان يفعل في السابق ، بل يتصل به أبورجيلة . . ويقترح عليه رحلة في اليخت .

وخلاصة الأمر . . أن كل وزير سوداني أصبح بإمكانه التَّحوُّل إلى سمسار ، أو الحصول على قرض ، أو عطاء . . بالملايين - بعد موافقة النميري - ودون الرجوع إلى الجهات المالية المختصة . وكانت النتيجة : أن في السودان الآن مئات السُّلطات المالية وقسم القروض في وزارة المالية ، لايعرف مقدار الديون أوالفوائد . . لأن الرئيس أوأحد المقربين منه ، يقوم بترتيب هذه الأمور مباشرة . وقد تمت وفق هذا الأسلوب مجموعة محددة من الأثرياء الجدد ، لايتجاوزعددها الخمسين مليونيرا ، ولم يكن

في السودان من يملك مليونا وحدا . وحده نائب الرئيس الأول - أبو القاسم إبراهيم - لا يزال يعتبر من أصحاب الدخول المحدودة ، ولا يُعرف عنه سوى . . أنه عندما كان محافظا للخرطوم ، وقع صفقة لشراء معدات طرق وشوارع بـ(١٥) مليون جنيه ومع شركة وهمية في الولايات المتحدة ، وحتى الآن لا يزال البحث جاريا عن هذه الشركة

ويقول أحد الوطنيين السودانيين ، إن مؤسسة الرشوة في السودان ، ابتدأت بالهبات والقروض في سبيل الأمن الخارجي ، وهي الآن تسرَّبت إلى خلايا المجتمع بأكمله . ولا أحد يستطيع التحقيق بالرشوة . . وتُشكَّل لجان تدرس وتناقش ، وتدبِّج تقارير تظلُّ طيَّ الكتمان ، ولا يُسمح بنشرها . . وهذه المؤسسة ، هي التي يحرسها الجيش ، وقوات الشرطة . . والأمن ، ويحكم في سبيل مصلحتها القضاء . مجلة (الدستور) : ١٧/ ١١ ديسمبر ١٩٧٨م



بين أكتوبر نميري .. وأكتوبر عبود

أكتوبر لا تزال خضراء ، ولا تزال رياحها تهب ، فهي لم تكن هَبَّة مؤقتة ضد النظام العسكري للفريق عبود ، ولم تكن انفعالا وقتيا . إنما هي في واقع الأمر استمرار لنضالات وبطولات وتضحيات شعب عريق . هي جزء من تاريخ الشعب السوداني منذ معاركه الأولى . . في سبيل ذاته وذاتيته . أكتوبر هي استمرار لكفاح الشعب السوداني منذ مملكة سنار ؛ ومنذ معارك الفونج والعبدلاب . . ومرورا بمعارك الملك نمر ضد الدفتردار ، ومعارك الثورة المهدية ، ضد القهر والسخرة والانحلال والاستعمار ، وبمعركة علي عبداللطيف وإخوانه ، في سبيل الانتماء والتحرر الوطني والقومية ، ومعركة الشعب السوداني بقيادة مؤتمر الخريجين والأحزاب السودانية في سبيل الاستقلال . وهي في واقع الأمر ليست نهاية لهذه البدايات . وقد كانت بداية لمعارك الديموقراطية والحقوق الإنسانية ، ضد الأحكام الفاشية والعسكرية ، ولا تزال هذه المعارك مستمرة إلى الآن . فالمعركة التي يخوضها الشعب السوداني اليوم ، هي في سبيل التحرر الداخلي . . من القهر ، والخارجي . . من الاستعمار وسدنته وأعوانه . ولقد خاضها الشعب السوداني طوال السنوات العشر الماضية ، وهي مليئة بالدم والدمع والمآسي . . والجوع والسجن ، والكبت والحرمان ، والإذلال المستمر يوميا .

وفي غضون هذه السنوات . . قامت ثورات متعددة ، وانتفاضات كثيرة . فإن اختلفت أو تشابهت في أساليبها مع أكتوبر ، فلم تختلف في أهدافها عنها ، وهي أهداف متكررة ومتواترة ، دافع بها الشعب السوداني عن حريته وكرامته وديموقراطيته ودفع في سبيلها مئات الآلاف من الشهداء . . عبر معارك كثيرة ، لاقى فيها حلاوة النصر ومرارة الهزيمة . وهو يذكر في معاركه كلها ، أحلام المعارك التي خاضها آباؤه وأجداده جيلا بعد جيل ، ولا يزال كالبركان . . إن كان قد بدا للناس أنه قد هدأ أو

خمد ، فلا بد أنه سيفاجئهم ، وسينفجر ويدمِّر أعداءه وجلاديه . . من الطغاة والفاسدين .

إن كانت هناك مقارنة بين الثورات والانتفاضات ، فلا بد ـ وللأمانة والتاريخ ـ أن الأسباب التي دعت لانفجار الثورة الشعبية في أكتوبر ١٩٦٤م ، إذا ما قورنت بالأسباب الحالية التي تدعو لانفجار الثورة واستمرارها ، لبدا واضحا للعيان ، أنه ليست هنالك مقارنة على الإطلاق . فإن الذي يمر به الشعب السوداني الآن . . من القهر والفساد والانحلال ، وتدهور الخُلُقيات والمقدَّرات ، لا يمكن أن يقاس بما سبق أكتوبر ، وحتى لايمكن . . أن يقارن بما كان سائدا وقت الاستعمار .

ونستطيع الآن التحدث عما هو سائد وعما حدث في بلادنا ، ولا يمكن لأحد الادعاء أن هذا استقراء أو استنتاج ، أو أنه من قبيل العداء السياسي أو الشخصي أو الرغبة في الحكم . إن الذي سنعرضه . . إنما هو واقع معيش ومحسوس وملموس ليس في حاجة لأي إعلام ، وهو سلسلة من المآسي يعيشها كل الناس ، كل يوم ويكتوي بنارها الطفل والأب ، والمرأة والرجل ، والصغير والكبير . . في كل مناطق السودان ، وكل أسرة ، وموقع سكن أو عمل .

وكانت (الدستور) قد وعدت قرَّاءها ، أنها ستلقي المزيد من الأضواء على مواضيع معيَّنة ، كانت قد حددت رؤوس هذه المواضيع . ونحن سنساهم الآن بإلقاء الضوء على أجزاء من تفاصيل هذه المواضيع ، ولنبدأ . . ونترك للقراء الحكم والمقارنة . وسنبدأ بالموقف الاقتصادي والمعيشي والاجتماعي . فإذا ماقارنا الموقف الاقتصادي قبل أكتوبر ، بالموقف الآن ، فستبرز لنا الحقائق الآتية :

ـ كان العجز الداخلي ـ في ميزانية حكومة الفريق عبود ـ نصف مليون من الجنيهات . . ويبلغ العجز الداخلي الآن (في ميزانية ٧٨ - ١٩٧٩م) أكثر من ٦٠٠ مليون جنيه . ولينحسب الناس كم ضعفا يبلغ هذا العجز ! كانت الاستدانة من النظام المصرفي)في ميزانية ٦٣ - ١٩٦٤م) لا تتجاوز المليون جنيه . . وتبلغ الاستدانة الآن ، أكثر من ألف ومائتي مليون جنيه . وكانت نسبة التضخم (في عام ٦٣-

١٩٦٤ لا تتجاوز ٣٪ وهي الآن ، تركض إلى ما فوق . . . وكان غلاء الأسعار آنذاك لا يكاد يُحَسْ ، وقد تضاعفت أي سلعة منذ ذلك الحين ، وحتى الآن أكثر من ضعفا وذلك يشمل كل السلع : محلية كانت أو مستوردة . وكانت مديونية السودان للخارج ، لاتتجاوز مليون جنيه ، وهي الآن . . تزيد على ألفي مليون .

وكان ميزان المدفوعات الخارجية (لعام ٦٣-٦٤) متوازنا ، وهو الآن مختل بمئات الملايين . . تحت الصفر ! وكان السودان يتمتع بسمعة مالية حسنة ، وقد فَقَدَ الآن أي سمعة ، وأصبحت دول العالم ومؤسساته تتحاشى التعامل معه ، وقد بلغت أقساط الديون المستحقة والتي لم تدفع فوائدها . . ألف وثمانمائة مليون دولار . وكان السودان يدفع ديونه وفوائده بانتظام قبل استحقاقها ، وهو الآن لايعلم حتما مقدار مديونيّته للعالم الخارجي ، دعك من أن يدفع ؛ وهو يلهث ويستجدي الدول . . لإلغاء الديون السابقة أوتجميدها أوجدولتها . . دون جدوى .

إذا كانت الثورة هي سلسلة تفاعلات ، أهمها هو التفاعل الاقتصادي ، وآثاره على حركة الجماهير ؛ وإذا قيس هذا المناخ بما كان عليه سنة ١٩٦٤م ، لكان الفرق هو الفرق ما بين السماء والأرض . وإذا تركنا الموقف الاقتصادي جانبا وتتبعنا انعكاساته على الفساد ، لوجدنا أن الفساد في ١٩٦٤م - وقبل اندلاع الثورة - لا يبلغ قطرة ، من بحر الفساد الذي يعوم فيه الشعب السوداني الآن .

كان الشعب السوداني وقتها يملك كل أراضيه الزراعية والسكنية ، والآن . . فإن الشعب السوداني لا يملك إلاَّ عشرين في المئة من أراضيه هذه . فلقد وُزِّعت ملايين الأفدنة إقطاعا لغير السودانيين ؛ وبيعت أغلب الأراضي داخل العاصمة المثلثة لغير السودانيين ، حتى الميادين العامة ، (ومن بينها ميدان الأمم المتحدة) ، وحتى الحدائق العامة (ومن بينها حدائق الأوقاف) . . تسير الحكومة في طريقها لبيع الأراضي الحكومية في الخرطوم - شرق ، وكل هذا لغير السودانيين .

وإذا أردنا عدْ طبقة المليونيرات (في عام ١٩٦٤م) ، لانجد من نشير إليه بالبنان . وإذا أعددنا جدولا لهذه الطبقة الآن ، فسنجد أن عددها بالمئات ، وكلهم من الذين

لم يكن لهم سابق عمل ، وكلهم من الطفيليات التي ولُدت ، ونمت وترعرعت في أحضان مايو . في الوقت الذي تعاني فيه أغلبية الشعب من الجوع اليومي ، والعجز عن مقابلة أدنى متطلبات المعيشة . . دون الحد الأدنى .

ولقد حاول المشير نميري أن يحدد هذا الفساد ، فحصره في حلفائه السابقين- وخصومه الحاليين- الذين أقصاهم من سلطته . ولكننا هنا نقدم قائمة الاتهام الآتية ونطالب بالتحقيق فيها ، ونتحداه أن ينكرها . . ونطالب القضاء الواقف- أوالجالس- في السودان ، (الذي أعطاه نميري ، الحق في الكشف والتحقيق عن هذا الفساد) . . نطالبه - إن كان فعلاً يهتم بشرف العدالة وشجاعتها - أن يحقق في هذا .

١- نطالب بالتحقيق في عطاءات محطات الأقمار الصناعية الأربع ، والتي أعطيت لشركة أمريكية وكيلها هو عدنان خاشقجي ، وممثله في السودان بهاء الدين إدريس وزير الشؤون الخاصة لنميري . هذه المحطات التي أعطيت دون عطاء ، ودون إعلان ، ودون مقارنة في الأسعار ، والتي بلغت عمولتها عشرات الملايين من الدولارات .

٢- نطالب بالتحقيق في قرض ال(٢٠٠) مليون دولار ، الذي تقدم به عدنان خاشقجي نيابة عن مصارف أجنبية كثيرة ومتعددة الجنسيات ، هذا القرض الذي اختفي منه (٢٠) مليونا من الدولارات ، أوفُتحت لها حسابات في الخارج ، ولم يسمع أحد شيئاًعنها بعد ذلك . . وهو قرض حان سداده الآن ، وبلغت فوائده(١٨٠) مليون دولار ، أي مايقارب الدَّيْن نفسه ، وما سيتجاوزه العام المقبل أين اختفت العشرون مليوناً ؟ ومَنْ استفاد من الفوائد المركبة التي سيدفعها الشعب السوداني ؟ والمستفيدون من هذا . . هم : جعفر نميري شخصياً وعدنان خاشقجي ، وظِلْ نميري . . بهاء الدين إدريس .

٣- نطالب بالتحقيق في صفقة عربات " المجروس " الألمانية ، التي اشتُريت بأكثر من ضعفي ثمنها العالمي ، والتي توقَّف الآن أكثر من ثلثيها عن العمل ، واستفاد منها نميري وخاشقجي وإدريس . . عشرات الملايين من الدولارات .

٤- نطالب بالتحقيق في عربات " الدوتش " ، التي استوردت أخيراً للمواصلات والتي لم يمرعليها سنة حتى توقفت عن الحركة ، والتي يبلغ استيعابها من الوقود ٣ أضعاف السيارات المماثلة لها ؛ ويقف وراء هذه الصفقة أيضاً . . خاشقجي ونميري وإدريس .

٥- نطالب بالتحقيق في صفقة طائرات الهليوكوبتر الألمانية ، والطاثرات التي سبقتها ، وهي لاتزال معطلة أو جاثمة في العراء ، ويقف وراء هذه الصفقة . . جعفر نميري وخاشقجي وإدريس .

٦- نطالب بالتحقيق في المنازل الجاهزة التي استوردت للقوات المسلحة، والتي لا تزال قابعة في العراء ، وقفز ثمنها في يوم واحد من ١٢ مليون دولار ، إلى ٣٠ مليون دولار ، والتي يقف وراءها . . عدنان خاشقجي ونميري وإدريس .

٧- نطالب بالتحقيق في بناء قصر الرؤساء بالخرطوم بحري ، والذي أُعْطِي لشركة كورية معروفة بممارساتها الفاسدة ، بأكثر من ضعف السعرالذي حددته وزارة الأشغال ، والذي أُعْطِي دون عطاء .

٨- نطالب بالتحقيق في ممارسات هذه الشركة التجارية ، والرُّخص التي أُعطيت لها دون تحويل عُملة ، وفي الأقمشة الكورية التي احتُكِر استيرادها لثلاثة أشخاص فقط ، وللسيارات الكورية التي أُعْطِي توكيلها لشركة " الأضواء " . . وهي اسم مستتر لبهاء الدين ، ويقف وراء الصفقة ، نميري وخاشقجي .

٩- نطالب بالتحقيق في صفقة سيارات البيجو (٥٠٤ و ٦٠٤) ، وسيارات المرسيدس التي استُوردت ـ كما يقال ـ لمؤتمر القمة الأفريقي ، والتي تُوزَّع الآن بلاحساب لعدد من المحاسيب ، ويقف وراء هذه الصفقة نفس الثالوث .

١٠- نطالب بالتحقيق في أعمال المليونير/ عبدربه . . في بورتسودان ، وفي مطاحن الغلال التي أُعْطِيت له ، وفي الأراضي الحكومية التي بيعت له في بورتسودان مثل النادي الإنجليزي سابقاً . . وبسعرالتراب ، ويقف وراء هذ الصفقة . . جعفر نميري وبهاء الدين .

١١- نطالب بالتحقيق في الأعمال التجارية التي يقوم بها مصطفى النميري ، وفي البضائع التي نَهَبَها من الشركات المختلفة ، والمنازل التي استحوذ عليها في الخرطوم من أصحابها ، والأراضي الحكومية التي أُقْطِعت له .

١٢- نطالب بالتحقيق في أعمال جمعية ود نميري التعاونية . . ومصادرأموالها والسيارات التي تملكها ، والسلع التموينية التي تُعطَى لها بلا حساب ، وهي قرية لا يتجاوز عدد سكانها ٥٠ شخصاً . . من طفل وامرأة وشيخ .

١٣- نطالب بالتحقيق في صفقة معدات الطرق ، التي اشتُريت من شركة وهمية في أمريكا ، والتي وقَّع مصرف السودان المركزي صكوكاً معتمدة بالدفع عنها ، والتي تبلغ (١٨) مليونا من الجنيهات في العاصمة المثلثة ، وهو مبلغ يتجاوز معدات الطرق التي استوردت إلى السودان الشبيه بالقارة .

١٤- نطالب بالتحقيق في مشروع كنانة ، الذي ارتفعت تكاليفه من (١٥٠) مليون دولار إلى (٧٥٠) مليون دولار ، والذي كان مقدراً له إنتاج السُكَّر قبل ٥ سنوات ولم ينتج إلى الآن . . رطلاً واحداً من السُكَّر .

١٥- نطالب بالتحقيق في مشروع سكَّرغرب سنار ، الذي استوردت له ماكينات تالفة ومعطوبة ، وكان مقرراً له إنتاج السُكَّر قبل ٥ سنوات أيضاً ، وشُحنت مُعداته الكهربائية بعد تَلَفها . . بالطائرات لإصلاحها في بريطانيا .

١٦- نطالب بالتحقيق في مشروع سكَّر حجر عسلاية ، والذي لم يستطع أن ينتج رطلاً واحداً من السُكَّرإلى الآن ، وبعد مرور ٧ سنوات على الوقت المحدد لإنتاجه

١٧- نطالب بالتحقيق في مصانع النسيج الستة ، التي استوردت قبل إنشاء مصانع الغزل ، والتي لاتزال حتى الآن بلاإنتاج ، وحتى بلابناء .

١٨- نطالب بالتحقيق في مشروع سكَّر مُنقَلة بجنوب السودان، وأين ذهب التمويل الذي دفعته النِّمسا له ؟ وأين ذهبت الآلات والمعدات التي استوردت له؟ وأين مواد البناء والأسمنت التي اشتُريت له؟ وماهو دور بهاء الدين إدريس في هذا؟ وماهو دور هليري بولو لوقالي ، الأمين العام للاتحاد الاشتراكي بجنوب السودان

وعضو المكتب السياسي؟

١٩- نطالب بالتحقيق في الصفقات التجارية للمؤسسات الحكومية، وهي : شركة تصدير القطن، وشركة الصمغ، وشركة تصدير الحبوب الزيتية . وأين ذهب الفرق في الأسعار التي يُشتَرى بها من صغار المنتجين . . ويُباع بها للعالم الخارجي؟

٢٠- نطالب بالتحقيق في كل التسهيلات المصرفية ، التي مُنحت للتجار من المصارف السودانية ، والتي بلغت مئات الملايين من الجنيهات (حسب تقدير المراجع العام) والتي لم يسدد منها شيء إلى الآن . ونطالب هنا (وعلى وجه الخصوص) بالتحقيق في التسهيلات التي مُنحت لفتح الرحمن البشير (وتبلغ مئات الملايين) . . وفوائدها عدة ملايين .

٢١- ونطالب بالتحقيق في توكيلات الشركات الأمريكية ، التي مُنحت له أخيراً مثل جنرال الكتريك وموتورز وغيرها . . من كبريات الشركات الأمريكية ، والتي امتدت توكيلاتها ليس في السودان فحسب ، بل في أفريقيا والعالم العربي . ونتساءل . . كيف يصبح شخص واحد رئيساً لهيئات التجارة المشتركة بين السودان وأمريكا ؟ والسودان وأسبانيا ؟ والسودان وألمانيا ؟ والسودان ورومانيا والسودان واليابان ؟ بل . . بين السودان وكل قطر آخر ؟ ونتساءل . . كيف يفتح المكاتب - في وقت واحد - في أمريكا وبريطانيا وجدة وأبوظبي ؟ ونطالب المراجع العام أن يصدر بياناً بالأصول الثابتة والمنقولة لشركات " الشرق " التجارية وبالديون الداخلية والخارجية عليها .

٢٢- نطالب بالتحقيق في التعويضات التي منحت لباسيلي بشارة ، والتي أثيرت في مجلس الشعب ، وعندما ورد اسم بهاء الدين أخرست الألسن ، والتي دفعها الرئيس نميري شخصياً . . عندما كان يتولى بنفسه وزارة المالية .

٢٣- نطالب بالتحقيق في أعمال قارو فانيان ، وآلاف السيارات التي استوردها للحكومة ، والآف الأطنان من الفول السوداني ، التي عثر عليها البوليس في مخازنه .

٢٤- نطالب بالتحقيق في المِنَح التي أُعْطِيت لزوجة اللواء/ جوزيف لاقو ، وآخرها المنحة التي دفعتها حكومة الإمارات لبناء رياض أطفال في الجنوب ، أين ذهبت وكيف وصلت إلى بنك باركليز في نيروبي ؟ ومَنْ استلمها ؟

٢٥- نطالب بالتحقيق في الفندق - ذي الطوابق - الذي يُبنى في مدينة جوبا لحساب اللواء جوزيف لاقو . ماهي المؤسسة الحكومية التي تبنيه ؟ ومن هو المستفيد منه ؟

٢٦- نطالب بالتحقيق في صفقات السلع ، التي استوردت من شرق أفريقيا إلى جنوب السودان ، واستولى عليها الوزراء في جنوب السودان ، ولم يرأحد من إخواننا في الجنوب سلعة منها ، وذهبت أموالها لجيوب هؤلاء الوزراء .

٢٧- ونطالب الحكومة بالكشف عن التحقيقات التي إجريت حول هذا ، والإدانات التي ثبتت . ونطالب بالتحقيق في مصنع الكِناف ، الذي صُرفت عليه عشرات الملايين من الدولارات ، والذي توقف الآن دون أن ينتج جوالاً واحداً من الكناف . أين ذهبت أمواله ؟

٢٨- نطالب بالتحقيق في مصنع الأسمنت ، الذي أستُورد بعد أن ظل يعمل في الخارج ٤٠ سنة ، والذي لا يعرف الآن أحد مكانه في السودان !

٢٩- نطالب بالتحقيق في المخازن ، التي أنشأتها شركة الإمارات العربية المتحدة والسودان ، والتي سقطت من هطول أمطار طفيفة ، ولم يسقط من جرائها حتى بيوت الخشب في الأحياء الشعبية لمدينة بورتسودان .

٣٠- نطالب بالتحقيق حول الأموال العامة ، التي نُهبت في مشروع " الجموعية " ومشروع تسمين الماشية ، والجمعية التعاونية للقوات المسلحة ، أين ذهبت هذه المبالغ ؟ وأين هذه المشاريع الآن ؟

٣١- نطالب بالتحقيق في معدات الاتصال والمخابرة ، التي استوردت للقوات المسلحة بلا عطاء ، ويقف وراءها عدنان خاشقجي ، مَنْ الذي تسلّم عمولاتها وفروقات أسعارها ؟ .

٣٢- نطالب بالتحقيق في صفقات السُكَّر التي تبيعها شركة (شاهر) للسودان ، والتي

يبلغ فرق سعر الطن بينها وبين أسعار السُكَّر ـ في بورصة لندن ـ (١٠٠) دولار . . في كل طن . من الذي يقف وراء شركة (شاهر)؟ مَنْ هو وكيلها العالمي ووكيلها المستَتِر؟ وماهو دور بهاء الدين إدريس في هذه الصفقة ؟

٣٣- نطالب بالتحقيق في أعمال شركة سركيس أزميرليان، وماهي صلة السيد وزير المالية الحالي بها . . وقد كان يعمل مديرا لها ؟ وكيف استولت (تحت أسماء أخرى) على صفقة القمح الأخيرة ، وفروقات الأسعار الباهظة ـ التي تحمّلها الشعب ـ لهذه الصفقات ؟

٣٤- نطالب بالتحقيق في أعمال وزارة الصناعة والمصانع التي تمنحها ، والتسهيلات المصرفية التي يعطيها البنك الصناعي ، خصوصا في مشروع الجيليكوز الأخير .

٣٥- نطالب بالتحقيق في صفقة الأسلحة التي تبيعها شركة لوكهيد للسودان ، بما فيها طائرات (اف ٥ والطائرات سي ـ ١٣٠ الناقلة) ووكيل الشركة عدنان خاشقجي . . والصِّلة المشبوهة لهذه الشركة في صفقات أسلحة أخرى ، والتي حققت فيها لجنة الكونغرس الأخيرة .

٣٦- كما نطالب بالتحقيق في صفقة الأسلحة الفرنسية ، بما فيها طائرات الميراج والصواريخ ، وهذه الصفقة من صنع الثالوث . . نميري ـ خاشقجي ـ إدريس .

٣٧- نطالب بالتحقيق في شحنات الوقود ، التي شُحنت من السعودية إلى السودان وبيعت بميناء روتردام بهولندا ـ بـ ١٣ دولار أكثر من سعر الأوبك ـ وفي الوقت الذي مرَّ به السودان بأعنف أزمات الطاقة .

٣٨- نطالب بالتحقيق في أعمال الشركه الإيطالية ، التي قامت بإصلاح الفندق الكبير ، ـ وبناء المجسَّم أمام القصر الجمهوري ـ التي بلغ إصلاح الغرفة فيها . . أكثر من ضعفَيْ قيمة تكاليف غرفة في فندق الهيلتون .

ـ نطالب بالتحقيق في سيارات أبورجيلة ، والتي استوردت من البرازيل ، وباعها أبورجيله مؤخرا إلى الحكومة . . وقد تلف

٤٠- نطالب بالتحقيق في الأرض التي مُنِحت منها ٨٠٪ لعمرسايس ـ أحد أتباع

خاشقجي - والتي تمتد من بورتسودان حتى مدينة سواكن ، وأقيمت فيها سُلطة مستقلة عن حكومة السودان ، تملك حق إنشاء الموانيء والمطارات ، ومحطات الإذاعة والتلفزيون والفنادق ، وحق منح تأشيرات الدخول ، ولها قضاؤها المستقل وسُلطتها الخاصة ، وحق استيراد السلع بلا رُخص ، وتصديرها أو بيعها بالداخل . . بلا أذونات ؛ والتي أُعطيت الأرض فيها ، وتبلغ مئات الأميال (لمدة ٩٩ سنة) . . وهي المدة التي تحقق الملكية الكاملة .

٤١- نطالب بالتحقيق في مشروع إنشاء ميناء سواكن والمطارات الحربية الأربعة والقاعدة الصاروخية . . ماهي علاقة شركة أستراباك الألمانية بها ؟

٤٢- من الذي يملك آلات الحفر ، التي تستأجرها شركة شيفرون الأمريكية ؟ هل هو وزير الطاقة الحالي - شريف التهامي ؟ وما هي علاقته بفتح الرحمن البشير ؟

٤٣- من الذي يملك المنازل الفخمة في مدينة الرياض ؟ وكم تبلغ تكلفة هذه المنازل ؟ وكيف يستطيع رجل ذو مرتب معروف - ومحدود - أن يبني منزلا يكلّف ٣٥٠ ألف جنيه ، ويؤجره بألفيْ جنيه شهريا . . للسفارات والشركات الخارجية ؟ وأين التحقيق الذي أُجْرِيَ في الاتحاد الاشتراكي عن هؤلاء ؟ والمنازل التي شاهدها المشير نميري بنفسه ، وأُعْطِي كشفا بأصحابها ؟ من هم . . ومن أين لهم هذا ؟ وكم هي قيمة الرُّخص التي مُنحت لهم وباعوها في السوق السوداء . . مما زاد في كلفة الإنشاء والإيجارات ؟ .

هذه قائمة اتهامات ، وليست حصرا لكل القوائم والأسماء . . وماأكثرها . ونحن نتقدم بها لنعاون السيد رئيس القضاء - الذي أوكل إليه المشير نميري ، وإلى قضاة المحكمة العليا معه - حصر تهم الفساد . ونحن على استعداد لتقديم الأدلة والشهود والمستندات ، هذا إذا كان هناك قضاء في بلادنا . . أو كان هناك عدل !

إن المتهم الأول في كل هذا هو . . جعفر نميري شخصيا ، وهو المستفيد الأول والأخير . وبعد : فما أبعد الفرق بين الفساد في حكم الفريق عبود ، وفساد لم ير العالم له نظيرا الآن . . في حكم المشير نميري .

ولنتحدث الآن قليلا عن جنوب السودان ... بعد توقيع إتفاقية أديس أبابا ، قال النميري أن الأمن والاستقرار ، والرخاء والتنمية ، الاقتصادية والاجتماعية ستسود الجنوب . وصدَّقت دول العالم . . وسارعت إلى التبرع . ودعنا نتساءل الآن . . كم هي الأموال التي دفعت ، وأين أنفقت ؟ كم هو عدد الذين يموتون بالمجاعة كل يوم ؟ أين هو الاستقرار . . والفوضى تسود الجنوب ، والمعارك تدور في كل أنحائه ، خاصة في منطقة مشروع جونقلي ؟

كم هي حوادث الفساد في جنوب السودان ؟ ومن الذي يبيع السلع التموينية والغذائية لجماهير الجنوب الجائعة ؟ وكم منزلا وسيارة يملك كل وزير ؟ وكم عدد الطائرات التي تُحَمَّل بالسلع لحساب الوزراء من كينيا وأوغندا وتنزانيا ؟ ومع كم من الوزراء حققت الشرطة ، وأثبتت بالأدلة والبراهين سرقة الأموال العامة ؟ وأين هي تقارير لجان التحقيق ، التي كُوِّنت في جنوب السودان وشماله . . وأين ذهبت ؟

وأخيرا وليس آخرا ، أين هي الأموال التي استولت عليها زوجة رئيس المجلس التنفيذي الجنوبي . . لاقو ؟ وكم هي قيمة المنزل الذي بناه ، والفندق الذي يبنيه ؟ والآن يمر السودان بأزمة دستورية مزَّقت الاتفاقية نفسها ، وحولت بنودها الديموقراطية إلى ديكتاتورية ، حيث فرض رئيس المجلس التنفيذي ، رئيس مجلس الشعب ونوابه واعتقل ممثلي الشعب في جنوب السودان ، وأعلن الأحكام العُرفية ، وحدد إقامة المسئولين . . وأصبحت بلادنا يحكمها ديكتاتوران ، وحاكمان مطلقان : أحدهما المشير نميري ، وثانيهما ظلُّه في الجنوب . . اللواء/ جوزيف لاقو ؟

أين هي مشاريع التنمية التي أقيمت في الجنوب ؟ أين هي مشاريع الخدمات ؟ أين هي الخدمات الصحية والتعليمية ؟ أين العيش نفسه . . أبسط ضروريات الحياة ؟ كم عدد الذين يموتون من الجوع ؟ كم هي قيمة جوال الذرة والملح والسُكَّر ؟ ألم تتساوى كلها ؟ ألم تتصاعد حتى فاقت ١٠٠ جنيه ؟ ماهي المقارنة بين الموقف الآن ، والموقف سنة ١٩٦٤ - قبل اتفاقية أديس أبابا ؟ ماهي الحالة الأمنية والمعيشية والاقتصادية . . لمواطنينا في جنوب السودان .

ولنختم حديثنا بالتعليق على القوات النظامية في السودان . لمن تتبع قوات الشرطة ؟ أين هو هرمها الوظيفي والقيادي ؟ ومن المسئول عن الأمن ؟ ماهي حالة الانضباط في القوات المسلحة السودانية ؟ ألم ينحل عقد الارتباط ؟ ماهي حالة التوازن القيادي بين الضباط وصف الضباط والجندي ؟ من الذي يأمرالآخر ؟ أين هو التدريب الفردي والجماعي ؟ وماهو الموقف بعد مناورة شيكان ، التي ذهب ضحيتها ـ عمدا أو جهلا ـ العديد من الضباط وصف الضباط والجنود ؟ ماهو رأي الفريق/ عبدالماجد حامد خليل . . في هذا ؟ والذي ظل يتغنى طول عمره بالضبط والربط والتدريب؟ أين هي أسلحة الجيش السوداني ؟ كم هو عدد طائراته وطياريه ؟ هل هناك طائرة واحده تستطيع التحليق في الأجواء؟ هل هناك مدرعة أو دبابة واحده ، تستطيع حماية الحدود ؟ كم هو عدد الذخيرة التي ندافع بها عن ترابنا ؟ وماهي حالة الأسلحة الفنية ؟ وماهو استعدادنا الآن . .

إذا وُوجه ترابنا بغزو خارجي ؟ ماهو عدد القوات التي ستصدُّه ، والمعدات الحربية التي نملكها ؟ ألا تمتلئ الحظائر بالدبابات المعطوبة ، والمدرعات المعطلة ، والأسلحة التالفة ، والتي قال النميري نفسه إنه مستعد أن يهبها مجانا للاتحاد السوفيتي ؟ وأين بديله . . في هذا ؟ وماهو مصير صفقة الطائرات والدبابات إلى الخارج ؟ ماهي الروح المعنوية للجنود السودانيين؟ ومرتباتهم التي قيل أنها مميزة . . لاتكاد تكفي حتى للكفاف ؟ وماهي مشاعرهم تجاه أهلهم في المدن والأقاليم ، الذين يعانون من شظف العيش وقسوة الحياة . . وظلم الحاكم ؟ كم هو عدد التنظيمات السرية داخل الجيش السوداني ؟ ألاَ تبلغ ثمانية تنظيمات ؟ كيف بلغت حِدَّة الصراعات العنصرية والإقليمية والجهوية والطائفية والقبلية ؟ ألم ينضم الجنود إلى قبائلهم ، عندما أرسلوهم أخيرا لحفظ النظام والقانون . . في غرب السودان ؟ ألم يرفض الآخرون الذهاب إلى هذه المناطق ، لإيقاف الحرب الأهلية الدائرة هناك . . بأحدث الأسلحة ؟ كم بلغ تدفق الأسلحة على السودان من كل حدوده ، حتى أصبح شراء الكلاشنكوف ، أسهل من شراء رغيفة خبز ؟ كم هو عدد المليشيات : المسلحة والمدربة

والمرابطة . . داخل السودان ؟ هل هو جيش واحد ، أم عدة جيوش ؟

ماهو رأي السلطة في التنظيمات المتعددة الآتيه : الضباط الأحرار ، الضباط الديمقراطيين ، الضباط الوطنيين ، ضباط قوات الشعب المسلحة ، وضباط الاتحاديين الجبهة القومية ، التابوت الأخضر ، أحرار "مايو الجديد" ؟ كم هو عددهم ؟ وكم تبلغ قوة تنظيماتهم ؟ وماهو حال بلادنا ، إذا واجه هؤلاء بعضهم البعض الآخر . . بالسلاح ؟ ألم يصبح جيشنا كله . . وجهات نظر سياسية وعنصرية وإقليمية مسلحة ؟ تنتظر لحظة الانقضاض ذات فجر ، ربما تسابق ديك الصباح أو بائع اللبن . . عندما تهرع إلى الإذاعة تردد الشعارات ؟

وبعد : ألا نرفع أيدينا جميعا . . إلى الله ! كي يطيل عمر الفريق عبود ، ولا نتذكر جميعا الحالة التي كنا فيها أيام حكمه ، والمناخ الذي فجَّر فيه شعبنا ثورته في أكتوبر ، لمجرد أن حكامه كانوا (عساكر) !

وبعد . . ماالذي ينتظره مواطنونا ، وهذه هي بلادهم ملقاة أمامهم تسيل دماؤها ودموعها ، ولا تجد من يكفكفها . . وممّنْ نخاف ؟ أمن هذه الحفنة : الفاسدة الجبانة المنهارة ؟ ونحن نعرفها بالوجوه ، ونعدُّها على الأصابع ، نعلمها العلم اليقين خِفافا عند الطمع ثِقالا عند الفزع ، تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ! ألاَ هُبِّي يارياح أكتوبر . . وهُبِّي معها يارياح الجنة .

المهلة.. والممهلون

كانت اجتماعات مايسمى باللجنة المركزية ، لما يُسمَّى بالاتحاد الاشتراكي ، مهزلة المهازل وأعجوبة الأعاجيب . ولو أراد مخرج أن يُشبع رغبات الجمهور ، لَمَا نجح في إخراج مسرحية هزيلة مثل هذه ! بدأت بخطاب الرئيس . . وفي ماغير العبارات الرنانة الطنانة التي يجيدها كُتَّاب الخُطب ، ولا يستطيع هو قراءتها ، كان فارغا أجوف ، كاذبا تائها وضائعا ، مثل فراغ وضياع نظامه ومنظَّمته . . وإذا استعدنا الأكاذيب والأراجيف والمبالغات ، لَمَا وجدنا غير الجُمل الإنشائية ذات الطنين الذي نبذه المستمعون .

ثم هاجم الرئيس المتساقطين الذين صالحوه ، وأنذرهم وتوعَّدهم ، وهددهم وحقَّرهم لأن انصهارهم لم يكن كاملاً . وخضوعهم لم يكن مُرْضيا . . وركوعهم لم يكن مجديا ، وطالبهم بمزيد من السجود والركوع ، وأمهلهم حتى ينبطحوا تماما على الأرض . . وإلاَّ داسهم بحذائه العسكري . . وأشبعهم من عنفه الثوري . . وذهب لمنزله للراحة فتوافدوا عليه ، وعلى وجوههم رجفة الفزع ، وفي قلوبهم لوعة الرعب ، وفي عَبرتهم دموع التماسيح ، وقالوا : إنه لم يعد في أجسامهم مزيد من المساحة للركوع . . ولا في جباههم مزيدا للسجود، وقد انصهروا حتى أصبحوا من ترابهم . . وصارت عقائدهم يبابا . . وأنهم الآن مايو ، ومايو هم ، ولا علاقة لهم بالإسلام ولا بالأخوان . . ولا بحزب الأمة ولا الأنصار ، بل هم جزء من الكتائب والبراعم ، والحرس الجمهوري . . وأنهم قد نسوا الله والوطن ، وانصهروا في شخصه انصهار الصوفية ، والتصاق الدراويش ، واحتضان الوالدين ، وهو بالنسبة لهم الوهاب الجبار الغفار . وبكوا من الندم ، واستجدوا الإنقاذ .

وعطف عليهم (الريِّس) ، فقلبه يتسع لكل خاضع نادم ، وعقله لايستمع إلاَّ للرُكَّع الساجدين . وجاء المساء . . وغيَّر الريِّس كلامه الواضح في الصباح ، ومن

حق الرَّيِّس أن يغيِّر كلامه مثلما يغيِّر قميصه ، ومن واجب المستمعين له أن يتقبلوا التغيير ، ويهتفوا له بنفس الحماس والانفعال ، الذي قابلوا به الكلام الأول ، فمن حق الرَّيِّس أن ينسخ ويمسخ ويبدل ويغيِّر ، ومن واجب التنظيم أن ينفعل ويتفاعل ويتحمس . . لكل ما نطق به الرَّيِّس ، فهو لا ينطق عن الهوى . . . إنما هو وحْيٌ يوحَى وليس للمواطنين - أيّاً كانوا - أي دور غير الهتاف والتطبيل ، والتزمير والرضا والقبول .

قال : إنه لم يقصد الذين صالحوه وحضروا، فهؤلاء - وإن لم يكتمل إيمانهم - مازالوا من المؤلَّفة قلوبهم . . ولكنه قصد أولئك الذين يستمرون في التحريض والتخريب ، ويستلمون المال من الدول الأجنبية ، إلى آخر الأغنية الممجوجة التي ظلَّ يغنيها بصوته الخليع ، منذ اثنتي عشرة سنة . وهنا ثارت هائجة القُدَامى ، فتكلموا عن الموجودين معهم ووصفهم بالخيانة ، والعمل ضد (الثورة) ، وسَمُّوا الأسماء ووضعوا النقاط فوق الحروف ، ووصفوا المتاجرة بالدِّين .

ذهبوا في التاريخ إلى اغتيال عبدالناصر وموته ، ثم انقلبوا على حزب الأمة والطائفية . . ويبدو أنها غير التي ظهرت صورها مع الرئيس في الصفحات الأولى والرافضين . . الذين لا ينتمون لأمانة الطرق الصوفية بالاتحاد الاشتراكي ، وغير الدجالين والمشعوذين الذين تُهدى لهم سيارات المرسيدس ، وتُبنى لهم القصور فيقومون بإنجازات التنمية الثورية في : (المحاية) و (البخور) و(العروق) ، وماشابه ذلك . . الذين يتولون - وأستغفر الله - دون الله سبحانه وتعالى ، إطالة عُمْر الرَّيِّس وغير الذين يدقُّون (النوبة) للرَّيِّس ، لكي يرقص فيها حاملا عصاه ، عله يتحلل من الإذلال العصبي ونوبات (الدساتير) ، كعجائز النساء المصابات بداء الانفصام .

وغير دجال سنار ، الذي أهداه نميري عربة مرسيدس ٢٨٠ ، وعشرات القِطع من أراضي المباني في العاصمة المثلثة وسنار ، ثم هرب واختفى بعدها . . بعد أن هتك عروض الناس وسرق أموالهم ، مما أصاب مدينة سنار في مجملها بالأضرار في أعراضها وأموالها ، حتى أولي الأمر وسدنة القضاء فيها . . ولِمَ لا ! فطالما الرَّيِّس

قدوته في الحكم ، فهو أيضا قدوته في الدجل . هؤلاء منزّهون مقدّسون . . . فهم (أهل الحضرة) ورسل السماء ، الذين يستطيعون إطالة عمر النظام بالسحر (والحجاب) فلماذا التعب في التنمية والإدارة والاقتصاد ؟ ولماذا يأكل الناس . . والدجالون قادرون على إبقائهم جوعى ؟ لأن " أهل البطون الخاوية ، أقرب إلى الله " وبالتالي أقرب إلى الرضا والخضوع . .

وردَّ على هؤلاء ياسين عمر الإمام وقال : إنه يدافع عن النظام بالسلاح ضد حسين الهندي والشيوعيين والبعثيين . . وحسين الهندي هذا . . زميل إخوانه الذين استشهدوا وهم في عُمر الزهور ؛ فإذا كان قد نَسِيَهم وتنكَّر لدمائهم ، فمن باب أولى أن يتنكَّر لحسين الهندي ويُشْهِر عليه سلاحه ، ويوالي ركوعه للنميري . . فياسين عمر الإمام هذا . . مثَلٌ واضح للنميري . فقد كان شيوعياً أحمر ثم انقلب إسلامياً تضارع لحيته السماء ، يحفُّها دخان السجاير وماشابه ذلك ! ومع ذلك . . فقد أمر الرَّيِّس ياسين ، ألا ينشر كلامه حتى ولا في صحيفته التي يترأسها .

فهذا أوضح مثَل للديموقراطية التي يتكلم عنها (إخواننا) الذين صالحوا ، وخضع ياسين ، ولم ينشر حرفا واحدا من كلامه في صحيفته ؛ ونشر كل كلام الآخرين . . وهذه أعلى مراتب الديموقراطية . ولم يكن هناك غير الهياج العصبي والشتائم والتراشق بالتُّهم ، والتماسك بالأيدي . . في اجتماع عهد الاستقرار !

هكذا يُحكم السودان . . وحتى الأرقام التي ظهرت عن الاقتصاد ، قد كانت كلها مزوَّرة ومزيَّفة ، وغير صادقة . . وكاذبة ومغلوطة . أما الحكم الإقليمي الذاتي - المقبول من حيث المبدأ - فقد تشوهت صورته ، لعدم وجود أي ميزانية له . فالحكومة التي لا تستطيع دفع مرتباتها والتزاماتها الآن ، كيف يتسنى لها أن تنشئ حكومات متعددة ، وحكاما وموظفين في الدرجات العليا . . وتنمية اقتصادية وخدمات ؟ وهي التي لا تستطيع الآن إصلاح جدار مدرسة تساقط . . أو باب نقطة غيار انكسر .

كيف تستطيع أن تدفع خمسمائة مليون جنيه في العام على الحكم الذاتي – حسب تقديراتها – والتي تتضاعف عند الصرف الفعلي ؟ مثل مشروع كنانة . . ضعفا أو

أضعافاً . من أين لها المال ؟ وهو المرتكز الأساسي لأي حكم إقليمي . . وقد بدأته بإثارة النزعات القبلية والطائفية ، وهي التي تدَّعي في شعاراتها ، أنها قامت للقضاء عليها . . فيُعيَّن حاكم إقليم من قبيلة ، ووزير من قبيلة ، وتحتج بقية القبائل وتواجهِ وتتسلح وتستعد للصدام ، وتشتري البنادق والمسدسات والقنابل والمدافع الرشاشة . قبيلة مسلحة ، وطائفية مسلحة . . هذا هو حصاد الممارسة . . وحتى جوزيف لاقو الذي وقَّع اتفاقية الجنوب ، دعا لتقسيم الجنوب إلى محافظات لكي تتحسن إدارته .

وفَشَلْ الحكم الإقليمي في الجنوب، هو إرهاص لفشله في الشمال . . جوع ومرض وعرِي ، وعدم إدارة ، وانعدام سلع ، وسوق سوداء ، وهجرة مئات الآلاف ومشاريع تنمية على الورق - وحتى القائمة منها - تحطمت : كمشروع أنزارا ومشروع الأرز بأويل ، وتعليب الفاكهة بواو . أما سكَّر منُقلا . . فقد سُرِقت كل معداته فأراح واستراح . وليس للحكم الإقليمي في الجنوب مظهر ، غير طبقة الأثرياء التي اقتدت بمثيلتها في الشمال ؛ حفنة من الوزراء والجلابة ، ورخص استيراد من شرق أفريقيا ، مع رخص (ترانسيت) تباع في السوق الأسود ، ولا تتجاوز الحدود وقصور في مدينة جوبا ، ومنازل تُشتَرى بمئات الآلاف . . لم تكن تُشتَرى ألا ببضع مئات ؛ وأسراب من الجوعى والعرايا ، والعطالة المتفشية . والجنوب أول منطقة في العالم يتساوى فيها ، سعر جوال الذرة وجوال السُكَّر وجوال الملح . . وهذه هي نفس الممارسة التي ستحدث في بقية مناطق الحكم الإقليمي .

أما الرئيس . . فقد احتفل بهذا الإنجاز ، وهذا هو كل الذي يهمه . وضَعَ حجرأساس بلا أساس . . وافتتح مشاريع ولا مشاريع . . ومصنع سكَّر واحد ينتظره الرئيس يوما كاملا لينتج جوالا واحدا من السكَّر . . ثم يتوقف سنوات ، وإلى الآن ! ويتضح أن كل ماكيناته قديمة ومتآكلة ؛ وكل نتائجه ذهبت لجيوب السماسرة . . تجارا وحكاما . ويُسْدَل الستار على المسرحية ، لكي تبتدئ مسرحية أخرى ، لها نفس الخصائص ونفس النتائج . . وبنفس الممارسات . .

ونحن الآن نعود للمهلة التي تنتهي في أول أبريل . . وتصادف كذبة أبريل . أما

نحن فقد قابلناها بالضحك والسخرية ، والهُزء والاستخفاف والاحتقار ، فهي صيحة فارس مدبر وضَرْب طبل أجوف ، وتهديد رعديد جبان ، ظللنا نسمعه منذ سنوات ، ونتابع لهثاته بتعسر الأحوال ، ويهرب حتى عندما يرى الناس . ومن بعد . . فنحن نتحداه ونمد له ألسنتنا ، ونخلع له أحذيتنا ، ونتمنى أن يقدم عليه . . بأي وسيلة يشاء ، فسيرى أن العين ستكون بعيون كثيرة ، والسنّ بأسنان متراكمة . . ولا ندري لماذا يمهلنا ؟ هل خطر على فكره ـ ولو لثانية واحدة ـ أننا سنشترك (ولو مرة واحدة) في هذه الجريمة التي يرتكبها ، ونعُوم معه في المستنقع الآثم الذي يغوص فيه ؟ ونصبح لصوصا وسماسرة وقطاع طرق . . مثله ووزراؤه وحاشيته ؟ فنلوّث تاريخنا ونجهض مبادئنا ، ونشوّه ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا ؟ ثم نتأدب ونخضع ونركع ونستمع لهذه الشتائم ، التي تُكال لمن سبقنا : من الذين أُصيبوا بالهزيمة الداخلية والإذلال العصبي ، والانكسار الخلقي ، وحلفوا القَسَم وحنثوا به ـ ثم حلفوا وحنثوا ـ ونسوا مبادئهم ودينهم وأوطانهم وشهداءهم ، وصافحوا اليد الملطخة بدماء زملائهم ، صافحوها وهي تصفعهم ، وركعوا تحت حذائها وهو يركلهم وأصبحوا مطالبين بإثبات ولائهم . . بالشتائم والسباب ! وكيف يكون لرجل ولاءان في جوفه ؟

تقدموا أو أحجموا . . فنحن في انتظار مُهلتكم . . لا أياما بل قرونا ! نحن نقف مع شعبنا ومع قضاياه المصيرية . . نقف مع جوعه وشقائه ونكده . . نقف مع مقدراته الضائعة واقتصاده المنهار ، وأخلاقه التي اعتورها الانحلال . . نحن نعمل على إسقاط حكمكم العميل ، بكل السبل وبكل الوسائل حتى بالأظافر . . إننا لسنا من طينتكم . . فإنكم عمل غير صالح ؛ ولن نكون أقل ذكاء من الجرذان التي تهرب من السفينة الغارقة ، فتتشبّث بسفينة غرقت فعلا ! وإن لم تكن فينا ذرّة من الوطنية ، فلا بدّ أن يكون فينا ـ ولو ذرة واحدة ـ من العقل ، فننظر لمصير الذين تركونا وخضعوا لكم وكان نصيبهم الشتائم والسباب في كياناتهم ودياناتهم وأشخاصهم . . وشاركوا في جرائمكم السابقة والحالية والمقبلة ، ولم يكن لاشتراكهم معكم أي أثر ، إلا مزيدا من

الجوع ومزيدا من الفساد ، ومزيدا من الانحطاط سيحاسبون عليه يوما ما ، ولن يضيع حق وراءه مطالب ، ولا شعب وراءه مناضل . هنيئا لهم بكم . . وهنيئا لكم بهم ! فإن الطيور على أشكالها تقع ! وإن الفضائح يجمعن المفضوحين . . وحمدا لله الذي اختبر الرجال ، وامتحن النضال وطهر الصفوف ، وعزل الجبناء والمنافقين ووصم وكوى جباههم حتى يراهم الناس اليوم ، وعندما يحشرون . . وحتى لا ترتفع رؤوسهم أو تعلو وجوههم ، وحتى يُكال عليهم الرماد ويغطوا بالسواد فيصبحوا عِبرة للتاريخ وللأجيال وللمبادئ ؛ وحتى تنتهي إلى الأبد المتاجرة بالدين وبالوراثة العرقية بالثورات . . وحتى تصمت أفواه طالما تطاولت : بالمبادئ والقيم . . وبالمُثل والأخلاق والدين . . وبالشجاعة والثورات ، فهي اليوم تأكل في قدح الدم . . دم الشهداء ، وتتاجر بالذين ذُبِحوا من أجل المبادئ ، وتبادل الاستثمارات : بالمصارف والتجارة ، وبالمشاريع وبقايا الدوائر ، وبالمحالج والمعاصر ، وبالوظائف والوزارات ، وبثروات السوق الأسود وتجارة التراخيص . . وليس بمثل هذه القذارات ، تباع المباديء وتسفك دماء الشهداء . . فليعلموا أن على رؤوسنا جميعا دماء آلاف الشهداء . . نحن مسئولون عنها أمام الله والشعب والتاريخ . . فإذا تخلَّوا هم عن مسئوليتهم أمام الله والناس ، فنحن لن نهرب من مسئوليتنا هذه حتى نأخذ بثأرهم وثأر بلادنا بإذن الله . . وهو ثأر وطني وقومي لا فكاك منه . .

ومادامت هناك مهلة ، فنرجو أن لا يكون هناك إهمال أو إمهال . . فنحن مستعدون وعائدون ، نرفع أكُفَّنا طوال اثنتي عشرة سنة ، لاتنقطع عن أسماعنا لحظة واحدة أمثال هذه التهديدات ، مصحوبة بالإغراءات والمُهْلات . . ونحن لا نبيع مبادئنا بالمغريات . . ولا تخوننا شجاعتنا تجاه التهديدات ، ولا نرضى أن نبيع ديننا بالدنيا . . وسيكون شعارنا ومسارنا (كما كان وكما سيظل) هو قوله تعالى (أُذِن للذين يقاتلون بأنهم ظُلِموا وأن الله على نصرهم لقدير ، الذين أُخرِجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربُّنا الله ، ولولا دفعُ الله الناس بعضهم ببعض ، لهُدِمت صوامعُ وبِيَعٌ وصلواتٌ ومساجد يُذكَر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصُرَنَّ الله من ينصره إن الله لقويٌّ عزيز) .

أيُّها العرب.. لا تدعَموا هذا السفّاح

يحاول النظام الآن في السودان بعث الروح في جسده المتداعي ، المترهل المنهار والفاقد لكل مقومات الاستمرار . فهو يعقد مؤتمرا لحزبه الوحيد (الذي يسميه الاتحاد الاشتراكي السوداني) . وهو ليس اتحادا وليس اشتراكيا ولا سودانيا . ربما فقط لأن بضعة سودانيين تملي عليهم مصلحتهم - أوخوفهم - الانتماء إليه ، ومن ثم بصموا وختموا قراراته ، وهي قرارات فرد واحد فقط ، ليس حزبا ولا تجمعا ولا رأيا ، هو جعفر النميري - هو ليس مايو - إنقلابا فقط . . كما نسميها نحن ، أو " ثورة " كما يسميها حفنة من الحالمين الذين لا يعلمون معنى وحقيقة الثورات : لا منشأ ولا تاريخا ولا مسيرة - هو " نميرية " مثل الشاهنشاهية أو السموزية ، أو الجنكيزخانية أو التيمورلنكية ، أو أي حكم فاشستي أوفردي ، أوأسري أوعشائري أوطائفي . . في التاريخ : القديم أوالحديث .

وهذه حقيقة لا ينكرها حتى الأعمى ، ولا الأصم ولا الأخرس ، ولا حتى الحيوان الذي لا رأي ولا إحساس ولاانتماء تاريخي أووطني له . . كل انتمائه أن يأكل ويشرب ويسمن ويعيش . ونحن نأسف لكل هذه التعبيرات والمواصفات العارية ، ولكننا في مرحلة لا نستطيع أن نسمي الأشياء فيها ، إلا بمسمياتها الحقيقية الواضحة ، فقد عاش شعبنا في ظلم وظلام واستبداد ، لايمكن أن نتجاوزه أوننساه أونهمله أونتغاضى عنه . وهذا واجب وطني لا يمكن لأي وطني سوداني ، أن يصل لمرتبة الخيانة ، وفقدان الإحساس وقصور الرؤية ، والجبن السياسي والاجتماعي - فيحيا مجرد الحياة - دون أن يؤكده ويحدده..

إن ما يسمَّى بالاتحاد الاشتراكي السوداني ، يعقد في ظروف ليس أقلها فقط . . أن استقلالنا مُهدَّد ، وأن قوميتنا متآكلة ، وأن مشاكلنا الوطنية والقومية والاقتصادية ، والخُلقية والمعيشية : والسلوكية والإدارية والأدائية ، في أدنى الحضيض . . وأن

وطننا مهدد ، بل مشرف على الفناء ، بكل ما يعنيه الوطن : من معان وحقائق وانتماء وذاتية ، وكيان وتراث ، وتاريخ وحضارة . ولهذا كله - ولأكثر وأخطر منه فإن الذي لايرقى لمشارف الوطنية والقومية ، فهو مجرد خائن لهذا الوطن ، ولكل ما يمثّله ويجسّده الوطن ، من التزام وأحاسيس ومشاعر ، وليس هناك أي وصف له غير ذلك

وعلينا الآن أن نضع الفواصل والحدود والمقاييس ، جلية واضحة وناصعة ، لا لبس فيها ولا دبلوماسية زائفة ومزركشة . ليعلم السودانيون وليعلم العرب وليعلم الأفارقة ، وليعلم كل أحرار العالم : أنه لايزال هناك سودان وأن هناك سودانيا ، وأن هناك وطنية ووطنيا ، وهناك قومية وهناك قوميا ، وأن هناك حرية وأن هناك متحررا وأن هناك ديموقراطية وأن هناك ديموقراطيا ، وليس بين كل هذه الرموز والمواصفات أمور متشابهات أو متناقضات ، فلقد مضى زمن المجاملة ، وتجاوزنا كل الصلات العشائرية والأسرية ، والطائفية والاجتماعية والحزبية ، ولم يعد أمامنا إلا كلمة الحق والعدل ، وهي كلمة النداء والتضحية والموت

وليعلم الجميع - الموت نفسه - ومن يُرِد أن يصادقنا على غير هذا ، فهذا ليس جزءا منا ، ولانحن جزء منه ، فهو مخادع لنا ومخادع لنفسه وللوطن ، وللأمة العربية وللإسلام وللتاريخ وللتراث ، وكل النماذج الوفاقية والمصلحية . وكل الطفيليات التي تطفو على السطح ، قبيحة في مصالحها وفي علاقتها ، وفي طموحاتها وذاتيتها ، وفي أسَريّتها وطائفيتها وحيوانيتها . . عليها أن تذهب بعيدا ، وإلى الجحيم ، وأن تلزم جحورها . وكل الذين يمثلون مصالح الطبقة الاقطاعية والاحتكارية والرأسمالية والتجارية ، وكل مثالب البرجوازية ، وكل ما تتحلّى به : من جبن وقصور وطني ، وإيثار لنفسها وحياتها الرخوة المخملية . . . عليهم أن يعلموا أن ساعة الجد قد حانت ، وأن حبالهم قد انقطعت ، وأن عليهم أن يختاروا : إما وطنهم وإما مصالحهم الذاتية والفردية - أيا كانت . ولم يعد بعد ذلك وقت ولا خيار . فالحلال بيِّن والحرام بيِّن

ونحن هلاليون خُضْر . . لانؤمن بالحلول الوسطى ؛ وقد أنفقنا وقتا وجهدا و

لكي ننيرلهم الطريق ، ونحدد لهم المسالك ؛ فلم يعوا ولم يرْعَوُوا ، وليس هناك بعد الآن وقت ، فعليهم أن يختاروا في أي صفوف يقفون . وعليهم أن يتحملوا مسئولية ذلك كاملة ، وشاملة . . ومن الآن . فليتأكدوا أن هذا أساس علاقات الحركة الوطنية معهم ، في داخل السودان وخارجه ، وعليهم أن يتحلُّوا بالأخلاق الوطنية والقومية ، وليعلموا أن هذا أساس التعامل معهم جميعا ؛ فقد مضى زمن النفاق والرياء ، وكان لابد أن يمضي . . فإن الحركة الوطنية الشعبية القومية السودانية مقبلة على تطورات خطيرة ومصيرية ، وهي ستتحمل مسؤولياتها في ذلك ، وأدنى مراحل مسؤوليتها هي : التضحية بالنفس ، وليس النفيس وحده ، في سبيل وطنها وأمتها ، وهي ستترك وراءها . . كل عميل ودخيل ، ومنافق ومصلحي ، ووسطي وجبان ، ستتركه وراءها . . وستكتفي بالأحرار الشرفاء المناضلين - حتى لو كانوا حفنة لايتعدون أصابع اليد الواحدة . . أوأقل .

لنترك كل ذلك . . . ولْنَرُدْ على تساؤلات وأسئلة ومراسلات ورُسل ووسطاء المرحلة ، ولنقل لهم في جدية وصدق وتجرُّد ، ولنقل لأصدقائهم بيننا - الذين يُظهرون غيرمايبطنون - أنه قد مضى زمن المجاملة والمسامحة ، والضياع والفراغ ، والحيْرة والوجَل . . وكان عليه أن ينصرم منذ زمن طويل :

١ - يدعو نميري للمصالحة الوطنية - والوحدة الوطنية - وللوفاق ، ونحن قوم لا نرفض الدعوة للوحدة والمصالحة ، حتى لوكنَّا في أتون معركة حربية محتدمة يتساقط قتلاها وجرحاها . فنحن الذين نحزن ونتألم ، لقتل أو جرح أو تشريد أو قهر أي سوداني ، ونحن مَن نجْنَحُ للسِّلْم إذا جنح له المتباهون بالقوة ، والذين يتذكرون قدرتهم الزائلة والزائفة ، والذين ينسون قدرة الله والشعب والتاريخ عليهم ! نحن نَقْبل الدعوة للوحدة والمصالحة ، من منطلق الشجاعة والقوة والإيمان . . بوطننا وأهدافنا ورسالتنا ، ومن أجل وطننا السوداني وديننا وأمتنا العربية ؛ فمرحبا بها . . ومِثْل ما فعل الإمام/ علي بن أبي طالب عندما رُفع أمامه كتاب الله ، وطُولِب بإيقاف المعركة - وهو منتصر - فاستجاب لها . ونحن

نستجيب . . لاعن ضعف ولا وهن ، ولاعن هزيمة داخلية في أنفسنا ، ولا خارجية في مواقفنا ، بل من منطلق الحفاظ على الوطن والأمة - وكلاهما في بأحرج مواقفه - وكذلك تمرُّ قصة التحرر في العالم كله .

٢ - إن على نميري . . . إن كان مخلصا في دعوته للوحدة والمصالحَة ، وليس متاجرا بها سياسيا ، ولا متكسبا بها دعائيا ، ولا مُلْتَحِفا بها . . لتجاوز مرحلة ومواجهة ضعف آني وزمني ؛ عليه أن يعلم حقائق حكمه وموقفه ومسيرته ؛ وإذا كان كلُّ مَنْ حولَه لا يتحلَّون بالشجاعة التي تدفعهم لقولة الحق والنصيحة ، أو إذا كانوا يخافون على أشخاصهم ومصالحهم ، أو يخافون من بطشه وجبروته ، فعليه - إذا كان صادقا مع نفسه ، ومع وطنه وشعبه وأمته - أن يعي حقيقة موقف وطنه وأمته والمخاطر الداخلية والخارجية التي يواجهها ، وحالة التدنِّي : السياسية والاقتصادية والخُلُقية والاجتماعية ، والإدارية والأدائية ، التي وصلت إليها البلاد ، وأن يدرك مستنقع الفساد والرشوة ، والمحسوبية واستغلال النفوذ ، وسيادة الطبقات (الطفيلية والميكروبية والجرثومية) التي تحيط به ؛ وأن يتقي الله في نفسه ووطنه وأمته وتاريخه ؛ وأن يكون شجاعاً - كما يدَّعِي ويتباهى - ويتحلّى بأخلاق الوحدة والمصالحة والانقاذ الوطني ؛ وأن يتخذها سلوكاً لا شعاراً . . وحقيقة لا زيفاً .

٣- تقمَّص شخصية أي سوداني في العشرين مليون فرد ، وإذا تمتَّع - ولو بقدر محدود وبسيط من البصيرة الوطنية والبصر القومي ، وحتى بُعد النظر الشخصي وحده ومجرد الغريزة الفطرية للحفاظ على النفس - فهو لابد أن يتنازل عن الحُكم ويمتطي أية واحدة من طائراته المُعَدَّة والجاهزة على بُعد خطوات منه ، وأن يعلن ذلك في شجاعة . . في محاولة لإنقاذ بلاده وشخصه ، ويترك الأمر للشعب السوداني يقرر فيه ويكيِّفُه . . بالطريقة التي يريدها .

٤ - أن يلغي اتحاده الاشتراكي ؛ مرتكزا - ليس فقط على ما يعلمه ونعلمه من حقيقته ونفوذه وشعبيته ومساره . . بل - على الخمسة والثلاثين بنداً ، التي سبق وضعُها قبل أقل من شهرين ، والتي تكفي كل واحدة منها لإلغائه وإنهائه ، والتي

لايصدّق أحد بعدها ، كيف يجمعه ويتكلم فيه ويستمر به ، كجهاز شعبي أو حتى فردي ! وكيف يواجه بوجوده شعبا أو وطنا أو حتى قرية واحدة ، أو فرداً واحداً في بلادنا .

٥ - أن يعلم أن دستوره الحالي ، هو مجرد بلاغة غير بليغة ، وهو مُختَرق كله ومتخَلّل جلُّه باتحاده الاشتراكي ، وببنود سُلطته الفردية ، وبالمخالفة الواضحة لكل حقوق ديموقراطية لجماهير الشعب ، ولكل مبادئ فصل السُلطات واستقلال القضاء ؛ وأنه كله أوامر استثنائية ضد الحريات العامة ، وأنه لا يشكّل أي مبادئ عادلة - دستورية أم قانونية - للتعامل بين شعب وحاكم . وأن عليه أن يلغيه بجرة قلم ، وأن يستبدل به الدستور المؤقت السابق . . . فعلى هُدى دستوره الحالي لايمكن أن تؤمّن حريات ولاتجري انتخابات ، ولا تثبُت عدالة ولا يُحترم قانون ولا يأمن مواطن على نفسه ومصالحه ، ولا تُحترَم كرامة إنسانية . . أو بشرية .

٦- اتفاقية لندن . . قد عفا عليها الزمن ، وإنها شابت وشاب من حولها الزمان ومرَّعليها وقت تغيَّر فيه كل شيء ، ولم تعُد صالحة لأي مصالحَة أو وحدة وطنية ولا يمكن أن يعقل أو يفقَه أحد أنها صالحة لكل زمان ومكان ، فهي ليست قرءآناً ولا إنجيلاً ! ولا توراة ولا زبوراً . وهي لم تعُد إلاّ كلمة حق مضت . . يُراد بها باطلٌ الآن . وأنه لايصح عقلا ولا منطقا ، أن نتغاضى عن مرور الزمن ، وإلاّ فعلينا أن نعيد أساطيرالمجلس الاستشاري والجمعية التشريعية ! وعليه أن يعلم أن حركة الجماهير وزخم الشعوب ، لايمكنه أن يقف ساكناً مكتوفاً ، متجاهلا مرورالأيام والشهور والسنوات ، وهو الذي يراعي مرورالدقائق والساعات ، (بل الثواني) ، وعليه أن يعُدَّ على أصابعه ، كم جرى من المتغيرات بعدها في بلادنا وفي وطننا العربي ومنطقتنا . . وفي العالم من حولنا؟ وهل هو - أونحن - من أهل الكهف ... تمرُّ من حولنا الدهور ؟

٧ - إنه لابد أن سمع - إن لم يكن قد علم - أن اتفاقية تسمّى (اتفاقية كامب ديفيد) قد وُقّعت بين النظام المصري والعدو الصهيوني ، وأنها تُشكّل خرقا واضحا لحق الأمة

العربية في الحياة والوجود والحضارة ، وتنسف قضيتها المركزية في فلسطين وتجسد وتقنن الكيان الصهيوني ، وتمسخ حقوق الأمة العربية والشعب الفلسطيني وتمسخ تراثنا وحضارتنا وذاتيتنا ، وتخالف قرارات مؤتمر الخرطوم ، الذي عُقد في بلاده ولاءاته التي يعلمها : لا مفاوضة ـ لا اعتراف ـ لا صلح . . أي لا مِساس بالقضية الفلسطينية . فهي مفاوضة وصلح واعتراف . . . وكلها مِساس وانتقاص وتفريط بالقضية المركزية في فلسطين .

إن أقل واجبات انتمائنا ، هو أن نرفضها ونذينها ونقاومها ، وأن نطبق قرارات مؤتمر الحد الأدنى في بغداد ، ومن بعدها مؤتمر تونس ، الذي اشترك فيه هو . ونعلم أنها حد أدنى لا يرقى إلى لاءات الخرطوم ، ولا لطموح الأمة العربية ، ولا لمتطلبات واجباتها ومواصفات أعبائها ، بل هي أضعف الإيمان ـ فأين هو من أضعف الإيمان ؟ وأين الشعب السوداني ؟ وأين الانتماء العربي والإسلامي ؟ وأين . . . . وأين ؟

لقد كثُرت الشائعات وتضاربت ، وتدافع الهمس ، وتناثر وامتلأ الأفق بالزيارات الخاطفة والمحمومة ، وأخرج الأولون والآخرون ملابس العيد من المخازن ، ونفضوا عن عباءاتهم وبزّاتهم المشاجب ـ وتردد الكثيرون على خبراء الطب والتجميل ـ وأرخى الآخرون ـ في إعياء ـ أسماعهم لأخبار المصالحَة وتوزيع الحقائب . وظهر الذين يخِفُّون عند الطمع ، ويثّاقلون عند الفزع ؛ وازدحمت الطائرات بسماسرة السلطة وتجار الشعوب ، وداس الجميع ـ في طريقهم ـ معُاناة شعبنا وأحزانه ومأساته ، الوطنية والقومية والإنسانية ، ونسوا ـ وما أجهل نسيانهم ـ مسيراتنا طوال إحدى عشرة سنة في ظلام الغابة وقساوة الصحراء ، وسط الخوف والجوع والعناء ، والغُربة والتشرد والتمزق ، وشحوب الجسد والروح ، وبُعد الأهل والبلد والأصدقاء والمجتمع وأغمضوا أبصارهم عن تشردنا ، في غربة النفس والفكر والانتماء ، والثقافة والتاريخ والحضارة . . وسجننا مع غير أبناء جنسنا وديننا ووطننا وأمتنا ؛ وتنكّروا في تعمُّد ـ أعمى وضال ومضلل ـ لشهداء شعبنا الذين تحلّق أرواحهم حولنا ، فتمنعنا مجرد الحياة ، وتجعلنا حلفاء السهر والجوع والضنى ، والنكد والشقاء .

أغراهم بنا حياؤنا وأخلاقنا وتقاليدنا ، فتصوَّروا هذا ضعفا ويأسا ، وهم الخاطئون الجهلاء . . غابت عنهم مستودعات القوة والشجاعة والشراسة ، والإيمان والعقيدة والمضاء ، التي تزخر بها قلوبنا ، وتمتلىء بها نفوسنا ، تصوَّروا وصدَّقوا إشاعات المنازل الفاخرة ، والسيارات الفارْهة ، والفنادق الغالية ، وفاحشات التجارة والمال . . واعتقدوا أننا سعداء باستمرار المعارضة وبقاء النميري . فما أعمق جاهلية جهالتهم ! وسفاهتهم وضحالتهم .

إن الله والشعب والتاريخ . . لايمكن أن يرضى بإشاعة الرِّجس والفاحشة ، في الصامدين الصابرين المتجرِّدين ، حلفاء السهر والجوع والمعارك ، الذين ساقهم قدرالحركة الوطنية حيث ساقهم ، فقابلوه بالمزيد من الرضى والصبر والصمود والقناعة والإيمان . . ولا يزالون . الذين لم يكن لهم : وطن ولا أهل ولا سِمَة ولا هوية ولا اسم - مع عِظم مايحملون من كل هذا - طوال مايزيد على عقد من الزمان " الذين أُخْرِجوا من ديارهم " فتجولوا شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، يحملون أفكارهم والتزامهم وانتماءهم (الوطني والقومي) حيث يحلُّون . ثم يحملونها معهم - ومعها أثقالهم - عندما يرحلون . الحفظاء والسَّدنة والحراس على قضية الشعب السوداني ، لايزاوِدون فيها ولايساومون . . ولا يبدِّلونها ولا يتبدَّلون . الذين يرَوْن في كل سوداني (داخل البلد أوخارجه) أباً لهم وأخاً لهم وابنا منهم ، فيشاركونه همومه ومشاكله ، في عهد التشرد والاذلال والقهر والخوف والجوع ، وانعدام الشرف والمروءة والشهامة . . الذي نعايشه ونعيشه !

لقد خيَّلت ثقافة المذلة والهزيمة الروحية ، والتراجع والانحطاط الفكري والخُلقي - التي بعثها هذا النظام - للجميع ، أن الحركة الوطنية السودانية هي هُلام لا ضابط له فهانت عليهم . . وظنوا بها وبأهلهاالظنون ! وسوَّلت لهم أنفسهم بها المضارب والمآرب - كم هم مخطئون! وما أشد ضحالتهم وجهالتهم بالحركة الوطنية ، ووعي الشعوب . . وبالتاريخ ، في عهد الفراغ وانعدام الوزن ، وانتفاء الالتزام الوطني والانتماء القومي ! و الجهل هذا . . اعتقد سدنة الاستعمار - تاريخاً والتزاماً - أنهم

القوة الوحيدة وتخيَّل المتاجرون بالإسلام ، أنهم الوحيدون في الساحة و خال الأميُّون أنهم خلاصة الوطنيين وصفوتهم . . وحتى بعض أصدقائنا القوميين - بالتنظير والتنظهم ، سامحهم الله - خالوا أنهم وحدهم المناضلون ، وآخر الأثافي عربد النميري ، وطال واستطال . . كأنه خليفة الله في أرضه ، ومندوب رسوله والخالد والباقي السَّرمدي أبدا .

إذا فليعلم الجميع - إن كانوا لا يعلمون - وليقرأوا التاريخ ويستحضروا الماضي ويستقرئوا المستقبل ، وليضعوا وراءهم وأمامهم وفوقهم . . هذه الحقائق :

* نحن حزب الحركة الوطنية . . ممثل الجماهير السودانية الكادحة العريضة ، من عمال وزُراع وطلاب ، ومهنيين وفنيين وجنود . . . وتجار ومثقفين .
* نحن الأمناء والحُرَّاس . . على مسيرة هذا الشعب ومساره ، والحفظة على مكتسباته الوطنية وانتماءاته القومية .
* نحن الاشتراكيون . . بالالتزام نحو قضايا الكادحين : من زُراع وعمال .
* نحن الإسلاميون . . بالولادة ، وبالفطرة والسجية ، والغريزة والعقيدة .
* نحن القوميون . . بالمنشأ والالتزام ، والانتماء والتاريخ .
* نحن الأحرار . . الديموقراطيون المتحررون : فكراً ونضالاً ومساراً .
* نحن المعارضون . . لهذا النظام منذ ولادته ، بالنظرة الوطنية والبصيرة القومية ؛ لم نحالفه ولم نصادقه ، ولم نهادنه ولم نشاركه دقيقة واحدة منذ نشأته ، وإلى يومنا هذا . . وإلى أن يرث الله الأرض وما عليها .
* نحن ضد . . النظم القهرية والديكتاتورية والعسكرية والفاشستية ، كمبدأ أساسي ومركزي ، لا من أجل مصلحة ومشاركة أوضغوط خارجية وموازنات . . استراتيجية مرحلية أو تكتيكية .

من منكم جميعا . . لم يشارك ويهادن ، وصالح هذا النظام ؟ اقرأوا كتبكم وتذكروا موقفكم ، وتوقفوا (ولو ساعة) للذكرى . . فإنها تنفع المؤمنين . ألسْنا نحن معارضته الشعبية الثابتة ، والصابرة والمثابرة والمستديمة ، منذ بدايته وإلى الآن ؟ وهذا

. . واقع ومسار وحقيقة لا ينكرها أحد !

* وبعد فليعلم الجميع : نحن الأغلبية الساحقة . . في جماهير الشعب السوداني .

* نحن الأغلبية الساحقة . . في قواته المسلحة والنظامية ، وبدوننا لايمكن أن يستمر حاكم . . أويعارض معارض .

* نحن الذين سنقضي على هذا النظام . . وسنزيله وبأية وسيلة ، وبأية تضحية وبأي ثمن . . طال الزمن أم قصر .

* نحن بنو الموت . . خفاقة علينا ألْوِيَتُه ، وسنبعث له موت الفجاءة ، إذ أنه طغى وتجبَّر . معنا الحق والشَّرع والوطنية والقومية والدِّين ؛ وكل محركات الثورة والخلاص في الشعوب . لقد أصرَّ واستكبر وأصم أُذنيه عن كل نصيحة ، وأوغل في كل كبيرة ، وحرق أرضنا وأهلنا وديارنا وشعبنا ، فلم يعُد لنا عذر ، وعلى رأسه يقع وِزْرُ كل ما سيحِلُّ على وطننا : من خراب ودمار وفناء ، وهو البادئ والمستمر والظالم والأظلم .

لم يعد أمام شعبنا . . إلاَّ أن يعارك في سبيل حريته وكرامته ، وآدميته وإنسانيته وبشريته وقوميته ، إما أن ينالها أويفنى دونها ؛ ولا خيار آخر . وليتذكر كل أبناء شعبنا أنهم أحفاد الأُلي ، خاضوا معارك الحرية والاستقلال ، والوحدة والعروبة والإسلام . تحمَّلوها نصرا وهزيمة ، حلاوة ومرارة ، مَدّاً وجزراً ، انكساراً وانتصاراً . ليتذكروا أنهم ورثة الثورات الكُبرَى ، التي يزخر بها تاريخنا ، وتاريخ الأمة العربية والإسلامية .

• ليعلم كل نظام عربي أو أفريقي أو عالمي ـ وفي كل أنحاء المعمورة ـ أنَّ كلَّ من يقدِّم لنميري فلْسا من مال ، أو جرعة من وقود ، أو مداً من خبز ، أو قطعة من سلاح ! إنه إنما يمزِّق أحشاء الشعب السوداني ويقطِّع أوصاله ، ويزيد عذابه وتعذيبه وآلآمه وويلاته ، ويساعد على موته وفنائه . ويساعد على قهره وقبره ، ويقف مع قاهري الشعوب ومَصَّاصي دمائها ، ويتخذ مكانه مع الفساد والظلم ، ويطعن بسكينه ويضرب بباروده . . شعبنا ؛ وهو مُلْقى على الأرض مُوَشَّحا بأشلائه ، مُضرَّجا

بدمائه ، يستصرخ الإنسانية والعدل وإصرار الشعوب . وليعلموا جميعا أن شعبنا لن ينسى ذلك ، وسيردُّ عليه يوما ما . . وبوسيلة ما .

ليعلم العرب . . أن نميري قد استهزأ بهم ، واستهانهم واستضعفهم ، ومشى على تاريخهم مستهزئا ، وضرب عرض الحائط بمواثيقهم وأحلافهم وتطلعات أمتهم وأخرج لهم لسانه ، ولسان الصهيونية والامبريالية العالمية والاستعمار ، وأحطّ بقدرهم وقضيتهم بين الأمم والشعوب والدول ، واستغل حالة ضعفهم وتمزُّقهم وشرَذَمتهم ، وكشف حالة انكسارهم وانحلالهم بين أمم الأرض .

وأنتم . . . إن لم تقطعوا كل علائقكم الاقتصادية والسياسية والأمنية معه ، فلن يصدِّق أحد بعد الآن . . دعواتكم الدعائية ، بالقضية المركزية والأساسية والقومية والعربية والإسلامية ، سيعلم طوب الأرض ، أنكم غير القادرين والضعفاء العاجزون . . حتى عن مثل هذه التصرفات السلبية . إن لم يتذكروا قضية الشعب السوداني ، فكيف ينسون قضية فلسطين وقضايا حضارتهم وكيانهم وأمتهم ؟ وإذا خافوا وضعفوا وتراجعوا ، فمن الذي سيحترمهم ؟ إذا كانوا يعتقدون أن لهم عذراً مع السادات وكارتر وبيغن ، فمن الذي سيعتقد أن لهم عذراً مع النميري ؟ هل النميري ... القُدس . ! أم الجولان . . أم سيناء . . أم غزة ؟

لقد تذكر نميري صلة رِحمه . . بالهكسوس والرومان والبطالسة ، والشراكسة والمماليك والفراعنة ، ونسي صلة أرحامه بيعرب وقحطان ، وتذكر صلة رحمه بالسادات . . ونسي أوشاج الشعب السوداني بعلي بن أبي طالب ، وخالد بن الوليد، وصلاح الدين ، ومحمد بن عبدالله ، (صلى الله عليه وسلم) . . فأين هي أرحامهم ؟ وأين صِلاتها ؟

وآعارنا ! ويالعارهم ، أين تيجان الممالك وصولجانات الرئاسات ، وألقاب القيادات ؟ أين الإذاعات والشعارات . . بل أين الثورات ؟ إن لم تستطيعوا أن تقفوا في وجه النميري وتؤدبوه ، وفي شخصه . . كل آبق على الصف العربي ، مارق على الإجماع القومي ، فكيف تقفون في وجه مناحيم بيغن ؟

ويا لضيعة العرب والإسلام ! لقد كثُرت أموالكم حتى أصبحت نهبا لكل سفيه -وهي عند النميري . . نهبا لكل خائن -فيالضياعنا ، ويالضياعكم ! ويالضياع مقدرات الأمة العربية ، يالضيعة قضاياها المركزية والأساسية والرئيسية ! ادفعوا بأموالكم ثمن الخيانة ، وضاعفوا في مكافأة الخونة ، وانتظروا سيل الخائنين . . وسجلات المتخاذلين والمهزومين . وهكذا تحمدون الله على أفضاله ، وتجازونه على نعمائه ، وتكافئونه على ثمراته ، ويابئس المسير والمصير . . والمنتهى .

أما نحن . . . . فإن الذي يظن أننا جزء من متاعه ، أو حفنة من أتباعه ، فلقد أخطأ قراءتنا ، وعليه أن يعيدها بوعي وبفهم وإدراك . إن حزبنا هو الوطن مُصغَّرا وإن وطننا هو الحزب مُكبَّراً ، وإن كل متخاذل في صفوفنا ، مُتَرام على السُّلطة متهاو بين أقدامها ، سيكون مصيره مصير النظام نفسه ، ولا أقل ! ولقد أعذر من أنذر .

وعليكم أن تعلموا أن اللعب معنا . . وبقضيتنا ، هو اللعب بالنار ، وهي حارقة وماحقة وشاوية . إننا لا ننتظر إلاّ لقاء ربنا . . في أي وقت شاء ، وكم نحن متحرقون لهذا اللقاء متشوقون له ، وما أشد عَجَلتنا إليه ولهفتنا له ! وكم هو قريب منا لصيق بنا ! طوال هذه السنوات العجاف ! وما أشد قربنا منه الآن ! لقد منحنا الله هذه الحياة الطويلة العريضة الواسعة ، المليئة بالخطر والإثارة والإيثار ، فلم نغتر بها إن كان قد اغتر بها غيرنا ، وستظل عيوننا مفتوحة مثبّتة وثابتة ، وشاخصة للقضية . . وللأمام ؛ وستظل كذلك ... حتى لو أدخلتم في مآقيها ، كل رماحكم .

لقد عودّناكم شرح قضيتنا . . ببساطة وإيجازوقناعة ، لا نستجدي ولا نُلح . . كبرياء العرب وأخلاق المسلمين . وتعودتم على أبنائنا من حملة الشهادات ، يكنسون شوارعكم وينظفون مطاراتكم ! ولكنكم -وللأسف -لم تكشفوا عن سرائرنا ، ولم تعثروا على كبريائنا ، وهي صفات فارقت بعضكم . . منذ صدر الإسلام . . وفجر العروبة -ويااللهول ! إذا انفجرت الآن عن مستودعاتها ! وفتحت مخازنها المتفجرة المليئة بالدم والنار !

اسمعوا كلكم . . وليستمع معكم كل من ألقى السمع وهو شهيد ، واضبطوا

عقارب ساعاتكم ، واكتموا أنفاسكم . . وانتظروا شعب البطولات وجيل التضحيات ، يفجر الثورة الشعبية (المسلحة) ، تحرق كل ما حولها وما وراءها ومن أمامها ، لتبقى فقط الأرض المحروقة الواعدة الوادعة ، فتنبت بعد ذلك الطفل والزرع والضرع . . ولكي تتعلم شعوب المنطقة من شعبنا الفقير المنهوك ، دروس التاريخ وعِبر المعارك ، ومصارع الأباطرة .

وليتحسس كل من يقف مع الظالم رأسه ، وليعلم أنها قد أينعت وحان قطافها . . ولنصرخ في وجه كل من يقف على السياج : " يا بُنيَّ اركب معنا ولا تكن مع القوم الظالمين " . . ولكل منافق متخاذل : " يا أيها النمل ! . ادخلوا مساكنكم " .

وأخيرا وليس آخرا ، فليقرأ هذا الحديث . . كل من يعتقد أننا نرفض المصالحة والوحدة الوطنية . وليقرأه كل من يعتقد ، أننا نتهالك على الحكومة القومية المزعومة المنبوذة . وليرمنا الأول منهم بحجر ، وليرمنا الآخرون بكل الحجارة التي في أكمامهم وليكن التاريخ والمستقبل والوطن . . حَكماً عدلاً بيننا وبينهم .

(مجلة الدستور) ١٩٨٠م

لن نستكين .. قبل أن يسقط النظام


الشريف حسين الهندي

لم نفاجأ . . كما فوجئ غيرنا ، بإعلان نميري عن فتح حدود بلادنا أمام القواعد العسكرية الأمريكية . فنحن نعرف هذا النظام جيدا وقاتلنا ضده منذ أن رأى النور . . قتال الأحرار المناضلين المؤمنين بقدسية ترابهم الوطني وقضيتهم القومية الكبرى ، قضية تحرير فلسطين والوحدة العربية ومطاردة الاستعمار في كل بقعة من ديار العرب ، عندما نعلن على رؤوس الأشهاد : أن نظام النميري هو نظام عميل . . متعفن وفاسد تنخره الخيانة القومية والوطنية . . وتسري في شرايينه . . وحول الانحطاط الخُلقي والسياسي والاجتماعي كان البعض ينظر إلينا غير مصدّق .

فلطالما أنكر نميري أية علاقة له بالاستعمار ، وتظاهر بقطع العلاقات مع السادات ولطالما صدَّقه بعض العرب ، وحاولوا كسب ولائه . . ورشوته بالمال والهدايا والمشاريع الاقتصادية . . . وكان نميري يزداد فُحشاً وارتماء في أحضان الاستعمار وتتبخر الأموال والمساعدات العربية في مستنقعات حاشيته . . في حين أن الشعب السوداني يزداد بؤسا وجوعا وتشردا ؛ تمتد صفوفه بالأميال ، لشراء رغيف من

الخبـز ، أو حـفنة من السكر . . ونحن أرض النيل الخـصيب ؛ والزراعـة والخـضـرة والخير !

ولاعجب ، إذ ليس في السودان حكومة . . ولا إدارة ولا أداء ولا خدمات مدنية بل ليس في السودان اقتصاد اطلاقاً ! فسلطة النميري سلطة طاغية ، وغارقة في مشكلات لا تهم المواطنين ، ولا يوجد سوى حل وحيد أوحد . . هو إزالة هذه السلطة إزالة جذرية ، ويأتي الشعب بسلطة تهتم بقضاياه الحيوية ، أما الآن فقد كشف نميري عن وجهه الحقيقي . . فظهر بكل بشاعته وصفاقته ، ذيلا تابعا للمعسكر الأمريكي ، يسجد ذليلا صاغراً حتى أمام العملاء الساقطين الآخرين . . أمثال أنور السادات ! وبعد أن ملأ العالم ضجيجا بوقوفه ضد كامب ديفيد، ها هو اليوم يقول لكل العرب : إنه ربيب السادات وتابعه ومملوكه ؛ وأنه يفعل ما لم يجرؤ على فعله أشد العملاء ارتباطا وعمالة . . فيلعق حذاء الرئيس ريغان ، ويلتمس منه إرسال أساطيله وطيرانه وجنوده ، ليغطوا أرض السودان : من جنوبه إلى شماله ، ومن شرقه إلى غربه ، وهو التماس لم نسمع مثله في التاريخ ، ولم يقم به سوموزا ولا بوكاسا ، ولا حتى مناحيم بيغن .

وواقع الأمر إن بناء القواعد الأمريكية ، يتم على قدم وساق في ميناء سواكن وتبنى تسع مطارات داخلية جديدة ، في دولة لا تملك للطيران الداخلي سوى طائرتين - وكنا قد أشرنا في أحاديث صحفية . . وبيانات موجهة للأمة العربية في سبتمبر الماضي ، أن الاتفاق قد تم فعلاً : لإقامة قاعدة عسكرية أمريكية في سواكن بين الرئيس كارتر ونميري ، وقلنا بالحرف الواحد : "وبعد أن اتفق على موضوع القواعد بين نميري وكاتر ، أجيزت اتفاقية التسليح بين الحكومتين . . الأمريكية والسودانية . صحيح أن نميري - أو أجهزة إعلامه - لم تعلن عن هذا الأمر ، إلا أننا سنرى وسيرى العالم معنا ، أن هناك قاعدة أمريكية ستقام في سواكن على ساحل البحر الأحمر " .

وليعذرنا أخواننا العرب على صفاقة حاكم السودان ، في إحراجه وإعلانه رسمياً

عن ترحيبه بالقواعد الأمريكية - لم نكن نحسب أن جهل النميري قد بلغ هذا الحد فأضحى يتصرف بأرض السودان ، وكأنها مزرعة سائبة يورثها لمن يشاء من طغاة العالم وقاهري شعوبه ومصاصي دمائها - ولكن الشعب يعلم ما يسرون وما يعلنون وسواء اعترف نميري جهاراً أم تملص ونفى وأنكر ، فقد ذابت الثلوج وبانت الأوساخ - وها هي صحف السادات وأبواقه تطبل وتزمر ليل نهار مسبحة بحمد ابنها البار محذرة من التعرض لنميري ، وتدبج المقالات الطوال مدحا وتقريظا بمواقفه الثابتة وروابطه الأبدية بزبانية السادات ، وحاشيته وأصنامه وأتباعه .

ليس في السودان مؤامرة شيوعية ، ولا انقلابات سرية . . بل أوهام وخرافات تحيكها مخيلة نميري - لابتزاز الدول العربية الغنية ، ولإعطاء المبرر السياسي لاحتضان القوات الأمريكية على أرض السودان . . يواجه النميري نقمة شعبية عارمة وانتفاضات جماهيرية متوالية متصاعدة ، وهو يلهث ويتساقط ويترنح . . تحت ضربات الشعب المسلح بالإيمان والحق ، هذا الشعب الذي فقد قوته اليومي ، وعمله وزراعته وصناعته وخدماته ، وأبسط مقومات وجوده . . فلم يعد أمامه إلا الهجوم على أوكار احتكار الغذاء و القوت ، وانتزاع رغيف الخبز بالقوة . وكلما عيَّن نميري حاكما جديداً - لامتصاص النقمة في المناطق والأقاليم ، وتقديم أكباش الفداء - ثار الشعب ورفض التعيينات والمراسيم والفرمانات ؛ فيضطر نميري للتراجع ، ويقيل الحاكم قبل أن يصل إلى مكان وظيفته ، ويعيِّن آخر بأسلوبه المخجل المضحك .

ليس في السودان مؤامرة شيوعية ، مجرد حفنة من الضباط يجتمعون سرا للإطاحة بالسلطة . إن المؤامرة الفعلية هي التي يمارسها نميري - سراً وعلنا - على الشعب السوداني ، والقضية العربية القومية ، منذ مايو ٦٩ حتى هذه الساعة . . وإن جيشه بأكمله يغلي ويفور ، وتتشكل فيه الخلايا ، ويلتقي الأحرار من أبناء الشعب السوداني ، لإعداد العدة وإعلان التمرد والعصيان.

إن القوات المسلحة السودانية تنظر إلى أنباء الاعتقالات الأخيرة ، نظرة احتقار واستهجان واستهزاء . . وهي تدرك بأكملها ، أنها تتحين الفرصة تلو الأخرى

للانتهاء من الطاغية . وتعرف معرفة اليقين ، أن الجنود السودانيين يرفضون إطلاق النار على المتظاهرين أو تفريقهم . . لا ! بل ينضم أبناؤنا الجنود إلى حشود الجماهير ويشاركونهم في اقتحام أوكار الاحتكار ، وإغلاق المدن والضواحي والقرى ، في وجه وزراء النظام ومسؤوليه .

لقد استغرق المؤتمر الصحفي الأخير لنميري ، أمام المراسلين الأجانب والمحليين ساعة كاملة . . لكي يشرح لهم كيف أحبط الانقلاب المزعوم ، ونجح في اعتقال ١١ شخصاَ ، بينهم ضابط متقاعد . وذرف دموع التماسيح على الأمن والنظام والحرية ونحن إذا أردنا أن نعدد له الانتفاضات اليومية ، والمظاهرات الهادئة المستمرة والإضرابات الطلابية والعمالية ، واعتصامات الموظفين المعدمين والمشردين ، لحبّرنا آلاف الصفحات ، ولقضينا الأيام والأسابيع !

إن السودان من أقصاه إلى أقصاه ـ طلابا وأطفالا . . عمالا وتجارا ومزارعين رجالا ونساء ـ يجتمع ويناقش . . ويعدُّ النفس لساعة حاسمة ، ينقضُّ فيها على أشلاء النظام ، ويمزقها إرباً إرباً ، ليبني بعدئذ نظامه الحر الديموقراطي . . المؤمن ـ إيمان القلب واللسان واليد والشغاف ـ بقضاياه اليومية المصيرية

يبرر النميري الآن إعادة علاقاته الكاملة والشاملة مع السادات ، تارة تحت نطاق دعم التضامن العربي ، وبذل الجهود لإعادة مصر إلى الحظيرة العربية ، وطورا بحجة التهديدات الليبية لأمن السودان . نحن . . أيها الأشقاء العرب ، نطالبكم ـ نظاما . . ومن المحيط إلى الخليج ـ سد الأبواب في وجه النميري ، ورده على أعقابه ورفض استقباله .

آن لمسرحية العار . . أن تُسدل ستائره ، وتُختم فصولها ، وآن للعرب أن يطردوا هذا المنافق من صفوفهم ، ويُلحقوه بكل الساقطين المارقين ، الذين باعوا ضمائرهم وشعوبهم وبلادهم ، للغزاة والاستعمار والصهاينة . إن الشعب السوداني لن يغفر ـ أيها الأشقاء ـ لأي جهة رسمية أو شبه رسمية ، تمد يدها لتصافح النميري . . وتساهم في إطالة حكمه العميل ! والشعب السوداني كما خبِرتموه ، يعرف جيدا كيف يعطي

لكلٍّ حقه ، ويعلن في كلٍّ رأيه . والشعب السوداني ـ صاحب اللاءات الثلاثة ـ الذي حمل قضية العروبة في صدره ، ووضع روحه على كفه ، دفاعا عن كرامتها وذودا عن حياضها ، سيظل دائما شعب الثورات واللاءات ، والعروبة الصادقة المنيرة المستنيرة . . وغدا عندما تزحف جحافله هادرة بالملايين ، في الخرطوم وأم درمان وعطبرة والأبيض ، ونيالا وجوبا ، وودمدني والفاشر ، سيعضُّ أنصار النميري على أصابعهم ندامة ـ ولات ساعة مندم ـ "وما للظالمين من أنصار" ! "يوم تجد كل نفس ما عملت من خير مُحضَراً ، وما عمِلت من سوء . . تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيداً" .

اسمعوا أيها العرب . . ما تقوله أجهزة السادات ونميري ، لتبرير تمتين التحالف والتعاضد بين الطاغيتين ، لتدركوا الإسفاف الخُلقي والكذب والتخبط . . تقول هذه الأجهزة : " لقد كان من الممكن أن يصبح السودان مستودعاً لطعام الأمة العربية كلها بل ولجزء كبير من الدول النامية والاسواق العالمية ، لكن الأغنياء العرب استثمروا أموالهم في كل شيء ، ما عدا المشروعات التي تخدم الاستراتيجية العربية " ! ولو نظروا إلى المستقبل لعلموا أن مثل هذه الاستثمارات هي ـ في حد ذاتها ـ العائد المتضاعف الذي لا ينضب ، ولكن لا مفاجأة في ذلك ! فمثلما تنكروا للاستثمارات التي يحتاجها السودان لتنمية قارته ، فقد تراجعت المملكة العربية السعودية عن تمويل صفقة . . التي كان يطلبها السودان " «الأهرام القاهرية . بتاريخ ٢٠/ ٣/ ١٩٨١م » .

هكذا يعلنون ويصرِّحون . . دون خجل أو حياء ، بينما تعلن الهيئات الدولية (الاقتصادية والمصرفية) : " أن السودان أضحى مقبرة للمساعدات الأجنبية والدعم العربي ، تدخله الملايين فتختفي في جيوب الطاغية والحاشية . . وتُصرف الأموال من مصادر غربية وعربية ، لتمويل مشاريع زراعية وتحويلية وصناعية ، فيتحول هذا الصرف . . إلى رشاوي وتبادل خدمات واقتسام عمولات ؛ فتزداد الأرض بواراً . . وتصبح مواد المشروع وسيلة للتكسب والربح ، فلا المصانع ترى النور ، ولا المواطن يتمكن من شراء أبسط السلع للبقاء على قيد الحياة .

لقد أتخمتهم الرشاوى والعمولات ، وسرقات المساعدات العربية والأجنبية فأصبحت كحقن المورفين . . لا يطيقون الحياة بدونها ؛ فكلما أعطيتهم حقنة طالبوا بالمزيد . ونحن نعرف معرفة شخصية ، أن معظم الأنظمة العربية ، أصبحت مُلِمَّة بكل جوانب هذا الوضع ، وبقي عليها أن تعلن ذلك . . وتفضح فساد نميري وتتحمل مسؤولية قراراتها بمقاطعة هذا النظام ، مقاطعة تامة . . وإيقاف حقن المورفين التي تمده بها ، إذ أنه بات ثملا . . يترنح تارة ذات اليمين ، وطورا ذات اليسار ، وهو يدوس على أجساد أبنائنا المقهورين . . الذين سئموا العيش مع العذاب والحرمان والجوع .

باسم السودان جميعا . . أخاطب المسؤولين العرب ، لوضع حد نهائي للمأساة على أرضنا ، ومواجهة الحقائق . . بصرامة وصراحة ومسؤولية ، فنحن لن نسكت ولن نهدأ ولن نستكين ، حتى نُسقِط هذا النظام ونقيم نظامنا مكانه ، نظام الشعب السوداني . . والضمير العربي الحر .

إننا عندما نتوجه إلى المسؤولين العرب ، لممارسة الحد المعقول من المسؤولية والموضوعية ، في قضية الوضع الداخلي السوداني . . فنحن لا نخاطبهم كمعارضة قطرية ضيقة الأفق ، لاهمَّ لها إلا ما يجري على أرضها . إن نداءنا هذا ... نابع من التحامنا العربي القومي بقضية فلسطين والوحدة العربية ، وإيماننا الشامل بترابط وتشابك وجودنا العربي ، وماضينا . . وحاضرنا . . ومستقبلنا . إن السودان ليس مجرد بوابة للعرب إلى أفريقيا ، وليس مجموعة مزارع وسهول ، لإنتاج الغذاء وسد النقص في الزراعة العربية . كما أن السودان ليس هو تلك البقعة الاستراتيجية المطلة على البحر الأحمر ، والمحاذية لأهم الدول الأفريقية ، التي تشهد أرضها صراعاً مستميتاً طاحناً بين الدول الكبرى . . ليس هذا فحسب ، إنه قبل هذا وذاك . . الشعب الذي يحاول الاستعمار الأمريكي وأتباعه المحليون ، فصله وعزله عن أمته العربية ، وطمس هويته وتاريخه وتراثه ، وتحويله لِكَمّ مهمل . . لا رأي ولا طاقة ولا كلمة له .

وبعد أن كان السودان نقطة الالتقاء والتوازن في القضايا العربية ، أضحى الآن طرفا للتنابز والتناحر وبعثرة الصفوف . عندما كانت تندلع الخلافات العربية الجانبية وتثار المعارك الهامشية، كان السودان ـ قبل وقوعه تحت سلطة نميري ـ يسارع بإطفاء النيران ، ويعمل على رأب الصدع ، وإعادة اللحمة ووحدة الصف والهدف . هكذا كان دورنا في حرب اليمن الأهلية ، حيث ساهمنا ـ كما لم يساهم غيرنا ـ في تمهيد الأجواء لإنهائها ، وجمع أطرافها المتصارعة إلى مائدة واحدة ، إلى جانب أدوار عديدة لعبناها منذ استقلال السودان إلى أواخر الستينات ، علاوة على أننا كنا . . من المؤسسين الأوائل لحركة عدم الانحياز ، وتيار دعم استقلال العالم الثالث ، ومساندة حركاته التحررية الوطنية . . بقيادة رئيسنا الراحل الشهيد/ إسماعيل الأزهري

أما سودان نميري . . فلايكاد يضع أصبعه على أزمة عربية ـ أو خلاف عربي أو افريقي ـ إلا ويسارع لتسعير النيران وتأجيج النزاع ، ويقف ضد أمته العربية ، وحركة عدم الانحياز ، وكل القوى الوطنية والتحررية في القارة الإفريقية ؛ فمن إرتريا ، إلى تشاد إلى يوغندا ، إلى صداقته المشؤومة مع بوكاسا (على سبيل المثال لا الحصر) . . ويوم خيَّمت الهزيمة القومية القاتمة القاتلة ، على الوطن العربي . . بعد حرب يونيو والعدوان الصهيوني ، ودخل اليأس والقنوط في قلب المواطنين العرب ، سادت روح من الاستسلام والفردية ، وخُيِّل لنا أن حدودنا بأكملها . . قد سقطت وانهارت . . وربما اجتاحتها أكثر من قوة خارجية واستعمارية . ظل السودان محافظا على شموخه وإبائه وعزته وكرامته : الوطنية والقومية . وعبر هذا الشموخ ، اجتمع قادة العرب في مؤتمر الخرطوم ، ليشكّل حولهم السودانيون . . السياج القوي المنيع ، وحرارة الإيمان بحتمية النصر ، واستعادة الحق والعدل والأرض ، وحرية الإنسان العربي .

ومن الخرطوم ، فُجِّرت القرارات المشهورة ، التي شكَّلت بداية الصمود ، وإرساء المدماك الأول في بناء قلاع الهجوم المضاد الشامل . . على امتداد الوطن العربي . فشهدنا تصاعد وتعمق الكفاح المسلح الفلسطيني ، وصمود الجيش المصري على جبهة القنال، وبداية حرب الاستنزاف ، ليتوَّج كل ذلك بحرب رمضان المجيدة .

ومع وقوع الانقلاب العسكري في السودان ، لجأنا إلى الدفاع عن أنفسنا . .

نعارض هذا الانقلاب من الداخل والخارج ، بالكلمة والرصاصة والمظاهرة والبيان نريد إعادة الخرطوم - عاصمة العرب ومعقل الصمود - في وقت نُكِّست فيه أعلام العروبة ، وتساقط حاكم مصر في هاوية الخيانة ، متآمرا على قرارات مؤتمر الخرطوم وحرب الاستنزاف ونتائج حرب ٦ أكتوبر نفسها .

وقد ساهم نميري مع السادات في كل هذه المؤآمرات وفي ارتكاب الخيانة الكبرى وأيَّده في مفاوضاته الثنائية واتفاقاته الجزئية مع (تل أبيب) وواشنطن وعقد معه معاهدات الدفاع والأمن ، وأتى بوحدات



محمد عبد الجواد .. أحمد زين العابدين .. الشريف

من جيش السادات لتحمي نظامه المنهار ، وعندما طار السادات إلى القدس المحتلة - في رحلته المشؤومة - وأكد خيانته النهائية . . وخضوعه واعترافه بالاحتلال الصهيوني ، واجتاحت الأمة العربية موجة من الغضب والاستنكار لهذه الجريمة كان نميري يعد نفسه للالتحاق بالسادات في القدس المحتلة ، يحلم بالوقوف وإياه على منصة واحدة ، يصافحان الإرهابي : مناحم بيغن .

وما أن بدأ تبادل السفراء بين السادات ومناحم بيغن ، حتى هرول ممثلو نميري إلى

القاهرة للاجتماع إلى بن العزار ، والترحيب به والنزول معه في فندق واحد . . وفي وقت أغلق الشعب المصري أبوابه ومؤسساته ، رافضا الوجود الإسرائيلي على أرضه وخرج السودانيون للشوارع يطالبون برفض الاعتراف أو التفاوض . . حتى التحرير الكامل وإجلاء العدوان وزهق الباطل .

والتقى القادة العرب في بغداد . . لإعلان قطع العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية والسياسية والثقافية ، مع نظام السادات . وكان قراراً عربياً جماعياً ، وحده نميري وقف ضد قرار المقاطعة ،وأيَّده في تلك اللعبة الاستعمارية . . السلطان قابوس .
ومع توالي الأحداث ، ووضوح مدى التنازلات التي قدَّمها السادات للعدو الصهيوني ، وظهور اتفاقيات كامب ديفيد على حقيقتها ، ورفض مناحم بيغن الاعتراف بالحد الأدنى لحقوق الشعب الفلسطيني ، فإن نميري ظل يزداد تبعية للسادات ، ويتبادل الزيارات مع المسؤولين المصريين الرسميين ، ثم ذهب إلى واشنطن . . ليصرِّح بتأييده الكامل واللا مشروط . . لاتفاقيات كامب ديفيد ؛ ذلك كثمن مسبق لكي تقبل الإدارة الأمريكية ، بمنحه شرف دخول البيت الأبيض .

وبعد وصول الرئيس الأمريكي الجديد (رونالد ريغان) إلى الحكم ، وكشف نواياه عن تصعيد العداء ضد حقوق العرب ، وتهديده باحتلال منابع النفط ، وسعيه الحثيث لتكثيف الوجود الأمريكي العسكري : في موانيء المنطقة وجوِّها وبرِّها ، بعد أن وقفت الدول العربية الأساسية ، ترفض الوجود الأمريكي على أرضها ، وأعلنت حكومات الخليج أن حماية النفط والحفاظ على الأمن ، والدفاع عن الاستقلال مسائل تعنيها هي ، ولا تسمح لأي قوة خارجية بتحديد سياستها ، أوالتدخل في شؤونها .

ظل السادات ونميري يكرران المعزوفة إياها . . ويرحبان بالحماية العسكرية الأمريكية المباشرة . لابد أن نميري بزَّ زميله في الخيانة والعمالة ، فلم يضع شروطا ولا قيودا ، ولم ينبس بأي تحفُّظ ، حول كيفية هذه الحماية وشكلها أو حجمها ، وترك للإدارة الأمريكية أن تقرر ما يحلو لها ، وتتصرف بالسودان تصرفها بأي ولاية أمريكية ، و ذهب نميري - إلى أبعد من هذا . . عارضاً على الإدارة الأمريكية ، جعل

السودان حقل اختبار لإسلحتها ومناوراتها ، وسفنها وطائراتها وصواريخها . .

هذه هي الحقيقة الدامية ، التي تصفع كل عربي حر ، وتطعن الكرامة السودانية في الصميم ، وترمي باستقلال الإرادة السودانية في سلة المهملات . . هذه الإرادة التي بنتها أجيال تتلوها أجيال ، منذ فجر التاريخ . . وسقتها بالدماء والعرَق والدموع ورعتها وحافظت عليها كأعزِّ ما يملكه الإنسان في الوجود .

إن ما يفعله نميري في السودان ، ليس مسألة تآمر عابر ونتيجة نزوة مؤقتة . إن السودان الآن يتحول ـ وبسرعة جنونية ـ إلى حاملة للطائرات الأمريكية والاستعمارية وتريد واشنطن أن تجعل منه نقطة ارتكاز ، لتدمير وتحطيم كل نزعة استقلالية أو وطنية في الأمة العربية . . أو القارة الأفريقية . وواشنطن تضع الأسس الثابتة لتنفيذ استراتيجيتها البعيدة المدى ، واستعادة مواقعها التي خسرتها في هذه المناطق ؛ وذلك تحت ستار مقاومة الغزو الشيوعي والنفوذ السوفيتي . . ونحن إذا لم نسارع كعرب وأحرار . . لإيقاف هذا الزحف الأمريكي الجديد ، سنجد أنفسنا ـ وفي وقت ليس ببعيد ـ مسرحا جديدا للحروب والدمار بين العملاقين ؛ ستتحول منطقتنا بأكملها إلى فيتنام جديدة ، وكمبوديا جديدة ، وسلفادور ثانية .

إن أزمنة الشدائد والمِحن ، هي المحك الفعلي لإرادة الشعوب ، وقدرتها على صنع التاريخ ، فإما أن ترتفع إلى مستوى الشدائد ، وتفرض حقها ووجودها ، وإما أن تتلاشى وتتبعثر وتزول .

إن مأساة فلسطين ستبدو ـ في المنظار التاريخي البعيد ـ مأساة عادية . ومقارنة بما يُخطَّط ويُحاك في هذه اللحظات ، وإذا لم ندرك هذه المخططات والأحداث بأبعادها ومراقبتها ، لن تُكتب لنا إلا حياة الذُل والعبودية والخضوع ، وستغطِّي خيامنا الأرض العربية من المحيط إلى الخليج .

أيها العرب تعالوا إلى كلمة حق نقولها مدوية عالية ، وضُمُّوا أياديكم إلى أيادي الشعب السوداني ، واطردوا نظام النميري العميل من صفوفكم . . وإنا لنعاهد كل الأحرار المناضلين الوطنيين العرب ، أننا سنظل في مقدمة الصفوف ، نرفع راية العروبة والكرامة والحرية ، حتى نطهِّر أرضنا الحبيبة ، من الخونة والعملاء وقوى الاستعمار . . " وإن الساعة آتية لاريب فيها " . . .

لندن في ١٩٨٠ م

أين الاستقلال

وهكذا . . مضي ربع قرن من الزمان . . وأطل علينا عام جديد ، ولابد لنا أن نحتفل باليوبيل الفضي لذكرى (استقلال السودان) المجيدة . ولكن . . أين الاستقلال ؟

أين الاستقلال الذي يُحتفل به وبذكراه الخالدة ؟ وما هي معاني الاستقلال الحقيقية لأي شعب من الشعوب ؟ أين هذه المعاني . . معاني العزة والكرامة والحرية والديموقراطية والسيادة الوطنية . . للشعب السوداني . أين هي؟ وقد مضت اثنتا عشرة سنة على السودانيين ، وهم يرزحون تحت أثقال حكم دموي جاهل متسلط وعميل ، على رأسه (انقلابي) يُدعَى " جعفر نميري " !

أين ذلك الاستقلال النظيف . . الذي جاء على أعقاب معركة نضالية وطنية شريفة قادها جيل وطني اتّسم (بقدر ما اتّسم) ، بالولاء والوفاء للسودان وحده ، واتّسم (بقدر ما اتّسم) بالحصافة والسياسة والكياسة ، والسمو الوطني الأصيل . ذلك الجيل الذي انتزع من المستعمرين - وببراعة سياسية نادرة لم يشهد لها التاريخ مثيلا - حق تقرير المصير . ذلك الجيل الذي حقق السودنة ، وطرد جيوش الاحتلال ، وعانق (الجامعة العربية) ثم (منظمة الوحدة الأفريقية) . . وكان أحد مؤسسي منظمة دول الحياد الإيجابي وعدم الانحياز . .

أين سودان اليوم من كل هذا؟ سودان اليوم ، لم يعد يتمتع بعضوية حقيقية فاعلة بالجامعة العربية ، بل (سودان نميري) . . لم يعد منتميا للأمة العربية إطلاقا ، بل هو (سودان مايو) الذي صار عضوا خاسرا في المنظمة الأفريقية ، لا يمثّل طموح الأفارقة ولا وقوفهم ضد الاستعمار العنصري والاقتصادي والثقافي والاستيطاني . . (سودان نميري) المنحاز للإمبريالية العالمية ، والمتهافت عليها ، والخادم المتقدم بخدماته لها ، البائع لكرامة شعب . . وتاريخ أمة ، والقابض أبخس الثمن .

صارت أرض السودان ملأى بالجنود الأجنبية ، وبالأسلحة الأجنبية ، وبنفوذ

القوى الأجنبية ، وأصبح استقلال السودان استقلالا قشوريا مظهريا ، سياسته الخارجية تدار من الخارج ، وسياسته الداخلية أدت لأن تتعطل الحياة فيه ، فلا إدارة ولا أداء ، بل رشوة وفساد ومحسوبية ، وضخ إعلامي كاذب عن التنمية ، جاء على إنقاض تلك المشاريع الإنتاجية القديمة والتي كانت مفخرة من مفاخر السودان ، والتي اليوم . . أُحبِطت إحباطا كاملا لا يكاد يصدِّقه عقل بشر .

* هكذا كان استقلالنا بالأمس ، وهكذا استقلالنا اليوم . . فماذا نحن - معشر السودانيين - فاعلون ؟ ماذا فعلنا إزاء ذلك ؟ وماذا يجب إن نفعل إزاء هذه المِحنة التي ابتليت بها بلادنا ؟ نحن في (الحزب الاتحادي الديموقراطي) بل نحن الحركة الوطنية السودانية الحديثة ، بل نحن في " المعارضة الشعبية السودانية " . . والتي تضم غيرنا كان لنا وسيظل لنا (شرف الموقف) في معارضة هذا النظام . . ومنذ اللحظات الأولى من صبيحة الخامس والعشرين من مايو المشئوم ، وكان بصرنا يومها يكاد أن يهتك أستار الغيب، ويتحدث عما هو آت . . مآس وكوارث حينما تُوأد الديموقراطية . وقفنا منذ تلك اللحظة وإلى يومنا هذا ، معارضة شجاعة جسورة منطقها أصالة المبدأ ولا شيء غيرها ، مفعمة بالشقاء والمعاناة والجهد الصابر الدؤوب حاملين لواء القضية ، وظللنا نعضُّ عليه بالنواجذ ، ونقبض عليه بالنار . . حتى اليوم ، وستظل هذه القضية ملء أفئدتنا ، وملء عقولنا وأفكارنا ، من أجل الخلاص من أجل الاستقلال ، من أجل الحرية ، من أجل الاشتراكية الديموقراطية . . لم نصالح ولم نشارك ، ولن نصالح ولن نشارك ، وقفنا من النظام موقف العداء السافر المعلن المسلَّح . . والمطرَّز بالدماء ، وسنظل كذلك .

نحن (الاتحاديون الديموقراطيون) صناع الاستقلال وحُماته ، أهل الموقف القومي - ومنذ نشأة حزبنا ، ارتباطا بالأمة العربية : بماضيها وحاضرها ومستقبلها ، وأهل الموقف السوداني الوطني : ارتباطا بتراث نضالي سوداني عريق وأصيل . لسنا تقليديين متحجِّرين ، بل تقدميون متحررون ، نؤمن بجماهير شعبنا وقدراتها . . مهما طال واستطال عناء المواجهة والصدام ، لن نُنكِّس الراية . . التي حملها مئات

(بل آلاف) الشهداء ، من أجل الاستقلال ومن أجل الديموقراطية ، وستظل حية مرفوعة سامقة ، يتولاها حفيد بعد حفيد ، وجيل بعد جيل ، حتى تتحقق غايات التحرر الداخلي الكامل لهذا الوطن .

لقد كتب الله لنا أن نحتفل بالاستقلال ، وأن نقول : أين الاستقلال ؟ ولابد لنا في ذكرى الاستقلال ، أن نقول أيضا كيف الخلاص ؟ إن الخلاص بإسقاط هذا النظام وإن إسقاط هذا النظام ليس معجزة من المعجزات ، بل هو أمر يرونه بعيدا ونراه قريبا وأجزم صادقا إننا قاب قوسين أو أدنى منه . ما أقبل صبح إلاَّ وازددنا قوة وما أقبل صبح إلاَّ وازداد الطاغوت ضعفا ، ولم يعد جبارا يزمجر بالتهديد والوعيد ، فها نحن (الاتحاديون) نحتفل بالاستقلال ، ولأول مرة منذ أن جثم الكابوس على الصدور نحتفل به على رؤوس الأشهاد وفي بيت (أبي الشهداء) وبطل الاستقلال ـ بأم درمان ـ فأين قوات " الجندرمة " قوات الكبت والإرهاب ؟

لقد دنت ساعة التحرك والخلاص ، وأعلناها عالية مدوية ، أنا نعمل ـ ضمن ما نعمل من وسائل الخلاص ـ للإضراب السياسي والعصيان المدني ، ونحتفظ لأنفسنا (غير متعجلين وغير مترددين) بإعلان ساعة الصفر .

إن هذا النظام ـ وبحكم التجربة ـ لا يستمع إلاَّ لمنطق القوة ، ولابد لجماهيرنا الأبية إن تتملك ناصية التاريخ . . وتمسك بعجلته ، وتتحرك . . كما تحركت في الأبيض وفي الفاشر ونيالا ، وكما تحركت من قبل في عطبرة وخشم القربة ، ولا يهم إطلاقا بل ليس من المطلوب أن تكون نتيجة أي تحرك جماهيري ، أسقاطا فوريا للنظام ! إن هذه التحركات الوطنية المتقطعة المتواترة . . هي : الوقود الشعبي ، ناجحة كانت أم فاشلة ، ويجب أن تستمر ، وإن الضربة القاضية للإجهاز الأخير آتية . . . آتية لا ريب فيها .

ـ وما فتئنا نقول : أين الاستقلال ؟

ولا زلنا نستنشق معاني وعبير الاستقلال . . ولقد عبَرنا يوما إلى بر الاستقلال ونعبر الآن إلى بر الخلاص من أجل الاستقلال . وبإذن الله وتوفيقه . . فبراير-أبريل ١٩٨٠م

من حسين الهندي ..

إلى إسماعيل الأزهري في ذكرى استشهاده العاشرة

يحتفل السودانيون بإجماعهم بذكرى استشهادك في يومها - وآخرون في شهرها وبعضهم في سنتها- أما نحن ... فلا أنت .. ولا ذكراك، تفارقنا أو نفارقها لحظة واحدة، فهي تعايشنا... ونحن نعيش بها ومعها، ولها ومنها، يومنا وساعتنا وشهرنا، وعامنا وعمرنا.. ومهما تعاقب الزمن واستطال ، فلا يمكن أن ننسى يوم أن قلت لي وأنت تسهم في الأفق -على غير عادتك- وصوتك يشوبه شئ من الإنفعال .. غريب عليك وعليه :

"يوما ما- ولا أظنه بعيداً- سأسقط بينكم .. فيا ترى هل سيكرمني الله -ولو لحظة- بأن أسمع منكم وعنكم بعد عشر سنوات؟ " وأردف :

"يا عسى ولعل !" ...

ومع قسوة الألم الذي يعتصرني يومها، وأنا واجم لا أردُ .. فإنني لم أستبن عمق هذه الكلمات - ولم أسبر غورها - إلاّ بعد مضي الأعوام العشرة .

لو حقق الله أمنيتك أبي (وليس ذلك عليه ببعيد !) وأنت الثاقب بصرا، والصافي بصيرة، والنقي سريرة ، لرأيت أرضا غير أرضك ، وقوما ليسوا قومك ، لرأيت الوطن الذي طهَّرته .. وقد أضحى مستعمرا ، والشعب الذي حررته .. قد أصبح مستعبدا ، والحرية التي جئت بها.. وقد أصبحت دُمية ومسخا ، لرأيت أطلالا يبكي عليها الشعراء، تعيش فيها الأشباح.. لا خبْز ولا ماء، أطفالا .. بلا تعليم ومرضى بلا علاج ، وجهلة بلا علم ، وارضا .. بلا زرع، وأنعاما .. بلاضرع لرأيت أرضك الطيبة الطاهرة .. يغادرها أهلها وعلى وجوههم الدمع، وفي أحشائهم الطوى، وعلى سيمائهم المذلة، ورأيت أخلاقهم السوية المستقيمة .. وقد تهاوت وانحدرت، وتدنت إلى حضيض الحضيض.. تحوم حولهم جحافل التتر وأسراب الجندرمة، ومحاكم التفتيش ، وقوافل العسس ، ولرأيت صفوف المهانة تستجدي لقمة الذرة وجرعة الماء.. وذرة الوقود.. ورأيت مكاتب خاوية ومدارس فارغة ومستشفيات تعطرها رائحة الموت، لرأيت شعبك الأبي .. وقد أصبح كل فرد منه حكومة - حيث لا حكومة - عليه أن يحفظ أمنه بتربية الكلاب واقتناء السلاح .. وأن يعلِّم أطفاله بنفسه .. ويداوي أسرته بيديه، ويجوب الطرقات لكي يجد مايسد به أدنى الرمق ، من تجار الجوع وسماسرة النخاسة ، ومصاصي دماء

البشر .. ولرأيت العشرين مليوناً من الجوعى والمرضى ، تظللهم سحائب الغُلب والقهر والفقر والإذلال : العصبي والنفسي والجسدي ، وقد تكوموا في جانب ، وفي الجانب الآخر .. بضع مئات من الحفاة العراة رعاة الشاة ، وقد تطاولوا في البنيان ! وامتطوا سيارات الأباطرة.. وأنشأوا مزارع الأكاسرة ولبسوا لبوس القياصرة .. وجلسوا في الجنان بين القيان، يرفهون عن حكامنا المنحلين المرتشين الساقطين ، تحرسهم كراديس جيشنا "الباسل"! وسرايا سُلطتنا "الساهرة"! وطوابير أمننا "الحافلة" وأقوام قضاتنا "العادلة"! يحرسون سلطتهم ويباركون نهبهم ويشاركونهم رجسهم وفسوقهم وفجورهم.. ويشهرون سلاحنا في وجوهنا ، دفاعا عن باطلهم وسرقتهم لقوت أطفالنا.. عرض نسائنا ، ورجولة ابنائنا ، ومقدرات بلادنا ومسيرة أجيالنا ومستقبل وطننا حاضره .

ولقد تركت بلادنا –أبي– وهي عربية الإنتماء ، قومية المسلك والمنهج ، وستراها الآن وهي في مستنقع "معسكر داوود!" وفي أحضان الصهاينة وأسيادهم من الإستعماريين ، وتركتها وهي مركز الإشعاع للتحرر الأفريقي .. يهرع إليها نكروما ويقصدها كاوندا ، وأنت تراها الآن.. آخر قلاع الإستعمار : الإقتصادي والإستيطاني والسياسي ، في القارة السوداء! وتركتها وهي واحدة من مؤسسي الحياد الإيجابي ، ومهندسي عدم الإنحياز منذ فجره في باندونج، وأنت تراها الآن وهي مستلقية في أحضان الإمبريالية ، ومفترشة دهاليز الإستخبارات الأمريكية وعملائها ...

وتركتها وهي ترفض القواعد وتطردها ، وأنت تراها الآن وهي تتفنن في إنشاء القواعد من: بحرية وبرية وجوية ، وصاروخية واستخباراتية وأمنية . ولقد كنت –سيدي الأب– رئيساً لهذا البلد، ورمزاً لعزتها وكرامتها وكبرياء شعبها : الوطني والقومي والعالمي . ولا يذكر أحد داخل السودان أو خارجه ، أنك غادرت البلاد إلاَّ مرات معدودات .. لمناسبات رسمية خارجية . ولم ترض يوماً لنفسك ولا لشعبك ولا لوطنك، أن تجوب أنحاء المعمورة .. تستجدي المعونات وتطارد الهبات ، وتمد يدك ويد شعبك لدنانير معدودات لك أو لبلادك ، وأنت ترى الآن "رئيس" آخر الزمان! لا يستقر له حال ولا يحط به رحال ، حاملاً قبعته في يد ، وكرامته –إن كانت قد بقيت له كرامة– في اليد الأخرى ، يلهث وراء الدراهم لا الدنانير، يجثو أمام كل حاكم ، ويقعي تحت قدمي أي أمير ، يلتقط الفتات ، ويجمع الصدقات، ويدبج القصائد ، وينشد المواويل .. حتى أصبح

سخرية السابلة ، ومحل تندر الدهماء والغوغاء.. في أي قطر ، وأصبح اسم بلادنا ، الخيرة الكريمة المضيافة العزيزة مقروناً "بشحاذته الدولة" وتسوُّله العالمي ، وتردده وتكرار تواجده ، حتى أحط بمنصب الرئاسة وقداسة القيادة في بلاده، وحتى في بلاد الآخرين!

وتركتها سيدي .. وهي خضراء يسرُّ لونُها الناظرين ، تنبت من كل سنبلة مائة حبة ، يفيض خيرها على أهلها وجيرانها ، وتطعم أهلها وجيرانها ، وإقليمها وقارتها ، وهي الآن جائعة تأكل ثدييها ، تركها الجياع ، وهجرها الزراع ، فأصبحت سراباً بقيعة وقاعاً سبسباً، وخراباً يباباً . وأصبح تمرها الرُّطب زقُوماً وغسليناً وأضحى نيلها -صانع الحياة والحضارات- وقفاً على غيرها.. وضاق أهلها بها وبالحياة فيها ، وهجروها بالملايين .. وأصبح شعارهم "اغترب سعد.. اهرب سعيد" ، و "بلغت الروح التراق .. وقيل من راق"! وتبدلت مميزاتها الإجتماعية ، وتفككت ارتباطاتها الأسرية والإقليمية ، وانحلت أواصرها الدينية ، وانحطت تقاليدها الوراثية ، وأصبح الرجال فيها غير قوامين.. لا على انفسهم ، ولا على نسائهم! وأصبحت الأخلاق فيها عملة منقرضة ونادرة؛ وطحنهم الغلاء، وتملَّكهم الخوف ، وسيطرت عليهم الهواجس ، وقتل حكم الفرد فيهم روح العِزَّة والإباء واشاع فيها روح الهزيمة ، وأصبحوا فريسة الهواجس وضحية الغرائز ، وأصبحوا رُكاماً سُخاماً ، ومسخاً لُماما ، وحتى إن وجدوا من يُصلح اقتصادهم وأدائهم .. فمن الذي يُصلح انفسهم ، ويُصلح سريرتهم وأخلاقهم ؟

أما نحن -أبي ورئيسي- المحيط المتلاطم الذي خلفته من المؤيدين والمتحمسين والقلة القليلة التي تركتها من العاملين المتجردين ، فقد بقينا -بعد أن سقطت بيننا- نعض على وطننا وحزبنا وعلى مبادئك .. بالنواجذ ، ونقبض على جمرها بالأصابع منذ ان فارقتنا وإلى أن يرث الله الأرض ، وإلى أن نلقاك أو نلحق بك .. لا يغرينا وعد ، ولا يرهبنا وعيد ، ولا يخيفنا رعديد أو صنديد ، وكم قابلنا -أبي- من بطش الأعداء ، ومكر الحلفاء ، وتنكر الزملاء .. وتكسرت علينا النِّصال فوق النِّصال ، وتفتحت فينا الجراح فوق الجراح .. وتكاثرت علينا هجمات الأصدقاء والزملاء .. قبل حملات الأعداء الألداء .. وقيل لنا :

"إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم" ..

وإن العدو حولكم قد دوت صيحاتهم ، فلم يزدنا هذا إلاَّ إصرارا واستكبارا .. وزادت حملات الزملاء والأعداء .. هؤلاء الذين إذا دعوناهم للنضال ، قالوا :

"هذه حمارة القيظ" !

وإذا طلبناهم للقتال ، قالوا :

"هذه قرارة الشتاء" !

وأصبحوا يتحايلون على النُّكوص والتراجع برمينا بأباطيل التُّهم ، وأراجيف الرَّجم .. فإذا ساقتنا الجغرافيا إلى أثيوبيا ، قالوا :

"إنهم كفروا بالله والرسول ، وأصبحوا من غلاة الإمبراطوريين" !

وإذا قصدنا أرض الله الحرام ، قالوا :

"إنهم سدنة الرجعية وعبيد البترول" ! .

وإذا اتجهنا إلى منابع الثورات ..

"أصبحنا ليبيين وبعثيين" !

وإذا عرجنا للسماء ، قالوا :

"إنهم رجم من الشياطين" ..

وإذا اتجهنا إلى مناطق النضال ، قالوا :

"إننا في ملاهي باريس" !

وإذا اتجهنا للإعلام ، قالوا :

"إننا عبيد الأنظمة ورقيق المال" !

وإذا بقينا في الخارج -نجاة بمبادئنا وأهدافنا- قالوا :

"إنهم قد استناموا للفنادق والمطاعم" !

ونسوا بقاءنا في أدغال الغابة ورمال الصحراء . وإذا طارت إشاعة أننا التقينا بأحد قالوا:

"إنهم قد رضخوا واستكانوا وصالحوا وترهلوا .. وضاقوا بالكفاح ، وآثروا السلامة والدَّعة والراحة" !

وإذا حصلنا على السلاح ، قالوا :

"إنهم تجار السلاح والدمار" !

وإذا تزوَّدنا بالمال ، أشاعوا :

"إننا سدنة المصارف وأثرياء التجار .. المتعاملون في السُّكر والذهب وحتى الأفيون"!

وإذا اشركنا مع زملاء السلاح في ثورات التحرر ، قالوا :

"إننا انشغلنا بغير قضيتنا" !

وإذا قابلنا البسطاء من الجمهور -طلبة وعمالا وكادحين- قالوا :

"قد استبدلوا الكبار بالصغار" !

وإذا فتحنا الباب للأجيال الحالية -أصحاب المستقبل الواعد ليرقوا العمل والمبادئ بعدنا- نحن في خريف العمر - قالوا :

"إنهم مشغولون بالسفهاء والصعاليك ، وتاركين لأهل الحِجا والنُّهى والعلم والتجربة" !

وإذا أكرمنا ضيوف الحزب والمعارضة والحركة الوطنية ، ووقفنا معهم في مشاكلهم وشاركناهم هموم الغربة وأوجاعها ومشاكلها ، قالوا :

"إننا السفهاء المبذرون" !

وإذا انشغلنا عن واجباتنا الإجتماعية ، وأنت تعلم سيدي الرئيس ، أننا خارج المجتمع منذ اثنتي عشرة سنة ، قالوا :

"إننا المهملون الجافُّون الجفاة . المتكبرون المذلون غيرهم بالمال . المتغطرسون" !

وإن حافظنا على تحرك النضال الدفين -ونحن نعلم أنه مفتاح النجاة والخلاص- قالوا:

"إننا المتفردون والإنفراديون ، الديكتاتوريون السُّلطويون" !

وإذا عملنا -ولم يعمل الآخرون- قالوا :

"إننا احتكرنا العمل" !

كأننا لا نشجع ولا ندعم ولا نتحمس لأي مبادر مبارز ! وكأن حيز العمل ضيق ومحدود، ولا يتسع لأي مناضل متجرد ! وإذا ضاقت إمكاناتنا -وكثيراً ماتضيق- وقصرنا ... أصابنا التجريح ، كأنما المعارضة مصرف متجدد الموارد ، ومتكرر الإدرار ! وكأنما المعارضة ليست معاناة .. وليست جوعاً ! إنما هي الترف والشبع ، وكأنما هي اكتفاء الحواس والأطايب! وإذا تحدثنا ... تشابكت الهواتف واتصلت الأسلاك ودار الأنس في المجالس ؛ فوصل الأعداء عبر أناس غير مأموني الوشاية .

وإذا صمتنا ، قالوا :

"إننا المتآمرون المتسترون الباطنيون" !

إلى من نشكو سيدي الرئيس ؟ وقد علّمتنا ألاّ نشكو .. وإلى من نحتكم، وأنت لست بيننا؟ وجهازنا لا يكتمل إلاّ بإكتمال خلاص بلادنا .. وضمان ديمقراطيتنا . لقد تركت لنا جيلاً كله من الزعماء -ما أصعب التعامل مع الزعماء !

وتركت لنا قاعدة .. أردنا أن نردَّها إليك كاملة غير منقوصة ؛ بكل مشاكلها وحساسياتها وتكتلاتها. وتركت لنا من لايرضيه العجب ، والصيام في رجب ومن لاتتساوى تطلعاته مع قدراته .. وأردنا أن نتحمل -كما كنت تفعل- ونسلِّمك الأمانة كلها ، وبما فيها .. وبكل سلبياتها وإيجابياتها ، وكل صالحها وطالحها -ليتك رفعت رأسك- إذا استجاب الله لدعائك ، لترى ما الذي حل بالبلاد وأهلها.. من بعدك !

ومع هذا فأنا واثق .. إنك لن تُلقي بالا لكل الهامشيات والثانويات والسطحيات هذه التي تموج في النفس .. بل سترى : إن حزبك -حزب الحركة الوطنية- قد تخطَّى الحدود المحلية، ووصل مشارف الذُرى الإقليمية ، عربية وأفريقية ؛ واقتحم جدار المحابس الدولية. إنه يخوض معركة ضارية وجسورة، في سبيل مبادئه في الحرية والديمقراطية والإشتراكية .

إن النظام الحالي .. تحت ضربات حزبك وحلفائه ، قد أصبح حطاماً ؛ وهو بإذن الله منته . إن الموقف الوطني والقومي والعالمي ، مع حزبك .. وإن التاريخ نفسه، معه . إن جماهير الشعب كلها تقف حوله في المعارضة ، وإن النظام المعزول سياسياً واقتصادياً ، بقيت فقط هيبته الأمنية ، ولابد أنها ستنهار.. وتفسح الطريق للنصر المؤزر .

سيدي الرئيس .. (في عليائك مع الخالدين والشهداء) نحن لانهتم بما يهرفون ونحن قادمون على إزالة النظام بكل الثبات والثقة ، ونحن مؤهلون لذلك . إن كل التقارب بين السودان وبين أنظمة أخرى .. لا أثر فعلياً له ، ولن يؤخر لنا إنجازاً ولا نتيجة ، نحن مع التحرر الداخلي والخارجي ، ومع القومية العربية والوحدة والإشتراكية ، نحن مع إطلاق الحريات العامة والنقابية كلها ، وفي كل الوطن العربي، نحن نتحالف مع قوى هي أقرب لنا ، ونحن لانشك أن تحالفنا مركزي وأساسي ؛ والقوة التي تقف معنا قوة عربية وقومية .. مؤمنة ومتعلقة بقضية السودان نحن نطبق على هذا النظام ومن كل جانب ، وسنجهز عليه لا محالة .. نحن نرى النصر ونتنسَّمه ، ونحن واصلون له طال الزمن أو قصر.. ونراه قريباً وقصيراً ...

إن حلفاءنا . . معارضة أساسية للنظام عامة . . ضده بكل طاقاتها ، ليس هناك أي تناقض بين أهدافنا وأهدافهم ، نحن منسقون ومتجانسون ومتفقون . إن تحالفنا ليس من أجل المال ، بل من أجل الوطن . . و" كبُرت كلمة تخرج من أفواههم " ! وهو ليس من أجل المصلحة ، بل هو من أجل الوطن ، ومن أجل الأمة العربية ، ومن أجل المستقبل المشرق لجماهير الشعب السوداني . لسنا من الضعف بحيث نتأثر بدعاية الآخرين ، وليس صدقا . . أن حلفاءنا يتآمرون ضدنا ، أو يستضعفوننا فيستقطبون أعضاءنا ، ومن التجني على الحق والصدق والتاريخ . . أن نستمع لذلك وإن نصدقه ، وأن نردده ! لا يمكن ولا يعقل أن نعزل أنفسنا أو نعزل ، وإن نصدق دعايات النظام والأدعياء وأصحاب الغرض . . وإن مصلحة القضية والوطن والقومية ، أن تخرج من إسار العزُلة وتتحالف وطنيا وقوميا لكي تنتصر .

وبعد ، أيها الأب الرئيس . . عندما بعثت لك الزميل الشهيد الراحل بابكر عباس إمام ، في السابع والعشرين من مايو ٦٩ في سجن كوبر . . مستشيرا إياك في تأليف (الجبهة الوطنية) . . . وفي معركتنا ضد النظام ، كان ردك حاسما : " مهما يكن الأمر . . ومهما يحدث لنا أو لكم . . لا يمكن أن نقبل حكما فرديا ، ولا يمكن أن نتخلى عن الديمقراطية ، كافحوا من أجل ذلك بأي أسلوب يقتضيه الكفاح . إن أسلوب الجبهات هو أسلوبنا في حالة أي تحد مصيري للشعب والوطن . كل من يؤمن بالديموقراطية وبإزالة حكم الفرد . . نحن معه ؛ نحن أصحاب مبادئ ، ولسنا طلاب سلطة " .

كانت هذه كلماتك . . لا تزال وستظل هي هدفنا ونبراسنا ؛ وسنظل نكافح من أجلها حتى نحققها أو نموت دونها ، ولن ندنس موقف حزبنا في التاريخ ، بالتخلي أو التهاون أو المساومة فيها . . ولن نقبل بأن نتسربل بالعار في الدنيا والآخرة بمخالفة موقف سقطت شهيدا من أجله ، بعد سبعين سنة من النضال الدؤوب الحسور في سبيل الوطن . إن استشهادك . . ومبادئ حزبنا . . هي حوافز النضال لنا ، ولجماهير حزبنا العملاقة . وهي علامات طريقنا مطرزة بدماء الشهداء ، وموشحة بمعاناة

المجاهدين ، وكل من تطيب له حياة ، أو يحلو له مقام ، أو ينعم بنوم ، أو يستقر في راحة ، أو يسعى لفرقة ، أو يقدم لمصلحة . . فهو ليس منا ، وهو عمل غير صالح .

أبي الشهيد . . . يا أبا الشهداء ! لقد شكوت لك حالنا . . وليس هذا من ضعف ولا بد من الشكوى لمثلك ، وليس في شكوى الابن غضاضة لأبيه ، وليست الشكوى لك عيبا أو ضعفا ، إنما هي صدق وقوة ، ولقد حددت لك مسارنا ، وأبنت قوتنا وتصميمنا ، فلتقرَّ عيناً ولتنعم بالاً ، ومهما سقط المترددون ، فإن رايتك لا تسقط أبداً لأن رايات الحرية لا تسقط ، حتى لو استظل بها واحد فقط ، من حزبك العتيد ومن شعبك الصبور .

أبي الرئيس الشهيد أبو الشهداء ، وأحد قادة التحرر والديموقراطية بين الشعوب أحييك وأنت قريب على البعد ، بعيد على القرب . . أجدد العهد والوعد . . والولاء والوفاء . . وطِبت حياً وميتاً يا رئيس . .

ابنك أبداً : حسين الهندي

مجلة " البرلمان " سبتمبر- أكتوبر ١٩٨٠م

ارفعوا أيديكم عن بلادنا

كان شعبنا يؤمن أن أيديكم ستكون بلسماً لجراحه المتقرحة المتقيحة ، وكان يعتقد أن علاقات الأمة العربية هي علاقات بشر وشعوب ، ولم يكن يظن أنها علاقات أنظمة وقهر وبطش وأمن ، وإلاّ . . . فما الفرق بينها وبين علاقات أمتنا بإسرائيل . . وبالاستعمار العالمي ؟ لم يكن يظن أنها علاقات حكام ، يتحالفون على بقائهم فوق حطام الضحايا ، وعلى أشلاء الشعوب المسجونة والمقهورة والمغبونة . وظل شعبنا يبحث عن الإنسان العربي في كل قطر ، فلا يجده إلا مكبلاً ومغلولاً ومعقوداً لسانه ومسلوبة حريته ، وعاجزاً عن مساندة أخيه في أي قطر عربي . ويتمعن مواطننا العربي في هزائمه المتكررة والمتلاحقة . . ويتساءل وهو غائص في أسبابها : " أهو أقل شجاعة من الإسرائيلي ياترى ؟ أم هو أقل حماساًوحمية عنه ، في الدفاع عن قوميته وذاتيته وحضارته ؟ إذن لماذا تقلصت أرضه حتى أصبحت أجزاء متناثرة وأشباراً متنافرة ، تنحسر رويداً رويدا ، حتى تختفي إلى الأبد " ؟

والمواطن العربي في السودان (وفي كل أصقاع أمته) يتسآءل : لماذا يقاتل ؟ وعن ماذا يدافع ؟ وما الذي يجسِّده الاستعمار له؟ هل يدافع عن حريته وكرامته، وأسرته وأطفاله ونسائه، ومنزله وفكره ، وكلها مستباحة . . سواء هُزم أم انتصر؟ أعن الحاضر يقاتل أم من أجل المستقبل يموت ؟ وكلها قاتمة ومظلمة وفاقدة للأمن : الفردي والجماعي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي ؟ أليست كلها استعماراً واستعباداً ؟ وهل هناك فرق بينهما إذا كان مصدرهما قريباً ؟ وهل يختلف مذاقهما وتتلون أشكالهما وفق أي جهة جاءا ؟ إذا سُلبت حريتك ، واستُبيح عِرضك وانتهك فكرك ، ووئُدت حريتك ، وبُعثر مالُك وزاد تخلُّفك ، وأصبحت رهيناً للظلم والخوف والتوجس والموت ، فهل أنت عابئ أو مهتم من أين انصبَّ عليك كل هذا ؟ من كارتر . . من مناحيم بيغن ؟ أم من نميري ؟

ما هي وحدة الأمة العربية ؟ أهي وحدة حكام وأنظمة ، يتقاسمون قهر شعوبهم

ويتشاركون في : تدريب وتسليح وتمويل فرق الاغتيال والقهر لشعوبهم ؟ أم هي وحدة أمة متعافية متحررة وحرة ، يتداعى بعضها لألم البعض الآخر ، ويهرع لنجدته إذا مسَّه الضُّر . . وما أكثر الضُّر هذا ! وما أبشعه وأشره ! لماذا يجلس الحكام العرب حول مائدة مؤتمر قِمة أو وزراء ؟ أليبحثوا أمنهم الشخصي ، وأمن أنظمتهم ويتقاسموا الأدوار ، في إنقاذ بعضهم البعض ؟ ويجيِّشوا الجيوش ، ويدفعوا البلايين ويدربوا ويسلحوا الآلاف من أجل إنقاذ حاكم واحد . . ونظام واحد . . دون إن يسألوه : ما هذا الذي تفعله بأبنائنا العرب في بلادك ؟ ولماذا تسرق مال الشعب وقوته وما الذي تفعله بأموالنا التي نغدقها عليك ؟ وهاهم أبناؤنا من بلادك . . يزحمون بلادنا ـ بالملايين ـ هرباً من الجوع حتى نضطر لمطاردتهم وسجنهم وترحيلهم ، إلى وادي الجوع والظلم في بلادك ؟ ألا يحاسبونه : ما الذي فعله بأموالهم وبإخوانهم وأبنائهم وأعراضهم ؟

ألا يقرأون تقارير المنظمات العالمية : المالية والاقتصادية والزراعية ، والصناعية والإنتاجية والاجتماعية؟ ألا يسألون المصارف ورجال الأعمال . . وهم سدنة المصارف ورجال الأعمال ؟ ألا تشمُّ أنوفهم الحساسة رائحة الرشوة والفساد والمحسوبية . . وهي تزكم حتى الأنوف المسدودة ؟ ألا يسألون خبراءهم ـ وما أكثرهم ـ عن التضخم والسوق السوداء ، والغلاء . . وانعدام التوازن الداخلي والخارجي وطبع بلايين الجنيهات كما تطبع الصحف والمجلات ؟ هل هم في واد . . وكل الأمة العربية في واد آخر؟ وبين الواديين ما بين السماء والأرض !

أين ذهبت الأموال التي دفعوها للتنمية ؟ وأين ذهب ما دفعوه للغذاء والكساء ؟ وأين ذهب ما دفعوه للتسليح والقوات النظامية ؟ بل أين ذهب ما دفعوه للمساجد ومراكز الإسلام والثقافة ؟ وأين ما دفعوه للأمن الداخلي والخارجي ؟ أين القروض وأين الهِبات والمعونات ؟ وهي بلا عداد ولا حساب ! ألا يسألون لماذا لا تُدفع القروض ؟ بل لماذا لا تُدفع حتى أقساطها وفوائدها وخدماتها ؟ ولماذا تتراكم ؟ بل لماذا لا تُسحَّل ولا تُعرف بل تُنسى كلية ؟ ألم يسألوا لماذا تتضاعف تكلفة المشاريع ـ هذا إذا

بدأت - عشرات المرات . . وتزيد وتستمر؟ وأمامهم (كنانة) المشروع - مثلاً - ليس وحيداً ولا فريداً ولا جديداً .

لماذا يُوكِلون تنميتنا للسماسرة ؟ فيشترون السلعة بعشرة أضعافها ، ويقيمون المشروع بأضعاف تكلفته ، ثم تظهر أنباؤهم في "مذكرات المشبوهات" ، ومجلات الجنس . ومضابط مجالس النواب والشيوخ . . ولجان التحقيق ؟ ألا يسألون مصادرهم - وهي كثيرة وعليمة - كم يملك حكامنا الآن ؟ وكم كانوا يملكون قبل عشر سنوات ؟ ألا يعلمون أن قصور حكامنا تطاول وتتجاوز قصورهم ! وهم أهل النفط والذهب الأبيض والأصفر والأسود ؟ ونحن وحكامنا أصحاب الجِمال والشِّياه والخراف ؟ ألم يروا غابات الأسمنت في بلادنا تطاول عنان السماء ؟ وألم يسمعوا أن صغار الحكام في بلادنا ، يبنون المنازل بالملايين ، بينما يدخرون تكلفتها بعشرات الآلاف ؟ ومرتب الواحد منهم لا يتجاوز بضع مئات ! حتى لو عُمِّر كما عُمِّر نوح . . لما استطاع أن يبني غرفة واحدة منها ! لماذا تعطون "السفهاء أموالكم" ؟ وإن كنتم قد نسيتم حساب الله . . فهل نسيتم تساؤل الناس ومطاردة التاريخ ؟

هل لأنكم اعتقدتم . . أن نميري يريد مصالحةٍ أو وحدة وطنية ؟ قال قبل أيام : إنه سيموت في سبيل تحقيقها ، ثم قال بعد أيام : إنها رِجس وعبث وسراب ، ومضى ساعات يسبُّ ويلعن ويشتم الذين صالحوه ، والذين لم يصالحوه . . والذين على ظهر الأرض ، والذين في باطنها ، والمشرَّدين والمطاردين ، والذين يلعبون معه (البولو) ، والذين قالوا إنه آية الله وحجة الإسلام ، ونبي الشريعة . . والمهدي الحاضر والمنتظَر ؟ كل ذلك لأنه رأى عين الرضى منكم . . . " وعين الرضى عن كل عيب كليلة " وعمياء وحولاء .

ثم قال لكم ولنا وللعالم ، إنه سيقيم انتخابات يحدد دوائرها بنفسه ، ويسجل ناخبيها وحده ، ويموِّلها بمالكم ويجمع المشتركين فيها (بجيشه وشرطته وأمنه) ويحتفظ بصناديق اقتراعها في قصره . . ثم يفرزها وحده ، ويعلن نتائجها من صحفه ومذياعه ، وباختصار : يكون فيها هو الناخب واللجنة والإعلام والقضاء ، والأول

والآخر ، والظاهر والباطن ، والخصم والحكم !

فهل سمعتم بانتخابات مثل هذه . . في أي حقبة من حقب التاريخ ؟ وهل حدثكم عنها رواة الأساطير ؟ وهل تعتقدون أن شعباً ما . . سيرضى بهذه الانتخابات ، حتى شعبنا الذي أصبح مثل شعب كمبوديا ، الذي انقرض وتحجرت سلالته ، وتوقفت خصوبته ، وامتلأت بجماجمه وهياكله ، الوديان والجبال والغابات ؟ ومات . . لا من الجوع وحده ، بل من العطش ، في بلد تمطر فيها السماء عشرة أشهر في السنة ؟

حاولنا - سنوات طوالا - أن نقنع أنفسنا أن تصرفاتكم هذه نابعة من رابطة الإسلام فلم نجد فيها جزءاً من حرف أو روح ، أو محتوى للإسلام أو القرآن ! ثم حاولنا أن نرجعها لأواصر اللحم والرحم والعِرق ، فلم نجد فيها مجرد رائحة هذا أو سرابه بل وجدناها تقطع كل الأوصال والأوشاج والأرحام . وحاولنا أن نرجعها لمجرد مشاعر إنسانية ، فلم نجد فيها موصلاً ولا موجباً ، لا للإنسانية ولا للبشرية . . ولا حتى للأمية . وأخيراً اعتقدنا انها للمؤلَّفة قلوبهم ، فلم نجد قلوباً ، ولم نجدها مؤلَّفة ولا مؤتلفة ، وعرفنا أنها لن تؤلَّف ، ولن تأتلف . . مهما أغدقتم وأغرقتم وتمثلتم بجدكم حاتم الطائي ، فقد كان يطعم الجائع ، ونميري متخم . . وأمراضه كلها من البدانة والسِمنة ، وكان يكسو العاري . . ونميري مكتس كله بالأوسمة والنياشين التي أنعم بها على نفسه ، لا في معارك ضد إسرائيل ، بل في مجازر . . ضد نساء شعبنا وأطفاله وشيوخه والعزُّل من شبابه .

إذا كان الإسلام ، وكانت العروبة والوحدة والقومية ، قد ضاعت فيها مجرد كلمة الحق ، يقولها أهل الكتاب لبعضهم البعض ، والقريب للقريب ، والملحد للملحد فلم يعد فيها ناصح ولم يعد فيها منتصح ! ولم يعد فيها من يقول كلمة الحق ولم يعد فيها من يسمعها أو يقبلها ! إذا كنتم أنتم يا أهل الحَل والعَقْد ، ويا من تملكون الحُكم والمال والسلاح ، تخافون من رجل واحد . . فهل يخاف منه مائة وخمسون مليون عربي - من المحيط إلى الخليج ؟ وهل ترضون لكم ولهم هذا ... والعياذ بالله ؟

إذا فاسمعوا . . ولتكونوا كلكم أذانا صاغية : قال النميري إنه يريد " مصالحة

ووحدة وطنية" . . وقلنا : " مرحباً وأهلا ! على شريطة إن يلغِي اتحاده الاشتراكي ويوافق على تعدد الأحزاب ، وينهي دستوره ويرجع لدستور ١٩٦٤ م" . . . ثم " بُهت الذي كفر " ! وتنكَّر للوحدة والمصالحة . . وكشَّر عارياً عن ديكتاتوريته وفاشيته ، وعاد أشرَّ مما كان عليه في عام ١٩٦٩م ! لا يقبل إلا أن ينحني وينخرط الناس في باطله ، ويشاركوه جرائم الإحدى عشرة سنة الماضية ، ويدخلوا تنظيمه الواحد المهلهَل المتسخ . . المليء بالعيوب والثقوب ، والذي لا يمثل إلا شخصه . . وحفنة المرتزقة الذين قاسموه سرقاته وجرائمه ، ضد شعبنا وأرضنا وأهلنا ؛ ويقسموا على هذا يمين السفهاء والجبناء ، على مشهد من الشعب والتاريخ ؛ ويوافقوه على موقفه المنهزم ، من الأمة العربية وأعدائها وخونتها ! ثم إن يقبلوا دستوره الذي فصَّله على نفسه ، والذي يتنافى كل بند فيه مع أبسط قواعد العدل والحرية والديموقراطية .

وهذا مرفوض ومستحيل . . ودونه خرط القتاد ، وطعن الرماح ودويّ الرصاص ورائحة الدم وأكوام الشهداء ! والذي يقبل به . . خائن لوطنه وأمته ولعروبته وإسلامه . والموت أفضل منه وأرحب وأوجب ، والحياة معه أشرف منها حياة الحيوان الأصم الأخرس ، والوطن معه . . احتواء للجبناء ، لا انتماء للشرفاء وقبول للمذلَّة الوطنية والخيانة القومية . وهو ضياع للأرض والشعب والدين والتراث والحضارة ، وقبول بالعبودية واللصوصية ، والجبن والانحلال والانهيار . وأي سوداني - عربي أو غير عربي ، مسلم أو غير مسلم ، مثقف أو جاهل - لا يستطيع أن يواجه به نفسه ولا أسرته ؛ دعك من إن يواجه به وطناً وأمة وتاريخاً !

وهذه حقيقة وواقع مقدَّر، وهو : " قول فصْل وما هو بالهزل " ... " فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر " ... ومن شاء فليتقدم ، ومن شاء فليتقهقر . ولْتظل أعين الجبناء ساهرة . . لكي تراقب ؛ فهذا رأي الجميع . . حتى هولاء الجبناء ، وإن لم تسعفهم شجاعتهم وبطولتهم لإشهاره وإعلانه والجهر به . ومن يعتقد أن هذا تصوير وتلوين ، أو تهديد وتهويش ، فهو خاطئ غارق في الخطيئة والخطأ . . إلى أذنيه وسيرى ذلك بعينيه الاثنتين .

والآن ـ وللمرة الثانية ، وفي أقل من شهر ، وبعد إن نكّس كل راياته في المصالحة وابتلع كل شعاراته في الوحدة الوطنية ـ يعود النميري ويقول : إنه سيجري انتخابات ! ونعود مرة أخرى ! ونقول : " يا أهلاً . . ويا ألف سهلا ومرحبا ! ولكن . . على الأسس الآتية :

١ - إن يحلّ اتحاده الاشتراكي ، وإن يلغي دستوره ويدخل به الانتخابات . . كحزب له جماعته فقط ! فإذا انتصر ، فسنستظل برايته .

٢ - إن تقوم لجنة مشتركة ـ قانونية وقضائية ـ لتحديد الدوائر والإشراف على الانتخابات .

٣ - إن تعلن قوات الشعب المسلحة حيادها الكامل والتام تجاه الانتخابات . وكذلك قوات الشرطة والأمن . . . وتلْزَم بمساندة الرأي الحر لجماهير الشعب السوداني صادرا من مراكز الاقتراع .

٤ - إن يلزَم إعلامه المسموع والمقروء والمشاهَد . . الصمت الكامل تجاه الانتخابات وأثناءها .

٥ - إن تحتشد قوات المعارضة الشعبية السودانية ، في نقاط محددة متفق عليها بكامل أسلحتها وعتادها ، وإن تلْزَم بالحياد الكامل تجاه الانتخابات وأثناءها ، وتلتزم أيضاً باحترام ومساندة الرأي الحر . . لجماهير الشعب السوداني صادراً من مراكز الاقتراع .

٦ - إن تؤلَّف لجنة من جامعة الدول العربية ، ومنظمة الوحدة الأفريقية ، للإشراف على مجرى الانتخابات ونزاهتها ، ومنع أي تدخُّل فيها . . والحيلولة دون أي احتكاك بين العناصر المسلحة . . أثناء عملية الانتخابات .

٧ - إن يوافق هو . . . وتوافق المعارضة الشعبية السودانية ، على الخضوع التام لإرادة الشعب السوداني . . كما تحددها الانتخابات ويريدها الشعب السوداني .

وبعد . . . فما الذي يريده منا العرب والأفارقة بعد ذلك ؟ لقد قال نميري إنه ليست هناك معارضة في السودان ، وستحدد ذلك نتيجة انتخابات حرة ونزيهة

ومراقبة . ولقد قال إن المعارضة ليس لها وجود عسكري ، وإن كل وجوده الخمسمائة عنصر الذين استضافتهم المعارضة عنده ، وهم . . بين شيخ تجاوز السبعين وطفل دون الثانية عشرة ، ومريض لا يقوى على الحراك . إذا فلماذا لا يوافق على احتشاد قواتها في داخل السودان أو خارجه ؟ خصوصاً وهو يمارس الآن عمليات الغزَل الجماعي ، لإعادة العلاقات وتحسينها مع جيرانه . . وغير جيرانه ؟

ماذا يضيره ذلك ، إذا كان الأمر كذلك ؟ وكيف تؤثر عليه معارضة لا وجود شعبي ولا عسكري لها ؟ أليس من مصلحته إن يُظهر لإخوانه العرب - والأفارقة . . وللعالم أجمع - ضعفها الشعبي والعسكري ، وقلة حيلتها وعدم وزنها وانعدام وجودها . . ويستمر في حكمه بعد ذلك معترَفاً بشعبيته وشرعيته ، داخل السودان وخارجه ؟ ومعترَفاً بهزُال معارضيه وادعاءاتهم الجوفاء الكاذبة والتخريبية ، وتنكُّرهم " لثورته " ومسيرته " الظافرة " ؟ و" للرخاء " الذي يعيش فيه مواطنوه ! و" للقطار " الذي فات معارضيه ! ولتحول الاتجاهات والقيادات ! ولجهلهم بمسيرة الشعوب والتاريخ والثورات ؟ لماذا يجعل كل ذلك محل هرطقات وادعاءات . . وفي إمكانه إن يجعله واضحا وضوح الشمس في رابعة الظهيرة ؟

ونحن نعِده - وعد الرجال الشرفاء الصادقين الأحرار - أن ننضم بعد ذلك إلى ركب الهتَّافة . . مرددين نداءات : " جعفر المنصور " ؛ وشعارات : " القائد الملهَم الملهِم " (بكسر الهاء من فضلك) . وأن نلزم كل حدود الأدب ، وكل متطلبات الطاعة وأن نشترك معه في "بناء بلادنا" ، مع كل أخلاقيات الندم والتوبة ، ونقبل التعيين بالمذياع والطرد بالمذياع ، وإن نسبِّح بحمده ، ونتبتَّل في محرابه ، ونقبل حمده وذمه وإساءته ومدحه . . فهو المعزُّ المذلُّ ، والمانح والمانع ، والمنتصر والمتكبِّر ، والقاهر والظافر ! ونحارب معه القبلية . . إلى درجة أن نقبل هدايا قبيلة (الكبابيش) : أسرابا من الجِمال ! ونقضي معه على الطائفية . . فندخل معه في حلقة (الشيخ الغرقان) نتمايل معه على دقات الطبول طربا ، طربا . . ونقاتل معه الرجعية . . حتى لا " تطل بوجهها القبيح " من جديد ؛ وأن نحارب معه الاستعمار ... فنذهب مع الملحق

الأمريكي في القاهرة ، لنشاهد القاعدة الأمريكية أيام الحرب العالمية ، في جبل مرة بدار فور ، ثم إلى بورتسودان ، حيث نبارك موقع قاعدة الصواريخ في سواكن ونؤمِّن معه عروبة وحياد البحر الأحمر ، حتى نغوص في أحشائه . . لنصل إلى كنوزه مع الثَّري الأمثل : (محمد عبد ربه) في بورتسودان ، صاحب حقائب الهدايا المليئة بالذهب والجواهر والماسِّ ، ومتصدِّر قوائم التبرعات (لجمعية ود نميري) التعاونية بمئات الآلاف . وسوف نحج معه إلى أورشليم . . حيث تَحِلُّ علينا البركة بلثم قبر (غولدا مائير) الطاهر ، وبذلك نُغْسَلَ من أدران الرجعية والحزبية والطائفية والقبلية والإمبريالية ، ونحجُّ معه إلى محجَّة : الاتحاد الاشتراكي . . فنكحِّل عيوننا بمرأى مزاره . . وتنهال علينا تراخيص الأسمنت والحديد . . فنبني قصرا في " الرياض " ؛ وآخر في مدينة " المدائن " ، وثالثا في " المنشية " . . حتى نؤمِّن ما تبقى من شيخوختنا من مخاطر الفقر ، ونقضي على الطبقية ونطبِّق الاشتراكية . وسننتظم في جمعياته التعاونية ، فنجعل من منازلنا مخازن للسُكر والدقيق والفول ، وبقية الأطايب . . حتى نشارك شعبنا الانتظام الثوري في الصفوف ، والانضباط التقدمي في المخابز ، والتقدم في سيارات " سيهان بيرد " .

فما الذي يريده منا بعد ذلك ؟ سنعمل كل ذلك . . حتى يرضى عنا ؛ ونصبح جزءا من أفراد شعبه " الثوار الأحرار " . . الأبرار ! له - ولكم - علينا . . وعدا وعهدا أن نفعل كل ذلك ، ولا شك أنه يرضيكم . ليوافق فقط . . على شروطنا - أستغفر الله - بل استرحاماتنا أعلاه .

سيدي الرئيس . . إن كنتم تعلمون - أولا تعلمون - لا يحب كلمة شروط . تدخَّلوا جميعا - أطال الله عمركم وعمر أنعُمِكم - بيننا وبينه ، وتأكدوا . . والله العظيم . . أننا وطنيون سودانيون وقوميون عرب ، نأكل أيدينا ونجوع . . ولا نأكل قضايانا الوطنية والقومية ! تدخَّلوا بيننا وبينه . . فإذا قبل التماسنا وفشلنا ، فتأكدوا إن هذا آخر ما ستسمعونه أو تقرأونه منا ؛ وإذا رفض ! ولا أدري لماذا ؟ ألن تعذرونا ، ونحن أصحاب القضيتين الوطنية والقومية ؟ أهل الأرض المحروقة المسروقة . . والشعب

الجائع المشرَّد ؟

قد يقول لكم إن هذا سيؤخر الانتخابات . . وهي بقرار جمهوري ، وقراراته الجمهورية لا تقبل الإمهال ، مثل آيات الكتاب المُنْزَل . إن التماسنا لن يؤخر انتخاباته - وإذا أخرها - فلأيام معدودة فقط ! سيقول لكم إنه بدأ التسجيل للناخبين ، إذا فاعلموا : أن كشوفات ناخبيه ثابتة منذ ٢٥ مايو ١٩٦٩ . . وإلى الآن . كأن لم يبلغ شخص الحُلم ، أو يمت شخص . ومنذ أن أعلن انتخاباته لم يذهب إليه إلاّ عشرات . وتأكدوا أنه بمجرد أن يقبل ، سيهرع إليها الملايين من كل حدب وصوب ، وعلى كل ضامر ، ومن كل أشعث أغبر ، حتى لا يحس إنه يقول إنهم " مرتزقة " . . مثل الذين هرعوا لمصافحته في يوليو ١٩٧٦م .

إذا فليس هناك تأخير . . وحتما ! وهل مايو ستظهر النتائج ؟ أما إذا رفض وتأمَّر واستكبر - ولا أدري لماذا - فنحن لن نستغرب ولن نحزن ، ولن نيأس ، ولن نهرع إليكم باكين ومستَنْجدين ومسترحمين وموسِّطين ، فليس هذا من أخلاقنا - وأنتم تعلمون - لقد تعوَّدنا أن نحمل : همومنا ومشاكلنا وصراعاتنا ومعاركنا ، بكل الرجولة . . حتى لو أصبحت أضعاف ما ننوء به الآن! وهناك من يعتقد - ونحن لا ننفي - أننا نجد منكم كل الدعم وكل المنَّ وكل السَّلوى وكل المساندة ؛ واللَّهُ - وأنتم ونحنُ - نعلم الحقائق . وكم جلبت علينا هذه الظنون المشاكل وعرضتنا لمختلف الاتهامات ؛ ولم نر مبررا ولا جدوى لنفيها . وبالتالي . . فأنتم تعلمون إن شيئا ما ، لن ينقصنا تماما ، مثل الذي ظل مستمرا منذ أحدى عشرة سنة ، وهو الذي كنتم تساعدونه . . كل ساعة . . وكل يوم . . وكل سنة !

كل الذي نطلبه منكم إذا رفض ! إن تقفوا على الحياد بيننا وبينه لشهور فقط وتمنحونا الفرصة لكي ننقذ بلادنا ، وننفض خلافاتنا ونحسم قضيتنا ، وتأكدوا جميعا إنها ليست قضيتنا وحدنا ، إنها مفتاح القضية العربية . . وبابها ونافذتها ومقدمتها وقلبها وإرهاصها . فإذا كنتم تهتمون بالقضية العربية ، فاهتموا بها . . ولن يكلِّفكم ذلك شيئا . فقط ! أن تقفوا على الحياد ، وما أسهل هذا الموقف! إن لم تهتموا بقضية

شعب السودان ، فاهتموا بالقضية العربية . . وإنهما متصلتان . معكم كل المبررات : الخُلُقية والقومية والإنسانية والتاريخية . . .

إذا كنتم لا تعرفون مأساة الشعب السوداني فاتركوا هذا ؛ إن كنتم لا تعرفون أبعادها في القضية القومية ... فانسوا هذا . اعتبروا انفسكم وسطاء ومراقبين فقط ! تكلم معكم عن المصالحة والوحدة الوطنية ، وقبلنا . . وعزَّ عليه ، أن يكون لشعبنا مخاوف ومحاذير وشروط ، فرفض الوحدة الوطنية كلها . ويعرض الآن الانتخابات وكل الذي نريده إن تكون حرَّة ونزيهة .

إن الذي نطلبه ليس بدعا ولا مستحيلا ولا إعجازا ، إنه حق وعدل ومنطق ، وهو يتعلق بشعب بأكمله ، ووطن بأسره . . إذا كان واثقا بمواطنيه ، وكانوا مؤيدين له فما الذي سيخسره ؟ إذا كان يطلب رأيهم فعلا وحقا وصدقا ، وإذا كانوا معه كما يردِّد ليلا ونهارا ، فهو سيوافق وفي دقيقة واحدة - فما أسرعه في اتخاذ القرارات التي يريدها . . وبالمئات ! وإذا رفض . . فليس لهذا إلاّ تفسير واحد : إنه يحكمنا بالقوة ويدَّعي ولايته علينا قهرا . وهو مُصِر على استمرار ذلك ، ويريد إن يكابر العالم أجمع ، ويكذب عليه بأن شعبنا يؤيده . كان بإمكانه أن يقول إنني حاكم بأمري ، ولا يدعي تأييد شعب بأكمله ، ولكنه يواري القهر والكذب والادعاء . . ونحن نرفض ذلك وسنقاومه .

وكان واجبكم أن تقفوا بجانبنا ، وتقفوا ضده ، وهذا التزامكم الوطني نحونا . . والقومي تجاه أمتكم . ولكننا لا نطمع في ذلك ، وبالتالي فلا نطلبه . إذا كانت الأمة العربية مهيأة له ، فإن أنظمتها ليست مؤهلة له ، والتناقض بين الأمة العربية وأنظمتها موجود وسائد ومتوافر ، والأمة العربية كفيلة بأن تزيل هذا التناقض يوما ما - ربما ليس الآن .

أما الآن . . فنحن لا نطلب منكم غير الحياد بيننا وبينه ، بين شعب بأكمله - هو أكبر أقطاركم مساحة ، وثانيها سكانا ، تعرفون آلامه وأحزانه ، وتعيشون معاناته ومأساته - وبين رجل واحد فقط . . رجل وشعب ؛ خيار واضح وبسيط ولكن ! ما أكثره وما

أقله ، وطلبنا أبسط . . هو المفاضلة بين رجل واحد ، وشعب كامل ! فأين سمعتم - أو قرأتم - مفاضلة مثل هذه ؟

وإن كان منكم من لم يقرأ التاريخ ، فاعلموا أنه : لولا معارك العروبة في بلادنا لكانت ممرا ومقرا لغير العرب وغير المسلمين . . والتي لولا دماء الشهداء ، وجثث المجاهدين ، لأصبحت حاجزا عازلا للعروبة وللإسلام . . والتي حافظ أجداد أجدادنا على عروبتها وإسلامها ، بأظافرهم وأسنانهم . . فأحيوا فيها نار القرآن يستضيئ بها كل قارئ ، ويستدفئ بها كل طفل . وحافَظوا - بالدم والنار فيها - على لغة الضاد . وصدوا عنها غزوات الأعاجم والمستعمرين ، وأشعلوا فيها الثورة المهدية فهزوا بها إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس ، وحاربوا بالسلاح الأبيض ، كل مستحدثات السلاح وأحدث الجيوش ، وماتوا بمئات الآلاف يحملون القرآن . . في أيديهم وفي قلوبهم وعلى أسنتهم . وكانوا أول من حارب الاستعمار البريطاني والإيطالي والفرنسي . . في أفريقيا ، ولحقوا بأسلافهم من الشهداء منذ معارك عين جالوت والتل الكبير . هم الذين لم يتوانوا عن اللحاق بأي معركة يخوضها العرب والمسلمون . . حتى عبر المحيطات في المكسيك .

وباسم كل هذا التاريخ . . يطلبون منكم فقط ! إن تقفوا على الحياد . . في معركة الحق والعدل والشرع ، الوطنية والقومية ؛ معركة . . كان يجب إن يقاتل كل واحد منكم فيها . . بجانب حقهم .

نحن شعب مسالم ، محب للأمن والقانون والنظام ، وليس له تاريخ في المذابح ولا شهوة له في سفك الدماء وإيقاظ الفتن ، وهو ليس شعب بارود ! يتعايش بين أفراده ومع غيره على المودة والسلام . وقد صبر طوال إحدى عشرة سنة . . على ما لا يمكن أن يصبر عليه بشر . وإذا كانت سفاراتكم هي عيونكم وآذانكم في بلادنا فلا بد أنها تنقل إليكم ما لا يخطر على عقل بشر ، ولا بد أنكم ترون مواطنينا الآن في بلادكم زائغي الأبصار ، موجفي القلوب . . على سيماهُم مسحة الخجل ، وقد هجروا أرضهم الشاسعة ، التي تنبت من كل سنبلة مائة حبة ، وعصبوا وجوههم

يؤدون أعمالا غير منتجة، لم يتعودوها ولم يضطرهم لها إلا الجوع والمذلة و "المؤمن مرآة أخيه" والعربي سِتر لعِرض العربي، والمسلم . . مَنْ إذا رأى منكرا قاومه بكل الوسائل .

إن فلسا واحدا من المال الذي أنفقتموه في السودان، لم يذهب لإصلاح حال أي سوداني أو سودانية، ولكنه ساعد على تدهور الاقتصاد، وانحلال الأخلاق وفقدان الشرف والأمانة والصدق . صفات . . اشتهر بها شعبنا الفقير، وهي كل رأسماله وأنتم تعلمون! وقد ساعد على خلق طبقة لا تتعدى . . المئات، غريبة على مجتمعنا دخيلة على شعبنا، مريضة في أخلاقها وقيمها وممارساتها، وهو لم يصنع تنمية اقتصادية أو اجتماعية . . فلم يُشبع جائعا ولم يعلِّم جاهلا، ولم يعالج مريضا ولم يُقِم زراعة أو يقدم صناعة، وبالتالي فليس مقابله أجر من الله . . ولا شكر من الناس، وهو لا يزيدنا إلاّ سفها وتواكلا ورشوة وفسادا . . وهذا كل حصاده ومردوده . والأولَى إن تمسكوه عنا، وتمتِّعوا به شعبا سوانا، حتى يخدم أغراضا خيرة ونافعة داخل أقطاركم، أو في أقطار أخرى - حتى غير عربية - يستخدم حكامها المال المجلوب، في أمانة . . لتقدم وتنمية ورفاهية شعوبهم . وهي صفات يفتقدها حكامنا كلية وتعمدا واستهتارا .

لقد بلغت الحال في بلادنا أن أصبح كل شيء يباع ويُشترى، حتى الشرف والضمائر وتأشيرات الدخول لبلادكم! فأي درَك تريدوننا أن نهوِي إليه بعد ذلك؟ فإن لم تتقوا الله فينا، أفلا تتقونه في أنفسكم؟ وأن لم تقفوا مع شعبنا . . ألا تقفون على الحياد؟ وإن لم تتحمسوا لقضيتنا الوطنية، ألا تنفعلون بقضيتكم القومية؟ وإن لم تهتموا بأموالنا ألا تحافظون على أموالكم؟

كل الذي أخشاه . . هو إن تحسبوا هذا حبرا يراق على ورق! وغدا إذا أُريق شيء آخر غير الحبر، وعلى غير الورق، فَلاَتَ ساعة مَنْدَم! وإذا كان منكم من يعتقد أن نميري حزام للأمن . . فليعلم أنه حزام متفجر . . وإذا كان هناك من يعتقد أنه حارس لبحر المنطقة وبرها، فهو حارس غافل وهش . . وإذا كان هناك من يعتقد أنه درع

واق ضد الإلحاد والشيوعية والثورات، فهو أول من يفتح لها الأبواب واسعة وعلى مصاريعها ، وينير لها الطريق ، ويمهد لها المسالك ، ويرحِّب بها في الداخل .

* وأخيراً وآخرا : فمن القلب يقطر دماً . . ومن الأعصاب تتمزق حسرة . . ومن الروح تتساقط حشرجة . . نصرخ عاليا - إذا كان هناك من يسمع الصراخ أيها الأشقاء - أرفعوا أيديكم عن بلادنا .

مجلة " الدستور" : ١٧ - ٢٣ / ٣/ ١٩٨٠م

سنكسر الحلقة الأضعف

يسود بلادنا هذه الأيام هدوء يختلف الناس في تفسيره ، فهناك من يعتقد أنه هدوء طبيعي ، وهو دلالة بارزة على استقرار السُلطة ، وعلى قوتها ... وعلى تغلبها على جميع مشاكلها ، وإنها قد كشَّرت عن أنيابها ، فأخافت وخوَّفت وطوَّعت فانكمشت المعارضة وانزوت . . تلعق خوفها . وهناك من يعتقد أنه هدوء غريب . . وهو الذي يسبق العاصفة . ولندع الناس يتجادلون في نوعية هذا الهدوء ، حتى يُظهِر وحده نفسه وعند ذلك سيعلَمه العالم . . ويكشف نفسه . . أي هدوء كان !

ولكن المتتبعين للعلاقات السياسية وللظواهر السياسية ، التي تطفو على السطح يعتقدون بوجود مؤامرة كبرى من الاستعمار ، تبتدئ من البوسفور . . عبورا بقناة السويس إلى السودان ، أدواتها القواعد البرية والبحرية ، وأهدافها استغلال أفريقيا وحريتها وديموقراطيتها ، بل إنسانية الأفريقي نفسه . والمؤامرة لا تستهدف أمن البحر الأحمر ، ليصبح قاعدة وممراً للاستعمار ومعبراً له . . . ولكن المؤامرة تريد إن تجعل من البحر الأحمر بحيرة حمراء ، وإن هناك مَن يريد أن يسيطر على مداخله ومخارجه ، فتهدد المحيط حتى تصبح السيطرة على الهندي ومضائقه مكتملة . . وملْكاً خالصاً للاستعمار قوات الانتشار السريع . . منابع النفط العربي . وإن المؤامرة تمهِّد لما يُسمَّى بدول " حوض وادي النيل " ، لتجفيف المستنقعات والأنهار ، وتوسيع مجرى النيل الأبيض . . حتى يستوعب هذه المياه ، دافعا لها إلى الوسط ـ وسط النهر من جنوبه إلى شماله ـ حتى تستطيع أن تروي صحراء النقب وتروي إسرائيل ، فتحقق بذلك أسطورة إسرائيل " ما بين النيل والفرات " ، وتتيح لها التحكم السياسي والعسكري والاقتصادي ، في السودان وفي المنطقة العربية والأفريقية .

يجري كل ذلك في منطقتنا ، وفي بلادنا ، فالجيوش تُحشَد ، والأساطيل تُحصر والطائرات تجوب الأجواء . . طائرات حربية مقاتلة وقاذفة ، وطائرات استكشاف وطائرات تجسس ، وخُطط الغزو تُعَد . . ويشترك فيها دهاقنة السياسة والعسكريون

الأمريكان، والإسرائيليون والمصريون . . . وأذيالهم وأذنابهم من السودانيين . .

فالسودان أصبح مستعمرة ليس لها رأي، والنميري أصبح والياً لخديوي مصر بلاده محتلة، وأمنه يقوم به الأجانب، والقرار السياسي ليس له علاقة بأي سلطة سودانية. النميري ارتمى واحتمى نهائيا بمصر وإسرائيل، ومحاولاته لما يسميه بالتضامن العربي . . مجرد غطاء. مظاهر الهدوء المريب هذه، تتجلى في استعداد خفِي، وحشدٌ للجيوش والأساطيل، وإعداد المخطَّط والحصار الخفي والظاهر لعدد من الدول.

كل هذا . . جزء من الهدوء المريب الذي يتساءل الناس عنه ويتوجسون منه ويعتقدون أنه ليس هدوءاً حقيقياً، فثمَّة أحداث تمَّت في المرحلة الأخيرة، هي مؤشر واضح لهذه السياسات . . وإرهاص أشد وضوحا لها:

أولاً: الهجوم على المفاعل الذري العراقي، والتعاون الاستعماري فيه . . والذي لم يكن ليتم بدونه.

ثانياً: الحصار المضروب على الجماهيرية، واستمرار حشد الجيوش على أراضيها وحصار الأساطيل لشواطئها الطويلة.

ثالثاً: القصف المستمر للمقاومة الفلسطينية، وذلك لإبادة الشعب الفسطيني وإخراجه من آخر معاقله.

رابعاً: تقسيم لبنان . . . وإقامة الدولة المارونية.

خامساً: بلْقَنَة السودان . . . وجعله مستودعا وقاعدة لهذه الخطة.

هذه هي مسببات ومؤشرات الهدوء . . الهدوء المريب الذي نرقبه ونراقبه ونستغربه ونستعد له . . لا نريد أن نردد الشعار الذائع الذي يقول: إنه الهدوء الذي يسبق العاصفة، فإن العاصفة في بلادنا تملأ الأفق . . ولا نريد إن نقول: إنه هدوء البركان الذي سينفجر يوما ما، فيرسل شواظ اللهب، وسعير النار. فإن هذا البركان يزمجر منذ أمد، ومن لا يستمع إلى زمجرته أصم لا يسمع، أو جاهل لا يعِي، ومن لا يرقُب ارتفاع زمجرته . . قد يكون من الذين يضعون أصابعهم في آذانهم ويغلقون

أبصارهم ، ويقفلون أفكارهم ! فارتفاع زمجرته لا يحتاج إلى علماء في الجيولوجيا لرصده ومتابعته .

إن أمتنا العربية بأكملها ، وأمتنا الأفريقية ، تمران بمرحلة حاسمة تاريخياً ، وإن أصوات الأعداء تدوي من حولها ، ومؤامراتهم تتكاثر وتعشش ، وتفرخ وتتوالد في كل مكان . نحن نعلم أن بلادنا قد أُجبِرت لكي تكون قلبا لهذه المؤامرة ، وأن شعبنا قد يساق لكي يكون أداة لها ، وإننا لن نكن ممراً فقط ، بل مقراً ومنبعاً ومركزاً لها .

لقد تقرر تآمر النميري والسادات - ليس في اتفاقية دفاع مشترك فقط ! بل - في حلف سرمدي استعماري ضد الأمة العربية والأفريقية . ولقد تعزز هذا الحلف بانضمام إسرائيل له ، وبرعاية ودعم ومساندة الولايات المتحدة الأمريكية ، ولقد أصبح الصراع في بلادنا بين قوى الخير والشر دولياً . وأحد أطرافه الأساسية إحدى القوى العظمى ، ونحن نعلم ذلك . . ونعدُّ له ما استطعنا - وهو ليس بقليل - وفي مصلحة صلابة شعبنا وشراسته ووطنيته وقوميته . . وحركتنا الوطنية الآن - في الداخل والخارج - في مراحل الإعداد والاستعداد الأخيرة ، ولذلك تتجمع حولها قوى الأعداء كلها . . تهدد بالاغتيال والاعتقال ، والشتائم والشائعات والأباطيل ومحاولات الافتراء وشراء الذمم ورشوة الشرفاء ، وكل أساليب الغدر والخديعة والدسيسة ، التي يبذرها الاستعمار وعملاؤه وأعوانه .

ولذلك . . فعلينا وعلى شعبنا ، إن نتحلَّى بكل اليقظة والحيطة والحذر ؛ وبكل مدخرات ومكونات الشجاعة والمصابرة والشراسة . . وألاَّ نجعل لهم منافذ بين صفوفنا ولا مركزاً في كياننا ، وألاَّ تخوننا الشجاعة والصبر ، وأن نقف كلنا صفوفا متراصة موحدة ، منسقة وواعية لكل محاولات الاستعمار هذه ، وإن نقهرها بقوة شعبنا وصدق إرادته ، وسلامة حسه السياسي والفطري .

ولْنعلَم . . إنهم قد يفجرون المعركة في أي لحظة ، ولكننا ومع وجوب استعدادنا لها ، يجب ألاَّ نترك لهم توقيت زمان ومكان المعركة . يجب أن نعض بالنواجذ على تحالفنا ، وعلى تنسيقنا مع القوى المعارضة الأخرى ، وألاَّ نترك لهم ثغرة ينفذون منها

لقوى المعارضة الشعبية ، ويجب أن نعلَم إن معركتنا أصبحت مشتركة . . محلياً وإقليمياً وعالمياً ، وأن نعيد قياساتنا على هذا الأساس ، وإن نحسب موازين قوتنا على هذا المستوى ، حتى لا نُخدع فنتواكل ونُهزَم .

ولْنعلَم . . أن وحدة المعارضة هي ركيزة أساسية في كسب المعركة ، ومواجهة الأعداء ؛ وبالتالي . . فإن وحدة حزبنا بكل فصائله وكل أجياله ، هي ركيزة الركائز في المعارضة الشعبية ، فيجب إن نحافظ عليها وإن نجنِّبها المنازعات الهامشية والحساسيات ، وأن نسمو بها فوق كل هذه الصغائر . .

فهناك مرحلة في التاريخ . . يجب أن تسمو فيها الوطنية وتعلو ولا يُعلى عليها وإن توضع محل الاعتبار الأول ، مهما كانت الجروح الغائرة والجديدة ، فالوطن والتراب . . فوق كل شيء ، وهذا هو موقف الوطنيين الأحرار . . وسبيل المجاهدين وقدَرهم .

ونحن من موقعنا النضالي هذا ، ولاتّساع رقعة المعركة ، وشمول دائرتها . . لابد من أن نقوِّي ونصعِّد علاقاتنا النضالية مع المقاومة الفسلطينية ، والحركة الشعبية اللبنانية ، والمعارضة المصرية . . فتلك هي قواعد وأهداف المعركة ، ومراكز الثِّقل في الهجمة الاستعمارية الشرسة . . ونعلَم دائما بأهمية دورنا في الصراع المصيري والتاريخي . وما هي أكبر الخدمة التي نؤديها لأمتنا العربية ، ضد قُوَى التحالف الاستعماري ! إذا نحن كسرنا حلقة النظام المتآكلة المتهاوية ، التي لجأت إلى القمع والإرهاب ، وتعددت أساليبها الوحشية ، وزادت ضراوتها بتحالفها مع قُوى الردع المصرية والإسرائيلية والأميركية .

ومع ذلك . . فإن شعبنا ينتفض ـ وبكل الشجاعة ـ في كل أرجاء السودان ، خاصة في جنوبه الذي أصبح ميدانا للعمليات الحربية السافرة ، حيث رفض قائد القوات فيه إن يسلِّم سلطاته وجنوده وأسلحته ، مخالفا أوامر النميري وقائده العام . فالمجاعة تفتك بشعبنا في الجنوب ، حيث السلب والنهب يسيطران . . ولكن إخواننا الجنوبيين يجابهون كل ذلك بكل الشجاعة والصبر ، وقد أُغلِقت المدارس وعلى رأسها جامعة

جوبا ، والمدارس العليا والعامة في الجنوب ، وتوقفت كل وسائل المواصلات وانعدمت السلع ، والقليل منها ارتفع سعره إلى درجات خيالية لا تُصَدَّق .

لقد ازدادت قوى المعارضة في الشمال والجنوب ، وازداد تضافرها ، وقد عقدنا العزم على الوقوف صفاً واحداً ضد هذا النظام وعملائه . إلى إن يُطاح به تماماً . وهذه ظاهرة صحية ووطنية ، تتم بمثل هذا الإجماع . . لأول مرة في تاريخ السودان .

إن على جماهير الشعب السوداني ، إن توالي نضالها ، وإن تقوِّي كل فصائلها ووحدتها وتنسيقها ، وستجعل من شعب السودان . . حاجزاً منيعاً في وجه مؤامرات الاستعمار ومخططاته ؛ ولْترتفع - وإلى الأبد - رايات الحرية والديموقراطية في بلادنا ولتكلَّل دائما هامات شعبنا بالعزة والكرامة . ولتكن حتمية النصر لقوى التقدم والتحرر . . ولْتُلازم الهزيمة والعار - وإلى الأبد - الاستعمار وسدنته وعملاءه وأدواته ولْترتفع دائما عالية وخفاقة . . رايات التقدم والحرية والاشتراكية ، ولْتُنكَّس - وإلى الأبد - هامات الاستعمار وراياته .

لندن - ١٩٨١م

نظام النميري
من الشيوعية إلى الامبريالية

إذا تتبعنا في هذا المقال ، الملامح العامة لسياسة السودان الخارجية ، وبطريقة هادئة لرصد الوقائع والاستقراء ، لنعلن للعالم وللإخوة الأشقاء في المنطقة العربية ، أننا لم نفاجأ بدعوته لأمريكا لإنشاء القواعد في السودان ، لا نكون أبدا قد تجاوزنا الحقيقة ولا نكون في نفس اللحظة قد بالغنا في الأمر من أجل مناورة سياسية محدودة النتائج .

فالسياسة الخارجية . . هي عِلم إدارة رؤى مختلفة ، ومصالح مختلفة ، وهدفها العام هو - في وقت أصبحت فيه مصالح القوى الأعظم متشعبة ومتشابكة ، مع المصالح الإقليمية (الوطنية أو القومية) بطريقة تصبح الألوان فيها متداخلة - هدفها تجنُّب الصِّدام إلاَّ في حالات الضرورة القصوى والحتمية . . وتحقيق الأمن الاقتصادي والقومي - عن طريق صنع موازين للقوى وللعلاقات - تحصل على أقصى ما تستطيع الحصول عليه ، بأقل ما يمكن إن تعطي في مقابله ، مع المواءمة بين المطلوب والممكن .

ولكن النظم التي تستطيع تحقيق ذلك . . هي التي ترتكز على قواعد شعبية تكون استراتيجيتها السياسية ، هي : نتائج التفاعلات الاجتماعية والتطورات السياسية عبر عقود من الزمان ، تشكِّل مفهوم الرؤية السياسية للقيادة ، النابعة والمنتخبة من وسطها مع إعطاء الحق للقيادة باتخاذ ما تراه مناسبا من الخطوات التكتيكية ، دون المساس بالاستراتيجية والمعتَقد .

ولِنُسمِّي الأشياء بأسمائها الآن . . دعنا نقول إن القوى الأعظم ، ذات المصالح المتشعبة والمتداخلة في المنطقة ، هي الولايات المتحدة - بحكم مصالح الطاقة وخطوط نقل النفط - والاتحاد السوفيتي (بحكم القرب الجغرافي والحلم القديم - منذ أيام القياصرة - بالوصول للمياه الدافئة جنوبا ، وتطويق النفوذ الأمريكي في المنطقة) بحكم ما جدَّ على السياسة الدولية من متغيرات في العِقد الأخير ، إضافة إلى أن

الاتحاد السوفيتي نفسه ، سيكون مستوردا للنفط قبل عام ١٩٨٥ . . إذا مضى استهلاكه للطاقة بنفس المعدل الحالي ، ولم يستطع تطوير موارده في سيبيريا . . .

لذا . . أكدنا مرارا ، أن علاقة صحية ومتوازنة ومستقلة ، هي ضرورة حتمية للأمن الوطني والقومي مع المعسكرين ، وأنها في نفس الوقت ، ضرورة قصوى للإسراع بخطط التنمية في المنطقة . . وبالأخص في السودان ، حيث الموارد مازالت محدودة .

ومن واقع التطبيق العملي لمثل هذه السياسة ، قد نجد أن نقاط الخلاف قد تتسع مع أحد المعسكرات ، أوأن هنالك نقاطاً لأسباب خلاف محتملة معه ، وهي خلافات تصنعها اختلافات الرؤى ، واختلاف المصالح ، واختلاف مقاييس الأمن ، وليس فيما ذُكر تناقض . . فرؤيانا الوطنية أو القومية ـ السياسية منها والاجتماعية ـ لها منطقها المستقل . وقد نجد رقعة اتفاق ، أو منطقة خلاف ، مع هذا المعسكر أو ذاك لأن نطاق الأمن العربي ـ والسودان جزء منه لا يتجزأ ، بل واقع (بحكم موقعه الجغرافي) داخل خطوط الدائرة الوردية ، التي تشكِّل الحدود الفاصلة بين الدوائر الحمراء والبيضاء ـ له اعتباراته ، ولكن . . مجال هذه الاعتبارات محدد في دائرة مختلفة عن الدائرة الهائلة لأمن المعسكرات الكبرى أو القوى الأعظم . وإن تقاطعت مثل هذه الدوائر داخل نقطة أو نقاط ، قد يبقى الاختلاف قائما . . ولو من ناحية حجم الدائرة ومتطلبات الأمن الإقليمي ، ولكن إسقاط معسكر من الاعتبار على حساب معسكر آخر ، ليس من المصلحة القومية أو الوطنية في شيء ، كما أن إيجاد موطئ قدم لأحد المعسكرات في دولة ما ، يحتِّم على المعسكر الآخر . . إيجاد موضع قدم في الدولة الأخرى المجاورة ، خاصة إذا كان هذا الوجود هو نوع من الوجود العسكري المفضوح .

كان هذا هو رأينا في السياسة المتوازنة ، بين القوى الأعظم . . منذ أن كنا حزبا وطنيا مشاركا في حكم ائتلافي ، تختلف فيه الرؤية بيننا وبين شركائنا في الحكم وهو رأينا ونحن كحزب نقود المعارضة المنظَّمة في الخارج والداخل . . خلال العقد

الماضي ، ومنذ انقلاب مايو . وهو أيضا جزء من الاستراتيجية الواضحة المعالم . لمفاهيم الحزب ومعتقداته ، لا تتغير بالفعل وردة الفعل ، ولا تتغير بتغير الأشخاص في موقع صنع القرار . . في القيادة أو ما نواجهه من تهديد !

ولْنعُد الآن . . لنرى هل كانت سياسة نظام النميري في السودان، تمليها مثل هذه الاعتبارات من العوامل: الاجتماعية والاقتصادية والظروف الجيوسياسية . . ومتغيراتها الأخرى ؟ أم أن هنالك دوافع غير التي ذكرت ؟

فالشيء المفهوم - دون شرح - منذ بداية مرحلة ظهور (العسكريتاريا) على مسرح السياسة الدولية ، أنها لا تأتي معها بفكر واضح الرؤية ، ولا استراتيجية تكون التطورات السياسية والديموغرافية قد لعبت فيها أي دور ، بل والأدهى . . أنها تأتي وهي منكرِة للتاريخ تماما ، حيث إن التاريخ في مفهومهم يبدأ حين قفزوا هم للسلطة أو بمعنى أدق ، يوم اغتصابهم لها . .

لنتجاوز في هذا الحديث ، خلافاتنا مع هذا النظام ، في مفهومنا من حيث المعتقد المبدئي في :

*** الحريات العامة والشخصية . .**

*** وفي نظام الحزب الواحد . .**

*** وفي آلة القمع التي تحصي أنفاس الناس . .**

ناهيك عن عدم اعترافنا المبدئي بشرعيته . . لنرى أي فكر محدد ، وأي استراتيجية واضحة المعالم ، أتى بها هذا النظام . . فقد ظهر للوجود أحمر فاقع اللون بعد أن تعاون الجناح العسكري منه ، مع بعض قيادات حركة القوميين العرب والشيوعيين ، أملا في الدعم الشعبي ، مستنيرين - ربما - برأي ديستوفسكي في الأمر : " بأن الحركة الطليعية تقوم بانقلاب يظل كما هو . . يصبح حكومة شرعية ، إذا أمَّن لنفسه اعتراف الحكومات به . . ويصبح ثورة لها الحق في البقاء . . إذا ما أيدته الجماهير " .

وهكذا كانوا في سنينهم الأولى ، أكثر حُمرة من الكرملين ، يمنعون المؤمنين من

الاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف ، والذي صادف ذكرى ميلاد لينين ، ليذهب رئيسهم للحديث عن ذكرى قائد ثورة البلاشفة . . لم يكن هذا في رأينا إيمانا منهم أو اعتقاداً بالفكر الماركسي ، بل رأيناه في حينه تعلقاً من نظام غير شرعي ، يبحث عن الشرعية . . بركوب موجة الأحداث والصخب الإعلامي ، الذي كان مواكبا لها في السنين الأخيرة . . من العقد قبل الماضي ، خاصة بعد هزيمة حزيران والموقف من أميركا . ونسي النظام ، أن الشعب السوداني ؛ إسلامي المعتقَد، قومي النزعة؛ وأن التحالف غير المبني على أسس - بين الفكر القومي والأممي - مستحيل . . وكنا نرى - من اليوم الأول - أن أحد الأجنحة لا بد إن يصفي الجناح الآخر ، ولكن الضحية الكبرى ستكون البلاد . . وشعبها واقتصادها وأخلاقها . . التي كانت أكبر رأسمال لها .

وحصل ما توقعنا بالضبط . . بل وأكثر . . فالاتحاد السوفيتي - الذي يمثل الشيوعيين واجهة له ولمصالحه - كان يرى أن مثل هذه الأنظمة هشَّة ومهترئة ، خاصة إذا تُرك القرار فيها لفرد ، إذ لابد من دعمها بجهاز كامل . . حزب طليعي . . ومنظمات . . وكتائب شباب . . وقيادة جماعية من الرفاق . . وتكثيف وجود لهم أنفسهم (أي السوفيت) بمختلف العُقد الاقتصادية والعسكرية ، إذ لهم - في انهيار نظام سوكارنو ونكروما وأخيرا عبد الناصر بعد ذهابهم - خير برهان وخير تجربة .

لكن رئيس النظام العسكري في السودان - الذي لا يهمه من كل هذا الأمر . . غير وجوده هو . . الفعلي على رأس السلطة ، ونفر قليل من مستشاريه وحاشيته المستفيدة من وجوده في قمة الهرم - لعب (وبذكاء شديد) على التناقض العقائدي بين حلفائه الذين حملوه على أكتافهم للسلطة ، من القوميين والشيوعيين ، وضرب أحدهما بالآخر . وأخيرا تخلص من كليهما . . بعد مضي ثلاث سنوات فقط على انقلابه ، وذاك بعد أن استفاد منهما في ضرب الأنصار - القوة الكبيرة المؤثرة - في جزيرة أبا ، وفي إحراق المؤمنين ، وهم يؤدون الصلاة داخل جامع ودنوباوي بأم درمان ، بعد أن اقتحمته المدرعات .

إذا لم يكن ركوب الموجة الذي أشرنا إليه ، هو إيمان بمصالح الطبقة العاملة وجموع

البروليتاريا - إذا جاز لنا استعارة الأسلوب من دعاة الفكر الماركسي ، بل تأكيدا لرأينا في رأس النظام منذ يومه الأول - بأنه لا يؤمن إلاَّ بالنظام الأتوقراطي ، الذي لا صوت فيه إلاَّ صوته . . وفيما ذُكر دليل واضح ، أو ربما أدرك أنه - وبانحيازه التام لأحد المعسكرات - قد أدخل البلاد في دوائر صراع المصالح ، حيث تتصارع الأفيال . . ويموت من تحتها العشب . فتنكَّر لما كان ينادي به ، وألغى كل قوانين التأميم والمصادرة .

ولكن . . مثل هذا النظام الذي لا يؤمن بالشعب - إذ لا سند له ولا سلطة - يعتقد أن وجوده وبقاءه ، مرهون بمساندة إحدى الدول الكبرى . . أو أحد المعسكرين له . فحاول إضفاء مسحة الاقتصاد الحر على نظامه - متجاهلا مقومات الاقتصاد الحر الأخرى - كالحريات العامة التي تؤمِّن الرقابة الشعبية ، ضد الفساد والرشوة والنمو الطفيلي للرأسمالية الحديثة . وهذا ما كان . . وهجر البلاد أبناؤها وكوادرها المدربة بمئات الآلاف ، وغرقت البلاد في أوحال سياستها الاقتصادية المجهولة الهوية والمبدأ ونسي في نفس اللحظة ، أن الغرب لم يستطع إنقاذ الحكم الأوتوقراطي ذي الميول الغربية : في نيكاراغوا ، وفي إيران ، رغم قرب الأولى منه جغرافيا . . وثراء الثانية .

إذا . . ما هو السبيل لإطالة عمر نظامه المتداعي ؟ المعادلة كانت بالنسبة إليه صعبة فأمنه الاقتصادي مرتبط بدول النفط الغنية ، في المنطقة العربية . . وأمنه السياسي والعسكري مرتبط بجاره من الشمال . . نظام السادات . والقاسم المشترك هو : أن نظامه يُعتبر السد الأخير ضد الإلحاد والمد الأحمر - أو هكذا يدَّعي - رغم إن معارضة نظامه يقودها حزبنا ، الذي لم يُعرف بالتطرف اليساري في سياسته الاقتصادية . . منذ نشأته قبل أربعين سنة ، ولا بالتشكك في معتقده الديني .

وكان يمكنه اللعب على هذين الحبلين مدة أطول . . لولا أن أولويات القضايا العربية ، قادت إلى انعقاد مؤتمر قرارات الحد الأدنى في بغداد ، بعد زيارة السادات للقدس ، فاختار الحل الوسط . . فالتفاضل بين أمنه الاقتصادي وأمنه السياسي

والعسكري ، أمران . . كلاهما مرُ .

فأرسل وفداً لا يرقى لمؤتمر قمة . . كان على رأسه : السفير محمد ميرغني - سفير السودان بالقاهرة - وقتها . فمحمد ميرغني : ضابط شرطة سابق معادٍ للحركة الوطنية ومعروف بارتباطه بالمخابرات المصرية ، وبها كان عيناً لمصر في المؤتمر . وفي هذا إرضاء للسادات ، إضافة إلى أن وجود حتى مثل هذا الوفد ، يجنِّب السودان المقاطعة الاقتصادية من دول النفط الغنية ، والتي يعتمد عليها في حقن اقتصاده وإنعاشه بالقروض والهِبات ، لإسكات الجماهير . . التي يدفعها الجوع والعري والمرض للثورة على النظام .

وتفهَّم الأشقاء موقف النظام الصعب ، واكتفوا منه بذلك ، بعد إن أوهمهم بأن أمنه مُهدَّد من جهات خارجية ، كان يعني به أثيوبيا المدعومة من السوفيت ، متناسيا أنها متورطة مع الصومال في جبهة أوغادين ، ومتورطة ضد الثورة الإرترية في حرب تحرير شعبية في العمق ، ولا مقدرة للجيش الإثيوبي بفتح جبهة ثالثة . . لا مصلحة له فيها أساسا . ونحن حزب ليبرالي يقود المعارضة ، وموجودون داخل البلاد في الطبقة الوسطى . . والمثقفين والعمال والزراع والرُحَّل والرعاة .

وبدأت مرحلة جديدة من التخبط في السياسة الخارجية ، خاصة بعد اتفاقية (كامب ديفيد) . . إذ كان رئيس النظام في أميركا ، وسئل في مؤتمر صحفي عن رأيه في الاتفاقية الثنائية ، فرد بأن : "لديه نظام له قنواته وأجهزته" . . التي أحال لها الأمر للدارسة ، وذلك لأنه أراد إن يظهر للأمريكان . . بمظهر النظام الليبرالي المتمدن واجتمع مكتبه وهيئته السياسية وقرروا رفض الاتفاقية .

ولكن . . . بعد مروره على الاسكندرية ، وتهديد السادات المعروف له ، لعق حديثه في أمريكا وأعلن تأييده للاتفاقية . . معلناً أن قرارات مكتبه السياسي - ولجنته المركزية - "غير ملُزمة " له ، ولكنه أعلن ذلك بطريقة النفي والتأييد ، وبطريقة جعلت أغلب سفرائه بالخارج ، لا يستطيعون الإدلاء بتصريح ، لغموض موقفه وعدم وضوحه . . والسبب فيما ذُكر ، واضح : لأن بقاءه في السلطة ، فوق اعتبار القضايا

المصيرية القومية؛ لأنه لا يملك السند الشعبي . . ولا مقومات المعتقَد الإستراتيجي لاتخاذ المواقف الواضحة .

وبعد مرور وقت ، فهم أغلب الأشقاء . . إن هذا النظام لا موقف له أبداً . فقطع عنه القطر العراقي الشقيق إمداد النفط ، وتعثرت اتفاقية النفط في نهاية السنة الماضية مع الشقيقة السعودية . وبدأت بقية دول النفط الغنية الأخرى، في مراجعة مواقفها منه ، بعد أن أعلنت أكثر من جهة مالية ـ دولية أو إقليمية ـ أن السودان . . أصبح بفضل سوء الإدارة والفساد وسوء التخطيط ، مقبرة للقروض المالية والمساعدات .

بل إن نظاماً كهذا ، هو أكبر عامل مساعد لأي مغامر أحمر مغمور، للقفز على السلطة بانقلاب عسكري ، ليجد القبول من الناس الذين ضاقت بهم الحال . إذا كيف السبيل للعبة جديدة . . يطيل بها عمر نظامه المتداعي ؟

كان لابد له من تخطي حتى أولئك الذين وقفوا معه ، طوال السنوات الخمس الأخيرة ! فصداقته مع المملكة العربية السعودية الشقيقة ، لم تكن نتاج مبدأ . . أو إيمان بسياسة التنسيق مع الأشقاء ، في قضايا الأمن القومي أو الإقليمي . فالمملكة العربية السعودية ـ رغم صداقتها للغرب ـ تعرف جيداً أين تنتهي حدود سيادتها الوطنية لذلك وقفت بشدة ضد أي وجود أجنبي في أراضيها ؛ لأنه يقود لوجود أجنبي مضاد ومجاور .

فاستغل النميري حوادث تشاد التي فرضت نفسها . . ووجود إدارة أمريكية متشددة تجاه المعسكر الآخر . فكان لابد من إن يقدِّم تمثيلية الانقلاب الأخيرة ، والتي جاءت سيئة في إخراجها . . ليقدم الدعوة للوجود الأمريكي المفضوح ، في شكل قواعد وعمليات مشتركة ، أملاً منه في إن يطيل هذا في عُمُر حكمه ـ سنة أو سنتين ـ ليقدِّم فصلاً آخر بعد ذلك ، بموجب ما يطرأ على الساحة الإقليمية أو الدولية من متغيرات .

لقد كنا على علم بذلك . . ومنذ بداية ديسمبر الماضي ، كنا نعلم إن النظام يبحث له عن مخرَج وعن سند . . حتى ولو كان هذا السند في شكل قواعد عسكرية :

- بدأ التمهيد لذلك . . بالضجيج الإعلامي بعد حوادث تشاد الأخيرة

- وبعد زيارته السِّرية للسادات في أسوان . . قبل شهر

* وبعد تصريحات إسماعيل فهمي في مجلة " المجلة " - وقد كنا نعتبره أكثر المسؤولين المصريين اتزانا في الرأي وتحرراً - حين أعلن بأن حدود أمن مصر ، تمتد إلى ما وراء حدودها السياسية ! وكأنه أراد بذلك . . إعطاء المبرر للكيان الصهيوني للاحتفاظ بالضفة الغربية ، وشرم الشيخ ، والجولان . . كحدود أمن . . كما يدّعي قادته !

وتوَّجَها بإعلان إحباط محاولة انقلاب ، على رأسه العميد (م) سعد بحر . . وبدعم من سوريا والاتحاد السوفيتي ! والذين يعرفون سعد بحر ، يعرفون أنه لم يكن في يوم من الأيام ، يساري النزعة أو شيوعي المعتقَد . ولكن كان لا بد من ذلك إن أراد إن يرعب الإدارة الأمريكية الجديدة . . بأن السودان سيسقط ضمن الدائرة السوفيتية ، إن لم يهبُّوا لنجدته .

ولكن . . هل النميري مؤمن بنظام الاقتصاد الحر فعلاً ؟ فالحزب الذي يقود هذه المعارضة المنظَّمة . . ضد نظامه ، هو : حزب يؤمن بالديموقراطية الليبرالية وتعدد الأحزاب . وهو حزب يؤمن بالحريات الأساسية . . حسب مبدأ " مونرو " وحقوق الإنسان ، بموجب وثيقة جنيف ، بل كلاهما جزء من دستوره . وهو حزب لا يُسقِط من اعتباراته معسكراً على حساب معسكر آخر ، ويعرف كيف يحفظ مثل هذه السياسة القائمة على الحياد الإيجابي . . وعدم الانحياز . وسياستنا تجاه القوى العظمى ، يشكّلها ويحددها موقف هذه القوى ، من القضية المركزية . . وقضية الأرض السليبة .

فالسلاح الذي حارب به العرب في يونيو ١٩٦٧م ولم يُختبَر ، (والسلاح الذي حاربوا به في أكتوبر ١٩٧٣ ، وردُّوا به اعتبارهم ؛ قبل أن يفرغ السادات - بزيارته للقدس وما تبع ذلك - هذا من محتواه) . . هو سلاح سوفيتي ! وأميركا لن تسلّح العرب ، بطريقة يكون فيها هذا السلاح موجهاً ضد إسرائيل . . ولن تسلّح إسرائيل

إلاَّ بالطريقة التي يكون فيها هذا السلاح موجهاً ضد العرب . وهذا منطق تمليه ضرورات الإستراتيجية الدولية ، للقوى العظمى ودوائر النفوذ . . ولهذا أشرنا لتقاطع هذه الدوائر ، مع دوائر الأمن الوطني والقومي في أول الحديث . . وفي القضية المركزية . . لا نساوم ولا نهادن ، ولا نرضى بسياسة أنصاف الحلول .

وهو حزب قدَّم قبل مدة ـ وعبر أجهزة إعلامه وصحفه ـ بديله الاقتصادي لهذا النظام ، وهو بديل لا يحوي على مصادرة أو تأميم . . إلا ما تقتضيه الضرورة الوطنية ولا قيد فيه على التجارة الخارجية ، ولكنه ضد الاحتكار ، ويؤمن بدور القطاع الخاص . . والتنافس الحر ؛ ولكنه يحارب الرأسمالية غير الوطنية المرتبطة بالاستعمار الحديث .

وموقفنا من القضايا القومية . . واضح كما أشرنا إليه . . لأن الأرض تحت أقدامنا صلبة . . واستراتيجيتنا نابعة من قاعدة جماهيرية تتجاوز الخمسة ملايين مواطن ـ ورغم أننا قاطعنا الانتخابات الأخيرة لمجلس الشعب ، فقد استثنينا بعض الدوائر لنبرهن للنظام الحالي ، إننا وبعد مُضِي عَقد على عمره ، قادرون على هزيمته بالطرق الديموقراطية ، في مدني وفي نيالا وفي شرق النيل الأزرق ـ في وسط السودان ـ وفي إحدى دوائر الشكرية .

والإجابة على سؤالنا . . ليس لهذا النظام فلسفة أو معتقد . . فهو سلطوي وتظاهري ومتذبذب ونفعي . . في نفس اللحظة ؛ وليس له مواقف في قضايا الأمة ـ وليس له قاعدة يرتكز عليها ـ وستظل سياسته الخارجية باهتة لا لون لها ولا استقلالية فهو سيعيد علاقاته مع مصر ، ويعلن اسم سفيره في القاهرة . . ويدعو أميركا للتواجد في أرضه . وسيوعز لسفارته في جدة ، لتنفي ما أعلنه رئيس النظام ، وعلى مشهد من مندوبي وكالات الأنباء العالمية والعربية . . والمحلية . . وأعلنه في جدة فقط . . لأنه كان في حاجة ماسة لتدفع له السعودية القسط المستحَق ، من وحدة حقوق السحب الخاصة . . منذ ثلاثة أشهر ، في الوقت الذي يعِد فيه سفيره حقائبه للسفر للقاهرة ، وفي انتظار إعلان سفارته في تل أبيب . . فهو على استعداد للتعاون

مع إسرائيل . . ومع الشيطان ؛ طالما أن هذا سيطيل في عمر نظامه يوماً واحداً . .
ولنا في هذا الحديث عودة .

الدستور* ٥ / ٤/ ١٩٨١ م

نظام الخيانة والجوع والجنون

قبل سنوات . . كنا نصيح ونصرخ وننبه ونخاطب ، كل من في العالم ـ خاصة في المنطقة العربية والأفريقية وفي عالم عدم الانحياز ـ أن بلادنا قد أصبحت ميدانا للقوات الأجنبية المتعددة الجنسيات بكل أنماطها ونماذجها : قواعد جوية . . وقواعد عسكرية وقواعد صاروخية . . وقواعد بحرية . . تحمل الدمار والموت لشعبنا ، وكل جيراننا وكل الشعوب المحبة للحرية والسلام . . وكنا كأنما نصيح في واد سحيق لا حدود له وفي محيط عميق لا ساحل له ؛ والآخرون ينظرون إلينا ونحن نغوص في هذا الوحل وينسون ويتناسون ويكذّبوننا ـ وربما يضحكون علينا ـ ويظنون أننا إنما نثير الإشاعات ونذيع الأباطيل ، ونكيل الاتهامات . . لمجرد الخصومة مع النظام . . ولمجرد استعداء الآخرين عليه . ولم يأخذ أحد حقائقنا على أنها تنبيه حقيقي لشعب حر ، يخاف على ترابه وعلى إنسانه وعلى كل جيرانه .

وكانوا يستقبلون حكامنا ، الملطّخين بدم الخيانة لشعبهم وجيرانهم وكل الشعوب المحبة للسلام . . يستقبلونهم في هيئة الأمم المتحدة ، وجامعة الدول العربية ومؤتمرات عدم الانحياز ، بالترحاب الذي لا يستحقه الخونة والمنحازون للشر والدمار ـ ويعانقونهم ويحتضنونهم ـ ويزورونهم ويدعونهم لزيارتهم ، وهم . . إما يغمضون عيونهم تعمُّداً وهم يعلمون ، وإما يسبلون أجفانهم وهم لا يعلمون . . وهم لا ينظرون لمآسي شعبنا : العاري الجاهل المريض المسجون ، والمذبوح . . الممتلئة أرضه فجوراً وقهراً وانحلالاً وفساداً ، وحكماً متعفناً فاشياً قاتلاً فاجراً عميلاً . . وخائناً ـ تحكمه عشرات من طبقة فاسقة ـ وتجوع وتموت وتُعذّب وتهاجر منه الملايين . . ولا يعترفون أنه أصبح خطراً مدمراً ـ لا على شعبنا وحده ـ بل على كل الشعوب ! وأنه لم يعد بلداً مستقلاً ، بل أصبح مسرحاً للاستعمار المتعدد الجنسيات ، وميدانا لقواعد الموت والدمار لجيرانه ولكل شعوب المنطقة . . العربية والأفريقية ـ يهدد استقلالها وأمنها وشعوبها . بل أصبح مريضاً بكل الأمراض المزمنة والمعْدِية والخبيثة ـ لا تصيب

شعبه فقط ، بل تعبر حدوده الشاسعة وتصيب كل من حوله ، وكل من يعيش في هذا الجزء من العالم .

وبينما نحن نصيح ونصرخ ـ وليس من مغيث ولا مستجيب ـ إلاَّ وانطلق صوت النميري بنداء ودعوة . . بل ودعاء وشحاذة ، أمراً لم نسمع به ولم نقرأه عن حاكم طول حقب التاريخ ـ يردد نفس اتهاماتنا وكأنها فخر وشرف وعزة ـ ويستجدي إقامة القواعد بكل أصنافها ـ ويعرض ترابنا كله . . طواعية بلا ثمن . . وبالإيجار ـ ويطالب بالطائرات الأجنبية ـ والقواعد البحرية والصاروخية ـ والجنود الأجانب . . بل وبالقواعد الذرية وشبه الذرية ، على مرأى ومسمع من كل العالم . . وفي مؤتمر صحفي يجمع فيه كل المراسلين الأجانب والمحللين . . ويعلن ترحابه بكل هذا ـ مع إن هذا يجري والبعثات العسكرية : المصرية والألمانية والفرنسية والأمريكية ، تعمل منذ سنين . . والقواعد تُبنَى في سواكن ، والمطارات في الفاشر ودنقلا والجنينة ـ والأسلحة ترسانات تُستَلم ـ ليس لإخضاع شعبنا وحده ـ بل للاعتداء على كل الشعوب العربية والأفريقية !

وبعد هذا . . فنحن ننتظر ردود الفعل من كل هذه المؤسسات ، التي كانت تصمُ آذانها عن استغاثاتنا وتنبيهاتنا ـ أنكذبه . . بعد أن أعلن هو؟ أم سنبرئه . . بعد أن جهر بإدانته شخصياً . . ولكل العالم؟ وهل سنتركه . . يملأ مقعد السودان الذي كان يملأه زوراً وبطلانا ؛ في مؤسسات، كل حرف في مواثيقها يرفض هذه السياسات . . حتى لو كانت خبيئة ومسربَلة بستر المكياج وظلام الليل ؟ ما هو موقفها . . بعد أن أُعلِنَتْ ـ من حاكم ـ على العالم كله ـ بكل الصفاقة الوقحة والفجور والوضوح ـ الذي لا يقبل عذراً ولا تأجيلاً ولا تحليلاً ؟ هل ستحِلُّه الأسرة العالمية ، وعائلة عدم الانحياز ، ومنظمة الوحدة الأفريقية؟ ثم تُوهِم نفسها بأنها صادقة مع أهدافها! ملتزمة بمواثيقها! وقد أصبح موقفه في أمن العالم كله ، وسلامة شعوبه تماماً مثل إسرائيل . . وجنوب أفريقيا . . ثم تدعمه حكوماتها ويحتضنه حكامها ويزورونه ويزورهم . . ويساعدونه! وقد جهر بنفسه بعداوته للسلام العالمي ؛ وأصبحت أرضه مصدْراً للشر

ومنبعاً للإرهاب العالمي . . الواضح ، وليس المفتعل ولا المصطَنع!

لقد أوضح نميري علناً وعلانية وإعلامياً . . موقفه . ولم تكن هي المعارضة التي تتّهِم! ويُفسِّر صدقها وعلمها . . على أنها أباطيل معارضة ، وإشاعات خصوم وهواجس ومبالغات من منطلقات صراعات الحكم! نحن ننتظر قرارها وتصرفاتها لكي نحكم عليها وعلى مواثيقها : أهي مؤسسات كرتونية وهزلية ؟ أم هي مبادئ وأهداف ومُثل وقيم ، قامت من أجلها؟

أما نحن . . فلم نفاجأ بما قاله ـ فقد كنا نعلمه ونتابعه وندق أجراس الخطر للشعوب والمؤسسات ؛ ليس من أجلنا . . فنحن لا نستجدي حقيقة شعبنا ، فمداؤه أرواحنا ودماؤنا وشهداؤنا . . وليس مواثيق المؤسسات ـ ولا مسرحيات المهرجانات ـ ولا أحلاف الأنظمة ـ ومحالفات الحكام . . ننتظر ردها بمجرد الكلام والمواقف! لكي يعلمها العالم على حقيقتها ؛ ولكي تدق الشعوب آخر مسمار في نعشها ، مثل المأسوف على شبابها وشيبها المرحومة . . عصبة الأمم .

ومنذ مؤتمر الحد الأدنى في بغداد ، وما تبعه في تونس وفي عُمان ، كنا نؤكد وقوف النميري مع السادات ، نفس الموقف في الخزي . . نعلم أن علاقات السادات والنميري ليس طبيعية فقط ، بل هي متطابقة ومتجانسة ومتآمرة ، على القضية العربية ومرتكزها الأساسي في القضية الفلسطينية ، ويُطرَد ممثلها في الخرطوم . . بينما هي تفتح مكاتبها في أفريقيا ، وفي آسيا وأوروبا ، وفي دولة لا تربطها بالقضية إلاَّ المشاركة الإنسانية فقط! وليس علاقة العِرق والمستقبل والماضي والمصير ، والدم المسفوك ـ في سبيل الخلاص ـ ومقابر الشهداء المشتركة ؛ ومعارك الحضارة القومية ، التي لا يمكن أن يفكر في التفريط فيها أي عربي . . يدّعي الانتماء لهذه الأمة !

والآن . . فقد أعلن النميري التطبيع جهاراً ؛ وكان يمارسه . . وذلك في أحرج اللحظات التي تمر بها القضية ، لكي يفتح الطريق لكل متخاذل ومتهالك ومتآمر ولكي يدمر حتى الحد الأدنى الذي اتفق عليه العرب ، بعد لأي ومعاناة !

نحن ننتظر موقف الجامعة العربية وموقف الأنظمة : هل ستستمر ؟ نحن الذ...

بالمال والدفع والمعايشة؟ أم يكون قصاصا يقفل الطريق، ويجدد المسالك، ويحول دون أي تدنٍ في الموقف العربي؟ هل سيتدفق المال . . الذي كان ينهال وينهمر مدرارا لجيوب السماسرة؟ ويزيد ويضاعف من معاناة شعبنا؟ فلا يأكل منه جائع ولا يتعلم منه جاهل! ولا يشفى منه مريض؟ بل يذهب هدرا وسفاهة . . ويُستعمَل ضد الشعب السوداني والأمة العربية . . فنحن ننتظر موقف الأمة العربية و مؤسساتها ولن يطول الانتظار!

أما أسطورة أمن البحر الأحمر وسلامته، واعتباره ممرا آمنا لصِلات الشعوب وتجارتها وتنميتها، فلم يترك موقف نميري هذا وإعلانه سبيلا لذلك! بل فتح الطريق وبدأه للحرب الباردة وصراعات الدول الكبرى . . ومقدمات الحرب العالمية الثالثة التي ستقضي على الأخضر واليابس! وليس هناك في دِول العالم الثالث . . أخضر! فهي تموت بالمجاعات والقحط، وانعدام التنمية الاقتصادية، والعِري والجهل والمرض، قبل إن تموت ضحايا للحرب النووية . . وقذائف قواعدها!

وقد سقطت كل دواعي شعارات أمن البحر وسلامته، واستُبدلت بالقواعد الأجنبية والانحياز الصريح، والتحالف الواضح والإعلان الأوضح والجهل الأوقح أما دعاوي دول مجرى النيل وأمنها، فهي شعارات كاذبة ورايات مضلّلة، لا يمكن إن يصدقّها أغبى الأغبياء! وإن الذي يحدث الآن . . هو تحويل البحر الأحمر إلى بحيرة استعمارية، يتصاعد فيها الصراع ويشتد، مهددا الشعوب الآمنة المسالمة التي تعيش على شواطئه؛ وتجارتها الدولية وتنميتها الاقتصادية والاجتماعية وجعْلها وقودا للحرب الباردة اليوم، الساخنة غدا، وجعله ممرا مليئا بالألغام والبارود ومسرحا لصراع الدول الكبرى ومعبرًا لمطامعها، وممرا لمستودعات أدوات الدمار المكدسة فيها! وجعل مائه الأحمر دما أحمراً قانياً؛ وسواحله مستودعات للغواصات والمدمرات وحاملات الطائرات . . . ولن يخدع نميري - حتى نفسه - بالشعار الكاذب الذي صُنع له ولُقّنه، وعاش على ادعائه زمنا طويلا . ولن يجرؤ - مع كل الصفاقة المحلية والإقليمية والعالمية التي يتمتع ويتميز بها - أن يستتر بعد ذلك بهذا الشعار فلن

يصدِّق ذلك أحد بعد ذلك ـ إن كان يصدِّقه أحد قبل ذلك .

نميري يدعو الآن . . بالعدوان الواضح الجهور ، الدول الاستعمارية ، ويعطيها كل تراب شعب السودان ، لتسقط سيادته واستقلاله وقيم شعبه ، وتقيم فوق أرضه القواعد بكل أنوعها ، وفي أي وقت تشاء . . مجانا ؛ ولشراء الأرض أو إيجارها أو الاستيلاء عليها . وليس هناك أوضح من ذلك! ويدعو الجيوش الأجنبية ـ بأسلحتها ـ لكي تستولي على أرض السودان وشعبه ، ويستقبلها منذ مدة ؛ ويعطيها كل التسهيلات ـ وعلى مرأى ومسمع من كل العالم ـ وخبراؤها العسكريون والأمنيون يجوبون أرضها الشاسعة ! وهذه سياسته قالها بلسانه ، ونفذها بيده ! فهل هناك شك أو شبهة في هذا ؟ وما هو حكم العالم في هذا ؟

نميري يدعو لصراع الدول الكبرى ، والحرب الساخنة وليس الباردة . . علناً فهل هناك أي قول أو فعل متشابه ، يحتاج لبحث أو تحليل أو تطبيع ؟ نميري يجاهر . . وينفذ تطبيع العلاقات على رؤوس الأشهاد . كان ينفذه سراً ويكذب ويتظاهر ـ بطلانا وزيفاً ـ بغيره .

نميري يدعو لتنفيذ اتفاقية الدفاع المشترك مع السادات ؛ وهو ينفذها فعلاً . . فما هو الحكم عليه . . وقد نطق بلسانه وما هو الحكم على السكوت عليه بعد الآن . . بعد أن داس علناً على مقررات الحد الأدنى في بغداد . . وكان يدوسها خلسة! أيترك لكي يتبعه غيره ، فينهار حتى الحد الأدنى؟ وهناك من ينتظر مصيره ، بل ربما من قدَّمه طُعماً لكي يرى ولكي يتبع؟ فما هو موقف المؤتمر والمشاركون فيه . . والملتزمون بقراراته من هذا ، أيتركونه ينهار؟ وهو سينهار فعلاً . . إذا سكت على تصرف النميري هذا! فيتدنى كل الموقف وينهار ، "وكأننا يا بدر! لا رحنا ولا جينا" ! وما اجتمعنا وما قررنا! وتكون كل قراراتنا حبراً على ورق ؛ أو حبراً بلاورق! أو ورقاً بلا حبر! هل يرضي هذا . . الأمة العربية وكل حكامها ؟ أم هل سيواجهون بهذا . . هذه الأمة : تاريخها وأمجادها وحضارتها؟

وأين القدس وأين المسلمون . . وأين صلاح الدين ؟ أين نحن من الذين انتصروا

عندما وقفت ضدهم قوى الأرض مجتمعة؟ ومن هو المسلم الذي سيرضى بضياع أولى القبلتين وثالث الحرمين . . هكذا ؟ مذلة مثل طعنة السيف ، نزيفه يتزايد ووجعه يفور ، ومذلته تستمر كل ساعة في صدر كل مسلم وكل عربي . وهل استعادة المقدسات شعار؟ أم هي حقيقة ؟ وإذا كان حقيقة . . فما هو الموقف من الذين يقفون ضدها ؟ وهي سياسة قبل أن تكون قتالاً وحرباً ، لابد من النصر فيها . . حتى لو كان فوق أجساد كل العرب والمسلمين .

أين الردع العربي في المواقف . . قبل إن يكون في القتال ؟ إذا كان في المواقف سكوتاً وصمتاً ودعماً ! ولن يكون هناك استعادة للمقدسات ، وحرباً من أجل الدين والحضارة والقدس ! وقد يعتبرها كل المسلمين والعرب . . شعارات بغير محتوى ولا مضمون ولا إصرار! وكيف نبرهن للعالم أننا جادون في استعادة الأرض وفلسطين والقدس ؟ إذا كنا نسكت على مواقف مثل هذه ؟ نريد ردع المواقف قبل ردع المدافع ونميري يتعلل بوجود مؤامرات انقلابية ضده ، يحركها الروس وغيرهم . . ويتخذ من ذلك شكاة لمواقفه الاستسلامية الذيلية الخيانية . . في فلسطين ، وفي سياساته المؤيدة للاستعمار والقواعد والتسهيلات ، وبفتح أذرعه وترابنا الوطني واسعا يستقبل جيوش الأجانب ، ويستجدي بناء قواعدهم . وفي واقع الأمر . . قد ابتدأ بنيانها منذ أكثر من سنتين . في مطار بوادي سيدنا ، ٨١ طائرة أجنبية . . من طراز ميج ٢١ -٢٣ وسوخوي ، وفي حدوده الغربية في " كلبس " حشود أجنبية وأسلحة ومعدات للهجوم .

ومع ذلك . . فإن نميري ـ وعندما يرى أثر تصريحاته (وخصوصاً على الجهات التي تدعمه وتساعده وتحل أزماته) . . فسيحاول كعادته تغييرها ، بادعاء أنها حُرِّفت مع أنه قد قالها بنفسه وبلسانه ، أمام جميع ممثلي الصحف والإذاعات ووكالات الأنباء ، ونُشرت كلها وبجميع اللغات ، وأذيعت وفي جميع الإذاعات ، ولكنه معروف بالتراجع والتقهقر ، واتخاذ المواقف المختلفة لدى الجميع ـ لعله ـ يجمع بين [illegible] ويتظاهر على المائدتين ، ويرقص على الحبلين .

ولكن المواطنين والعرب والعالم كله ، قد عرف عنه هذا . وأنا واثق أنه قبل أن يُطبع كلامي هذا ، فسيحاول أن يتحايل ويتملَّص ، ويتخذ في كل مكان موقف ولكل بلد حديث ، ولكل حاكم أسطورة ولكل موقف كذبة . فلم يعد أحد ما - في أي قطر - يصدِّقه أو يثق فيه ! ولا أظن أن أحدا في بطانته ، أو من كتَّاب خطبه ، قد سمع بالمثل القائل : " إنك تستطيع أن تكذب على بعض الناس ، بعض الوقت لكنك لا تستطيع إن تكذب على كل الناس ، كل الوقت ! " وهذا هو [illegible] يوميا وسنويا وطوال حكمه .

ولو أدرك شخص ما أحاديث النميري وخطبه ومواقفه - منذ مايو ١٩٦٩م إلى يومنا هذا - لأخرج كوميديا لا مثيل لها في العالم ، ودراما لا تعادلها دراما ، ولرأى الشخصية المزدوجة والمواقف المزدوجة ؛ ولَرَوَى تاريخ أكذب و أغرب حاكم في الدنيا . . منذ أن عرف الناس الحكم والحكام! فهو يقول في الصباح ما ينكره في المساء؛ ويعيِّن في الليل من يعزله في النهار ، ويلعب بالسياسة : الاقتصادية والخارجية والداخلية ، كما يلعب الأطفال ، ويكذب في براءة الأطفال ، ثم يكرر الكذب في صفاقة الذئب ، ويتخلَّى عن من يعتقد أنه أخلص أصدقائه ، ويطرد أقرب وزرائه ، بعد أن يقابله ويمدحه ويكلمه عن المستقبل . ثم يأمر بتوقيت إذاعة طرده [illegible] حتى تأتي بين مقابلته و رجوع الوزير لبيته ، حتى تكون أشد أيلاما وإذلالا ؛ ويبذر الفُرقة بين أقرب مؤيديه . . حتى يمتنعوا عن مجرد تحية بعضهم ؛ [illegible] أصدقاء وظلوا أصدقاء إلى إن عملوا معه . وهو يصدر القرارات الجمهورية اعتباطا وارتجالا ثم يلغيها بعد ساعات ذعرا وجبنا .

الذي يهمنا ويهم العالم ، هو أنه قادر على صنع أي شيء . . حتى الخيانة [illegible] للوطن والأمة ، وقادر على الشِّرك والإلحاد ، وقادر على الشعوذة والدجل ، [illegible] على الصلاة [illegible] ، وقادر على العبرانية واليهودية والنصرانية [illegible] على أن [illegible] " [illegible] لماذا ؟ " كأنما المسلمون يتنكرون [illegible] لكي [illegible] ! كل الذي [illegible]

أصبح شيخاً لآخر قرية تبقى في السودان المتسع الأرجاء ، أو خفيرا لآخر مخزن خاوي . . إن وجد . كل الذي يحبه ويعبده ـ دون الله ـ هو الصولجان والاستعراض حتى في الفسق والفجور . فإذا رأى عرساً ، تمنَّى إن يكون العريس ، وإذا رأى نعشاً تمنَّى إن يكون الميت ، وإذا احتشد الناس حول قبر تمنَّى إن يكون المقبور ؛ وإذا رأى النار تحرق الخرطوم ـ يحلب ريقه ـ وتمنَّى إن يكون نيرون .

إن الذي لا يعرفه العالم . . هو أننا لا نحكم بالقهر والفقر والفساد ، والانحلال وانهيار الاقتصاد والإدارة ، بل نُحكم بانفصام الشخصية والجنون! "ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله" . .



الموقف في السودان

. قد يتهمنا الناس بالحماسة والانفعال ، ونحن نعارض النظام الحاكم في السودان ونحن نعتقد أن ما نكتبه يقلُّ كثيراً عن وصف النظام ورموزه ، بل ونعتقد أن مجرد الكتابة والخطابة لا تكفي . . لأن الموقف يقتضي ما هو أكثر ، (وبحق!) من مجرد الكتابة والخطابة . ونعتقد أن الانفعال والحماسة ، قد تجاوزهما الموقف في السودان وهو الآن في مرحلة التحرك بكل أشكاله وألوانه . . ومهما كانت تضحياته . وهنا وبلا حماسة ولا انفعال ولا غضب ، نحن نضع هذه الحقائق واضحة وه... ومعبِّرة وتعبيرها يقلُّ عن الحقيقة أمام حفنة من مدعي التعقل وأصحاب المصلحة الذين لا يجدون ما يردون به على كتاباتنا غير نصائح التَّمهُّل والتعقل وهم يعرفون أن كل ما نكتبه هو جزء من الحقيقة ، وأن الذي يحدث هو أبشع مما يكتب ويقال ويحدث .

ونضع ذلك أمام الأمة العربية ، وأمام كل مواطن عربي وأفريقي ، وكل نظام في المنطقة العربية والأفريقية ، وأمام كل ملتزم بالإنسانية والحرية وكرامة الفرد في العالم نصفُه بكل الموضوعية وبألفاظ بسيطة ؛ ونطلب من يغالط فيه - أو يرى فيه مبالغة - أن تكون لديه الشجاعة ليرد عليه بالحقائق والوثائق .

أولاً :

إن بلادنا ومنذ سنين تمر بأزمة اقتصادية طاحنة ، وبعدم توازن داخلي وخارجي في ميزانيتها ، وليس بها سلع إلاَّ ما تقرره طبقة السُّلطة ؛ وهو لا يكفي استهلاكم من شعبنا ، وإن أهلنا يعانون من : انعدام السلع ، وسيادة السوق السوداء ، وإن التضخم في بلادنا أرقامه تتصدر أرقام الدول الأخرى ، وإن النظام رفع يده عن مسؤولياته ، وترك الناس يتعاركون من أجل لقمة اليوم . . وامتلأ بديون لا يدفعها ولا يعرفها ، وإنه . . حتى تذاكر سفرنا لا تقبلها الشركات ، ولا صكوكنا تقبلها المصارف ؛ وإن إفلاسنا معلَن ومشْهَر ومعروف . . لكل مستورِد ومصدِّر ومصرف ومرابي ، وإننا نطبع ورق العملة لا يغطيه اقتصاد متوازن . . ولا ذهب ولا سندات

حن نطلقه بكميات رهيبة مقابل سلع معدومة ، وإننا من أفقر وأسوأ ثلاثة أقطار في ول العالم . . التي تفوق المائة وأربعين .

ثانياً :

إن مشاريعنا التي كانت تدر دخلاً على الحكومة ، قد أطاح بها سوء وعدم الأداء أمراض الرشوة ، فانتهى مشروع الجزيرة والمناقل ، والرهد والسوكي ، ومشاريع ... وخشم القربة وطوكر والقاش ، فإنتاجها اليوم هو قنطار واحد للفدان . . ... لم يحدث في كل تاريخنا ، وأسبابه كلها في النظام . كذلك انهارت مشاريع ... الآلية . . فنحن الآن ليس لدينا عيش ، وجواله الذي كان ثمنه جنيهاً أصبح ... وبذلك كل سلعة ـ لا يعرف حتى اسمها العالم المتحضر ـ ارتفعت أكثر من خمس عشرة مرة ، وضمن ذلك : السمسم والفول والصمغ ! ويبلغ ثمن زجاجة ... ، وكانت بعشرة قروش ، فنحن جوّعنا ، وأمامنا مجاعة أكبر ، ونحن ... ينا ، وإذا صدّرنا . . فالتهريب من عملاء الدولة ، وبالتالي فليس لنا دخل ... محاصيلنا ، التي ارتفع ثمنها عشرات المرات ، لا نجد منها ما نأكله ... أن نعرف أن إنتاج القطن في مصر ، أحد عشر قنطارا للفدان ، وفي بلادنا قنطارا واحد . . نستطيع أن نحكم ، وليست هذه هي السنة الأولى ، بل هو تدهور استمر عشر سنوات ، وكل أسبابه . . هي الحكومة ولا أحد غيرها .

ثالثا :

... مشاريع التنمية التي يقال عنها ، وينشر حولها ، لا وجود لها ، فقد سُرقت ... ء من مشروع تسمين الماشية ، إلى مشاريع السكر في كنانة ، وشمال غرب ... حجر عسلاية . . وكان المفروض أن تنتج منذ عدة سنوات ! وللآن لم تنتج ... احد ، أحضر لكي يفتتحها به نميري . . والآن كلها فاسدة ، وتكلفتها ... مرات ، وتزيد على ما هو مقدر لها . ومهندسوها ومستشاروها من ... بية ، عشرات الشركات . . كلها مختلفة ومتضاربة على العمولات

ومشروع منقلا للسكر . . سُرقت جهارا نهارا كل ماكيناته ، ومشاريع السكر الق
في الجنيد وخشم القربة ، تدنى إنتاجها لأقل من الثلث ، ومشاريع النسيج لم ت
وصناعة القطاع الخاص متوقفة بسبب فقدان قطع الغيار ، والمواد الخام والفنيين
وانقطاع الطاقة والكهرباء . . وإنتاجها بتكلفة مرتفعة ، تزداد كل يوم ارتفاعا وتقفل
مصانع القطاع العام والخاص . . وتباع ! والبطالة فيها ظاهرة ومقنّعة ، وحتى الإنتاج
القليل . . يحتكره نميري وطبقته ، ويضيفون لتكلفته المرتفعة ، أضعافا مضاعفة . .
فيصبح الفرق بين السلعة المصنّعة عندنا ، والمصنّعة في أثيوبيا وكينيا . . خمس مرات
ولذلك . . . (ولأول مرة منذ عهد الفراعنة) أصبحنا نستورد لكي نأكل من شرق
وغرب أفريقيا . . وبلاد الواق الواق .

رابعاً :

إن شعار الحكم الذاتي الذي طُبِّق في الجنوب . . قد فشل ! وعادت الحروب والمجاعة والهجرة ، واللجوء إلى الغابة ، وإلى القوة . وإن الحكم الإقليمي - والذي يُراد تطبيقه الآن - لا تملك له الحكومة مالا ، وهو يكلف نصف بليون جنيه . . لا تملك منه جنيها واحدا ، وقد أخطأت في الممارسة ، فأثارت حروبا قبلية ! إذ أصبحت كل قبيلة تطالب وتقاتل من أجل الحكم ؛ فتشتري السلاح ، وتطلب أن يكون الوزير منها والحاكم منها ، وكذلك كل الوظائف . وبذلك . . عكس النظام ونكّس شعاره . . فبدلا من إن يجابه القبلية ، سلّحها وأهلها للقتال ، وأثار بينها الفتن . وكذلك فعل بالطائفية . . أثار بينها التنافس وأصبحت تهيء نفسها للحكم بالقوة ؛ وأصبح أي فرد سوداني يشعر بعدم الأمن . . والخوف من المستقبل ، فيشتري السلاح بأبهظ الأثمان من مستودعات الحكومة . . ومن الخارج . وكل الوطن يعيش فوق برميل مليء بالمتفجرات . . ينتظر فقط إشعال الفتيل ! زيادة على أن هذا حكم محلي لا يعطي أهله ، أي حقوق ديموقراطية . . فهو لا مركزي (جغرافيا) ، ومركزي وفاشي (إداريا) ؛ فكل إرادته وإدارته ، في يد شخص واحد في الخرطوم . . هو النميري وحده .

خامساً :

إن كرامة المواطن السوداني كلها مهدرة . . فهو يُحكم بلا قانون وبلا قضاء مستقل ويُسجن بلا سبب ، ويؤمَّم ويصادَر بلا سبب ، ويُعذَّب ويُمنع من السفر ويُجوَّع حتى يبيع شرفه أو يهاجر . والبلد كلها ... يعيش فيها مائة شخص ، هم الذين يحميهم الجيش والشرطة والأمن ؛ أما بقية العشرين مليون ، فهم ضحايا الجوع والقهر ، وسوء الأداء والإدارة ، والرشوة والنهب والسلب والظلم والإهمال ؛ وهو محروم من كل حق من الحقوق الإنسانية ، معيشته وحريته ، في يد زبانية النظام . . يفتكون بها كل يوم .

سادساً :

إن هذا النظام مكوَّن من عشرات . . يُعدُّون على الأصابع ، ويُعرَفون بالوجوه هم النظام والسلطة والثروة والسلاح ! يحتفل عشراتهم بتحقيق المليون الخمسين من الجنيهات ، والمواطن العادي لا يجد رغيف الخبز ، ولا ملوة الذرة ، ولا زجاجة الزيت ، ولا غاز الإضاءة ، ولا ثوب الدمورية ؛ ولا دواء في المستشفيات . . حتى الأسبرو ؛ ولا أسِرَّة فيها ، ولا أكل ، ولا ممرضون ! والمدارس منهارة ليس فيها كراسي ، ولا مناضد ، ولا كتب ، ولا مناهج ، ولا برامج ، ولا مدرسين ، ولا فطور ، ولا بوفيهات ، ولا مواصلات !

وإذا رأيت صفوف الخبز ، أعتقدت أن هذا يوم عرفة . . أو يوم الحشر ! وأجرة المواصلات الشعبية ، أغلى منها في أوروبا ، ويطوف عليها أصحاب المرسيدسات (٢٨٠ و ٤٥٠) . . ينظرون إليهم في احتقار وسخرية ! وهذا هو الحال في كل مدينة مائة مواطن مليونير . . وعشرون مليون جائع .

سابعا :

إن الرشوة والفساد واستغلال النفوذ ، قد أصبحت سرطانا ينخر في جسم الشعب السوداني ؛ فلا شيء يسير بلا دفع (أي رشوة) ، من أعلى قمة الحكم إلى أدنى درجاته . . فجواز السفر له ثمن ، وشهادة المرض لها ثمن ، ورخصة القيادة لها ثمن

وإذن الخروج له ثمن ، وكتابة الخطاب لها ثمن ؛ وكل شيء . . له ثمن . يشترك في ذلك كل الحكم ؛ حتى أصبح عادة وسلوكا وممارسة ؛ إذا تكلمت عنها حمل عليك الناس ، والأنكى والأبكى . . هو الانحلال الخلقي ، فلم يعد الرجال قوّامون ولا مسؤولون عن النساء ؛ والعروض تُهتَك . . حتى عروض طالبات المدارس ! والمخدرات . . يستعملها من هو دون العاشرة ، وليس هناك هيبة لأُولي الأمر ، ولا للأب ولا للكبير ! والأزياء دونها أزياء معسكرات العراة !

وقد دخل في أذهان هذا الجيل ، أن هذه هي الحضارة ، استوردتها (مايو) مع بقية الموبقات . . والخمر والميسر والزنى ، والمعسكرات المشتركة : للرجال والنساء والبراعم ، والكتائب والكشافة ـ الأرضية والبحرية ـ والحدائق التي تقام للفساد والقَّوادون طبقة لها الحكم والسُّلطة ، وحتى الأجانب أصبحوا يحضرون إلى بلادنا . . لا للاستثمار ! وإنما للفساد الخُلقي ، من كل الأصناف والنماذج .

وحتى إذا تغير الحكم . . فلن تجد صرافاً واحدا تودعه أموال الشعب ! فالخزائن تُفتح ليلا ، والاختلاسات يقوم بها من هم فوق الستين ، ومن أمضوا كل سابق عمرهم أمانة وطهارة . . وقد أثر ذلك تأثيرا عميقا في أخلاقيات شعبنا ، الذي لا رأس مال له غير أخلاقه ! وإذا أضفت إليه بقية المفاسد : من رشوة ومحسوبية وانحلال وتصرفات الحكام – وهم القدوة . . أسوأ القدوة – تعتبرنا لا عربا ولا أفارقة ! ولا مسلمين ولا حتى بوذيين ! انعدمت القِيم والأخلاق ، واعوجَّ السلوك والممارسة ، وأصبح الناس يرون كل ذلك طبيعياً . . لا يستدعي حتى الستر ولا التعليق ؛ بل يتنافسون ويتبارون في اتباعه وممارسته ومسايرته ؛ وهم مستبشرون فرحون ، يعتقدون إن هذا هو الخُلق ، وهو الحضارة والمدنية والتحديث ، وما غيره هو الرجعية والجاهلية والتأخر .

ثامناً :

ليس في بلادنا حكم أو حكومة إطلاقا . . من الخفير إلى الوزير ! والواقع أنه ليس هناك أي فرق بين الوزير والخفير ، كلاهما لا عمل له ، وكلاهما يسرق كل ما يصل

إلى يده ، وانهيار الإدارة هذا ... أدّى إلى انهيار الاقتصاد ، وإلى تدهور الإنتاج وإلى انعدام التخزين والترحيل ، وإلى عدم مكافحة الآفات ؛ وإلى اعتبار أن المال العام ، سائب . . من حق أي أحد أن يأخذه ! ولم يحدث طوال اثنتي عشرة سنة الماضية ، أن عوقب أو سُجن سارق أو مختلس أو مرتش . والوزير يبحث يومه كله عن الهروب ، ليعمل في المؤسسات الإقليمية والدولية والشركات ، وهو يقبل الوزارة لكي تؤهله لذلك ، ومن حق أي وزير أن يعتمد صفقات ، ويستدين دون موافقة المالية . . وأن يقيم مصنعا دون موافقة الصناعة ، كل ذلك إذا أعطى بهاء الدين - وزير الشئون الخاصة - حقه .

وليس هناك تنسيق بين الوزراء ؛ كأنهم كلهم . . وزراء في دول مختلفة ، وليس هناك مجلس وزراء . . ولا اجتماعات له ، ولا ضوابط ! والسعيد هو : من هيأ له بهاء الدين اجتماعا مع الرئيس ؛ فيستورد مصنعاً ليس في الخطة ؛ ويكون قديما قد استنفد أغراضه وعمره في بلد آخر . . ثم يجلب المستشارين والمهندسين من ؟ وهكذا تقوم مشاريع متعارضة لا يعلم بها أحد ؛ إلاَّ بعد توقيع العقود ، ووصول المعدات القديمة الخربة !

والغريب أن فسادنا قد أغرى حتى الدول الخارجية ؛ فأساءت إلى سمعتنا . . بتصدير الماكينات الخربة القديمة ، والمستشارين الجهلاء والمرتزقة والمرتشين . . بالآلاف ! الدولة عندنا ليست أداء ولا إدارة ، ولا نظاما ولا مسؤولية ، ولا محاسبة ولا مراقبة ، ولا طهارة ولا تنسيق . . بل هي حظوة لدى الرئيس وبهاءالدين . . وإذاعة كاذبة وتلفزيون أكذب ؛ وصحافة ألعن ، وموتورات وصفافير ، وبنادق لا ذخيرة لها . . يخاف منها المرتجفون !

وعلى هذا الأساس . . فلا أحد يحضر إلى مكتب ، وعذره واضح : إنه لم يجد مواصلات ، ولم يجد خبزا ، وهذا هو عذر الرئيس نفسه ؛ ثم يقرأ صحيفة ويدخن لفافة - إذا وُجدت - ويكتب خطابا إذا كان صاحبه متفقا على الدفع (حتى مع المراسلة) ثم يذهب لينتظم في صفوف المواصلات ، فيَصل إلى منزله مع مغيب الشمس فيتكوم

مفكرا كيف يمضي الليل .

تاسعاً :

أهلنا كلهم الآن . . في المغترَب ، في مختلف إنحاء المعمورة بالملايين ، وعام ١٩٦٨م كانوا بالمئات . كل خبراتنا التي انفقنا عليها السنين الطوال . . في الزراعة والثروة الحيوانية ، في الطب والتعليم ، في الاقتصاد والمحاسبة والهندسة ؛ كل الفنيين المهرة . . في البناء والتجارة ؛ كل سائقي الآلات الثقيلة . . ومهندسيها وفنييها – حتى البنائين والنقاشين والممرضين ؛ العمال المهرة وغير المهرة ؛ الشباب والشيوخ . . النساء والرجال . . والمراهقين ؛ كلهم هربوا من بلادهم ، يطاردهم الجوع والبؤس واليأس والحكم الظالم .

ملأوا الأرض واكتظت بهم الدول ، حتى أصبحت تعيدهم بالطائرات ؛ وأخيرا تزايدت الأعداد فأصبحت تعيدهم بالسفن . . وترمي بهم على شاطيء البحر الأحمر؛ ويعودون مرة أخرى بجوازات جديدة . . تُشترى ، وإقامات تُشترى وهكذا تدور الساقية . . حتى المزارعين والعمال الزراعيين ، هجروا الأرض الخصبة ذات الماء الذي لا ينضب –لا من النيل ، ولا من روافده الخمسين ، ولا من السماء ولا من باطن الأرض ! هجروا الثلاثمائة مليون فدان . . هجروا " سلة خبز العالم " التي لا تطعم أهلها . . وبقي السؤال : من الذي يحرث الأرض ؟ من الذي يزرعها ؟ من الذي يحصدها ؟ من الذي يرعاها ؟ وإذا كانت تنتج قنطارا واحدا فمن الذي يبقى فيها ؟ إلاَّ الذي يريد إن يموت جوعا ، وهو الميت كمدا وغبنا ، وإحساسا بشريا وعلاقة إسلامية أو عربية ؛ المحكوم بالعصابة وبالطبقة . . وبالمافيا ؟

عاشراً :

نحن عرب ومسلمون . . وقضية فلسطين تجري في دمائنا بالفكرة وبالغريزة وبالعقيدة وبالانتماء ؛ وبالتضحية والاستشهاد والموت ! هي عندنا بمثابة الحياة نفسها " ولاءات الخرطوم " ، لم تكن سياسة . . بل كانت حقيقة وعقيدة ؛ ولم نصنعها نحن ، بل صنعها شعبنا أمام كل العرب . والقضية عندنا . . قضية حضارة وكرامة

ومقدسات ، موت وحياة ، دين ودنيا ، لا نقبل فيها مساسا أو عبثا ؛ فإذا جاء السادات ، ووضع لها حلا انفراديا استسلاميا ، فسنرفضه ونقاتل ضده ؛ مثلما ـ أو أكثر مما ـ نقاتل في سبيل قضيتنا !

وإذا رفضناه . . فليس ذلك كراهية في شخصية السادات ، ولكن القضية تعلو ولا يُعلى عليها ، ونحن أشقاء الشعب المصري ، حياتياً وأزلياً وسرمدياً وتاريخياً وبالتالي فنحن لا نحمّله وزر الخيانة ؛ وإذا جاء النميري وخرج على الإجماع العربي في بغداد وتونس وعُمان ، وجاء الآن وطبّع العلاقات ، وأحيا اتفاقية الدفاع المشترك وأدخل الجيوش والطائرات بلادنا ليعتدي على الآخرين ؛ ويتخذ من بلادنا ممرا ومقرا ، لذلك . . فقد أصبحت القضية قضيتين : القضية الفلسطينية المركزية والاحتلال بجيش فيه الصهاينة والأمريكان ونوايا الاعتداء على الإخوة والأشقاء والجيران والعرب والمسلمين ! فما الذي يتوقع منا العرب ؟ وأرضهم سليبة ! والمسلمون ؟ ومقدساتهم محتلة ! وأحرار العالم ؟ غير أن نرفض ذلك ونقاومه ونقاتله . . بكل الصرامة والشراسة التي يهبها لنا الله ! وإذا لم نفعل ذلك . . فمن نكون ؟ سودانيين ؟ عربا ؟ مسلمين ؟ أحراراً ؟ لا يمكن أن تنطبق علينا هذه الصفات وبدونها . . فنحن عراة ، وهذا واضح .

حادي عشر :

نحن من مؤسسي مؤتمر عدم الانحياز والحياد الإيجابي ؛ مع ناصر وتيتو ونهرو وسوكارنو . ونميري الآن يقول علَناً ـ على مرأى ومسمع من كل الصحفيين الأجانب ومراسلي وكالات الأنباء والإذاعات من كل أنحاء العالم ـ إن بلاده مفتوحة وذراعيه مفتوحتان لاستقبال قواعد الأمريكان . . وحلفائهم في البر والبحر والجو ؛ بل وجيوشهم ! وهو سيعطيهم الأرض مجانا أو بالإيجار أو بالشراء ! وهو بذلك يتنكر لذلك الميثاق ، ويجعل من بلادنا مسرحا لصراع القوى الأعظم ، وخطرا على شعبها ومعتقداته ، بل على كل الشعوب الأخرى ـ المجاورة وغير المجاورة ـ وعلى العالم أجمع !

وهو يهدد أمن المنطقة وأمن البحر الأحمر، ويحوله من ممر تجاري مسالم . . لخدمة الحضارة في العالم، ولخدمة السلم بين الشعوب التي تسكن شواطئه ، إلى قاعدة للقتال والخراب والدمار لبلادنا . . ولغيرها . وهو يردد ذلك ويؤكده بوقاحة وصفاقة لم نسمع بمثلها من حاكم قبل ذلك ، حتى إذا وافق على القواعد ، فكلامه هذا قد سبقه العمل في هذه القواعد نفسها ؛ وتكافئه أميركا فتزيد مساعدته المقررة ثلاثة أضعاف . . حتى لا يساوم مثلا بالقضية العربية ، ولا يحترم شعبه ولا سيادته ولا جيرانه . . عرباً كانوا أو أفارقة .

ثاني عشر :

عقد نميري مؤتمرا صحفيا قال فيه بالحرف الواحد : إنه سيزيل الحكم في ليبيا بالقتال أو (بالقتل) أي الاغتيال ، ومهما تكن نظرة البعض في الخلاف بينهما ، فهل هذا كلام يمكن إن يقوله حاكم عاقل مسؤول ؟ ويرضى به شعبه؟ فيصبح مثله بائعاً للقواعد . . جالباً للجيوش الأجنبية . . صارخاً بالغزو ، بل مفتخراً بالاغتيال ! وهو يعرف أثره في الشعب السوداني الذي يكره هذه الأساليب! ولذلك صبر عليه سنين طويلة رغم كل موبقاته : الوطنية والقومية والعالمية . . لم يفكر أحد إلى الآن في قتله ! وبعد . . . .

* إذا قرأ هذه النقاط أي عربي أو أي أفريقي أو أي آدمي ، وإذا سأل غيرنا وعلم أنها كلها واقعة وملموسة ، فلا بد أن يسائل نفسه ويسائلنا : أنحن رجال ؟ أنحن سودانيون ؟ أنحن عرب ؟ أنحن أفارقة ؟ أنحن آدميون ؟ ولا يمكن أن يصدّق أننا نتمتع بصفة واحدة من هذه الصفات . . إذا رضينا بكل هذا . وهذا واقع معيش وملموس ليس عليه خلاف . . ولا أعتقد أن أحداً يسائلنا بعد ذلك، لماذا تقاومون هذا النظام؟ أو لماذا لا تصالحونه ؟ بل سيلتفت لنا ويقول : " إذا رضيتم به ، فأنتم غير رجال " ! وهكذا نحن إذا رضينا به !

وهذا كلام للمعتدلين والناصحين والمشفقين، الذين تفضلوا بالحضور وبالأسئلة وباستنفاد الصبر والتأني ، فليعلموا . . أن هذه هي الحقائق وليسألوا عنها ، فلديهم

آذانهم هناك وعيونهم ، وإذا أثبتت لهم الحقائق . . أن أي واحدة من هذه الحقائق غير صحيحة أو مبالغ فيها ، فنحن المعتدون . . طلاب السلطة . . الدمويون العملاء . . تجار السلاح . . إلى آخر أرجوزات النميري ؛ ولكن سيثبت لهم - وهو ثابت لديهم - أنها كلها . . حق وصدق ! وعندئذ . . فسيلتفتون إلينا ويقولون : " هل أنتم رجال ! وأنتم ترضون بكل ذلك " ؟ وهكذا . . لن نكون رجالاً إذا رضينا . . ولن نرضى . . وسنقاوم إلى آخر نفس ، ويد الله فوق أيدينا . . فكل ما نريده منهم ، هو أنهم إذا رأوا باطلاً فليغيروه بأيديهم ، وإلاَّ فبلسانهم ، وإلاَّ فبقلوبهم ، وهذا أضعف الإيمان . . وأي باطل أكثر من هذا ؟ ومن يعاون ظالماً يسلطه الله عليه . فليس غريباً على نميري ، وليس جديداً عنده ، أن يدعو الروس لإقامة القواعد إذا لم يدفع الأمريكان الثمن المناسب ، ويومها لن يتذكر أو يخجل . . فليست هذه من صفاته .

إذا فاعلموا أيها الإخوة . . . أننا لا نقاوم خطراً علينا وحدنا . . بل على المنطقة العربية والأفريقية . . وعلى العالم كله ؛ ولكننا سنزيل هذا الخطر ، حتى لو كان في بروج مشيَّدة ، وما النصر إلاَّ من عند الله

الدستور ١٣-١٩/٤/١٩٨١م

المتواطئون والواقفون على السياج

وجه الشريف حسين الهندي ـ زعيم المعارضة السودانية ـ البيان التالي إلي الشعب السوداني والأمة العربية ، بمناسبة لقاء رأسيْ العَمالة في مصر والسودان – أنور السادات وجعفر نميري ـ للاحتفال بالعيد الثاني عشر لانقلاب (٢٥ مايو ٦٩) .

بسم الله الرحمن الرحيم

عليه توكلنا وبه نستعين، ناصر الحق بالحق، وحامي المستضعفين والمستذلّين والمقهورين والمشردين . .

نحن نخاطبكم من منطلق الصدق والإيمان . . . ومن زمالة الخندق الواحد والمستقبل الواحد . نحن لا نخاطبكم أحزاباً ولا جبهات ، ولا عشائر ولا طوائف ولا قبائل ، إنما نخاطب كل فرد . . مهما كانت خلفيَّته أو هويتّه أو انتماؤه أو عقيدته نخاطبكم كسودانيين تحت مظلة المواطَنة السودانية ، والانتماء العربي والسمو الإسلامي والوجود الأفريقي ، نخاطب فيكم التاريخ الناصع المشرِّف . . الذي ازدحم كله بالثورات والبطولات والتضحيات ، لم يُلوَّث وجهه ولم تُدنَّس ساحته في كل حقبة من التاريخ . . . التاريخ الذي يزخر بالمواقف الشامخة من مرتكزات الوطنية والعروبة والإسلام .

نحن نخاطبكم الآن . . وأرضكم تمتلئ وتفيض بالجنود والأسلحة والقواعد الأجنبية . . والنفوذ الاستعماري! ووجوده الأمني والعسكري والاستراتيجي نخاطبكم وقد أصبحت بلادنا ميدانا للصراع ، ومنطلَقا لغزو الشعوب ، وتهديد السلام العالمي والاستقرار السياسي ؛ وأصبحتم مصدرا لتصدير الدمار والخراب . . لكم ولجيرانكم !

نخاطبكم وقد أُخرِج شعبنا من الإجماع العربي ؛ وأُعيدت علاقاته بخديوي مصر، بعد إن باع القضية العربية وأغرق في التصفية والتجزئة ، وأدخل الصهاينة

تدنّس أقدامهم طهارة الأرض العربية : شرفها وحضارتها ونقاءها . . وقد أكمل الآن مخططه في مصر ، قادما إليكم يحمل معه إسرائيل : علَمها وسفارتها ووجودها ونفوذها ؛ وكل القوى الاستعمارية التي تقف خلفها ، يحمل إليكم ما يسميه : " بتكامل التكامل ، وباتفاقية الدفاع المشترك " ؛ وكل مشتقاتها وقواعدها ووجودها الأجنبي . . . ووليُّه في السودان - أي والي الخديوي أو عامل الخديوي في السودان - ينتظره بلهفة ، لكي يعطيه الأرض والعرض والشرف والكرامة ، لأنه عجز عن إدارة بلاده ، وأصبح كل أدائه : [illegible] وفساداً وسرقة ورشوة ؛ ولم يعد أمامه إلاّ الحماية الأجنبية ، يطلبها بكل الصفاقة ، ويقبلها بنفس الصفاقة والذيلية . . ويفرضها بوقاحة ؛ فيضع بذلك استقلالكم ووحدة ترابكم وانتماءكم العربي ، وحضارتكم وعقيدتكم الإسلامية ، موضع الخطر والضياع ! ويبيع مقدرات بلادكم الضخمة بثمن بخس ، دراهم معدودات يتقاسمها هو وسدنته وحاشيته الفاسدة المرتزقة . . وأنتم تموتون جوعاً وسجناً وتعذيباً وتنكيلاً .

إنكم إذا وافقتم على كل هذا . . . فلْتعلموا إنكم وافقتم على اندثار ذاتيتكم وضياع استقلالكم ، وطمس تاريخكم ، وفقدان حضارتكم . . بل وإنسانيتكم وآدميتكم وبشريتكم ؛ وجعلتم بلدكم التي استخلصتموها من براثن الاستعمار لقمة سائغة للمستعمرين ؛ وأذيالهم - أمثال النميري والسادات - وإنكم قد رضيتم (وأنتم أصحاب اللاءات في المجتمع العربي ! اللاءات المعروفة المصحوبة بالشموخ والصمود) رضيتم بالذُّل والعار والخيانة . . .

إن هذا . . " قول فصل وما هو بالهزل " ! وإن الحلال فيه بيّن والحرام فيه بيّن وليس بينهما أية " أمور متشابهات " . . إن الذي يطبِّع العلاقات مع السادات ويواصل تنفيذ اتفاقية الدفاع المشترك ، ويقبِّل أحذية الجنود الأجنبية . . تدوس كرامته ويقبَل القواعد تنتشر في أرضه ويقبَل الاستعمار يوجه سياسته ، ويقبَل السادات متوسطاً لتطبيع علاقاته مع إسرائيل ، ليس سودانيا ؛ ولا يمُت للسودان . . بصلة ؛ ولا يحمِل له ولاء ؛ ولا للعرب . . برابطة ؛ ولا للإسلام . . بصلة ؛ ولا لأحرار العالم

كلهم . . بأية علاقة . فهو عميل ومنحاز وجاسوس ؛ خارج على ماضي وحاضر ومستقبل . . هذا الشعب .

إن الذي يقف على السياج ، وهو ينظر إلى بلاده المحتلة ، وشرفه المهان ، وكرامته المهدَرة ، وعروبته المستباحة ، وإسلامه المسلوب ... إنما هو في واقع الأمر ، عدو لهذا البلد ؛ غريب عليه . . وهو ورم خبيث ، في جسم هذا الشعب . إن كل من يشترك مع السادات والنميري ، في جريمتهما هذه . . عليه أن ينتظر عذاب الدنيا قبل الآخرة ؛ وتعذيب الضمير وقصاص التّاريخ ؛ وثأر الشعوب وبطشها .

إن هذا يوم أسود مجلل بعار الخيانة ؛ يلوِّث جباهنا الشامخة ووجوهنا الصامدة . من الذي يريد منكم أن يتخذ الصهاينة أولياء وأوصياء ؟

إن السادات والنميري . . هم الصهاينة : انتماءً وسلوكا وتصرفا . فكيف يقف معهم أي سوداني . . عربي ومسلم ومؤمن ؟ وكيف يواجه بذلك ، ربه وشعبه وإسلامه ودينه وضميره وحضارته ؟ هذا سؤال مطروح على كل رجل ، وكل امرأة وكل شيخ ، وكل طفل في أي جزء من أجزاء هذا الوطن الفسيح . . . .

إن أنظار العالم كله تتجه نحوكم ؛ تشد من أزركم ، وتعين في أمركم ، وتأخذ بيدكم ؛ تقف معكم بكل أصالة وقوة ومواجهة . . يتطلبها الموقف ؛ لتخرج مواكبكم صاخبة هادرة رافضة ؛ معلنة موقفكم بكل جرأة وجسارة عُرفت عنكم ؛ ولتذودوا عن وطنكم وأمتكم وعروبتكم وإسلامكم ؛ ولتبرهنوا للعالم كله . . أنكم الشعب القوي العزيز الأصيل . . الذي لا يفرِّط في وطنه ودينه وقوميته ؛ بل يعض عليها بالنواجذ ؛ مهما كانت المخاطر والمهالك والصعاب !

فلنتذكر جميعا الشهداء ، فإن أرواحهم ترفرف حولنا ؛ ولنتذكر التاريخ معا ، فإنه يقف أمامنا ، وأن لا ننسى الوطن ، فإنه يرمقنا وينتظرنا ؛ ولتزدحم بمواكبكم الشوارع ، ولتمسكوا بناصية الأمر ، وتواجهوا هذه المؤآمرات بمدخرات الشجاعة التي عُرفت عنكم ، ولْتعلَموا (وأنتم العارفون)أن " الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون " ولا يضيع حق وراءه مطالب !

وللحرية الحمراء باب   بكل يد مضرَّجة يُدَقُّ

وليكن الله معكم . . يشد من أزركم ويسدد خطاكم . . وهو نِعم المولى ونِعم النصير .

الدستور : ١-٧ يونية / ١٩٨١م

حول العصيان المدني

مع دخول المجابهة الدموية مع نظام القمع والإرهاب في الخرطوم ، وبين عمال نقابة السكك الحديدية أسبوعها الرابع ، يكون المشير قد قدَّم دليلا جديدا ـ للذين ما زالوا يعوزهم الدليل ـ على إفلاس نظام فاشي أخرق ، يستكمل الآن ـ في حربه ضد الجماهير في الداخل ـ بروتوكولات حكماء (كامب ديفيد) . . التي كان آخر بنودها لقاء الوفاق مع الخائن السادات . والمشير يعرف جيدا إن مجابهته الدموية هذه ، لا تقتصر على قمع ٤٣ ألف عامل وتشريدهم ، وإنما هي تعبِّر عن أزمة خطيرة ، في أضخم مرفق اقتصادي من نوعه في أفريقيا والبلاد العربية . . يمتد على مسافة طولها يزيد على ثلاثة آلاف كيلومتر ، بدءا من بورتسودان على البحر الأحمر ، إلى مدينة واو بالقرب من زائير ! وتشمل بذلك شمال السودان إلى حدود مصر ؛ وشرق السودان إلى الحدود الأثيوبية .

ولهذا فإن قراره الجمهوري بتكوين لجنة وزارية ، برئاسة الرشيد الطاهر بكر ـ رئيس ما يُسَمَّى بمجلس الشعب ـ تقوم بالإشراف على حل مؤسسة السكة الحديد وتكوين كتيبة من الجيش السوداني للإشراف على مرفق السكة حديد ، والطلب إلى نقابات العمال والموظفين ، بأن تغيِّر دساتيرها بحيث تُعتَبر فروعها في الأقاليم تابعة لها ، واعتبار الأحزاب من قبيل (الخيانة العظمى) ، واستنفار أجهزة النظام ضد من أسماهم " بالمخربين " ؛ لتقديمهم إلى محاكم ميدانية ، إنما يُعبِّر عن سلطة مجنونة لم تكتف بما نهبته واختلسته من أموال الشعب الذي تتسول باسمه . . دون حياء ! وإنما هي تتحرك اليوم ، وقد أعمتها شهوة الدم ، لتضرب ضربة الجبان . . مانحة نفسها فُسحة جديدة من الحياة .

وهي تتحرك اليوم لتحتشد ، فلا تجد غير فلول هزيلة مخجلة ، يجذب خيوطها الرشيد الطاهر بكر ، فلول مكونة من أفراد الجيش والقوات المسلحة ، تتنكَّر بالملابس المدنية ، وتجر من خلفها مرتزقة الاتحاد الاشتراكي ، فتكتشف فجأة . . إن معلومات

ما يُسَمَّى بمجلس الشعب - الذي يؤكد لمشيره اللاعب على الحبال بأن نسبة المضربين . . لا تشكِّل أكثر من عشرة في المئة من عمال نقابة السكة الحديد - إنما هي أضغاث أحلام ، وضَرْب من ضروب التمني . . وأنها مظهر من مظاهر الغرور الأجوف والعاجز عن مواجهة الواقع الحي .

تتحرك السلطة - التي أعمتها شهوة الدم - لتحشد فلولها المتنكِّرة بثياب الكادحين فتكتشف إن الشعب قد سيَّر بدوره مظاهراته الحاشدة ، ردا على تظاهرات النظام فأحرق أكبر دار للسينما في الخرطوم (الكولزيوم) ؛ ودمَّر عربات أصحاب شركة سيهان بيرد ؛ الذين تزكم فضائحهم الأنوف ، وأعلن عن حملة عصيان مدني شامل لم تشهد المنطقة العربية والعالم الثالث مثيلا له من قبل !

تتحرك السلطة - التي أعمتها شهوة الدم - ليبحث مشيرها عن كبش فداء ، فلا يجديه استعراض القوة ؛ ولا ينفعه التظاهر باللِّين ؛ فإذا بقيادها متروك بين أيدي أصحاب رأس المال الطفيلي : من مرتزقة ونفعيين وعملاء استعمار . . وانتهازيين يتوسطون بين القاتل والمقتول ؛ ويحملون أكياسهم من آلاف الجنيهات المسروقة والمنهوبة . . عمولات ورشوات ؛ محاولين تشتيت العمال ، وزرع الفرقة والانقسام بينهم ؛ و مدركين إن خسارتهم للملايين الآن ، هي أفضل بكثير من نهاية النظام . . التي تعني نهايتهم بكل تأكيد .

إننا نعلنها بكل وضوح - وباسم المعارضة السودانية - إننا (وإن كنا نرى أنه قد أن الأوان لكي يكون لعمليات إضراب النقابات ، وتحركات العصيان المدني ، آفاقها السياسية الواضحة ؛ التي لا تجعل من السهل على السلطة ، أن تستفرد بكل قطاعات الشعب على حدة) . . إننا وإن كنا نفكر في إطار التحرك الشعبي الشامل ، والذي لا بد أن يقصم ظهر النظام . . (أن عاجلا أم آجلا) فإننا لا يمكن أن نقف مكتوفي الأيدي في هذه اللحظات العصيبة من تاريخ شعبنا العظيم ؛ حيث يرتفع صوت الإرهاب والترهيب .

إننا نعلم - بالتجربة العملية . . كقارئين دارسين للتاريخ - أن عشرات الإضرابات

وحوادث العصيان المدني التي أجهز عليها النظام في الماضي ، قد آلت إلى ما آلت إليه لأنها كانت حلقات منفصلة في ثورة واحدة مغدورة ؛ يصاولها ويناور النظام ضدها قبل أن يستفرد بها في كل مرة .

إن المعارضة السودانية . . إذ تعلن تضامنها مع حركة العصيان المدني ، التي يقودها عمال السكة حديد الآن ، لتؤكد على أن البديل الوحيد المؤهل ، لنظام الرِّدة والفساد في الخرطوم ، هو البديل الوطني التقدمي المنطلق من الإيمان غير المحدود . . بالجماهير وقدراتها النضالية ، باعتبارها هدف التغيير ووسيلته في آن واحد .

إن هذا البديل . . هو وحده القادر والمؤهل بحكم طابعه النضالي الثوري ، على إطلاق كافة الحريات الديموقراطية لجماهير الشعب ؛ بما في ذلك حرية الأحزاب السياسية ، والمنظمات الديموقراطية - المهنية والاجتماعية - وحرية الصحافة والرأي والمعتقد . . وغيرها من الحريات السياسية . فالاستقلال الوطني في عُرفنا ، لا يمكن أن يكون كُلاّ ناجزا ، وأن يأخذ أبعاده الحقيقية في ممارسة السيادة ، إلاّ بإنجاز الاستقلال الاقتصادي وتحرره من كافة أشكال التبعية .

ولهذا . . . فعلى جماهيرنا الكادحة ، التي تجابه النظام الفاشي في هذه اللحظات العصيبة ، أن تأخذ حِذرها ، من العناصر التي اعتادت اللعب على الحبال ، والوقوف على السياج ، وأن توحد صفوفها وتكثّف من ضرباتها ، لتُنهي هذا النظام الفاسد وليِشرق غد الجماهير الكادحة - بإذن الله - وإنها لثورة حتى النصر .

الدستور : ٢٢-٢٨/يونيو / ١٩٨١م

الخارجون على الإجماع العربي

عندما انعقد مؤتمر القمة العربي في بغداد ، اتفقت الدول العربية التي حضرته على إدانة اتفاقية كامب ديفيد ، كما اتفقت على تنفيذ إجراءات محددة معروفة ـ دبلوماسية واقتصادية ومالية ـ تؤكد على مقاطعة مصر ، وتشمل شركات الطيران والسفن وغيرها كما اتفقت على أن تشمل هذه الإجراءات ، الدول التي تتبعها في هذا الطريق .
وحضر وفد السودان هذا المؤتمر ، ممثّلا في سفيره بمصر ، فتحفّظ على كل هذه الإجراءات ، مخالفا ومختلفا مع كل الدول التي حضرت المؤتمر . وتتبعت كل خطوات السودان بعد ذلك ممثّلة في ما يلي :

١ - لم يسحب السودان سفيره من مصر ، وقد كان وزيرا للدولة للشئون الخارجية بل تم نقله للخرطوم ، وترك من يمثله هناك . . وكان بدرجة السفير .
٢ - لم ينفذ السودان أي فقرة من مقررات مؤتمر بغداد ، واستمرت كل معاملاته الدبلوماسية والاقتصادية والثقافية ، مع مصر . . تسير بانتظام وتنسيق كاملين .
٣ - قال النميري إنه لن يقاطع مصر إطلاقا . . وظلت سفارته مفتوحة . وظل سفيره ـ الذي كان في القاهرة ـ يجلس مع سفير العدو الصهيوني باستمرار .
٤ - أبقى نميري على اتفاقية الدفاع المشترك مع مصر ؛ وجاء بالطائرات والأسلحة والمعدات . . والأمن المصري والأمريكي .
٥ - طلب من أمريكا علانية ، في مؤتمر صحفي حضره بنفسه ، وخاطب فيه جميع الصحفيين الأجانب ، ووكالات الأنباء والإذاعات ، طالبا من أمريكا ـ بإلحاح ـ إن تأتي بقواعدها : البرية والبحرية والجوية ، إلى جميع إنحاء السودان . . بالإيجار أو البيع أو الهبة أو حتى مجانا .
٦ - عقد مؤتمرا صحفيا عالميا ؛ نشرته كل الصحف وأذاعته جميع الوكالات والإذاعات ـ ومن ضمنها : الواشنطن بوست ، والهيرالد تربيون ـ وتحدث فيه إلى الصحفيين قائلا بأنه ـ ومعه أصدقاء أفارقة ـ سيزيل دولة مجاورة من الوجود ، بل

يقتل رئيسها بالاغتيال الشخصي المباشر .

٧ - استمر في تطبيق اتفاقية التكامل الاقتصادي . . بوفودها ولجانها ، تجتمع وتنفض وتسافر بين القاهرة والخرطوم . . باستمرار .

٨ - زار مصر ثلاث مرات متتابعة ، وكان قد قال قبل ذلك - في الخليج - إن "رجله لن تطأ أرض مصر ، بعد ذلك" ! وردَّ عليه السادات يومها . . بأن " أرض مصر طاهرة لا تطأها غير الأرجل الشريفة ؛ وأن مصر لن تخسر بعدم زيارته لها ؛ بل هو الذي سيخسر ، وأنه إذا ترك سفارته مفتوحة أو مغلقة ، فذلك لا يعني أحدا إطلاقا " .

٩ - وقع اتفاقية مع مصر ، وزاد حجمها على الاتفاقيات السابقة ، وأدخل فيها سلعا جديدة إضافية ، وزاد من حجم السلع السابقة . . أضعافا مضاعفة .

١٠ - ما إن أمَّن ظهره باتفاقية الدفاع المشترك ، حتى بدأ حملة لا سابقة لها ، طرد فيها كل الفنيين والزراعيين والأطباء ، في عملية تشريد جماعي . . من كل الوزارات والمصالح .

هذه المقدمات لابد أن تؤدي إلى المحصلات التالية :

أ - إن تطبيعه للعلاقات مع مصر ، ظل سائدا بكل أحجامه وأشكاله ولجانه وتكامله الاقتصادي ؛ كما استمر في الوقت نفسه ، تنفيذه لاتفاقية الدفاع المشترك .

ب - هذا يجعله تلقائيا . . خارج مجموعة الدول العربية التي اجتمعت في بغداد . ويجعل التعامل معه : اقتصاديا ودبلوماسيا وماليا ، أمرا محظورا ومخالفا مخالفة كاملة لكل مقررات مؤتمر بغداد ؛ وما تبعها من مقررات تونس وعُمان وبالتالي يخرجه تلقائيا من حظيرة الدول العربية . . ومن جامعة الدول العربية .

جـ - إن إنشاءه للقواعد الأجنبية ، واستمراره في إنشاء المزيد من القواعد العسكرية المختلفة في السودان ، يجعله تلقائيا خارج مجموعة دول عدم الانحياز ؛ مهددًا لأمن البحر الأحمر ، ومستقبل التجارة فيه . . ويجعل من هذا البحر ، ممرا مائيا خاصا للسيطرة الأجنبية بكل أشكالها ؛ مهددًا لأمن الشعوب التي تسكن على

شواطئه .

ترى ما هو موقف الدول العربية من كل هذا ؟ وما هو موقف جامعة الدول العربية التي انتقلت لتونس . . نتيجة لمقررات الدول العربية مجتمعة ؟ وما هو موقف دول عدم الانحياز ، لمن انحاز فعلا ، وكوّن القواعد الأجنبية علنا ، وفتح بلاده لهذه القواعد ، بلا قيد ولا شرط ؟

ما هو موقف المؤسسات العربية في الخرطوم : مثل البنك العربي الأفريقي ومؤسسة التنمية الزراعية . . وغيرها ؟ وما هو موقف اللجان العربية المتعددة ، التي تجتمع وتنفض في الخرطوم شهرا بعد شهر ؟ ما هو موقف المحامين العرب ، والعمال العرب ، والمهندسين العرب ، والزراعيين العرب ، والفلاحين العرب ، إلى آخر القائمة ؟

لا نريد أن نستمر في هذه الأسئلة الحائرة ؛ فنتساءل عن موقف المموّلين العرب والمستثمرين العرب . بل ما هو موقف كل العرب - أصحاب الشهامة والمروءة والوطنية والانتماء العربي - الذين تتقاطر الوفود السودانية على بلادهم ، فهم لا يودِّعون وفدا . . إلاَّ لكي يستقبلوا وفدا آخر ؟

هذه أسئلة حائرة تنتظر ردودا حاسمة ورادعة ؛ لا نسأل عنها ولا نتساءل حولها نحن معشر السودانيين . . وحدنا ، بل يتساءل عنها كل أفراد الأمة العربية ، الذين تزداد جراحهم وآلامهم وغُبْنهم . . يوما بعد يوم . من الذي يرد عليهم يا تُرى ؟ بأي منطق وبأي حُجة وبأي إقناع أو اقتناع ؟

نحن لا ننتظر الردود . . وحدنا ؛ ونحن لا نطرح هنا قضية الشعب السوداني والمآسي التي يمر بها والمعاناة التي يعيْشها . فلقد طرحنا قضية الشعب السوداني المغترب ؛ الذي يحوم الأرض كلها - من الخليج إلى المحيط - والذي لا يجد العمل بل يصرُّ - أحيانا - على الرجوع إلى بلاده ؛ يائسا حائرا . . بل مطرودا ومنبوذا في كثير من الأحيان . فلطالما طرحنا قضية الشعب السوداني - بكل أبعادها وكل أوجاعها - وظللنا نرددها يوما بعد آخر ، ونبّهنا إلى أن الأرض السودانية ذات المليون هكتار ، التي

يهطل المطر فيها بما يزيد عن تسعة أشهر في السنة- والتي هجرها الزراع ، فلم يعد في أرضها إلاّ الشيخ الذي تجاوز السبعين ، والمرأة التي تجاوزت الثمانين والأجنبي الذي لا علاقة له بالأرض . . وكل هؤلاء لا يكوِّنون نسبة من زراع الأرض والعاملين فيها

أسئلة كثيرة قد سألناها مرارا وتكرارا ؛ حتى ملَّت أسماعنا من الحديث ، وأفواهنا من الكلام ؛ وسكتنا عن ذلك منذ أمد طويل ؛ تاركين الزرع والضرع ، وتاركين التنمية ، وتاركين البشر أنفسهم ، لمصيرهم المؤلم . . الذي تلفُّه المأساة كل يوم .

نحن نسأل هذه الأسئلة الآن . . ومعنا كل فرد في الأمة العربية ، يفعم قلبه بالانتماء العربي والإسلامي . لا نسأل نيابة عنه ، بل نسأل معه ونرجو أن يكون الرد واضحا وإيجابيا ، وأن يعلو صوت الالتزام الوطني والقومي على كل ما عداه ، وأن تكون مواقف الرجال محددة ، وإن يعلم الجميع أن أي تقهقر في الموقف العربي وأي تسامح في مسألة الخروج عليه ، هو تهديد لأمن الأمة العربية ؛ ولحاضرها ومستقبلها وتاريخها ؛ فهل نجد الرد ؟ ومتى ؟ وهل يكون أو يصبح في مستوى المسئولية ، التي يمليها الموقف العربي القومي ؟

الدستور : /١٧-١١مايو / ١٩٨١م

قراءة في عقل من لا عقل له

مرة ثالثة . . ومرات قادمة كثيرة ، تفتح الحركة الوطنية السودانية ملف نظام مايو المسودّ الصحائف ، الكثير الثقوب ، القليل العطاء ، المستفيض [illegible] بالتقصير وجسيم الفساد ، وقبح العمالة وزندقة الردة . . ملف كله أسود لا بياض فيه [illegible] لا ثناء فيه كله ألم لا فرحة فيه ، نفتحه اليوم ملفاً في زمن ما كنا نظن أن نعيش لنراه ! ونعيش مأساته ومآسيه ! وعشنا . . . وليتنا لم نعش ! لنرى عجلة الزمان تدور دورة عكسية حتى أتى علينا حين من الدهر ، شهدنا فيه من يتحرك بشكل سافر ، وبلا أقنعة معتمداً على غياب الجماهير المذهولة ، بعد أن شُدّ وثاقها ، وأنهك عزمها بالإرهاب الذي وفّرت الدول الإمبريالية وسائله وأدواته ، للأنظمة العميلة الخاضعة لنفوذها وهيمنتها ، كنظامي النميري والسادات .

عشنا لنرى الجيوش الأمريكية " سريعة الانتشار " تتمركز في مصر وعُمان ويُمهّد لمجيئها إلى السودان والصومال . . وعشنا لنرى حكاما فقدوا رجولتهم ، وماتت همَمُهم ، وتبلّد حِسُّهم ، وبلغوا من الصفاقة قدرا يعزّ وصفه ، ويندر نظيره . . إنهم حكام دُمَى ، يرقصون في عرس الخيانة ، ويصفّقون طرباً لعودة جيوش القهر والتسلط والإذلال .

عشنا نحن الذين دمرنا القلاع الاستعمارية [illegible] الإمبريالية في الأربعينات والخمسينات والستينات ، وأرسينا من بعد . . مبادئ الحياد الإيجابي وحركة عدم الانحياز . . عشنا لنرى هجوم أمريكيا مضادا يحاول [illegible] ويجاهد من أجل إسقاط مواقعنا وتنكيس أعلامنا [illegible] سيطرته السياسية ونفوذه العسكري وهيمنته الاقتصادية [illegible] وطننا العربي [illegible] ليغطي الساحة الأفريقية ، [illegible] في بحار النفط ، الهائمة [illegible]
[illegible] بالأيدي [illegible]

الأوروبية .

لقد عشنا ثلاثين عاماً في الخنادق ، ولا يضيرنا إن نعود مجدَّداً إلى الخنادق ، لأننا ندرك إنها المواجهة التي لا مناص منها . . والتي لن يتسع ميدانها إلا لواحد من اختيارين : أن نكون . . . أولا نكون .

إن الحركة الوطنية السودانية ، تأكيداً منها على أهمية المرحلة وخطورة ملابساتها لا تملك إلا إن تتجه إلى جماهير شعبنا السوداني ، المحكوم بالجور والنار والحديد مذكِّرة إياها . . من منطلق الإيمان بقوله تعالى : " إنما أنت مذكِّر لست عليهم بمسيطر " ، بتعاظم مسؤولياتها ، طالبة منها الارتفاع إلى ذروة تطلعاتها ـ كما هي في فكر وتراث وأدب . . حركتها الوطنية الرائدة .

إن الحركة الوطنية بقيادتها المتمرسة على النضال (بعد أن أولْت المتغيرات الدولية حقها بالوزن والاعتبار . . مستضيئة في تحليلاتها بقبس لا يخبو ، من نور تراثها النضالي العتيد) تجدد اليوم ـ وكل يوم ـ العزم على تكثيف النضال ، من أجل استرداد حقوق الشعب الديموقراطية . . باذلة أقصى الجهد في سبيل تأمينها وترسيخها متخطية بعزم لا يفتر ، الصيغ الفوقية الغوغائية الزائفة ، وصولاً إلى المضامين الحقيقية للمارسة الديمقراطية المُثلى ، مستبدلة حوار الحكام والحكومات ، بحوار الجماهير وحقوقها وسُلطتها . .

لقد طرأت ظروف ، واستجدت حقائق ، وجرت مياه كثيرة تحت جسور الخرطوم منذ ما بعد يوليو ١٩٧٦ م ـ عام الفداء والانقضاض على قلاع الرجعية العسكرية الديكتاتورية العميلة . . ظروف وحقائق أضفت على الصورة السودانية الوطنية والصورة العربية القومية ، ظلالاً قاتمة الخطوط والألوان . .

أولـها : ردّة أنور السادات ، وقبح الخيانة التي تردى فيها ، بتوقيعه اتفاقية العار مع العدو الإسرائيلي ـ في " كامب ديفيد " ـ ومضيِّه بلا حياء ، في غي تنصيب نفسه ونظامه ، كلباً لحراسة المصالح الإمبريالية والصهيونية ، حتى أضحى رأس الرمح للتدخلات والأطماع التوسعية الغربية ـ في الوطن العربي والساحة الأفريقية ـ التي

نحن جزء لا يتجزأ منها .

ثانيها : سقوط نظام الشاه . . وما ترتب عليه من خلل في التوازنات الدولية والإقليمية ، التي تأثرت كثيراً من قبل ، بقيام نظام حُكم ماركسي أودَى بأفغانستان المسلمة ، إلى براثن العملاق السوفيتي ، ثم تفاقم مضاعفات خلل التوازنات والموازين ، بممارسات " آيات الله " الإيرانيين ، وسلوكياتهم المجافية لروح العصر والمبنية على حسابات غيبية ميتافيزيقية ، اختلطت فيها مقاييس التحرر بالتوسع . . ومعاني الكفاح بالعدوان . وليس أدل على ذلك صدقاً ، سوى الإشارة إلى محصلة الحرب العراقية الإيرانية ، من حيث فداحة الخسائر على كافة المستويات : البشرية والإنشائية والاقتصادية ، لدى كل من الطرفين المتحاربين ، وما يترتب على ذلك من استنزاف معنوي ومادي مذهل ، يمثل رصيدا هائلا يجري إسقاطه من حساب الجانب العربي - المسلم ، لحساب العدو الإمبريالي - الصهيوني ، الذي يدّعي حكام إيران الجدد أنه " العدو المشترك " .

ثالثها : طيش النميري ونزقه وحماقاته ، وصيغ تطلعاته وأحلامه ، وقزمية طموحاته ، في عرض خدماته بدرجة " عميل العميل " ظانا أن الشعب السوداني الواعي المتمرس ، طويل البال قليل السؤال ، سوف ينسى له أنه كم حطّ من قَدْره وقلل من شأنه ، يوم أن رهنه في الأصفاد ذليلاً ، يقايض به في مزاد المساومات الاستعمارية . . وما تشير إليه توجهات الإدارة الأمريكية الجديدة ونواياها في تعزيز قُدُراتها العدوانية ، وتكثيف وجودها العسكري في وطننا وأرضنا ، تأهباً للانقضاض على حرية شعبنا وأمتنا العربية ، ادعاء بحماية ما تسميه " مصالح العالم الحر الحيوية والأمنية " .

كل هذه الاستقراءات والإشارات والتذكيرات لا تضيف جديداً ، إلى معرفة شعبنا وأمتنا بدقائق الصورة ودلالاتها ، وأبعادها وظلالها وخطوطها ، ومكوِّناتها ومكنوناتها . . لكننا نبادر فنوضح ، أننا قصدنا منها فقط . . أن نضع بعض النقاط تحت المجهر ، لعل أولئك البواسل الذين هم اليوم صامدون داخل خنادقهم ، والذين

التزموا بالوفاء وأقروا بالقناعة ، ونفذوا بالعزم توجيهات الحركة الوطنية السودانية الاتحادية الديموقراطية ، يعرفون أن انتصارهم في معركتهم - وهو حتمي - يعني بداية مسؤولياتهم وتعاظمها . . وأن الوقت قد حان - مع دقات ساعة العمل الوطني - ليتحركوا . . جماهير حاشدة ثائرة بعزم جديد وأمل جديد، خارج مجالات التحرك التقليدي، وداخل مواقع الجلادين والعملاء . . أعداء الحرية والحياة .

وختاما . . عشنا وليتنا لم نعش ، لنرى من يريد أن يعيد قديم الزمان الموغل في القدم ، رأينا آخر صورة تُوزَّع على العالم ، عن واقعنا وعن حالنا ، يظهر فيها من يريد أن ينتحل شخصيات سادت ثم بادت ، وأهملها التاريخ ، رأينا من يريد أن يبعث (نوري السعيد) من قبره ، رأينا من يدلي بالتصريحات للصحافة الأمريكية وينمِّق كلمات تلقاها ليدلل على وجود مؤامرة في هذا الموقع أو ذاك ، ويسدر في الغي متجاوزا كل أعراف اللياقة وقواعد الدبلوماسية ، منتهكاً كل الحرمات ، خالعاً رداء الشهامة ، ممزقاً أثواب الرجولة ، منادياً الغرب لكي يجتاح بلدا عربيا شقيقاً- هو ليبيا - من أجل تصفية قائدها معمر القذافي .

معذرة السيد رئيس النظام المايوي . . فإذا كان - نوري السعيد - إرثا بريطانيا ، فأنت جعلت من نفسك إرثا جاهليا . . يجسد عصر التمزق والتفرقة والخصام والتحريض . ماذا تريد ؟ وممن تريد ؟ وبئس ما أردت . . إذا كنت تريد تغييب الجماهير وتغفيلها وشغلها لتنسى ، فهيهات إن تدرك مبتغى دونه خرط القتاد . قد تستطيع أن تمارس بهلوانيَّتك وتستعرض مواهبك الفاشلة ، في المشي على الحبال الداخلية والإقليمية والدولية ، ولكن تأكد من أن الشعب العربي في السودان، يعلم مقدار وزنك وأثرك وتأثيرك، ويدرك القيمة الحقيقية لقُدراتك وجاهليتك ، وستكون له أخيراً- بقيادة حركته الوطنية - الكلمة الفيصل في ساعة الحسم . وساعة الحسم قريبة دون ريب .

دعوة إلى الثورة

لم تكن لمايو أوراقا خضراء ، ولم تنبت لها فروع يانعة سامقة ، منذ ولادتها وأثناء مسيرتها المتهالكة المرتعبة . . بشتى صنوف الأمراض الوبائية القاتلة ، ولكنها كانت ومنذ إعلانها شجرة صفراء شاحبة ؛ تتساقط أوراقها اليابسة صباح مساء ؛ وتأكل بنيها واحدا بعد الآخر ؛ ولا تخرج من كارثة إلا لتدخل في مأساة ، ولا تدلف إلى مشكلة إلاّ وتحلها بمشكلة أكبر منها . ولولا التدخل الخارجي السافر والمتواصل ، لما استطاعت أن تبقى يوما واحدا . فهي ليست امتدادا لنظام خارجي فحسب . . بل هي مستْعمرة : لها حكامها وحماتها وسادتها من غير السودانيين ؛ والذي يقرأ (الملف الأسود) ، المرفق بهذا العدد من (الدستور) ، لن يجد فيه جديداً ، بل ربما يكون على معرفة بما يجعل معلومات الملف ، عاجزة وقاصرة عن معرفة كل الحقائق أو جلْها وربما يمد لسانه لنا قائلاً : " ما أشد سذاجتكم وعدم تتبعكم للحوادث ؛ فالواقع أقبح وأسوأ من هذا بمرات . . بل إن الواقع هو : إنه ليس هناك وجود لزراعة أو مزارعين ، لصناعة أو صناع ؛ لأسلحة أو مقاتلين ، لأمن أو أمناء ، لشرطة أو خفراء ، لمحاكم أو قضاء ! هناك أرض محروقة ، وعلى القادم إليها إن يبعث فيها الحياة والأحياء " .

أنا أصدق كل من يقول ذلك . فلو تابعنا المعلومات من شتى جوانبها ، لكان ملفنا ملفات تملأ ما بين الأرض والسماء ! وحاولنا توخيا للأمانة ، أن نجد بابا مشْرقا واحداً نطرحه مع حلقة المآسي المتصلة ، وسلسلة الكوارث المتواصلة - وللأمانة وللتاريخ - فلم نجد ولا قبسا شريطيا واحدا أبيض ، يساعدنا على هتك أسداف الظلمات .

وهذه حقيقة بلادنا : إذا كانت بلادنا زراعية ، فيها مئات الملايين من الأفدنة وماؤها مدرار لا ينقطع . . فليس فيها زراعة الآن ولا زراع ، ولا مقومات للزراعة من آلات أو مخصبات زراعية أو مبيدات ؛ ولا مشاريع للزراعة الحديثة . . التي لنا فيها فتوى لا للعالم الثالث فحسب - بل لكل العالم ، ولا للزراعة الآلية أو التقليدية أو زراعة الخضر والفاكهة . . ولا الحبوب الزيتية ولا القطن . . الذي كنا أسياده .

مشاريع التنمية فاشلة ، ومحملة بأعباء لا تزيلها القروض ؛ والمشاريع التي تدنى إنتاجها إلى الصفر ، وأصبح العمل فيها حرثا في البحر ، وذلك في غضون سنوات ارتفع فيها سعر المواد الخام الزراعية في أسواق العالم عشرة أضعاف ، وأصبح إيراد البترول نفسه ؛ ذهبت كلها . . بفعل سوء الإنتاج وسوء التخزين ، وسوء الترحيل وفساد البيع ! وكذلك الأمر بالنسبة للثروة الحيوانية ومشتقاتها .

الصناعة الناشئة . . كلها حطام وإفلاس : لا مواد خام ولا قطع غيار ولا طاقة وكلها خسائر مركبة ومضاعفة ومستمرة ومفلسة . العمال عصب الحياة في بلادنا . . لا يجدون العيش الكفاف ، والفرق بين دخل الواحد منهم وصرفه . . . أضعاف الأضعاف .

المزارعون صانعو الحياة ، هجروا الأرض ، وأصبحت نسبة الرجال فيهم أقل من النساء بكثير ، وتكلفة الإنتاج تبلغ أربعة أو خمسة أضعاف قيمته ، فمن الذي يزرع القطن والسمسم والفول ، ومن الذي يحصده ؟ من الذي يجني القمح ، بينما دخل المهاجر الذي (يكنس) مطار جدة ، أكثر من دخل المزارع عشر مرات ؟ ولماذا يبقى ؟ من الذي يزرع الأرض ؟ ومن الذي يحرثها ؟

الحكومة تشجع . . . كأنما تريد أن يذهب الجميع ويتركوها وحدها ، ويحملوا معهم مشاكلهم ، ولكي تستفيد من رسوم الجوازات والخروج ، ويستفيد سماسرتها من الرشوة التي تصاحب ذلك كله . والذي يريد أن يبقى بلا زراعة ولا عمل - إن كان هذا ممكنا - فكيف يُعَلِّم أولاده ، وكيف يُعالِج نفسه وأسرته ! ومن الذي يحمي أمنه ؟ ومن الذي يُنقِذه من طارق الليل الذي يتشبث به ، لكي يسلبه حق الحياة في بلاده ؟ .

والناس في السودان موزعون قطاعات : بين المُتقرِّب (وهذه حاشية الحكومة التي تسرق وتنهب وتغتني) . . وبين المُغتَرِب (وهو الذي يترك أرضه وأسرته لكي يجد منافذ للحياة) ، وبين بقية السودانيين الجوعى والجهلى والمحتارين . . والذين يقفون اليوم أمام مكاتب الجوازات وسفارات الدول ؛ ونضيف إلى هؤلاء . . المُستغرِب (وتمثّله القلة التي تقف على السياج) .

لا زراعة ولا صناعة ولا أمن . . ولا علاج ولا تعليم ، بل هناك عسكر بكل أشكالهم وألوانهم ، يحرسون هؤلاء حتى لا يثور المزارع ، ولا يتوجع المريض ، ولا يشكو الجاهل! ولكي يتفرغ العسكر لواجبهم الأول والأساسي والمركزي، وهو حراسة تجار السوق السوداء) والحكام المرتشين ، والمرتزقة والمنافقين . . وطوابير هتافة وصفاقة الاتحاد الاشتراكي ؛ الذين تمنوا لأنفسهم الهجرة في هذه الأيام وجدوا تجربة السودانيين في الخارج أربح .

لقد توقفنا وتوقف العالم عن الكتابة في اقتصاد السودان ، ويعلم الجميع أنه ليس فيه اقتصاد ولا معلومات . فالتضخم قد يكون ويزيد . النقد الخارجي دون الصفر بمئات الملايين، الديون الخارجية ستة بلايين ، وهذا هو المعروف . . ففي السودان ديون لا تعرفها وزارة المالية؛ قد تزيد على الستة بلايين التي تعرفها ، وكل وزير يستدين ولا يحسب ولا يحاسب ، المهم أن يجد ما يستدينه ونسبة الفوائد . .

السودان أسوأ دول العالم اقتصاداً ، والخرطوم أغلى عاصمة في الأرض ، وربما في السماء ، الموازنة الداخلية لا وجود لها ، ناهيك عن البلايين التي طبعها نميري وزينها بصورته البهية ، ربما لكي يقلل من قيمتها الهابطة المتردية؛ ليست هناك إحصائيات ، وليس هناك دخل من الجمارك أو الضرائب بأشكالها؛ المحصول لا يرحل - إن وُجد - أو لا يباع؛ وإذا بيع أعيد ودفعت عنه الغرامات لأنه مليء بالآفات؛ والمزارع لا يجد سعراً لإنتاجه ، إما لأن شركة الحبوب الزيتية تحتفظ به (لإدوارد بنو) وأشباهه ، الذين ازدادوا ثراء بعد المصادرة المزيفة، وإما لأن الفول محتكر (لأزمرليان) لكي يشتريه بتسعين قرشاً للجوال . . بينما سعره ستة جنيهات .

وهكذا تتسلسل حلقات من السرقة المكشوفة ، التي لا تعرف الحياء ولا حتى الرحمة . كل من يزرع، وكل من يصنع، وكل من يعمل، عبد . . لا حق له ولا حول ولا صوت ، ولا حقوق نقابية .

وإذا همس أو استنكر . . فهناك الجندرمة ببنادقها وسياطها وقذائفها؛ لكي ترد ثورة العبيد التي قرأنا عنها في القرون السابقة ، والقضاء تابع للجندرمة؛ لأنه جزء

من قطاع السلطة المأمور والمسلح بدبابات عتيقة وبالية؛ تستعرض نفسها من أجل الردع الأدبي والنفسي؛ وهي خاوية من القذائف وعاطلة؛ ومهمتها تخويف شعبها نساء ورجالاً؛ ونميري لم يكتف بصورة تظهره - يومياً - وعلى صدره وكرشه كراديس الأوسمة المستوردة؛ بل أضاف إلى ذلك صورته البهية، في أوراق عملته الزائفة الفاقدة القيمة؛ لكي يصابحها الناس من صباح الرحمن . . ويماسونها مع ليل الخرطوم القاتم . . فتزيد حياتهم نكداً على نكد، وهو في هذا معذور . . فقد اقتدى بسلفه الصالح تمبلباي حامل مفتاح مدني، وبوكاسا حامل مفتاح الخرطوم ، وعيدي أمين حامل مفتاح جوبا؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله : مسخرة وسخرية واستهتار وغيبوبة ومهانة وإذلال وانحطاط؛ لم تصل إليه حكومة من قبل ، ولم ينزل بشعب ولم يحل بأرض .

" الدستور " : مجلة التحالف الوطني القومي ، الممثلة لقطاعات الشعب السوداني المناضلة المقهورة؛ والمتبنية لقضاياها ومعاناتها ومشاكلها العاملة؛ والمؤمنة بوجوب إسقاط هذا النظام العميل ؛ وإعادة الحريات الديمقراطية جميعها إلى الشعب السوداني ، والواقفة مع حقه في المواطنة الصالحة؛ وفي الوحدة والحرية والاشتراكية المؤمنة - بكل الجسارة والصمود والتحدي - بالأمة العربية . . وبرسالتها الخالدة الواقفة ضد الإمبريالية والاستعمار ، المؤيدة للحياد الإيجابي وعدم الانحياز الرافضة للقواعد العسكرية : الظاهر منها والمستتر ، المتمسكة بوحدة الأمة العربية صفاً وهدفاً الرافضة لسياسة المحاور والدوائر ، المحايدة رأيا وفكراً إلا في قضية الشعب السوداني والأمة العربية ، التي لا تؤمن بسياسات الحلول الوسطى في فلسطين، والتي تطالب بالدولة الديموقراطية الكاملة الأرض ، غير الدينية، وغير العرقية، وغير التوسعية وغير المرتبطة بالاستعمار . . و" الدستور " : التي تقف مع معارك العرب طرفاً أصيلاً ومقاتلاً جسوراً - لا وسيطاً ولا متوسطاً - لا هياباً ولا وجلاً، لا مساوماً ولا متردداً المؤيدة لوحدة الأمة العربية الشاملة والكاملة والفعالة والفاعلة ، تقدم هذا (الملف الأسود (لكل العرب ، في كل قطر عربي ، وفي كل مهجر ولكل مغترب ، ليس في

السودان وحده ، باعتبار أن قضية الشعب السوداني . . هي قضية العرب جميعا وإن همومه ومشاكله هي همومهم ، وإن مذلته وعاره وبؤسه وشقاءه، هي مذلتهم وعارهم ، وإن التضحية في سبيل استرداد حقوقه المشروعة ، وإزاحة الحكم الجاثم على صدره . . هي واجبهم جميعا . وليتذكروا أنه صلتهم بأفريقيا ، وإطلالتهم على البحر الأحمر ، وحزام أمنهم وثرواتهم؛ وليتذكروا ـ فوق ذلك كله ـ إن الشخصية السودانية هي جماع الشخصية العربية : أصالة ولغة وثقافة وتاريخاً ونضالاً وشجاعة وحمية وحضارة، وأن ترديها في حالة المسخ والتسيب . . هي مسؤولية العرب أجمعين .

إننا في " الدستور" . . نطالب إخوتنا العرب بواجباتهم التاريخية والأزلية نطالبهم حكاماً؛ ونطالبهم منظمات، ونطالبهم شعوباً ، ونطالبهم أفراداً؛ ونطالبهم نساءً ورجالاً ، كباراً وصغاراً . . بأن يتصدوا لواجباتهم المقدسة هذه؛ بكل الجسارة وكل المواجهة وكل التصميم . نطالب الحكام العرب ، بإيقاف أي دعم مادي أو عسكري أو معنوي ، لأن أي درهم منه يذهب لجيوب اللصوص ؛ ويزيد من شقاء وبؤس وتعاسة أشقائهم في السودان . نطالب المنظمات العربية المناضلة ، بالوقوف مع كفاح الشعب السوداني ونضاله من أجل أسقاط النظام العميل الفاسد . نطالب الأمة العربية باتخاذ كل المواقف الإيجابية ، التي تدعم نضال الشعب السوداني من أجل الخلاص . نطالب المصارف العربية بأن توقف كل مساعدة للسودان ، وأن تدرس بحياد ، الموقف المتردي الحالي ، والذي لا تزيده المساعدة إلا ترديا . نطالب المناضلين العرب ، بالانضمام إلى صفوفنا حتى يثبتوا أن قضية الحرية هي قضية واحدة . . في كل الوطن العربي . .

وقبل كل هذا؛ ومع كل هذا ، وبالإضافة لكل هذا ، نطالب المزارع السوداني (وهو يعرف قضيته) أن يتخذ موقفاً موحداً وصلباً وإيجابياً . . تجاه السلطة الغاشمة . نطالب العامل السوداني بأن يتذكر تاريخه؛ في الكفاح الوطني والنضال النقابي ؛ وأن يتخذ كافة الوسائل الجماعية الشجاعة لإسقاط السلطة الغاشمة . نطالب المهنيين

السودانيين بمختلف تجمعاتهم ومواقعهم ، بالوقوف صفاً واحداً موحداً وجماعياً ؛ في سبيل قضية بلادهم السياسية وقضاياهم النقابية . نطالب الشعب السوداني ، والأسرة السودانية ، بأن تدفع عن نفسها الجوع والموت بالتحرك الإيجابي . . نطالب الطالب الذي لا كتب له ، ولا مدرسين له ، ولا مواصلات له ، ولا دراسة ولا تحصيل ، أن يتقدم الصفوف . . مثلما فعل أسلافه في كل ثورة قام بها هذا الشعب ، صانع الثورات .

نحن لا نتوجه إلى حزب معين ، أو جماعة محددة ، أو قيادة معينة ؛ فكل سوداني أهل للثورة ، وصاحب لها . الثورة ليست حكراً لأحد ، ونحن لا ننادي من موقع قيادة ولا زعامة ، بل من موقع مواطنة . . مثلنا في ذلك مثل أي فرد عادي من أفراد الشعب . إن التحالف ليس احتكاراً للحكم ، ولا وارث له ، ولا عدو للآخرين ولكنه واجب وطني يقوم به البعض . . ولا يسقط عن الآخرين . لسنا ورثة حكم ولسنا متآمرين مع جهة من الجهات ، وإنما نؤدي واجباً ، من الواضح أنه واجب الجميع ، وكلهم مرحب به قيادة وقاعدة .

وبعد ...

فقد يقول الناس إنكم تكلمتم كثيراً ، وهذا صحيح . . فالرسالات والنضالات هي إرشاد وترشيد وتوجيه وليست حرباً فقط . وقد يقول الآخرون إنكم تناضلون من الخارج - من الهجرة - ونحن نتحدى أي رسالة ، وأي نضال لم تكن فيه هجرة وأي كفاح لم يكن فيه من في الداخل ومن بالخارج . . ولكلٍ دورهُ . . ولكلٍ واجبه وقد يقول الآخرون إنكم تهددون بالحرب ، وأنتم لا تستطيعون قتل دجاجة ، و لا نريد القتل ، ولا نطلبه ولا نتمناه . . وكل دم يسيل من أي جانب ، هو دمنا يسيل من وريدنا والله أعلم .

ولكننا أيضاً - إذا قتلنا - لا نغتال ولا نقتل الجراد . . فما أكثر وما أسهل قتله . . وسنترك ذلك لأصحاب الوراثة العرقية في الثورات ؛ الذين يغمى عليهم عند رؤية الدم ، والشواهد كثيرة بين خصوم اليوم وحلفاء الأمس . وإذا استبحنا أي وسيلة

للكفاح - بعد اليوم - فعذرنا أننا كتبنا وتكلمنا وحاضرنا ، وظن الآخرون أننا نهزأ . . وما أشد جهالتهم . إن كل من يرضى بما يجري في السودان اليوم ليس من أبنائه ناهيك عن أن يكون من ثواره ، أو وراثة أو عصامية ، نحن ندعو للإضراب السياسي، والعصيان المدني، والاحتشاد الشعبي، وسنحدد ميعاده وأساليبه ووسائله وسيكون سليماً ومسالماً بإذن الله ، إلا إذا أراد أحد أن ينتهك حرمته بالخوف وبالضرب، وعندئذ فسنعرف كيف نحميه وليتحمل كل وزره وفعله .

أيها السودانيون :

أسقطوا هذا النظام العميل المنهار . . يا زراع السودان ، يا عمال السودان ، يا طلاب السودان يا رعاة السودان، اتحدوا وانقضوا وانتظروا ساعة الصفر، انتظروها وانتم على موعد مع الحياة وعلى موعد مع الموت .

عاش كفاح الشعب السوداني .

يسقط النظام العميل الفاسد !

ولترتفع عالية وخفاقة راية الحرية ، ولن تسقط أبداً بعون الله .

" الدستور " ٢٠ أبريل - ٣٠ مايو ١٩٨١م

القوات النظامية والملف الأسود



الشريف مع أحد الصحفيين

باسم القوات المسلحة السودانية ـ وببضعة أفراد فقط منها ـ استولت (مايو) على السلطة وأطلقت شعاراتها (التي لم تليث أن نكست وتعرت ؛ وأصبحت سخرية. بطانة مايو نفسها وأتباعها) : "مايو للعمال . . مايو للزراع . . مايو للطلاب . . مايو ضد الامبريالية والاستعمار . . مايو من أجل القومية والوحدة . . مايو للتنمية . . مايو للتأهيل والتعليم . . مايو للخدمات الصحية . . مايو للانفتاح على الأقاليم . . مايو ضد الإقطاع . . مايو ضد سيطرة رأس المال . . مايو لترشيد الاقتصاد . . مايو للأمانة . . مايو للأداء والإدارة . . مايو للاستقرار السياسي والنفسي" وهكذا . . مئات الشعارات رددها آلاف المأجورين والمخدوعين . .

والذي يحكم الآن ليس هو (مايو) الشعارات الزائفة . . ولا هو حكم له أي سمة أو تسمية . . بل فوضى لا ضبط فيها ولا ربط ؛ كل فرد فيها حكومة . . عليه أن يحافظ على أسرته وأبنائه وبناته وأمنه ؛ ويؤمن أكله ـ إن كان هناك أكل ـ ويعلّم نفسه

وابنه وبنته؛ ويعالج مرضه. ولأول مرة في تاريخ العالم، تقوم حكومة على هذه الأسس. لا علاقة للشعب بالحكومة . . ولا علاقة للحكومة بالشعب. الشعب في واد . . والحكومة في واد. الحكومة تحكم، والشعب يتساقط. والسؤال باسم مَن تحكم هذه "الفوضى"؟

لا جدال ولا ريب . . أنها تحكم باسم كل من يرتدي زياً عسكرياً أو شرطياً أو أمنياً . . ولقد اقتطعت مايو من ميزانية الدولة - كعادتها - إرضاءات ومكافآت وعلاوات؛ وبدلات وامتيازات كثيرة، أغدقتها على القلة التي تحرسها في القوات المسلحة . . ومع ذلك فإن كل هذا - مع تأثيره على بقية أفراد الشعب - لم يؤد إلى أي تحسن في معيشة أفراد القوات المسلحة . . جنوداً أو صفاً أو ضباطاً. وهم الآن يحرسون سرقة وفساد ورشوة واستقلال - نفوذ طبقة محددة؛ لو أجهدوا أنفسهم في تعدادها، لألقوا بها في النهر جميعها . .

إن كل ما يعانيه الشعب السوداني - وهو كثير يصعب على العد ويكثر على الحساب - هو مسؤولية القوات المسلحة السودانية . . هي التي أتت به؛ هي التي أعطته الحماية هي التي قتلت في سبيله؛ هي التي تحاول الآن أن تحول بينه وبين رياح التغيير العاتية الآتية. ليس هناك ما لا تعلمه وما لا تعيشه؛ أو ما لا تعايشه وما لا تسمعه . . وليس هناك ما لا تدريه في أقاليمها المختلفة؛ وهي عاجزة - ويا للعار - أن تغير أي شيء: لا بيدها، ولا بلسانها، ولا حتى بقلبها.

إن عليها أن تعلم . . أن مسؤولية كل الذي يعانيه الشعب السوداني - من إذلال وبؤس - هو مسئوليتها ومسؤولية أي بندقية تحملها . . وأن السودانيين لا ينظرون إليها إلا على أنها مثل عصابة المدحور سوموزا؛ وجندرمة عيدي أمين؛ وخفراء تمبلباي وحراس بوكاسا. فإن الحكم عندنا، قد وصل إلى مراحل أحط من كل هؤلاء؛ وإذا استمر الحال مثلما هو عليه، فلن يجدوا مرتبات - حتى من الورق الفاقد الأهمية - يصرفونه؛ ولا سلعاً (يأكلونها أو يلبسونها)؛ ولتاهوا في خضم السلب والنهب والضرب؛ الذي هو قادم لا ريب فيه؛ إذا استمروا في عماهم . . واستمر معهم

" رئيسهم القائد " .

إذا كان هناك ضابط واحد ينام مرتاح الضمير ؛ راضياً عن حكمه مرضياً عليه من ربه . . فهو كاذب ؛ وهو يعلم ذلك . . فإذا استعمل أي منهم سلاحه منذ اثنتي عشر سنة ، ضد عدو خارجي . . فهو كاذب . فإذا أخاف به الجياع العراة الحفاة المرضى والجهلة الأشقياء من أهله . . فهو صادق . فإذا كانت هذه مهمته فليستمر فيها . . فلكل بداية نهاية ؛ ولكل قوي من هو أقوى منه ؛ ولكل ظالم يوم . . والجاهل السكران هو الذي يتذكر قدرته على الناس . . والظالم الجبان هو الذي ينسى قدرة الله عليه . ومع هذا فما الذي وجدته القوات المسلحة من مايو :

١- بضعة جنيهات زيادة ذابت في محيط السوق الأسود ؛ قبل أن تصرف لأهلها وابتلعها طوفان التضخم .

٢- حالة من المجاعة والانهيار لم يشهدها أي واحد منهم في إقليمه ؛ ولم يسمعها ـ حتى قبل ولادته ـ وقبل ومنذ الاستعمار .

٣- . أسلحة محطمة . . وركام لا تستطيع إن تجابه به عدداً من الرعاة ؛ باع دباباتها نميري ليوغسلافيا ، وكذلك طائراتها . . وجيش السودان لا يملك الآن ما يزيد

- على الست عشرة دبابة روسية " ٥٤ " ؛ وما يقاربها صينية ؛ وبضع مركبات " صلاح الدين " . . وفِرِّت ؛ و " كوماندو " من مخلفات الحرب العالمية الثانية لا تتحرك إلا إذا عمل فيها الفنيون المصريون ليل نهار ؛ ومع هذا فهي تتوقف كل ثلاثة أميال . . ومدافعها ملتوية ، وهي لا تستطيع السير في حرارة الشمس ساعة واحدة ؛ وإذا اتجه رتل منها مكون من ثمانية ؛ تصل واحدة . . أو حتى لا تصل وقذائفها كلها تعطيها دول معينة بالاستجداء ؛ وتكون قد بلغت نهاية عمرها . . ثم تجد طريقها عندنا للسوق السوداء ولحرب القبائل . لقد نجحت قيادة الجيش السوداني في تسليح السودانيين ؛ وفشلت في تسليح نفسها ! وهذا ما ينطبق على الأسلحة الصغيرة والرشاشات المتوسطة والثقيلة ؛ وعلى مضادات الدروع وعلى مدافع الميدان والألغام " ١٠٠ رطل " التي تستقر الآن في المتاحف . . كأثر من

آثار التاريخ .

وليس في السودان طائرات نقل (وقد أتلفت كل الأنتينوف) وهم في حيرة من أمر تصليحها؛ وبقية الأربعة " ١٣٠ سي " الأمريكية العتيقة؛ التي أعطيت بالثمن الباهظ؛ وهي في خريف العمر تلفظ أنفاسها الأخيرة ! وهي تستعمل لنقل بضائع السوق السوداء المهربة . . من الجنوب أو الشرق أو الشمال ! وتديرها عصابة ذات رتب عسكرية براقة؛ تتمتع هي وحدها بالضبط والربط . . ولم يبق من طائرات الميج الاعتراضية ١٥ ، ١٧ ، ١٩ والقليل من ٢١ ـ روسية أو صينية ـ غير اثنتين يمضي الفنيون وقتهم في إصلاحها؛ ووقتهم الآخر في إفسادها . . وأكوام طائرات الهيلكوبتر الشهيرة ـ التي أكل فيها من أكل ، وسمن فيها من سمن ـ كلها موجودة تنتظر تاجر الحديد الخردة الذي يشتريها . وليس هناك غير أربع طائرات ألمانية؛ تحمل صواريخ ضد الآليات ومدافع رشاشة وقد تكاثرت أعطالها .

وبعملية بسيطة . . نجد أن كل هذا هو سلاح الجو السوداني، وهو كل سلاح القوات المسلحة السودانية ! فإذا أضفنا لها ثلاثة زوارق طوربيد . . مسلحة برشاشات عتيقة ورديئة ، نستطيع أن نضيف ـ إلى أكوام الحديد المكوم في صدر المشير ـ ما تسميه بالسلاح البحري ؛ ومع هذا وقف مندوب القوات المسلحة — في الاجتماعات المحمومة المرتعشة؛ التي عقدوها أخيراً ـ ليقول : " نحن لا نحكم ولا نعرف من يحكم . . وليست هناك منظمات ولم نر لها دوراً . . وكلما تعرض الحكم لأزمة ، دفعنا نحن الثمن . . وأنا أشتَمُّ رياح يوليو وسبتمبر " . ولم يقل له أحد لماذا تدافع عما لا تعرفه ولا تؤيده؟ وما تسمع عنه اللعنة من كل فم ! إن كنت لا تتقي الناس . . أفلا تخشى الله ؟ ومن أنت ؟ هل أنت " إنكشاري " . . مهمتك إن تطلق بندقيتك على المظلوم والمقهور ؟ وهل هذه تقاليد أهلك؟ أم هو دينهم؟ أم تراثهم . . أم تاريخهم ؟

ألم تسمع ولم تقرأ عن ثورات الجيوش والشعوب وأسبابها ؟ وهل ترى أسباباً أكثر من ذلك ؟ أم لأنك تدخل بسيارة الحكومة ، وتأخذ متطلباتك من جمعية الجيش

التعاونية ؟ ويضيء بيتك ويظلم بيت جارك ؟ ثم تأكل في الظلام، حتى لا يطرق طارق الباب ـ وهو على الطوى ـ يسألك خيرات الجمعية . . هل أنت لوحدك طينة وكلهم طينة أخرى؟ فإذا كانت طموحاتك قاصرة على جوال السكر، وصندوق الشاي، وقطع الصابون، تختطفها من أهلك الجياع . . لأنك أنت السلطة ؟ ألم تسمع بسيارات الجيش التي تهرب السلع . . من وإلى الجنوب؛ ومن وإلى الشرق ومن وإلى الغرب ! وبطائرات النقل . . تحمَّل بالثلاجات والمسجلات، والبطاريات والخراف، والبوتاجازات، وثلاجات الديب ـ فريزر وثياب الشفون؛ وعلى رأس شبكاتها قادة جيشك . . ومثلك الأعلى في الطهارة والنقاء والضبط والربط ! ثم ألم تسمع بصفقات المنازل الجاهزة؛ وأدوات الاتصال السلكي واللاسلكي؛ وأدوات الاستماع والمايكرويف؛ والتي تبلغ عمولاتها مئات الملايين من الدولارات . . سدنتها هم المشيرات وأشباه المشيرات ؟

• أو لم تر المنازل المتعددة والأثاثات من إيطاليا ؟ ورُخص الحديد والأسمنت ؟ والمنازل التي تؤجر بآلاف الجنيهات شهرياً . . وأنت تعرف أصحابها ! كانوا ـ وإلى وقت قريب ـ يصرفون شيك العشرة جنيهات بثلاثة أمثاله؛ ليجلسوا على موائد القمار الخضراء . ألا تحوم أذنك على مجالس الخرطوم فتسمع فيها العجب ؟

وفي ملحق هذا العدد، سنبين لك الصفقات؛ ونحدد الأسماء؛ وستعلم إن لم تكن تعلم أي عصابة تخدم ! ثم ألم تسمع بشركة "استرا باك" التي ستُعطى ميناء سواكن بلا عطاء؟ وبتكلفة تفوق نصف بليون دولار عن تكلفتها ؟ هذا . . هو فساد المؤسسة التي تنتمي لها؛ ولو سردنا لك فساد المؤسسة التي تحميها أنت بجيشك لكسرت بندقيتك ورميتها في الخلاء . كم زيدت المرتبات، وكم زيدت العلاوات وكم زيدت البدلات، وكم زيدت الامتيازات ؟ نترك ذلك لك ولضميرك ؛ ونرجو أن تقارنه ببقية العشرين مليونا . . وتخطرنا . ألا تخجل وأنت تختال بالرداء العسكري وسط الكادحين ! ولا بد أنك مدرك إعجاب الشعوب بجيوشها وتقديرها وتقديسها لها ؛ ولا بد أنك تلمس وتحس وتذوق مدى الاحتقار الذي يترامى من

الأعين حولك؛ فإذا تركنا جانبي التسليح جانبا، وعلمنا أن ما بيد جزيرة سيشل أقوى وأعتى وأكثر مما لديكم . . فلنتكلم عن التدريب .

ما هو موقف التدريب الفردي منذ عشر سنوات؟ كم وقتا يأخذ لإعداد الجندي ومعرفته بسلاحه واستعماله ؟ ومن الذي يعطي الجندي سلاحاً يستعمله لإكمال التدريب؟ وحتى إذا تمت مناورة للتدريب، ألا يتحكم رجال الاستخبارات في كل قذيفة - مهما صغرت – ويسلمونها بأيديهم ؟ وما هو موقف التدريب الفردي - وهو في حكم العدم - حتى أتى رب التدريب (أوعبده لا ندري) وأجرى مناورة جماعية في شيكان؛ كلفت الملايين . وافتقد كل أفرادها للتدريب الفردي؛ وانتهت بالمأساة الشهيرة التي مات فيها باقة من شباب الجيش؛ والتي حددت لجنة التحقيق مسئوليتها وكان المفروض أن تطير فيها رؤوس . ولكن التحقيق أعيد ثم أعيد ثم حفظ؛ كما حفظت مئات التحقيقات التي حددت الخطأ والمخطئ؛ ولكننا في عهد تقع فيه الأخطاء ولا يحاسب فيه المخطئ . . بل يكرم !

فإذا أضفت إلى أكوام الخردة التي تسمى أسلحة ، طوابير الرجال الذين لم يدربوا - لا فردياً ولا جماعياً - علم أي جيش هذا ! فإذا أخرجت منه الأسلحة الفنية - كسلاح الخدمة والصيانة ؛ والسلاح الطبي والمهندسين والإداريين - لعلمت حجم المأساة . . وأضفت إليها أسلحة الموسيقى والاستخبارات، لعرفت أن القوة (الضاربة) وهذا تعبير مجازي . . لا تتعدى بضعة آلاف مبعثرة على حدود ثمانية . . ليس لها أعداد ولا سيارات ولا وسائل إمداد، ولا إمدادات طبية ولا أسلحة . . وهذه هي الثورة التي تفخر بها، بأنها تفجرت من الجيش وتعمل لأجله؛ لا تستطيع أن تقف أمام أي هجوم ساحق . . أكثر من ساعات قلائل .

فإذا نظرت إلى الروح المعنوية، وجدتها في منحدر الحضيض؛ ووجدت التوجيه المعنوي مجرد إنشاء؛ لا علاقة له بالسودان: لا لغة ولا نطقا ولا تاريخا . . ولكنه تأليه للفرد؛ منقول كله من توجيه وترشيد أجنبي . . فإذا تأملت الضبط والربط رأيته وقد انفرط ! وهو العمود الفقري لأي جيش؛ فلا ضابط يستمع لمن هو أعلى منه؛ ولا

صف ضابط ينفذ أوامر ضابطه؛ ولا جندي ينصاع لصف ضابطه . . وكأنه في جيش (الشفتا)؛ كل فرد منه يكوِّن وحدة منفصلة . . والمحسوبية والشللية والصداقات والمحبات ! هي عماد الترقي . . وسبيل البعثات وطريق القيادات ! وهذه سنة المشيرات ! يُرقَّون بلا كفاءة، ويُطردون بلا مبرر؛ ولكل منهم جيشه يتصرف فيه كيف شاء . . واجتماعات القيادات هي (للبصم) على قرارات اتُّخذت ليس فيها نقاش وينعدم فيها الرأي وتختفي الشورى؛ وتصبح أقدس صفة يتمتع بها أي جندي في العالم ـ وهي الشجاعة ـ في خبر كان .

ولك أن تتصور جيشاً بلا أسلحة؛ وبلا تدريب وبلا ضبط ولا ربط؛ ولا تأهيل ولا عدل . . أي جيش هذا ؟ وأي معركة يخوضها ... إلا ضد مواطنيه العُزل؛ وعليه يقع وزر الدرك الذي وصلت إليه البلاد؛ والمسؤولية التاريخية في تدهورها . . وقد انعدمت الثقة بين أفراده؛ فلا يستطيع الشقيق أن يهمس حتى في أذن شقيقه؛ فهو غائص في الخوف يتوارى وينزوي؛ يكاد يموت خجلاً من شرف الرداء العسكري الذي يرتديه . .

إن كان أي أحد ـ من أفراد القوات المسلحة ـ لا يدري ما الذي يجري في البلاد فهذه مصيبة . . وإن كان يدري ويسكت؛ ويخاف ويغطي وجهه بقبعته العسكرية . . فالمصيبة أعظم . ولماذا يهتم ذوو القبعات الحمراء؛ أصحاب ناطحات السحاب؛ في غابات الأسمنت في الرياض والمنشية والحدائق وغيرها؛ وهم مشغولون برخص الأسمنت وبالبلاط والأثاث المستورد بالطائرات من إيطاليا . . والتي تبلغ تكاليفها نصف المليون من الجنيهات؛ حتى لا يستطيع بناءها أغا خان أو شاه إيران؛ ولو سألهم أحد من أين لكم هذا ؟ حتى لو كانت مرتباتكم وفراً من عهد آدم إلى الآن . . لأشهروا في وجهه السلاح . وهذا هو ردهم الوحيد حيث لا رد غيره . .

إذا كان هناك من يرضى أن يكون جيش بلاده عصابة ميلونيرات؛ تحمي سرقتها وسرقة الطبقة من المدنيين التي خلقتها؛ فإن الله قادر أن يجعل عالي هذه البلاد سافلها . . ولكنا نعلم ـ العلم اليقين ـ أن هناك من يحصي كل ذلك؛ ويضيف إليه مزارع

الأنس والسمر وحسابات البنوك الخارجية . . ومن يعمل في شجاعة وإصرار؛ لأنه لا يرضى هذا لجيشه ولا لشعبه؛ ولا لردائه العسكري وشرف أمته القتالي؛ وسينقض بكل الحقد الثوري، والعنف الشعبي . . ويومها لن تنفع البروج المشيدة؛ ولا السراديب التي تجري تحت الأرض . . وهناك من لا يرضى جيشاً متفسخاً؛ غير مسلح وغير مدرب؛ مقسماً إلى قبليات وإقليميات وأسريات وعصبيات؛ وألوان خضراء وسوداء . .

إن الجيش السوداني مسؤول عن هذا النظام منذ نشأته . . مسؤول عن فساده . . مسؤول عن رشوته . . مسؤول عن فجوره وفسوقه؛ مسؤول عن سرقته لأموال الشعب؛ مسؤول عن إهداره لمقدرات الأمة؛ مسؤول عن سلوكه البشع . . عن شخصياته المرتزقة المنافقة؛ مسؤول عن الاثنتي عشرة سنة التي أضاعها على البلاد مسؤول عن استمراره - وكل يوم في استمراره هو - سنين إلى الوراء . . وقرون في الهاوية . فإذا لم يسعفه شرف المواطنة؛ ولم تشجعه زمالة حمل السلاح؛ فعليه أن يرمي بأسلحته وأرديته؛ وأن يهرب متوارياً مترديًا يكاد يخلع رداءه العسكري قطعة قطعة؛ لكي يعود نقياً تقياً كما ولدته أمه؛ فما أكثر بقع الدم التي لطخت رداءه! وما أغزر وصمات العار التي دنسته! وما أشد وخز الضمير والإذلال العصبي ومركبات الخطأ ومترادفات الخطيئة! فإذا خلا أي جندي بنفسه - وإن استطاع فلربه - وسألته نفسه هذه الأسئلة؛ ترى ماذا ستكون إجابته عليها!

١- هل هذا الجيش الذي أنتمي له ... له سلاح الجيوش ومعداتها وخلقياتها وضبطها وربطها واحترامها وتقديرها لشعوبها ؟

٢- أليس هذا نظام فاسد وساقط ومرتش وآثم وقاتل وسارق؟ ومطعون الكرامة داخلياً؛ ومجروح العفة خارجياً؛ والكل - حتى الطفل - يعلم ذلك؟ إذن لماذا أدافع عنه وأتحمل وزره؟ وهل هذا واجبي؟

٣- لماذا علمني الشعب وسلحني؟ ألأكون فرداً في عصابة تلتهم الأرض؛ وتنهك العرض؛ وترمي إليَّ بالفتات؛ كما يرمى السيد الفتات . . لكلاب حِراسته

وقططه ؟

٤- لماذا أهدد الناس وأنا أعجز من أن أهدد أقل عدو ؟ ولماذا أخرسهم بالرصاص وأنا أعلم - يقيناً وثبوتاً - أن الناس على حق ؛ وأنهم جوعى ومرضى وجهلى وأطفالهم بلا مدارس، ومرضاهم بلا مستشفيات، وبلادهم بلا إدارة . . وكل الذي فيها حفنة من رجال العصابات وقطاع الطرق ؛ و(المافيا) والسماسرة . . وقصصهم تملأ الأفق في ظلام العاصمة الدامس، وجوها القاتم، وجوعها الكافر . . وأهلها الذين أصبحوا أنصاف آدميين .

٥- إذا كنت أفعل كل ذلك ؛ وأمتطي السيارة الفاخرة ؛ وفي مؤخرتها أكوام الخبز - وهو عملة نادرة - وأملأ كرشي ؛ وجاري جائع صائم لا يطعم أولاده . . فهل أنا سوداني ؟ وهل هذه أخلاق السودانيين ؟ وهل هذا تراثهم وسماتهم وسيماهم ؟ فإذا اعتبرت نفسي بعد ذلك سودانياً ؛ فهل استحق أمانة - وزمالة - وشرف . . حمل السلاح في جيشه ؟ وأسمي نفسي رائداً ومقدماً وعميداً . . ولا أنا بالرائد ولا بالمقدم ولا بالعميد ؟

وإذا لم تكن إجابته قاطعة وواضحة - في موقف ليس فيه غموض - فليعرف أن احتكار حمل السلاح قد انكسر أو كاد ؛ ولينظر حوله إلى تشاد وإلى لبنان . . وإلى غيرها . وعند ذلك فلن يكون هو - ومن يفكر مثله - الأكثر عدداً ، ولا الأقوى تسليحاً ، ولا الأشرف قضية . . فهل يستمع ؟ فلم تعد هناك ساعة من وقت !

" الدستور " ٢٠ إبريل - ٣ مايو ١٩٨١م

ما قبل الانهيار

نعترف - بكل الأمانة والصراحة؛ وبكل صِلات المواطنة التي تربطنا بكم - نعترف أننا لا نستطيع أن نحصي الانهيارات التي تسود بلادنا . . بل في واقع الأمر، إننا نعترف لكم أنه لم يبق في بلادنا شيء غير منهار . . اقتصاد بلادنا منهار وإلى الحضيض . . سياسة بلادنا الخارجية عميلة وذيلية ومنهارة إلى الدرك الأدنى . . إدارة بلادنا متدهورة ومنحطة بل لا وجود لها . . الأداء في بلادنا معدوم وكل مواطن في بلادنا أصبح حكومة قائمة بذاتها؛ حيث الحكومة في بلادنا لا دخل لها بأمر أي مواطن . . . فعليه أن يحمي نفسه من السلب والنهب، الذي اجتاح بلادنا بالأسلحة وبالعصابات . . التي تشترك فيها الشرطة والأمن .

المواطن في بلادنا مضطر لحماية نفسه من هذا؛ إذ لا أمن في البلاد . . لا في عواصمها ولا في بواديها . المواطن في بلادنا عليه أن يعاني - معاناة يومية - لكي يدبر قوت يومه من السوق السوداء؛ ولكي يركع حتى يجد حد الكفاف . . له ولأسرته . المواطن في بلادنا مسلوب من الحرية ومن حكم القانون؛ ومن الآدمية والبشرية . المواطن في بلادنا مستعبد لا رأي له ولا فكر . المواطن في بلادنا خائف تتبعه أجهزة القمع والبطش والتجسس . . والمواطن في بلادنا سجين سلطوا عليه أجهزة التعذيب الوحشي آناء الليل وأطراف النهار .

المواطن في بلادنا جائع لا يجد ما يأكله ومفلس لا يجد ما يصرفه، وميزانيته خربة لا تكفي أبسط ضروريات حياته . والمواطن في بلادنا لا يحكمه القانون، ولا يعرفه القضاء، ولا تشرف عليه إدارة، ولا يجد العلاج ولا الدواء ولا الكساء . . ولا يجد أدنى الخدمات الصحية أو التعليمية . . المواطن في بلادنا رعية وليس مواطن . المواطن في بلادنا مسلوب الإرادة . . المواطن في بلادنا أصبح كالسوائم؛ يباع ويشترى ولا يملك من أمر نفسه أو أسرته شيئاً . المواطن في بلادنا فاقد للأرض وللعرض . المواطن في بلادنا غير آمن على أسرته بنيناً كانوا أم بنات . المواطن في

بلادنا غير آمن على شرفه ولا خبزه ولا حياته . المواطن في بلادنا مغترب الروح ومغترب الجسد . المواطن في بلادنا لا ينتمي لها إلا جغرافياً . . وهو منفصم عنها وجدانياً وانتمائياً وعاطفياً . المواطن في بلادنا تحكمه أجهزة الأمن وعساكر الأجانب . المواطن في بلادنا عليه مذلة القواعد . . ومذلة الاستعمار . المواطن في بلادنا عليه أن يحمي نفسه ؛ وأن يطعم نفسه وأسرته ؛ وأن يعالج نفسه ؛ وأن يعلم أبنائه ؛ وبذلك أصبح حكومة لوحده . . وأصبحت الحكومة لا صلة لها به ؛ إلا صلة القهر والظلم والفجور والفساد .

إن مثل هذا الذي تعايشون وتعلمون ـ وكثيراً غيره تعلمونه أكثر منا ـ لم يحدث في بلادنا في الماضي منذ أن استقلت . ولا أظنه يحدث بمثل هذه الطريقة في أي بلد آخر . لا يمكن أن تكون هناك بلاد كلها انهيارات متلاحقة ومتعددة ؛ وممسك بعضها برقاب بعض . لا يمكن أن تكون هناك بلاد مستعمرة كلها بالقواعد ؛ يجأر بها ويعلن عنها بلا حياء وبلا خجل . لا يمكن أن تكون بلادنا مقراً للاستعمار أو ممراً له . لا يمكن أن تكون بلادنا خارج ركب العروبة والإسلام ؛ وخارج أفريقيا وخارج العالم الحر وخارج دول عدم الانحياز . لا يمكن أن تعود بلادنا مستعبدة ؛ بعد أن انتزعت استقلالها قبل أي دولة أفريقية أخرى . لا يمكن أن تكون بلادنا مع الصهاينة ومع السادات . . وتعتقد أننا عرب وأننا مسلمون . لا يمكن أن نعيش في بلادنا كالحيوانات ؛ مسلوبي الديموقراطية ومسلوبي حكم القانون ؛ ومسلوبي الحريات العامة .

إننا لا نرضى بهذا كله ؛ ولا بمثل هذه الانهيارات كلها ؛ وليس فيما نكتبه لكم أي مبالغة ؛ بل كل ما نكتبه لكم فيه تقصير كل التقصير ؛ والعجز كل العجز عن إحصاء كل الحقائق . ما يحدث في بلادنا أبشع من ذلك بكثير ؛ وبأكثر مما تصفه الكلمات والجمل والألفاظ . إن كل حرف من الذي كتبناه في هذا الملف ؛ هو حقيقة واضحة وناصعة ؛ بل هو أقل من الحقيقة بكثير ؛ ونحن نسجل عجزنا عن حصر كل الانهيارات التي تتم في بلادنا ؛ ونكتفي بأن نقول لكم أنتم يا جماهير الشعب . . إن

بلادكم قد انهارت تماماً . . ومن كل أجزائها؛ وإنكم تحكمون بما لا تحكم به أي بلاد مجاورة لكم . . وإنكم تتعرضون لما لا يتعرض له أي مواطن في بلاد مجاورة . .

إذا حدثت المعجزة وخرجتم في مأمن من الجوع ومن الخوف؛ ومن قمع الحكم البوليسي ومن انهيار الأداء والإدارة؛ وانهيار الخدمات ومقومات الحياة كلها؛ وذهاب المقدرات جميعها . . فكيف تخرجون من فقدان الاستقلال ومعه الشرف والكرامة؟ وكيف تخرجون من بقاء الاستعمار بكل وجوهه الغبراء .

إن الواجب أمامكم هو واجب ثقيل وكبير وخطير؛ وهو واجب ملقى على كاهل هذا الجيل المخضرم؛ وعلى الجيل الأخضر اليانع الذي تنتظره هذه البلاد . إن عليكم جميعاً - شيباً وشبابا رجالاً ونساءً في أي بقعة من بقاع أرضكم الشاسعة كنتم - أن تعوا هذه الحقائق؛ وأن تستوعبوها وأن تواجهوها . إن عليكم أن تسألوا أنفسكم . . . ونحن نورد كل هذه الحقائق؛ ونعلم أن كل كلمة فيها، هي الحق والصدق ولا شيء غيرهما . . وأنتم تعلمون ذلك أكثر منا؛ وتعاشرون ذلك أكثر منا؛ وتعايشون ذلك أكثر منا؛ وترونه رأي العين؛ وتعلمونه علم اليقين الأكيد الثابت . .

إن الشعوب تتعرض دائماً لامتحانات عسيرة وصعبة؛ ولمزالق خطرة تتحصن فيها بشجاعتها وبكرامتها؛ وأنتم الآن أمام مواجهة ليست صعبة إطلاقاً . . لا في شكلها ولا في مضمونها . هذه المواجهة هي : أن يكون هذا الشعب حراً . . أو يكون مستعبداً؛ أن يعيش كريماً في بلاده . . أو يعيش ذليلا فيها؛ أن يغترب منها ويفارقها أو يقترب منها ويعانقها؛ أن يواجه مشاكلها بالشجاعة والشراسة المطلوبة . . أو يهرب ويتهرب؛ أن يقف على السياج متفرجاً على مآسي شعبه متلهياً بذلك . . أو يدخل المعركة مؤمناً أنه على حق؛ وأن كل المبررات الوطنية والشرعية قد هيأت له؛ وأصبحت تواجهه ، تعيش في داخله . . وتنفجر منه ويتفجر بها . .

إن الثورة في قلوب كل السودانيين تزمجر في صخب وفي دوي . إن هذه الثورة يجب أن تخرج من صدره إلى لسانه؛ ومن قلبه إلى وجدانه؛ وأن تتقمصه ويتقمصها؛ وأن تكون نهجه ومنهاجه وسلوكه؛ وقد فُرزت الصفوف : هناك صف

للباطل ، مهترئ وجبان وفاسد؛ وغاشم وضئيل وضعيف . . وهناك صف للحق طويل وعريض ومتسع ، معه العدل ومعه الشرعية . . شرعية الثورة وشرعية الثوار وشرعية التغيير . . وصف الثورة هذا تزداد شجاعته كل يوم . . ويرى الصباح كل يوم . .

إن حواجز الخوف قد تكسرت كلها؛ ولا يمكن أن يقبل المواطنون مبادلة وطنهم بالخوف؛ وعليهم أن ينتزعوه من نفوسهم ومن ضمائرهم . . أنتم لستم وحدكم في الميدان؛ إن معكم قوى كبيرة ضخمة وهائلة ، هي قوى الشعب تعرف ما بكم وتلتحم معكم وتتعانق؛ وتشترك في زحفكم الأسطوري وسيركم البطولي نحو الحرية والخلاص . إن الذين لا يقفون معكم؛ هم من يقفون مع الفجور؛ ويقفون مع الفساد؛ ويقفون مع الباطل؛ ويقفون ضد الوطنية؛ ويقفون ضد القومية؛ ويقفون ضد التحرير والديموقراطية؛ ويقفون مع الفاشية؛ ويقفون مع الاستعمار . ومثل هؤلاء لا يمكن أن ينتصروا؛ فقد كانت ولا تزال تلك حتمية التاريخ . .

إن سحابة الخوف التي ظللت بلادكم زمناً ما؛ وعوامل الوجل والتخوف والوقوف على الناصية؛ واللامبالاة بالشعب وبالوطن؛ يجب أن تزول إلى الأبد . . أنتم لا ترضون أن تنظروا إلى بلادكم بهذه الحالة؛ تنحدر من الانهيار إلى التدهور؛ وتنتقل من الحرية إلى الاستعمار . . يذهب استقلالها؛ وتضيع وحدة بلادها؛ وتنتهي مقدراتها؛ وأنتم على الناصية تقفون وعلى المأساة تتفرجون . أنتم لا يمكن أن ترضوا أن تكونوا مسخرة للشعوب . . وسخرية للتاريخ . فسيكون هذا عاراً في جبينكم يلتصق به ولا ينفك عنه إلى الأبد . .

لقد امتُحنت شعوب كثيرة بمثل ما تُمتحنون به الآن . . ولكنها لم تستكن ولم تستذل ولم تخضع . . بل وقفت وواجهت وجابهت؛ وانتزعت حقها وحريتها وديمقراطيتها وكرامتها . . وشعبكم هذا - إن كان شهيراً بصبره ومثابرته - فهو شهير أيضاً ببطولاته وتضحياته ، وبتاريخه الغائر في عمق التاريخ ، المليء بالثورات وبالانتفاضات؛ والذي ظل دائماً يقدم حياته قرباناً من أجل وطنه ومن أجل أحياله

القادمة . . إن سيل الانهيارات ضده قد بلغ الزبى ؛ وإن حزامها قد تجاوز الجبين ، وإن كيلها قد طفح ، حتى لم يعد هناك زيادة لمستزيد؛ ولقد جفت الكلمات ؛ وتعددت الملفات وتكلم الناس كثيراً وكتبوا كثيراً ؛ ورددوا شعارات الثورة كثيراً . وأصبح الكلام نفسه معاداً ومكرراً . . معروفاً للكاتب وللقارئ وللمتكلم وللمستمع . ولم يعد فيه زيادة لمستزيد .

لقد بقيت الثورة وحدها هي طريق الخلاص ولا طريق غيرها . فالذي يقف ضدها إنما يقف ضد الحياة وضد التقدم وضد أعداء البشرية . . وأن الذي يقف معها ، هو المؤمن بوطنه والمؤمن بعروبته والمؤمن بإسلامه والمؤمن بالتاريخ وبحتمياته . .

إن أجدادكم لم يخافوا من الترك ؛ ولا من الشركس ولا من المصريين ؛ ولا من المتمصرين ولا من الاستعمار . فلماذا تخافون . . وممن تخافون ؟ أتخافون من الذين تعرفونهم بالوجوه؛ وتعرفونهم بالأصابع ؛ وتعرفون أنهم أول الهاربين عندما تبدأ المعارك . إن الحاكم المجنون والمستهتر ، المغرور بضعفه ، الممتلئ بالجبن ، المهتز بالرعب . . لا يمكن أن يخيف أحداً . إن الحاكم الذي يصيح أنا فوق الدستور ؛ أنا فوق القانون . . وأنا الإله الواحد الأحد ـ ونستغفر الله من هذا القول ـ وأنا الحاكم إلى الأبد . . لا يمكن أن يرضى به أحد . وإن الحاشية التي تقف حوله ، إنما هي رهط من الجبناء؛ لا يلبث أن ينفض عندما يعلم العلم اليقين . . أن الشعب قد جمع شمله وحزم أمره؛ وقرر أن يواجه ويجابه .

ونحن من جانبنا (وبكل الصدق والوضوح والشجاعة . . وبلا مواراة ولا مواربة) قد قررنا محاربة ومجابهة هذا النظام ؛ مستعملين كل الأسلحة التي يتيحها لنا الحق والشرع والعروبة والإسلام والالتزام الوطني . ونحن في ذلك إنما نستهدف الحديث الشريف : " من رأى منكم منكراً فليقومه بيده؛ ومن لم يستطع فبلسانه؛ ومن لم يستطع فبقلبه . . وذلك أضعف الإيمان " . ونحن لا يمكن أن نختار أضعف الإيمان إن جيلنا هذا لن يرضى أن يوصم في التاريخ بأنه عايش مثل هذه المفاسد؛ ورأى كل هذه الانهيارات ووقف بعيداً يتفرج عليها . . إن ثورتنا هذه ليست من أجل حكم ؛ ونحن

الذين لا نطلبه ولا نتمناه ولا نريده؛ وليست من أجل سطوة أو سلطة أو سلطان؛ وليست من أجل حزب أو قبيلة أو تنظيم . . بل هي للشعب وبالشعب ومن الشعب ومن كان في قلبه ذرة من وطنية؛ ومن كان يرى ما نراه؛ ويعلم ما نعلمه؛ ويعايش ما نعايشه؛ ومن يرى وطنه محتضراً أمامه ولا يرضى بذلك؛ ونحن لا نرضى . . الله وحده يعلم أننا أُرغِمنا على ذلك؛ ولن نرضى بأنصاف الحلول؛ ولا يرضى بها وطن أو مواطن . . ولا يسكت عنها شجاع أو جبان .

إننا ندعوكم جميعاً للثورة؛ في أمور لا تحلها ولا تغيرها غير الثورة؛ فهبوا جميعاً في سبيل الله والوطن . . وهبي يا رياح الجنة . . ولتخرص - وإلى الأبد - ألسنة الضعفاء؛ ولا نامت أعين الجبناء .

لندن - ١٩٨١م

الجيش

ظلت القوات السودانية المسلحة (ومنذ أن كانت تسمى " بقوة دفاع السودان " في عهد الاستعمار ، وإبان مشاركتها في الحرب العالمية الثانية) . . قوة منضبطة وشجاعة ومدربة تدريبا يضاهي أكبر القوات في المنطقة العربية . . وفي الشرق الأوسط .

وكان الجندي السوداني دائما ـ وهو يختزن كل المهارات التي ورثها عن آبائه وأجداده في القتال ـ عنوانا للجندي الأمين الشجاع ، المعبر عن اخلاقيات بلده وقيمها ومُثلها . . وبذلك نشأت بينه وبين جماهير الشعب السوداني ، علاقات من المودة والاحترام ، ومن القداسة والإجلال ، مقرونة بالإعجاب والإكبار ، جعلت منه فصيلا رائدا ومتقدما ، يمثل في جنديته وفي خلقياته ، تاريخ الشعب السوداني وأخلاقياته ومثالياته . . وكان يحظى بالاحترام المتداول والمتبادل ، من كل أفراد الشعب السوداني ؛ لم تخدشه ـ ومنذ مطلع التاريخ ـ أي شائبة ؛ ولم تلوثه أي علاقة مشبوهة أو مكروهة . . والجندي السوداني ، هو نفسه . . الذي اشترك مع أخيه الجندي المصري ، في معاركه ضد التتر دفاعا عن العروبة وعن الإسلام . . وعن استقلال وادي النيل .

وهو الجندي السوداني نفسه . . الذي اشترك في معارك التل الكبير ، من أجل استقلال مصر وعروبتها وانتمائها الإسلامي ، وهو الجندي السوداني نفسه . . الذي ظل في حرس الحدود المصري ، وفي خفر السواحل المصري ، وفي الجيش المصري يحمي حدود مصر ومرافئها وسواحلها ، وأمنها الداخلي والخارجي ؛ هو الجندي السوداني نفسه . . الذي انتفض في عام ١٩٢٤ م، مع طلائعه في الكلية الحربية ضد الاستعمار الثنائي ، وفي سبيل الوحدة العربية ؛ وقاتل ـ مع قلته ـ قتال الأبطال في كل مكان ، حتى فني أغلبه ، مسجلاً ذلك الشعار بالدم ، ومدوِّناً له في التاريخ (بأنه رفض : الاستسلام ـ الاستعمار ـ التجزئة ـ التقسيم) . . وتجسيداً لانتماءات العروبة والانتماء للوحدة العربية ؛ وهو المقاتل السوداني نفسه . . الذي عارك ضد الزحف

غير الإسلامي عبر أراضيه ، منطلقا من موانئ البحر الأحمر ، مخترقا السودان وصولا إلى شرق أفريقيا .

وهو الجندي السوداني نفسه . . الذي خاض المعارك المريرة لاكتشاف منابع النيل ومجاهل الغابات في جنوب السودان ؛ وهو الجندي السوداني نفسه . . الذي قاتل في المتمة ، دفاعا عن استقلال السودان ؛ والذي قاتل في ممالك العنج والفونج والذي أسس - بنضاله - أول مملكة إسلامية في أفريقيا . . وهي مملكة سنار التي كرست الإسلام وجسدت العروبة .

وهو الجندي السوداني نفسه . . الذي اشترك في معركة عدوة ؛ أولى معارك التحرر الأفريقي ضد المستعمر الأيطالي ، عندما ترك قتاله مع الأحباش وأعلن الهدنة ، واشترك معهم في قتال الأيطاليين ، واشترك في طردهم من التراب الأفريقي . . وكان ذلك رمزا للكفاح المشترك ضد الاستعمار ، قبل أن تكافح الشعوب الأفريقية من أجل استقلالها ؛ وكان رمزا لها ؛ حمل السلاح ضد المستعمر . . وكان رمزا لنقاء القارة : من الاستعمار العسكري والاقتصادي والسياسي والاستيطاني .

وهو الجندي السوداني نفسه . . الذي علّم ماوتسي تونج حرب الغوريلا - في شرق السودان - حتى استشهد به ماوتسي تونج في كتابه ، واتخذ من معاركه في شرق السودان أسلوبا له ، في صراعه المرير من أجل تحرير وخلق الصين الجديدة . .

وهو الجندي السوداني نفسه . . الذي رفض الحكم التعسفي والاستعمار المثلث : التركي والمصري والانجليزي ، ورفض الاستكانة للاضطهاد وللعذاب وللضرائب وثار ضدها وكان شعاره " ٢٠٠ في تُرْبَة . . ولا ريال في طُلْبَة " !

وهو الجندي السوداني نفسه . . الذي خاض بقيادة الزاكي طمل ، معارك الغوريلا الريفية ضد جيش هكس باشا ، وأباده بأكمله ؛ وكانت نسبة المجاهدين السودانيين إلى نسبة جيش هكس باشا المدرب والمسلح ١٠ : ١٠٠

وهو الجندي السوداني نفسه . . الذي اجتاز حدود السودان - راضيا بالجوع والموت والعطش - كي يحقق الوحدة العربية والإسلامية ؛ ولكي يناصر الثورة العربية في

مصر ، بقيادة و د النجومي .

وهو الجندي السوداني نفسه . . الذي ذهب حاملا رايات الإسلام والعروبة عالية خفاقة ، بقيادة محمود ود أحمد ، محطما المعابد والكنائس ، مخترقا الغابات مجتازا الجبال والسهول ، حتى وصل إلى عاصمة الهضاب الشم ، في قُندر .

وهو الجندي السوداني الذي خاض غمار الحرب ـ إبان الثورة المهدية في كل مكان ـ هازما بها أعتى الامبراطوريات . . مواجها بها أشرس الأسلحة . . حتى كوّن في القرن الثامن عشر ، دولة إسلامية عربية كانت أهدافها : تحقيق الوحدة العربية والإسلامية في العالم العربي والإسلامي . . استمرت رغم تآمرات الاستعمار وحشوده ، عشرين سنة .

وهو الجندي السوداني . . الذي خاض معارك أم دبيكرات والأبيِّض وكرري ودافع عن الخرطوم دفاع الأبطال ، وضحى بعشرات الآلاف عنها ، ضد حملة كتشنر المزودة بالجنود المختلفة وبالأسلحة المتقدمة . . ظل كذلك بعد أن انتصر الانجليز حافظا في نفسه قيم التراث العربي والإسلامي . . وتراث الأجداد ! لم يستسلم للهزيمة العسكرية ؛ وحافظ على لغة الضاد في مخيماته ، وعلى دين الإسلام في بواديه وحواضره .

وهو الجندي السوداني نفسه . . الذي عارك في فلسطين ، وكون أول جيش سوداني لها ، لا تزال أجساد أبنائه وأرواح شهدائه ، تطرز الطريق الممتد من الفالوجا وبئر السبع ، عبورا بغزة ، ومرورا إلى الرملة وإلى عكا وإلى صحراء النقب .

كانت هذه مثله وكانت هذه خلفياته . . وكانت هذه مسيرته ، وكانت هذه علاقته بشعبه ، لم يشتبك ولا مرة واحدة بجماهير السودان ، لا أثناء حكم الاستعمار ، ولا في الحكم العسكري الأول . . ظلوا دائما يتقدمون ، ويؤمنون بأن الجيش السوداني هو حامي حدودهم ، وحارس حريتهم ووحدة ترابهم ؛ ودينهم وعروبتهم وتاريخهم . . وبذلك نشأت بينهم وبين الشعب علاقة سرمدية ، وظل دائما بينهم رمزا لكل ما هو من مقدساتهم ؛ يثير فيهم الإعجاب ، ويحيي فيهم روح البطولة

ويزيد من تماسكهم وتضامنهم ؛ ويدخرونه ذخرا لحماية أرواحهم ؛ ولحماية مقدساتهم . . وبكل الانضباط وكل الوطنية . تولى الجيش السوداني مسؤولياته عند جلاء القوات الأجنبية عن أرض الوطن ، وظل يؤدي كل واجباته المقدسة هذه وشعور الإعجاب والإكبار يحفه من كل جانب ، ويحيط به من كل جهة .

ثم جاءت مايو ! ووجدت أمامها قوة مسلحة ملتصقة بالشعب ، ملتئمة بالتاريخ متضامنة مع التراث ، مؤمنة بالقيم ، حريصة على التراب . . وجدانها مع الشعب السوداني ، تقدم حياتها دفاعا عنه ـ لا عن حدوده فقط ـ بل عن حريته وكرامته ومقدراته . ثم انقلبت الأوضاع رأسا على عقب ، واتخذت مايو من كل هذا التاريخ ـ الحافل بحلاوة النصر وبمرارة الهزيمة ، وبأمجاد الماضي والحاضر والمستقبل ـ دمية تتلهى بها وسخرية تتسلى بها . . ولم يكتمل العام ، إلا وأعملت فيه كل أسلحتها الرخيصة ؛ وكل وسائلها الدنيئة ، وهي تعلم أنها عندما تصيب الجندي السوداني والجيش السوداني في قلبه ، بأمثال هذه التصرفات ، فهي إنما تتعمد أن تستأصل فصيلا طليعيا ظل رمزا مقدسا للشعب ، طوال هذه السنين . . زاخرا بأمجاده ، معبرا عن بطولته .

فبدأ التطهير بلا أسباب عسكرية أو سياسية . . تطهير بالمئات وبالآلاف ؛ والتطهير من كل الدرجات والرتب ؛ ولم ينج منه أحد ! وكان وقتها . . في رتبة اللواء في الجيش السوداني ، رجل واحد ؛ فأصبحت رتب اللواءات عشرات وعشرات ؛ دون أن تزاملها قوة أو سلاح ! وبدأت في الجيش السوداني ، الشلليات والتنظيمات السلاحية والسياسية ، وتشرذم الجيش كله . . إلى وجهات نظر سياسية مسلحة وسادت فيه العنصرية والقبلية ، وأفسدت العلاقات العسكرية بين أفراده ؛ وانعدمت الثقة بينهم ، ودخلتها – ولأول مرة – أجهزة الاستخبارات العسكرية والأمنية ، تفرق بين الأخ وأخيه ، وبين الابن وأبيه ، وتنشر عوامل الشكوك وعدم الثقة ، وتفتت زمالة السلاح ، وتجعل المحسوبيات العائلية والتكتلات القبلية ، أساس الترقيات الاستثنائية ؛ وقضت على وحدته وعلى تماسكه .

وأصبح الجيش طبقات . . فيه المقربون والمبعدون ، وأصحاب الرواتب الواحدة والرواتب المزدوجة . . وأنصار فلان وأعداء علان . . وانعدم فيه الضبط والربط ، ـ أصبح سائبا متسيبا . . وانعدمت الثقة بين الضابط وزميله ، وبين الضابط وصف الضابط ، تلتقط كل كلمة وتراقب كل تصرف ـ طبيعي وفطري ـ فتصنع منه انقلابا وتحيك منه مؤامرة موهومة ، حتى كثرت فيه الانقلابات الحقيقية والمصطنعة .

كل ذلك . . وهو يتدهور في أخلاقياته يوما بعد يوم؛ وتسوده الرشوة وتحكمه المحسوبية ويتفشى فيه الفساد ، ويتميز فيه الجندي على الضابط ، وصف الضابط على العقيد . . وارتفعت ميزانيته من ١٨ مليون إلى ١٨٠ مليون ، كلها تنفق على المحاسيب وعلى الأنصار وعلى التكتلات ؛ وعلى القوى التي يدخرها البعض لحماية أنفسهم يوما ما . . وأصبح كل منهم ينتظر الفجر ـ عند صياح الديك أو بائع اللبن ـ حتى يستمع إلى أجراس الموسيقى . وتوقف فيه التدريب الفردي ، حتى أصبح الجندي ليس هو الجندي السابق ؛ لا يتزود بالضبط ولا الربط ولا التدريب ؛ وانقطع عن التدريب الجماعي حتى أصبح مجرد حاملٍ للسلاح ؛ لا يعرف عن خطط الحرب ولا عن تكتيكها ولا عن استراتيجيتها أي شيء ؛ والناس لابد يذكرون ما تم في المناورة الجماعية الأخيرة ؛ التي جرت في أم دبيكرات عندما قذف الجنود بعضهم البعض ـ لا تعمدا بل جهلا ـ ومات فيها من مات ، وانتهت عملية أم دبيكرات وحفظت في ملفات ، ولا يستطيع أن يشير إليها بشر بإبهامه أو سبابته . . ذلك لأن صناعها الحقيقيين هم القادة في الجيش ، وأصحاب الرأي فيه ، والذين صرفوا على تلك المناورة الفاشلة ، ما يزيد على الثلاثة ملايين من الجنيهات . . . وكانت درسا لهم ؛ فأوقفوا كل المناورات الجماعية ؛ ولم يحظ الجيش السوداني في خلال الثلاث عشرة سنة الأخيرة ؛ بأي مناورة أو تدريب جماعي ؛ وانقطع عنه مدد السلاح ؛ وكان سلاحه الوحيد هو الذي أُحضر عام ١٩٦٨ م باتفاقية السلاح الروسي ـ السوداني سلاحا مضت عليه السنون ؛ فأصبح منهوكاً . . إذا ما استعمل ، فسيوجه نحو صدور المقاتلين ، وليس لأعدائهم .

وبينما تطور السلاح في العالم وتطور التدريب ، فجيشنا إلى الآن تعد دباباته على الأصابع ، إذ أصبحت كلها ركاما . . لا يستعمل منها سوى عشرة أو اثنتي عشرة دبابة مصابة بالعطب ، ومخلخلة المدافع . . لا تثبت في معركة ، حتى لو دامت ساعة واحدة . وأصبحت مدافعه من بقايا الحرب العالمية الثانية ؛ لا يتجاوز مداها أو قوتها المائة رطل ؛ وأصبحت أسلحته - في وقت ازدحم فيه العالم بالصواريخ الموجهة ذات المدى البعيد ، وبالصواريخ التوماهوك ، والقرادا ؛ وبالراجمات ، وبخارقات الدروع المتقدمة . . وبالدبابات ٦٢ المتطورة .

أصبح نصف سلاحنا حديدا خردة بيع أغلبه للخارج ، ولم يبق فيه شيء يصد عدوا داخل المدن ، أو عدوا خارج الحدود . . وأصبحت طائراته تعد على الأصابع والصالح منها لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة . . وهي من طراز ميغ ١٧ ، والسيوبر ميراج ؛ وطائرات جاقوار ، وطائرات ف ١٥ و١٦ . وأصبحت بحريتنا لا يتجاوز عددها الثلاثة زوارق بحرية ، تحمل مدافع قديمة لا تستطيع أن تحمي نفسها من سنبوك واحد ، يحاول التهريب في البحر الأحمر !

وأصبحت كل واجبات قواتنا المسلحة ، هو أن تردع شعبنا . . محتشدة كلها في المدن ، مستترة كلها في الخنادق . . وتحت ظلال الأشجار ، يعجب منها الرجل وهي تتجمع في سذاجة ، في فتاشة وفي أم بدة وفي المرخيات . . ظانة أنها بذلك تستطيع أن تنقض على الشعب ! وهي بذلك لا تكون جيشا يحارب عدوا غازيا . . ليس لها : لا التدريب الفردي ! ولا الجماعي ! ولا السلاح الذي تقابل به أصغر جيش من جيوش العالم !

أصبح السلاح في أيدي أفراد شعبنا من البدو والرعاة ، أكثر من السلاح في أيدي جنودنا . . أصبح السلاح المستهلك الفاسد في مخازننا ، أكثر من السلاح المستعمل . . وانهالت طلبات الاستقالة ؛ حتى نستطيع أن نقول إن الذين استقالوا ، والذين قدموا طلباتهم للاستقالة - وهي تحت النظر - والمستقيلون فعلا من القوات المسلحة وهم لا يزالون أعضاء فيها ، والذين لا علاقة لهم بالجيش (وهم من أفراده الذين

تدنت علاقتهم بالشعب) حتى أصبحوا يخجلون من ردائهم العسكري . . ذلك الرداء العسكري ، مظهرا لاعتزازهم ومفخرة لشعبهم .

والذين سرعان ما يهرعون من المكاتب ، حتى يسرعوا لإخفاء أرديتهم العسكرية خلف سياراتهم ، ويخرجوا بجلابيبهم البيضاء خوفا من أن ينظر إليهم ـ ذلك الشعب الذي كان محتفيا وفخورا بهم ـ شذرا . . وحتى أصبح الضابط (الذي سلّحه دافع الضرائب لحماية حرياته وإنسانيته) يتخبأ داخل أي دولاب أو تحت أي سرير ، كلما فرقع . . حتى إطار من إطارات السيارات .

وأمسكت بخناقهم الطبقة . . طبقة اللواءات العسكرية والمهنيين ؛ وطبقة العمداء وبعض العقداء ؛ وبنَت وسكنت المنازل الفاخرة . . التي تكلف مئات الآلاف والتي لو عُمِّر الواحد منهم مثل عمر نوح ، ولو كان مرتبه أكثر من مرتب وزير الدفاع السعودي ، لما تمكن من بناء مثل هذا المنزل ، وفرشه بمستجلبات الأثاث الحديث من أوروبا وغيرها ؛ وامتطى السيارات الفاخرة التي تكلف عشرات الآلاف .

وأصبحت طبقة مميزة لا علاقة لها بالجيش ، ولا علاقة له هو بالشعب . . وهو يعلم وضباطه وصف ضباطه وجنوده يعلمون ، أن هذه رشوة ، وأنها مدفوعة من دم الشعب . . وانفصلوا عن أصولهم وعن أهلهم في الأقاليم ، وعن قبائلهم ، وعن جيرانهم ، وعن إخوانهم في المدينة . . لا يحسون ولا يشعرون : لا بالآلام التي يعاني شعبهم منها ، ولا بالجوع والنكد الذي يواجهه كل صباح ؛ ولا بالحياة المأساوية التي يعيشها كل يوم ؛ ولا بانعدام الطب الوقائي والعلاجي . . ولا بانهيار التعليم . . ولا بسوء الأداء . . وسوء الإدارة والتسيب والفساد الأخلاقي ـ الذي لم يُشهد مثيلاً له من قبل!

وكلما جمعهم النميري عندما تمرُّ به أزمة – وهو لا يجمعهم إلا عندما تمرُّ به أزمة ـ إلا أجهش أغلبهم بالبكاء ، من الهستيريا والإذلال العصبي ، والحالة النفسية التي يعيشون فيها . ولا يقف جندي شجاع منهم ، ليذكُر له المآسي التي يعيش فيها الشعب ، والحالة التعسة التي يمرُّ بها ، والانحطاط المعيشي الذي يخنقه ، والهاوية

الأخلاقية التي يتردى فيها .

وأصبحت مكاتبهم تعج بخبراء الأمن : من الأمريكان والمصريين والإسرائيليين وأصبح أمر جيشهم وأمر أمنهم ليس بيدهم ؛ وأصبحوا يسمعون رئيسهم يقتطع الملايين من مساحات أرضهم لغير أهلها ، ويبيع عواصمهم ومبانيها للغرباء ! ويجعل من بلادهم كلها ، قواعد للاستعمار . . أو يستأجرها ، أو يعطيها مجانا! وهم لا يهتزون! فقد تآكلت فيهم روح الوطنية والقومية والعروبة والإسلام ! وأصبحوا جسما هلاميا مهترئا ، لا صلة له بالبلاد ؛ ولا بما يجري فيها ! ولا بمستقبلها ! ولا بمن يحكمها !

ولا يمكن أن تسوء حالة جيش ووطن بهذه الدرجة ، فيرضى بالقواعد والاستعمار والجنود الأجانب ، والسمسرة والعمالة والعمولة ، حتى يموت فيه كل ضمير حي ! وهو يعلم أنه يبيع نفسه للشيطان ؛ ويتاجر بشرفه وكرامته وسلاحه ؛ وبأهله . . وبأجياله الحالية والمقبلة ، لقاء الرضا من نظام هو أعلم الناس بطبيعة تكوينه وبجميع ترهاته وسلوكياته . . يراها بعينه ويلمسها بيده ، ويرضى بها ويتعايش معها . . ويحاول أن ينجو بنفسه عنها ، ولات ساعة منجى .

وبجانب هذا الجيش المبعثر القُوى ؛ المصاب بالإذلال العصبي ؛ وبالشحوب الروحي والوطني ، المعزول بين أبناء جنسه ، الذي يدعم بسلاحه حكما لا يشارك في سياسته ، ولا في أهدافه ولا في أدائه ، بل إن كل مشاركته هي المتاجرة في رخص الأسمنت والحديد والأخشاب ؛ والمحاولة البائسة اليومية لبناء المنازل وإنشاء المتاجر في دولة عمتها الفوضى وسادها الفساد ! ولا يسأل نفسه ، ولا يناجي ضميره ؛ ولا يعلم أنه المسؤول أمام الله والتاريخ والناس ، عن كل مأساة يعيشها كل مواطن سوداني . . وأنه يحمي بسلاح الشعب ، حكما هو أعلم الناس بفساده وضياعه وانحسار هيبته ، وتدني سياسته الخارجية والداخلية ، ولايضع في ولائه موضعا للشعب . . ولا نظرة إليه ، بل إن نظره كله متكالب على البيت كيف يبنى ؟ والمشاركة في ضياع الأخلاق والأعراض . . وهو يخاف من أمن مهترئ ، ومُخْتَرق من كل

القوى الأجنبية ، وتابع أجير للخارج . . لا يحمل في قلبه ذرة من وطنية ، ولا قطرة من احترام . . لا همَّ له إلا مطاردة الشرفاء . . ولا عمل له إلا التجسس داخل منزله ، وحتى بين أصدقائه وأقربائه . . وهو يتقاضى العمولات والرشاوي ؛ ويعمل لحساب أربع أو خمس جهات مختلفة ، يبيعها المعلومات ويعطيها أسرار بلاده . . ويخدم أغراضها ، فيجرد نفسه بذلك من كل كرامة ووطنية وضمير . . وهو بذلك لا يترفع عن ضرب العمال ، وضرب المزارعين ، وضرب البؤساء الكادحين ؛ ويجعل من نفسه خادما لحفنة من الطبقة الفاجرة الفاسدة، التي لا يتعدى عددها العشرات ناسيا أنه حمل هذا السلاح ليدافع عن ٢٠ مليون من المواطنين . . وأصبحت صداقاته هي حدائق الفسق والفجور ، التي تُهتَك فيها الأعراض وتُستَذل فيها كرامة الرجال وتستجلب فيها حتى فتيات المدارس! وهو يرى كل ذلك بعينيه . . ولا يحرك فيها ساكنا من كرامة ، أو خلجة من حياء !

ونحن نريد أن نسأل أفراد الجيش السوداني ، أسئلة محدودة ؛ يستطيعون أن يعلموا منها مدى الانهيار الذي وصلت إليه حالتهم . . وحالة جيشهم .

١ - كم عددا من الجنود يذهبون ، سرعان ما تنتهي مدة عقودهم . . وحتى ثلاث سنوات ؟

٢-كم عدد الضباط الذين طُردوا منذ أن جاءت مايو ؛ والذين استقالوا والذين قدموها تحت وطأة الاستبداد ؟

٣-كم عدد الذين هربوا جهارا نهارا من الجيش ؟ .

٤-كم عدد الذين يتدربون . . تدريبا حقيقيا يليق بجندي محارب ، ونقصد بذلك التدريب الفردي للجندي ؟

٥-كم عدد الذين تدربوا تدريبا جماعيا ؟ .

٦-كم عدد الذين قاموا بمناورات بالسلاح الحي . . . أو الميت ؟ .

٧-كم عدد الأسلحة التي توجد في مخازنهم ؟

٨-كم عدد الأسلحة المعطوبة والمكومة، والتي اشتريت بالعمولات، والتي لا

تستطيع أن تتحرك أو أن تطير !

٩-كم عدد الذخيرة عندهم ؟

١٠-كم عدد الشاحنات السيئة الصنع ، التي اشتروها من جمعية ود نميري التعاونية ؟

١١-كم عدد الذين يذهبون في بعثات خارجية ؟

١٢-كم عدد الذين يُطردون أو يستقيلون أو يتقاعدون ؟

١٣- ما هي أعمارهم . . أين هي الخبرة العسكرية السودانية التي دفع فيها دافع الضرائب دمه ؟ كم يبلغ عدد اللواءات الآن . . أو العمداء ؟

١٤- أين هي المقارنة بينهم وبين رصفائهم في الدول العربية أو الأفريقية ؟ ونحن . . . لا نسألهم عن رصفائهم في الخدمة في جيش إسرائيل ، الذين لا يزالون يخوضون المعارك ويكسبونها ، رغم بلوغ الواحد منهم سن السبعين ؟

١٥ - كم عدد الذين يتدربون تدريبا عسكريا إجباريا ، ويُدَّخَرون لحمل السلاح وحماية هذا البلد الواسع ؟

١٦ - أين هي أسلحتهم إذا جاءهم الهجوم من أي جهة ؟

وسياستهم الذيلية والاستعمارية كلها تقود للحرب . . وحالة عدم الاستقرار في بلادهم هي من محركات الحرب ومسبباتها . ما الذي يدافعون به عن شعبهم إذا ما هوجم . . كيف يحتشد نصفهم في العاصمة المثلثة ؟ ألكَيْ يقاتل جماهير العاصمة ؟ أم لكي يقاتل أهل المدن ؟ أم لكي يضرب الطلبة والعمال بالرصاص ؟ كيف تطاوعهم ضمائرهم على الاستجابة لهذه الأوامر ! أين هي الشجاعة ؟ وقد برهنت الأيام على أنهم يخافون دائما من رجل واحد ، هو نفسه، أول الهاربين . . . إذا ما دوت أول طلقة .

كيف يرضون بمثل هذا الحكم الذي تحكم به بلادنا الآن؟ وكيف يتبرأون عنه غدا أمام الشعب والتاريخ ؟ كيف يتبرأون من عمالته الخارجية ! كيف يتبرأون من قواعده الأجنبية ؟ كيف يعيشون وبلادهم ملأى بالجنود الأجانب ؟ كأنهم نساء لا يستطعن الدفاع عن أنفسهن، إلا إذا استجلب لهم الجنود من الخارج ؟

كيف يقبلون أن يكون حاكمهم واليا ! لماذا يحملون هذا السلاح الفاسد ؟ ألكَيْ يضربون به عدوا ، أو لكي يؤدبوا الشعب ؟ . . ألأنه جائع ! ألانه ضائع ! ألأنه محكوم بالقهر والجوع ! ألأنه فاقد لمستلزمات الحياة ؟ كيف يطلقون النار على عمال جوعى يطالبون بحقوقهم ! وكيف يطلقون الرصاص على أطفال لا مدارس لهم ولا معلمين ! ولا مواصلات لهم ولا غذاء ، ولا دخول لذويهم ؟

كيف ينظرون إلى غابات الأسمنت التي تحيط بهم ! وإلى المباني الفاخرة الضخمة للأفراد ، والتي لم تشهدها بلادهم ؟ ألا يتساءلون من أين أتوا بها ؟ ألا يتساءلون كيف افتقر بقية العشرين مليون . . واغتنت فئة قليلة ؟ ألا يعرفون أن هذه حقبة سوداء من حقب تاريخ الشعب السوداني ، الذي كان يجلهم ويحترمهم ويحبهم ! والذي لا يزال ينظر إليهم ويستعطفهم ، وهو ملقىً أمامهم ، مدرجاً بأشلائه موشحا بدمائه . . يستصرخهم ويستنجدهم ويناديهم ، ويعرف أن الخلاص في أيديهم ، وهم لا يجيبون النداء ولا يسمعون الدعاء ؟ .

هل أصبح كل عملهم أن يجلبوا بطائرات الهيركيوليس ، البضائع والسلع والأدوات الكهربائية والثلاجات والفيديوهات ؛ وغيرها من أدوات المُتع الرخيصة . . عبر البحر الأحمر ؛ وعن طريق نيروبي ، لا يدفعون عليها جمارك أو ضرائب بل يبيعونها - جهاراً نهاراً - لتجار السوق السوداء ؛ بلا خجل من أنفسهم أو تربيتهم ، أو الرداء العسكري الذي يلبسونه . . إن كان فيهم من بقي فيه أي ضمير حي ، فليجاوب على هذه الأسئلة البسيطة :

- أهناك جيش سوداني مدرب ومسلح ومعد لكي يحمي الحدود ، وملتزم بالضبط والربط ؟
- أهناك جيش سوداني مستقل ، لا تحميه قوات أجنبية ليس في بلدها قواعد ، وليس مرتبطا بالاستعمار ؟
- هل هناك جيش سودني ، وطني وقومي وعربي وإسلامي ، مستعد للدفاع عن هذه المقدسات ؟

- هل هناك جيش سوداني، مرتبط بالشعب السوداني، يعرف مآسيه وواجباته اليومية . . وهو متمتع بكل الخدمات ؟

- هل هناك جيش سوداني بريء من الرشوة والمحسوبية والفساد والسلب والتهريب ؟

إذا كانت إجاباتهم على هذه الأسئلة بالإيجاب ، فليطمئنوا بأن هناك جيش ، وأن الجيش كله لحمايتهم : حدودا وحرية وكرامة ، وحياة أمة مستقرة . . وإذا كانت الإجابة بالنفي (وهو المعروف لهم ولنا) ، فواحسرتهم اليوم ، وواحسرتهم غداً ! وواحسرتهم أمام الله وأمام الشعب . . وما أشد خجلهم وعذاب ضميرهم وإذلالهم العصبي !

ألا يخجلون من تهريب البضائع عبر الحدود الشرقية ، على شاحنات الجيش السوداني ؟ ألا يعرفون كم منهم اغتنى من ذلك ؟ ألا يخجلون من تهريب السجاير بالترانزيت ، ويبيعونه بالأسعار الفاحشة ، ثم يستجلبون بها رخص السيارات من الوزراء المرتزقة . . في جنوب السودان ؟ ويدفعون لنقاط الجيش في الحدود ، لكي تثبت أن هذه السيارات قد عبرت الحدود إلى الكنغو ، مع العلم إنها بيعت داخل السودان؟

ألا يعلمون عن العصابات التي تكونت داخل الجيش السوداني ، والتي قامت بترحيل محصول الفول بعربات الجيش ؟ ألا يعلمون أن هذه العربات - وحتى طائرات الجيش - استعملت تجاريا ؛ في نقل الخراف والمواشي من غرب السودان إلى الخرطوم . . لمصْلحة بعض القادة ؟ ألا يعلمون عن الذين يقيمون المشاريع الزراعية في شرق السودان ؟ والذين يُهرِّبون الذرة عبر البحر الأحمر ، ويهربون السمسم إلى ميناء مصوع؟ ألا يعلمون أن أغلبيتهم قد أصبحت كلها عصابات للسرقة وللتهريب ولاستعمال رتبهم وسيارات ومعدات القوات المسلحة . . لهذه الممارسات القذرة ؟

الفساد في القوات المسلحة

عرف الجيش السوداني منذ العهود الوطنية بالكفاءة والمستوى الرفيع في الانضباط على كافة المستويات . . وعرف ضباطه وجنوده بالخلق الرفيع ، والالتزام الأخلاقي والديني ، والإخلاص لله والوطن . . هذه السمعة الحسنة أشاد بها الخصم قبل الصديق . ولكن في العهد المايوي تغير كل شيء ، وساءت سمعة الجيش إلى الدرك الأسفل ، حيث تولى زمام الأمور والقيادة طبقة من صغار النفوس ، ومعدومي الضمير .

من المعروف في الجيش السوداني (حتى انقلاب مايو المشؤوم) أن الترقيات بين الضباط وضباط الصف والجنود ، كانت خاضعة لنظام الأسبقيات واختبارات الكفاءة. ولم يحدث أن رُقي شخص ما في الجيش ، ترقية استثنائية ؛ ولكن عهد النميري ظاهرة (استثنائية) في تاريخ السودان الحديث. إن الانقلاب في حد ذاته عمل غير مشروع ويتنافى مع الخُلق والولاء والانضباط ، بل وكل القيم الأخلاقية والشرف العسكري ، الذي كان يعتز به العسكريون السودانيون . . ولذا كان طبيعيا أن يبدأ الانحلال والتحلل من الالتزامات الأخلاقية والانضباط العسكري ، من قمة النظام نفسه . فرقّى نميري نفسه (وهو الضابط الفاشل) إلى رتبة لواء ، وتلاه تباعا انتشار ظاهرة الترقيات الاستثنائية والترقيات العائدة إلى المحسوبية . وساهم في هذه العملية ـ التي أطاحت بالانضباط ووحدة الجيش السوداني ـ اللواء أحمد عبدالحليم وهو معروف باتصالاته المشبوهة . ومنذ ذلك التاريخ تحول الجيش إلى شلل ومراكز قوى ومحاسيب ، وتحول الولاء والإخلاص من الوطن ، لمن يدفع الثمن رشوة أو ترقية . . وهكذا أصبح النفاق والتجسس ، العملة السائدة في الجيش السوداني .

بعد انقلاب مايو ، اتجه النظام كلية نحو الاتحاد السوفيتي ، ولما كان الجيش صاحب السلطة ومدبر الانقلاب كان له نصيب الأسد من البلشفة في الأسلحة والعتاد . . . حيث تم أرسال مئات من الضباط والجنود وضباط الصف والفنيين ، إلى الدراسة

والتدريب في الاتحاد السوفيتي ؛ وشغلت الوظائف الاستشارية الكبرى والمتعلقة بأسرار الوطن (الأمنية والحيوية) بواسطة عسكريين روس . واحتل الجنرالات الروس مكاتب القيادة ، وكل الرتب الرفيعة في الجيش السوداني ، بشكل لم يحدث حتى في عهد الاستعمار الإنجليزي ـ المصري ؛ ونتج عن ذلك كله . . أن ميزانية البلاد سُخِّرت لشراء الأسلحة الروسية الثقيلة ، من طائرات ودبابات ومدافع وغيرها . وكلّفت هذه العملية مئات الملايين من الجنيهات ، دُفعت بالعملة الصعبة أو سُددت عن طريق المقايضة بمحاصيلنا الزراعية ، كالقطن والسمسم وغيرها وبأسعار بخسة . . وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر الأسلحة التالية :

١ – خمس طائرات (أنتينوف) . . ثمن الواحدة منها ستة ملايين من الجنيهات ، في ذلك التاريخ .

٢– أربعاً وعشرين طائرة هليكوبتر ثمن الواحدة مليون ونصف من الجنيهات .

٣ – سبع عشرة طائرة مقاتلة (ميج ٢١) ، ثمن الواحدة ٢ مليون جنيه استرليني .

٤ – أسلحة للدفاع الجوي ، أهمها القواعد الصاروخية (قيمة الواحدة منها) كلفت ١٠٠ مليون جنيه إسترليني .

٥ – صواريخ (سام ٧) بعشرات الملايين من الجنيهات .

٦ – محطات ومعدات حديثة وإلكترونية للإشارة؛ سلكية ولاسلكية للإرسال والاستقبال؛ وعربات إشارة معدة لذلك ، وبطاريات للحدود ، وورش للصيانة وقطع غيار . . هذا البند وحده كلف السودان ، ما لا يقل عن ١٥٠ مليون جنيه إسترليني .

دبابة و مدرعة ماركة (توباس) ، ومدرعات برمائية ماركة (أمفيبيوس) ويقدر ثمن المدرعة العادية ، بما لا يقل عن مائة ألف جنيه إسترليني .

هذا ... وقد استُبدلت السيارات والشاحنات الانجليزية والأمريكية والألمانية واليابانية ، التي كانت مستعملة قبل الانقلاب ، بأخرى روسية . ولقد برهنت التجربة أن السيارات الروسية غير صالحة للاستعمال في أرض السودان ومناخه

هذا عدا ضخامة استهلاكها للوقود وقطع الغيار . وقد صُرفت عشرات الملايين من الجنيهات ، في شراء هذه السيارات والشاحنات ، بالإضافة إلى قطع الغيار وورش الصيانة .

وفوق كل هذا . . تم شراء سيارات مارسيدس ، لكبار الضباط وأعضاء مجلس قيادة الثورة ، حيث أوفد لهذه المهمة المربحة اللواء الفاتح بشارة ، فقام بعقد الصفقة وطبعا قسمة الغنيمة من العمولة ، بينه وبين الدكتور بهاء الدين . (والجدير بالذكر أن صفقة المارسيدس تمت رأسا مع الشركة ، فذهبت العمولة للمليونير الفاتح بشارة وزملائه من غير عطاء) ونذكر أيضا عن الفاتح بشارة ، جولاته المتكررة والمشهورة في دول الخليج والسعودية ، لجمع التبرعات لبناء نادي الجيش ومسجد النيلين ، والتي قُدِّرت بمئات الألوف من الجنيهات ، وطبعا اختفى معظمها .

وأثناء فترة التحالف مع الاتحاد السوفيتي " العظيم " تعهدالاتحاد السوفيتي ببناء مستشفى ضخم في الخرطوم جنوب ، وفعلا أُحضرت كميات كبيرة من المواد والمعدات اللازمة لبناء المستشفى ، ولكن الانقلاب الشيوعي الفاشل ، الذي قام به هاشم العطا ، أطاح بكل شيء ، وتوقف العمل في المسشفى ، ونُهبت المواد والموجودات ، ولم يُعرف مكانها بعد .

وأيضاً في هذه الفترة توصل السوفيت إلى معرفة كل أسرار الدولة ، واطلعوا على الملفات السرية ، وصُوِّر أغلبها أو حملت إلى موسكو ؛ وتمكن الاتحاد السوفيتي من زراعة العملاء والجواسيس داخل الجيش ، بل وفي كل المرافق الحساسة والهامة . واعتُبِر السودان في ذلك الوقت البوابة العريضة للدخول إلى قلب القارة الأفريقية . ولكنْ انقلبت الأوضاع بعد فشل الانقلاب الشيوعي (في يوليو ١٩٧١ م) حيث تنكر النميري للشيوعيين السودانيين والاتحاد السوفيتي ، فسحب المبعوثين العسكريين الروس ، وأصدر أوامر بعدم استيراد الأسلحة والعتاد الروسي . وبالمثل توقف الاتحاد السوفيتي ، عن مد السودان بقطع الغيار اللازمة للأسلحة والسيارات وغيرها . وتحوَّل النميزي من الإشادة بالماركسية اللينينية ، والصراخ العالي بثورة الطبقة

العاملة ، إلى أقصى اليمين (عسكرياً واقتصادياً) نحو الولايات المتحدة الأمريكية والغرب ؛ وتَلَفَت عندها الآلات والمعدات والأسلحة والطائرات والسيارات ومعدات الصيانة . . الروسية؛ وتُرِكت في المخازن ؛ ومن ثم ضاعت مئات الملايين من الجنيهات على البلاد .

بعد مقاطعة وخصام الاتحاد السوفيتي لجأ النميري للمملكة العربية السعودية تلك المملكة التي هاجمها في يوم من الأيام ، وهاجم رجالها الذين غفروا له عندما لجأ إليهم متضرعاً ، وكانوا كراماً ولم يحاسبوه على فعلته . فمولوا كل عمليات شراء الأسلحة والسيارات والطائرات والدبابات . . التي اشتراها من الغرب ؛ ولكن من سوء حظ السودان ، أن تعرَّف النميري بتاجر الأسلحة الكبير ، عدنان خاشقجي حيث فتح الباب للنميري وبهاء الدين إدريس ، للعمولات والشراء من صفقات الأسلحة المتعددة ، على حساب الشعب السوداني المسكين .

وقد كانت أول عملية لتسليح الجيش السوداني ـ موَّلها السعوديون ـ قُدِّرت بمائتي مليون دولار ، دفعتها المملكة لشراء عربات الماجروس الألمانية ، وبعض معدات الصيانة . واشْتُريت هذه العربات بأسعار عالية ومكلفة ، في الوقت الذي اشترت مصر نفس هذه العربات من الشركة المصنعة نفسها ، بما يقارب نصف الأسعار التي دفعتها الحكومة السودانية ، وقد برهنت التجربة على فشل هذه العربات ؛ وفوق هذا قام الوكيل السيد مصطفى عوض الله بإحضار مئات العربات حمولة ١٥ و٢٠ طناً وتقاسم العمولة مع السيد بهاء الدين إدريس والنميري .

وأُسندت عملية بناء وإنشاء الورش لضابط مهندس كبير ؛ أثرى من هذه الصفقة ثراء فاحشاً ، ولكنه أخطأ حين لم يقسم العمولة مع السادة الكبار ، وفُصل من الجيش ولم يقدم لأي محاكمة . . وهكذا استمرت أزمة المواصلات والسيارات في الجيش حتى الآن . وما زالت هذه السيارات تعاني من النقص الفظيع في قطع الغيار .

ثم جاءت صفقة سيارات أبورجيلة المشهورة ، حيث تم شراء سيارات لمواصلات العاصمة من البرازيل ، بأسعار عالية ومواصفات أقل من باصات المارسيدس الألمانية

تستطع هذه البصات أن تحل أزمة المواصلات المزمنة في العاصمة، وتوقف معظمها بأعطاب رئيسية في التصميم، وأعطي ما تبقى منها للجيش، وبيعت له بأسعار باهظة؛ وخرج أبورجيلة من تجارة السيارات، إلى تجارة اليخوت البحرية التي أحضرت لزمرة النظام. وأيضا أعطيت له صفقة الملابس العسكرية، والخوذات [illegible]، وصفقة معدات البوليس، وكل أدوات القمع: من هراوات وقنابل [illegible] ... وغيرها.

[illegible] الدمار الذي صاحب صفقات السيارات وتوقفها، واشتداد أزمة [illegible] في الجيش، نزع توكيل شركة الماجروس من السيد مصطفى عوض الله [illegible] "آل نميري أخوان"، التي يديرها مصطفى النميري تحت اسم (جمعية [illegible] التعاونية)؛ وتسللت أسرة النميري إلى أجهزة الجيش الأخرى، حيث [illegible] (طبيب) عبدالسلام صالح عيسى (صهر النميري) قائداً للسلاح الطبي [illegible] (طبيب) مصطفى كامل صالح عيسى، قائداً للمستشفى العسكري ومن ثم أصبح السلاح الطبي مملكة خاصة له، من حيث التعيين والفصل وشراء الأدوية والمعدات والإمدادات والغذاءات ... زيادة على وجود أخيهم الثالث - عمر صالح عيسى، سفيرا للنميري في واشنطن..

وعم الفساد سلاح الإشارة، وأعلن عطاء لاستيراد معدات المواصلات (السلكية واللاسلكية) وأجهزة الاتصال الأخرى، بحوالي ٤٨ مليون جنيه إسترليني؛ وقد [illegible] على شركة فرنسية؛ ولكن راجع المارشال نميري نفسه، وأمر بإعطاء [illegible] شركة إنجليزية، وكيلها لواء بالمعاش؛ والذي تحصل على عمولة قدرها ٢ [illegible] جنيه إسترليني؛ تقاسمها مع نميري وبعض المسئولين في الحكومة

[illegible] الفضائح والفساد في الجيش السوداني طويل ويزكم الأنوف؛ ولكن [illegible] والوطنيين من أبناء القوات المسلحة لن يسكتوا ولن يصمتوا على [illegible] الوطنية والدرع الحامي لشعبنا، والتي أذلتها الطغمة الباغية

الفاسدة ، وحولتها لسوق وتجارة تتنازعها أطماع سماسرة السلطة وأزلامها ، وتجار السلاح العالميين . . (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) .

وعوداً إلى ما سمي " الجمعية " إن جازت لنا التسمية ؛ ساهم فيها كل من مصطفى نميري رئيس مجلس إدارة "الجمعية" . . وهو شقيق المشير جعفر النميري . . والذي كان يعمل حتى مايو مخزنجي تدرج في الخدمة حتى وصل في عام إلى الدرجة . . والدكتور بهاء الدين إدريس ؛ ومحمد عبد ربه ؛ ومحمد محجوب . . أربعة أو خمسة أشخاص ، كونوا شركة وأحسنوا اختيار الاسم ؛ حتى ينالوا الحماية التامة والكاملة . . سعيا لمنحهم الرخص الممنوعة ؛ وحتى يحتكروا السلع ؛ ويتحكموا في السوق ويمارسوا ما يروق لهم من أعمال ؛ وفوق كل ذلك حتى يستولوا على أي توكيل لسلعة ما . . تستحوذ إعجابهم ، ويحسون بأنها تشبع نهمهم وطمعهم الذي لا قرار له ولا نهاية ؛ حتى تضخمت حساباتهم في كل بلاد العالم ؛ واشتروا أغلى العقار ؛ وطافوا على كل بقاع الدنيا ... ميامي . . فلوريدا . . مونتي كارلو ؛ الخ ... متنزهين ؛ وتوثقت صلاتهم بالسماسرة الدوليين ...

وكمثال للتوكيلات التي سحبت عنوة من أصحابها ـ توكيل شركة (دويتز) الألمانية ـ والتي كان وكيلها في السودان مصطفى عوض الله ـ شقيق بابكر عوض الله ـ وهي شركة تنتج عربات الماجروس التي وردّت إلى قوات الشعب المسلحة ؛ وتقوم بإنتاج تركتورات وآلات زراعية وأسلحة . وقد رفع مصطفى عوض الله قضية خسرها أمام القضاء لا لشيء يذكر ؛ إلا لأن التوكيل قد سُحب لصالح " جمعية ودنميري " . وبدأت "الجمعية" ممارسة نشاطها كوكيل تجاري لهذه الشركة ؛ وكل منتجات الشركة تباع في السوق . وقد قرأنا قبل فترة عن بشرى سارة "تزفها" الجمعية للمواطنين لوصول حصة من تراكتورات دويتز الشهيرة . .

ولما كان هذا هو العام الأول تدخل فيه هذه الجرارات السوق السوداني ؛ لقد أعلنوا في الصحف ؛ ولكن في الموسم القادم ـ بإذن الله ـ إذا كتب لهم البقاء فستصدر الأوامر لجهات [illegible] (في البنك الزراعي) بأن يشتري حصته من التراكتورات

من ألمانيا؛ وستكون مواصفات العطاء كالآتي: يطلب البنك الزراعي السوداني من موردين أكفاء توريد عدد تراكتور (بدلا عن ألف تراكتور المعتاد شراؤها) على شريطة أن تكون مصنوعة في ألمانيا وفي مدينة وعلى أن يبدأ اسم التراكتور بالحرف D وإن يكون الوكيل العام في السودان، جمعية تعاونية وليس شركة؛ وذلك حسب الأوامر الخاصة الصادرة بتشجيع "الجمعيات" التعاونية "الخاصة" ...

وبما أن عربات الماجروس، قد جربت في الخرطوم وفي وديان السودان المختلفة وسهوله؛ وأثبتت صلاحيتها، فقد اتُّبعت نفس الإجراءات والخطوات، وصدرت التعليمات لشركة مواصلات العاصمة بشراء ما يلزمها من البصات من ماركة الماجروس ... إلى أن تتعاقد مع الموردين لتوريد ضعف المشترى، حتى يمثل احتياطي الشركة للبصات.

أما دخول الجمعية في صفقات المنتجات الأخرى - التي تنتجها الشركة - فهي تتم في سرية تامة؛ لأن الجهة التي تورِّد لها هذه المنتجات ... ميزانيتها سرية ... وتستدعي ظروفها الأمنية عدم الإعلان عن توريداتها. . لذا لاداعي للإعلان.

هذا ما كان من أمر الممارسة الواضحة والمعلنة "للجمعية" بخصوص توكيل شركة (الدويتز) ... وللجمعية نشاطات أخرى . . وهي أغنى من جمهورية السودان، امتلاكا للأراضي والعقارات . فقد اشترت أراضي وعقارات بعضها حكومي والآخر مُصادر ومؤمم؛ وقد أنشأت "الجمعية" قسما للتشييد خاصا بها يملك من المعدات ما عجزت وزارة الأشغال - حتى عهد قريب - في امتلاكه . . مثل معدات البناء. وذلك حتى تقوم باستيراد مواد البناء كلها لتبني وتنفذ مشاريعها الإنشائية الأخرى . . ولا ندري فقد يكون في البال ترحيل قرية ود نميري من موقعها الحالي للخرطوم . . لتكون حيا نموذجيا يضارع الرياض والمنشية.

كما أن الجمعية تسيِّر أسطولا ضخما من الشاحنات الثقيلة؛ حتى لا تدخل في منافسات ومضايقات شركات النقل الأخرى؛ ويتأخر بالتالي وصول المواد المستوردة لقرية ود نميري . . وحتى لا تتعرض للتلف في الميناء؛ كما أن هذه الشاحنات تعود

لبورتسودان؛ محملة بالمحاصيل السودانية الزراعية: من ذرة وحبوب زيتية تُشترى "للجمعية" بواسطة وكلائها ومناديبها المعتمدين في مناطق الإنتاج المختلفة؛ وذلك للتصدير . .

دخلت "الجمعية" في منافسة عالية مع كل الحطابين في السودان؛ والذين كانوا يتاجرون في الحطب . وعندما رأت الشركة توفير مواد الحريق بكميات أوفر؛ اشترت كل الغابات في جنوب الجزيرة وجنوبها الشرقي؛ وغرب السودان وجنوب السودان؛ في منافسة لم تشهد مواد الحريق مثيلا لها من قبل . . وتدخل "الجمعية" الآن في كل العطاءات الحكومية الكبيرة، كمنافس لكل بيوت الخبرة: من شركات ومؤسسات حكومية لها تجربة كبيرة في مجالاتها . . وتُمنح "الجمعية" كل التسهيلات من البنوك ومؤسسات الدولة المختلفة ـ وعلى رأسها وزارة التجارة ـ في إصدار تراخيص الاستيراد؛ متى ما طُلبت . . لأي كميات ولأي سلعة؛ دونما مراعاة للسياسة التي تتبعها الوزارة للاستيراد . .

بدأت "الجمعية" تنافس في عطاءات ملابس ومستلزمات أفراد القوات المسلحة . . واستوردت "الجمعية" عربات المرطبات التي تجوب شوارع العاصمة الخاوية الخربة والحزينة . وأخيرا تقدمت "الجمعية" بدراسة متكاملة لصيانة المرافق الحكومية في العاصمة والأقاليم . . بدلا عن وزارة الأشغال ...

تتم كل هذه الممارسات ـ وبلا حياء ـ أمام الناس والعالم، باسم جمعية تعاونية لمنطقة لا يتعدى عدد سكانها كما ذكرنا . . الثلاثة آلاف نسمة؛ وتتم هذه الممارسات في فساد قبيح . . يعقبه فساد أقبح؛ قباحة ذواتهم الرخيصة . . وتستورد هذه الأشياء كلها، بمخالفات في الأسعار، واضحة لكل من يتابع حركة السلع الرئيسية في العالم . . فهم يستوردون السلع بسعر أعلى من الأسعار الأصلية؛ وتحول فروقات الأسعار لحسابات خارجية خاصة وسرية؛ في سويسرا وألمانيا وفرنسا وانجلترا ... وتحمَّل بمصاريف لا طائل لها . . وذلك لإن "الجمعية" أصبحت المورِّد الرئيسي لجهات حكومية لاتناقش: لا في السعر؛ ولا في الجودة؛ ولا في المواصفات؛ ولا في شروط

التسليم وعقوده .

وبذا أصبحت الشركة الوكيل العام لحكومة جمهورية السودان . . وما الفرق بينها وبين شركة النيل لما وراء البحار، والتي كشفها وتابعها قلة من أعضاء مجلس الشعب - في حين ظهور الشركة - والتي صدق عليها رئيس الجمهورية . ولماذا كُشفت تلك . . ولم تُكشف هذه ؟ ونحن من هنا نطالب ونخاطب كل الضمائر الحية والشجاعة، بأن تكشف هذا العبث والتلاعب، باسم التعاون وجمعياته التي أنشئت لحماية المواطن، وليس لاستغلال اسمه .

لندن : ١٩٨١م

الباب الثالث

أحاديث ومقابلات صحفية



هناك ثورة شعبية في السودان



الشريف حسين مع أحد الصحفيين

قال الشريف حسين الهندي ، أحد أبرز وجوه المعارضة السودانية ، إن الذي يحدث في السودان حالياً هو (ثورة شعبية) . . والهندي الذي رد على فكرة " المصالحة الوطنية " ، التي طرحها الرئيس جعفر نميري قبل سنتين ونصف سنة تقريباً يقيم حالياً في لندن ؛ وقد أجاب على أسئلة وجهتها إليه " النهار " - جريد بيروتية - عن الوضع الراهن في السودان .

وانتقد الهندي السيد الصادق المهدي ، الذي كان رفيقه في المعارضة قبل " المصالحة الوطنية " ، كذلك السيد حسن الترابي مرشد (الأخوان المسلمين) . . وبعدما استبعد أية مصالحة بينه وحزبه من جهة ، وبين الرئيس السوداني من جهة أخرى ، قال : " نضع في حسباننا " احتمال حصول تدخل عسكري مصري في السودان ، لكنه لاحظ أن النميري ليس الوحيد الذي له أصدقاء في الخارج . ورفض تسمية هؤلاء الأصدقاء ، إلاَّ أنه قال : " إذا ما اضطرنا النظام ، وسيكون البادئ حتماً ، فعند ذلك لن نكون وحدنا في الميدان " .

وعن إعلان السودان وجود النفط في أراضيه بكميات تجارية ، قال إنه حتى لو وُجِد النفط بكميات كبيرة في السودان ، فإن سبع سنوات على الأقل ، لازمة لاستخراجه والاستفادة من موارده . ووصف الأنباء التي تحدثت عن وجود النفط بأنها "محاولة لتخدير الشعب" .

وهنا أبرز ما جاء في الحديث :

ما هو تقويمك لما يشهده السودان حالياً ؟

إن الذي يحدث الآن هو ثورة شعبية وليس حركة مطلبية ، والحركة المطلبية في أساسها حركة سياسية ، ليست منفصلة عنها في شكل من الأشكال ، لأنها تعبير عن رفض لسياسات الحكومة المختلفة (الاقتصادية والإدارية) ولتفشي الفساد فيها . وأنت ترى أن الحركة الحالية ، تضم العمال والطلبة والمهنيين والموظفين ، وهي قطاعات تعارض الحكومة أساساً ، وترفع شعارات المطالب التي لا يمكن أن تُنفَّذ عملياً . . فتتخذ منها طريقاً للثورة . والمزارعون أنفسهم أعلنوا الإضراب الشامل ، خصوصاً في زراعة القطن ، وهي العمود الفقري لاقتصاد السودان ونموه .

ماذا عن القوات المسلحة السودانية ، وهل تعتقد أنها ستنضم إلى الحركة ؟

إن القوات المسلحة جزء من جماهير الشعب السوداني ، ومهما قيل عن امتيازات مُنِحت لها فإن التضخم المالي ، وندرة السلع ، والسوق السوداء ، التهمت أي مكسب . ولا أعتقد أن القوات المسلحة ستقف إلى جانب النظام ، وقد اتضح ذلك في الاجتماعات المتكررة ، التي عقدها النميري أخيراً مع الضباط ، إذ ألقوا المسئولية كاملة على الجهاز السياسي والإداري ، واعلنوا أن القوات المسلحة ، لا دخل ولا مسئولية لها . . في ما يجري في الشارع ، والمسئولية تقع كاملة على عاتق النظام . وإننا واثقون من أن القوات التي تجوب الطرق، ولا تتخذ أي إجراء مضاد، ليس لديها سلاح أو ذخيرة ، لإن النميري يخاف أن تمتلك ذخيرة . . فتستعملها ضده هو .

يُلاحظ غياب الاتفاق والتنسيق ، بين مختلف القوى والأحزاب السياسية السودانية المعارضة للنظام . . فكيف تفسِّر ذلك ؟

إن هناك اتفاقاً عاماً في أوساط الجماهير السودانية (بمختلف خلفياتها وهوياتها السياسية) في معركة معارضة النظام وضرورة إسقاطه . وهناك بعض القيادات التي ارتبطت بالنظام ودخلت مؤسساته ، وهي تعيش الآن في حال حيرة وعُزلة ، وقد فقدت ولاء قواعدها ، وتحاول المحافظة على النظام ، وإقناع بقية المعارضين بالوصول إلى حل معه . . لكي تنقذ نفسها . لكنها ستبقى على ذلك . . كون السخط الشعبي موجهاً ضدها ، بمثل القوة التي هو موجه بها ضد النميري .

هل تقصد الصادق المهدي (زعيم حزب الأمة) ، والسيد حسن الترابي مرشد (الأخوان المسلمين) ؟

نعم أقصد الصادق المهدي وحسن الترابي ، وهما جزء لا يتجزأ من النظام الحالي وذلك معروف جيداً لدى السودانيين . وقاعدة الأنصار التي يرتكز عليها الصادق تعارض النظام أساساً لأسباب خاصة وعامة ؛ وهو منفصم عنهم . والقاعدة الطلابية التي يرتكز عليها حسن الترابي ، تعيش في حال تمزُّق مستمرة ، وهي لا تتعدى نطاق جامعة الخرطوم ، وبينها وبين كل طلبة السودان (في الجامعات والمعاهد ، والثانويات والابتدائيات) خلاف أساسي ؛ وهي فقدت قيادة الحركة الطلابية ، وأحجمت عن التحرك الفعلي .

يُلاحظ إن الرئيس السوداني ركز هجومه (في خطابه الأخير) على "الشيوعيين وبَعْث العراق" وتجاهلكم تماماً ، فهل هذا يعني موقفاً إيجابياً ، يمكن أن يؤدي إلى حوار جديد معه ؟

إن محاولة النميري إلقاء التبعة على الشيوعيين والعراق ، هو تعبير عن المَثَل الذي يقوله الناس في السودان ، عن الشخص "الذي يرى الفيل ، ويطعن في ظله" . وأحجام المؤسسات السياسية السودانية ، معروفة لدى المواطن السوداني . وحزبنا - الحزب الاتحادي الديموقراطي - هو حزب عريض القاعدة وقوي ... تؤيده الملايين وقد ظل معارضا لهذا النظام منذ قيامه ، إلى لحظة حديثي هذا . والسكوت عن مهاجمتي في هذه الفترة - وقد كانت النبع الذي لا ينقطع طوال عشر سنين - لابد أنه جزء من

مساومة أو مهادنة أو محاولة لخلق ما يسميه "المصالحة الوطنية" . وقد انتهى العهد الذي كان يمكن أن تتم فيه أية مصالحة ، وليس أمامنا سوى هدف واحد ، هو إسقاط هذا النظام . ونحن لا يمكن أن نقبل أي تعاون مع النميري ، لأنه يطلب التعاون عندما يكون مضطرا إليه ، ثم يتنكَّر له عندما يعتقد أنه تجاوز أزماته . . . ولو مؤقتا .

ألاَ تضعون في حسبانكم إمكان تدخُّل مصري عسكري، لِوقْف أي تحرك جِدِّي لإسقاط الرئيس النميري؟

نعم نضع كل هذا في حُسْبـاننا . لكننا واثقـون من أن أي تدخل من الخارج سيُجهَض وسيُقضَى عليه . فالحركة الشعبية الآن في أوج قوتها ، ولكن إذا انحسر هذا المد الثوري الشعبي ، واستُعمِلت ضده الأساليب التي تشل حركته ، فإني أؤكد أن الطلائع المسلحة للشعب السوداني ، ستأخذ على عاتقها مسئولية حماية الثورة السودانية . والنميري ليس الوحيد الذي له أصدقاء في الخارج ، يضربون معه شعب السودان المقهور ؛ وليعلَم الجميع أن الشعب السوداني نفسه ، له أصدقاء يملكون قوة أكبر من قوة النميري ، ونحن واثقون من أنهم سيهرعون لمساندته . وما دمنا قادرين على مواجهة التناقض الداخلي بيننا كشعب وسلطة ، فلن نحاول إدخال أطراف أخرى . ولكن إذا ما اضطرنا النظام (وسيكون البادئ حتما) فعند ذلك لن نكون وحدنا في الميدان .

القوات الكوبية مثلا ؟ هل نفهم من كل ذلك أنك تدعو ، إلى تكرار تجارب أخرى في القارة الأفريقية . . (مثل إثيوبيا وانغولا) واللجوء إلى القوات الكوبية ؟

ليس هذا هو الواقع إطلاقا . لكننا ننتظر أن يطلب النميري التدخل ، بموجب معاهدته العلنية والسرية ، وعند ذلك لن نتركه يقتل جماهير الشعب ، بقوات يستوردها لمساندته وإطالة عمره؛ ونحن واثقون من أصدقائنا ونياتهم واتجاهاتهم وتحركهم ، في اللحظة المناسبة التي نقدِّرها نحن ، كوطنيين مستقلي الإرادة ، ولسنا ذيليين لأي قوة عربية أو غيرها . وأرجو أن تسمح لي ألاَّ أسمِّي أصدقاءنا ، ولكن أرجو أن تعلَم أنهم كثيرون ، وأنهم أقوياء ، وأنهم ليسوا طامعين في التحكم

بالسودان . . أو بشعبه .

إذا سقط النظام ووصلتم إلى السلطة، أنتم كحزب وقيادة ، فهل تشركون الشيوعيين في الحكم ؟

في حال سقوط النظام ، لن نتولى السلطة وحدنا ، بالصفة الشخصية أو الحزبية إنما سيتولاها الشعب السوداني ، وسيكون ممثلوه فيها من الذين أبلوا في معارضة هذا النظام . ولن يسمح أحد بأي سيطرة حزبية أو عقائدية ، **بل سيكون الحُكم وطنيا قوميا ، من أجل الإنقاذ ، ليس خاضعا لأية سيطرة حزبية في الداخل ، أو إملاء وإيحاء من الخارج .**

وماذا عن إعلان السُّلطة أن اكتشاف النفط في الأراضي السودانية، سيكون مفتاح الحل للأزمة الاقتصادية ؟

أولا : إن النميري يحاول تخدير الشعب ، ويحاول الخروج من مأزقه بتبشير كاذب عن النفط المزعوم . وكلنا يذكر زجاجة النفط التي وضعها في قصره قبل شهور وفتح لها كشفا للمهنئين .

ثانيا : إن الإعلان الذي صدر عن النميري وشركة "شيفرون" الأمريكية ، هو إعلان سياسي ، يفتقد المقومات العلمية لوجود النفط . . بكمية تجارية واقتصادية وتسويقية . وقد جرت ضغوط كثيرة على الشركة المذكورة ، لكي تُصدِر إعلانا عاما عن النفط .

ثالثا : لقد نفت هذه الشركة نفسها (لاحقا) ، وجود النفط بكميات تجارية في الوقت الحاضر ؛ وساندتها في ذلك المؤسسات النفطية العالمية والإقليمية ، وسكَت عن تأييدها "الأوبيك" . وكلنا يعلَم أن إعلان وجود النفط التجاري ، لأيصْدُر عن دولة أو شركة معينة ، إنما عن جهة محايدة ليكون له وزنه .

رابعا : إن النفط موجود في السودان ، وقد يكون موجودا في كل بلدان العالم . ووجود بئر تنتج ٥٠٠ برميل يومياً ، ليس جديدا على السودان . . أو دول أخرى .

خامسا : حتى لو كان النفط موجودا بالكميات التجارية والاقتصادية ، وحتى لو كانت نوعيته صالحة ، فإن استخراجه ومد أنابيبه عبر آلاف الكيلومترات ،

واستفادة السودان منه ، أمور لا تتم إلاّ بعد سبع سنوات على الأقل . . من استخراجه .

سادسا : الجماهير الجائعة الآن ، والتي تحتاج إلى الوقود والغذاء والكساء ، لا يمكنها أن تنتظر سبع سنوات ، حتى يكتشف النميري النفط ويُسوِّقه ، وإننا نتوقع أنها ستموت قبل أن يقبض نميري دولاراً واحداً (. . .) من بيع النفط المزعوم !

"النهار" البيروتية : ١٦/٨/١٩٧٩م .

لا اتصالات مع نميري

الشارع السوداني مُسيَّس وحساس ، وميزان دقيق ومُرهَف للتيارات السياسية والأيديولوجية ، قلّما يتميز به شارع سياسي آخر . . في العالم العربي . ولعل السبب في ذلك . . يعود إلى التوعية السياسية والوطنية ، التي تمارسها أحزاب وهيئات عُرِفت على مرّ تاريخها بالحيوية والديناميكية ، وزعماء وساسة ذوو صلة تاريخية عميقة الجذور بالجماهير السودانية ، على اختلاف انتماءاتها واتجاهاتها .

وقد ساعدت هذه الممارسة السياسية أيضاً ، على تعميق الإيمان بالديموقراطية كأسلوب للعمل الوطني ، ولكن من المؤسف إن اللعبة الديموقراطية في السودان شابها ما عكّر استمرارها على قواعد وأسس ثابتة وراسخة وأصيلة . وسمح ذلك للطامعين وأعداء الديموقراطية ، بالقفز إلى الحكم والاستيلاء على السلطة ، على فترات ومراحل . ولكن التجارب الإنقلابية كانت دوماً تنتهي بمآسي على الساحة السودانية ، وكانت لها انعكاسات سلبية ، طبعت الحياة السياسية في هذا البلد العربي العريق ، بطابع مأساوي وأحيانا دموي . كما انعكست في شكل اختناقات وأزمات اقتصادية واجتماعية ، عانى منها أول ما عانى الشعب السوداني نفسه .

واليوم يجد الحكم في السودان نفسه - مرة أخرى - في نهاية الطريق المسدود . وهو ، كأي كائن علق بالشباك ، يتخبط محاولا الخروج من مأزقه بشتى الوسائل والحِيَل . ولكن يبدو - فيما يرجّح معظم المراقبين - أن النهاية باتت محتمة ، وأن الحظ لن يلعب مرة أخرى دوره ، في قلب مسار التاريخ ، والدخول به في انعطافات والتواءات لم تنفع في الماضي ، سوى في إطالة أمد نظام ، يجد الجميع ألا مصلحة لهم في استمراره .

جريدة النهار

حديث الشريف لمجلة (الوطن العربي)

عن محنة السودان اليوم ، وعن مأزق النظام فيه يحدثنا السيد الشريف حسين الهندي ـ قطب المعارضة السودانية ـ الذي يعيش في المنفى الآن ، مناضلا من أجل استعادة الديموقراطية في وطنه ، ومن أجل تأكيد وجه السودان العربي ؛ في هذه الظروف التي تُخلَق فيها جميع المبررات والأسباب ، لربط السودان بشكل أو بآخر بعجلة الحلف الساداتي ـ الإسرائيلي .

بعد البيان المشترك (السو[illegible]) الذي صدر في أعقاب زيارة السيد الرشيد الطاهر ، نائب الرئيس [illegible] [illegible] الخارجية إلى ليبيا ، وبعد خطاب الرئيس جعفر محمد نميري ، الذي [illegible] فيه اللوم الشديد إلى زعماء المعارضة السودانية سعيتُ إلى هذا اللقاء في عاصمة الضباب مع الشريف حسين الهندي ، قطب المعارضة السودانية الموجود حالياً هنا ، والذي خصه الرئيس نميري بمعظم هجومه معترفا بذلك الدور الكبير الذي يلعبه في السودان ، على الرغم من إقامته الحالية في المنفى .

وقد شاء هذا الزعيم السوداني الكبير ، أن يرد على صفحات "الوطن العربي" على خطاب نميري ، وأن يحدد موقفه من تحركات النظام السوداني ، المتمثلة في محاولته تجديد الاتصال بالمعارضة . وأهمية موقف الشريف الهندي في هذا الوقت بالذات ، تعود إلى كونه يمثل المعارضة الحقيقية السودانية ، لنظام يشعر بخناق العزلة يضيق عليه شيا فشيئا ، إلى كونه لم يلن في الماضي أمام جميع إغراءات النظام ، ولم ينخدع بالشعارات التي رفعها ، سواء على الساحة السودانية أو العربية أو الأفريقية وبذلك تحوَّل الشريف الهندي إلى رمز بارز من رموز النضال الوطني في السودان لتحقيق العودة إلى الديموقراطية ، مع تأكيد على انتماء هذا البلد الكبير إلى أمته العربية ، انتماء صريحا ملتزما بتاريخها وعقائدها ، وبقضاياها القومية .

ويتزعم الشريف الهندي الحزب الاتحادي الديموقراطي ، الذي ينحدر من الحزب

الوطني الاتحادي ، الذي انطلق في الثلاثينيات والأربعينيات ، بقيادة السيد إسماعيل الأزهري ، وبرعاية السيد على الميرغني - زعيم طائفة الختمية - بهدف تحقيق وحدة وادي النيل .

وقد تجاوز هذا الحزب اليوم ، بقيادة السيد الهندي ، اهتماماته المحلية والإقليمية ليصبح حزبا داعيا للوحدة العربية ، مؤكدا على انتماء السودان القومي ، ومعطيا لعمله الحزبي والوطني ، مضمونا اجتماعيا متقدما ، يتجاوب مع ظروف السودان وحاجاته التطويرية .

وقد تقلد الهندي - في الستينيات - مناصب وزارية رئيسية ، وبرز كرجل دولة وإداري ناجح ، كما أثبت براعته السياسية ، في قُدرته على تَلمُّس الأمور واستشفاف الواقع ومتطلباته . وكان هدفا دائما لعداء نظام الرئيس نميري وخصومته وملاحقته الشديدة . وعندما جنح النظام السوداني إلى التقرب من المعارضة ومصالحتها واسترضائها ، ظل الهندي هدفا للنظام أيضاً ، باعتبار أن استرضاءه يلقي عن كاهل الحكام ، عبئا ضاغطا بشدة ، يمثله الوزن السياسي للهندي وقواعده الجماهيرية ومكانته الكبيرة .

ومع ان الهندي قبل بمبدأ المصالحة في الماضي ، لكنه رفض العودة إلى السودان ما لم يتخلَّ النظام عن كل ممارساته غير الديموقراطية ، وعن تفرّده باتخاذ القرارات السياسية الوطنية والعربية ، دون مشاركة القيادات السياسية الحقيقية في البلاد ، رأيها ومشورتها ونُصحها .

واليوم يرفض الشريف الهندي رفضا قاطعا ، التعاون أو التفاوض مع الرئيس نميري ، ويدعو إلى إسقاط نظامه ، وقيام ميثاق قومي ، يجمع القوى المعارضة بهدف تنسيق العمل السياسي والوطني داخل السودان .

قلت للشريف حسين الهندي :

لا شك في أنك تابعت أخيرا الاتصالات الرسمية التي جرت بين السودان وليبيا كذلك فقد تردد أن اتصالا رسميا سودانيا بك قد جرى هنا - في لندن - فهل ذلك

صحيح ؟ ثم ما هو تفسيرك لهذه التحركات التي يقوم بها نظام الرئيس نميري . . في هذه المرحلة بالذات ؟

الأزمة الثورية في قمة نضوجها في السودان ، سواء كان ذلك على الصعيد الشعبي أو العسكري . وفي الوقت ذاته أحكِم الحصار حول النظام على الصعيد القومي فوقفت عشر دول عربية ، في مؤتمر القمة في بغداد ، موقفا موحدا . . في حين وقف السودان وعُمان وحدهما مع السادات .

وعندما ينذِر الحصاران - القومي والوطني - بانهيار النظام ، يلجأ نميري إلى إرسال وفود إلى دول ومناطق متعددة ، ويحاول أن يفتح حوارا - أي حوار - بأشكال مختلفة .

نحن نسمع مثلا بمذكرة ، يجمع عليها التوقيع للمطالبة ، بما يُسمَّى بميثاق قومي وبإصلاحات في النظام السوداني ، في الناحية الديموقراطية مثلا ، وفي ناحية تحديد صلاحيات رئيس الجمهورية ، وفي ناحية إلغاء القوانين المقيدة للحريات .

ونسمع أيضاً بالذين أتوا وفُوِّضوا - هنا في لندن - قبل عام ، وكانت مفاوضاتهم كذبة أبريل ، في أبريل السابق . وطوال هذا العام تدهور الموقف في السودان وطنيا وقوميا ، بحيث أصبحت اتفاقية لندن (للمصالحة) ، حتى لو نفذها نميري الآن ليست ذات موضوع . وكما قلنا قبل ذلك ، إن هذه الاتفاقيات أصبحت غير واردة في الحسبان ، وأصبحنا نحن غير مرتبطين بها .

وفي هذا المناخ أيضاً ، يأتي رُسل مثل الرشيد الطاهر وغيره إلى طرابلس ويحاولون أن يفتحوا حوارا بأي نوع من الأنواع . هذا الحوار . . جائز بين السودان كدولة وبين ليبيا كدولة ؛ فالدولة المستقلة لها الحق في أن تجري أي حوار تشاء ونحن لسنا طرفا فيه . وإذا كان الحوار حول الموقف العربي ، فالموقف العربي الراهن واضح والإجماع العربي واضح ، والعرب الآن لا يتكلمون بالتعليق على كامب ديفيد ، بل دخلوا مرحلة الإجراءات العملية ، في ما يختص بمقاطعة النظام الساداتي في مصر ولدحر ودحض الاتفاقيه المصرية - الإسرائيلية .

لسنا الآن في مجال كلمات تُقال في السودان أو في عُمان ، ويراد منها التخفيف أو الهروب من الموقف العربي الإجماعي . إن العرب الآن في موقف المواجهة لهذه الاتفاقية ، وقد اتفقوا كلهم كدول ـ ١٨ دولة ـ في بغداد ؛ واتفق الشعب العربي (وكان متفقا ومجتمعا) ضد هذه الاتفاقية . . ليس بالقول فقط ، وإنما بالإجراءات العملية التنفيذية .

صدرعنك في الفترة الأخيرة عدة تصريحات ، تؤكد فيها أن سقوط نظام الرئيس جعفر محمد نميري أصبح وشيكا . فهل ما زلت عند هذا الرأي ؟

نعم بل ازددت قناعة وتأكيداً لهذا الرأي . إنني أؤكد ـ لجميع إخواننا داخل السودان وفي الوطن العربي ـ أن سقوط هذا النظام أصبح قاب قوسين أو أدنى ، وهو يلفظ الآن أنفاسه الأخيرة ، كما أن تحركاته وتشنجاته الحالية ، ما هي إلاّ محاولات تهدف إلى إطالة عمره شهرا أو شهرين .

على أي أساس تبني اعتقادك هذا ؟ هل لديك صورة متكاملة عن حقيقة الوضع الداخلي ؟

الأنباء والمعلومات تطالعنا كثيرا ، عن تحركات وتفجيرات ومحاولات فردية داخل القوات المسلحة ؛ وحوادث غامضة . . ذهب ضحيتها عدد من الجنود وصف الضباط والضباط ، ثم عن أسلحة هُرِّبت عبر الحدود إلى السودان . مرة يقال . . إنها كانت لتجار يتاجرون بها ويبيعونها لآخرين ، بهدف الإخلال بالأمن ؛ ومرة يقال . . إن الأسلحة هُرِّبت من مخازن الجيش السوداني ذاته ، واعتُقِل بسببها ضباط كثيرون ومنذ ذلك الوقت . . وإلى الآن ، يجري التفتيش والتمشيط في مختلف أنحاء العاصمة السودانية ، ولم تجد الحكومة أثرا لأي سلاح ، سواء كان السلاح الذي قالت إنه تسرب عن طريق الحدود ، أو عن طريق التجار ، أو من مخازن الجيش .

المحاولات العسكرية التي جرت فردية ، لا أستطيع أن أقول إنها محاولات تنظيمية . وفي فترة لا تتجاوز العشرين يوما ، وقعت أربع محاولات داخل القوات المسلحة ، من مختلف التنظيمات التي تجعلك تعتقد ، أن الجيش السوداني في حالته

الراهنة، ما هو إلاّ وجهات نظر سياسية مسلحة ، تنتظر لحظة الانقضاض ذات فجر .

وفي كل يوم . . تخرج الحكومة السودانية آلياتها ودباباتها وتقفل الطريق ، وتأخذ الوزراء إلى القيادة العامة وتحرسهم في ذعر شديد ، ثم تعود بهم إلى منازلهم . حدث هذا أربع مرات ، في فترة لا تتجاوز الخمسة عشر يوما ، ثم حدث الاهتزاز في أجهزة الحكومة ذاتها .

وأضرب مثلا واحداً على ما حدث في مجلس الشعب ، عندما جُوبهت الحكومة بكثير من الفضائح التي قامت بها ، ووُجِهت بانهيار إدارتها واقتصادها وحالتها التنظيمية والمعيشية . وعندما حاول نميري الدفاع عن فضيحتين اثنتين : قبض شخص ما في الأولى منها . . مبلغ مليوني جنيه تعويضا عن مصادرة ، لا تزيد قيمتها عن ٦٨ ألف جنيه؛ وفي الثانية حُوِّل مبلغ ١٨٠ ألف جنيه. أقول عندما حاول الدفاع عن ذلك ، سخر منه المجلس ؛ فما كان منه إلاّ أن بكى بكاء شديدا سمعه الناس ، على أجهزة الإذاعة المرئية والمسموعة ؛ ثم خرج ولم يكمل خطابه ؛ وسافر بعد يومين من الاختفاء . . إلى لندن! وبقي أكثر من عشرين يوما ، ثم رجع ليختفي مرة أخرى ، ثم ليظهر في التلفزيون ويعلن قَطعْ العلاقات مع العراق ، ويذكر الكلام الذي قاله عن المناضلين السودانيين . . داخل الأرض السودانية .

سلطات الأمن السودانية تتحدث عن اكتشاف تحركات وتنظيمات وضبط أسلحة فما هي طبيعة هذه الحركات ؟

الحركات التي تمت أخيرا ، والتي قيل إنها اكتُشِفت ، ليست تنظيمات فالتنظيمات لم تتحرك ، وإنما هناك أشخاص مغبونون ومتعجلون ، وأولئك الذين يرضون بالتضحية بأرواحهم . إن قلة من هؤلاء تجتمع وتستبطئ الآخرين في التحرك ، قبل انضباط التنظيم وتحديد ساعة الصفر ؛ ثم تتقدم أو تتكلم نتيجة لهذا الغبن . ثم بين هؤلاء ما نسميه نحن في السودان " بالغواصات " . . أي عملاء أجهزة أمن مرتزقة ومهمتهم التبليغ عما يدور ويحدث في المجالس والاجتماعات . . . وربما ساعد في ذلك الأمن المصري .

لم يحدث تحرك عسكري ، والذي حدث هو تحرك السلطة خوفا وذُعرا . أما الذين يقال إنهم تحركوا ، فقد تكلموا في مجالسهم وفي ثكناتهم ، وتحدثوا عن كراهية الناس للنظام . لقد داهمتهم السلطة وقبضت عليهم ، وعذبت أكثرهم أشنع تعذيب ، للحصول على معلومات تقود إلى الآخرين ، لكن هؤلاء ، تحملوا التعذيب المستمر ، حتى الآن . . . ولم ينبسوا ببنت شفة . إن التنظيمات الموجودة داخل القوات المسلحة ، هي خلايا سِرِّية مُحكَمة وسليمة لا يمكن كشفها . والحوادث الأخيرة لم تؤثر عليها .

وإذا كانت حكومة السودان قد فقدت ، (وهي فعلاً قد فقدت) أسلحة من مخازنها وإذا كانت قد شعرت بأن هناك أسلحة تتبادل ، أو أن هناك أسلحة تدخل من الحدود فهذه حقائق . وهناك كثيرون من السودانيين الآن مسلحون ويتوقعون أن يحدث شيء ما .

والسلطات السودانية لم تعثر ، ولم تضع يدها على أية قطعة سلاح ؛ فهذه السلطات مُولَعة بالإعلام وبالنشر ، وإذا وضعت يدها على بندقية واحدة ، لكانت أظهرت ذلك في الإذاعة المرئية في السودان .

هناك من يقول بوجود خلاف بين رجال النظام ، وبين الرئيس نميري ونائبه السيد أبي القاسم محمد إبراهيم ؟

القول بوجود خلاف بين أبي القاسم ونميري . . وبين زيد أو عمرو ، أسلوب أصبح من سمات السياسة السودانية . إن هدف نميري هو ، أن يضرب هذا بذلك لكي يبقى في منصبه . فهو يقصي هذا الوزير ويأتي بوزير آخر ، يقرب مجموعة ، ويضحِّي بمجموعة كبش فداء . . ويضع كل الأخطاء على رأسها .

إن أسلوب استعداء شخص على شخص آخر ، والقول بأن شخصا يريد الأنقلاب على شخص آخر ، هو أسلوب يُمارَس يومياً في السياسة السودانية ، بهدف بث الفرقة في صفوف السودانيين ، ونميري لا ينظر في النهاية إلى السودانيين كشعب أو كجيش ، بل ينظر إلى مركزه الذي انهار بين مؤيديه . . الذين يحكمون معه ؛ والذين

معه في المكتب السياسي ، وفي اتحاده الاشتراكي ، أو بين الذين يعملون معه في مجلس شعبه .

إن معركة نميري الآن ، هي : داخل قواته النظامية التي تسانده ، وداخل تنظيماته الورقية الكرتونية التي لا وجود لها ، والتي تتعارك باستمرار ، ولا عمل لها إلا بيع الدقيق والأرز والفول والبنزين ، والاستفادة من الأزمة الطاحنة التي تعانيها الجماهير الكادحة في السودان .

لكن ما هو سبب هجوم نميري الشخصي عليك؟ وبخاصة في خطابه الأخير!

أسباب هذا الهجوم متعددة وكثيرة ، أولها هو : أن كل ما قاله نميري عن نفوذي الشعبي وغيره ، هو صحيح . . ويعرفه ويعلَمه نميري جيدا ، لكن هذا النفوذ ليس نفوذا شخصيا لي ، إنما هو نفوذ شعبي للحركة الوطنية المعارِضة ، وأنا أحد رموز هذه الحركة .

أما ما قاله نميري عن القومية العربية وعن الدول العربية ، فنحن ندعو إلى الوُحدة العربية ، وندعم وُحدة الموقف الأخير للدول العربية ، ونميري يستغرب ذلك ويعتقد أننا نتكسب بهذا ، وموقفه ليس جديدا .

أما بالنسبة لنا . . فنحن منذ ولادة حزبنا ، وطوال مسيرتنا التاريخية ، دعاة للوُحدة العربية ، وعندما امتُحِنت القضية العربية سنة ١٩٦٧ ، وكنا آنذاك في الحكم كان مؤتمر الخرطوم الذي جهزناه ، وكان الشعب السوداني الذي نعرفه ، الواقف الصامد في الخرطوم ، وصانع اللاءات الشهيرة ، التي لا نزال مَعْلَما من معالم السياسة العربية ، ضد النفوذ والوجود الصهيوني في المنطقة .

إن نميري خدع آخرين كانوا معنا في النضال ، ودخلوا أجهزته كمجلس وزرائه واتحاده الاشتراكي ومجلس شعبه ، واتخذوا منه مواقف متعددة : يلوح البعض بالمعارضة ثم بالتأييد . يفاوضون سراً ويدعمون سراً لقاء وفود نميري في لندن . ثم يدّعون المعارضة .

وفي واقع الأمر ، لم يبق في [illegible] السودانية [illegible]

أي حال من الأحوال لست أنا فقط ، فالشعب السوداني لا يصدّق نميري في أية كلمة فالذي يمدحه نميري ، يصبح سيئا بالنسبة للشعب السوداني ، والعكس بالعكس .
ويوم يشتمني نميري فإن أسهم الحركة الوطنية السودانية تتصاعد ، وجنودها ـ سواء كانوا في القوات السودانية المسلحة أو مواطنين مدنيين ـ ترتفع روحهم المعنوية .

ما فعله نميري هو : أنه شتم دولة كبرى من دول الصمود والتحدي والرفض . . هي العراق ، وقطع علاقته بها ، ثم اعتدى على حزب من الأحزاب المناضلة الثورية العربية ، مثل حزب البعث ، وأعقب ذلك بشخصي الضعيف ؛ أنا أعتقد أن تصرفات نميري شرف كبير لي وللشعب السوداني . وأني واثق أن تأثير ما فعله نميري على الشعب السوداني ، سيكون كبيرا وخطيرا وأساسيا .

إن كل التحركات التي يقوم بها نميري ، إنما هي (في نظري) تحركات مشبوهة المقصود بها الخروج من الأزمة الخانقة في السودان ، والتي اتخذت في الأسابيع الأخيرة ملامح كثيرة ، بعضها مرئي وبعضها غير مرئي . وتتمثل كلها بحالة نضوج الأزمة الثورية ، بكل أصعدتها : الوطنية والقومية والعسكرية والشعبية . فالغرض من هذه التحركات إذن هو ، صب الماء على هذه الثورة ، التي لا بد أن تنفجر .

وهذا الأسلوب لجأ إليه نميري مرات متعددة ، فكلما اشتدت الأزمة الثورية واقتربت من مرحلة النضوج ، حاول (بشكل من الأشكال) أن يوحي بأنه في طريق المصالحة والوُحدة ، وأنه أرسل وفودا إلى عدة دول عربية ، وإلى المعارضة بهدف التفاوض .

هذا الأسلوب . . أصبح خدعة معروفة ومعلومة ، ولا أعتقد أن أي وطني سوداني يستجيب له . إن المواطنين السودانيين يطالبون الآن ، بإزالة هذا النظام جذريا وأساسيا ، كما يطالبون بوقوف السودان موقفا قوميا ـ إن لم يتجاوز ، فلا يمكن أن ينقص عن ـ الموقف الذي وقفته بقية الدول العربية ، خصوصا الدول الصامدة والمتحدية .

أكُرر . . . نحن لسنا طرفا في هذه التحركات ، ولا يمكن أن نجلس اطلاقا على

مائدة مفاوضات ، إلاّ إذا أعلن نميري تخليه عن الحُكم في السودان ، وإلاّ إذا أعلن موقفا قوميا ليس هو الحد الأدنى ، وإنما هو الحد الأقصى الذي يؤمن به الشعب السوداني ، في تمسكه بقضيته القومية .

استكمالا لصورة الوضع الداخلي ، إلى أي مدى وصلَتْ حدة الأزمة الاقتصادية في السودان ؟

الموقف الاقتصادي والتمويني والمعيشي في السودان ، بلغ حدا من السوء يعجز أي إنسان عن وصفه ، وربما ليس له مثيل في أي بلد من بلدان العالم . فالتضخم الآن بمعدل ، والحكومة عاجزة عن استيراد أي سلع ، سواء كانت تموينية أو استهلاكية أو رأسمالية أو إنمائية . ولا تستطيع أيضا أن تطعم وتكسو الشعب ، كما أن متطلبات الإنتاج في جميع أنحاء السودان (سواء من وقود أو مخصبات أو مبيدات . . وغيرها) معدومة . الناس تقف في صفوف بحثا عن الطعام والغذاء .

مصرف السودان المركزي أفلس ، ولم يعد أحد إطلاقا يقبل ضماناته ، حتى ولو بعشرة دنانير . وهو متوقف الآن عن سداد القروض وفوائدها ، كما أن العالم ممتنع أيضا عن التعامل (بأي شكل من الأشكال) مع العملة السودانية المتدنية ؛ فالسودان اليوم يعيش على الورق المطبوع ، كما تُطبَع الصحف والمجلات ؛ هذا الورق لا رصيد له من إنتاج أو ذهب ، أو سندات أو عُملات أجنبية . والذي يذهب إلى السودان الآن ، لا يجد إلاّ الورقة الجديدة الأنيقة ذات العشرة جنيهات ، والتي خرجت من المطبعة لتوزع في اليوم ذاته . والقيمة الشرائية للجنيه السوداني ، تدنت إلى خمسة بالمائة عما كانت عليه .

يضاف إلى ذلك . . الفساد ، من رشوة ومحسوبية . وهناك أشخاص معروفون في المنطقة العربية ، اتخذوا من السودان وكرا لسمسرتهم وعمولاتهم . وأضرب لك مثلا : إن سعر السُكَّر الآن في بورصة لندن (وعلى مسمع ومرأى العالم) هو ٢٠٠ دولار للطن ، وقبل أسبوع اشترى السودان السُكَّر ب ٢٨٦ دولارا ، أي بما يزيد على خمسة وأربعين بالمائة عن سعره ، والسبب؟؟ أن الشاري هو سمسار يتعاون مع

سمسار آخر . . . الخ . هكذا أصبح الشعب السوداني ضحية السماسرة الدوليين والعملاء والوسطاء .

طبعا لو كان موقف السودان القومي والوطني صحيحا ، كان بالإمكان لهذه الأزمة أن تنفرج عبر الدعم من الدول العربية . لكنني الآن أسمع ، أن البعض يحاول أن يمد السودان بالبترول ، وأريد أن أقول إن المنظمات الدولية ودول العالم بأجمعه حذّرت كل من يريد أن يساعد السودان، من أنه يساعد دولة لا تساعد نفسها ، فمصروفاتها كلها على الوجود العسكري . . والاستنفار العسكري المستمر، وعلى الأمن والأجهزة الكرتونية مثل الاتحاد الاشتراكي ، وعلى الاستعراضات والمصروفات التفاخرية والمظهرية .

كل من يساعد السودان الآن ، يجني على الشعب السوداني؛ فالديون تتراكم على الأجيال المقبلة من الشعب السوداني. كل من يساعد السودان (ولو بأي مليم) هو عدو الشعب السوداني ، في واقع الأمر ، لأنه يساعد على انهيار الاقتصاد السوداني إن مجموعة الدول (الكونسورتيوم) الدائنة للسودان ـ التي شكلها صندوق النقد الدولي ـ أجمعت على أنه : مالم تخفِّض الدولة نفقاتها المظهرية ، ومشروعاتها ذات السمسرة والعمولة ، وإن لم تتحكم بسياستها المالية والاقتصادية ، فإن مساعدتها جريمة في حق السودان .

لكن . . بالتكسب السياسي الذي يقرب إلى الدعارة السياسية ، يذهب نميري إلى الدول التي تعطيه؛ (إنما تعطيه شخصياً . . وتعطي بهاء الدين إدريس . . والسماسرة) . وهذه الأموال تذهب إلى جيوب البعض ، ولا يجني منها الشعب السوداني إلا زيادة في التضخم المالي والانهيار الاقتصادي . والشعب السوداني سيحاسب (عندما ينعتق في يوم من الأيام) الذين يساعدون مثل هذا النظام ، والذين يسهمون في تدهور الاقتصاد السوداني ، والمقومات الاقتصادية والأخلاقية السودانية .

ثم سألت السياسي السوداني الكبير :

والدور المصري في السودان ؟ هل صحيح أن الرئيس السادات يدعم السيد أبا القاسم محمد إبراهيم ، على حساب الرئيس نميري ؟

ما أريد أن أقوله هو : إن الوجود العسكري والأمني المصري في السودان وجود كثيف ويزداد كثافة كل يوم . إن كل من تراه الآن في العاصمة السودانية ـ سواء كان بائعاً جوالاً أو شحاذا أو مقرئ قرءان ـ إنما هو في واقع الأمر من قوات الأمن ، أو من القوات العسكرية المصرية . وكل قادم من السودان يتحدث عن كثافة وجود هؤلاء بالإضافة إلى وجود قوات الطيران ، والقوات البحرية والبرية والمدرعات؛ وذلك في جميع أنحاء السودان؛ وتدلك على ذلك . . الزيارات المتكررة والمتتالية ، لرئيس الأركان المصري ، ورئيس سلاح الطيران المصري ، ناهيك بالوجود المعروف والمشهور، لكبار رجال الأمن المصريين في السودان .

ولو كان هذا الوجود جزءاً من التضامن العربي ، ولو كان وجود قوات عربية داخل السودان ، فإن المنطقة العربية هي كلها ساحة للنضال ، ويمكن لأي جيش من الجيوش العربية ، أن يكون موجوداً في أي قطر عربي آخر . . إنما هذا الوجود هو وجود استعماري وصهيوني ، خصوصاً بعد الاتفاقية الحالية .

هذا من الناحية القومية . . أما من الناحية الوطنية ، فإنه وجود لمساندة نظام يرفضه كل طفل ، وكل امرأة وكل رجل في السودان؛ وبالتالي فإن النظرة إلى الوجود المصري (الآن) هي نظرة إلى وجود استعماري محض من ناحيته الوطنية والقومية .

والجنوب؟ لماذا يحاول نميري الاستعانة ببديل لجوزيف لاغو، رئيس المجلس التنفيذي هناك ؟

كان نميري يعتقد دائماً ، أن الجنوب هو أرضه الخاصة حيث الولاء المطلق له لكن ما أريد أن أؤكده أن الجنوب (ببرلمانه وحكومته وجيشه) لا يؤيد نميري ، وجماهير الجنوب كلها تعارض النظام القائم . وما يحدث الآن من تغيير شخص ما ـ كرئيس المجلس التنفيذي في الجنوب ـ بشخص آخر ، دليل على اهتزاز موقف النظام هناك .

وأفضل برهان على ذلك ، أن نميري (الذي كان لا شغل له إلا زيارة الجنوب كل أربعة أو خمسة أيام) مضت عليه حتى الآن . . ثمانية أشهر ، وهو يخشى أن تطأ قدمه جنوب السودان .

وفي ما يختص بعلاقة الجنوب بأثيوبيا ، فهناك الحدود المشتركة ؛ وهناك قبائل سودانية كثيرة تسكن على طرفي الحدود ؛ وهناك أيضاً حركات في الجنوب يُضرب عليها ستار من الكتمان والسرية ؛ وفي هذه الحركات المسلحة ، قوة تتشكل من كتائب وسرايا بكامل أسلحتها ، تعلن العصيان وتعتصم في ثكناتها ، أو تدخل الغابات حاملة السلاح . كما أن هناك مدنيين مُدربين يقاتلون كل يوم ، وجيوش تُحشد وبصورة خاصة من القوات المصرية .

وهناك في جنوب السودان مجاعة ، يموت بسببها الآلاف كل يوم ، وعدم توفر السلع الاستهلاكية الأساسية ، أفرز حالة من الثورية ـ إذا شئت القول ـ تفوق الحالة الثورية الموجودة في شمال السودان . إن جنوب السودان مع شماله كأرض واحدة وبلد واحد ، منظم ومتفق وموحد في هدفه الآن ، ضد النظام القائم ؛ إنما بأشكال أخرى لا يدريها إلا الذي يعرف جنوب السودان جيداً . والتغيير الذي يقوم به مع العناصر السودانية المعارضة في الخارج ، هو بهدف التخفيف من أزمة البلاد . . في الشمال والجنوب على حد سواء .

ما هي حقيقة موقفك من نضال ثوار إرتيريا للاستقلال عن أثيوبيا ؟ يقال إن لك موقفاً سلبياً من الثورة الإريترية ؟

الحركة الإريترية حركة تاريخية وقديمة ، بيننا وبينها ارتباط يمتد منذ انطلاقتها . وموقفنا من هذه الحركة كحزب ، هو موقف مؤيد ؛ ففي منازلنا نحن ، وعندما كنا وزراء في الحكم أو معارضين ، خُبئت أسلحة الثورة الإرتيرية ، وفي مكاتبنا قدمنا للإرتريين جوازات السفر ، وجميع التسهيلات اللازمة . إن هذه المواقف معروفة لقادة الحركة الإرتيرية ، ومعروفة داخل السودان ، ولا تحتاج إلى أية براهين أو أدلة . ولكن عندما جاء نميري إلى الحكم هاجرت مجموعات كبيرة من عناصرنا ، وكان لا

بد أن تهاجر إلى إثيوبيا ، لأن بيننا وبين إثيوبيا حدود طولها أربعة آلاف ميل ، وما يقارب من أربعين نهراً وآلاف الجبال ، إضافة إلى القرى والقبائل المشتركة . . طول الحدود وسهولة التحرك عبرها ، هما اللذان دفعا هؤلاء المجاهدين للتوجه إلى إثيوبيا ، وليس إلى زائير أو أوغندا ، أو تنزانيا أو مصر . كذلك من الصعب أن تتم هذه الهجرة إلى ليبيا ، لأن بيننا وبينها حاجزاً صحراوياً طويلاً ؛ وهكذا . . فقد هاجر ما يقارب التسعين بالمائة من المجاهدين إلى إثيوبيا .

هذه حقيقة جغرافية ليس لها أي بعد سياسي ؛ ومع استمرار تَبدُّل السلطات السياسية في إثيوبيا ، ابتداءً من الامبراطور هيلاسلاسي ، مروراً بأمان عندوم وتِغْري بِينتِّي . . ظلت هذه العناصر هناك ، وهي عناصر مسلحة ومدربة ومدخرة للكفاح والنضال ، من أجل حرية وديموقراطية الشعب السوداني .

ولا يمكن أن نحتفظ بالآلاف من الرجال المسلحين والمدربين في منطقة ما ، ونجهر بالعداء لهذه المنطقة . وفي الوقت ذاته لا يمكن أن نسمح لهؤلاء المجاهدين ، بالقتال في أرض أخرى (إرتيريا) ؛ لأن هذا الأمر ينتقص من عددهم وسلاحهم وكفاءاتهم وحريتهم في الحركة ، لذلك كان لابد من وجود سياسة للحفاظ على هذا الوجود الذي يعتبر جزءاً من الوجود المعارض للنظام القائم في السودان ، وجزءاً من النضال من أجل إزالته .

ونحن نتساءل إذا لم تكتمل حرية الشعب السوداني ، وإذا لم يستطع الشعب السوداني إزالة هذا النظام ، فكيف تتحقق أمنيات الشعب الإريتري ؟

إن الشعب الإريتري الآن . . موضع مساومة من قِبَل نميري . فعندما كان الحكم الامبراطوري قائماً في إثيوبيا ، عمد نميري إلى اعتقال الثوار الإريتريين ومصادرة أسلحتهم ، وعندما انفجرت الثورة هناك ، واعتقدت بعض الأنظمة العربية أنها ثورة اشتراكية أو شيوعية ، ادعى نميري أنه مع الثورة الارتيرية ، ثم حدث الموقف الحالي حيث يستولي نميري على أسلحة الثورة ، ويخلق الفتن ، ويختلق الخلافات والمشاكل فيما بين فصائل الثورة .

إن الضمان الحقيقي للثورة الاريترية ، هو في وجود نظام وطني وقومي داخل السودان ، لذلك . . فالذين يَدَّعون أننا نصادق النظام الاثيوبي ضد الثورة الاريترية لا يعرفون الحقيقة إطلاقاً . . نحن حتى في الحديث مع إخواننا في إثيوبيا ، نتكلم عن الشعب الاريتري وحقوقه باستمرار ، وتشهد بذلك دول عربية كثيرة ، حملنا إليها رسائل . . وحملنا منها رسائل ، وبذلنا جهوداً لحل الأزمة الاريترية ، ثم إننا لا نقف في حدود متجابهة بيننا وبين الإريتريين . فالحدود التي يستعملها الا[illegible] السودان ، هي أقصى شمال الحدود ، والحدود التي نستعملها نحن [illegible] والجنوب ، وليس هناك بيننا وبينهم أي صراع أو مصادمات على الإطلاق [illegible] نتحدى الذين يطلقون الاتهامات ، أن يبرِزوا أي دليل على كوننا لمسنا شعرة واحدة من إريتري .

إن الادعاءات التي تُطلق لا صحة لها إطلاقاً . ونحن لسنا ضد الشعب الإريتري ولا ضد ثورته وحقوقه المشروعة؛ لكن . . واجبنا الأوَّلي والأساسي المركزي ينحصر في حماية عناصرنا الموجودة خارج السودان ، والحفاظ عليها ادخاراً لها . . لمعركة الخلاص .

والقضية القومية ؟ ما هو موقف حزبكم المبدئي منها ، في ضوّء التطورات الأخيرة وفي مقدِّمتها المعاهدة المصرية الإسرائيلية ؟

إن الموقف العربي للحزب الاتحادي الديموقراطي ، يقوم على أساس استعادة كامل الأراضي العربية المحتلة ، بما في ذلك فلسطين . ولا نؤمن بأن جزءاً من الوطن العربي يمكن مقايضته بجزء آخر ، من الوطن ذاته . إننا نعتقد أن الشعب الفلسطيني نفسه ليس من حقه أن يبادل أرضاً قومية بأرض قومية أخرى . وانطلاقاً من ذلك . . نحن ضد المشاريع الكرتونية ، مثل الحكم الذاتي للناس ، وليس للأرض ، كما ينادي بذلك بيغن . وموقفنا هذا ليس سياسياً ، بل هو إيمان ، وجزء من وجود وحضارة وتراث ودين . . إنه موقف طبيعي وسليم . ولذلك لا تستحق تُرَّهات السادات [illegible] الرد عليها . . فلسطين قضية عربية مركزية ، وهي أرض عربية ووجود وكيان [illegible]

ويجب أن يقاتل كل العرب لاسترداد هذه الأرض ولإبقائها عربية . . . كما كانت عبر التاريخ .

مجلة " الوطن العربي " - العدد ١١٨ ـ مايو ١٩٧٩م .

الدعم المادي لنميري، لن يعود به إلى الصف العربي

هذا الحديث مع السيد الشريف حسين الهندي ، قطب المعارضة السودانية ، تم عبر اتصال هاتفي معه في لندن . وهو يعقِّب فيه على أحداث السودان القديمة - الجديدة - ويناشد العرب ، الامتناع عن تقديم الدعم المادي لنظام نميري . لماذا ؟ هذا ما يوضحه زعيم الحزب الاتحادي الديموقراطي في الحوار .

قلنا للشريف حسين الهندي : ماذا تعتقد أنه يجري الآن على وجه التحديد ؟

السودان الآن تجتاحه ثورة شعبية أصلية ، هي حصاد حكم فردي وقهري ذي ممارسات طائشة وفاسدة ، ظل جاثماً على البلاد منذ عشر سنوات . وهذه الثورة تتمثل في تحرك كل الفئات السودانية الحديثة والتقليدية . إنها ثورة طلابية وعمالية وفلاحية ومهنية؛ وتشارك حتى النساء فيها . وتندلع من تجمعات السكن والعمل وهي أيضاً ثورة مستمرة ؛ والذي يحدث الآن دليل تأكيد على نضوج الوعي الثوري وزيادة المد الشعبي ضد النظام .

ولكن كيف بدأ الانفجار الأخير ؟

لقد بدأت الثورة بإضراب المزارعين والفلاحين . فقد اعتصم مليون فلاح ومزارع في منطقة الجزيرة (جنوب الخرطوم) . . وامتنعوا عن الزراعة ، بسبب غلاء المعيشة وزيادة الضرائب الحكومية ، وتدهور الإنتاج وعدم توفر المخصِّبات الكيماوية وعدم صيانة قنوات الري . مضافاً إلى كل ذلك . . مطالب الفلاحين التي لم يُستَجب إليها وحالة التضخم المالي .

ولم يقتصر الإضراب على هذا الموضوع فحسب ، إنما شمل كل مشاريع النيل الأزرق ، وجنوب الجزيرة والنيل الأبيض ؛ وهي كلها تشكل كل الزراعة في السودان ويُزرَع فيها أساساً القطن : المحصول الرئيسي .

وبكم تقدَّر خسارة السودان نتيجة إضراب الفلاحين والمزارعين ؟

لا تقل الخسارة عن ٩٠٠ مليون جنيه سوداني (٢ مليار دولار) ، ومثل هذا

الإضراب لم يتم في أي بقعة من العالم ، ولم يعرفه السودان منذ التاريخ المعروف للزراعة فيه .

هل إضراب العمال والفلاحين ، مجرد احتجاج على سياسة الحكومة الاقتصادية أم له أبعاد سياسية ؟

الأسباب الاقتصادية هي جانب من الأسباب العامة ، فهذا الإضراب والاعتصامات وما سبقها ، نتيجة أيضاً لعدم الرضا السياسي . وقد بذلت الحكومة محاولات متعددة في هذه الرقعة الشاسعة ، بالإغراء والتهديد . ولكن قوبلت بالرفض وطُرد مُوفَدوها وممثّلوها .

وأحب أن أنبّه إلى أن هذا الإضراب ليس مطلبياً، وإلاّ لكان العمال قد استجابوا إلى الوعود التي بذلت لهم . وعلى أي حال ، فنحن من جانبنا ، نعتبر كل الإضراب مطلبي ، وكل تجمع نقابي جزءاً لا يتجزأ من عمل سياسي معارض .

وماذا يعني إضراب عمال السكك الحديدية ؟

نقابة عمال السكك الحديدية ، هي أكبر تجمع نقابي ومهني في السودان ، فهي تضم ٤٥ ألف عامل . وتُعتَبر أقوى النقابات تأثيراً ونفوذاً ، لأن السودان المتسع الأطراف والرقعة ، يعتمد في ترحيل الواردات ، ونقل السلع الاستهلاكية والإنتاجية من وإلى موانئ القطر المختلفة ، على السكك الحديدية الممتدة آلاف الأميال .

وما هي مطالب العمال ؟

إضراب عمال السكك الحديدية ذو ثلاث مراحل . إضراب أول يمتد ٣ أيام ، ثم إنذار ، وبعد ذلك إنذار ثان بإضراب مفتوح ، إلى ما لا نهاية . وقد نفَّذ العمال حتى الآن المرحلة الأولى . وهم على أهبة تنفيذ المرحلة الثانية . أما مطالبهم فتتلخص في زيادة الأجور ، وتطبيق ما يُسمَّى بالتقويم الوظيفي ، وهو تقويم أفرغته الحكومة من مضمونه وفوائده للعمال ، فصرفت نصفه لبعض العمال والموظفين ، ولم تستكمل الصرف للباقين ، فتصاعد التضخم ، وارتفعت الأسعار ، مما زاد في العبء المالي [illegible] المستفيدين من هذا التقويم ، بينما أصبح مجرد الصرف للنصف الآخر غير

المستفيد ـ لا يحل المشكلة المعيشية على الإطلاق .

وما هي مسؤولية الحكومة والنظام ، في الأزمة الاقتصادية والمعيشية المستحكمة ؟

الأزمة التي يعيشها السودان هي نتيجة أخطاء النظام ، وسوء إدارته المالية والاقتصادية . . الذي استمر عشر سنوات . فليس هناك وجود لموازنة داخلية بين المصروفات والأيرادات . وما نسمِّيه نحن الاستدانة في النظام المصرفي ، ليس هو في الواقع إلاَّ مجرد طبع للأوراق المالية ، بدون رصيد [illegible] إليه الصرف التفاخري ، الذي يلتهم ٩٠ بالمائة من الإنفـ[illegible] قوات الأمن ، والاتحاد الاشتراكي ، ورئاسة الجمهورية ، ورحلات وسياحات باذخة يجري كل ذلك . . في حين تناقصت المصروفات على التنمية والخدمات بمختلف أشكالها ، واختلَّ ميزان المدفوعات ، وزادت المديونية الخارجية ، مع فوائدها الباهظة .

وكم تبلغ ديون السودان الخارجية ؟

خمسة مليارات دولار في مقابل ٧٠ مليون دولار فقط عام ١٩٦٩م ، وهو العام الذي قام فيه نظام نميري ؛ أي أن الزيادة بلغت ٧٠ ضعفاً ، وأصبحت الحكومة عاجزة عن دفع أصل وفوائد الديون . ولم يتم الحصول على هذه الأموال من دول ومؤسسات ، وإنما من مصارف وشركات . . وبفوائد باهظة . لقد توقفت الحكومة السودانية الآن عن سداد الديون ، أوفوائدها . ولا أحد في الخارج ، يقبل صكاً أو اعتماداً مستندياً من مصرف السودان المركزي ، أو أي مصرف تجاري آخر فيه .

وما هي توقعاتك ؟

أتوقع استمرار الانتفاضة الشعبية ، لتشمل جميع أنحاء القطر . قد يحدث [illegible] من الجَزر القابل لمد آخر ، وهكذا . . . ولكن الذي أؤكده أن الثورة ستستمر .

من الملاحظ أن الرئيس نميري استطاع في مناسبات عادية ، أن يسحق أو يتجاوز مثل هذه [illegible] أو الانتفاضات الشعبية .

ذلك [illegible] الماضي بمحض الصدفة ، والصدفة ليست دليلاً على قوة ، ولا

تنس أن المحاولات السابقة ضده كانت عسكرية أو شبه عسكرية . أما الذي يجري حالياً ، فهو في واقع الأمر انتفاضة شعبية واسعة ، لا قِبَل له على مواجهتها لمدة طويلة .

الرئيس نميري أجرى تغييرات في نظامه وحكومته . . . هل ذلك كاف لتجاوز الأزمة الحالية ؟

إنه يحاول الانحناء أمام العاصفة ، ولكي يتجاوز الأزمة ، كما أنه عاود الحديث عن المصالحة ، ويلقي اللوم على زملائه ، ويحمِّلهم مسؤولية الفشل والفساد وضحى حتى بأقربهم إليه (كأبي القاسم محمد ابراهيم ، النائب الأول السابق له) . وكأنه يريد أن يقول لجماهير الشعب ، إن هؤلاء هم المسؤولون عن التقصير ، وعن كل ما يحدث من خلل وأخطاء .

ولكن الجماهير تعرف أنه هو المسؤول الأول والأخير . . منذ عشر سنوات ؛ وأن أي أمر في السودان (كبير أم صغير) لا يُبَت فيه إلاّ بمشورته أو بتوجيهه . ولذلك فهي تُدرك أن محاولة إلقاء اللوم على آخرين ، أو إلقاء القرابين لكي يلتهمها الناس ، أو يتلهَّوا بها ، محكوم عليها بالفشل . وبالتالي فإذا أخفقت هذه الأساليب التي يلجا إليها في مواجهة التحديات ، فهو في سبيله إلى استخدام القوة المسلحة ، واللجوء إلى أساليب القهر والضرب .

وهل يمكن قمع تحرك شعبي بالقوات المسلحة ؟

القوات المسلحة جزء من جماهير الشعب ، المكتوية بنار الفساد ، وهي تُدرك كل التطورات ، وتعرف أن السبب هو في انهيار الإدارة وفساد السياسات والأخلاق . كما تعرِف أن الوطن الذي يجوع فيه الملايين ، تنعم بخيراته حِفنة من الإقطاعيين والمليونيرات وتجار السوق السوداء . وبالتالي . . فإن من المستبعد كثيراً أن تقوم القوات المسلحة بضرب جماهير الشعب العُزَّلَ . . الجائعة والمقهورة ، وليس من الوطنية في شيء ، أن تضرب هذه القوات شعباً هي جزء منه ، إلاّ إذا كانت قوات أجنبية .

ولكن . . . إذا تحركت القوات المسلحة لإسقاط النظام ؟

نحن نؤيد استمرار الثورة الشعبية حتى وصولها إلى إسقاط النظام . أما إذا تحركت الطلائع من الوطنيين السودانيين ، الملتصقين بهذه الثورة وأحاسيسها ، وتقدمت وقامت بالتغيير ، وسلمّت الأمانة للشعب السوداني ، في ديموقراطية كاملة ، فنحن لا نمانع .

ولكن الأمر الذي نرفضه ، هو محاولة أي مغامر الاستيلاء على السُّلطة واستثمار الانتفاضة الشعبية ، بوجود زائف للديموقراطية ، ثم استمراء الحُكْمْ أخيراً والاستمرار فيه . وعند هذا ، فإن حُكماً كهذا . . سيلقَى بدوره المقاومة ذاتها .

والمصالحة . . . هل عاد الرئيس نميري إلى محاولة مَدْ الجسور ؟

محاولات الاتصال لم تنقطع . لقد أرسل نميري رسلاً كثيرين منذ مدة . ولكننا نحن نعلَم علِماً يقيناً ثابتاً ، أنه يلجأ إلى إخراج مسألة المصالحة الوطنية ، كلما حدثت هزة أو أزمة أو انتفاضة شعبية ؛ ثم يتنكر ويتنصل منها عندما يخرج من الأزمة . فالمصالحة يستعملها في واقع الأمر لتجاوز أزمة ما ، ولذلك نحن لا نأخذ دعوة المصالحة على مَحْمَل الجِد ، ونعتبر أنها مناورة للخروج من الأزمة . ولنا في هذا المجال ممارسات وتجارب كثيرة .

وهل تقدَّم منكم ـ خلال عروض المصالحة المختلفة - بمقترحات مُعيَّنة ومحدَّدة ؟

ليست هناك أشياء مادية . إنها مجرد إرهاصات عن تغييرات سياسية وجزئية يلُوِّح بها لكي يكسب مزيداً من الوقت . . ويتجاوز الأزمة .

ولكن إذا تقدم بمقترحات محددة ، ودعمها بضمانات واضحة وعلنية ، فهل تقبلون المصالحة أو فتح حوار معه ؟

نستطيع أن نقول ـ بكل تأكيد ـ إنه لن يكون هناك أي لقاء أو حوار أو تصالح مع نظام نميري ، لا الآن ! ولا في المستقبل ! وهدفنا الوحيد الذي لن نحيد عنه ، هو إزالة نظام نميري بصورة جذرية وكاملة . وليست هناك أي وسيلة لحلول وُسْطَى ، أو لمفاوضة أو لحوار .

[illegible] ما البديل للمصالحة ! هل هي الجبهة الوطنية التي تنتظم فيها القوى المعارضة ؟ هل هناك مثل هذه الجبهة حالياً ؟

[illegible] أن أقول ، إننا في السبيل لإقامة قيادة الحركة المعارضة الشعبية السودانية [illegible] . . تتمثل فيها كل الاتجاهات ، بشكل جبهة وطنية وشعبية عريضة

[illegible] هذه الجبهة فعلاً ؟

[illegible] عليها ، وتشمل كل القوى السودانية الجماهيرية

[illegible] القوى ؟

[illegible] الحزب الاتحادي الديموقراطي ، الذي أترأسه ، وهو حزب عريض وكثير [illegible] الأنصار ... وهم منفصلون تماماً عن قيادة السيد الصادق المهدي ؛ ذلك [illegible] المعارضة عندما صالح الصادق النظام . وهناك أيضاً أبناء غرب [illegible] ، جنوب السودان وحزب البعث العربي الاشتراكي ، والحزب الشيوعي [illegible] ، ثم المستقلون ، وغير المنتمين سياسياً .

[illegible] هناك الطلبة الذين انفصلوا عن قيادة الأخوان المسلمين . . في جامعة الخرطوم ، وشاركوا في التظاهرات ، وقدَّموا عرائض لنميري تطالبه بالتخلي عن الحكم . وبالتالي . . فالخريطة تضم الشعب السوداني بأغلبيته الساحقة ، وبإجماعه الكامل ؛ وبمختلف هوياته السياسية ؛ أما القيادات التي صالحت النظام ، فقد انفصلت عن قواعدها ، كانفصال الصادق عن الأنصار ، وانفصال الدكتور حسن الترابي (الأخوان المسلمون) عن قاعدته الطلابية .

[illegible] هي المبادئ والأهداف التي يقوم عليها حزبكم . . الحزب الاتحادي الديموقراطي ؟

[illegible] الحزب يتضمن العمل من أجل التحرر الداخلي الكامل . . وبناء الاشتراكية [illegible] الخارجية ، فهو يؤكد على الانتماء القومي العربي ، والوحدة [illegible] [illegible] الاستعمار ، كما يؤكد على الانتماء الأفريقي ، والوقوف بوجه الاستعمار [illegible] بأشكاله المختلفة [illegible] استيطانية وعسكرية .

ما هو شكل وهوية النظام الذي تطمحون لإقامته في السودان؟ هل تؤمن بالتعددية الحزبية مثلا ؟

النظام الذي نطمح إليه ، هو نظام شعبي يقوم على الحريات الديموقراطية الكاملة والمجتمع المفتوح ؛ والانتخابات الحرة من القاعدة إلى القمة . ونتمنى أن يكون هناك إجماع وطني ومساندة شعبية ، وتجنُّب للممارسات الخاطئة ؛ ولا بد أن الوضع عندئذ سيتطلب حكومة تجمُّع وطني للإنقاذ .

ولكن هل هناك خشية من أن يتدهور الوضع في البلاد ، في حالة انتهاء نظام الرئيس نميري ، لكي يصل إلى حالة مشابهة لما يسود إيران اليوم . . بعد زوال نظام الشاه ؟

الذي يحدث في إيران شيء طبيعي ، بعد أن استمر نظام الشاه فترة طويلة . فلا بد أن تطفو على السطح مشاكل واضطرابات كثيرة ؛ وهذا شيء متوقَّع . وعلى أي حال نحن لا نتوقع مشاكل كتلك التي تحدث في إيران اليوم . شعبنا عنده حس ... وإيمان مطلق بالسلم . وهو يؤمن بالعيش في ظل الشريعة ، المنبثقة من خلفية الديموقراطي النظامي .

ولكن التجربة الديموقراطية التي جاءت بعد سقوط نظام الفريق ابراهيم عبود عام ١٩٦٤م ، سادتها فوضى واضطرابات وعدم استقرار !

نعم حدث ذلك . ولكن بعد تجربة السودانيين المريرة مع النظام الحالي ... اكتووا بناره ، فلا أتوقع قيام خلافات كبيرة بعد ذهابه ، مثل تلك التي حدثت في الماضي . أتوقع أن يكون هناك توجُّه قومي ووطني ، فالثورة الحالية ليست من أجل الحكم والتحكم الفردي الغاشم ، وإنما هي ثورة قومية لأبناء الشعب العربي في السودان .

وإذا استُبْدِل نظام نميري الحالي ، بنظام دكتاتوري أو عسكري آخر ؟

الشعب السوداني لن يقبل . وستستمر عندئذ معاركه وكفاحه من أجل الحريات الديموقراطية . والدليل ... إن نظامي عبود ونميري ، شهدا انتفاضات مستمرة

ضدهما .

والقوات المسلحة المصرية . . هل يلجأ إليها الرئيس نميري كحل أخير لقمع التحرك الشعبي ؟

نحن نستبعد أن يرضى إخواننا المصريون بهذا الدور ، وقتل إخوانهم السودانيين . ولكننا أيضاً لا نُخرِج من حساباتنا هذا الاحتمال .

وليبيا . . . أين تقف! مع أو ضد النظام ؟

ربما يعتقد الإخوة في ليبيا ، أن نميري يمكن أن يؤتى به إلى الصف العربي بمختلف المحاولات . ونميري في الواقع ، يخدع كثيراً بالكلمات والوعود المعسولة . ونكتفي الإشارة في هذا البيان ، إلى بيان طرابلس الأخير . فقد صدر البيان في طرابلس ولم يذع في الخرطوم حتى الآن . وربما تكون هناك محاولات في العالم العربي (كالمحاولة الليبية) لجر نميري إلى الصف العربي ، على أساس معاونته في تجاوز أزمته الاقتصادية ، أي بالدفع له ولنظامه .

ونحن نعتقد أن هذه المحاولات الخيِّرة ، من دولة أو عدة دول عربية ، لن تفيد ولن يُكتَب لها النجاح ، لأن نميري تعوَّد كثيراً أن يأكل على الموائد ، ويلعب على كل الحبال ، ويقول ما لا يؤمن به ! وهو الآن إذا أبدى توجُّها نحو القضية العربية ، فإنما يفعل ذلك من أجل المساعدة المالية له شخصياً ولنظامه ، وفي الوقت ذاته ، فإنه يخشى على أمنه الفعلي من السادات .

ونتيجة لذلك . . أنا أعتقد أيضاً أنه لا يمكن شراء موقف قُطْر عربي بالمال ؛ فقد كان على نميري أن يحدد موقفه منذ أن حدث الخلاف حول القضية العربية ، بين العرب والسادات . أما أن يقف نميري شهوراً مع السادات ، ثم يتحول إلى الجانب العربي ، لقاء مبلغ من المال ، فهذا ليس بموقف مبدئي أو قومي . . سليم .

وهل هناك دول عربية (غير ليبيا) تحاول إقناع نميري بالتحول إلى الصف العربي؟

أعتقد أن المملكة العربية السعودية تشارك في محاولات خيِّرة ، للتحول بالسودان إلى الموقف [illegible] على أساس مساعدته في حل أزماته الاقتصادية ، ولكني

واثق بأن نميري لن يلتزم ، فهو مرتبط بالسياسة الأمريكية ـ الساداتية ـ الصهيونية . وأعود فأذكِّر أنه لا يمكن قبول شراء نظام عربي ، ليقف موقفا عربياً سليماً . . . أيا كانت منطلقات الدول العربية الساعية لذلك . . طيبة وخيِّرة .

وأود هنا أن أنوِّه بحقيقة لا بد أن تُدرِكها جميع الدول العربية ، وهي أن تقديم المساعدة المالية والمادية لنظام نميري ، إنما هو في الواقع تدمير للاقتصاد السوداني فالمال لا يذهب للشعب ولا للتنمية ، وإنما لجيوب السماسرة واللصوص . النظام القائم في السودان عاجز عن القيام بإصلاحات داخلية ؛ أو تقويم سياساته الاقتصادية ، من أجل امتصاص التضخم المالي ، وتنفيذ مشاريع الإنماء وزيادة الإنتاج فما يُدفَع له يُصرَف على البذخ والتفاخر والقمع ، بينما لا يستفيد أي فرد من أفراد الشعب من مليم واحد . فالدعم يساعد النظام على الاستمرار في كبت الشعب السوداني ، ويعجِّل في تدهور الأحوال الأخلاقية والاجتماعية . وكلي أمل في أن يُدرِك إخواننا في السعودية ، أن تقديم مزيد من الدعم للسودنيين ، يعني مزيداً من التضخم والفساد .

بماذا تفسِّر لجوء الرئيس نميري ، لتعيين الفريق عبد الماجد خليل (وزير الدفاع) نائباً أول له ، خلفاً لأبي القاسم محمد ابراهيم ؟

الاختيار الجديد لا يخدم أي غرض . إنه مجرد إستبدال شخص بشخص آخر . وإذا كان هناك مدلول سياسي له ، فهو دليل على أن النظام فقَدَ كل قيمة شعبية له وأن نميري أصبح يلجأ إلى مخاطبة الجيش ، ويعتمد على قيادة الجيش .

والاستغناء عن خدمات أبي القاسم محمد إبراهيم ؟

وكان مخلصاً له ولم يعارضه ... فصرَفْهُ أو الإتيان به ، لا يقدِّم ولا يؤخر .

لكن يقال : إن أبا القاسم ، له علاقة قوية بمصر ؟

نعم له علاقات قوية بمصر ، ولكن مصر تستطيع أن تتخلى عن أي شخص إذا ضمنت وقوف نميري إلى جانبها .

وما هو موقف السيد الصادق المهدي . . الآن ؟

هو يشعر الآن بحالة اهتزاز ، وربما يطمح في أن يحصل على جزء من السُّلطة وبخاصة أن نميري الآن يجري تغييرات واسعة في نظامه . . ويتوقع الصادق أن يمدّ سيد النظام له يده . . ويشركه في السلطة .

الأخيرة ؟

لم يكن هناك اتصال ! ولكن الصادق كان يرسل رسلاً بصفة مستديمة . أنا شخصياً لم ألتق به . وأعتقد أن كل الذي يرجوه هو ، أن يقول : لقد كان هناك اتصال . وإننا أصبحنا وُحدة واحدة ، وذلك ليدعم من موقفه المتهاوي داخل السودان .

وعاد السيد الشريف حسين الهندي ، فكرر نداءه ومناشدته للدول العربية الغنية ، أن تمتنع عن تقديم المساعدة للنظام السوداني ، لأنها بذلك تلحق الضرر بالاقتصاد السوداني ، بينما لا تضمن كسب نميري إلى جانبها . وقال إن تقديم المساعدة لنظام نميري خطأ علمي ، لأن ذلك سيزيد من التضخم المالي ، وارتفاع الأسعار . وأعرب عن اعتقاده . . بأنه لابد من عملية جراحية أليمة في السودان ، ذلك أن المرض قد استشرى وزاد .

مجلة (الوطن العربي) عدد ١٣٢ أغسطس ١٩٧٩م

السودان والتحالفات العربية

في شهر سبتمبر من العام ١٩٧٩م الماضي ، وفي لقاء لـ (السفير) مع الزعيم السوداني المعارض ، ورئيس الحزب الاتحادي الديموقراطي . . الشريف حسين الهندي ، أعلن " الحرب " على نظام الرئيس جعفر نميري . الآن ـ وبعد مرور عام واحد ـ يُذكر أن " الحرب " بينه وبين نميري . . " لاتزال معلنة " ، ولن تنتهي " إلاَّ بزوال أحدهما " ! ويضيف : " إن القرار النهائي سيكون بيد الجماهير السودانية " . .

ويذكر الهندي . . أن لدى حزبه معلومات تفيد بأن نميري ، وافق على إقامة قاعدة عسكرية أمريكية في ميناء سواكن السوداني ، وأنه اتفق على ذلك . . أثناء زيارته الأخيرة إلى الولايات المتحدة ـ عندما التقى بكارتر ـ الذي أجاز بيع الأسلحة إلى السودان ، بعد موافقة نميري على إقامة القاعدة . .

ويدعو الشريف . . الحكومات العربية إلى مقاطعة النظام في السودان ، لأنه " لايزال يؤيد كامب ديفيد ، ويدعم إقامة القواعد في الصومال وعُمان ؛ ولأنه لم يقطع علاقاته السياسية والاقتصادية مع نظام السادات . ويقدم في الوقت ذاته برنامجاً يطلب من الحكومات العربية اعتماده لمواجهة مرحلة ما بعد كامب ديفيد ، يشمل ـ في ما يشمل ـ المطالبة " بإطلاق الحريات لجميع الشعوب العربية " .

ومع ذلك . . كان الزعيم السوداني المعارض ، أكثر من متحفظ وأكثر من حذر عندما تطرق الحديث إلى تسمية القوى التي تدعم الرئيس جعفر نميري ؛ كما كان أكثر من حذروأكثر من متحفظ ، عندما تطرق الحديث ـ أيضاً ـ إلى التحالفات والمحاور العربية ، التي تقوم بين نظامين عربيين . . أو أكثر ؛ والتي تفتقر إلى أساس أيديولوجي . . . يبررها .

من خلال متابعة المراقب لمواقف وبيانات حزبكم ـ خلال عام مضى ـ يتضح أن " الحرب " لا تزال معلنة بينكم وبين نظام حكم الرئيس نميري . ماهو مدى صحة هذا الكلام؟ وخاصة في ضوء ما تنقله أوساط مطّلعة . . من أن " أبواب الحوار " بينكم

وبين نميري ، لاتزال مفتوحة ! وهل هناك من نتائج ـ في رأيك ـ قد تحققت . . إن كان على صعيد "الحرب" أم الحوار؟

موقفنا من النظام لم يتبدل ، منذ شهر مايو عام ١٩٦٩م ؛ إننا لانزال نطالب بإزالة الحكم العسكري الفردى من بلادنا ، ونطالب بالحريات الديموقراطية كاملة ، إن لجهة حريات التعبيرأوالتكوين السياسي ، أو لناحية تعدد الأحزاب والتظاهر والحريات النقابية والمهنية واستقلال القضاء . إن هذه الأمور . . لاتستقيم مع نظام حكم الحزب الواحد ، الذي يسيطر الآن على مقدرات البلاد . ولن تنتهي معركتنا مع النظام ، إلاّ إذا استجاب لكامل هذه المطالب ، وهذا يعني إحداث تغيير جذري في طبيعته .

نحن نختلف مع النظام وطنياً وقومياً ، وخاصة فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية وكامب ديفيد . نحن نعارض كامب ديفيد والنظام يؤيده ؛ ونختلف أيضاً معه في السياسة الدولية ؛ إذ أن النظام منحاز ، ونحن ندعو بعدم الانحياز . النظام يقيم القواعد العسكرية ، ويقف مع الاستعمار والرجعية ، ونحن ضد كل ذلك . ولذلك فإن المعركة مع النظام لا تنتهي إلاّ بزوالنا أو بزواله .

ماذا ـ إذن ـ عما يقال بشأن " الحوار" الذي لم ينقطع مع النظام ؟

هذا " الحوار" . . الذي يجري الحديث ويشاع حوله ، لا أساس له من الصحة . نحن لا ننكر ، أن أطرافاً كثيرة ومتعددة ـ من داخل السودان ومن خارجه ـ تأتي بحسن (أوبسوء) نية . . كي تحاور . إلاّ أن لقاءً أساسياً لم يتم مع هذا النظام . فنحن طالبناه أولاً بإلغاء الاتحاد الاشتراكي ـ الحزب الحاكم الوحيد ـ لأنه ليس جهازاً شعبياً أو سليماً وقد أثبتت الأحداث الأمنية في السودان . . ذلك !

وطالبناه بإلغاء الدستور الحالي ، لأنه لا يمثل رغبات وتطلعات الشعب السوداني ! وطالبناه أيضاً بإجراء انتخابات حرة ومحايدة ؛ يُشرف عليها مراقبون من المنطقتين العربية والأفريقية ؛ كما طالبناه بإقامة ديموقراطية كاملة في البلاد . ولم يستجب النظام بعد . . لأي من هذه المطالب ! ونحن لا نقبل بديلاً عنها . . . إن كان عن طريق الحوار أو بغيره . نحن نقف مع مطالب الشعب السوداني بالحرية والخبز ، وإذا

لم نجد كليهما ، فليست هناك مصالحة . . على الإطلاق .

نرجو أن توضح لنا نقطتين ، حول كامب ديفيد وإقامة القواعد العسكرية الأمريكية أنت تقول إن نميري لا يزال يؤيد اتفاقيتي كامب ديفيد ، في حين أن المعروف ـ والمعلن على الأقل رسمياً ـ هو أن السودان وافق على مقررات مؤتمر قمة " الحد الأدنى " في بغداد ١٩٧٨م ؛ وشارك في المؤتمر الثاني الذي تلاه في تونس . هل يمكن أن تعرِّف لنا ما يفيد ، بأن الرئيس نميري لا يزال يؤيد كامب ديفيد ؟ ثانياً . . عندما تشير إلى مسألة القواعد الأمريكية ، هل تعني أن النظام يوافق على إقامة قاعدة عسكرية فوق الأراضي السودانية ؟ أم أنه يؤيد القواعد في الدول الأخرى . . الصومال وعُمان وكينيا ؟

الذي نعلمه . . . هو أن نظام الحكم في السودان ، يؤيد كامب ديفيد ؛ إذ أنه لم يشترك في قمة " الحد الأدنى " في بغداد ، كما لم ينفذ قراراتها . ويكاد السودان يكون إلى جانب عُمان والصومال ، النظام الوحيد الذي لم يقطع علاقاته السياسية والاقتصادية مع السادات . وأثناء زيارة نميري إلى الولايات المتحدة ، حيث التقى رئيسها كارتر ، أُعلن رسمياً ـ في حينه ـ أن " زيارة نميري كانت للعلاج " . والمعروف أن نميري كان قد زار أمريكا قبل ذلك ، ولم يقابله كارتر خلالها . في الزيارة الأخيرة التقاه كارتر لأنه تأكد أن نميري يؤيد كامب ديفيد . إذا أراد النظام أن يقف ضد كامب ديفيد ، عليه أن يقطع العلاقات السياسية والاقتصادية مع مصر .

أما بشأن القواعد ، فنحن متأكدون أن هناك اتفاقاً يقضي بإقامة قاعدة عسكرية أمريكية في سواكن ؛ وهذه القاعدة . . هي امتداد لسلسلة القواعد البحرية والجوية التي تقيمها أمريكا على امتداد شواطيء البحر الأحمر ، حتى تصل حلايب الواقعة على الحدود السودانية ، وتنتقل من ثم إلى سواكن ، ومنها إلى بربرة في الصومال وبعدها إلى عُمان . وبعد أن اتفق على موضوع القواعد بين نميري وكارتر ، أُجيزت اتفاقية التسليح بين الحكومتين . . الأمريكية والسودانية . صحيح أن نميري ـ أو أجهزة إعلامه ـ لن تعلن عن هذا الأمر ، إلاّ أننا سنرى ـ وسيرى العالم معنا ـ أن هناك قاعدة

أمريكية ستقام في سواكن ، تنضم إلى سلسلة القواعد الأمريكية للسيطرة على البحر الأحمر . . . وعلى مضائقه .

هل يمكن أن تذكر لنا ـ بالاسم ـ الجهات العربية التي يحسب نميري حسابها ، والتي يمكن أن تفسر (في الوقت ذاته) تعامله مع الأخوان المسلمين ؟

ليس بالضرورة أن تكون هذه الجهات عربية . لقد سبق وقلنا إن هذا النظام مرتبط بكامب ديفيد ، وارتمى هذا النظام في أحضان الاستعمار الأمريكي . . وحلفائه في الناتو وفي خارجه . وهناك أتباع لأمريكا ـ سواء في المنطقة العربية أو الأفريقية ـ وهذا واضح . وبالتالي . . وبدون تسميات ، هذا النظام مرتبط بالمعسكر الاستعماري الغربي ، وهو لايخجل من أن يقول هذا الكلام ، لأنه يحدد مساره : السياسي والعسكري والاقتصادي في داخل هذا الحلف ، الذي يحظى بمؤيدين له في المنطقة العربية والأفريقية ؛ وبالتالي ، إن من يؤيد هذا الحلف ـ ومن بينهم نميري ـ متفقون .

التحالفات . . ومواجهة كامب ديفيد

رغم كامب ديفيد والمخاطر الناجمة عنه ، والتي باتت معروفة لدى الجميع ، ورغم دخول المنطقة في مرحلة تشييد القواعد العسكرية الأمريكية فوق الأرض العربية الأمر الذي لا يهدد فقط مصلحة الشعوب ، بل يعرض الأنظمة العربية ذاتها ـ الموافقة منها والمعارضة ـ للانهيار والسقوط . وبدل قيام هذه الأنظمة بوضع خطة ، أو صياغة موقف ينسجم مع حجم المخاطر التي تتهددها ، نرى حدوث شبكة من التحالفات تبدو ـ من الوهلة الأولى ـ بإنها غير منطقية ، وخاصة عندما تحدث بين نظامين (أو أكثر) متعارضين آيديولوجيا . .

ما هو تقييمكم لهذه التحالفات ؟

التحالفات العربية . . إحدى ظواهر السياسية العربية ، منذ أمد بعيد . والتحالفات المرحلية موجودة منذ زمن . وأذكر أننا كنا ننادي طويلا من أجل وحدة الصف العربي ، لإلحاق الهزيمة بالعدو الأول للأمة العربية . . وهو إسرائيل . ونعتقد

أنه ما لم تحشد كل الطاقات العربية ، في وحدة الصف الكاملة ، لا يمكن لهم أن يحققوا الانتصار الكامل . كان هذا هو شعارنا طوال الوقت .

أما تحقيق وحدة الهدف العربي ، واتفاق الآيديولوجيات والفلسفات ، فقد كنا نعتقد (دائما) أن هذه الوحدة يمكن أن تأتي . . بعد النصر في القضية المركزية الأولي والتي إن لم ينتصر فيها العرب ، فلن يكون هناك مجال . . لا لوحدة الهدف ، ولا لوحدة الآيديولوجيات . إذن . . نحن من أنصار وحدة الصف العربي .

في "قمة الحد الأدنى" في بغداد ، اتفق العرب جميعا ؛ ما عدا السادات وأنظمة الحكم في الصومال وعُمان والسودان . . وقد سجل هذا وحدة الصف ؛ ولذلك يمكن أن تكون هناك تحالفات مؤقتة أو مستديمة ؛ ويمكن أن يقوم تحالف أساسي بين كل الأنظمة العربية ، من أجل القضية المركزية . ولذلك . . لا أستغرب أن أرى صفاء الجو بين نظام عربي وآخر ، لأن ذلك أحد دعائم وحدة الصف العربي . . .

ألا ترى أن الرد العربي على كامب ديفيد ، وعلى "مفاوضات الحكم الذاتي" ونشر القواعد الأمريكية في المنطقة ، لا يزال ـ حتى الآن ـ خارج إطار الحد الأدنى رغم قرارات قمتيْ بغداد وتونس ، ورغم التحالفات التي نعتبرها "إحدى دعائم وحدة الصف العربي" ؟

أُوافقك تمام الموافقة . . أن كامب ديفيد ـ رغم بشاعتها ـ يبدو أن الذين يقومون بها يقومون بأعمال إيجابية . فمنذ قمة بغداد وحتى الآن ، لم يقم العرب (الأنظمة) بأي عمل إيجابي ضد كامب ديفيد . . أو ضد إسرائيل . هذا الأمر واضح ، وزيادة على ذلك ، هو أمر مؤسف جدا . كان يجب ـ وقد مضت على كامب ديفيد الآن مدة طويلة ـ أن يكون هناك عمل متواصل ويومي . . ضد كامب ديفيد . إن الذي يراه الناس الآن ، هو : أن كامب ديفيد سائرة وتكاد تصبح حقيقة . يجب تغيير هذا الواقع لأن كامب ديفيد نتوء مرفوض ، لا يمكن أن يستمر ، ولم يكن مستحسنا أن يُسمح له بالاستمرار والبقاء . . طول هذه المدة . أما البرنامج الذي كان يجب إن يُتّبع فيمكن ذكر التالي :

* الحيلولة دون التعثرات التي تعترض تحقيق وحدة الصف العربي ، وإلغاء الخصومات (الظاهر منها أو الخفي) بين كل الأنظمة العربية . . التي وقفت ضد كامب ديفيد .
* تشكيل قيادة عسكرية موحدة ، تجعل جميع المناطق العربية ساحة واحدة للمعركة .
* حشد إجمالي مقدرات الأمة العربية (المالية والنفطية) ، وأن يُستخدم النفط . . إما كسلاح إيجابي من أجل دعم الصمود ، أو استخدامه سلبا عن طريق عدم ضخه من أجل تحقيق الغرض ذلك .
* إطلاق الحريات الديموقراطية لجماهير الأمة العربية . . . كلها .
* إشراك الجماهير - بعد إطلاق حرياتها - في معركة شعبية واضحة ، يجري تأهيلها عن طريق التدريب . . وتزويدها بالسلاح .
* اتخاذ موقف سياسي موحد إزاء أية دولة في العالم ؛ وخاصة أن الأمة العربية ذات قدرات ضخمة ، لأنها تسيِّر الصناعة والاقتصاد في العالم . وكان يجب اتخاذ هذا الموقف السياسي الصارم والحازم ... ضد كامب ديفيد . كل هذا لم يحدث . ويبدو أن كل اللقاءات التي عُقدت من أجل ذلك ، لم يكتب لها النجاح . فالذي حصل هو : لقاءات جزئية ، أو اتفاقيات ثنائية . . أو غيره . إلاّ أن الإجماع العربي الذي كان يجب أن يُحشد ، من أجل هزيمة كامب ديفيد . . . لم يتم .

هل تعتقد أنه في ظل الأوضاع الراهنة ، يمكن أن يقبل أي من الأنظمة . . مثل هذا البرنامج ؟ ألا تستدعي الموافقة عليه - قبل أي شيء آخر - قيام معظم (أو جميع الأنظمة) بحل أزمات الحكم التي تعاني منها ، وتجد الحلول للمشاكل الناجمة عن علاقاتها بشعوبها ؟ .

أوافق على ذلك بالكامل . قبل المواجهة مع العدو ، يجب أن تُحل أزمات الحكم الموجودة في المنطقة العربية ، وأزمات الحكم بين الحكام والشعوب . ولذلك . . يجب الإصرار على مطلب إطلاق الحريات الديموقراطية . . . للشعب العربي

* السفير البيروتية ٢٠ سبتمبر ١٩٨٠ م

قضايا الساعة

ماهي حقيقة الموقف في السودان الآن . . سياسيا واقتصاديا ؟

إن حقيقة الموقف السياسي والاقتصادي في السودان - في نظري الآن - لاتحتاج في واقع الأمر ، لكثير من التمحيص ، وقد تجاوزت مصاف الأسئلة السياسية ، وبلغت الآن الحد الذي يتداولها كل النّاس . . في جميع أنحاء القطر . إن الحديث عن التردي الاقتصادي في السودان ، أصبح حديثا معادا ومكررا ، وفي الحقيقة . . إن أسرار الموقف الاقتصادي تكون لدى القلة ؛ ذلك في الدول التي يكون لها اقتصاد ، أما في الدول التي فقدت المقومات الاقتصادية ، فيتدنى الموقف الاقتصادي نفسه ، حتى يصبح موقفا معيشيا ويدركه عامة الناس - وليس عامة الناس في المدن ، ولا في الحضر ولا الاقتصاديين - وإنما الجمهرة الغالبة من الشعب ؛ إذ أنه يصبح حديث كل أسرة وكل منزل وكل بيت ؛ وتصبح معاناة الحياة اليومية هي حقائق الموقف الاقتصادي .

وأنت إذ تسمع الآن عن ندرة السلع وعدمها وغلائها ، وعن ندرة النقد المتداول في أيدي الناس ، وعن أزمات الشح في الطاقة وفي السكر . . إلى آخر قائمة السلع الاستهلاكية والإنتاجية ؛ يتضح لك من ذلك أنه ليس هناك اقتصاد ، لأن الاقتصاد تديره حكومة ، وفي واقع الأمر هناك سلطة في السودان ، وليست حكومة ؛ لأن السلطة في التعبير الحقيقي ، هي التي تقهر الناس ، والحكومة هي التي تدير أمورهم ليست هناك حكومة تدير أمور الناس ؛ وبالتالي أصبح الناس يديرون - على قدر استطاعتهم - أمورهم اليومية والمعيشية والاقتصادية والطبية والتعليمية . . وغيرها . وإذ أنه لا يمكن لأفراد الشعب أن يديروا أمورهم بأنفسهم (وطالما ليست هناك خدمة عامة ، ولا خدمة مدنية ، ولا إدارة ولا أداء) ، فلا يمكن أن يكون هناك اقتصاد !

هذه الفوضى التي تحدث الآن ، والتي تعانيها كل أسرة وكل منزل ، هي حقيقة الموقف الاقتصادي . وفي الحقيقة ، ليس هناك فواصل كبيرة في الموقف الاقتصادي والموقف السياسي ؛ لأن الاقتصاد هو لب وأساس ومركز السياسة . وبالتالي . .

فالموقف السياسي يتأثر كثيرا بالموقف الاقتصادي . فالموقف الاقتصادي طالما هو منهار ومتدني - إلى هذا الدرك - فلا بد أن الموقف السياسي منهار ومتدني .

لقد ظل الشعار الذي ننادي به وقتا طويلا هو إسقاط النظام ؛ وفي الحقيقة ليس هناك نظام الآن يسقط ، بل هناك سقوط اقتصادي وسقوط سياسي ، وسقوط فعلي وسقوط قانوني ؛ وكل الذي يخشاه الناس . . هو نتائج هذا السقوط وآثار هذا السقوط ! يخشى الناس أن يتطور هذا إلى الفتنة ! إلى الحرب الأهلية ! إلى الفوضى !

هذه هي المشاكل التي تصطرع الآن في رؤوس الناس . . ليس الأمر هو أمر هذا النظام ؛ إن هذا النظام الآن يحتضر ويترنح ، وذلك واضح لكل ذي عينين ؛ وهو لا يحتاج إلى تحليل سياسي كي يثبت للناس هذه الحقيقة ... ولكنها حقيقة معيشة ومعروفة أدركها كل الناس . إن الذي يفكر فيه كل الناس هو : ما الذي سيتم بعد هذا؟

كيف يتم الإنقاذ لهذا البلد ؟ وكيف يتقي شرور كل المحاذير التي ذكرتها ؟

حقائق الموقف الاقتصادي الآن في السودان ، طافحة في كل مشكلة يعيشها كل فرد من أفراد الشعب السوداني . . كل ساعة وكل يوم ! ونظام يتستر ، وصحفه الآن تطفح بجميع أنواع المشاكل التي يعيشها الناس . . وإذا تصفحها الإنسان ، يعتقد أنها صحف معارضة النظام ! وليست صحف النظام ! وبالتالي . . فإن كل الذي أقوله هو : إن على المعارضة السودانية - وفي طليعتها الحزب الاتحادي الديموقراطي - وهو ضمير هذه الأمة ، في كفاحها الصلب الشرس الدامي ، ضد هذا النظام منذ إحدى عشرة سنة ، وقد كان ضميرها دائما في معاركها المستمرة ضد الاستعمار ، وضد الحكم العسكري . . إن هذا الحزب الآن على موعد مع التاريخ ، هو على موعد مع الإنقاذ الوطني ، وعلى جميع أعضائه (في قيادته وفي قاعدته)، أن يتحلوا بكامل اليقظة وببالغ المسؤولية ، لكي يتولوا مسؤوليتهم . . أولاً في إنهاء الخيط الواهي الذي يربط هذا النظام بنهاية نهايته ، وأن يكونوا على كامل الأهبة والاستعداد ، لكي يتولوا مسؤوليتهم التاريخية في الحفاظ على استقلال بلادهم . . وعلى وحدتها .

لعل هذا يقودنا إلى الحالة التي يعيشها الشعب السوداني الآن : من أزمات واختناقات لا حد لها . . أزمة الكهرباء ! أزمة المياه ! والاختناقات التموينية ! فما هي أسبابها ؟ رغم أنك قد لمست هذا في إجابتك لسؤالنا الأول ... فهل من علاج ؟

الاختناقات المتكررة ، أصبحت طابع هذا النظام ، بل أصبحت شعارا ، ولا بد أنك قد استمعت إلى جعفر النميري في لقائه الأخير ، الذي أسماه " معانقة " . . معانقة للشعب السعيد ! وهى لا تعدو أن تكون معانقة الأفعى لضحيتها ، إذ أوسعتها لسعا ولدغا . والاختناقات الموسمية والشهرية والسنوية ، اختناقات يأخذ بعضها برقاب بعض ، أصبحت طابعا مميزا لهذا النظام ، ولا يمكن أن تكون هناك أي دولة في العالم لها اختناقات متكررة ومستمرة ومتجردة ، مثل هذه الاختناقات ! ويُعزَى أمر كثير من هذه الاختناقات إلى الطبيعة ؛ مثلا كما يحدث الآن في توربينات خزان الروصيرص ، وفي قلة الكهرباء التي تصدر منه !

المعلوم أن توربينات الروصيرص ، توربينات تكون لها شبكات مغطاة ، وتجدد هذه الشبكات كل موسم ، لكي تحجز الأشجار ـ وغيرها ـ التي تتراكم في بحيرة الخزان ، والتي ينقلها تيار النيل الجارف في هذا الموسم من السنة . . حيث تغطي هذه التوربينات ؛ والذي يقال إنه طبيعة ، هو في واقع الأمر إهمال شنيع ! إذ أن هذه الشبكة (من الغطاء لهذه التوربينات) قد تآكلت منذ ثلاث سنوات . والمهندسون السودانيون ـ والمصريون ـ الذين يقومون على إدارة هذا الخزان ، قد نبهوا إلى ذلك مرات متعددة .

ولكن هذه الشبكة لم تجدد ، بل أصبحت مثقوبة كلها ؛ وأصبحت الأشجار (بأكملها) تأتي ثم تحتجز في توربينات الخزان ، وقد نبه المهندسون إلى هذا مرات متعددة . والذي يسميه الآن وزير الطاقة من " نقص في قطع الغيار " هو في الواقع هذه الشبكات ! وهذه الشبكات لا يمكن أن تجدد مابين يوم وليلة ! مثلها مثل اختناق السلع . . مثل اختناق الوقود وكل السلع التموينية ! وهذا لا يدل (إلاّ كما قلت لك) على أنه ليس هناك حكومة ، ولا إدارة ، ولا أداء ، وليست هناك خدمة مدنية ! وقبل

ذلك . . ليس هناك اقتصاد !

كل مهمة هذا النظام أن يحكم ، ليس مهمته أن يدير شئون البلاد ! بل أن يحكم بالقهر ! ولطالما هو مستمر في الحكم ، فهو مستمر في القهر . . لا يهم أن يكون هناك ماء ! أو أن تكون هناك كهرباء ! أو أن تكون هناك خدمات ! أو أن تكون هناك سلع ! ولا يهمهم أن تكون هناك اختناقات .

وفي واقع الأمر ، إذا بدأنا نعد - ونحن الآن في مرحلة العد التنازلي ، ولكننا كنا في مرحلة العد التصاعدي (منذ بداية هذا النظام) وأصبحنا نعد يوما بعد يوم ؛ إذا أصبحنا نعد الآن . . مجمل الاختناقات الموجودة ، والتي تطفح على السطح لعجزنا عن العد ، ولقلنا أن شعبنا يعيش الآن في خناق وفي اختناقات متكررة متجددة وفي كل يوم ! وهو لا يبرح من اختناق ، إلاّ لكي يقع في اختناق آخر .

وفي الحقيقة . . إن مرد هذا الاختناق للسلطة نفسها ، لأنها سلطة جاهلة وواهية وغارقة في مشاكل أخرى لاتهم المواطنين . ليس هناك حلول أساسية وجذرية لهذه الاختناقات ، إلاّ إزالة هذه السلطة إزالة جذرية ؛ وأن يأتي الشعب بسلطة تهتم بمشاكله فتزيلها ، وباختناقاته فتزيحها . هذا هو الحل الوحيد لهذه المأساة التي يعيشها الشعب السوداني ، والتي يسميها النظام وتسميها صحفه ... اختناقات !

وما سر الاعتقالات الأخيرة في السودان؟ هل هي الاعتقالات التحفظية التي **اعتادها النظام منذ نشأته؟ أم هناك اتهامات محددة وجهت للمعتقلين . . وقد تقود للمحاكم؟ وماهي الاتجاهات السياسية لهؤلاء المعتقلين؟**

إن طابع النظام الفردي البوليسي - مثل النظام الذي يحكم السودان الآن - هو الاعتقالات . . هو الاعتداء على الحريات العامة والحريات الخاصة للمواطنين؛ هذه هي القاعدة والاستثناء هو : ألا يكون هناك اعتقالات . الاعتقال التحفظي مضروب على كل الشعب السوداني؛ إذ أن الشعب السوداني في سجن كبير وفي اعتقال تحفظي دائم والاعتقالات هذه لا تنقطع عن الساحة السودانية إطلاقا ، وهي - في واقع الأمر - كلها اعتقالات تحفظية إذ أنه ليس هناك في السودان قضاء مستقل ، ولا يمكن

للمتهم أن ينجو من الاعتقال إطلاقا ، لأن الاعتقال سلطة إدارية أوسلطة تنفيذية عند ضباط الأمن القومي . . عند أي فرد من أفراد النظام الحاكم . ولذلك الاعتقال شريعة المجتمع السوداني حاليا . الاعتقالات الاخيرة هي سلسلة متواصلة منذ مدة طويلة وهي اعتقالات بنيت على أكاذيب وأضاليل ؛ إذ قيل إن هناك قائمة من الاغتيالات السياسية ينوي حزبنا أن يقوم بها .

وحزبنا . . حزب شرعي وديموقراطي ؛ لا يؤمن بالاغتيالات السياسية إطلاقا وهو إذ يحارب النظام بالوسائل الشعبية أو بغير الوسائل الشعبية ، لا يمكن أن يلجأ إلى التصفية الجسدية للخصوم ولا للاغتيال السياسي ، ولذلك مجرد تقديم مثل هذه التهم لحزبنا ، هو ضرب من الأباطيل لا يمكن أن يستمع له عاقل ، وهي تهمة مردودة إلى أصحابها . . ربما أرادوا هم أن يغتالوا وأن يصفوا خصومهم جسديا ؛ ولذلك بادروا بإلقاء هذا الثوب وهذه التهمة ، على أفراد حزبنا في الداخل . . وأفراد حزبنا في الداخل من المسالمين ومن الوطنيين الذين لم يألفوا في حياتهم الاغتيال ... حتى ولا لفظا .

الذين تقع عليهم الاعتقالات حاليا - في أغلبيتهم - من أعضاء الحزب الاتحادي ومعهم بعض المعارضين الآخرين من التجمعات السياسية الأخرى . والاعتقالات هذه لا يمكن أن تقدم لمحكمة ، لأنه ليست هناك أدلة وليس هناك شهود ؛ وليس هناك ما يقدم للقضاء . . حتى القضاء الجالس الموجود الآن في ظل النميري . إذن سيظل الناس في السجن ، وسيظل النظام خائفا ، وسيظل ديدنه هو الاعتقال تلو الاعتقال ليس على أفراد حزبنا بالذات وإنما على كل معارض . ليس على كل معارضة فقط وإنما على كل مواطن ، إذ أنه ليست هناك عدالة في الاعتقالات ؛ وإنما هناك نزوات شخصية أو خوف شخصي ؛ أو رعب مستمر لنظام تعوَّد أن يخاف وأن يعتقل لمجرد الشبهة ولمجرد الخوف . هذه هي الحال التي يعيشها الناس في السودان . . ظلم وظلام وجوع وسجن ؛ وكل هذه لا يمكن أن توضع لها نهاية إلا بنهاية هذا النظام القائم الآن في السودان .

هل توافقني أن هناك معارضة . . ومعارضة قوية لهذا النظام في الداخل في الوقت الحاضر ؟

في وقت من الأوقات . . كانت هناك ـ في واقع الأمر ـ معارضة مسيسة ، بمعنى أن الذين يقومون بالمعارضة هم أطر سياسية لوجهات نظر سياسية ، وكانت المعارضة في وقتها مبنية على مبدأ عدم قبول الحكم العسكري الفردي غير الديموقراطي . وكانت تقوم بها مؤسسات سياسية منفردة أو مجتمعة . ولقد نبهنا (في وقتنا ذلك) إلى أن المعارضة ستتجاوز مرحلة المعارضة السياسية . . وتصبح معارضة كل الشعب ، وهذا هو الذي حدث ؛ إذ أن الأداء المتردي لهذا الحكم ، وتفشي الرشوة والسرقة والفساد والمحسوبية واستغلال النفوذ . ثم انحطاط الأداء الحكومي والإدارة الحكومية واللامبالاة التي يتم بها أي عمل ـ إن كان هناك عمل بالسودان ـ ثم الإهمال الشنيع لكل أنواع الخدمات التي تقدم لأفراد الجمهور ، ثم العجز الشديد في الحالة الاقتصادية الذي يؤثر على الحالة المعيشية ، ثم النقص المستمر في السلع : استهلاكية كانت أو رأسمالية . . كل ذلك أدى إلى أن يكون كل أفراد الشعب السوداني معارضة أي أن المعارضة هذه – التي دخلت على وجهات النظر السياسي – عادت ودخلت على كل مدينة وعلى كل قرية ، ثم عادت وطرقت باب كل منزل ؛ سواء كان هذا المنزل في القرى أو الحضر أو البادية . وأصبحت المعارضة هذه . . نتاج المعاناة اليومية التي يعيشها الفرد السوداني منذ أن يصبح الصباح . .

المشاكل اليومية المستمرة ، يأخذ بعضها برقاب بعض ، وأصبح كل إنسان عاجزا عن ممارسة أي شيء ؛ إلا أن يستطيع أن يجهز ما يأكله هذا اليوم ؛ أو ما يستطيع أن يرحل به أبناءه إلى المدارس ؛ أو ما يستطيع أن يتعالج به . أصبحت الحياة اليومية نفسها جحيما لا يطاق ، وأزمة مستمرة واختناقاً مستديماً ، وبالتالي فإن أي فرد يعيش تحت وطأة هذه المذلة اليومية ، لا بد أن يكون معارضا ، وبالتالي فقد أصبح الجميع معارضة (قد تكون غير مؤطرة ، وقد تكون غير مسيسة ، وقد تكون غير معلنة) لكنها معارضة حقيقية ؛ وبالتالي فلا يمكن [illegible] وضع حد لهذه المعارضة بالاعتقال ، وإلا

تعتقل كل ربة منزل، وكل صاحب بيت، وكل فرد من افراد الجمهور. . لأن هناك أسباب حقيقية ومعيشية لكل فرد لكي يعارض. إن وجود المعارضة الإجماعية في السودان، أمر لم يعد محل شك ولا محل تداول، بل أصبح حقيقة واضحة ثابتة وناصعة.

قام النميري بمصالحات وتسويات كثيرة مع بعض الدول بصفة خاصة ـ كالمصالحة مع ليبيا والمصالحة مع إثيوبيا ـ وإعادة العلاقات الدبلوماسية التي قطعها مع العراق ويفسر هذا بأنه محاولة جادة منه لتطويق وعزل المعارضة السودانية . . فإلى أي حد نجح النظام في هذا ؟

أولاً أريد أن أقول إن هذه الدول ـ وغيرها من الدول ـ حرة في أن تتخذ من العلاقات الدبلوماسية بينها وبين الدول الأخرى ما تشاء، وليس هناك أي تعارض بين مبادئ وأهداف المعارضة السودانية، وبين ما تحققه هذه الدول من تبادل سياسي وتبادل دبلوماسي، ونحن ـ طيلة هذا الوقت في السياسة – لم نعرض على صديق ما في أي دولة، أن يقطع علاقاته بالسودان . . وهذا أمر لا يهمنا في كثير أو قليل، أن تكون العلاقات موصولة أو مقطوعة .

أما مسألة عزل المعارضة السودانية، فهي في واقع الأمر الآن . . معارضة قومية تنتظم جميع أنحاء الوطن العربي؛ ومعارضة أفريقية تنتظم كثيرا من الأقطار في أفريقيا، ومعارضة عالمية. ولذلك محاولات عزلها لم تنجح حتى في بداية معارضتها، ومحاولات تطويقها محاولات مكتوب عليها الفشل . المعارضة السودانية أصبحت الآن أكثر من معارضة قطرية؛ وهي الآن معارضة متشابكة الأيادي مع قوى كثيرة في المنطقة العربية، وهي معارضة لا يمكن بعد الآن أن تُعزل أو أن تطوّق بأي حال من الأحوال .

وهذه الساحات لها أنظمة ولها حكومات، وفي كثير من هذه الساحات التي أتت ذكرتها، هناك ثورات . ونحن كمعارضة، ليست لنا صلة بأي حكومة . . ليست لنا صلة بالحكومة الليبية ـ إذا كان هناك مايسمى "حكومة" في الجماهيرية ـ وليست لنا

صلة لا بحكومة العراق ، ولا بالحكومة في إثيوبيا . نحن نرتبط بالمنظمات الثورية في هذه البلدان ، وهي منظمات ترتبط مع الحركات التحررية في مناطق كثيرة . وعلاقاتنا علاقات تحررية وثورية . وهي ليست علاقات دبلوماسية . . لا صلة لها بالسفارات ، تفتح أو تغلق ، أو بالعلاقات الدبلوماسية . . توصل أو تفصل ؛ لا علاقة لنا إطلاقا بذلك .

ثم نحن لنا علاقات مع هذه الشعوب ، وقضية الشعب السوداني جزء من قضايا هذه الشعوب ، ولذلك هذه القضية لا يمكن أن تموت ، لا في صدر هذه الشعوب ولا في صدر ثوراتها . . وهي إن كانت تموت في صدر حكوماتها ، فنحن لا علاقة لنا بالحكومات . المعارضة السودانية تحيط بالقطر السوداني من كل جانب . وتتخلله من الداخل ، وهذا مكان حياتها الحقيقية ؛ كلما سبق أن أُغلق عليها باب . . فتحت لها أبواب متعددة وكثيرة ، وكلما حاول الناس حصارها - في أي جزء من الأجزاء - وجدوها قد فتحت أجزاء متعددة قبلها .

إن المعارضة السودانية قد شبت عن الطوق ؛ وعن العزلة وعن التطويق ؛ وبالتالي فنحن نرحب بأي علاقات دبلوماسية يقيمها الإخوة في المنطقة العربية ؛ أو الإفريقية مع النظام السوداني المتآكل ، لأنهم عند ذلك لا يقيمون علاقات مع الشعب السوداني ، وإنما يقيمون علاقات مع نظام . إذن فليقيموا أي علاقات هم يريدونها مع النظام ، نحن لا نغضب منهم إطلاقا ، ولم نطلب منهم قطع العلاقات . إن حماقات النميري هي التي أدت إلى قطع علاقته . . أما نحن - إذا كان لنا رأي - فليكن له علاقات مع ليبيا والعراق وإثيوبيا ؛ هذا لايضيرنا . إن قضيتنا لا تنبع من وجود هذه العلاقات أو من قطعها . . إذن فمرحبا بعلاقاته مع هذه الدول الشقيقة .

دارت شائعات ونشرت بعض الصحف العربية عن اتصالات ولقاءات بينكم وبين النظام في إطار المصالحة الوطنية ؛ وخاصة خلال زيارة نميري الأخيرة الى العاصمة البريطانية ... فما حقيقة ذلك ؟

ليس في هذا أدنى حقيقة . الشائعات والذي تكتبه الصحف ، والذي يقوله

الناس، والذي نتحدث به نحن داخل حزبنا وفي مجالسنا، كثير ولا حدود له . وهي شائعات لم تنقطع في الماضي، ولن تنقطع في الحاضر ولا في المستقبل . . المهم أنه ليست لدينا أي رغبة ـ إطلاقا ـ في مصالحة النظام القائم في السودان . ونحن إذا عجزنا عن أن نسقط هذا النظام وأن نزيله؛ فلن يفوتنا شرف الموقف التاريخي في معارضته نحن نكتفي بالموقف فقط . يأتي يوم من الأيام ويقال في التاريخ، إننا لم نمد يدنا لهذا النظام ولم نصالحه . . ويكون هذا موقفنا ، ثم نعجز عن إسقاطه ونكتفي بالموقف ... كفاية . هذا الموقف كاف لتأكيد وطنية وشرف الحزب الاتحادي الديموقراطي؛ ويكفيه ـ في هذه المرحلة ـ أن يقول إنني لم أصالح هذا النظام؛ ولم انخرط فيه؛ ولم أصالحه فإن كنت قد عجزت عن إسقاطه، فالقدرة عند الله .

نحن لا نصالح هذا النظام . . نحن نصالحه فقط إذا تخلى عن السلطة ، إذا ألغى كل مؤسساته وكل دستوره القائم الآن ، إذا ابتعد عن إنهاك الشعب السوداني؛ نحن في ذلك الوقت نكتفي بهذا . إذا لم يفعل ذلك فنحن سنسعى بجميع الوسائل المتاحة لدينا، وليس مهم في أي زمان؛ لأن كفاح الشعوب لا يقاس بساعات؛ ولا بأيام ولا بالقلق ولا بالمعانة ولا بالمضايقات ... لا نعلم متى ! (هذه السنة ! السنة القادمة ! بعد عشر سنوات ! بعد خمس عشرة سنة) . . هل نحقق النصر نحن؟ أيحققه أبناؤنا أم أحفادنا . . لا يهم ، المهم أننا نظل في مقاومته ومحاولة إسقاطه؛ وإذا فاتنا شرف إسقاط هذا النظام، فلا يمكن أن يفوتنا شرف الموقف الوطني ، وهو أن نعارض هذا النظام ونلتزم بمعارضته .

أنا لم ألتق بالنميري لا في لندن ولا في غير لندن ، وليست لدي أقل رغبة في مقابلة نميري ولا رسله ولا أصدقائه . . . إطلاقا . كل الذي يدور هو همس ، هو من واقع طول المعارضة؛ أثرت على عقول الناس وعلى قلوبهم وعلى أعصابهم وأصبح هناك حديث طويل عن الاشاعات . كلما يختفي الإنسان لغرض من الأغراض يقال إنه التقى بنميري؛ أو التقى بعمر الطيب؛ أو بغيره من الأشكال . . كهذه؛ هذا لم يتم وليس هناك سبب في أن يتم؛ ونميري رجل سلطوي ، لا يمكن أن يتصالح على مبدأ

؛ قد يتصالح على سلطة ، ونحن لا يمكن أن نقبل المصالحة على سلطة ! نحن نبحث في أسس ومبادئ النظام ، وبالتالي فليس هناك مجال للصلح بيننا وبين نميري على وجه التحديد . . كل الشائعات التي دارت منذ زمن - والتي تدور الآن والتي أنا متأكد أنها ستدور في المستقبل - لا أساس لها من الصحة . .

معنى ذلك أن اتفاقية لندن لم تعد ذات موضوع الآن ؟

إن اتفاقية لندن ... لدي تعبير فيها ، إنها قد "شابت وشاب من حولها الزمان" وإن استعمالها الآن هو كما يراد، استعمال "كلمة حق يراد بها باطل" . وضعت اتفاقية لندن في ظرف معين؛ وهي لا يمكن أن تكون صالحة لكل زمان ومكان ، لأنها ليست قرآنا؛ ولا هي توراة ولا هي إنجيل ولا هي زبور . . هي مجرد اتفاق ، لم يشرفه النميري؛ ونحن كنا على ثقة أنه لن يشرفه؛ ولكننا أظهرنا للعالم وللأخوة - من العرب والأفارقة - حسن نيتنا . . . في أننا لا نريد العراك؛ ووضعنا المبادئ الديموقراطية فقط ، وكنا متأكدين أن مصرع النميري هو في إجازة المبادئ الديموقراطية؛ وفي إلغاء القوانين الاستثنائية؛ وهو مثله مثل أي رجل حريص على سلطته ، فطن إلى هذا . . ولم ينفذ الاتفاقية؛ ونحن تجاوزنا هذه الاتفاقية .

تمت بعد الاتفاقية أحداث وأحداث؛ تجعلنا - وعلى الرغم منا - نتجاوز هذه الاتفاقية . كما تمت أحداث في المنطقة العربية مثل اتفاقية كامب ديفيد؛ وتمت أحداث في داخل السودان ، في هذه المعاناة التي يعيشها الشعب السوداني ، ثبت للجميع أن هذا النظام لا يمكن أن يصلح . وبالتالي فليس هناك أدنى كلام أو تفكير عن اتفاقية لندن .

نعود ونتحدث عن حزبنا الحزب الاتحادي الد[illegible] . هناك نقد ونقد مرير من الحادبين على الحزب بأنه يفتقد التنظيم في [illegible]ن؛ كما يفتقد الممارسة الديموقراطية السليمة ... لضعف التنظيم في الخارج والداخل؛ فما رأيكم في ذلك ؟

إن النقد نحو حزبنا بأنه يفتقد التنظيم نقد قديم . . فحزبنا - كما ذكرت مرات متعددة - جسم كبير؛ و[illegible] بالمعنى المحدد والمفهوم للحزب . هو جماع

الحركة الوطنية كلها ومؤتمرها ؛ وبالتالي فهو جسم كبير . . وتنظيم في مثل هذا الجسم الكبير صعب ومعقد ، والممارسة فيه صعبة ومعقدة ، التنظيم المحكم يكون في الأحزاب القزمية ، وفي الأحزاب العقائدية ، وفي الأحزاب الفاشية . . التي تصنع التنظيم الحديدي أو الطليعي أوالسري ؛ ولكنه ليس في الأحزاب الجماهيرية ، أوفي أحزاب الحركة الوطنية ؛ لكونه صعبا . . لأنها في تكوين كبير ؛ إذا أخذت خلفياته الاقتصادية ، تجد فيه اليمين وتجد فيه الوسط ؛ وتجد فيه اليسار وتجد فيه يمين الوسط ويسار الوسط . . ومختلف هذه التكوينات .

وإذا أخذت خلفيات العملية ، تجد فيه العمال والمزارعين والموظفين ؛ والتجار وكبار التجار وكبار المزارعين ؛ ومصالح كل هؤلاء متقاربة ومتعاركة ؛ ولذلك وجود التنظيم الحقيقي لحزب مثل هذا . . صعب . يجب أن تنظر أيضا إلى المرحلة التي نعيشها الآن ، إذا كان التنظيم لحزب مثل هذا ، واجبٌ صعب في عهد ديموقراطي فهو أصعب ما يكون وأنت في نظام غير ديموقراطي ، فما بالك وأنت تعارك هذا النظام لأن التنظيم والممارسات ـ في واقع الأمر ـ من إيجابيات الديموقراطية . . وإذا لم تكن الديموقراطية سائدة ، ولأن الحزب موجود داخل البلاد ، فالمعارضة الخارجية للحزب هي معارضة أرسلها الحزب وأرسلتها الجبهةالوطنية قبيل ذلك ، لكي تساعد الحزب إعلاميا في الخارج ، لكي تساعد الحزب بأن توجد له ساحات للتدريب وساحات للتمويل ، أو ساحات للإعلام أو للتسليح . . أو غيره . هي ذراعه الخارجية ، ليست هي وجوده الداخلي . إن الوجود الداخلي للحزب قائم في الداخل ؛ وبالتالي . . تنظيمه ديموقراطيا ـ تحت وطأة هذا النظام ـ صعب أيضا .

الذين يتصدون لقيادة تنظيم هذا الحزب أو المتمرسون فيه ـ في الداخل ـ قلة وأغلب الحزب مؤيدون ، وهناك عليهم وطأة الرقابة والأمن القومي والاعتقالات . . كما ذكرت ؛ ولذلك التنظيم يكون صعبا في مثل هذا النظام غير الديموقراطي ، الذي يعاركه الحزب الآن . ولكن التنظيم ـ كما قلت أنت ـ واجب .

كل الذي أستطيع أن أقوله : هل نحن متفقون على معارضة هذا النظام ؟ إذا كنا

نحن الاتحاديين الديموقراطيين متفقون على معارضة هذا النظام كلنا ، أو الصامدين فينا او الصلّبين فينا . . إذن فليست هناك بيننا أي خلافات في مسيرتنا ضد هذا النظام؛ نحن نعارضه ولا نقبل به ولا يمكن أن نصالحه؛ إلا إذا تخلى عن الحكم، وإلا إذا كان في بلادنا ديموقراطية . إذن ليس هناك بيننا خلاف فكري أو خلاف عقائدي . . ألا في مسيرتنا . . نحن متفقون على هذا ؛ اللهم إلا إذا كنا غير متفقين .

بقيت بعد ذلك وسائل الإطاحة بهذا النظام ، يمكن أن تكون بوسائل كاملة الديمواقراطية؛ نحن نريد أن نصنع الإضراب السياسي ، ونريد أن نصنع العصيان المدني؛ وأن نشهر سلاح التظاهر في الشارع؛ نريد أن نحشد الجماهير . نحن تحت وطأة حكم ديكتاتوري بوليسي أمني ، جميع أجهزة أمنه مسلطة علينا . إذن نحن لا نستطيع أن نستعمل الوسائل الظاهرة : الدستورية والشرعية والديموقراطية . . في إثارة هذه الحوافز عند جماهير الشعب؛ لا بد من الوسائل السرية؛ لابد من اتباع وسائل غير ديموقراطية في هذا العمل . وإذا أردنا أن نسقط هذا النظام بطريقة أخرى بأن نثير عليه طلائع القوات المسلحة لكي تواجهه مثلا ، أو بأن نعاركه ـ سواء كان بالمدنيين تحت السلاح أو بالعسكريين ـ هذه الوسائل تكون في منتهى السرية ومنتهى التحديد ، ولا يمكن أن يقوم بها أفراد متعددون ، لا يمكن أن تعقد لها لجنة أو مكتب سياسي؛ لأنها تعتمد على السرية ، على المباغتة ، على المفاجأة؛ لا بد أن يكون سرها محفوظا بين الذين يقومون بها .

إذن في معارضة ومعاركة النظام غير الديموقراطي، أنت لا بد من أن تتبع وسائل ليست هي منتهى الديموقراطية، ولا متمناها إطلاقا . وأنت في ممارستك الديموقراطية ـ في الداخل ـ وأنت تحت نير الحكم البوليسي، لا بد أن تعمل بدون الوسائل الديموقراطية . . في كثير من الأحيان؛ أنت تجتمع في سر . . أنت لا تستطيع أن تجتمع علنا ، ولا أن تجتمع لتتشاور مع الجميع ، أنت لا تستطيع أن تستشير اللجنة كلها، إذن فلا بد أن يتقدم أفراد محددون للقيام بشرف التضحية في هذه الأعمال؛ وبحفظ أسرارها وسريتها .

إذن أنت تعمل في سبيل الديموقراطية ، مُعاركاً نظاما غير ديموقراطي ؛ أنت لا بد من أن تستعمل وسائل كثيرة في الحصول على الديموقراطية . وأين نحن الآن ... إذا أردنا أن ننظم حزبنا (مثلا نؤطره الآن) لا نستطيع أن نقول إن حزبنا له رئاسة الآن ؛ لا نستطيع أن نقول إن حزبنا له مكتب سياسي ؛ لا نستطيع أن نقول إن حزبنا له لجنة تنفيذية أو هيئة عامة ؛ لأن رئيس حزبنا قد توفاه الله واستشهد ؛ وأعضاء لجنتنا أو أعضاء مكتبنا السياسي ؛ أخذت بهم مايو هذه . . مختلف السبل . ليس الحزب في بنيته أوفي تركيبته ؛ ولم يجتمع مؤتمر للحزب لكي يحدد من هم هؤلاء ؛ ومن هي رئاسة الحزب ؛ ومن هي أمانة السر العام للحزب .

إن الذين فرضت عليهم واجبات النضال ، أن يقوموا بالدور التاريخي في مسيرة الحزب الاتحادي الديموقراطي - لمعارضة هذا النظام الآن - ليسوا هم جهازا مؤطرا للحزب الاتحادي الديموقراطي ؛ ليس فيهم رئيس الحزب الاتحادي ، ولا أمين سره ولا مكتبه السياسي ؛ وليس لأحد السلطة الشرعية في أن يكوّن هذه الوظائف . الذين تصدوا لواجب النضال عن الوطن وعن الحزب ، هم أفراد من هذا الحزب أخذوا على عاتقهم في الداخل أو الخارج ، مسؤولية القيام بهذا العمل . وهذا غير التأطير الوظيفي في الحزب! إذ أن التأطير الوظيفي يأتي بعد أن تنال بلادنا حريتها وديمقراطيتها كاملة ؛ بعد أن تجتمع لجان حزبنا المنبثة في جميع أنحاء البلاد ؛ وتختار الشكل الدستوري والديموقراطي والشرعي لحزبنا ؛ ويبتدئ حزبنا ممارسته الديموقراطية . . في ديموقراطية انتزعها من هذا النظام .

الذي أريد أن أقوله ... إن الذين وقفوا مع هذا الحزب - والذين يقفون معه الآن - هم متفقون في علاقاتهم الوطنية ؛ في موقفهم ضد هذا النظام ؛ في وجوب إسقاط هذا النظام ؛ في عدم الانهيار كما حدث للأحزاب الأخرى . هم متفقون في علاقاتهم القومية ؛ لأنهم جزء من هذا الوطن العربي ؛ هم متفقون في سياستهم العالمية ؛ لأنهم من القطاع المعادي للاستعمار والغير منحاز . في جميع هذه السياسات الوطنية والاقليمية والعالمية ؛ هم متفقون على تأجيج دور الحزب ضد هذه الديكتاتورية

العسكرية ، هم متفقون على أن لا يصالحوا على أنقاض الديموقراطية . طالما هم متفقون على هذه المبادئ ، إذن فليتخذوا من الأساليب النضالية ما يعتقدون ؛ إنهم أهل لكي يحرروا البلد ؛ لكي يأتوا بالديموقراطية ؛ ولكي يستطيعوا أن يضعوا ديموقراطية كاملة لتنظيمهم السياسي .

حركة يوليو ١٩٧٦م. ندين الاغتيال السياسي

سؤالنا الأول للشريف كان عن حركة ٢ يوليو, ١٩٧٦ . وقلنا للشريف: إن الحركة اتهمت بأنها "غزو أجنبي للسودان" فماذا تقول ؟

قطعا لا ! لم يشترك في الحركة أي شخص غير سوداني ، كانت حركة سودانية لحما ودما ، إلا من ناحية الأسلحة والمعدات، فهي طبعا مستوردة . فنحن لا نصنع الأسلحة، وليس هناك أسلحة محلية في السودان . أما من ناحية التخطيط أو التنفيذ أو الإدارة ، فهي سودانية لحما ودما .

ويعزو الشريف الاتهام إلى عنصر المفاجأة الذي امتازت به الحركة :

إن الناس بفضل المفاجأة ـ في واقع الأمر ـ اعتقدوا أن القائمين بالحركة أشخاص أتوا من الخارج . والحقيقة إنهم كانوا موجودين داخل السودان . . منذ مدة طويلة وانقضوا على النظام من داخل السودان . وكانت نقطة وثوبهم وتحركهم، على بعد ٢٠ كيلو مترا من الأهداف العسكرية التي هاجموها .

إن الحركات الوطنية ، مثل حركتنا ، لابد أن لها أصدقاء ومعاونين؛ يتفقون معها في شيء من الأهداف الوطنية أوالقومية ، ويتعاونون معها على هذا الأساس؛ لكنهم قطعا لا يخططون ولا ينفذون لها . ولم يكن هناك أحد غير سوداني ـ داخل السودان أوخارجه ـ يعرف عن يوليو قبل حدوثه، أو يعرف عن تخطيطه [illegible] لقد كانت سرا سودانيا محكما ومغلقا؛ لا يتجاوز عدد الذين يعرفونه أصابع اليد الواحدة .

وحتى عندما لم تنجح حركة يوليو في اليوم الأول ، وعندما [illegible] التي استعان بها النظام من داخل السودان أومن خارجه ، فإنها لم [illegible] أصدقائها في خارج السودان [illegible] حل ، وهؤلاء الأصدقاء [illegible] ذلك ، إن لم أقل إنهم كانوا راغبين في مساعدتها . وكانت الحركة [illegible] أصبحت حدثا معروفا في الإذاعات ، وفي الساحة الداخلية [illegible]

السودانية قد أخرست . وكان في الإمكان طلب النجدة أو التدخل . ولم يكن هنالك طوال ٣ أيام أي أثر . . للشرعية داخل السودان . كان يمكن لحركة يوليو أن تنجح عن طريق التدخل من الخارج لمساعدتها، خصوصا أن النظام استنجد بالخارج وأُسعف . لكننا قاتلنا معركة سودانية بحتة، وتحملنا كل آثارها . . بما فيها الهزيمة والموت والتعذيب وغيره .

إننا لم نشأ إن نشوه وجه يوليو، بأي تدخل أو مساندة من الخارج ، فيما يختص بإنجاح العملية . ولا أخفي سرا، إذا قلت إنه كان لدينا - ولايزال - أصدقاء لديهم الرغبة في معاونتنا . . حتى في القتال نفسه . لكننا نعرف كيف نضع الحدود والفواصل، بين التعاون وبين التدخل . . سواء بالنسبة لحركتنا؛ أو بالنسبة لسمعة الآخرين .

تحدثتم عن تحرك قوى خارجية لمساندة النظام ضد حركة يوليو، لكن هذا لم يكن يفترض أن يشكل مفاجأة فالسوابق متعددة ؟

نحن كنا نعرف من الوهلة الأولى سواء من تجارب لنا ، أومن تجارب لمعارضين آخرين، أن النظام لا يتردد لحظة واحدة في الاستنجاد بالخارج لإنقاذ نفسه . ونحن متأكدون الآن . . أنه إذا تعرض لمواجهة فسوف يستنجد بالجيران ، وبغير الجيران ! ونحن نضع ذلك في حسابنا دائما . لكننا فيما يختص بتحركنا ، بمواجتهنا للنظام نضع حدودا واضحة وفواصل محددة، لما يقوم به السودانيون بأنفسهم ، ولما يقوم به الاصدقاء أوالمعاونون في الرأي أوالفكر والعقيدة . ولذلك فلم نسمح به في الحاضر أو المستقبل . ذلك مع أننا ندرك أن مع القليل من التدخل - في أي وقت كان - يمكن أن يكسب أي حركة كامل النجاح . وقد يكون هذا خطأ تكتيكيا أو مرحليا نحن نتحمل نتائجه، لكنه فيما يختص بفلسفة التحرك وأهدافه، ليس خطأ استراتيجيا بأي حال من الأحوال. ومع شعورنا بمرارة آثاره ونتائجه ، إلا أننا تعودناه . . ولازلنا نتقبل كل آثاره بكل الرضى .

وسألنا الشريف الهندي عن رأيه في اللغط الذي أثير عقب فشل حركة ٢ يوليو

ومفاده أن الحركة ضربت من داخلها ... فكان جوابه :

في المرتبة الأولى . . الحركة فشلت ذاتيا ؛ ولم تكن لفشل بمجرد التدخل الخارجي الفشل الذاتي كان ميدانيا : عسكريا وسياسيا . . نتيجة ثغرات واضحة ؛ فإن الذين خططوا للحركة - وأنا كنت في مطلعهم - شاءت الظروف ألا يشتركوا في تنفيذها في الميدان . فقد أصبت بحادث سيارة ، أدى بي في وقتها إلى شلل كامل . . . فلم ألحق بالحركة في موضع تنفيذها . والأخطاء كانت واضحة وبسيطة ، للدرجة التي حملت الكثيرين على الاعتقاد أنها كانت متعمدة ؛ لأنها كانت من الوضوح والبساطة بحيث لا تغيب عن فطنة أي إنسان عادي .

من كان مسئولا عن هذه الأخطاء ؟ لم يقبل الشريف بالإجابة على هذا السؤال لكنه أضاف :

قطعا كانت يوليو مضمونة النجاح ، من حيث التخطيط والتنفيذ ؛ بحيث أغرت بعض الزملاء في حينه ، بالاعتقاد أنها ناجحة ، ولذلك سرحت أفكارهم لما بعد النجاح . . بحيث أنهم نسوا أوتناسوا الضرورة الوطنية والضرورة القومية لإسقاط النظام . وبدأوا يفكرون في وراثة النظام ؛ وفي السيطرة على الحكم . وبالتالي كنا نحن في واد وهم في واد آخر ، ولم تغب عنا هذه الحقيقة حتى قبل يوليو . ولكننا كنا نعتقد أنه إذا كان هنالك مجرد تفكير بالوراثة ، فعلى أصحابه أن يتأنوا إلى ما بعد يوليو .

وأريد أن أقول إن هذا التفكير لم يكن لدى المقاتلين ؛ وإنما كان لدى بعض الطامعين ، من الذين أدركوا يوليو أخيرا وهي تتحرك ، ولم يشتركوا في معاناة ولادتها ونشأتها . ولو أردت أن أحدد الأخطاء ، وأشرح التعمد فيها أو العفوية لاحتاج هذا إلى صفحات كثيرة . ولكني أكتفي بذلك . وكل ما أقوله هو أن حركة يوليو كانت حركة وطنية وقومية تخطيطا وتنفيذا ، أردنا بها - كما أراد المقاتلون - خلاص السودان من الحكم الحالي ؛ وخروجه من التدهور القومي . . وأراد الآخرون غير ذلك .

هل تعتقدون أن انقسامات القوى السياسية تلعب لغير صالح المعارضة ؟

انقسامات المعارضة . . انقسامات زعامية وليست شعبية . فالرأي العام السوداني والشعب السوداني كله معارض ؛ مهما كانت خلفياته السياسية ، وأيا كان مدّعو زعامته . وإن كانت الانقسامات أثرت على السطح وعلى الذين يقيسون الانقسام بالأشخاص ، فهي لم تؤثر على العمق إطلاقا . ونفس الذين قاتلوا من أجل يوليو ضد النظام ، سيقاتلون الآن ضده بنفس الشراسة ؛ مهما حدثت من انقسامات . فمدّعو الزعامة أو الوراثة معزولون شعبيا . . ووقوفهم مع النظام لا يكسبه قوة ، إنما يكسبهم ضعفا .

وقال الشريف : إنني أقول : إن هذا النظام مرتبط بقواعد مصلحية داخلية وبقوى خارجية . والذي يعتقد أن الذي نحاربه هو نظام داخلي . . وسوداني بحت ، هو مخطئ . فإذا كان في أي بلد في العالم الآن أي نظام داخلي أو محلي - ولا أعتقد أنه موجود - ففي السودان على وجه الخصوص ، فإن هذا النظام مسنود ومدعوم من قوى خارجية كبيرة وخطرة .

وبالتالي فإن الذي تصارعه المعارضة ليس النظام المحلي ، وإنما هي تصارع كل المتعاونين معه من الخارج ، والموجودين لحمايته في متناول يده وعلى مقربة منه . وبالتالي فعزل النظام شعبيا مكفول وموجود . أما إسقاطه ، فأمر يحتاج لكثير من التروي والقدرة والمعرفة والصبر ، وضبط النفس وفاعلية المفاجأة . وكل هذه مسائل حسابية دقيقة ؛ يعرفها الذي يتابع حساب مختلف القوى ؛ ويعرف الحركات السياسية والفنية ؛ التي تؤدي لإسقاط الأنظمة .

هذا النظام يعني وضع صراع المعارضة ضد النظام ، ضمن الإطار الأشمل للصراع حول معاهدة كامب ديفيد . . هل هذا ما تقصده ؟

الوقوف مع كامب ديفيد يعني الوقوف مع قوى كبيرة وخطيرة . ومجرد هذا يدفعك للتفكير ، مثلا : كيف يقول السادات عن نميري إنه ذهب لكي يستجدي [illegible] دور [illegible] ؟ ولما قال لكي يسهل مهمة الاستعداد [illegible] إن رحلة النميري

لن تطأ أرض مصر " ! وأردف السادات : "إن أرض مصر طاهرة وشريفة" ! وهذا يعني أن غير الطاهر وغير الشريف ... هو النميري . وقال السادات : "إن النميري هو الذي سيخسر من عدم زيارة مصر ، وإن مصر لن تخسر شيئا" . وقال : "إن النميري حر إذا أراد إن يغلق سفارته" .

وأنا لم أسمع تحقيرا ـ لشخص أورئيس دولة ـ مثل هذا . . قديما أوحديثا . وكنت أتوقع إن يرد النميري على هذا بعنف . . إن لم يكن دفاعا عن شخصه [illegible] على الأقل عن منصبه الرسمي ؛ الذي يمثل شعبا وأرضا . ولكن النميري [illegible] انفعالاته ـ والذي قال : (قبل ذلك في حادث السفارة الأميركية في الخرطوم عن عملية أيلول الأسود) إنه "سيجعل أيام القائمين بها كلها سوداء" . . النميري نفسه . . ضبط أعصابه ولسانه بمقدرة لم تعرف عنه قبل ذلك .

كل هذا يدل على أن كامب ديفيد فاصل أساسي لا يمكن للذين يقفون معه أن يتجاوزوه . وأنت ترى الآن المحاولات الأوروبية ـ أيا كان رأينا فيها ـ وتسمع ما الذي يقوله السادات و كارتر وبيغن عنها . إن مجرد التدخل في أي أمر يخص كامب ديفيد غير مسموح إطلاقا ، حتى لو كان يرمي إلى تحسين الوضع أو الضغط . وفي هذا دلالة على أن كامب ديفيد ليست المعسكر المسمى باسمها . إنما هي معسكر استراتيجي كبير ؛ وحلف حربي وسياسي يتجاوزالعواطف الوطنية والقومية ؛ ويقاتل كل من في داخله عن نفسه وعن الآخرين . . مهما كان رأيهم فيه . هذا كله يؤكد أن كامب ديفيد حلف ومعسكر فاصل أساسي .

يبقى الجانب الاقتصادي . . و يبدو لي أن موضوع الديون السودانية [illegible] جدولة الديون ، صار الأبرز في هذه السنة . لم نعد نسمع شيئا عن [illegible] الزراعة في السودان ... لتحويله [illegible] سلة غذاء العالم العربي [illegible] الأمر [illegible] الآن اقتصاد [illegible] . الدولة فاقدة لكل [illegible] الاقتصاد [illegible] فيها [illegible] فئة يتخطى بها الآن [illegible]

وخطيرة النتائج .

فليس في السودان ميزان مدفوعات خارجي وموازنة داخلية . والتضخم يبلغ أقصى نسبة في العالم ، إلى حد أنه خرج عن القدرة الحسابية . والنظام ساقط اقتصاديا . ولكن مجرد السقوط الاقتصادي لا يسقط النظام . فنحن نعيش في مرحلة، تبقى فيها أنظمة ساقطة اقتصاديا وشعبيا وسياسيا . وعند ذلك . . فإن على الذين يعارضون أي نظام، أن يبتدعوا وسائل مختلفة لإسقاطه . فإن نظريات الحكم ومؤشرات إسقاط الأنظمة . . لم تعد كافية .

ونحن توقفنا عن الكلام عن الموقف السياسي والاقتصادي . فلم يعد هذا الكلام وقفا على محللين سياسيين أواقتصاديين؛ وأصبح أي طفل سوداني يعرف هذا أكثر من أي محلل اقتصادي . نظام ساقط اقتصاديا وإداريا وسياسيا ، ومع ذلك فهو باق مثل الأثر البالي ، وبقي على من يريدون إسقاطه أن يعتمدوا على الحركة .

كحزب . . أنتم متحالفون مع حزب البعث العربي الاشتراكي . . ما هي أسس هذا التحالف ؟

في واقع الأمر، نحن متحالفون مع حزب البعث العربي الاشتراكي . . القطر السوداني . وتحالفنا يقوم على ركيزتين أساسيتين :

أولا : وطنيا . . نحن جميعنا نعارض هذا النظام؛ ونتفق اتفاقا كاملا وأساسيا على إسقاطه وإزالته .

ثانيا : قوميا . . نحن نقف مع القضية العربية ، خصوصا القضية المركزية في فلسطين . . موقفا محددا هو : وجوب إقامة الدولة الفلسطينية في كامل التراب الفلسطيني - دولة ديموقراطية غيرعرقية وغير دينية؛ تضم كل الموجودين داخل التراب الفلسطيني؛ أيا كان عرقهم أو دينهم . . ولا نؤمن بأي شئ آخر . وعلى هذه الركيزة القومية أيضا يقف تحالفنا .

إذن ، فنحن متشابهون - إن لم أقل متوافقون - في المسألة الوطنية والمسألة القومية . وبالتالي فتحالفنا أساسي وجذري ومركزي . ونحن نعتقد أن هذا التحالف في خدمة



(الشريف حسين . . بدر الدين مدثر – حزب البعث العربي الاشتراكي – القطر السوداني)

المصلحة الوطنية في السودان ، وفي خدمة المصلحة القومية للأمة العربية . ونحن نعمل في تنسيق وطني وقومي لإنجاح الأهداف المقدسة للتحالف ، وهي أهداف محددة . . وطنية وقومية . وبالتالي . . فلا نعبأ بأي شئ آخر يقال عن هذا التحالف ولكننا نؤمن بضرورته ، للوصول إلى أهدافنا الوطنية والقومية . وهي واضحة وجلية ليس فيها لبس ولا غموض . وطالما أننا متفقون عليها ، سيظل التحالف أساسيا ومركزيا ، ليصل إلى أهدافه المطلوبة .

المطلب الديموقراطي . . بات الآن في طليعة القضايا العربية . ما هو موقفكم إزاء هذه القضيــة ؟

قال ـ بانفعال ـ هذا إيمان قاطع وهدف مركزي . نحن ظللنا نقاتل النظام من أجل الديموقراطية ، وخلافنا الأساسي مع النظام هو الديموقراطية . نحن نؤمن بإتاحة الحريات الديموقراطية لجميع المواطنين . حرية العقيدة والنشر والتجمع . . وغيرها

[illegible] من بذلك داخل السودان فحسب ، وإنما خارج السودان وفي [illegible] بإقامة الحريات الديموقراطية لجميع العرب ، ولجميع الأفارقة [illegible] نؤمن بالمواطن العربي والأفريقي . . المحصن بالحريات [illegible] من القهر والبطش ، والمتمتع بإنسانيته . ونعتقد أن هذا حجر [illegible] ـية وفي المعركة القومية . وهذا هو الذي سيجعل النصر في [illegible] . نحن مع أي نظام يكفل هذه الحريات .

[illegible] السياسيين في السودان ؟

[illegible] ، ولكن سجون السودان مليئة بمئات ـ إلى ألوف ـ المعتقلين . [illegible] ـحو تقليد جديد في السودان . فالمجتمع السوداني مجتمع [illegible] ـؤسسة السجن . السجن لم يكن متداولا . لكن ، ولأول مرة [illegible] ـحفظي " وأصبح مقننا ، ومؤسسة قائمة بذاتها . الحكم [illegible] عبود) كان اكتفى ب " قانون الطوارئ " ولم يعتقل أكثر من ـ [illegible] ـديموقراطية كانت "المادة ـ (أ)" . . من قانون العقوبات تنص [illegible] . ومع ذلك كانت الناس تطالب بإلغائها . الآن استُحدث [illegible] وحتى القضاء السوداني لم يبق كما كان . لقد انحط وتدهور [illegible] .

[illegible] الحديث بكلمة نداء ـ موجهة إلى شعب السودان ـ ركزت [illegible] ـعارضة من قضيتين متداولتين ، إشاعات المصالحة ، وموضوع [illegible]

[illegible] ـضة السودانية صامدة وثابتة في موقفها ونظرياتها . وهي لا [illegible] إطلاقا ، وكل الشائعات عن تفاوض أو مصالحة ، غير [illegible] . . على الأقل من جانبنا . وكل ما أقوله لجماهير الشعب [illegible] . . هو معروف عنها من الشجاعة والصبر واليقظة والثبات ؛ وأن [illegible] ـائل الحكم الفاشية ؛ وأن تنجز مهام الانفعال الثوري ؛ وأن

تطمئن إلى أن كل القوى الوطنية والقومية، تعمل في جسار [illegible]
لخلاص السودان من الحكم الحالي . . وهي نتيجة أساسية [illegible]
دونها بأي شيء .

ونحن واثقون . . أنه مهما تساقطت بعض الزعامات و[illegible]
وهو نفسه يترامى في أحضان الاستعمار والامبريالية والتبعية [illegible]
ترفض خيانتهم، وتدمغها وتدينها . . كما أنها تسعى لإزالة [illegible]
لابد أن تصل لأهدافها هذه . . طال الزمن أو قصر . فنضال [illegible]
بالساعات أو الأيام أو الشهور . . ولا حتى بالسنين . فهو نضال [illegible]
ومنتصر .

نحن نسمع الآن . . أن النظام يتهم المعارضة بمحاولات [illegible]
مبررا للاعتقال التعسفي والجماعي لأعضاء المعارضة . [illegible]
الفردي أو الجماعي - أسلوب مرفوض رفضا كاملا من [illegible]
الممارسات التي تقوم بها المعارضة لاسقاط النظام . فل[illegible]
ضعفا) أننا نرفض أسلوب الاغتيال وندينه، ولا نقدم ع[illegible]
وسائل أخرى متاحة وواضحة لإسقاط النظام، ليس [illegible]
الاغتيال السياسي . ونحن نعتقد أن النظام يقوم بهذه الادع[illegible]
للاغتيال . ونحن نشعر بتحركات عناصره حولنا . . وحو[illegible]
إنه إذا كان هناك من يقدم على الاغتيال، فهو النظام ول[illegible]
النظام بالوسائل المشروعة وفي وضح النهار . وسوف نسقط[illegible]
مرأى ومسمع من العالم كله .

نحن نحذر النظام، ونتابع كل التحركات المشبوهة لعناصره [illegible]
يقوم بها يوميا، وتعاونه مع الأجهزة المشبوهة والمعروفة [illegible]
المأجورين . . ونقول له إنه إذا أقدم على أي عمل مثل [illegible]
فسيدفع الثمن غاليا؛ وإنه إذا لم يطلق سراح جميع المعتقلين [illegible]

عن ممارسته الفاشية معهم ، فلن يؤدي هذا إلا إلى التعجيل بنهايته وسوء خاتمته .

دعوتم الشعب السوداني إلى ممارسة أشكال نضال سلمية ، الإضراب السياسي، والعصيان المدني ، ضد النظام ، ثم الانتقال من أشكال النضال المسلح والعنيف التي كنتم تمارسونها في الماضي إلى شكل النضال غير العنيف؟ **وهل أنتم جادون في هذه الدعوة ؟ أم هي مجرد شعار تكتيكي ؟**

شكرا أخي . . . لم يكن في السودان ـ في الصراع السياسي ـ أي أشكال من الصراع المسلح . كانت الديموقراطية بالصوت الحر ، تحكم بالأغلبية ، ولقد أدخل النميري (بانقلابه) الصراع المسلح في السياسة السودانية . ورأينا نحن أن من حقنا (وطنيا وشرعيا وقوميا) ، أن نستعمل نفس السلاح . لم يكن قبل ذلك في السودان تسليح ولاتدريب . ونحن بدأنا بتدريب وتسليح عناصر لكي تدافع عن الديموقراطية والحرية ، طالما أن السلاح قد استعمل لاغتيال الديموقراطية والحرية . ودخلنا في مواجهات متعددة مع النظام بالسلاح . . سواء كانت في شكل الانقلاب ـ من القوات المسلحة ـ أوكانت في شكل مدنيين مسلحين . . يعاركون القوات .

ونحن الآن لا ننتقل إلى هذا النوع من النضال لأول مرة . فلقد مارسنا الإضراب السياسي قبل ذلك أثناء حكم عبود . ومارسنا التحشدات الشعبية في الشارع ومارسنا الثورات الشعبية و ثورات الطلبة مرات متعددة . ولا يعني هذا أننا سنترك هذا الصراع المسلح الآن! فإننا ننادي الطبقات الحديثة من الشعب السوداني ، وأعني بذلك العمال والطلبة والمثقفين والمهنيين والموظفين ، ومزارعي القطاع الحديث في السودان ، والجماهير السودانية في العواصم ـ العاصمة المثلثة وعواصم الأقاليم ـ نناديهم بالعصيان المدني . . أي التوقف عن العمل ، والإضراب السياسي : أي توقف العمال عن العمل ، والطلبة عن الدراسة ، والمزارعين عن الزراعة ؛ كما لا يعني هذا إطلاقاً أننا تركنا الجانب المسلح من حركتنا . . وانتقلنا إلى جانب آخر .

لكن الحقيقة [illegible] لدينا الآن ، أن القوات المسلحة السودانية ـ بمقدار تسعين في المئة منه ـ ليست مع النظام . هناك تنظيمات سياسية داخل القوات المسلحة ، وهناك

قوى محايدة لا تنتمي لتنظيمات . . وتسمى قوى الإنقاذ . كل القوات المسلحة . . ليست مع السلطة . وصراعنا الأساسي هو مع السلطة . . إذا فلماذا نهاجم القوات المسلحة . . ونحن نعرف أنها ـ في قلوبها وبأفكارها ـ ليست مع السلطة ؛ لأنها جزء لا ينفصل عن جماهير الشعب السوداني ؛ تحس بآلامها وتعيش مأساتها ؛ وتعرف مقدار المشاكل التي تواجه السودان الآن ؛ ومقدار المآسي التي يعيش فيها الشعب السوداني . وهي أساسا إما من المدن أومن الأقاليم ؛ وأصبح الآن كل سوداني وكل أسرة سودانية تعيش هذه المشاكل .

والقوات المسلحة يقال إن لديها مميزات عن بقية طبقات الشعب ، في الرواتب وأشياء أخرى . والحقيقة أن هذه المميزات ـ حتى لو كانت موجودة ـ فلا يستطيع الجندي أن يواجه بها متطلباته . وإذا استطاع . . فإن جزءا كبيرا من أهله قد أُعدِم ـ معيشيا ـ وأصبح يعتمد عليه . . وحتى أهله في الأقاليم أصبحوا يعتمدون عليه . وبذلك أصبح ثقل الوطأة المعيشية موجها أفقيا ورأسيا نحو الجندي . وبالتالي فالقوات المسلحة الآن ليست في صف النظام . ونحن نرى أن لا داعي لكي ندخل في معركة مع قوات مسلحة هي في قلوبها ليست مع النظام . وإنما ـ كما تعرف ـ الجيوش عندها الضبط والربط . وهي لا تستطيع الكلام إطلاقا ، ولا تستطيع أن تظاهر بما تكنه من عواطف .

رأينا أن لا داعي لأن نشتبك في معركة مع قوات . . نحن نعرف إنها ليست مع النظام ؛ وإن كانت هناك قلة مأجورة – ذات مرتبات مزدوجة وامتيازات كبيرة مع النظام ـ فهي قلة في الرتب الكبرى ، وقلة في الاستخبارات . . لا تمثل : لا كيان ولا ضمير ، ولا عواطف الجيش السوداني .

وبذلك رأينا أن لا داعي للصراع بين المعارضة والقوات المسلحة في الجيش السوداني ، لأننا بالدراسة ، ولوجودنا داخل الجيش السوداني ـ كلنا في شكل تنظيمات ـ ولمعرفتنا الوثيقة بالرأي العام في القوات المسلحة السودانية ، رأينا أنها هي نفسها معارِضة ؛ وليس من العقل في شيء أن تدخل في معركة مسلحة مع المعارَضة

فتسيل دماء لا داعي لها . ومعركتنا ليست مع القوات المسلحة ، إنما هي ضد النظام الحاكم . والقوات المسلحة نفسها ليست مشتركة في النظام الحاكم ؛ إنما هي تُستدعى للدفاع عنه كلما هبت أزمة . وخلال الاثني عشر عاما لم تكن القوات المسلحة حاكمة وسخطنا موجه أساسا نحو النظام . ولذلك رأينا أن نوجه هذا السخط شعبيا ، وأن لا نبتدئ بمعركة مع قوات مسلحة ... نحن ندرك تماما عواطفها ؛ ونعرف تماما أنها تدرك المأساة الحالية التي تعيشها بلادها ؛ ونعرف أنها تحاول وبمختلف الطرق ، لإنقاذ بلادها من هذه المشاكل .

وفي دعوتنا للإضراب المدني والعصيان السياسي وللاحتشاد الشعبي ، قلنا إن القوات المسلحة لن تضرب شعبا أعزل فقيرا . . يعيش مأساة يومية ؛ ويريد أن يغير النظام الذي طحنه بهذا القهر كله في المعيشة ، وفي الاقتصاد ، وفي الأخلاق ، وفي الإدارة ، وفي الأداء . فلا يمكن للقوات المسلحة أن تضرب شعبا هي تعرف مشاكله وتعرف لِم ثار مدنيا ، ولِم توقّف عن العمل إضراباً ، ولِم حدث العصيان المدني . . فقلنا إنها لن تضربه حتى لو أتتها الأوامر .

ولقد حدث مثلٌ قريب منذ أيام في مدينة الأبيض . . ولم تشترك القوات المسلحة في ضرب المواطنين . وقبله بشهر . . حدث تجمع شعبي في مدينة عطبرة ، ولم تتعرض له القوات المسلحة . ونحن نأمل - ونرجو الآن ونعلم - أن القوات المسلحة لن تتعرض لجماهير شعب أعزل وفقير (وسلطته منهارة ، وليس في بلده أداء ولا إدارة وبلده مفلس وهو يفتقر للضرورات) . . إنها لا يمكن أن توجه سلاحها نحْوه . وإذا ما تجرأت قلة على أن توجه سلاحها ، فالأغلبية مقتدرة وكافية ... لأن تؤدبها .

وقلنا بعد ذلك . . إنه إذا كانت الأغلبية من الجيش السوداني ، ستوجه أسلحتها نحو جماهير الشعب السوداني ، وهي تعرف قضاياها وتعرف مشاكلها وتعرف مأساتها ، وتعرف لِم تحركت و لِم أضربت ولِم توقفت (وهذا مع أن جماهير الشعب السوداني تنتظر الإنقاذ منها هي نفسها ، عبر قيامها بتغيير نظام الحكم هي نفسها لأنها تحمل السلاح) . . إذا بعد ذلك ، تقدمت لضرب الشعب الفقير الذي يطالب بحقوقه

فإن قواتنا موجودة ومسلحة ومدربة ومقتدرة . . أن تدافع عن جماهير الشعب السوداني ؛ التي يجب أن تضرب عن العمل ؛ وأن تتوقف ، إظهارا لحكمها على النظام . . سواء أمام السودان ، أو أمام العالم بأجمعه .

نحن لم نترك النضال المسلح ، ولكن وسيلتنا الآن هي : الإضراب السياسي والعصيان المدني والتحشد الشعبي ، وحامية هذا . . هي القوات المسلحة التي هي جزء لا يتجزأ من الشعب ، والتي تعرف مآسيه وتعرف لماذا أضرب و لماذا توقف وبالتالي فالقوات المسلحة لن تضربه . أما إذا حدث ما لا نتوقعه ، واشتركت في ضربه بجماعتها . . فعند ذلك نكون نحن مضطرين لحماية التحرك الشعبي بالمسلحين المدربين لدينا ، ونحن واثقون من أنهم قادرون على حماية الحركة الشعبية .

إن أسلحة المعارضة ضد النظام أسلحة متعددة . ولها الحق في أن تختار في أي مكان وزمان ـ وحسب الدراسات الميدانية والموضوعية ـ أي سلاح . نحن نعتقد الآن أن هذا سلاح واجب الاستعمال . ونحن نشهره (لا لأننا توقفنا عن الأسلحة الأخرى بل) لأننا نعتقد أن هذا هو الوقت الذي يجب أن نشهر فيه هذا السلاح .

أنتم تتوقعون أن الإضراب والعصيان المدني سيكونان نوعا من تعبير عن الوحدة الشعبية ضد النظام ؛ ثم أن تصل هذه الوحدة الشعبية إلى ذروتها بانضمام العسكريين إليها . . أهذا هو الهدف ؟

نحن واثقون ، أخي . . أن ما يزيد عن ٩٠ بالمئة من الشعب معارض لهذا النظام . معارض بلسانه أوبقلبه أوبيده . ونحن متأكدون أن الثورة موجودة في صدور الجماهير ، وهي في حاجة إلى فتيل لكي يشعلها . وبالتالي ، فتجربة الإضراب المدني والعصيان السياسي والتحشد الشعبي ، هي تجربة لتجميع قوى المعارضة وصهرها . . وليس لإثبات وجودها ؛ لأن وجودها معترف به حتى من النظام نفسه . وعندما لا يشترك الجيش السوداني في ضرب قوم توقفوا عن العمل فقط ؛ ولم يقوموا بتخريب ولم يقوموا بضرب ، ولم يقوموا بغزو ، عندما يتوقف عن ذلك ، يعني أن التحالف الطبيعي بين القوات المسلحة السودانية ، وبقية الشعب السوداني قد حدث ، وأن

السلطة قد سقطت فعلياً ، كما هي ساقطة الآن إداريا ، وأدائيا ، وقانونيا .

طالما الحديث عن عزل السلطة وإسقاطها، فالسودان يبدو متعبا اقتصاديا؛ إلى درجة أنه يبدو أحيانا أن العلاج مستحيل على أي حكومة . . فهل تملك المعارضة أي حل عدا الانتقاد؟ وكيف ستتصدون أنتم للمشكل الاقتصادي ؟

البرنامج الاقتصادي

هذا سؤال في محله ... ولو استطردت في شرح المشاكل المعيشية والاقتصادية التي يعانيها السودان ، والإفلاس الذي حدث فيه؛ بأرقام ونماذج مختلفة ، لأخذ هذا الحديث مئات الساعات . ولكن حقيقة الأمر . . أننا ـ أنا وأنت والسودانيين وبقية العالم والمجتمع الاقتصادي والمصرفي بأكمله والدول ـ نعرف أن السودان مفلس اقتصاديا لا ينقصه إلا إشهار إفلاسه . وبالتالي . . فهذا الحديث عن الإفلاس الاقتصادي وانعدام السلع ونذرتها حقيقة واقعة . وكثيرا ما يقول لنا الناس : لماذا تتعبون أنفسكم وهذه السلطة منهارة اقتصاديا؟ والإصلاح الاقتصادي من بعدها مستحيل أومعجزة . . أوما يشبه المعجزة .

لكننا نحن وطنيون ، لا يمكن أن نقتنع بهذا المنطق . ونحن نعتقد أن استمرار السلطة يوما واحدا، يشكل سنة كاملة من زيادة الانهيار الاقتصادي . وبالتالي فنحن كمواطنين ـ وبالدرجة الأولى ـ مطلوب منا فورا إنهاء هذه السلطة . . لأن بداية نهايتها موجودة الآن . وبذلك ، لكي لا تتضاعف المشاكل الموجودة الآن ، اقتصاديا وإداريا وأدائيا ، وأخلاقيا ؛ فيصبح اليوم سنة كاملة من الانهيار ، فواجبنا ـ كمواطنين ـ أن نتصدى لقضايا بلادنا؛ مثلما واجبنا كمواطنين ، أن نتصدى للدفاع عن حدودها . . إذا اجتاحها عدو . فلا عذر لنا أن نقول إن الموقف ميؤوس منه للدرجة التي تدفعنا للتخلي . الواجب الوطني يتهمنا بالخيانة إذا قلنا ذلك .

هذا في المقام الأول . وفي المقام الثاني لقد قلنا ـ وأنا أؤكد لك ـ أن المشاكل الاقتصادية الموجودة في السودان الآن ، والتي بلغت حدا يرى الكثيرون أنه لا حدود له ، نحن لدينا له حدود محددة . وأنا لا أستطيع الآن أن أشرح لك الحلول المحددة .

ولكن ، سأعطيك أربع أوخمس نقاط تشكل برنامجا اقتصاديا للإنقاذ . . على ثلاث مراحل يطبقه حكم قومي مجمع عليه من جميع السودانيين ، لكي ينجح .

في المرحلة الأولى :

معالجة الميزان السلعي بزيادة عرض السلع - في البلاد - على طلبها ؛ بحيث لا تكون هناك ندرة للسلع ، ولا سوق سوداء ولا متاجرة بها ؛ وبحيث تعود حلقة السلع التي انقطعت فتواصل دوراتها ؛ وبحيث يكون المعروض من السلع في الأسواق أكثر من الطلب عليها . نحن في المدى الأول سوف نستورد كميات كافية من السلع تجعل المواطن السوداني واثقا أنه كلما طلب السلعة وجدها . ولا يجد نفسه مضطرا للتخزين المنزلي ، كما يحدث الآن في السودان .

مثلا : كلما وجد مواطن سلعة ، بدلا من أن يشتري حاجته منها ليوم أولأسبوع كان يشتري حاجته لسنة ؛ لأنه في داخله يعتقد أنه لن يجدها مرة أخرى . وهو يتنافس فيها مع آخرين ويرفع سعرها . ويستغل ذلك تجار السوق السوداء . نحن سنطرح السلع الأساسية ـ حتى شبه الأساسية والرأسمالية وشبه الرأسمالية ـ بالدرجة الكافية التي تحدث زيادة في عرضها على طلبها ... وبالدرجة التي تطمئن أي مستهلك لها ، أنه كلما أرادها وجدها ، فهو ليس مضطرا لتخزينها . وبذلك فنحن لدينا دراسة عن السلع المطلوبة والناقصة وغير الموجودة ؛ ونحن نعرف مقدارها نقدا بالتقريب . ونحن باتصالاتنا ، نستطيع إن نؤكد إننا قادرون على تأمين المبالغ اللازمة لشراء كل السلع التي تعيد التوازن السلعي في السودان . . أي التوازن بين السلع والأسعار أوالعرض والطلب . بل وزيادة العرض على الطلب في المرحلة الأولى والمبلغ الذي يؤمن هذا والذي قد يفوق البليون دولار ، أنا أوكد لك إننا سنؤمنه .

ونحن سنجعل كل رخص الاستيراد مفتوحة . . أي إلغاء الرخص ، بحيث لا تحدث تجارة رخص . . . نسجل الاستيراد فقط في المرحلة الأولى ، ونجعله مفتوحا . وفي نفس الوقت ، نحن لن نحارب التجار بإدخال السع في البطاقات ، وبالمحاكم المدنية ، وبالتسعيرة ، وبتفتيش المخازن ، لأن هذا هو مطلب التجار فعلا . إذا ما

أدخلت السلع في التسعيرة ، اختفت وزاد سعرها . . وزاد ربح التاجر منها . نحن سنعالج المشكلة . وأنا لا أقصد أن نحارب التجار . فنحن نطلب التعاون معهم ولكن السياسة التي سنطبقها هي : أن نجعل السلع تفيض على السوق ؛ بالدرجة التي تجعل المواطن يجدها في كل محل وفي كل إقليم . . وفي كل عاصمة ؛ وبحيث لا يستطيع التاجر أن يستغل انفراده بها . . كما يحدث الآن . وفي ذات الوقت بدون أن نحرم التجار من الاستيراد ، ستستورد الحكومة جميع أنواع السلع كاحتياطي واقي يكون موجودا لديها تطرحه في السوق إذا ما شعرت بأن التجار يريدون الاستغلال ورفع الأسعار . وعند ذلك لن يصيب التجار إلا الخسارة ماديا . وأنت لا تحارب التاجر بالتسعيرة والبطاقات ـ التي تخلق السوق السوداء ـ لأن هذا مطلبه هنا . . حيث يربح . أنت تحاربه بالخسارة المادية . فإذا كان يخزن سلعا ، واستوردت أنت عشرة أضعاف المطلوب منها ، عند ذلك سيضطر لبيعها خوف الخسارة .

نحن مستعدون أن نجلب للسودان ما هو ناقص من السلع ؛ و بالأحرى . . ما هو مطلوب ؛ لأنه ليس هناك سلع في السودان إطلاقا . وفي مدة لا تتجاوز الأسابيع بحيث يحدث تشبُّع كامل من كل هذه السلع ؛ و بحيث يزيد العرض على الطلب زيادة كبيرة واضحة ؛ وبحيث يطمئن المواطن فلا يشتري أكثر من حاجته ليخزنها منزليا ؛ وبحيث يخاف التاجر ، فيكتفي بالربح الزهيد . وبعد أن نطمئن إلى أن حلقة التجارة التي انقطعت قد عاودت دورانها مرة أخرى ؛ وأن كل المخازن (سواء مخازن المستوردين أو مخازن تجار الجملة أو تجار القطاعي أو تجار الأقاليم ، أو تجار القرى في الأقاليم ، ومخازن الحكومة نفسها) ، قد تشبعت بالسلع . نعد الاحتياطي الواقي ونعيد ـ بعد ذلك كما قلت لك ـ التوازن بين العرض والطلب . أما في البداية فلابد أن نزيد العرض على الطلب بحيث ندخل الاطمئنان للمستهلكين ، و نوحي بالخوف للتاجر الذي يريد أن يراهن على السوق السوداء ، و نقضي على التخزين المنزلي الذي هو أخطر أنواع التخزين .

سؤالك الطبيعي هو : من أين لكم هذه المبالغ والبلاد مفلسة ؟ وأنا لا أسمي ممن

سنجد العون . ولكن الذي أقوله لك ، إننا مصدر ثقة بالنسبة لاستعمال الأموال العامة لمصلحة الشعب ... وقد كنا كذلك . ونحن نعرف الآن مصادر النقد السائل و محلات وجوده . . كما نعرف مصادر إنتاج السلع وتصديرها وأسعارها الحقيقية ونحن أثناء عملنا للمعارضة ، لا نعمل إعلاميا وتدريبيا فقط ، وإنما دراسة أيضا وتلمسا لحل المشاكل الموجودة الآن ، واتصالات بهذا الخصوص . والذي أريد أن أؤكده لك، أننا نعرف بالضبط درجة النقص في السلع ، ونعرف بالضبط قيمتها ونعرف من أين تأتي وبسرعة ، ونحن نستطيع أن نؤكد أن لدينا تأكيدا ممن لا يمكن أن يرتفع الشك إليهم . . بأن ما هو مطلوب ـ لكي يعيش الشعب السوداني معيشة إنسانية ـ متاح إذا ما كانت هنالك في السودان، سلطة مسؤولة ومستقرة ومطلوبة شعبيا . هذه هي المرحلة الأولي •

في المرحلة الثانية :

الاستمرار في استراتيجية التنمية ؛ والاستمرار في تأمين سلامة الاقتصاد السوداني • نحن سندرس كل مسائل التمويل والادخار والاستثمار (الخاص والعام والأجنبي) ومتطلبات مشاريع التنمية عندنا : الإنتاجية والبنية التحتية ؛ المخطط لها أوالمقترحة الآن • وسنصلح أي مشروع تطرقت إليه عناصر الفساد والخلل • وسنوقف أي مشروع خلق من أجل الرشوة فقط . . ولا إنتاجية ولا ربحية له ؛ والفاشل من حيث الجدوى الاقتصادية • وسوف نرشد التنمية ، ولكننا لن نوقفها ؛ بالأحرى سنزيدها • ونحن أيضاً متأكدون من أن الأموال التي تصرف على تنمية نزيهة لمصلحة الشعب السوداني ... ستكون موجودة •

في المرحلة الثالثة :

أعادة التوازن الاقتصادي في الموازين الأخرى . . غير الميزان السلعي أعلاه : . . وتوجب علينا ـ نحن السودانيين ـ أن نشترك في معالجة اقتصادنا المنهار . . لا أن نعتمد على الخارج فقط ؛ لأنك تعرف أن المعونات والهبات التي تأتي من الخارج ، إنما تأتي من وفورات الشعوب الأخرى ؛ لأن الشعوب الأخرى نفسها ، يمكن أن تنفق وفوراتها

في زيادة دخول أفرادها ، أو زيادة الأجور فيها ، أو زيادة الرفاهية ، وأنت ترى الآن المعارك التي تدور حول زيادة الأجور في العالم ، ولكي تنخفض معدلات التضخم . نفس الدول التي تدور فيها هذه المعارك ، هي التي يقصدها السودان لكي تعطيه وهو يصرف أمواله سفها .

في هذه المرحلة نحن سنعيد التوازن الاقتصادي في الموازين الداخلية والخارجية للسودان ؛ بمعنى أننا نعيد التوازن في الميزان الداخلي (الميزانية) . . بين الصرف والدخل ؛ ونعيد التوازن في (سعر الجنيه السوداني) . . على مستوى سعر العملة الأجنبية ؛ وفي الميزان الخارجي (ميزان المدفوعات) . . بين التصدير والاستيراد . ولن نعيد هذا التوازن بالقسر إطلاقا . ولن نحرم أي طبقة من أي مميزات لديها الآن .

لن نطلب "شد الأحزمة على البطون" -وهو التعبير الشائع في السودان- لأنه في بلادنا لم تعد هناك بطون .. وبالتالي فلن تكون هناك أحزمة . ولكن هنالك في بلادنا صرف تفاخري . . أغلبه على الأمن ، وعلى استخبارات الجيش - ولا أقول على الجيش نفسه - وعلى الاحتفالات ، وعلى الرشاوي ، وعلى تنظيم سياسي فاسد مثل الاتحاد الاشتراكي ؛ كلها مصروفات طفيلية وقشورية ؛ سوف نشطبها بجرة قلم .

وأيضاً ، نحن نستطيع أن نجعل أسعار السلع تنخفض بنسبة ٣٠٠ بالمئة ؛ وقد يدهشك ذلك . . فالسودان الآن يستورد بما يسميه النميري "السعر المتوازي" . والسعر المتوازي هو سعر السوق السوداء للعملة الأجنبية . . أي أن الدولار يساوي جنيهاً . . والجنيه الاسترليني يساوي جنيهين وربع الجنيه . وإذا نظرت إلى ذلك تجد أنه يزيد الأسعار ١٠٠ بالمئة . وهذا ينعكس أيضاً زيادة في التكلفة ، والشحن البحري والتأمين ، وأرباح التجار ، والسوق السوداء . نحن سنؤمن العملة التي نستورد بها بالسعر الرسمي للعملة السودانية . . أي بنصف السعر الذي تشترى به السلع الآن ونطرحها في السوق بهذا السعر .

أما الآن ، فالتاجر السوداني يشتري بالسعر المتوازي . . كما تسميه الحكومة ، أو بسعر السوق السوداء كما نسميه نحن ؛ أي عليه هو أن يوجد العملة الأجنبية . وهذه

أول حكومة في العالم تتنكر لمسؤوليتها في إحضار النقد الأجنبي لاستجلاب السلع الضرورية لبلادها . فالتاجر يذهب ويشتري النقد الأجنبي مقابل الجنيه السوداني وقيمة الجنيه السوداني في الحضيض . والحكومة تسمح له بذلك . وبذلك يضيف كل فروقات أسعار النقد الأجنبي المشترى من السوق السوداء إلى السلع . فيصبح التضخم لدينا - زيادة على قلة السلع والسوق السوداء - أكثر من التضخم المستورد من العالم .

إن مستوى التضخم في العالم مثلاً هو : ، نحن يكون لدينا وأكثر . نحن سنبطل هذا النظام . وستكون لدينا العملة الأجنبية اللازمة لاستيراد السلع ، بالسعر الرسمي للجنيه السوداني . ذلك يرفع من قيمة الجنيه السوداني ؛ ويترك المستورد السوداني أن يجد عملة أجنبية - عبر حكومته المسؤولة - من أجل شراء حاجاته . . سواء استهلاكية أو رأسمالية .

وهذا يدعو إلى تخفيض الأسعار عندنا - في اللحظة الأولى - وبمقادير خيالية . . لأن زيادة الأسعار الآن ، ناتجة عن الزيادة في العملة ؛ وليست ناتجة عن الزيادة في سعر السلع نفسها ؛ لأنك تذهب مثلاً في جدة ، وتبيع الجنيه السوداني ب ريالات ثم تشتري الجنيه الاسترليني ب ريالات ؛ فكأنك اشتريت السلعة ب من قيمتها . أما إذا كان لديك جنيهات استرلينية ، فإنك تشتريها بقيمتها ، وبما فيها من تضخم . . قد يكون فالتضخم الآن هو تضخم انعدام الرصيد الأجنبي الكافي للاستهلاك . وبالتالي فالحكومة تعطي رخصة لمن يحضر نقداً أجنبياً . والتاجر يشتري هذا النقد بتهريب الجنيه السوداني ، أو المحصول السوداني ، وبيعه في الخارج . ثم إحضار السلع من الخارج . وهذا يضيف إلى سعرها . وهذا يفسر لك كيف أن قلة تحكر السلع فتخلق السوق السوداء . وكيف ترتفع أسعار السلع عندنا أكثر من بقية أنحاء العالم .

وأريد أن أسالك وأنت من لبنان ، وفي لبنان حرب ... ليس في السودان عشرة بالمئة منها ، بل وسلسلة حروب متصلة . . وأنت تعلم أنه في لبنان ، السلع أرخص منها في السودان ، وأكثر توفراً منها في السودان . وأنت تعلم أننا - قبل الآن - كنا نزود

أثيوبيا وأوغندا وأفريقيا الوسطي والتشاد . . بالسلع . والآن ، فبعض هذه البلدان ـ مثل التشاد ـ في حرب أهلية طاحنة . ومع هذا ، فهي التي تزودنا بالسلع .

حلنا للمشكلة الاقتصادية ذو ثلاث شعب : المشكلة العاجلة هي زيادة عرض السلع على طلبها ؛ ثم التوازن بين العرض والطلب ؛ ثم التوازن بين السلع والمال . . من نقد محلي وعملات أجنبية . ليس هناك الآن توازن بين السلع والمال ، السلعة ثابتة وغالية ، والمال قيمته منخفضة . . لأن كميات كبيرة من المال المطبوع ـ الذي ليس له رصيد ـ تجري وراء سلع قليلة . وهنا ترتفع الأسعار قطعاً .

أهذا يعني إعادة الثقة الداخلية والخارجيه بالجنيه السوداني ؟

إعادة الثقة الداخلية والخارجية بالجنيه السوداني ، لا تحدث إلا بتغيير السلطة الحالية . والسلطة التي تأتي ، واجباتها هي التي قلتها لك . ولا يمكن أن تتم تنمية في السودان إلا إذا تم هذا ، لأن أي تنمية تتم في السودان الآن ستكون نسبة التضخم فيها ٤٠٠ بالمئة ؛ لأنه حتى المواد الداخلية ترتفع أسعارها ، لأن مكوناتها من الخارج . حتى العامل السوداني يرتفع أجره ، لأنه يعيش من هذه السلع الغالية . فأنت عليك ـ أولاً ـ أن تزيل هذا التضخم المصطنع ، الذي هو تضخم عملة ؛ بأيجاد الثقة لدى المستهلك السوداني ، وبأيجاد التعاون مع التاجر الذي سيشعر أنه سيخسر كل رأسماله ، وبانعدام السوق السوداء .

ثم ـ بعد ذلك ـ عليك أن تدرس مشاريع التنمية واحدا واحدا ، ودراستنا لها قد انتهت . فتعيد إدارة وتسيير وتنظيم ما هو مفيد منها ، وتلغي ما هو غير مفيد . وتذهب في التنمية ، لأن التنمية لا تتوقف ، وثالثا ، عليك إن تعيد الاقتصاد السوداني نفسه إلى التوازن . . توازن داخلي بين الصرف والدخل ، وتوازن خارجي بين التصدير ـ الذي يأتي بالعملة الأجنبية ـ وبين الاستيراد الذي يتطلب العملة الأجنبية كل هذا دون أن تضغط على جماهير الشعب ، لأنه لم يبق لديها ما يضغط عليها به . هي الآن في حالة جوع ، فلا يمكن لك أن تطلب منها شيئا . ونحن درسنا هذه المشكلة وأعددنا نفسنا لها ، وأنا أؤكد لك أن كل ما هو مطلوب منها موجود فعلا .

الفرق هو ذهاب هذا النظام . لكنه بوجود هذا النظام لا يمكن أن تحدث سياسة مثل هذه .

فحوى كلامكم أن الدعم الاقتصادي الخارجي للسودان، سيتوقف على وجود نظام حائز للثقة الدولية؛ لكن البرنامج يثير تعليقا لابد منه . . بصفتكم وزير مالية سابق، فأنتم تعلمون أن مثل هذا الطرح سوف يصطدم مع برنامج صندوق النقد الدولي ، سواء الموضوعة للسودان أو للدول التي تعيش حالات مشابهة . . وذلك بالنسبة لنقطتين : تخفيض قيمة العملة؛ والحد من توفير السلع للمواطنين . . في السودان كما في مصر . .

أولا ، أنا لم أقل أن النظام يحوز على ثقة الدول؛ وإنما قلت إن النظام يجب أن يحوز على ثقة السودان . والمفروض إنه إذا حاز ثقة السودانيين ، فسيحوز على ثقة الدول . وثانيا ، أنا أعرف كل مشاورات صندوق النقد الدولي ، التي اشتركت فيها قرابة خمس سنوات . صندوق النقد الدولي يدعو لتخفيض قيمة الجنيه السوداني وليس في هذا ما ينفعنا إطلاقا . ولقد خفض السودان قيمة الجنيه ثلاث مرات من غير إعلان . وهو في طريقه للتخفيض مرة رابعة . أنت تخفض الجنيه السوداني إذا ما شعرت أن سلعك الزراعية ـ المنتجة لديك ـ تجد تنافسا من دول أخرى تنتج نفس السلع؛ فتخفض سعر الصرف عندك لكي تبيع أكثر . والعكس حاصل عندنا الآن السلعة التي ننتجها أسعارها مرتفعة جدا في العالم ، ولولا الأداء السيء للنميري في الـ ١٠ سنوات الماضية ، لكنا الآن نساوي دول النفط أرصدة .

سلعنا . . مثل القطن والفول والسمسم والصمغ ، ارتفعت أسعارها سبعة أضعاف عما كانت عليه عام ١٩٦٩ . ولما انخفض انتاجها إلى الرشوة لم نستفد منها شيئا . وبالتالي ، حتى لو خفضنا سعر الجنيه فهذا لا يفيد . نحن نخفض الجنيه إذا كانت سلعنا في السوق متنافسة مع سلع دول أخرى أرخص منها . وإذا خفضت نيجيريا مثلا عملتها، ربما نخفض . . أو إذا خفضت غانا، أو دولة تنتج القطن . . نخفض وهذا ليس حادثا .

ونحن نستطيع أن نقنع صندوق النقد بذلك . صندوق النقد في السودان يضغط دائما باتجاه إن هنالك صرفا تفاخريا أكثر من الدخل ، وإنه ليس هناك دخل . وهو يعلم إنه لو طلب تخفيض الصرف ، فهذا غير ممكن . لأن الصرف ياتي من فم واحد وبلا دراسة . ولا وجود لوزارة مالية لكي تحجب الصرف . وبالتالي ، فأي ترشيد للصرف التفاخري لن يكون مرفوضا لدى صندوق النقد الدولي .

ثم إننا في حالة طوارئ ، ولا يعني هذا إننا نوافق على كل الذي يقوله صندوق النقد ، أوعلى كل الذي تقوله بعثته التي تحضر إلى السودان. نحن نستطيع أن نختلف مع هذه البعثة وأن نذهب إلى صندوق النقد رأسا ، ومهمته هي التوازن الدولي ونقنعه بهذه القضية . لأنها قضية واضحة اقتصاديا . وأنا لا أعرف كيف وافق صندوق النقد على الاستيراد بدون عملة . وكيف سيوافق الآن على الاستيراد بالسعر الموازي وهو عدم الاستقرار . إن صندوق النقد الدولي مستشار ، ونحن نعرف سياسته . ونحن متأكدون أننا إذا شرحنا سياستنا والمصادر التي سنأتي منها بتمويل السياسة المتفق عليها ، وتكون هذه السياسة حكيمة اقتصاديا ، فإن صندوق النقد سيوافق عليها بل ويساعد في تحقيقها .

أنا أقول إن برنامجنا الاقتصادي سيكون مقنعا للذين يملكون المال السائل ، وللذين طالما ساعدوا السودان وذهبت أموالهم هدرا . إنهم يرون أنفسهم يدفعون ، ويرون السودانيين يجوعون ويهجرون بلادهم . لكننا لن نضع خطة للشحاذة . بل سنضع خطة اقتصادية للانقاذ والتنمية في بلد موارده التنموية لا حدود لها . وسنقنع بها الذين يملكون النقد السائل ، بل قد أقول لك أننا أقنعنا بها أكثرهم الآن . وسنقنع بها الرأي العام الاقتصادي في العالم، والمؤسسات الدولية ، بشرح الحالة الراهنة . . . لأن هذه البعثات عندما تذهب للسودان تعطي أرقاما خيالية ، أوتحجب عنها الوقائع فتذهب ل ٧ أو٨ أيام ، و تحضر بأرقام غير صحيحة وباستقراءات غير صحيحة .

نحن سنشرح الموقف وسنشرح خطتنا، وهي الخطة الوحيدة للعلاج . ونحن واثقون أن دوائر المال في العالم والمؤسسات الاقتصادية ، والدول التي تملك المقدرة

على مساعدتنا سوف تقتنع بها . وإلا فما مصلحتها في سودان مفلس لا تستطيع استرداد ديونها منه ؟ ويخل هو نفسه بالتوازن الدولي ويزيد الأزمة الاقتصادية العالمية، ولا تكون منه فائدة ، كان سيكون "سلة خبز" في وقت انتشرت المجاعات أومحلا لزيادة الرقعة الزراعية في وقت انخفضت فيه في العالم . ما الفائدة إذا استمر السودان على هذا النحو ؟ أنا واثق أنه حتى التجار السودانيين سيتعاونون كلهم ويكتفون بالربح البسيط فقط ، ويغيرون من أساليبهم كلهم لمحاولة إنقاذ بلادهم . . . لأنه ما هي مصلحتهم في مستهلك سوداني ليس لديه ما يشتري به ، أويجد سلعة ليس له طاقة على مشتراها؟

إن مصلحة متوسطي الحال وصغار التجار ـ الذين نمثلهم ـ هي أن يكون هناك رواج اقتصادي ، وزيادة في البيع ، وقلة في الربح . . بحيث أن زيادة البيع تحل محل زيادة السعر . أما في بلد كلها سوق سوداء لن يستفيد منها إلا ـ كما هو حاصل الآن ـ أصحاب ١٠ أو ١٥ أضعاف السعر . أما في بلد بها السلع متوفرة وبها مستهلك أومزارع يأخذ فوائد إنتاجه لنفسه ، وتزداد إنتاجيته بزيادة مقومات الإنتاج من الحكومة ، وبالقيام بواجباتها بإحضار كل مقومات الإنتاج ، وإعطاء المزارع حقوقه في الإنتاج بسعرها الأصلي العالمي ، فذلك يزيد قوته الشرائية . ويقابل ذلك طرح السلع ، فسيحدث الرواج الاقتصادي . وبذلك . . حتى التجار سيتعاونون ؛ لأنهم وطنيون في المقام الأول ؛ والمزارعون سيتعاونون لأن روحهم المعنوية سترتفع ؛ ويجدون أسعار سلعهم (وأسعارها في العالم عالية) . وما يجدونه منها في السودان لايساوي ١٠ بالمئة ؛ نتيجة لأن الحكومة ليست لديها مقومات للإنتاج ؛ لا آلات ولا مخصبات ولا مبيدات حشرية ولا إدارة . . ولا أداء . ولها تسويق مرتش مع السماسرة . فيعود كل ذلك بفقر على المزارع ، فيترك الحقل الزراعي ، ويهاجر لكي يعمل في الخارج .

وتتوقعون أن دعوة الانتعاش الاقتصادي، قد تعيد الكوادر واليد العاملة التي تهاجر منذ فترة ؟

في سنة ١٩٦٨م - وكنت في وفد يطوف الدول العربية - كانت كل دولة عربية أصل إليـهـا ، تطلب مني مئـات من المدرسين والمهندسين والأطبـاء والمهنيين والفنيين السودانيين. وكانت حاجة بلادي تدفعني لكي لا أعطي إلا العشرات . أما الآن فكل هؤلاء - من أعلى المستويات وحتى العامل الزراعي - قد هجروا السودان وذهبوا للخارج . ونحن في أشد السرور أن يشترك إخواننا في التنمية في البلاد العربية ولكن إخواننا يعلمون أن التنمية في بلادنا أيضا ، ستفيد المنطقة العربية نفسها .

وأنا واثق . . إنه بعودة الاستقرار : السياسي والاقتصادي والمعيشي ، ومع توافر السلع ورخص الحياة في السودان ، فسيعود العدد الكبير من هؤلاء ، والكافي لإنعاش التنمية في السودان؛ ولإحداث الاستقرار الاقتصادي ؛ والكفاءآت التي تستطيع أن تعدّل السياسات الفاسدة والجاهلة الموجودة الآن . هذا العدد سيعود . . وسيبقى في البلدان العربية عدد آخر يكفي لمشاريع التنمية فيها ، ويساعد أيضا بدخوله الخارجية على إنعاش الاقتصاد السوداني .

هذا عن البديل الاقتصادي . . وماذا عن البديل السياسي؟ وما هو البديل الإيجابي؟ وهل الانتقام من النظام الحالي ورجاله . . ضمن برنامجكم؟

تكلم الناس قبل ذلك كثيرا عن البديل . . وكنت دائما أعتقد أن الذي يتكلم عن بديل لحكم نميري ، هو إما مستفيد من الحكم - وهؤلاء قِلَّة - وإما رجل خائف أن يتخذ موقفا إيجابيا ضد النميري ؛ لأنه من الواضح لكل سوداني ، أن النميري لايحتاج لأي بديل ! وأنك تستطيع أن تلتقط أي سوداني من الشارع ، أو تقف أمام أي جامع وتلتقط أي مسلم خارج منه ، ويكون بديلا أحسن من نميري!

لقد جُرِّب نميري ١٢ سنة ، فلم يحسن أمرا ما ، بل أساء إلى كل الأمور ، وبذلك أصبح الكلام - عن بديل له - نفسُه مجرد معاذير للذين يقفون على السياج ، في معركة هم يعرفون أنها معركة أساسية لبلادهم ؛ ولذلك يتهربون بالسؤال عن البديل ... مع ذلك أنا أقول لك إن البديل ليس شخصا . نحن قد ابتُلينا بحكم الأشخاص وبحكم الفرد ، وكل ما نعانيه الآن ، هو من حكم الفرد . . والذي يسأل عن البديل كفرد هو

رجل رضي الاستعباد لفرد ، ويريد من فرد آخر أن يوالي استعباده .

إن البديل أخي . . " سياسة " وليس " سياسي " . البديل هو سياسة شعبية جماعية لإنقاذ البلد ؛ وليس رجلا واحدا يشار إليه بالأصبع ؛ أو يسمى بالاسم . إن جماهير الشعب السوداني كلها معارضة لهذا النظام ؛ ولذلك فالبديل هو : حكم قومي ، يشترك فيه الجميع لأجل انقاذ البلاد ؛ لا أقول بالاشتراك الوظيفي ، بل يكون الاجماع على تأييده لمساعدته على إنقاذ البلاد .

وسياسة هذا البديل في الداخل هي الحرية والديموقراطية ؛ مع الحذر الشديد لكي لا تتخذ الحرية والديموقراطية ، سببا للتسيب الذي يأتي بالانقلابات . والبديل ياسيدي ، هو إطلاق الحريات الديموقراطية ، مع القضاء المستقل في تكوينه وفي مرتباته ، وداخل محكمته وخارجها ، لكي يكون سُلطة مستقلة محايدة ، بين الحكم التنفيذي . . والجمهور . والبديل الرابع هو صحافة . . ليست صحافة تسيرها الدولة فقط ، ولا يسيِّرها أفراد يستطيعون أن ينتهجوا أي منهج ؛ وإنما تستطيع أن تسيِّرها جماعات أو شركات مساهمة ، أو مجموعات من الناس بحيث تساعد في الإنقاذ .

وطبعا الحرية والديموقراطية تعني تعدد الأحزاب ؛ ولكن لا يعني ذلك عودة الأحزاب ، بأشكالها وأوضاعها القديمة . بل يجب أن يعمل حساب دقيق لتصرفات رجال السياسة أثناء الـ١٢ سنة من حكم النظام القائم . ويجب أن تأتي أحزاب مطهرة ومحدثة ومقننة ، ذات برامج ومبادئ مفهومة . ويترك للشعب السوداني الحكم لها أو عليها .

وفي السياسة الاقتصادية سبق أن شرحت لك برنامجنا . أما في السياسة الداخلية فيجب أن يعاد للحكم أداؤه وإدارته ، ويجب أن يعاد له احترامه ؛ ويجب أن يزال ما هو معروف عنه الآن . . وهو : أن كل رجل ـ موظفا كان في أدنى أو أعلى رتبة ـ مرتشي ؛ وأنه لا يجري عمل إلاّ بالرشوة ؛ يجب أن تعاد للحكم طهارته ونزاهته ويجب أن يعاد له عدله بين الفئات ، وبين الأفراد . . ومساواته للجميع ؛ ووقوفه خصوصا ـ مع الطبقات الكادحة التي ازدادت حالتها سوءا .

والبديل في السياسة العربية . . هو موقفنا العربي المنبثق من مؤتمر الخرطوم وصاحب الرأي الواضح في القضية العربية المركزية في فلسطين ؛ والموقف المحترم داخل الدول العربية ، حيث كنا ننصح فيُستَمع لنصحنا . وكنا نقول الحق بين الجميع وسيكون موقفنا هو وحدة الهدف لاستخلاص أرضنا المستلبة وحقوقنا المهدرة وخصوصا في فلسطين وفي القدس . أما موقفنا من القومية العربية فنحن معها ونحن لا نعتقد أنها ناقضة لوجودنا الأفريقي . فنحن المعبر الحقيقي للامتزاجين . . للامتزاج بين المنطقة العربية والأفريقية ، وللاستفادة المشتركة لكل منطقة من المناطق الأخرى . وقوميتنا العربية قومية اسلامية ولسانية ، وهي ليست قومية عرقية ، ولا قومية دينية ولا قومية عدوانية . بل هي قومية مسالمة أساسها القبول ، وأساسها الاحترام وأساسها الامتزاج مع القوميات الأخرى . . لصنع عالم حر .

أما ما قلته عن الانتقام ، فنحن لا ننتقم إطلاقا ، ولا نقول " عفا الله عما سلف " لأننا قلنا ذلك بعد ثورة أكتوبر ، وعادت علينا بمايو . نحن نقول : " ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب " ؛ و" حياة يا أولي الألباب " تفسيرها . . إن مستقبلكم مربوط بإن تؤدوا القصاص العادل لتصححوا مساركم .

إن هناك ظاهرة واضحة في حكم نميري ؛ وهي أنه كان هناك ـ في البداية ـ من اقتنع بأن هناك تغييرا حقيقيا . . فأيده ؛ ثم ثبت له بعد ذلك أن ليس هناك تغيير فابتعد وأن هناك من تمنَّع في تأييده ، فعذِّب وقُتل ؛ أوهو الآن سجين يخاف مصيره . وهناك من ابتعد عن هذا النظام حتى في الشهور الأخيرة من هذه السنة ؛ وبذلك فإن موقف الجماهير السودانية منه ، قد اتُّخذ على فترات . وقد يكون أصدق أصدقاء نميري قبل عام . . أعدى أعدائه اليوم .

نحن لا يمكن أن نأخذ بالانتقام العفوي الجزافي . ولا يمكن أن نتخذ سياسات نميري ضد المعارضة ؛ ضد الذين يقفون إلى الآن ضدنا . لكننا سنأخذ بالتقصي . . والقصاص تأخذه يد القانون ويد الحكومة ؛ ويد العدالة ويد القضاء المستقل ؛ وتُحترم فيه بشرية المتهم وإنسانيته ، وليس مثلما كان يفعل نميري فيعذب . نحترم كلمة

القضاء المستقل وننفذها ، ونحن لن نلجأ - حتى للمصادرة أو التأميم - للذين نعلم أنهم استفادوا من هذا النظام . بل سنلجأ إلى أسلوب الحراسات ، حتى نصفّي الحقيقة من غير الحقيقة . . ونعلم؛ فنُرجع ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله . ومع ذلك فسيكون ذلك بكل الاحترام لإنسانية الفرد . . لأننا ظللنا ١٢ سنة مطرودين ومسجونين ومقتولين ومعذبين ، وبلاهويات وطنية . وجربنا هذا في أنفسنا ، فلا يمكن أن نجريه ضد الآخرين . لا يمكن أن يكون بديلنا هو معاملة النميري لنا، ولا يمكن أن نغفر - في سبيل البلد - جرائم كبيرة ؛ وبالتالي تأكد أننا لن ننتقم ، ولن نترك سبيلا لأحد لكي ينتقم . . إطلاقا . بل سيكون شعارنا التقصي والقصاص القانوني العادل ، تأخذه يد الدولة ، ويحكم فيه القضاء المستقل النزيه .

سؤال سياسي مباشر : ماصحة ما قيل عن أن الرئيس نميري مريض ، وعن اتصالات جرت مع سياسيين لتشكيل مايشبه "مجلس وصاية" أو "وريث"؟ وهل شملتكم الاتصالات؟

أولا ، أنا أتمنى للرئيس نميري شخصيا الشفاء إذا كان مريضا ، فليس في خصومتنا السياسية شماتة في المرض ؛ ونحن في نضالنا السياسي لا نعلق أية أهداف على مرضه ، سواء كان خطيرا أو بسيطا . فلا شماتة في المرض . وبالتالي ، لا تغيير في أهدافنا ، لمرضه أو لصحته ؛ وهو كفرد مريض ، نتمنى له - كما نتمنى لكل فرد مريض - أن يشفى . أما ماجاء عن أنه يريد توريث النظام لبعض الناس ، فهذا صحيح . وأنا أعتقد أن نميري لو كان له ابن لورثه . . وهو طفل . وحتى لو استطاع أن يخرج ابنا من قنينة . . لورثّه . ولو استطاع أن يورِّث من يهواه - مثلما استوزر من يهواه - لورثّه . . وهذا حدث ؛ فالحديث عن أنه يريد أن يورث ، والحديث عن أنه يريد أن يجعل وصاية . . حديث وارد . ولكن نحن لسنا من الذين يطيق النميري أن يورثّهم لأنه لن تكون هناك استمرارية لسياسته إطلاقا . . إذا ورثّنا . وهو يعلم ذلك . . ولا أعتقد أننا من الذين يريد أن يجعلهم أوصياء على تركة . . مثقلة مثل هذه ومذمومة .

فالاتصالات التي تمت بأطراف منا ، هم في واقع الأمر أطراف دائمو التذبذب إذا ما شعروا أن النظام قد ضعف ، هرعوا إلى حزبيتهم القديمة ، وحضروا إلينا مسرعين ومطيعين الداعي . وإذا شعروا أن الحكومة بقيت أقوى ذهبوا ، حيث لا نراهم مدة

طويلة . بمثل هؤلاء حدثت الاتصالات . وربما اتصل هؤلاء ببعض الزملاء ممن يطيق الاستماع إليهم . أما أنا . . فأعلمهم بأسمائهم وبتصرفاتهم وبتاريخهم النضالي - تاريخ نضال الحزب والمعارضة في هذه الفترة وطوال هذه السنين . فلم يجرؤ أحد منهم في التحدث إليَّ .

والذي أريد أن أقوله لك هو . . أني صرحت مرارا وتكرارا [illegible] مبدأ المصالحة . ولكن . . لا نميري ولا وريثه ولا أوصياؤه يريدون مصالحة سياسية . هم يريدون مصالحة مبنية على المناصب . فيحضر أحد من المهترئين هؤلاء ، ويقول لأحد زمـلائنا : "سنعطيكم ٧ وزارات" ! ونحن لا يمكن أن نكون من العبط ، ولا من الخيانة ، بأن نشترك في حكم ظهرت جميع سوءاته ، واستمر ١٢ سنة يقهر الشعب ويفقره .

نحن من انصار المصالحة السياسية ؛ ولسنا من انصار مصالحة المناصب والاشتراك في حكم فاسد ، فنكون قد اشتركنا في كل مساوئه منذ أن بدأ ؛ وفي مساوئه الحالية وفي مساوئه المقبلة . نحن من انصار المصالحة لكي تزال فيها التركيبة الحالية للنظام : حزبه الوحيد . . تنظيمه السياسي ، أداؤه المنحط ، اقتصاده الفاشل ، رشوته ، سوء إدارته ، انعدام أخلاقياته ، إنحطاط أخلاقيات شعبنا معه . كل المصائب التي حدثت لشعبنا ، ليست بسبب إدخال وزراء وإخراج وزراء . . وإنما من أجل التركيبة .

نحن نريد حكما ديموقراطيا صحيحا يحدد السلطات والصلاحيات . ويكون حكم الشورى فيه هو الركيزة الأولى . نحن ندعو للديموقراطية الكاملة في بلادنا وليس في بلادنا فقط [illegible] المنطقة العربية والأفريقية . . لأننا نقول إنه إذا لم [illegible] وأمنه داخل منزله ، فهو لا يقاتل من أجل [illegible]
مصالحات . . هو حديث [illegible]
أن يجرؤ على مخاطبتنا [illegible]
[illegible]

لقوم مهترئين يخشون على مصالحهم ، ويتجاذبون أطراف الحديث ؛ نحن لسنا طرفا فيها . نحن طرف وحيد في تغيير تركيب الحكم الحالي ؛ بحكم آخر ديموقراطي من أخمص قدميه إلي آخر شعرة في رأسه . ونحن أصحاب دعوة الديموقراطية ليس في السودان ، بل وسيادتها في كل المنطقة العربية .

البحث عن الوضع في السودان، يدفعنا إلى البحث عن الوضع في البلدان المجاورة، خاصة في التشاد وأثيوبيا . . كيف ترون تطور الوضع في هذين البلدين ؟

في التشاد حرب أهلية تأكل الأخضر واليابس . ولكي تعلم نظرة العالم المتحضر إلى البلدان المتخلفة ، فأنت لاترى أى حديث عن التشاد . إذا حدث (واحد على مليون) من هذا في بلد أوروبي ، أوحتى في أمريكا اللاتينية ، لقام العالم ولم يقعد !

وفي التشاد يُقتل الناس بالمئات ، ويُشرَّدون بالملايين ، ولاتجد سوى التعتيم الكامل .

السلطة في التشاد شرعية ، وضعها مؤتمرلاغوس برئاسة الرئيس جوكوني عويدي وهو مواطن مسالم ومقاتل ضد الاستعمار ، جريء ومقدام . والذي تمرد عليه هو وزير دفاعه حسين حبري . ودول كثيرة في العالم العربي والأفريقي ـ للاسف الشديد ـ تساعد وزير الدفاع المتمرد ، ولكن الرئيس جكوني (مع أن الذين يساعدونه قلة لاتكمِّل أصابع اليد الواحدة) استطاع بجسارته وجسارة من يقف معه ، أن يقف ضد كل هذه القوات . فنحن معه . أما النميري ، فهو مع حسين حبري ؛ والسادات مع حسين حبري .

وفي أثيوبيا . . نحن لنا وجود في مناطق جبلية ؛ وفي مناطق غابات ومناطق نهرية ، وفي مناطق لا سلطة لأية حكومة مركزية في السودان ـ أواثيوبيا ـ عليها ، ولا نخاف أساسا من أي تقارب بين إثيوبيا والسودان ، فقد حدث أثناء ال ١٢ سنة هذه ، عشرات المرات ، ولم يؤثرعلينا . ومع هذا فنحن نعتقد . أنه لا الرئيس نميري قادر على أن يصفي الثورة الإريترية في السودان – بوجودها العسكري أو الشعبي ـ ولا الرئيس منغستو يستطيع أن يصفي الثورة في إثيوبيا . هذا إذا كانت محاولاتهما من أجل هذا . أما إذا كانت محاولة من أجل [illegible] فلا أدري [illegible] بين

منغستو الاشتراكي ـ المعروف باشتراكيته . . والرجل صاحب المواقف ضد القواعد في بلدان أخرى ـ ونميري الضالع مع السياسة الأمريكية ، والذي أعطاها أخيرا قاعدة " سواكن " الموجهة أساسا ضد إثيوبيا . لابد أن واحدا من الرجلين يريد أن يخدع الآخر .

ونحن لا يهمنا تحسين العلاقات السياسية بين أي بلدين . . بل يهمنا إذا كان هذا يؤثر على الثورة ووجودها ، وأنا أستطيع أن أقول لك . . إن هذا لا يؤثر عليها ذرة . ولا يهمنا أن يكون الرؤساء هؤلاء أصدقاء . ولا يهمنا عودة أو انقطاع العلاقات السياسية بين نظام وآخر . إننا نعلم علم اليقين – لأننا نعرف الجغرافيا في هذه المناطق ـ أن أي تغيير لا يؤثر علينا . ونحن نتابع تطورات هذا التغيير ـ منذ مدة ـ والذين يسعون له ؛ ونعلم أهداف وأغراض كل جانب منه . ولذلك اتخذنا جانب الحذر منذ مدة طويلة .

وجنوب السودان ، هل يكون ثقلا لصالح النظام أم حليفا لكم؟ ما هي حلولكم أنتم للجنوب؟ وما رأيكم بعرض إعطاء حكم ذاتي للأقاليم الأخرى؟

إن موقف الشعب السوداني من جنوب السودان واضح ، منذ مؤتمر الأحزاب السودانية ؛ ومنذ مؤتمر المائدة المستديرة ولجنة الإثني عشر . ونحن (المعارضة الشعبية السودانية) وجماهير الشعب السوداني في الشمال قاطبة ، كلنا موافقون على الحكم الاقليمي الذاتي في جنوب السودان الذي جاء في اتفاقية أديس أبابا . بل نحن موافقون على تدعيمه، وزيادة إمكاناته المالية ؛ والذي نراه الآن . . أنه مضى على تحقيق الحكم الاقليمي الذاتي ، في جنوب السودان سنين متعددة . . . فلم يحدث مشروع تنمية واحد . بل إن المشروع الذي حاولت الحكومة إقامته في منطقة " منقلا " للسُكر ، قد نهب المسؤولون كل أدواته ، ولم يبق فيه شيء . بل ومشاريع التنمية السابقة مثل : مشروع " أنزاره " للقطن في الجنوب ، ومشروع تعليب الفاكهة في " واو " ، ومشاريع الأرز في " أويل " قد انتهت نهائيا .

وفي جنوب السودان الآن مجاعة ، مثل تلك الموجودة في أوغندا . ولكن يُعتّم

عليها في الصحافة اليومية . وهناك من يموتون من الجوع يوميا . وزاد انعدام السلع الغلاء كثيراً لدرجة أن تساوت أسعار كل السلع . ولك أن تستغرب إذا علمت أن ثمن جوال الذرة ـ وهو سلعة استهلاكية سودانية بسيطة ـ يبلغ ٦٠ جنيه ، وجوال السُكر ١٠٠ جنيه ، وجوال الدقيق ١٠٠ جنيه ، ولم تحدث أي خدمات ، لا طبية ولا تعليمية . وهجر المعلمون كل جنوب السودان . وهاجرمن الجنوب الذين كانوا قد عادوا . . إما إلى مناطق هِجرتهم الأولى أو إلى شمال السودان . وأصبح المقيمون يعانون البطالة والفاقة وافتقاد الخدمات والأمن . وعاد قطاع الطرق والنهب والسلب . وبذلك ، فالحكم الذاتي الاقليمي تحول إلى إفقار يفوق عهد الاستعمار ، وإلى قهر للشعب ؛ وحتى الديموقراطية في نزهة . والنميري الآن يحل المجلس كما أراد ويطرد وزيرا كلما أراد . إذاً ... بند الديموقراطية في اتفاقية أديس أبابا ساقط ؛ والذي يحكم هو نميري عن طريق أبيل ألير .

وتوسيع الحكم الذاتي إلى الأقاليم الأخرى ؟

نحن نعرف إن السودان بلد متسع الأرجاء ، وتستطيع أن تقول إنه قارة أو شبه قارة وبالتالي . . فحكمه مركزيا من الخرطوم أمر مستحيل . وهذا أمر معروف منذ البدء . وكانت تُعدُّ له الخطط المتأنية الواعية ، لكي يستطيع كل إقليم أن يحكم نفسه في إطار السودان الموحد .

ولكن مشروع نميري هذا . . مانع أولا وغير مدروس ؛ وفي المرتبة الثانية . . هو مشروع ليست له إمكانات مالية . فلا تستطيع إقامة حكم ذاتي في الأقاليم دون إمكانات مالية . لقد كانت إعانة سد العجز في عهدنا الديموقراطي . . حوالي ١٢ مليون جنيه . ولكن النميري ، بتقسيمه لسلطات المجالس الإقليمية؟ ، زاد العشرات إلى مئات ، مع زيادة الموظفين والضباط والمجالس والسيارات والتكاليف والوقود . وهكذا ارتفعت الإعانة إلى ١٨٠ مليون جنيه ؛ ومع ذلك فلم تحدث خدمة جديدة في أي مستشفى أومستوصف أومركز طبي ، أومدرسة . ولم يصلح حتى الذي تداعى منها . . وحتى الطلبة لا يطعمون داخلها . . حتى مرتبات المدرسين في الأقاليم لا

تُدفع . وإذا كان لا يستطيع إن يُسيِّر الحكم المحلى الموجود الآن! فكيف يستطيع إن يطوره إلى حكم إقليمي كامل! له مجلس ووزراء وموظفوه ، مع زيادة كبيرة في الصرف اللازم لهم . . ناهيك عن الصرف البذخي والقشوري الذي عادة ما يتبع مثل هذا التغيير المستعجل غير المخطط أو المدروس! إنه يريد إن يتخلص من مشاكل الأقاليم لهدفين ...

الهدف الأول : يقول لهم موِّلوا أنفسكم بأنفسكم . فيزيد على الضرائب العامة ضرائب أخرى ؛ مثلا : الضريبة المفروضة على السُكر تضاعفت في الأقاليم وكذلك على السلع . وبالتالي . . يزيد القهر بلجنة الضرائب المباشرة وغير المباشرة . وهذا ليموِّلوا هذا الحكم هم ، بدون أن تشترك معهم الحكومة المركزية ؛ ولكي يتحول السخط عليه - الحاكم المستبد الأول - إلى هذه الأقاليم وحكامها المغلوبين على أمرهم أوالطامحين الطامعين ... لا فرق .

والهدف الثاني : أنه يريد أن يقدم بضعة وزراء وبضعة نواب إقليميين ، لكي يرضي بعض الوجوه ، والتي تستطيع أن تكسب رضاه بأن تنال وظائف . . مثل الوظائف التي وجدها بعض الجنوبيين . ولكن يكون مصير هؤلاء غير مصير بعض الجنوبيين الذين أغنوا انفسهم وأفقروا إخوانهم . . .

إن عرض نميري فاشل ! فنحن نؤمن بالحكم الإقليمي الذاتي لكل أنحاء السودان ولكن بحكم مدروس تنفذه وجوه شريفة ونظيفة ؛ وتساعده الحكومة المركزية بكل التمويل للتنمية والخدمات الاقتصادية والاجتماعية .

طبعا، لابد من سؤال عن نتائج الانتخابات الأمريكية ، كيف تتوقع أن يؤثر مجيء رولاند ريغان على الوضع العربي والسوداني ؟

لا بد أن الشعارات التي رفعها الرئيس المنتخب رولاند ريغان ، توحي للجميع بأن تغييرا جذريا سيحدث في السياسة الأمريكية ، بدءا بالصراع بين الشرق والغرب واحتمال " الحرب الباردة " وربما الساخنة ، ومن احتمال الصعوبات في محادثات تحديد الأسلحة النووية . . علاوة على موقفه القائل أن هيبة أمريكا سقطت ، ولابد

أن تعاد . لكنني دائما أعتقد أن الشعارات التي تُكسَب بها الانتخابات الليبرالية كثيرا ما تتغير عندما تأتي للتطبيق . خصوصا في دولة مثل الولايات المتحدة . وريغان الذي كان يعرض نفسه كبديل لكارتر ، مظهرا ضعف كارتر وضعف هيبة أمريكا ، وتدهور اقتصادها . . ويعرض البديل ؛ لا بد عندما يرى الأمر من داخل الإدارة . . ويعرف جميع الأسرار ، من إن يُحدِث كثيرا من التغيير في الأفكار والاتجاهات .

إن السياسة الأمريكية تدخلت كثيرا في الشرق الأوسط . وأنا أعتقد أنها سبب من أسباب الانقلابات العسكرية في الشرق الأوسط . وأن إطلاق يد "السي . آي . ايه" وهو أمر أظن أن ريغان سيسعى إليه ـ قد جعل الشرق الأوسط وحكامه ، [illegible] في أيدي شبان من "السي . آي . ايه" ، يقيمون نظاما ويُسقِطون آخر . لقد بدا ذلك بالاعتقاد أن الجيوش كتنظيمات منضبطة ، (وأغلبها مدرب على الطريقة الغربية وأنها كانت أقوى تنظيما من الأحزاب الديموقراطية) بالتالي . . فتمكينها من الحكم سيقوي الاستقرار ، ويسهل سياسات الغرب .

لكن التجربة ـ منذ انقلاب حسني الزعيم ـ أثبتت فشلا ذريعا واضحا للسياسة الأمريكية . وقد ثبت للأمريكان أن حكاما يشبهون الآلهة ـ مثل الامبراطور هيلاسيلاسي وشاه إيران ؛ وسوموزا وبوكاسا ؛ وعيدي أمين وتومبالباي ؛ وكثير من الأمثلة ـ قد سقطوا ولم يتحرك أحد لمساعدتهم . . بل أصبحوا ضحايا التشرد العالمي . وثبت لأميركا . . أن الديكتاتورية العسكرية تفقد الضبط والربط ، وتسودها الرشوة في كثيرمن الأحيان . . . ويسودها الانقسام . ويأكل كل انقلاب أبناءه واحدا بعد الآخر . وثبت أن الشعوب أصبحت تكره مجرد الرداء العسكري الذي يحكمها .

إذا كان ريغان بديلا حقيقيا ـ وإن استعمل العقل والمعلومات ـ فلا بد أن يعلم ذلك ولابد أن يعلم أن كل الذين اعتمدت عليهم أمريكا في الماضي ، وأعطتهم مراهنات عليهم ـ قد سقطوا ولم يجدوا من يندبهم ! وسوف يثبت له . .

أولاً : أن وقوفها مع أنظمة مكروهة فردية . . فاشلة وفاسدة ـ [illegible] ـ لا يحدث استقرارا في البلد . ولا يمكن أن يترك لأمريكا أي هيبة .

لا أحد يكره الشعوب ؛ ونحن لا نكره الشعب الأمريكي . ولكننا نكره السياسة الأمريكية . وإذا أراد ريغان أن يغيِّر " الوجه البغيض " للأمريكي (وهذا عنوان كتاب نُشر أخيرا) فعليه إن يغيِّر سياسته . . حتى التي أعلنها مرارا . عليه أن يعتمد على الرأي العام للشعوب، ويحترمه . وعليه ألاّ يحارب من أجلهم . وعليه أن يتفهم تقدم الرأي العام ، ويجس نبضه . وبذلك يستطيع – مثلما كسب الانتخابات في أمريكا ـ أن يكسب لأمريكا نفسها ، احتراما وهيبة تفتقدهما الآن تماما . . لدى الشعوب .

بالتالي . . فتأييده لرجل مثل نميري (معزول ومكروه من شعبه ، وفاشل في سياسته الاقتصادية ، وفاسد في إدارته ، ومعدوم الأداء ، ونتائج كل حكمه واضحة) لاتُعتَبر إلاّ معاداة صريحة للشعب السوداني . . سوف لن يجني منها أي خير، لاهو ولا أمريكا . وهذا ينطبق على عدة أماكن .

ثانيا : عليه أن يعرف أن كامب ديفيد انتهت ، بانتهاء مهندسها وصانعها كارتر . . وعليه أن يعلم أن هناك قضية فلسطينية حقيقية ، وأنه لا يمكن أن يقبل إنسان أن يظل لاجئا . . كما لن يقبل المسلمون والمسيحيون بسيطرة اليهود على القدس! وعليه أن ينظر إلى قضية الشرق الأوسط نظرة موضوعية ، خصوصا أنه الرئيس الأول ـ منذ أيزنهاور وروزفلت ـ الذي لم تساعده أصوات اليهود إطلاقا في الانتخابات . بل إن أعضاء مجلس الشيوخ الذين كانوا يسايرون الصهيونية ، سقطوا واحدا تلو الآخر وإنه فاز بأغلبية تمكنه من سياسة عادلة إزاء قضية الديموقراطية لدى الشعوب . . ونحو قضية فلسطين .

إذا صنع ذلك ، ربما استطاع أن يستعيد لبلاده هيبتها ، وللشعب الأمريكي احترامه لدى الشعوب المقهورة . وإذا كان ديموقراطيا ، فعليه أن يعمل للديموقراطية خارج بلاده ، كما في بلاده . هذه نصيحتنا لريقان . وسنراقب سياسته وتصرفاته . فإذا كانت بعض شعاراته التي أطلقها هي سياسته الحقيقية ، فنحن الذين يحكمنا حكام فرديون في السودان ، سنقاوم هذه السياسة .

والنصيحة نفسها للسادات : لقد عرض كامب ديفيد ، وأجمع العالم العربي على رفضها ، وأصر هو عليها . . ولم ينل من إسرائيل سوى بضعة كيلومترات . . . عليه الآن ، (ولن ينقده أحد) ، أن يقول : حاولت السلم ، وحاولت التنازل ، بكل طاقاتي فلم أجد شيئا . . ومع بداية الإدارة الأمريكية الجديدة ، عليه أن يرفض كامب ديفيد ، فينتظم في الصف العربي ، ويستطيع مع إخوانه إن يصنع سياسة جديدة تعيد الحقوق العربية في فلسطين .

أنتم عائدون من الحج ، فهل اقترن حجكم بنشاط سياسي ؟

منّ علينا الله بنعمة الحج ، ونحن قمنا بها مرات كثيرة قبل ذلك ... ونرجو أن يكون حجا مبرورا . . ولقد زرنا جميع المناسك الدينية . . وكانت معاملتي - كحاج عادي مثل ملايين الحجّاج - معاملة كريمة ومضيافة ومقدرة . ولقد كان الحج الذي رأيته هذا العام سليما من أي حادث ، ومعافى من كل مرض ؛ ولم يكن فيه ما يشوبه من الناحية الإسلامية شيء . بل كان الفرق بينه وبين الحج قبل ثلاث سنوات هو : التنمية المذهلة السريعة التي تمت ، خصوصا في الحرمات المقدسة والمناسك الدينية كالطرق المعبدة الكبيرة - ذات الأروقة الأربعة التي سهلت المسير - والجسور والمعابر والمهابط والخدمات الصحية ؛ واستقرار حالة الأمن بكل رقة وتهذيب ؛ وتنظيم الأمور والإشراف على سلامة الحجاج من جميع النواحي .

إن الطفرة في التنمية والصرف البليغ فيها ، جعلتني كأنني لم أر المنطقة قبل ذلك . وكان التنظيم والإشراف رائعا . . يقوم به المسؤولون كلهم ، من أعلى مسؤول إلي أدنى مسؤول . وفي أثناء الشهر الذي قضيته متنقلا بين المناسك ، رأيت هذا التغيير الكبير في التنمية ؛ في الأطر والبنى التحتية والحركة النشطة للطيران السعودي وسيارات النقل العامة المجهزة الحديثة ، والأمن والنظام . . ومثل تحسين المنازل ومضاعفة الفنادق - في مكة وجدة والمدينة - ثلاث أضعاف . . زيادة على مدينة الحُجاج ، حيث وجد كل حاج من المليونين ، محلا . وعدم ارتفاع الأسعار جميعها أثناء الحج ، وتوفر السلع كلها ، وإشراف المسؤولين على ذلك إشرافا تاما . ولم يكن

حجي مقرونا بأية اتصالات سياسية . وما أقوله ليس مبالغا فيه ، ولا أقصد فيه إطراءً أو ثناءً لأحد . ولكن ما رأيته وعشته وأحسسته، رآه ملايين الحجاج مثلي .

والتنمية في السعودية ؟

أنا رجل كثير الاتصالات بالسعودية . لكن هموم المعارضة السودانية في السنوات الثلاث الأخيرة شغلتني؛ فلم أتمكن من التمعن كثيراً في التنمية التي حدثت هناك؛ وما أستطيع أن أقوله : إن خطة التنمية السعودية التي انتهت كانت خطة طموحة وشجاعة .

أولا : استطاعت أن تنشئ كل الأطر الاقتصادية اللازمة للتنمية، ويشمل ذلك الاتصال السلكي واللاسلكي ، وكل الأطر ... من جسور وطرق معبدة وبنى تحتية وهياكل أساسية أخرى .

وثانيا : استطاعت أن تقيم مشاريع التنمية الاقتصادية في حقل الصناعة ، فتمت مشاريع صناعية كبيرة ، تغني - في كثير من المواد - عن الاستيراد . وتمت نهضة زراعية شاملة (خصوصا في إمارة أبها) ومشاريع تربية ماشية ودواجن . . هذا عدا المستشفيات المجهزة ، وآلاف المدارس؛ وتوج هذا بأربع جامعات بها أحدث الأجهزة وكبار الأساتذة المعلمين . . جامعة جدة والرياض والدمام والقصيم .

والأهم . . فقد حدث في السعودية توازن بين السلع والسيولة المالية . وأعتقد أنها البلد الوحيد حيث لا تزيد نسبة التضخم فيه عن ، والمتوافرة فيه كل السلع بأرخص الأسعار .

أما عن خطة التنمية الجديدة ، التي يقال إن مجملها ٣ بليون دولار ، والتي لم أر إلا بضعة مبادئ لها ، فهي طموحة ووراءها تخطيط مبدع ، والذي سرني أن جميع كوادرها من السعوديين المتخصصين مع زملائهم من العرب ، وأرجو أن تكتمل . . فتكون المملكة العربية السعودية في مصاف أكثر الدول تقدما في العالم .

موضوع الساعة الآن . . الحرب العراقية-الإيرانية ، ما تقديركم للوضع ؟

الأول ، إن وقوع الحرب أمر يؤسف له . . وكنا نرجو ألا يحدث . وفي

المدى الثاني ، أنا شخصيا كنت من أشد المتحمسين للثورة الإيرانية لأنها أزالت حاكما باطشا . . وأثبتت للعالم أن شعبا أعزل يمكن أن يحدث ثورة ضد حاكم لديه كل الأسلحة ، ووراءه كل القوى الخارجية . ولكن أثناء مسار الثورة الإيرانية حدثت أمور كثيرة أخلَّت بحماسنا للثورة . . وبهيبتها واستقرارها . كان يجب أن تكون هناك إدارة منظمة . وكنا نعتقد أن هناك اجتهادا لدى علماء الشيعة : [illegible] يطبقون الإسلام بمحتواه الاجتماعي والاقتصادي والسياسي الحديث [illegible] هذا : بل حدثت تعصبات إقليمية تكاد تفقد إيران وحدتها كدولة ، ولم تعالج بحكمة . وحدثت ازدواجية في السلطة لا مثيل لها . فلا يدري أحد أين السلطة ، أهي عند رئيس الجمهورية ، أم عند رئيس الوزراء ، أم عند المجالس المنتخبة ، أم عند الإمام الخميني ، أم عند الطلبة المتعصبين يسارا ويمينا ؟ . . وأثر كل ذلك على وحدة إيران وعلى أدائها ، وعلى قواتها المسلحة . . وعلى اقتصادها .

أما إذا سألتني عن العواطف في الحرب بين العراق وإيران ، فأنا أخي ، مع المثل : " أنصر أخاك ظالما أو مظلوما " ، وأنا آسف ... لا أريد أن أكذبك مشاعري في هذه الحرب، وأنا آسف لوقوعها . . أنا واقف مع العراق . وأعتقد أن هذا يجب أن يكون موقف أي عربي . وثانيا ، أنا لا أعتقد أن العراق كان ظالما .

أولا : إن مطالبته بالتنفيذ الكامل لاتفاقية شط العرب ، وتوضيحه للمخالفات العديدة التي حدثت لها ، قد جعلته يقف موقفه الحالي .

ثانيا : إن التدخل الخارجي في شؤون العراق الداخلية ـ الذي اتخذ شتى المظاهر واضح أيضا ؛ ومبرر كاف . . ليتخذ موقفه هذا .

ثالثا : إنه لم يرفض السلم لأي وفد حضر له ، وإلى الآن .

أخيرا : أنا مع إيماني بإرجاع كل شبر عربي ـ في أي بلد كان ـ سُلب منه في الماضي . . أرجو أن يسود السلام والاستقرار والوئام بين العراق وإيران . وأرجو أن تنجح المساعي لإنهاء هذه الحرب ، لكن ليس على حساب الحق ، ولا على حساب التدخل في شؤون العراق .

إنني أعرف الرئيس صدام حسين معرفة شخصية ، وأعرف ـ أكثر من الكثيرين ـ أخلاقه ومُثله وقيمه . وأنا واثق أنه لم يقدم على هذه الحرب ، إلا إذا استشعر خطرا على حقوق العرب أوعلى استقرار العراق . وأنا متأكد أن الحرب مع إيران كانت كريهة على قلبه، لكنها كانت واجبا عليه . وأعرف أنه كثيراً ما اتخذ قرارات تغلّب فيها على عواطفه الخيرة . . في سبيل مصلحة العرب العليا ، وفي سبيل مصلحة العراق . إنني أحس إحساسا عميقا . . أن هناك مؤامرات كثيرة تجري في الخفاء لمحاولة تصعيد هذه الحرب ؛ ولجعل دول كثيرة تتخذ مواقف منها ضد العراق . وأنا أحذر من هذه المواقف ، وأعتقد أن العرب يجب أن يقفوا ضدها موقفا واحداً منسجما . وأنا واثق أن كل هذه المحاولات ستفشل .

ضمن إطار أوسع ، كيف تقيّمون الظاهرة الدينية الحالية المتمثلة بعدة تيارات غير عربية أو عربية ؟

سيدي ... الإسلام ليس شعائر دينية فقط ؛ بل هو دين ذومضامين حضارية اجتماعية . وهو دين متطور ، وقد دعا للاجتهاد العصري . . حتى يواكب الإسلام الحضارة والتطور الاقتصادي والاجتماعي . والذين يسمون أنفسهم "السلفيين" والذين يلبسون الإسلام الآن الرداء البوليسي الفاشيستي ، المنغلق وغير الديموقراطي . . ليسوا من الإسلام في شيء . إننا كلنا مسلمون وشديدو الإسلام ؛ ولكننا نؤمن بإسلام منفتح ومتطور حضاري وعصري ومحدث ؛ ونعتبر أن الإسلام لا يمكن أن يأخذ مكانه بين الحضارات السائدة الآن ، إلا إذا أخذ بكل مبادئ العلم المتطورة والثقافة والحضارة والتحديث ؛ وإلا إذا قرئ القرآن فاستوعب ما فيه ؛ مما يجب أن يأخذه المجمدون الإسلاميون ؛ فلا يجعلون الإسلام دينا متخلفا يقف دون التطور والوعي الاجتماعي ؛ ويكون بذلك دائما متخلفا كدولة ؛ وكأسلوب للحكم . والذين يجعلون في الإسلام حكما غير ديموقراطي ، (والإسلام مبني على الشورى ، وهو دين التسامح ؛ والذين يجعلون منه حكما متخلفا أو سلفيا) . . هم في الأساس لا يعلمون محتواه ولا معناه ولا مبناه . . الديني والحضاري والاجتماعي .

وهؤلاء الذين يملأون الآن الدنيا صراخا؛ ويثيرون الغرائز غير الإسلامية لدى الأشقاء، هم أجهل الناس بالإسلام؛ وهم يتاجرون بالإسلام كسلعة؛ يتآمرون بها سياسيا . والمسلمون حقا ـ الذين يعرفون دينهم ـ يقفون مع الحضارة والتحديث ويجاهدون ضد الفاشية والبوليسية باسم الإسلام . والمنقطعون عن الحضارات كلها هم أعداء الإسلام حقيقة؛ وهم المتاجرون به؛ وإن أمرهم سيكشف للجميع لم يكن الإسلام فاشيا في أي عهد من عهوده؛ بل كان مبنيا على الشورى؛ ولم يكن الإسلام بوليسيا إطلاقا؛ بل كان مبنيا على العدل والشرع؛ ولم يكن متخلفا ولقد كان منفتحا على الحضارة وعلى العالم؛ وقد صدَّر للعالم صنوفا في الحضارات وفي العلوم . . هي الآن التي اتخذ منها العالم غير الإسلامي؛ منهجا للتطوير وللتحديث . . الذي يسود العالم المتمدين الآن .

منذ قمة بغداد والانقسامات تتكاثر وتتوالى في العالم العربي ... الموضوع الأخير للانقسام، موضوع القمة العربية المقبلة . مارأيكم ؟

أنا أكثر الناس أسفا للانقسامات العربية ، وعندما كنا في بلادنا نباشر أمورها ، كنا كلما حدث انقسام هرعنا إلى طرفيه، وأصلحنا ذات البين فيه . وكنا كلما دعونا الى اجتماع للعرب ، حضروه بأكملهم . وكان موقفنا محايدا ومستقلا منهم جميعا وكان محترما . وكنا نقول النصح للجميع ، ونتقبله . وكنا ندعو إلى وحدة الهدف العربي وهو إزالة النتوء الصهيوني الموجود؛ والذي يتضخم كل يوم داخل المنطقة العربية . والوضع الآن ـ إذا نظرت إليه من كل نواحيه ـ تجد فيه ما لا يسرك . وتعبير " ما لا يسرك" تعبير ضعيف ، تجد فيه ما يحزنك ويدخل عليك الأسى ، ويجعلك تغرق في بحار من اليأس لا ساحل لها .

فالانقسامات تسود العالم العربي ، واختلاف وجهات النظر تملأ العالم العربي وتكاد لاتجد عدة أنظمة متفقة اتفاقا كاملا . بل الأدهى والأمر من ذلك، أنك لاتجد كل الأنظمة متفقة على الهدف الأساسي والرئيسي (القضية المركزية الأولى) وهي قضية فلسطين التي يجب أن يتناسى فيها الجميع خلافاتهم ، وأن يتفقوا عليها . فلا بد

... في بغداد كان ناجحا ، إذ أن ما تم فيه من اتفاق ـ حتى ولو كان الحد الأدنى ـ كان خطوة مباشرة ومتفائلة .

وكنا نعتقد (أنه منذ المؤتمر ومنذ نهايته) كان العمل يبدو ، والتجانس والتنسيق والوحدة بين جميع الأنظمة العربية تنمو ، ويشتد ساعدها . . ومنذ ذلك المؤتمر الى الآن ، كنا نرجو أن نكون في موقف نستطيع فيه ، أن نسترد حقوقنا المسلوبة والمغتصبة ؛ ولكن شتان بين الموقف عند مؤتمر بغداد وفي زمنه ، وبين الموقف الآن . وأنا لست في حاجة لأن أشرح لك ما الذي يحدث . وتستطيع أن ترى نظرة أي دولة عربية إلى أي دولة عربية أخرى ، لترى أن الموقف الآن أصبح خطيرا ، وأن الصهاينة مستفيدون من كل شيء ، كل انقسام الآن لا يستفيد منه إلا الصهاينة .

من العلاقات بين العرب ، إلى العلاقات بين أطراف المعارضة في السودان ، ماذا عن موضوع التحالفات ؟

لقد سبق وتكلمنا ـ أنا وأنت ـ عن موضوع التحالفات في حديث سابق أرسلته أنت من باريس ، وأريد أن أكرر وأزيد ... خصوصا وقد حدث حول هذا التحالف دوي كبير ، وكانت له ردود أفعال كبيرة من الذين يخافونه ويخشونه . إن التحالفات بيننا وبين حزب البعث العربي الاشتراكي ـ القطر السوداني ، كما قلت لك ، تحالف أساسي ومركزي . وهو يزداد قوة كل يوم ؛ وهو أقوى (وأنا أتكلم معك الآن) أضعاف ما كان عليه عندما كنت أتكلم معك في الحديث السابق ؛ وسيكون أقوى غدا وبعد غد .

ذلك لأن ركائزه هي :

أولا : الاتفاق الكامل على الانتهاء من الحكم العميل القائم في السودان . هذه ركيزة مقدسة بالنسبة لنا .

ثانيا : الاتفاق على الوحدة العربية ، والقومية العربية . ونحن نؤمن بهذا منذ تأسيس حزبنا ، وقبله ، بل منذ ولادتنا وولادة أجدادنا . ولكن ربما اختلفت مدرستنا عن مدرسة حزب البعث . ولكننا نتفق معه على أهداف الوحدة العربية

والقومية . ونحن نتفق معه على الحرية ، حرية الشعوب المستعبدة والأفراد ، وعلى الديموقراطية . ونحن نتفق معه في موقفه بالنسبة للقضية المركزية الأساسية في فلسطين . وموقفه لا يخرج عن اقتراحاتنا التي كان قد وافق عليها مؤتمر القمة في الخرطوم عام ١٩٦٧ بالإجماع : " لا صلح ، لا تفاوض ، لا اعتراف ، لامساس بالقضية الفلسطينية " .

هذه الاقتراحات لا تزال معلَما للقضية ، وحاجزا دون المتخاذلين . وبذلك فإن تحالفا يقوم على هذه الأطراف لا يمكن أن يضعف . وتحالفنا قوي ومركزي وأساسي ومستمر . وركائزه معلومة . . واتفاقنا فيه معلوم أيضا ، ونعني بذلك تشكيل خطا واحدا . وأزيدك على ذلك . . فنحن كلنا كنا حزبا واحدا [illegible] في حزب البعث ؛ ليسوا غريبين على الحزب الاتحادي الديموقراطي ، وليس الحزب الاتحادي الديموقراطي غريبا عليهم ؛ وأهدافهم أهداف مشتركة وواحدة .

ولكن هناك من يقولون ... إن التحالف له أسباب مادية !

إذا قال أحد إن له أهدافا عسكرية ـ سلاح أو غيره ـ فليقل [illegible] وإذا قال أحد إن له أهدافا مالية ، فلينظر إلى المقاومة السودانية ، فقد استمرت [illegible] تقاتل وتصرف على الأسلحة ، ولم يكن هناك تحالف . ولكن [illegible] للكفاح عن بلادنا ، يستوجب علينا أن نستحصل على كل الإمكانات التي [illegible] تحرير بلادنا . خصوصا أن خصمنا ـ في بلادنا ـ يحصل على كل الإمكانات من [illegible] أكبر . وعلاقاتنا مع الإخوة في التحالف . . في تصعيد وتنسيق مستمر ، وهي سائرة دائما إلى أعلى .

وفي السودان هناك تنسيق أيضا مع معارضين آخرين ؛ والتحالف هنا لا يعترض التنسيق إطلاقا . وقد تكون هناك وجهات نظر كثيرة حول التنسيق ، ولكن [illegible] الذين تمثل المعارضة السودانية ، الواقفين ضد النظام الفاشي [illegible] في السودان ، قوة واحدة موحدة البنيان صلبة الأركان ، متفقة على إزالة النظام ، [illegible] تكن بعض التناقضات في ما بينها . فهي ، في الهدف الأساسي والمركزي ، [illegible]

إزالة النظام ، متفقة اتفاقا كاملا ؛ وأكاد أقول لك : إن القوى التي تمثل المعارضة حتى وهي تمثل أحزابا انشقت عنا ؛ حيث وقفنا وحدنا في المعارضة في وقت ما ، نحن وحزب البعث والحزب الشيوعي .

وتخلف عنا حزب الأمة (جناح الصادق) والإخوان المسلمين . وأستطيع أن أؤكد لك ، أن كل جماهير حزب الأمة التي فقدت إمامها الغائب - الذي لا يعرف أحد مصيره ، وما إذا كان قتل ، والذي لم يعرف أحد مَن الذي دفنه ومن الذي كفنه ومن الذي صلى عليه ، (وهو إمام من أئمة المسلمين الشجعان الذين يتبعهم الملايين) وقف وحده سنة كاملة في جزيرته ليدعو ضد هذا النظام . لكن هذا أيضا سبب يدعو جماهير حزب الأمة . . لكيلا تؤمن بالتصالح مع النظام ؛ حتى ولو تصالح الصادق المهدي . وما حدث له من سباب ومن شتائم ، وما حدثت له من غيبة لا يعرف أحد مصيرها ، حدثت في كيان الأنصار . وكيان الأنصار يتمثل في إمام الأنصار ؛ ولا يمكن أن ينساه كيان تاريخي مثلهم قام بالثورة المهدية - ضد الإنجليز والإتراك والمصريين وغيرهم - وهو لا يزال موجوداً إلى الآن . وبالتالي . . فجماهيره كلها مع القوى المتحالفة ضد النظام .

والإخوان المسلمون . . الذين أصابهم القهر ٧ سنوات من هذا النظام ، والذين رضي رئيسهم أن يكون وزيرا للعدل ، أو نائبا عموميا . . لحكومة لا تزال قوانينها هي نفس القوانين الجائرة التي سجنته سنين عديدة تحفظا ، وسجنت عشرات الآلاف غيره كيف يقبل بهذا المنصب ، بنفس هذا الدستور وهذا القانون؟ كثيرون ، بل الأغلبية من أعضاء حزبه ليسوا معه . وهناك من صنعوا هذا الحزب فداء وتضحية وتجددا ومن أقطابه وزعمائه من يتخذ موقفا صريحا ومعاديا له . والكثيرون يتفهمون هذا الموقف الصريح .

وبالتالي فإن [illegible] جوفاء أسماء ليست لها مرتكزات . . . وجماهيرها كلها ضدها . وأستطيع أن أقول : إن الجماهير ضد هذه المصالحة . وسيظهر ذلك واضحا وجليا في المستقبل القريب ، إن شاء الله .

ما هو العصيان المدني؟ هل تعتقد فعلا بإمكانية نجاحه ضد حكم قوي وله أجهزة عسكرية وأمنية وسواها ؟ وفي النهاية ... متى ؟

العصيان المدني هو التوقف عن الحركة في الطرق والأسواق. الإضراب السياسي هو إضراب مهني وسياسي في وقت واحد؛ تقوم به جماهير العمال في كل نقابة بأن تتوقف عن العمل لأيام معدودة ستقدر . . إما أن تتوقف داخل منازلها أو تحضر إلى مقار العمل وتبقى بلا عمل . والعصيان المدني هو بقاء المواطنين داخل بيوتهم في أثناء الإضراب ، وعدم تعاملهم مع السلطة . والتحشد الشعبي هو الخروج في مظاهرات.

ولقد قلت أنت إن هناك دولة وتملك وسائل . إن هذه الدولة متهالكة الآن ومنقسمة . وأمورها كلها مختَلف عليها؛ وكما قلت لك ، فالقوات المسلحة السودانية لا يمكن ـ إطلاقا ـ أن تستعمل قوتها وسلاحها ضد الصدور العارية؛ لجماهير فقيرة ومعدمة ومسلوبة مقدراتها؛ ومنهار اقتصادها وفاقدة للخدمات الصحية والتعليمية؛ وفاقدة للأداء وفاقدة للإدارة؛ ومنهارة اقتصاديا وتكاد معيشتها اليومية ـ منذ بدء الصباح إلى الغسق إلى المساء إلى الليل ـ أن تكون جحيما لا يطاق : سوق سوداء وغلاء في الأسعار؛ عدم وجود للنقد وعدم توازن بين دخل الفرد والصرف إفلاس يومي ، وعدم رواج حتى في التجارة؛ وعدم إنتاج لدى جماهير المزارعين الذين لا يجدون الآن أي شيء مقابل إنتاجهم . والذين يتدهور إنتاجهم نتيجة أن الحكومة لم تستطع أن تنظف القنوات والترع والمجاري ، فلم يحضر الماء في ميعاده ولم تحضر الجرارات لكي تنظف الحشائش؛ ولم تحضر المخصبات لتحسين الزراعة ولم تحضر المبيدات لكي لا تأتي الآفات . وبذلك تدهور الإنتاج في السنة الماضية وهو متدهور الآن؛ وبذلك . . فلا صرفيات ولا سلفيات . والمزارع لا يكاد يجد أي شيء، ويكاد محصوله الآن ـ من القطن ومن الذرة ومن الفول ومن الأرز ـ يكاد يكون منعدما؛ ويكاد يكون المستقبل أمامه مظلما .

والحقل الزراعي عندنا هجره أغلب المزارعين . ونسبة النساء الآن في الزراعة تبلغ فوق ال ، بينما كانت عام حوالي . بمعنى أن الشبان الأشداء هجروا الزراعة .

وتركوها إما للشيوخ المسنين أو للنساء . وبالنسبة للعمال ، كان النميري قد وافق - قبل ذلك - على نظام تنظيم وترتيب الوظائف ؛ وأعطاهم من الأجر . وكان المفروض أن يعطيهم ال الأخرى الآن .

إن أرضية الإضراب السياسي والعصيان المدني موجودة . وهيبة السلطة مفقودة بل وأمن السلطة نفسه مفقود ، سواء في الجيش أو الأمن أو البوليس ، فالجميع يحس بأحاسيس الجماهير . ووقوف السلطة أمام الجماهير أمر صعب عليها . والجماهير الشعبية السودانية مسالمة . ولكنها إذا هبت وتوحدت على أمر ، قامت به دون توقف ؛ وأنا واثق من ذلك . وإذا تعرضت لها بضع قوات ، فإن الأغلبية في القوات المسلحة السودانية (وأنا أعلم ذلك لعلمي بوجود التنظيمات داخل القوات) ستقهر هذه الأقلية التي تتصدى للجائع الذي لاسلاح له ، وتضربه لكي يرضى بالجوع ويرضى بالرشوة والفساد والنهب في معسكر الحكومة لحفنة من المليونيرات ؛ الذين يعيشون وحدهم . . ويموت الناس من الجوع . وبعد ذلك هناك الطلائع المدربة المسلحة منا ؛ التي ستحول دون ضرب الشعب ، والتي ستدافع عن هذا الشعب . ولذلك فإني أدعو جميع السودانيين إلى هذا العصيان والإضراب .

أولا : إظهارا لموقفهم .

ثانيا : إظهارا لفقرهم وجوعهم .

ثالثا : إظهارا لتدهور بلادهم . . السياسي والاقتصادي والاجتماعي .

رابعا : لعدم توافر الخدمات التعليمية والصحية عندهم .

خامسا : لانعدام وانحطاط أخلاق شعبهم .

سادساً : لكل الذين يعانون كل صباح . . من السوق السوداء : من انعدام السلع ، وارتفاع الأسعار ، ومن كون الحياة أصبحت جحيما لايطاق . أنا أدعوهم أن يتسلحوا بالشجاعة الموروثة والمعروفة عنهم ، وأن يهبوا جميعا لهذا الإضراب . وأهم شيء في هذا . . هو الوحدة .

هنالك بعض الخلافات (السطحية والقشورية أوالثانوية) ، بين بعض القيادات ، في

بعض الأحزاب . وهذه الخلافات لا يمكن أن ترقى وطنيا إلى مرتبة إنهاء النظام . إن إنهاء النظام مسؤولية مقدسة يجب أن ترتفع فوق كل حقد . ولذلك يجب أن تسود الوحدة داخل هذه الأحزب، خصوصا بين القادة . . لأن القاعدة موحدة . وإذا لم يتوحد القادة تكون مسؤوليتهم تاريخية وكبرى . . لا تغتفر . وثانيا، يجب أن يكون هناك تنظيم؛ والتنظيم موجود . لكن نواته الآن يجب أن تكون الشبان الشجعان المخلصين الأمناء — وهم موجودون — ذوو الوجوه غير المعروفة لدى الأمن، وذلك لتقوم بالتجهيز في كل لجنة وكل حي ، في كل مربوع وكل عاصمة؛ وفي كل قرية توجد فيها هذه الوجوه الشابة غير المعروفة . . وهي ممتلئة إيمانا وحماسا ، وهي تريد إنقاذ بلادها . وهي تعرف أن مشاكل بلادها كلها من هذا الحكم . وهي تضحي بكل غال في سبيل هذا .

هذه الأوجه هي التي يجب أن تنتظم الآن ، لأنها غير معروفة لدى السلطة ومبثوثة بين صفوف الشعب ، وتعرف همومه ومشاكله . ولها علاقات واسعة مع مختلف الشرائح الاجتماعية يجب أن تستعملها . أما توقيت الإضراب، فهو سر أرجو أن تعفيني منه ، ولكنني أدعو الله أن يتحلى الشعب السوداني باليقظة والشجاعة وبالإيمان . . وبالعقيدة . وأن يضرب مثلا - مثل الذي ضربه في أكتوبر - بوثبة واحدة في إضراب موحد غير مبعثر ؛ ضد هذه السلطة فيسقطها . وإذا لم يسقطها، فستظل هذه الأرض التي حُرقت محروقة دائما ، وسيكون هذا الجيل مسؤولا عن هذا مسؤولية كاملة . ويجب أن لا يتحمل هذا الجيل هذه المسؤولية . والله منتصر دائما للحق . . . ونحن واثقون أننا على حق، وأننا سننتصر .

•

"الدستور" ٨ - ١٤ نوفمبر ١٩٨٠م

الباب الرابع

ملاحق

أحقاً مات الشريف؟ أحقاً خلت منه الساحة؟

بقلم : أ. صلاح أحمد إبراهيم . . . مجلة الدستور . . في ١٥/ ١/ ١٩٨٢م

الشاعر الفنان الإنسان الصديق الراحل صلاح احمد ابراهيم . لنستمع اليه بعد أيام معدودة من وفاة الشريف حسين وهو يقوم برثائه في مجلة الدستور بعددها الصادر في ١٥/ ١/ ١٩٨٢م . . يقول صلاح :

هكذا نقف بإزاء المنية – مستهولين غير مصدقين – من حيث لا ينبغي لنا ، وكم رأينا مصرع كبير وعزيز ولو كان موت فقيدنا الراحل موت شخص عزيز وحسب ، لأسينا وحزنا ثم عدنا لواجبات الحياة باعتبار ماحدث جرحاً شخصياً وألماً خاصاً . أما أن نفتقد فجأة رجلاً كان يصنع الأحداث ، وقائداً يحرك الجماعات ، وزعيماً يُرجع إليه ، ورائداً تُنتظر منه المبادرات ، فإن الفقد يتخذ أبعاداً تتخطى الشخص إلى الشخصية ، والموت يلقي بأسئلة تتعدى المفقود إلي المفتَقد فلا غرو أن أخذنا نردد (وفي خواطرنا تضطرب الاحتمالات) : "أفي هذا المصاب الجلل بداية انقشاع المأزق أم بداية تفاقمه؟" . . نردد مستهولين غير مصدقين لا من حيث الحقيقة بذاتها ولكن لما سينجم عنها :

احقاً مات الشريف ؟ أحقاً خلت منه الساحة ؟

نحن بنو الموتى فما بالنـــا	نعاف ما لابد مـــن شربــــه
إن الحياة قصيدة أبياتهـــــا	أعمارنا والموت فيهـــا القافيـــة
أين الأكاسرة الجبابرة الألي	كنزوا الكنوز فما بقين ولا بقوا

وكما قيل : فإن حياة بعض الناس موت ، وموت بعض الناس حياة . . كان رحمه الله رجلاً كبيراً بحق . . وكان رحمه الله رجلاً كريماً . . وكان رحمه الله رجلاً حليماً . . وكان رحمه الله رجلاً مقداماً . . وكان رحمه الله رجلاً متواضعاً وزعيماً . . وكان رحمه الله رجلاً ذكياً وموهوباً .

هذا بعض ما أصفه به ، وما وصفته به لأنه مات . . الموت من بعد يستثير النزعة

للمبالغة في ذكر محاسن من مات ، ولكن وصفته بما عرفت عنه وبما هو حق وصفه على المنصف . فالمنحاز بدءاً يبالغ . . ولكن المنصف يشهد . . وصفته بعد مماته بما كنت أصفه به ما اقتضتني المناسبة في حياته ، ووصفته به وأنا من يعرف بنو وطني اجترائي بقول الحق عن كل من تعرَّض للمسئولية العامة وتصدى للأمانة ، لم أستثن أحداً . . ولم أداهن أحداً . . لأنه لا غرض لي عند أحد . ولا مقصد لي غير الحق . . وفي خلال ذلك أخطىء وأصيب وضميرى في الحالتين مطئمن .

كان الشريف حسين الهندي أريحياً وهاباً . . بذل ماله لأجل مجده . . يقضي الحاجات ، ويكلأ المحتاج . . ويقيل العثرة . . ويدعو الجفلى . . بابه مفتوح وقاصده ممنوح . . ويده ندية . وكان الفقيد ذكياً موهوباً . . ذا ذاكرة حفيظة لاتفلت منها الأسماء أو الأرقام ، خطيباً ذرباً بلغتين . . قوي العارضة قديراً على التاثير . . محنكاً في مجالي عمله : المال والسياسة ، حسن التدبير . . واسع المصادر بأسلوب تميز به وتفرد . .

وكان الشريف حسين رجلاً مقداما . . يجابه صلداً عند المجابهة ، ويلاين . . مرناً عند الملاينة . . ولكنه دائماً يقتحم الموقف الصعب . . ويتصدى للمأزق الحرج . . ملء العين والبصر ؛ لم يقصِّر في نشاطه الإعلامي والعسكري والتنظيمي . . بعزيمة صادقة ؛ فإذا هو بمفرده جيش عرمرم يضرب القدوة في المثابرة والمصابرة والتحدي ؛ لم يرأف على نفسه ولعل ذلك بعض ما أودى بحياته وهو في ذروة العطاء .

فمضى الشريف حسين إلى رحاب ربه . . بعد أن ترك من بصمات العمل القومي والحزب ما يصعب تكراره . . ولندع صلاح ذلك الكاتب والمقاتل العنيد الذي لا يعرف المحاباة أو المجاملة . . لندعه يتكلم في الشريف وعن الشريف ليعرف أبناء وطني . . ورفاق دربي - وقد تفرقت بهم السبل - أي خسارة تلك التي ألمت بهم وعن أي فقْد نحن نتكلم . . إنه فقْد أمة . . نعم فقْد أمة بكاملها . . نبحث عنه اليوم في ليالينا المظلمة فلا نجده . . ونجمع نثار هتاف قديم . . فلا نرى غير أصداء بعيدة . . بعيدة . . ويطل صلاح بعناده المعروف ؛ ويصر إلا أن يمسك بالقوس ليبريها بوجدان

وطني قومي معافى . . ويقول صلاح :

" يكفيني هنا والحزن منيف . . أن أحني رأسي إجلالاً . . لرجل مقاتل بحق . . لم يضن بدقيقة من وقت أو ذرة من نشاط في سبيل ما نهض في سبيله حتى خر في ذلك صريعا ؛ لقد كان صوتاً عاليا من أصوات المعارضة السياسية في السودان . . . بل أعلاها صوتا . . وكان وجهاً مبرزاً للمعارضة السياسية في السودان ، وفي مواقف ومنابر ، وجهها الوحيد . . وكان بجانب ذلك نموذجاً مجسداً للتفاني والبذل والإصرار . . اتفق المرء أم اختلف في شيء أحني رأسي إجلالاً للعزيمة لم تهن . . وللشجاعة لم تنخذل . . وللسماحة التي دأبنا على تسميتها بالخلق الأصيل تزين الساحة . . أحني رأسي إجلالاً لجوال حمل قضيته على العاتق وأغذ السير . . في ليل ونهار . . في عافية ومرض . . في غربة ممضة ووحدة مريرة . . وفي الجوانح لهفة محلاً عن مائه ، وفي الفؤاد نيل ونخيل ودار وعفاة . . وفي المسامع أصوات أحبائه الذين خلّفهم على عجل من ورائه . . يحول بين الوصال والاتصال حديد على كتف وحديد على الصدر . . وحديد على الساعد . . وحديد على النعل . . واه من الليل ووحشة الطريق .

لاينبغي لشامته أن يقر عينا أو يهدأ بالاً . . بهذا الفقد الفاجع . . والأمل المهيض فالموت عظة الغافل والمغرور . . يطول الأعزل . . ويطول العزيز ولو كانوا في بروج مشيدة . . ولا ينبغي لشامته أن يقر عيناً ويهدأ بالا . . فإن مالا يذهب قط باق هناك . الأفراد مهما بلغ شأوهم وعظم شأنهم وجلّ عطاؤهم هم بضعة شعبهم الولود . . إذن فما مات الشعب ولا مات تصميمه . . وها المارد يتحرك ، والجبل يتململ ، والتنور يفور . . ولعل في هذا الفقد ما يوقظ الهمم . . وما يزيد الشعب المناضل حمية علي حمية وهو يرى الغائب آيباً ، ولا تزال تحكم الوطن النبيل المعايب :

قل لمن عربد في الشعب طويلاً — لعنة التاريخ في اسمك تلصق
عبثاً تطلب منا المستحيــلا — نحن قناصك والسيف المعلّق

حين كان العمل يتطلب من الشريف حسين الهندي رفع الصوت بالكلمة المرة . .

جهر بصوته . . وحين كان العمل يقتضي حمل البندقية تحامل على ألمه . . وحمل البندقية موغلاً في الصحراء . . وحين كان العمل يتطلب منه سهر الليل ، تحمَّل أعباء مرض السكَّر واعياء القلب والبدن وسهر الليل . . وحين كان العمل يتطلب منه الصبر على الجدل . . صبر وجادل حتى تعبت منه اللهاة . . كان في كل مكان ؛ وفي كل عمل ؛ ولقد كان بإمكانه (لو شاء) . . أن يعيش مرتاحاً في بحبوحة بما تحت يده من مال ؛ ولكنه آثر عيشة الجندي المقاتل في اخشيشان الجندي المقاتل ومات – حين مات – في ميدان القتال ما بين الجبهة والجبهة .

فيارفقة فقيدنا المناضل المقاتل . . تراثه النضالي المقاتل ، أمانة في أعناقكم ؛ فلا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون . . ضعوا أيديكم في يد شعبكم . . وفي يد أخوة آخرين - بالغاً ما بلغ الخلاف أو الاختلاف - حتى تنجلي غمة الوطن . . سدوا الثغرة وكونوا على ما كان عليه حزماً وجرأة وثباتاً وإصراراً ؛ فالمسئولية بأكملها انتقلت إليكم بعده . . ابقوا الراية خفاقة والمشعل عالياً والصوت كما كان جهيراً .

شهداء المنفى... وقراصنة الوطن

بقلم : غادة السمان

(كما في الدراما الإغريقية ، كان القدر هو الذي يقود خطواتي في شوارع أثينا تلك الأمسية الدامعة بالمطر . . وكنت أمضي إلى المأساة بنفسي ، وأجهل أن ستارة المشاهد الأليفة ستنفتح فجأة على مشهد يوقظ أحزان القلب الموغلة في الأعماق . . ويخرج عرافات الذاكرة من أوكارها في بوح مرير ، أين منه بوح عرافات (دلفي) . .

كما في الدراما اليونانية ، لم أكن أدري أن أمسية التسكع الهادئة تلك ، ستتحول إلى طعنة مسددة بإتقان نحو صدر النسيان .

لا أدري ما الذي قاد خطواتي من "ساحة الدستور " (السينتاغما) إلى شارع (الستاديو) ، سرت طويلا تحت رذاذ المطر الشفاف كدموع سرية ، حتى وصلت إلى ساحة (أمونيا) ، وتابعت تجوالي فيها .

كنت أحدق في وجوه الناس ، ووجوه الأشجار ، ووجوه الجدران والأرصفة والأعمدة والسيارات . . وكانت المدينة تنزلق إلى الغروب ، وكنت أنزلق إلى سكينة نفسية لها مذاق الغيبوبة العذبة ، حين وقعت نظراتي مصادفة ، على لافتة معدنية من كلمات ثلاث تقول : (فندق الملك مينوس) ! كانت العبارة مكتوبة بحروف لاتينية نحاسية صفراء ، وملصقة على جدار رخامي صلد ، لا نافذة فيه ، ولا شهقة ! وكان ضوء الغروب الشاحب ينسحب عن ساعة (أمونيا) الممتدة أمامي ، كما ينسحب اللون من الوجه لحظة الدخول في الإغماء . . ودخلت في الصحو دفعة واحدة !

" فندق الملك مينوس " !

إذن هنا سقط شهيد المنفى ، الشريف حسين الهندي ، ذلك الإنسان النبيل الذي لم ألتق به إلاّ في سطور محبيه ، وعيون تلامذته .

وفكرت بأسى : لو كنت على هذا الرصيف قبل شهر ، لصافحته ، وخيّل إليّ أنني أسمع غراب "إدغار آلن بو" ينعق : " لن يكون ذلك بعد اليوم " . . آه ، لن يكون ذلك أبداً .

لماذا قادت المأساة خطواتي إلى هذا المكان ؟ توهَّمت - بل تأكَّدت - أنني أسمع الضربات التقليدية للقَدَر ، التي ترافق رفع الستارة في المسرح الإغريقي الدرامي . . هذه الأمسية ، تمزقت الستارة عن جرح شاسع ، ينبض كفاحا معذبا ، جرح اسمه " شهداء المنفى العرب " .

بدأت أتأمل المرئيات بعين جديدة ، هذه الساحة بالذات ، تجمع شمل الناس الذين عاش الشريف الهندي لأجلهم ، ومات وسطهم .

إنها ساحة البسطاء ، يهرولون وراء لقمة العيش والحُلم ، وجوه طيبة ، وجوه كادحة ، وجوه معذَّبة ، وجوه أدمتها قسوة الواقع ، وزرعت في حناياها بعض شراسته ؛ وجوه كسرها الزمن . أيد خشنة تقبض على خبز الأسرة ، وتختفي تحت المطر . ساق مقطوعة ، وعكاز قافلة من المتعبين والخاطئين والأبرياء ، والناشلين الصغار والمساكين ، والحائرين الذين يجهلون قراءة أعماقهم ، وربما قراءة الجريدة !

من أجل هؤلاء يعمل المناضلون جميعا ويتشردون . ولأجلهم نذر الشريف الهندي حياته ، وكان موته بينهم ، محاطا بزحامهم وعذاباتهم وأفراحم وأحلامهم المتواضعة الصغيرة . . . بحجم طابع البريد .

كما في الدراما اليونانية ، كان القدر يقود خطواتي تلك الأمسية الأثينية الماطرة ليسمِّرني أمام لافتة عادية ، تحرك في النفس مأساة عامة غير عادية . . اسمها (شهداء المنفى) ، مأساة فجَّرتها في نفسي ، ذكرى إنسان عملت في منبر يحمل بصماته ولم أعرفه ، ولم ألتق به ، وها أنا أزوره ذات ليلة ماطرة . . . بطريقة رمزية موجعة أتلفت حولي كمن كان يمشي أثناء نومه ، وأستيقظ فجأة . .

أمام مدخل الفندق أربعة أحواض تضم نباتات خضراء . . وها هو الباب الدوار الذي اجتازه ماشيا ذات غروب ، وغادره محمولا . . وكالمسحورة ، وجدتني أدخل إلى بهو الفندق ، عم كنت أبحث؟ عن صوت ؟ عن ظل ؟ عن شبح ؟ لا أدري . كانت المرئيات شديدة الوضوح كما في الكوابيس ، ردهة الفندق رمادية الجدران وأرضها أيضا رمادية المرمر . . إلى اليمين سبورة تحمل بعض الإعلانات والأوراق

توقفت أمامها كأنني توقعت أن أجد رسالة أو إشارة ، لعل الإشارة كانت هناك ، لكنني لم أُحسن قراءتها . . وكلها مكتوب بالألغاز (أم باليونانية ؟!) . . وثمة سلِم تعلوه نجفة كبيرة ، يقود إلى الغرفة ٢٢٢ ؟ . . إلى اليسار طاولة الاستقبال المستطيلة جدا ، وخلفها رجل يحدق في وجهي بفضول ، ولعله الرجل ذاته الذي استقبله منذ شهر . وخلفه ، أعلى الحائط ، جدرانية تمثل رواقا إغريقيا بأعمدته النافرة ، وباحاته وأقواسه .

ويسألني الرجل شيئا ما باليونانية ، لعله : "ماذا تريدين ؟" . . قلت له بالعربية : " لا أعرف بالضبط " ! وغادرت الفندق ، وقرب الباب ثمة طاولة تتوسطها آنية نحاسية للأزهار ، ولاحظت أن الورود فيها كانت ميتة .

ماذا أريد من الفندق ؟ إنه مجرد فندق آخر (آه ، ليس تماماً) . يتدخل المنطق المحايد : حسنا . إنه نموذج آخر لسلسلة (فنادق الغربة) اللامتناهية . .

غادرته وتوقفت قليلا أمام بائع الألعاب المجاور . فبائع التذكارات . فالصيدلية . . وموكب الكادحين على الرصيف العتيق ، يكاد يجرفني كالموجة . بدأ كل شيء رمزياً تلك الأمسية . بائع الألعاب . . للعبث ؛ بائع التذكارات . . للرومانسية الصيدلية للذين ما زالوا يحاولون جاهدين مداواة أوجاع الوطن . والجماهير تمضي وقلما تلتفت إلى أوجاعهم إلاّ بعد موتهم ! . .

وصار المطر ينهمر منتحباً ، وبائع الصحف يلم أشياءه ، والناس يركضون مسرعين في الاتجاهات كلها . قلت لنفسي : تفرقت الجنازة مؤقتاً ، فعودي إلى وكرك في هذه المدينة ، واحجزي لنفسك غرفة في فندق الغربة ، كأن يكون رقمها ٢٢٢ !

مشيت من جديد باتجاه ساحة (أمونيا) ، وكأن البائع العجوز للأشرطة المسجلة (الكاسيت) تعاطف وهمِّي ، وها هو يقدم لي رشوة باللغة العربية : أم كلثوم تصرخ (آه) بكل ما في حنجرتها من طاقة على الاحتجاج !

لم تعد الـ (آه) تجدي . . لقد تجاوزنا هذه المرحلة منذ زمن بعيد ، ونضجت الجراح على أشجار الغضب ، وحان قطافها !

(كما في الدراما الإغريقية ، الموت الفردي يتسع ليشمل الجماعة بمدلوله . واستشهاد الشريف الهندي في الغرفة ٢٢٢ ، على بعد أمتار مني ، يذكرني باستشهاد مئات من رفاقه ، في بقية غرف الوطن والمهجر والمنفى . . من الغرفة رقم ١ إلى الغرفة رقم (لا نهاية) . هذا يموت في المعتقل بين يدي سجان الوطن ، وذاك يموت في المنفى بين يدي سجان الغربة . هذا يقتل برصاصة القمع ، وذلك برصاصة صامتة من مسدس الغربة . هذا تغتاله كوارث الوطن وغصاته ، وذاك كوارث الغربة ولوعاتها . أفكر ـ بحنان ـ بعشرات من أحبائي ، وأصدقائي العرب الذين هاجروا من أوطانهم ، لمواصلة الكفاح من أجل ذلك الوطن . وأفكر - بحقد - بعشرات من قراصنة الوطن المقيمين على أرضه ، يمتصون دم ترابه ، وضَوْء شبانه وفرحة أهله . . ويحتكرون ثماره .

ذلك الشهيد في فندق الغربة ، مد يده من نافذة غرفته المعتمة ، ليفكَّ جرحي قطعة بعد أخرى . . وها أنا أتذكرهم صديقاً بعد الآخر ، أولئك الذين قد يموتون في فنادق الغربة قبل أن يشهدوا فجر تحرر أوطانهم . . . أولئك الذين ضحوا بأموالهم وبيوتهم وأسرهم وسلامتهم الشخصية ، ورفاق طفولتهم ؛ ورضوا بالغربة وعاء مراً للنضال العذب .

ذلك الشهيد في (فندق الغربة) ، الذي مات وهو يمارس الأهداف التي طالما آمن بها . . . ذكرني أيضاً بالوجه الآخر البشع للغربة ، كما الضوء يذكّر بالظلمة ، والشيء يذكِّر بنقيضه . تذكَّرت (غربة) الذين يغادرون أوطانهم لتدميرها من الخارج ! إنهم الوجه الآخر لقراصنة الوطن . . وهم يتسترون خلف الشعارات ويتشبهون بالمناضلين الحقيقيين دونما جدوى ، ويصنعون من الكلمات والنظريات قفازات لممارسة السرقة !

ما كل من غادر وطنه مات شهيداً . ثمة فارق بين القتيل والشهيد . وبين القاتل والبطل . وثمة فارق بين الذين يهاجرون للكفاح من أجل الحق ، والذين يهاجرون للبطر والنسيان . . والهجر أو للتخريب .

أنه الفرق الذي لا ينسى بين شهداء الوطن والمنفى . وبين قراصنة الوطن والمنفى ثمة فارق أيضاً بين المجاهدين في (الخارج) ، واللامبالين في (الداخل) ، فالمجاهد المغترب لم يغادر وطنه حقاً . . ما دام الوطن يسكنه في أعماقه ، أما اللامبالي ، فإنه يقطن الوطن فقط ، دون أن ينتمي إليه حقاً . . أو يعي ذلك الانتماء . .

لماذا قاد القدر خطواتي تلك الليلة ، إلى هذه المتاهة من الخواطر والأحزان ؟ وبعدما كنت سائحة هادئة ، تحولت في ومضة عين إلى غاضبة ومقهورة ، وجراحي اللاملتئمة تنزف ضد الذين يحولون الوطن إلى فندق للبيع ، ويقتلون المناضلين في فنادق الغربة . كل منا مرشح مهاجر . . ومشروع متشرد ، ما دامت ثمة أنظمة تغتال النبتات التحررية في الوطن العربي ، وتتآمر ضد كل من يصهر كفاحه ، من كفاح المناضلين في القارات كلها تذكَّرت كيف كففت عن زيارة لندن ، منذ اللحظة التي راودتني فيها فكرة الهجرة إليها . . من العنف البيروتي الأعمى . فجأة تحولت لندن في خاطري من مدينة عشقتها كسائحة ، إلى منفى محتمل ، بل وشبه مؤكد ! . . وصرت أتجنَّبها وأخاف منها وأحتار ، أيهما أقل مرارة : الموت بلا معنى ، في وطن يحولونه إلى فيلم للرعب ، أم الموت في فندق الغربة . . ميتة مجدية وذات معنى ؟

إن موت هذا المناضل . . يفتح جرحاً عربياً عميقاً وشاسعاً ، زاخراً بالتراث النضالي لأمتنا . . موته نموذج للموت العربي المعاصر ، حيث الاستشهاد ممكن في كل مكان . . في الوطن . . والخندق . . وساحة الحرب . . وفندق المنفى ! **وموته تذكير بالفجائع التي يجرها علينا بعض قراصنة الوطن ، من مقيمين مغتربين أيضاً بإصرارهم على سرقة الأرض بحجة (تحريرها) .**

هذا الرجل الذي وُلد في أفريقيا وأحبها ، وحالف آسيا وحمل همها ، ومات في أوروبا ، يذكِّرنا بعشرات النبلاء أمثاله ، الذين تساقطوا قبله في الغربة ، وسيتساقطون بعده في الغربة ، كي يردوا الوطن إلينا من غربته ! لأجله . ولأجلهم جميعاً أصلِّي ، وصوتي الريح ، وقلبي قصبة مثقوبة . . وأتساءل بحزن غاضب : ترى من الشهيد القادم ؟ في أي منفى ؟ أي قدر ؟ أية غربة ؟ أي فندق ؟ وما رقم الغرفة هذه المرة ؟

من قصيد الرثاء الشعبي

مات الهمام نايرالبصيرة الواعي ..

تأليف : الأمين حامد / السقاي

خـبـر الشـوم بلغ . . الليلة جـابو الناعي
قـال مـات الهـمـام نايرالبـصـيـرة الواعي
إندك الأسـاس . . وخـرالسـقف مـداعي
وانفـرط القطيع ، بقى لا دليل لاراعي

☆☆☆

الموت سـنة . . . لكن الفـقـد مـو هين
ياالهـندي المجـرد حـاد سـقـايتـو تزين
رحـيلك لوع العـنقـالي والمتـدين . .
وكم جـريت وسم بين الحـواجب بين

☆☆☆

السـودان نُكِب ياالدخـري فـيك يوم فـقـدك
ويا صلب الشكيـمـة المُتَّ حـافظ عـهـدك
الأراضين تعج . . يوم ربَّعُـولك لحـدك
إهتـزت جـبـال مكة . . وضـرائح جدك

☆☆☆

أب دربا زلق . . . البـاروه مـنوا وفـتـروا
من جـارحـات جـوارحه الجـارحة لانوا وكـسروا
كـتـار الطلبـوا أسـبـاب الوصـول ني قـدرو
كل القـاسـو صد بالحسـرة قـال : مـاني قـدرو

قـــــداد الـدروب شـرك المصـــايد هـبــــــرو
أب عـــومـــا غـــرِف بحــر المخــاطر عــبــــرو
مـــاظنيــــتـــو مـــات بي هينة ، شـــايل وبرو
ملك الموت أكــيـــد بي غـــفلة غـــفَّـــا وغـــدرو

☆☆☆

نارك ياالشــــريف بين الجـــوانح ســـارجـــة
رمَّلت المنـابر . . . . والمحـــافل القـــــاجـــة
فـــارس أمـــات حـــجـــول المابتـــقـبِّـــل لاجـــة
خليت الرجــــال دمــاعـــه تدفـــر ســاجـــة

☆☆☆

عـــهـــدك كـــان رخـــا وكم من نعـــيـــمـــو غـــرفنا
ورايك في المحــافل ياالشــــريف شــــرَّفـنا
نحن وراك زي مـــا قـــالوا عـــشـنا وشـــفـنا
يا ود أب دروع . . قـــرقـــر وراك أب عـــفنة (١)

☆☆☆

رقـــد فـحل الصـــهب تلب التــقـــيلة اب غـــارب
وتمســـاح لجـــة اب مـــوجـا بلعلع . . . كـــارب
قـــول لي الطال عـــرض وانغـــر ســمـــا الـهــارب
إنْ كـــان عـــمـــرو طـــال . . مـــا بنبـــرم لك شـــارب

☆☆☆

رقـــد الليلة . . . . تقـــالة القلوب الجـــازعـــة
فـــاضت روحـــو لي باريهـــا صـــدت راجـــعـــة
قـــدر الســـيـــد نفـــد . . . غـــار الزوامل الراتعـــة
شـــال تلب الحـــمـــول خلى المجـــافلة وضـــالعـــة

من تبيت حـصـيف قط مـا بتـقـوم في هايفـة
ونفـسـك للصـغـايـر . . . والرغــالات عــايفـة
في النوم والثبـات . . عـينك مـفـتـحـة شـايفـة
من نعش اب كـريق قــالوا المرافــعين خــايفــة

☆☆☆

كـبــاس الدهم . . فـرتاق جـحــافل العــوق
وقـشــاش دمــعـة المتــمــوم مـغص مــخنوق
أب فــهــمــا بحـل . . عــقــد الزرد مطبــوق
وراك الكبـــدة تنزف والقلب مــحــــروق

☆☆☆

قنديل الكبس الضــوه مـــو ممحـــوق
واب قـــدرا على عـــالي الكواكب يفـــوق
أظنك ياالشــــريف زايد عليك الشـــوق
وهـــزاك الحـــنــين لــلأزهـــري وزروق

☆☆☆

أملنا المـروق من الظـلام بـي شــــروق
ولكن الكريم ... تدبيــرو مــو مــسبــوق
غـفـانا القـــدر . . قـبل الهـنيـــة نضـوق
وجـــاب أمل الخــلاص شــايلنو في صندوق

☆☆☆

في الســودان بشـوف كل النفــوس مـوجـودة
وكـانت عـايشـة آمـالا .... عليك مـعـقـودة
لكن شـن نســو . . . . مـــا تمت المعـــدودة
حكم الســيــد رضـا . . وإرادتو مي مـردودة

فـــوضنا الأمـــر فـــيك للكريم مـــولاك
وتاريخك بخلدلي النشـــور ذكـــراك
ســـاثلنو الكريم الأخلصك حـــبـــاك
يبـــرد مـــرقـــدك وعـــقب الجنان مـــشـــواك

١ - اب عغنة واب عفينه : نوع من القطط كريه الرائحة قصد به الشاعر كنية (أب عاج) المشهورة .

البطل المصاب

تأليف : عبدالله ود الطيب

البطل المصـــاب الفـــراقـــو مـــا بنسـد
أب خلقـــا رضـــيـــة المحـــاسنو مـــابتنعـد
يـاحليـل الشـريـف الـوفى مــــا وعــــد
الجـــــــــرح المغـــــور الـليـلـة إتجـدد
تـاني منـو براك بعـــــرف كــــلام الجـــد
يابحـــــر المحـــيط المابحـــبــسك سـد
فـــوق الطندبة . . . بتـــمـــرق الحـــد

☆☆☆

ضـــقنا الويل وراك في العـــذاب وصلنا الحـد
فـــينا الضـاع كـــتـــير والبـــاقي إتشـرد
كل يوم الأمـــل في نفـــوسـنا يتـــجـدد
راجـــيـن جـــيـتـك بعـدالعـــذاب نسـعـد

☆☆☆

بي مـــوتك ياالشـريف مـــاتت مـــعـــاك آمـال
فـــقـــدوك العـــدامى وعليك شـــوقنا طال
مـيتك سـمـحـة . . . مـاك المرتشي المحـتـال
كل الحي بموت لو قـــصـــر العـــمـــر أو طال

☆☆☆

فـتـحت خـشم بيـوت قـبـال ياالشـريف مـا تقـوم
يا ضـــراع الضـــعـيف . . يانصـــرة المظلوم
يـوم مت ياالشـريف . آمـــــالـنا إتـوفت
بي حـــالتنا الكئـيـبــة ، كل الدول عـرفت

في مــفــتــرق طـرق . . . خليـــتنا نتلفت
راجين جـــيــتـك . . . وإتْ قـــافلتك قـــفت

☆☆☆

من قم ياالشريف حــاشــاك مــاكــه جـبـان
مــادرت تعـيش سـعـيـد وباقي البلد تعـبـان
بيـــتك بـالعـــدامى طـول الوقت مليـــان
ضـــيــفــانو الألوف ريقـان خلف ريقـــان

☆☆☆

يـاحليل الشـــريف الخـــيـــرو مـادابو
راجنو الألوف لي جيـــتــو بتـــشـــابو
أب رايا سـديد كل الدنيـــا بتـــهـــابو
مـــا جـروا القـلم راجــعــوا حـــســابو

☆☆☆

من قـــمـت يـاالشـــريف بلـــدنا إتـقـدم
حـــتى الكان عــدو من بعـــدك إتـنـدم
كل يوم الديـون في ضــــهـورنا تتـــردم
قـاســينا الشــدايد مـا عــارفين نصل يوم كم

اللحظات الأخيرة للشهيد

يدعو الناس ربهم :
اللهم ألهمنا حسن الخاتمة " ...

فما أعظم خاتمة شهيدنا الحي . . حسين الشريف يوسف الهندي! أبَى إلا أن يؤدي " حَجَّته السابعة " . . وكأنه يعلم أنها " حَجَّة الوداع " ! أبى إلا أن يؤديها في ظروف سياسية وصحية يعلمها هو ، ويعلمها مَنْ حوله ؛ وأبَى إلا أن يمكث طويلا في أرض الحرمين بعد أدائها ؛ ويحتفل هناك ـ ولأول مرة ـ بمولد جده المصطفى ؛ هناك إلى جواره ؛ ويقيم ليلة روحية بهذه المناسبة ، في رحاب المدينة مع رفاقه وأحبابه من السودانيين ، ويتلو من الذاكرة فصولا من " المولد " ـ كتاب في السيرة النبوية ـ ذلك النثر المنظوم من تأليف والده أبِي البركات . . العارف بالله " الشريف يوسف الهندي " ؛ والكل يعلم أنه ـ رحمه الله ـ حفظه مع القرآن في طفولته . . لكنه لم يكن (طيلة حياته السياسية) من قرائه المداومين على قراءته ! أو من التالين لذلك " المولد " (في لياليه الأسبوعية . . الأثنين والجمعة كما هي عادة أحباب الطريقة الهندية) . . وتلك " كرامة كبرى " سُجِّلت للشهيد البركة

كان الحزب الاتحادي الديموقراطي يعقد مؤتمرا تاريخيا في إحدى جزر اليونان وهو أكبر ملتقى للاتحاديين ضم شملهم ؛ قيادة وقاعدة شبابا وطلابا . . منذ أن انفض سامر الديموقراطية في صبيحة مايو المشؤوم ؛ وكان من المقرر أن يخاطب الشهيد البطل الشريف الحسين هذا المؤتمر في جلسته الختامية . ولكن عند عودته . . في طريقه للمؤتمر من مدينة الرسول ، أصيب " بالذبحة القلبية " في مدينة جدة ، ولزم غرفة " العناية الطبية الفائقة " في مستشفى جدة الوطني ، وتستَّر المرافقون ـ بتوجيه منه ـ على هذا الحدث حتى عوفي .

ومن هذه الغرفة . . وفي أوّل صحوة عافية له ، بعث رسولا للمؤتمر يؤكد حضوره للجلسة الختامية رغم " مشاغله " ؛ وأبَى (كعادته) أن يشكو المرض . . وتستَّر عليه رفقا برفاقه وأبنائه ! ورغم نصائح الطبيب وتأكيده له . . أن حالته الصحية

تستدعي الاعتكاف (لزوم الراحة والاستجمام) شهرا كاملا على الأقل، اندفع من المستشفى في طريقه لأثينا ، وهو لا يعلم أن مطار أثينا مغلق بسبب الإضراب يومها وضرب في أجواء أوروبا علّه يلحق بمركب بحري أو برّيّ يوصله لعاصمة الإغريق حيث يلحق بخلاصة من أحب الناس إليه . وقبلها . . حط به الرحال في العاصمة الأردنية ، عُمان .

وفي صباح الأربعاء السادس من يناير ١٩٨٢ ، وكان المؤتمر قد أكمل أعماله بنجاح وأوشك أن ينفض ، اتصل بالمؤتمر هاتفيا ـ وما شكا مرضا ولا شكا إرهاقا ـ لكنه كان يعتذر في ألم ومرارة عن التأخير في الحضور (وكان يبث مشاعره صراحة لا تلميحا كعادته) وطلب من المتحدث معه أن يظل المؤتمر في حالة انعقاد بمكانه وألا يبرح أحد حتى يلحق بهم في أول طائرة تحط رحالها في مطار أثينا . فأبلى المؤتمر ذلك ، وتقبّل قراره بالتصفيق الحاد .

وفي مساء السبت ٩/ ١/ ١٩٨٢م هبطت طائرته في مطار أثينا بعد الخامسة مساء بدقائق ؛ وكان معه مرافق واحد فقط (ورغم وعثاء السفر والإرهاق الطويل ، كان في غاية من السعادة) أسرع إلى فندق "الملك مينوس" ، وأرسله ليأتيه بأكل ، حين أراد أن يذوق طعاما (لأول مرة) بعد مدة طويلة لم يذق خلالها شئياً . وليرى خاله و" أباه " الذي رباه ـ أستاذ الأجيال . . أحمد خير المحامي ـ الذي كان ينتظره في أحد فنادق المدينة .

ثم اتصل هاتفيا بمنزل أحد أبنائه (عصام بابكر العمدة . . من الشبيبة الاتحادية) لينبئ عن وصوله ، ويسأل عن مكان خاله بالمدينة . . وكانت المتحدثة ابنة له في الجانب الآخر ، من بنات مسقط رأسه ـ بري الشريف ـ وعروسا حديثة للشاب الاتحادي صاحب المنزل (الذي كان غائبا في شؤون المؤتمر) ، أخذ يسلم على العروس الاتحادية ، ويشكو لها الجوع ، ويطلب منها ـ مازحا ـ "الكسْرة بأم رقَيْقَة" ويسألها عن الحال والأحوال ، ثم يطلب منها : " دعي زوجك يحضر [illegible] " ويعطيها عنوان الفندق ورقم الهاتف . . " لأحضر لكم وأذهب لخالي أحمد خير ، ولألحق

بالمؤتمرين المنتظرين الليلة وليس غدا " ! وتلك كانت أخر محادثة هاتفية له في الحياة .

طلب بعدها من مرافقه أن يحضر له "ساندوتش فول أوطعمية " لأنه كان يحب الأكلات الشعبية ، ولا يطيق "دهنيات الإغريق على الصحون" كما قال . . وطلب منه أن يتجوّل حول ميدان "أمونيا " المزدحم بالسواح ، علّه يجد أحدا يدله على الفندق الذي يقيم فيه خاله أحمد خير المحامي .

وخرج المرافق ملبيا طلب "الشيخ" . . الشريف . ومن بعد خروجه مباشرة أغلق الشهيد باب الحجرة ، وانتقل من المقعد الذي كان يجلس عليه . . إلى السرير ليقضي نحبه هادئا مطمئناً، مرتاحاً في رقدته الأخيرة، وكانه يغطُّ في نوم عميق . وليس عليه مظهر من مظاهر الموت ! وتلك كانت حسن الخاتمة . . مكرمة أخرى حباها الله تعالى للفقيد المجاهد الشهيد ، بعد مكرمة الحج وزيارة قبر جده المصطفى (صلى الله عليه وسلم) مباشرة . ومن مات في سبيل الوطن وخدمة عباد الله المسلمين من خلق الله فيه، فهو شهيد . . كمن مات في سبيل الله . .

حضر المرافق الرسول وطَرق الباب ، ولكن . . ليس هناك من مجيبَ ! فاستعان بإدارة الفندق وفُتح الباب . . وكأن "الشيخ" كان ينام نومة هادئة ؛ فطلب منه المرافق أن يصحو، ولكن هيهات . . هيهات أن يجيب إذ لا حياة لمن ينادي . . وظنوا أنه مغمى عليه من آثار السفر والإرهاق؛ فنودي على المستشفى وحضر الإسعاف يحمل الطبيب، ولم يصدق الحاضرون أن الله اختاره إلى جواره ، وأن البطل العظيم قد استشهد . . فما أروع هذه الخاتمة السهلة اليسيرة الحسنة !

وكأنا به "خالد بن الوليد" آخر . . خاض عشرات المعارك ، ثم قال وهو يموت على سريره: "أموت كما يموت البعير . . فلا نامت أعين الجبناء" ! فكم من مرة حاول الجبناء الغادرون اغتيال الشريف ! هم وأصدقاؤهم من غير السودانيين في روما! وفي باريس! وفي واحد من فنادق لندن . . وغير ذلك ! من محاولات اغتياله عبر اثنتي عشرة سنة من نضاله وجهاده ضدهم ، ولكنهم لم يفلحوا ؛ فكانت حياته الحافلة بالعطاء النضالي الثر ، صداعا دائما مستمرا لهم ، فلله درُّه في الخالدين . .

مع الصديقين والشهداء والصالحين .

المكرمة الثالثة لفقيدنا الشهيد ، جاءته في لحظاته الأخيرة حين استشهد هكذا . . وقريبا منه خاله وبعض أهله وأقرانه ورفاقه وأبنائه وحواريه . وبالطبع كان من الممكن أن يموت وحيداً في أي مكان من العالم ، الذي اعتاد أن يطوفه شرقا وغربا ، بغير علم إنسان بوجوده أو مكانه (لأحد من زملائه أو رفاقه) ومن غير مرافق في أغلب الأحيان .

رحم الله الزعيم ابن الزعماء . . . الصالح ابن الصالحين .

بيان الحزب الاتحادي الديموقراطي حول وفاة الشريف

ينعي الحزب الاتحادي الديموقراطي السوداني بمزيد من الأسى والحزن ، للشعب السوداني وللأمة العربية والإسلامية ، ولشعوب القارة الأفريقية ولأحرار العالم بأسره ، المناضل الجسور ، قائد الجبهة الوطنية السودانية المتحدة ، وزعيم معارضتها ورئيس الحزب الاتحادي الديموقراطي ، وأحد كبار رجال حركة التحرر الوطني في العالم الثالث ، الشريف حسين الشريف يوسف الهندي ، الذي اختاره الله إلى جواره مساء السبت ١٤ ربيع الأول عام ١٤٠٢هـ الموافق التاسع من يناير ١٩٨٢م بأثينا، بينما كان يستعد لمشاركة إخوانه وأبنائه مؤتمرهم العتيد، الذي يناقش قضايا الوطن والأمتين العربية والإسلامية ، ويرسم الطريق لكفاح يهدف إلى تحرير الإرادة السودانية ، وإعادة الحياة الديموقراطية للشعب السوداني الذي يعاني من وطأة الحكم العسكري الدكتاتوري الجاهل .

تولى الفقيد الراحل تنظيم وقيادة حركة المعارضة السودانية القومية ، منذ صبيحة ٢٥ مايو ١٩٦٩م ؛ في أحرج الظروف التي مرت بالوطن السوداني ... وبقدرة المناضلين ، وعبر تضحيات غاليات ، تخطى عن طريقها كل العقبات ، حتى وحَّد الشعب السوداني بكل فئاته وطبقاته ، لمقاومة الحكم الدكتاتوري الفردي المتسلط ولإعادة الحرية والديموقراطيه وحكم الشعب .

لقد سجل فقيد السودان العظيم ، صفحات بيضاء ناصعة في دعم حركة التحرر الوطني ، ليست فى السودان فحسب ، وإنما في الوطن العربي والقارة الأفريقية والعالم الثالث . وفى سبيل ذلك بنى علاقات قوية راسخة مع الثورة الليبية وقائدها معمر القذافي ، والثورة العراقية وقائدها الرئيس صدام حسين ، والثورة الفلسطينية وقائدها الرئيس ياسر عرفات ، والحركة الوطنية المصرية ، والحركة الوطنية اللبنانية وكل حركات التحرر الوطنية في العالم . . كل ذلك دعما للقضية الوطنية السودانية وقضايا الوطن العربي ، وفي مقدمتها القضية الفلسطينية ، التي كانت ومازالت ـ حتى

آخر أيامه ـ تمتلك جزءا كبيرا من حواسه . فقد كان أحد سواعد الشهيد إسماعيل الأزهري الخُلّص ، مما أهّله لأن يلعب دورا أساسيا ورائدا في قيام وإنجاح مؤتمر القمة العربي في الخرطوم عام ١٩٦٧م ، والذي ظل يُعرف بمؤتمر اللاءات الأربع ، ذلك المؤتمر الذي وضع القرارات والحلول ، التي ثبت - على مر الزمان - عدم وجود بدائل لها ؛ كما كان الفقيد أحد المندوبيْن اللّذين أوكل إليهما ذلك المؤتمر ، إنهاء النزاع في اليمن الشمالي ، وقد استطاعا بفضل الله ، وضع حد نهائي له .

لقد ظل الشعب السوداني ينظر إليه (من خلال تحركاته وانتفاضاته ضد الحكم الدكتاتوري في السودان) أملا يُرتجى وقائداً مُنتَظَراً ومنقذاً أميناً ؛ حتى تحوّل اسمه وصورته وصوته ، صدى عميقاً لرغبات الجماهير ، وتطلعاتها نحو المستقبل المرجو . ولم يكن القائد الفقيد يحرص على استعمال القوة وحمل السلاح ، كوسيلة لحل القضية السودانية ، إلاّ بعد أن بادر النظام الحاكم في السودان إلى استعمال القوة والسلاح ضد حركة المعارضة . . وبذلك ، أحدثه كظاهرة فريدة عند الشعب السوداني .

ولكنه كان ـ في نفس الوقت ـ لا يرفض السِّلم ؛ فاستجاب إلى كل نداءات المصالحة والتفاوض ؛ التي كانت أُخرها اتفاقية لندن عام ١٩٧٨م ؛ دون أن يفرط في حقوق الشعب ، أو يقبل إغراءً أو يخشى تهديداً أو وعيداً ؛ لأنه كان دائما يؤثر النظرة الموضوعية للقضية ؛ فأثبت بذلك ـ للشعب السوداني وللعالم أجمع ـ أن النظام الحاكم في السودان ، هو الذي يراوغ لكسب الوقت ، وإيثار مصلحته الخاصة على مصلحة السودان عامة .

ولد الفقيد الكبير في أكتوبر عام ١٩٢٤م ، في بري الشريف (من ضواحي مدينة الخرطوم شرقا . . وعلى الضفة الغربية من النيل الأزرق) ؛ وتلقّى تعليمه الابتدائي بمدينة واد مدني ، وتخرج من كلية فكتوريا بالاسكندرية في مطلع الاربعينات ؛ وهو متمكّن من إجادة اللغتين الإنجليزية والفرنسية ، وقبلهما لغته العربية . . قراءة وكتابة وتحدُّثاً ؛ كما اكتسب مؤخّرًا إتقان وإجادة اللغات : الروسية والأمهرية والنيجيرية .

وفي عام ١٩٥٧م أصبح عضوا بالبرلمان السوداني الثاني، الذي سرَّحه الحكم العسكري الأول في عام ١٩٥٨م، ورغم قِصر المدة، فقد تكشَّفت مَلَكاته الأدبية والشاعرية، فبرز كخطيب ساحر مِفوَّه، ومتحدث فذ قادر على امتلاك مشاعر سامعيه؛ وظل الفقيد في ساحة النضال لإعادة الديموقراطية لبلاده، حتى قيام ثورة أكتوبر الشعبية المجيدة، التي أطاحت بالحكم العسكري عام ١٩٦٤م.. ثم تبوأ مرة أخرى وزارة الري، ثم بعدها تولَّى وزارة المالية فالحكومات المحلية، ومرة أخرى وزارة المالية، وظل بها حتى انقلاب ٢٥ مايو ١٩٦٩م.

إن الشريف حسين الهندي لم يمت، لأنه يمثل فكرة وعقيدة في عالم النضال وسيبقى مثالا للقائد؛ وستظل أساليبه النضالية وأحاديثه الوطنية، دروسا لأفراد الشعب السوداني ولكل المناضلين... ومصدرا للإشعاع وللإلهام.

إن هذا الفقد التاريخي الجسيم، إنما يضع على كاهل كافة فصائل المعارضة السودانية، مزيدا من المسئولية، ويجدِّد إصرارها على المضي في واجباتها، حيال قضية الديموقراطية في السودان. وإن الحزب الاتحادي الديموقراطي سيظل على العهد ثقة بقدرة الشعب وقدرة جماهيره - التي تقف من ورائه قوية صلبة صامدة - مؤكدا أن الراية لن تسقط، وستظل عالية خفاقة، موفورة الكرامة.. سامية الأهداف حتى تُستعاد إلى السودان حريته. (ولا تحسبَّن الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتا، بل أحياء عند ربهم يرزقون) صدق الله العظيم.

الحزب الاتحادي الديموقراطي السوداني

١٥ ربيع الأول ١٤٠٢هـ = ١٠ يناير ١٩٨٢م

تاريخ الحزب الاتحادي الديمقراطي
كلمة عن الديمقراطية

بقلم الشهيد : الشريف حسين الهندي

بسم الله الرحمن الرحيم

" هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ، إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا ، إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفورا إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا، إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا، عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا ، يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا ، ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً ، إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريراً ، فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً ، وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا ، متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريرا ، ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا ، ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قوارير ، قوارير من فضة قدروها تقديرا

لقد جاء في الأثر ، " كل أمر لا يُبدأ فيه ببسم الله ، فهو أجزم أو أبتر " . ولذلك فقد بدأنا بشيء من آي الذكر الحكيم ، علَّه يعطِّر مجالسنا ، ويبعث فينا الروح القوية (إسلامية كانت أو معنوية) وعلَّه يزيد من نضالنا ، ويردُّ على حيرة أسئلتنا . .

دور الحزب . . والحركة الوطنية الشعبية :

لقد سمعنا ومازلنا نسمع ، تساؤلا كثيرا بين الحزب وبين الحركة الشعبية المعارضة وبين دور الحزب ودور الحركة الشعبية المعارضة ؛ ونحن لا نريد أن نفصِّل كثيرا وإنما نريد أن نوضح أنه ليس هناك فواصل أو فوارق ، بين الحركة الشعبية السودانية المعارضة وبين الحزب ؛ لأن هذا الحزب . . لم يقم على أنه تقسيم قطاعي اقتصادي طبقي . هذا الحزب قام نضاله ـ منذ نشأته ـ على الالتصاق الكامل والوثيق بالحركة

الشعبية السودانية ؛ قام على الانتماء الوطني في الأول ؛ ومداخله ليست الحزبية . . إنما مداخله هي الوطنية .

إنك تنتمي لهذا الحزب عن طريق انتمائك للوطن . . ولذلك ؛ فليس هناك فواصل أو فوارق بين الوطني أوالحزبي . إن كل الذي نريد أن نؤكده :

أن الحزب هو الوطن مصغَّرا، وأن الوطن هو الحزب مكبَّراً .

إن الحزب الاتحادي الديموقراطي لا يأتي من طريق أممي ؛ ولا يأتي عن الطريق القومي ؛ وإنما هو يبتدئ - أول ما يبتدئ - عن طريق الوطن ؛ ولذلك فإن حزبكم هو حزب الحركة الوطنية السودانية . قام في الأول لمناهضة الاستعمار ؛ ولم يكن عند ذلك ذا تفصيلات معيَّنة أو مقاسات معيَّنة ، هي مثل التي كان يتساءل عنها الناس . هو حزب قام كمؤتمر شعبي وطني عام ؛ يشمل الوطنيين في كل السودان . . ضد الاستعمار ؛ وخاض معركته عند ذلك بقيادة الزعيم الشهيد الراحل السيد إسماعيل الأزهري ، ضد الاستعمار . . ولإجلائه عن أرض الوطن .

ولم يكن عند ذلك يمثل طبقة معيَّنة ، أو حلفا بين طبقات معيَّنة أو أيديولوجية معيَّنة - أممية كانت أو قومية - ولكن . . يمثل (أول ما يمثل) الوطنية السودانية ، في عراكها - الفاصل مع المستعمر - والأصيل . . في سبيل إجلاء المستعمر عن أرض الوطن . وهو في هذا قريب الشبه - إذا جاز التشبيه هنا - بحزب المؤتمر الهندي حزب عريض واسع ؛ حزب للحركة الوطنية في مجملها ، وفي تقسيماتها المختلفة الطبقية والاقتصادية . قام لكي ينازل الاستعمار . وهو حزب لم يبتدئ بمؤتمر الخريجين إنما هو حزب ابتدأ بالثورات المتصلة غير المنفصلة ، التي قام بها الشعب السوداني ، عبر مراحل تاريخه النضالي الطويل ضد الاستعمار .

وكان للشعب السوداني - من فجر التاريخ في السودان - مباركة هذه المعارك التي خاضها ضد الاستيطان، وضد التغيير الحضاري ، وضد التغيير الديني ؛ منذ أن كان السودان ممرا أو مقرا أو معبرا للاستعمار ؛ بأشكاله المختلفة : الثقافية والاستيطانية والدينية .

تاريخ الحركة الوطنية السودانية :

وقفت الجماهير الشعبية السودانية عند ذلك ، وهي مزيج من الجماهير التي هاجرت من الوطن العربي ، في الهجرات الشهيرة الأولى التي نعرفها جميعا - الذين ناضلوا الحكم الأموي - هاجروا إلى السودان . هاجروا ضد القهر ، وضد ظلم الحكم الأموي . . وأتوا إلى السودان . والذين هاجروا ضد الحكم العباسي هاجروا واستوطنوا السودان ؛ والذين هاجروا عندما اندثرت الثقافة الإسلامية والعربية في الأندلس ، هاجروا من غرب السودان . . هاجروا أيضاً ضد الغزوات الاستعمارية والكَنسية ، وضد التصفيات الدموية التي سادت هذه المنطقة .

هؤلاء المهاجرون التقوا بالوطنيين من القبائل النيلية الأصيلة : الحاميَّة والساميَّة في السودان . . مثل قبائل الدينكا والنوير والشُّلك . واختلطوا وامتزجوا معهم ، وأقاموا سدا منيعا ضد الاستعمار . هذه في واقع الأمر ، بداية الحركة الوطنية السودانية . وقاتلوا ضد الاستعمار السياسي والاستعمار الثقافي ؛ وضد إنصار القومية العربية واللغة العربية . . انهيار الدين . وعند ذلك - كما نعلم - فإن هناك رباط وثيق بين الكنيسة في مصر وبين الكنيسة في أفريقيا . .

وكان السودان عند تاريخ مملكة سوبا وما قبلها ، ممرا لهذا الاستعمار الثقافي والديني والاستيطاني والحضاري ؛ ولكن أجدادنا كافحوا في ذلك الوقت ، لأصالة السودان ولعروبته ولقوميته . واختلطوا اختلاطا غير منفصل ، بالقبائل الأصيلة الموجودة في داخل السودان ؛ وكوَّنوا - فيما كوَّنوا - خلاصته الأساسية ، والسلالة الموجودة الآن للشعب السوداني ؛ وهي سلالة وطنية وأساسية قامت ضد الغزو والاستيطان ؛ وضد الغزو الاستعماري وضد الغزو الحضاري وضد الغزو الثقافي وحافظت على التكوين الحالي للسودان !

السودان ظل متأججا ومتوجها نحو المنابع الحقيقية ، للحضارة العربية والإسلامية والوطنية الأفريقية . لم يتآكل ولم يتكل ولم يتوانَ إطلاقا ... وهاجر إخواننا قبل ذلك ، الذين سبقونا . . لم يهاجروا جنوبا وإنما هاجروا شمالاً . ولم يهاجروا

شمالاً من أجل لقمة الخبز والعيش ، وإنما هاجروا استنباطا للمنابع الأصلية للثقافة العربية والإسلامية والاستثمار العربي .

وهاجر إخواننا د. بشيرعبد الرحمن ود. عقيل ، وأمثال الأساتذة : عبدالماجد أبو حسبو وأحمد زين ؛ والرعيل الأول من السودانيين الذين هاجروا . . وحتى على أرجلهم إلى مصر . لم يهاجروا طلباً لمصر وحدها ، إنما هاجروا طلباً للانتماء القومي في بلادنا .

مؤتمر الخريجين :

ومن هؤلاء ومن غيرهم من الوطنيين - وعلى رأسهم السيد الشهيد إسماعيل الأزهري - تكوَّن مؤتمر الخريجين . ولم يكن مؤتمر الخريجين مؤتمرا طبقيا ؛ بمعنى الخريجين الذين تعلَّموا في مقابل الذين لم يتعلَّموا . . (أي بمعنى الذين تخرَّجوا من المدارس والذين لم يتخرَّجوا) ؛ ولكنها كانت حركة وطنية ، المفروض أن تستقطب وأن تجنِّد الفصائل الأساسية للثورة . . وهي الفصائل الواعية . تكوَّن مؤتمر الخريجين ضد الوجود الاستعماري الانجليزي . فالذين كوَّنوا مؤتمر الخريجين ، والذين قاموا بثورة ١٩٢٤م ، والذين سبقوهم في الثورة المهدية ، فصائل محددة من الشعب السوداني ، ومعروفة تاريخيا ؛ كفاحها مستمر . . ومتصل غير منفصل .

الحزب ومعارك ما قبل الاستقلال :

ولذلك حينما نسأل ما هي آيديولوجية الحزب؟ أو ما هي آيديولوجية الحركة الوطنية السودانية ؟ لا بد أن نُلِم بشيء من التاريخ ، ونُصِل التاريخ الماضي بالحاضر لكي نوصِّلهما بالمستقبل ؛ ونستعين بهذا - زادا من كفاحنا - للحفاظ على قوميتنا ووطننا . . وعلى حرِّيتنا .

وقامت الحركة الوطنية السودانية ضد الحكم الثنائي ؛ وهي - في ذلك الوقت - لم تنشأ ضد الحكم الثنائي بقسميْه ؛ لأن قِسما من الحكم الثنائي لم يكن مستعمِرا حقيقيا ؛ وإنما كان شكلا من أشكال الاستعمار في مصر . ولذلك فالحركة الوطنية السودانية ، خاطبت مصر كشريك مقهور في هذه المشاركة المفروضة من الاستعمار العالمي .

ولكنها كانت تخاطب في واقع الأمر الاستعمار البريطاني . وكافحت تحت شعار الاتحاد ؛ وتحت شعار الوُحدة ؛ لكي تميِّز وتبيِّن انتماءها .

وحدثت المعارك الشهيرة والتي يعرفها الكل ، في الخرطوم وبورتسودان وفي مدني . . وغيرها ، وهي معارك ما قبل الاستقلال ؛ المعارك ضد الأشكال التي طالب بها الاستعمار في السودان ؛ ضد الأشكال التي حاول أن يبقيها ويبقى معها . . . ضد المجلس الاستشاري وضد الجمعية التشريعية ، وضد أي أشكال من الاستعمار ، حاول أن يدهنها بمكياجه وأن يعطيها صورا ؛ علَّها تُقبَل أو علَّها تكون معقولة أمام جماهير الشعب السوداني ؛ ولكنها لم تقبلها . وخاضت جماهير الشعب السوداني معارك كبيرة وأساسية . . في سبيل استقلالها .

حزب الأشقاء والوطني الاتحادي :

وبرز عند ذلك . . . مؤتمر الخريجين لكي يقود هذه المعارك . كما برز الحزب الاتحادي الديموقراطي في شكله السابق : حزب الأشقاء ؛ وبرزت ـ عندها أيضا ـ قيادة السيد الرئيس الشهيد إسماعيل الأزهري ؛ قائدا للحركة الوطنية السودانية . . حوالي الـ ٤٥ سنة من عمره . فحققنا استقلال السودان ؛ رافعا لعلمه ، مكافحا لوجوده ، سجينا من أجله ، (في معركة الديموقراطية الأولى ضد انقلاب نوفمبر) وسجينا من أجله ـ وهو في الهزيع الأخير من عمره ـ ضد الحكم العسكري المايوي الحالي . ولذلك بقي حياته كلها مناكفا ـ منذ "الرجاف والزراف" في حكم عبود ـ إلى الزنزانة في حكم النميري ؛ وفي الوقت وفي العمر الذي كان يجب أن تقام له التماثيل ؛ (كما أقيمت للذين حققوا استقلال بلادهم) ، السيد إسماعيل الأزهري لم تُقَم له التماثيل ؛ ولكنه ذهب مباشرة من الزنزانة ـ بعد كفاح طويل في سبيل الاستقلال ـ إلى القبر . وحوى ذلك القبر عند ذلك . . آمال أمة كاملة ، وتاريخ أمة كاملة ؛ هو تاريخ الكفاح الوطني لهذا الحزب .

وإذا استعرضتم التاريخ في كل المنطقة العربية ، لا يمكن أن تجدوا قائداً أو زعيما حقق استقلال بلاده ، ثم ذهب من الزنزانة إلى القبر . بدأها من الزنزانة منذ ٤٠ سنة

وذهب إلى القبـر من هذه الزنزانة ؛ في الوقت الذي كـان يتـغنى فيـه السـودانيـون ويقولون في شعرهم القومي :

أيام الرجال كل زول مقابل دانة أحسن متعة للأحرار . . هي الزنزانة

الحكومات العسكرية والاستعمار العالمي الجديد :

الذين أتوا في الخامس والعشرين من مايو كنا نعرفهم بالوجوه ؛ وكنا نَعدّهم على الأصابع ؛ حفنة من الجهلة . . وأنا لا أريد أن أنزل بأسلوبي ؛ ولكن كانوا من الذين لم يراعوا التراث : لا القومي ولا الديني ولا العربي . . للسودان . عصابة استولت على الحكم في فجر ؛ لأنه كان معها ١٠٠ جندي وثلاث أو أربع دبابات ؛ استطاعت أن تسابق بائع اللبن في الفجر - من يوم الخامس والعشرين من مايو - وأن تستبق على الإذاعة . . وعند ذلك انتشرت الشعارات التي تعلمونها .

فالحكم العسكري في هذه المنطقة العربية والأفريقية ، كان أسلوبا حديثا للاستعمار . كان الاستعمار يعتقد أن المؤسسات الوطنية السياسية ، لا يمكن أن تقف معه ، لأنها تقف على مقوِّمات وعلى أسانيد حقيقية لأصالة الشعوب التي تمثلها . ولذلك أتى بالجيوش ، وأتي بها لأنه يعتقد أنها مؤسسات منضبطة ؛ تتثقف على ثقافته . . وجاءت سلسلة الانقلابات - كما تعْلمونها - في الوطن العربي وفي الوطن الأفريقي ؛ وأُطيح عند ذلك بزعماء الاستقلال ، وبالمعاركين ضد الاستعمار البريطاني : من نيكروما إلى هاماني ديوري إلى إسماعيل الأزهري ؛ إلى كل الذين عاركوا ضد الاستعمار في المنطقة الأفريقية والآسيوية . كان ذلك أسلوبا من أساليب الاستعمار لكي يأتي بالجيوش ؛ لأنه يعتقد أنها منضبطة ومثقفة استعماريا ؛ وتستطيع أن تنضبط في الولاء . . . هكذا الاستعمار .

الثورة المهدية :

قامت الثورة المهدية ضد الاستعمار التركي والمصري والإنجليزي بعد ذلك . ولم تكن الثورة المهدية إرثاً لأحد ؛ كانت انطلاقا من كفاح الشعب السوداني ، في سبيل أصالته وقوميته ؛ وفي سبيل عروبته وإسلامه . ولذلك كانت امتدادا طبيعياً للثورات

الكبرى التي يزخر بها تاريخنا . ولم تكن الثورة المهدية إرثا لأحد لأن الثورات لا تورث ؛ ولا يستطيع ابن نابليون أن يقول إنه وارث للثورة الفرنسية ؛ ولا يستطيع أي أحد أن يقول إنه وارث لأية ثورة .

إن الثورات هي من انتاج الحصاد للشعوب في تكويناتها المختلفة ؛ وبذلك فإن أهلنا على اختلاف أنواعهم ونواحيهم التي سكنوها ، باشتعال الثورة المهدية، كانوا يعانون الاستعمار الاستيطاني والحضاري ، في شكله التركي والمصري . . ثم الإنجليزي . ولا يُحسَب أن أحداً من أجدادنا لم يشترك في هذه الثورات ؛ فقد كانت ضد الظلم والقهر والاستعمار ؛ وضد التعذيب والتجويع الذي كان يعاني منه أبناء الشعب السوداني ؛ ولذلك اشتعلت وشملت كل مناطق السودان ؛ وكان أبطالها ليس من جنوب السودان أو من غرب السودان ولا من شرقه . . فقط ؛ بل كانوا من كل أنحاء السودان؛ من شماله ومن وسطه ومن غربه . . وغيرها .

اندفعوا عند ذلك ضد الاستعمار الذي كان ماثلا من الخارج ـ كما يمثل الآن ـ وهناك مشابهة كبيرة ومقارنة كثيرة ، بين الظروف التي حدثت عندها الثورة المهدية وبين الظروف التي يعانيها ويخوضها شعبنا الآن . كان هناك التدهور المعيشي والاقتصادي والجباية الظالمة ضد جماهير الشعب ؛ والجوع والعطش ؛ وكان هناك الاستعمار بكل أشكاله ؛ ولذلك . . كانت الثورة شاملة ، وقوادها وأبطالها من جميع بقاع الوطن .

الذي يدَّعي الآن إرثا للثورة المهدية، إنما يدَّعي إرثا للسودان بأكمله . فلقد كان السودان بأجمعه ثائرا آنذاك ؛ لأن مقومات الثورة ـ كما نعلمها كلنا ـ هي القومية والدِّين . ولذلك انطلقت الثورة المهدية من مناطق التكوين الأساسية للثورات الكُبرى الدِّين والقومية . . وانتصرت هذه الثورة ؛ وكان كل السودانيين مناضلين في هذه الثورة . ونود أن نؤكد أن الثورات ليست ملكا لأحد ؛ ولاهي حق يورث ! لأن الثورات . . نتاج للكفاح البطولي للشعوب .

الاستعمار الثنائي :

وانتصرت الثورة المهدية . . وبعد حوالي ١٥ عاماً – عندما تدهورت الظروف

وحاول البعض احتواء الثورة ، وحدث الجوع (كما يحدث الآن) في "سنة ستة" وحدث القهر-انحسرت الثورة المهدية ، وأتى الاستعمار الثنائي بشكله المعروف . وكان الاستعمار الثنائي يحسب أنه سيستعمر السودان (مثلما استعمر مثلا كينيا أو غيرها من البلدان الأفريقية الأخرى . . وكينيا اتخذناها هنا لمجرد المثل فقط) لكنه وجد مقاومة أساسية من الشعب السوداني . . المتمسك بدينه وبأصالته العربية وبوطنيته السودانية ؛ ولذلك لم ينتصر المستعمرون في معركة استيلائهم على السودان . كان استيلاؤهم سطحياً ؛ وبقيت اللغة العربية محفوظة في خيام أهل السودان ، مثلما أنزلت . . وكما كانت في القرآن الكريم ؛ ومثلما حدثت . . وبقيت الأصالة العربية والإسلامية والوطنية-الأفريقية ، متفقتين على الحفاظ المستقل للسودان .

معارك التحرير :

وحدثت بعد ذلك معركة عدوة ، وهي أولى المعارك الأفريقية في سبيل التحرر . كان السودانيون والإثيوبيون يتحاربون فيما بينهم ، عندما حدث الغزو الاستعماري من الطليان . . اتفق السودانيون والإثيوبيون فيما بينهم ، وخاضوا معركة عدوة الشهيرة في القرن الثامن عشر . وكانت أولى معارك التحرير الأفريقية . . . الذين كانوا يحاربون بعضهم ، حاربوا مع بعضهم ضد الاستعمار الاستيطاني والأوروبي ؛ في سبيل الحفاظ على قوميتهم وعلى أوطانهم . وانتصروا كما نعلم في معركة عدوة .

وبعد ذلك انحسرت الأوضاع في السودان ؛ وحدث التدخل الاستعماري في وقته ؛ وكان تدخلا-تركيا – مصريا-إنجليزيا ؛ وهذا التدخل انتصر عسكريا . . ولكنه لم يستطع أن ينتصر على المفاهيم القومية والحضارية للشعب السوداني ؛ فبقي كما بقي طوال هذه السنين استعماراً إدارياً ، واستعماراً سياسياً واستعماراً اقتصادياً . ولكنه لم يستطع أن يكون استعماراً استيطانياً أو ثقافياً أو حضارياً . حافظ السودانيون على حضارتهم العربية والأفريقية ، وحافظوا على بلادهم . . ولم يستطع الاستعمار أن يلج أي باب مفتوح ؛ وقد كانت له غزوات في ذلك الوقت ؛ وكان له إسناد وكان

له أشياع .

ثورة ١٩٢٤م:

وظلت الثورة مكبوتة في صدور السودانيين إلى أن انطلقت في سنة ١٩٢٤ م حيث كانت هناك ثورة علي عبد اللطيف وعبيد حاج الأمين وغيرهم . وكانت المفاهيم الحقيقية لهذه الثورة ، هي الاتجاه نحو المنابع الحقيقية للثقافة والحضارة . . ارتبطت هذه الثورة بمصر ؛ ليس لأنها تريد الارتباط بمصر ، ولكنها ارتبطت نحو الشمال . . نحو مناطق العروبة ونحو مناطق الإسلام . وحارب السودانيون وقُتِلوا في ذلك ؛ وحدثت ظروف معلومة ؛ ولكن هذه الثورة أيضاً كانت ثورة في سبيل الحفاظ على الحضارة العربية ، وعلى الحضارة الإسلامية ، وعلى الحضارة الوطنية في السودان .

ولم يكن الذين يقومون بها من سُلالة عربية فقط ، لأننا نحن في السودان لا نعتقد أن القومية العربية هي قومية عنصرية ؛ أو هي قومية لونية ؛ أو هي قومية عِرقية . نحن نعتقد أنها قومية حضارية لسانية ثقافية . ولذلك فالذين قاموا بثورة ١٩٢٤ م ، كانوا يخاطبون هذه القومية ، وهذا التكوين الحضاري للبلد . ربما تكون ثورة ١٩٢٤ م قد اندحرت وقد انحسرت ؛ ولكن المد الشعبي في ذلك الوقت . . استمر إلى أن ظهرت نتائجه .

الشعارات الجوفاء . . والتصدي لها:

إن النميري ـ ولم يكن مخاطِباً لأصالة الشعب منذ تاريخنا الطويل ـ أتى بشعارات لابد أن الذين كانوا واعين منكم في ذلك الوقت ، يعلمون كيف دوَّت هذه الشعارات منذ الفجر ، ضد الحريات الديموقراطية للإنسان ؛ دوَّت في سبيل الحكم العسكري الدكتاتوري الفاشي الاستعماري ؛ وصدَّقها جزء كبير من جماهير الشعب السوداني ؛ دوَّت عند ذلك قائلة : " مايو للزراع ، ومايو للعمال ، ومايو للصناع ومايو للطلاب " . . هكذا كانت تستتر بمثل هذه الشعارات . هكذا خدعت جزءاً كبيراً من جماهير الشعب السوداني ؛ ولكن الذين تصدوا قبل ذلك ـ منذ فجر التاريخ

- للاستعمار الاستيطاني والديني ، لكي لا يكون مقراً أو معبراً في السودان ؛ والذين تصدوا له في الثورة المهدية ، والذين تصدوا له عام ١٩٢٤ م ، والذين تصدوا له بعد ذلك - ناهيك عن المنابع الأساسية والأصلية في الثقافة الوطنية والعربية ـ هم الذين وقفوا عند ذلك الوقت (ربما يكونون قِلَّة ، ولكنهم كانوا حراسا لهذا الوطن) وقفوا وأصموا اذانهم عن كل هذه الشعارات ؛ لأنهم كانوا يعلمون أنها شعارات ساقطة شعارات كاذبة ، وشعارات يؤتَى بها مع بائع اللبن عند الفجر ؛ وشعارات تستطيع أي عصابة مسلَّحة مكونَّة من ١٠٠ بندقية ، أن تستولي على إذاعة وأن تذيعها .

علمنا عند ذلك . . أنه قد كُتب على هذا الجيل المخضرم من السودانيين ، في مِثل إعيائهم ، وفي مِثل تقدمهم في السِّن ، كُتب عليهم أن يخوضوا صفحة أخرى من الكفاح . . ضد مثل هذا الحكم ؛ أدركوها منذ اللحظة الأولى بالفطرة ؛ وأدركوها بالطبيعة ...

أتى هذا الحكم براياته الحمراء وبامتداده الشيوعي ؛ أتى هذا الحكم بشعاراته المستوردة لكي يخاطب السذَّج والجهلاء من الشعب السوداني . . أتى يقول : " إنه قد حل عليكم فجر الحياة ؛ وإنه قد فُتحت عليكم أبواب الجنة ؛ وإنكم بعد ذلك. ستنعمون في هذا البلد . . وأن في هذا البلد ، كان إقطاع وكان استعمار وكان فساد ، وكانت رشوة وكانت رأسمالية . . . ونحن أتينا كضباط أحرار . . لكي نزيل هذه المآسي " .

وقفنا نحن عند ذلك . . ضد هذا الحكم ؛ وكنا آحادا . الذي أريد أن أقوله : إننا كنا أفرادا نُعَدُّ على أصابع اليد أو اليدين ؛ ولكن الجبروت والقهروالجيش المرسل ، أساليب لم يتعلمها الشعب السوداني قبل ذلك . . ولم يراها! أسلحة مشرعة في الشوارع ؛ وجنود شاهرو السلاح ؛ سجن وقهر . . وأساليب من التعذيب لم تعرف قبل ذلك .

في مرحلتهم الأولى ، استعانوا بكل أجهزة الاستخبارات التعذيبية الشرقية ؛ كان الشيوعيون . . وكان نميري هذا ، يحتفل بعيد ميلاد لينين في الوقت الذي كانت تجري

فيه الاحتفالات بأعياد مولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) ؛ وكان عند ذلك "يتقيأ" ـ وأنا أقصد هذه الكلمة ـ كل الشعارات الشيوعية ؛ وكان عند ذلك "يسبِّح بحمد" موسكو وبكين وبراغ . . وكل هذه العواصم ؛ أحمر كان . . ناصع الحمرة . وأتى من معه : تقدميون في المظهر ، استعماريون في المخبر . . ولكننا لم يفت علينا هذا . وكنا قلة ؛ لكن هذه القلة رفعت للراية ورفعت للشعار ؛ وتشاورت مع السيد إسماعيل الأزهري في غياهب السجون . وعند ذلك أدركنا أن وطننا أصبح في مِحْنة وأدركنا أنه لا بد علينا أن نقاتل هذه المعركة ؛ مهما بلغ بنا الإعياء . . ومهما بلغ بنا العمر .

الحزب والجبهة الوطنية :

ونحن ـ كما ذكرنا ـ نعتقد أن " الحزب هو الوطن مكبَّرا وأن الوطن هو الحزب مصغَّرا " ولا نفصل بين قضية الحزب وبين قضية الوطن . خاطبتنا أزمة الوطن واتجهنا نحو الوُحدة ـ وُحدة القوى الوطنية ضد هذا الانقلاب ـ لم تخالجنا أحلام الحكم ولم نعتقد أن هذا البلد إرث لأحد ؛ فنحن وحزبنا الذي نمثِّله ، هو حزب أصيل يمثِّل كل قطاعات الشعب السوداني المختلفة : من زراع وعمال ومثقفين وطنيين ، ومن رأسمالية هي وطنية صغيرة ؛ لم يكن يمثِّل مصلحة معيَّنة من أجل الحفاظ على الحكم لذلك . . اتجهنا نحو الوحدة الوطنية ضد هذا النظام .

ذهبنا نحن ـ لا من خوف ولا من جشَع ؛ لكننا نحن الذين صنعنا الجبهة الوطنية ـ ذهبنا لبقية الذين ابتلوا بهذا الحكم مثلما ابتُلينا ؛ ابتُلوا في حرياتهم : الشخصية والديموقراطية والقومية والوطنية والدينية ؛ وكونَّا نحن الجبهة الوطنية . كان حينذاك السيد الشهيد إسماعيل الأزهري في السجن ؛ وكنا نعمل باستشارة كاملة وبتفويض منه . والتقينا عند ذلك بالإمام البطل السيد الإمام الهادي المهدي ، وهذا للحقيقة وللتاريخ . . وبدون تعصُّب .

ولم يكن دور الحزب الاتحادي الديموقراطي فيها دورا ثانويا ؛ كان دورا أوليا . . لأنه هو الذي سعى لها ؛ وهو الذي أنشأها . ولكن التاريخ . . تاريخ ؛ والوطن . . .

هو الوطن ؛ لا يمكن أن يكذب الإنسان على التاريخ ، ولاعلى الوطن . ولا يمكن أن يتعصَّب

في سبيل وطنه تعصُّبا حزبيا أو طائفيا . أنا . . وأمامكم واللّهَ والتاريخ . . أشهد على أن الإمام الغائب (وأمره عند الله مستشهدا كان أو موجودا) وجميع الذين يتبعونه - ومن ذلك الوقت وإلى اليوم - كانوا يقفون مع القضية الوطنية ، والقومية السودانية العربية والإسلامية . هذا أمر لاشك فيه ؛ وهو جزء من صفحات التاريخ المسطورة والمكتوبة للسودان ؛ يجب أن يُعلن ويجب أن نعرِّف به . . . نحن الذين لا يمكن أن نكذب على التاريخ .

الحزب ومعركة الجزيرة أبا :

وقف الحزب وقاتل وعارك ؛ سواء كان بكلامه ، أوسواء كان في معركته الشهيرة في الجزيرة أبا . ونحن كنا جزءا من هذه المعركة ؛ جزءا منها بكل ما تحتويه المعركة من معاني - إذا كانت المعركة تحتوي الأسلحة ، وتحتوي التدريب . . وساعات النضال الرهيبة ؛ أو تحتوي المال ؛ كان الحزب الاتحادي الديموقراطي طليعيا في ذلك .

كان الإمام الغائب - السيد الهادي المهدي - أصيلا في انتمائه حتى حدثت معركة الجزيرة أبا . وفي هذه المعركة قُتل الآلاف ، ودفنوهم أحياء ، وانتهكت الأعراض وستظل في تاريخ هذا الوطن ، معركة الجزيرة أبا ، معركة أساسية فاصلة ؛ لأن المواطنين السودانيين عاركوا فيها ؛ ولا يهم . . هل كانوا انصارا أم كانوا من أية جهة ولكنهم كانوا وطنيين عاركوا هذا النظام في مارس ١٩٧٠ م ؛ وأعطوا أرواحهم فداء لهذا البلد .

لقد كان حزبكم - في ذلك الوقت - ليس ذيليا ، كان طليعيا وقياديا في هذه المعركة وهو لا يتنصَّل منها وإلى الأبد ؛ بل إنه يتشرف بها . . كصفحة من تاريخ الكفاح الشعبي البطولي السوداني . وذهب الإمام - غائبا كان أو مستشهدا لا يهم - بل المهم أنه وقف مع المبادئ الحقيقية لجماهير الشعب السوداني ؛ وضُرب بالقنابل وتألبت عليه الدول وكل القوى . كنا نحن في هذه المعركة . . وذهب هو (ونحن لا نعرف التاريخ

ولا نعلم الغيب - مستشهدا هو أو موجودا) . . لكنه إن كان موجودا فقد أدَّى واجبه ؛ وإن كان مستشهدا . . فلقد قابل ربه بالأماني الحقيقية لجماهير الشعب السوداني . ولقد ضحى - ولا يزال يضحي أنصاره - في سبيل الحرية والوطنية السودانية .

كانت هذه صفحة ولم تمر على مايو سنة ؛ لم نمهلها سنة .

في اجتماعكم هذا حدثت أسئلة : هل نحن مجندون ؟ هل نحن دمويون ؟ نحن لسنا دمويين إطلاقا . نحن من القطاع الإنساني الأصيل في الشعب السوداني ؛ نحن ديمقراطيون ؛ ونحن من أنصار الحرية . نحن لا نفصل المعارك السياسية بالسلاح نحن تربينا على الديموقراطية ؛ وعلى الدستورية وعلى الشرعية ؛ هكذا عاركنا الاستعمار .

وأنا لا أزال أذكر - عند التقاء السيدين - ذهبت ومعي الأخ عبد الماجد أبو حسبو (الموجود الآن في لندن) ومعنا قائد حامية الخرطوم – وأنا لا أريد أن أذكر اسمه لأنه موجود في السودان - وبعد الالتقاء ... وغدا كان ستكون الانتخابات ؛ وغدا . . كنا نعلم أن حكومة السيد إسماعيل الأزهري ستسقط ، ذهبنا للرئيس الشهيد وقلنا له لماذا تسقط ؟ هذه حكومة وطنية أتت بالسودنة وبالجلاء ؛ وأتت بالحرية وبالاستقلال . . لماذا تذهب ؟ ألأن جزءاً من الناس اتفق على أن المائدة قد جُهزت لهم ! وأنهم يريدون أن يلتهموها ؟ وأننا تحررنا من الاستعمار الخارجي ، وبدأت صفحة من الاستعمار الداخلي؟

وعرض قائد الحامية على السيد الرئيس - رحمه الله - أن نسبقهم بانقلاب عسكري وطني ؛ يفسد مخططاتهم ؛ وتُسلّم السلطة للحزب الوطني الاتحادي ، للحفاظ على المكاسب الوطنية ؛ ولكن قال يومها الرئيس البطل الشهيد : "حاشا لله أن نشارك في وأد للنظام الديموقراطي بانقلاب عسكري . . مهما كان نوعه ؛ وخير لنا أن نسقط ويعيدنا الشعب السوداني مرة أخرى . . بالطريق الديموقراطي" .

وهكذا كان الرئيس الخالد !

من أقوال الشهيد: الشريف حسين الهندي

* نحن كحزب . . نقود المعارضة المنظمة في الخارج والداخل ، ومنذ انقلاب مايو وهذا جزء من الاستراتيجية الواضحة المعالم . . لمفاهيم الحزب ومعتقداته .

* إختلافنا مع هذا النظام - من حيث المعتقد المبدئي - تتلخص في الآتي : الحريات العامة والشخصية . . وفي نظام الحزب الواحد ؛ وفي آلة القمع التي تحصي أنفاس الناس ؛ وفي الخطوط العامة للسياسة الاقتصادية . . ناهيك عن عدم اعترافنا المبدئي بشرعيته .

* نحن حزب ليبرالي يقود المعارضة ؛ وموجودون داخل البلاد في الطبقة الوسطى : المثقفين والعمال والزراع والرّحل والرّعاة .

* لا نرجو . . بل ندعو ونسعى ونعمل ، لكي يجتمع العرب - كل العرب - ويتفقوا على قضية واحدة ؛ ثم لهم بعد أن ينصفوها ، أن يختلفوا في الآيديولوجيات .

* نحن في مرحلة . . لا نستطيع أن نسمي الأشياء بمسمياتها الحقيقية الواضحة . فقد عاش شعبنا في ظلم وظلام واستبداد ؛ لا يمكن أن نتجاوزه أو ننساه أو نهمله أو نتغاضى عنه؛ وهذا واجب وطني ، لا يمكن لأي وطني سوداني ، أن يصل لمرتبة الخيانة وفقدان الإحساس ، وقصور الرؤية والجبن السياسي والاجتماعي ؛ فيحيا - مجرد الحياة - دون أن يؤكده ويحدده .

* لقد ظللنا نقاتل النظام من أجل الديموقراطية ، وخلافنا مع النظام هو الديموقراطية نحن نؤمن بإتاحة الحريات الديموقراطية لجميع المواطنين . . حرية العقيدة والنشر والتجمع . . وغيرها من الحريات . ونحن لا نؤمن بذلك داخل السودان فحسب وإنما خارج السودان وفي العالم كله .

* نحن اشتراكيون في ملكية الوسائل الإنتاجية لجماهير الشعب ؛ ولكننا لا نمنع النشاط الفردي المبني على المبادأة . . وعلى الحوافز ؛ على أن يكون هذا نشاط لصالح الوطن وليس للاستعمار . ونحن مع الملكية العامة لوسائل الإنتاج

الأساسية . . ونحن اشتراكيون بهذا القدر . . ولسنا أمميون . ونحن لا نؤمن بتحكم طبقة على طبقة .

* ليس لهذا النظام فلسفة أو معتقد ؛ فهو سلطوي وتظاهري ومتذبذب ونفعي . . في نفس الوقت . وليس له مواقف في قضايا الأمة . . وليس له قاعدة يرتكز عليها . . وستظل سياسته الخارجية باهتة ، لا لون لها ولا استقلالية .

* نحن نؤمن بالوحدة العربية الشاملة ؛ ونحن نؤمن بقضيتنا العربية المركزية في فلسطين ؛ ونحن كنا وراء مؤتمر الخرطوم - ولاءاته الشهيرة .

* إن الرجال والأنفس والأرواح كلها ذاهبة . . وتبقى الأرض . . ويبقى الوطن . . ويبقى الشعب . . ويبقى التاريخ .

* إن إسقاط هذا النظام ليس معجزة من المعجزات ؛ بل هو أمر يرونه بعيداً ونراه قريباً، وأجزم صادقاً . . أننا قاب قوسين أو أدنى من ذلك .

من سيرة الشريف حسين الهندي
نقلاً عن الموسوعة العربية العالمية

الشريف حسين بن الشريف يوسف بن الشريف محمد الأمين الهندي والده زعيم ديني معروف. أحد زعماء السودان الدينيين والسياسيين في النصف الأول من القرن العشرين

ولد ببري ، (أحد أحياء الخرطوم) ، وحفظ القرآن في الخلوة (أولى مراحل التعليم في السودان) ودرس بواد مدني ، ثم في كلية فكتوريا بالإسكندرية بمصر ، ثم في كلية غوردون (جامعة الخرطوم الآن) . بعد سقوط حكم الفريق إبراهيم عبود بالسودان انخرط الشريف حسين الهندي في صفوف الحزب الوطني الاتحادي ، ونجح في الانتخابات البرلمانية واختير لمدير وزارة المالية ، ولم تكن له سابق خدمة بالإدارة الحكومية إذ لم يسبق له أن عمل موظفاً ، بل كان يعمل في القطاع الخاص خارج السودان في أغلب الأحيان.



الشريف وبعض أقاربه وأصهاره بالقاهرة قبل أن يتولى العمل السياسي والإداري

وخلال فترة الحكم الديموقراطي (م) انتخب الهندي نائباً برلمانياً عن دائرة الحوش الشرقية في صفوف الحزب الوطني الاتحادي ثم اختير وزيراً للري عند تأليف وزارة محمد أحمد محجوب الأولى ، ثم وزيراً للمالية وعندما تولى الصادق المهدي رئاسة الوزارة عين الشريف الهندي وزيراً للحكومات المحلية ، ثم ما لبث أن تولى وزارة المالية للمرة الثانية عند قيام وزارة محمد أحمد محجوب الثانية

ومن أعماله أثناء توليه وزارة المالية انه وظف جميع السودانيين المتعلمين من حملة الشهادات ذات المستويات المختلفة من فتيان وفتيات ، وألحق كل أولئك بالقطاع العام فيما عرف ببند العطالة أو بند الهندي .

وطبقت خطة بند العطالة هذه بعد أن سئل وكلاء الوزارات عن عدد الموظفين والموظفات الذين تحتاج إليهم وزاراتهم ، فوجد أن من تقدموا بطلبات للعمل يساوون الوظائف المطلوبة تقريباً ، فما كان من الشريف حسين الهندي ، إلا أن أمر بإجراء التعيين وبذلك رفع من مستوى عدد كبير من العائلات السودانية في العاصمة والأقاليم التي وجدت في تلك السياسة مايزيل عنها كثيراً من العناء الاقتصادي .

اهتم اهتماماً كبيراً بقطاع الزراعة وكان يراه ثروة السودان الحقيقية ، ولذلك دعم المزارعين وساندهم وتبنى قضايا الإنتاج

أما نجاحه السياسي الآخر فقد ظهر عند عقد مؤتمر الملوك والرؤساء العرب في الخرطوم في أغسطس عام ١٩٦٧م . وكان لدبلوماسيته هو ومحمد أحمد محجوب والرئيس إسماعيل الأزهري ما رأب الصدع ، وأزال الخلافات التي كانت بين بعض الدول العربية ، ولقي ذلك المؤتمر تجاوباً من الزعماء العرب وعلى رأسهم الملك فيصل عاهل المملكة العربية السعودية ، والرئيس المصري جمال عبد الناصر ... مما أضفى على الأجواء العربية إخاءً وصفاءً.

عرف بالعمل الميداني والجولات التفقدية والتفاني والوطنية .

بعد قيام ثورة مايو ١٩٦٩م , بقيادة جعفر نميري ، لم يرض الشريف الهندي عن الحكم العسكري ولذلك بقي خارج البلاد لاجئاً سياسياً . . يدير أمور المعارضة

للإطاحة بالحكم العسكري وإحلال الديموقراطية .

قاد الشريف الهندي المعارضة ضد نظام نميري بالتضامن مع الإمام الهادي المهدي . وبعد مقتل الأخير ، كون الجبهة الوطنية للمقاومة ، وبدأ في إثيوبيا ، ثم ليبيا . . وأخيراً في لندن .

كان الهندي أثناء وقوفه في المعارضة ، خارج السودان ، يعمل ويخطط على إسقاط نظام جعفر نميري ، واستطاعت المعارضة أن تشكل جيشاً داخل السودان في يوليو ١٩٧٦م ، وأسقط الخرطوم في يده ثلاثة أيام ، قبل أن يتمكن نظام نميري من استعادة الحكم مرة ثانية .

وعندما عقد نظام نميري صلحاً مع بعض عناصر المعارضة ، وهم حزب الأمة والأخوان المسلمون لم يشترك الشريف حسين الهندي في هذه المصالحة ، وظل في معارضته للحكم العسكري حتى وفاته في أثينا يوم السبت ٩ يناير ١٩٨٢م ، ونقل جثمانه إلى السودان ، ودفن مع والده في ضريحهم ببري من ضواحي الخرطوم .